الفصل

في الملل والأهواء والنحل

تأليف

الإمام أبي محمد علي بن أحمد

المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري

تحقيق

أحمد السيد سيد أحمد علي

الجزء الأول

المكتبة التوفيقية

أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

الفِصَل
في
المِلَل والأهواءِ والنِّحَلِ

تأليف

الإمام أبي محمد علي بن أحمد
المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري

تحقيق

أحمد السيد سيد أحمد علي

الجزء الأول



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt

Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٣/١١٨٨٤
الترقيم الدولي: 977-323-048-1

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تُقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]، ﴿يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيرا ونساء واتّقوا الله الّذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيبا﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فالخير كل الخير في الاقتداء بالنبي ﷺ، واتباع سنته، والتمسك بها والسير على هديها.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر»، أخرجه النسائي، ح (١٠٥).

فإنه لا يخفى ما للعقيدة من دور متميز في حياة المسلمين إيمانًا وسلوكًا فهي الأساس ومن حقها أن تكون لها الأولوية، ومن الواجب على المسلم أن يكون اعتقاده مبنيًا على ما جاء في كتاب الله عز وجل وسنَّة رسوله ﷺ فهما المصدران اللذان يعول عليهما في هذا الشأن.

لذا لم ينشأ النزاع في المسائل العقدية في عهد الصحابة ومن تبعهم بإحسان لقبائلهم على هذا المبدأ لكن لما ظهر من لم يكتف بكتاب الله عز وجل وسنَّة

رسوله ﷺ نشأ النزاع والاضطراب، عندها افترقت الأمة إلى فرق كما أخبر النبي ﷺ بأنه سوف تفترق الأمة إلى بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي ما كانت على ما كان عليه الجيل الأول في العقيدة والعمل والسلوك.

والعقيدة الإسلامية تتسم بالوضوح ففي باب الإلهيات تجد القرآن والسنَّة النبوية المطهرة تتحدث عن الذات الإلهية بدون الدخول في تعقيدات فنجد في باب التنزيه يقول الحق جل جلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[سورة الشورى: ١١] فالله سبحانه ينفي أن يشابهه مخلوق في صفة من صفاته أو فعل من أفعاله.

وجعل السلف ـ رضوان الله عليهم ـ هذه الآية قانونًا للتنزيه، فلم يشغلوا أنفسهم بالكيفيات وعلموا أن صفات الله مخالفة تمامًا لصفات المخلوقين، والقانون الثاني أنهم يثبتون كل الصفات التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه والتي أيدتها السنَّة الصحيحة فلم يؤولوا صفة ولم ينفوا؛ لأن ذلك يعرضهم إلى التقول على الله بغير علم.

فكان مذهبهم الإمرار والتسليم والإقرار دون التدخل في الكيفيات، وأما عن مسألة النبوة فالنبي هو الخاتم ولا نبي بعده، وهو صاحب المعجزات وصاحب المقام المحمود، وصاحب الشفاعة العظمى وصاحب لواء الحمد وصاحب الحوض المورود. . .

وأصحاب النبي ﷺ هم أفضل الأمة وهم السابقون والخلفاء الأربعة أفضل الصحابة على الإطلاق ولا نخوض فيما شجر بينهم وما حدث بينهم فهو عن اجتهاد.

ونقر بجميع السمعيات التي جاء بها الكتاب والسنَّة المطهرة من البعث والنشور. والعرض والحساب والجنة والنار وكذلك نؤمن بأشراط الساعة . . .

هذه هي عقيدة التوحيد التي تبناها السلف ونافحوا عنها، وابن حزم الأندلسي عالم عظيم وصل إلى درجة الاجتهاد، فإن خالف السلف في بعض المسائل فهذا عن علم منه، وأحسب أن يكتب له أجر الاجتهاد ولا شك في أن كل بني آدم خطَّاء.

عملي في الكتاب:

*مراجعته على أكثر من نسخة.

*تخريج الآيات.

* تخريج الأحاديث.

* تخريج الشعر.

* شرح بعض المسائل التي تحتاج إلى بيان.

* ترجمة الأعلام.

* عمل تعليقات على بعض المسائل الخلافية.

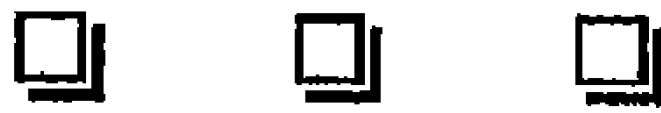
* تبيين بعض اللغويات.

هذا وأسأل الله أن يتقبل عملي ويجعله خالصًا لوجهه، وأشكر كل من ساعدني.

كتبها : **أحمد السيد سيد أحمد علي**

ماچستير في الفلسفة الإسلامية

ت/ ٣٧٦٩٢٧١/ ٠٥٥



ترجمة ابن حزم الأندلسي

التعريف به: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي أبو محمد القرطبي اللبلى بفتح اللام وسكون الموحدة ثم لام الفقيه الظاهري صاحب التصانيف.

مولده وحياته: ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاثة مائة ونشأ في نعمة ورياسة وكان أبوه من الوزراء وولى وزارة بعض الخلفاء من بني أمية بالأندلس ثم ترك واشتغل في صباه بالأدب والمنطق والعربية.

وقال الشعر وترسل ثم أقبل على العلم فقرأ الموطأ وغيره ثم تحول شافعيًا فمضى على ذلك وقت ثم انتقل إلى مذهب الظاهر وتعصب له وصنف فيه ورد على مخالفيه، وكان واسع الحفظ جداًّ إلا أنه لثقة حافظته كان يهجم كالقول في التعديل والتخريج وتبين أسماء الرواة فيقع له من ذلك أوهام شنيعة.

شيوخه: سمع ابن حزم من أبي عمر بن الحسون ويحيى بن بيان وعبدالله بن الربيع وعبدالله بن يوسف بن نامي وتلمذ له ونشر ذكره بالمشرق ولده أبو رافع وروى عنه بالإجازة شريح بن محمد بن شريح المقبري، فكان خاتمة من روى عنه، وكان أول سماعه في سنة أربع مائة.

قال صاعد بن أحمد البربعي: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس كلهم لعلوم الإسلام، وأشبههم معرفة وله مع ذلك توسع في علم البيان وحظ من البلاغة، ومعرفة بالسير والأنساب . . .

وقال مؤرخ الأندلس أبو مروان بن حبان كان ابن حزم حاصل فنون من حديث وفقه ونسب وأدب مع المشاركة في أنواع التعاليم وكان لا يخلو في فنونه من غلط لجرأته في السؤال على كل فن . . . .

قال القاضي أبو بكر بن العربي ابتدأ ابن حزم أولاً فتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب إلى داود ثم خلع الكل واستقل وزعم أنه إمام الأئمة يضع ويرفع ويحكم ويشرع واتفق كونه بين أقوام لا نظر لهم إلا بالمسائل فيطالبهم بالدليل ويتضاحك بهم. . .

ومما يؤخذ على ابن حزم: وقوعه في الأئمة الكبار بأقبح عبارة وأشنع رد وقد وقعت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومنافرات . .

وقال أبو العباس بن العريف الصالح الزاهد: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان.

وقال الغزالي في شرح الأسماء الحسنى: وجدت لأبي محمد بن حزم كلامًا في الأسماء والصفات يدل على عظم حفظه وسداد ذهنه . .

وقال عز الدين بن عبدالسلام: ما رأيت في كتب الإسلام مثل المحلى لابن حزم والمغني للشيخ الموفق(١).

قال أبو عبدالله الحميدي: كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه.

قال اليسع بن حزم الغافقي، وذكر أبا محمد فقال أما محفوظة فبحر عجاج وماء ثجاج يخرج من بحره مرجان الحكم وينبت بثجاجه ألفاف النعم في رياض الهمم، لقد حفظ علوم المسلمين وأربى على كل أهل دين وألف الملل والنحل وكان في صباه يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير أنشد المعتمد فأجاد وقصد بلنسية وبها المظفر . .

مصنفات ابن حزم:

* كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال.
* كتاب الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام.
* المحلى في الفقه في شرح المجلى في ثمانية مجلدات.
* المجلّى.
* حجة الوداع.
* قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي.
* الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها.
* الجامع في صحيح الحديث بلا أسانيد.

---

(١) لسان الميزان: (١٩٧/٤ ـ ٢٠٢).

* التلخيص والتخليص في المسائل النظرية.
* ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي.
* اختلاف الفقهاء الخمسة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداود.
* التصفح في الفقه.
* التبيين في هل علم المصطفى أعيان المنافقين.
* الإملاء في شرح الموطأ.
* الإملاء في قواعد الفقه.
* در القواعد في فقه الظاهرية.
* الإجماع.
* كتاب الفرائض.
* الإحكام لأصول الأحكام.
* الفِصَل في الملل والنحل (مجلدان كبيران).
* الرد على من اعترض على الفصل.
* اليقين في نقض تمويه المتعذرين عن إبليس وسائر المشركين.
* الرد على ابن زكريا الرازي.
* الترشيد في الرد على كتاب الفريد لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات (مجلد).
* الرد على من كفر المتأولين من المسلمين.
* مختصر علل الحديث.
* التقريب لحد المنطق.
* الاستجلاب.
* نسب البربر.
* نقط العروس.

* رسالة التأكيد ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس.
* فضائل الأندلس.
* رسالة في معنى الفقه والزهد.
* مراتب العلماء وتواليفهم.
* التلخيص في أعمال العباد.
* الإظهار لما شنع به على الظاهرية.
* نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد.
* مختصر الملل والنحل.
* الدرة فيما يلزم المسلم.
* مسألة في الروح الرد على إسماعيل اليهودي.
* الإيمان.
* ولابن حزم رسالة في الطب النبوي . .
* وذكر الذهبي كتبًا أخرى.

وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء شرد عن وطنه، فنزل بقرية له، وجرت له أمور، وقام عليه جماعة من المالكية وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومنافرات ونفر منه ملوك الناحية فأقصته الدولة، وأحرقت مجلدات من كتبه وتحول إلى بادية ليلة في قرية.

قال أبو الخطاب بن دحية: كان ابن حزم قد برص من أكل اللبان وأصابه زمانه وعاش ثنتين وسبعين سنة غير شهر.

ولابن حزم مناي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل باد وحاضر، دعاء إلى القرآن والسنن التي تناسى رجال ذكرها في المحاضر، وألزم أطراف الثغور مجاهدًا، إذا هيعة ثارت، فأول نافر لألقى حمامي مقبلاً غير مدبر، بسمر العوالي والرقاق البواتر كفاحًا مع الكفار في حومة الوغي، وأكرم موت للفتى قتل كافر.

فيا رب لا تجعل حمامي بغيرها، ولا تجعلني من قطين المقابر.

ومن شعره :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرةٌ ساعة ... تولتْ كمرِّ الطرف واستخلصتْ حزنا
إلى تبعاتٍ في المعادِ وموقفٍ نود ... لديه أننا لم نكن كُنّا
حنينٌ لما ولي وشغل بما أتى ... وهمٌّ لما نخشى فعيشك لا يهنا
حصلنا على همٍّ وإثمٍ وحسرةٍ ... وفاتَ الذي كنّا نلذ به عنّا
كأنّ الذي كنّا نسرُّ بكونه ... إذا حققته النفسُ لفظٌ بلا معْنَى

وشعره فحل وكان ينظم البديه ومن شعره[1]:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي أن مطلعي الغربُ
ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ ... لجدّ عليّ ما ضاعَ من ذكرى النهبُ
ولي نحو أكناف العراق صبابةٌ ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصبْ
فإن يُنزل الرحمنُ رحلي بينهمْ ... فحينئذٍ يبدو التأسف والكربْ
هُنالك يدري أن للبعدِ قصةً ... وأن كساد العلم آفتهُ الغربْ

ومن نظم أبي محمد :

لم أشكُ صدا ولم أذعن بهجرانِ ... ولا شعرت مدى دهري بسلوانِ
أسماءٌ لم أدرِ معناها ولا خطرتْ يومًا ... عليَّ ولا جالتْ بميداني
لكنما دائي الأدوا الذي عصفت على ... أرواحه قدمًا فأعياني
تفرق لم تزل تسري طوارقُه ... إلى مجامع أحبابي وخلاني

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤ ـ ٢١٢)، الأعلام (٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥) نفح الطيب (١/ ٣٦٤)، وآداب اللغة (٣/ ٩٦)، وأخبار الحكماء ١٥٦، وإرشاد الأريب (٥/ ٨٦ / ٩٧) وابن خلكان (١/ ٣٤٠، واللباب (١/ ٢٩٧)، والتبيان ـ خ).

ومن شعـــره :

قــالوا تحـفظ فإن الـناس قد كـثـرت ... أقــوالـهم وأقــاويل الورى مـــحنْ
فقلت هل عيبهم لي غير أنّي لا أقول ... بــالــرأى إذ فــي رأيــهـــم فــتنْ
وأنني مـولعٌ بالنصِّ لستُ إلى سواه ... أنـحـــــو ولا فـي نـصـــره أهِنْ
لا أنثني لمقـــاييسٍ يُقــالُ بـهـــا ... في الدّين بل حـسبي القـرآن والسننُ
يا بَـرد ذا القــــول فـي قلـبي وفـي ... كبـدى ويا سُروري به لو أنهم فطنُوا
دعهم يعضوا على صُمِّ الحصى كمدًا ... من مـات مـن قـوله عندي لـه كـفنُ



بســـم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المصنف

بسم الله الرحـمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا مـحمـد وآله وأصحـابه وسلم تسليمًا كثيرًا. قال الشيخ الإمام الأوحد، الحافظ، العلم، ناصر الدين أبو محمد على ابن أحمد بن سعيد بن حزم (رضي الله عنه):

الحمد لله حـمدًا كثيرًا، وصلى الله على محـمد عبده ورسوله وخـاتم أنبيائه بكرة وأصيلاً، وسلم تسليمًا.

أما بعد: فإن كثـيرًا. من الناس كتبوا فى افتراق الناس فى دياناتهم ومـقالاتهم كتبًا كثيرة جدًا، فـبعضٌ أطال وأسهب، وأكثر وهجَّر واستـعمل الأغاليظ والشغب، فكان ذلك شاغلاً عن الفـهم، وقاطعًا دون العلم. وبعضٌ حذف وقصّر، وقلّـل واختصر، وأضرب عن كثـير من قوىّ معـارضات أصحاب المقالات فكان فى ذلـك غير منصف لنفسه فى أن يرضى لها بالغبن فى الإبانة وظالمًا لخصـمه فى أن لم يوفِّه حق اعتراضه، وباخسًا حقّ من قرأ كـتابه؛ إذ لـم يغنّد به غيره. وكلهم -إلاّ تحلّه القسم- عـقد كلامه تعقيدًا يتعـذر فهمه على كثير من أهل الفهم، وحلّق على المـعانى من بعد حتى صار يُنسى آخرُ، كلامه أولّه، وأكـثر هذا منهم ستائر دون فساد معـانيهم، فكان هذا عملاً منهم غير محمود فى عاجله وآجله.

قال أبو محمد: فجمعنا كتابنا هذا مع استخارتنا لله عزَّ وجلَّ فى جمعه وقصدنا به إيراد البراهين المنتجـة عن المقدّمات الحسية أو الرَّاجعـة إلى الحسِّ من قرب أو من بُعد على حسب قيام البراهين التى لا تخون أصـلاً مخرِّجه إلى ما أخرجت له، وألاَّ يصح منه إلاَّ ما صـححت البراهين المذكورة فـقط، إذ ليس الحق إلا ذلك، وبالغنا فى بيان اللفظ وترك التعـقيد، راجين من الله عـزَّ وجل على ذلك الأجر الجـزيل، وهو تعالى ولىّ من تولاّه، ومعطى من استعطاه لا إله إلاّ هو، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال أبو محمد: فنقول وبالله التوفيق: رؤوس الفرق المخالفة لدين الإسلام ستٌّ، ثم تتفرق كل فرقة من هذه الفرق السِّتِّ على فرق، وسأذكر جماهيرها إن شاء الله تعالى.

فالفرق السِّت التى ذكرناها على مراتبها فى البعد عنّا.

أولاها: مبطلو الحقائق: وهم الذين يسميهم المتكلمون «السوفسطائية».

وثانيتها: القائلون بإثبات الحقائق، إلاَّ أنهم قالوا: إنَّ العالَمَ لم يزل، وأنه لا محدث له ولا مدبر.

وثالثتها: القائلون بإثبات الحقائق، وأن العالم لم يزل، وأنَّ له مدبِّراً لم يزل.

ورابعتها: القائلون بإثبات الحقائق. وقال بعضهم: إنَّ العالم لم يزل، وقال بعضهم: بل هو محدث. واتفقوا على أنَّ له مدبِّرين لم يزالوا، وأنهم أكثر من واحد، واختلفوا فى عددهم.

وخامستها: القائلون بإثبات الحقائق، وأن العالَمَ محدَث، وأن له خالقًا واحداً لم يزل، وَأبطلوا النبوَّاتِ كلَّها.

وسادستها: القائلون بإثبات الحقائق، وأن العالم محدَث، وأن له خالقًا واحداً لم يزل، وأثبتوا النبوَّات، إلاَّ أنهم خالفوا فى بعضها فأقروا ببعض الأنبياء عليهم السلام، وأنكروا بعضهم.

قال أبو محمد: وقد تحدث فى خلال هذه الأقوال آراء هى منتجةٌ من هذه الرؤوس، ومركبة منها، فمنها ما قد قالت به طوائف من الناس مثل ما ذهبت إليه فرق من الأمم من القول بتناسخ الأرواح أو القول بتواتر النبوَّات فى كلِّ وقت، وأنَّ فى كل نوع من أنواع الحيوان أنبياء، ومثل ما قد لقيت جماعة من القائلين به، وناظرتهم عليه من القول بأن العالم محدث وله مدبِّر لم يزل، إلاَّ أن النفس والمكان المطلق، وهو الخلاء والزمان المطلق لم تزل معه.

قال أبو محمد: وهذا قول قد ناظرنى عليه عبد الله بن خلف بن مروان الأنصارى، وعبد الله بن محمد السلمى الكاتب، ومحمد بن على بن أبى الحسين الأصبحى الطبيب، وهو قول يؤثر عن محمد بن زكريا الرازى الطبيب[1]، ولنا عليه فيه كتاب مفرد فى نقد كتابه فى ذلك، وهو المعروف بالعلم الإلهى، وكمثل ما ذهب

---

(١) محمد بن زكريا الرازي، أبو بكر: فيلسوف من الأئمة في صناعة الطب. من أهل الرى. ولد وتعلم بها. سافر إلى بغداد بعد سن الثلاثين. يسميه كتاب اللاتينية «رازيس». أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر، في صغره، واشتغل بالسيمياء والكيمياء ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره فنبغ واشتهر. وتولى تدبير مارستان المقتدري في بغداد:

=

إليه قومٌ من أن الفلك لم يزل، وأنه غيـر الله تعالى، وأنه هو المدبر للعالم الفاعل له إجلالاً بزعـمهم لله عـزّ وجل عن أن يوصف بأنه فعل شـيئًـا من الأشيـاء وقد كنّى بعضهم عن ذلك بالعـرش. ومنها ما لا نعلم أن أحدًا قال به إلاّ أنه غـير الله تعالى، وأنه هو المدبر للعالم الفاعل له إجلالاً بزعـمهم لله عزّ وجل عن أن يوصف بأنه فعل شيئًا من الأشياء وقد كنّى بعضهم عن ذلك بالعرش. ومنها ما لا نعلم أن أحدًا قال به إلاّ أنه مما لا يؤمن أن يقول به قائل من المخالفين عند تطبيق الحـجج عليهم، فيلجئون إليها، فلا بدّ إن شاء الله تعالى من ذكر ما يقتضيه مساق الكلام منها.

وذلك مثل القـول: بأنّ العالم مـحدَث ولا محـدَث له، فلا بدّ بحـول الله تعالى من إثبات المحدِث بعد الكلام فى إثبات الحدوث، وبالله تعالى التوفيق والعون لا إله إلاّ هو.

باب مختصر جامع فى ماهية البراهين الجامعة الموصلة إلى معرفة الحق فى كل ما اختلف فيه الناس وكيفية إقامتها

قال أبو مـحمد: هذا باب قد أحكمناه فى كـتابنا المرسوم بـ «التقـريب فى حدود الكلام» وتقصـيناه هنالك غاية التـقصى والحـمد لله رب العالمين. إلاّ أننا نـذكر هاهنا جملة كافية لتكون مقدمة لما يأتى بعدهم مما اختلف الناس فيه، يرجع إليها إن شاء الله تعالى عزّ وجل فنقول وبالله التوفيق:

إن الإنسان يخرج إلى هذا العالم ونفسه قـد ذهب ذكرها جملة فى قول من يقول: إنها كانت قبل ذلك ذاكرة، أو لا ذكر لها ألبتة فى قول من يقول: إنها حدثت حينئذ، أو أنها مزاح عـرض، إلا أنه قد حصل أنه لا ذكر للطفل حين ولادته ولا تميـيز إلاّ ما لسائر الحـيوان من الحسِّ والحركة الإرادية فـقط، فتراه يقبض رجليـه ويمدّهما، ويقلب أعضـاءه حسب طاقـته، ويألم إذا أحسَّ البـرد، أو الحرّ، أو الجـوع، وإذا ضُرب، أو قُرِص، وله سـوى ذلك مما يشاركـه فيه الحـيوان والنوامى مما ليس حـيوانًا، من طلب الغذاء لبقـاء جسمه على مـا هو عليه ولنمائه، فيـأخذ الثدى ويميزه بطبـعه -من سائر الأعضاء- بفيـه دون سائر أعضائه، كما تأخذ عـروقُ الشجر والنبات رطوبات الأرض والماء لبقـاء أجسامهـا على ما هى عليه، ولنمـائها، فإذا قـويت النفس على قول من

= له تصانيف سمى ابن أبي أصيبعـة منها ٢٣٢ كتابًا ورسالة. منها «الحـاوي ـ خ» في صناعـة الطب وهـو أجلُّ كـتبـه و«الطب المنصوري ـ خ»، و«الفـصول في الطب» .... (الأعـلام ٦/ ١٣٠، ابن النديم ١/ ٢٩٩ وطبقات الأطباء ١/ ٣٠٩ ـ ٣٢١).

يقول: إنها مزاج، أو إنهـا حدثت حينئذ، أو أخذت يعاودها ذكـرها وتمييزها فى قول من يقول: إنها كانت ذاكـرة قبل ذلك، أو إنها كالمفيق من مرض فـأول ما يحدث لها من التـمـيـيز الذى ينفـرد به الناطق من الحيـوان فهمُ مـا أدركت بحواسّـها الخـمس، كعلمها: أن الرائحة الطيبة مقبولة من طبعها، والرائحة الرديئة منافرة لطبعها، وكعلمها أن الأحمر مـخالف للأخضر، وللأصـفر وللأبيض، وللأسود، وكالفـرق بين الخشن والأملس، والمكتنـز والمتـهيـل واللزج، والحـار البـارد والدافىء وكـالفـرق بين الحلو والحامض، والمرّ والمالح والعـفص، والزاعق والتفه، والعذب والحـريف، وكالفرق بين الصوت الحادّ والغليظ، والرقيق والمطرب والمفزع.

قال أبو محمد: فهذه إدركات الحواس لمحسوساتها.

والإدراك السادس: علمها بالبدهيات، فمن ذلك علمها بأن الجزء أقلُّ من الكل، فإنَّ الصبيَّ الصغير فى أوّل تمييـزه إذا أعطيته تمرتين بكى، وإذا زدته ثالثة سُرَّ، وهذا علم منه بأن الكل أكثرُ من الجزء، وإن كان لا يتنبه لتـحديد ما يعرف من ذلك، ومن ذلك علمه بأن لا يجتمع المتضـادَّان، فإنك إذا وقَّفته قسراً بكى ونازع إلى الـقعود، علمًا منه بأنه لا يكون قائمًا قاعدًا معًـا. ومن ذلك: علمه بأنه لا يكون جسم واحد فى مكانين، فإنه إذا أراد الذهاب إلى مكان مّا فأمـسكته قسراً بكى، وقال كلامًـا معناه: دعنى أذهب، علمًا منه بأنه لا يكون فى المكان الذى يريد أن يذهب إليه مـا دام فى مكان واحد. ومن ذلك: علمه بأنه لا يكون الجسمـان فى مكان واحد؛ فإنك تراه ينازع على المكان الذى يريد أن يقعد فيه، علمًا منه بأنه لا يسعـه ذلك المكان مع ما فيه، فيدفع مَنْ فى ذلك المكان الذى يريد أن يقعد فيه إذ يعلم أنه ما دام فى المكان ما يشغله فإنه لا يسعه وهو فيه.

وإذا قلت له ناولنى ما فى هذا الحائط وكـان لا يدركه قال: لست أدركه وهذا علم منه بأن الطويل زائد على مـقدار ما هو أقصـر منه، وتراه يمشى إلى الشىء الذى يريد ليصل إليه، وهذا علم منه بأن ذا النهاية يحصـر ويقطع بالعدو، وإن لم يحسن العبارة بتحـديد ما يدرى من ذلك. ومنهـا: علمه بأنه لا يعلم الغـيب أحد، وذلك أنك إذا سألته عن شىء لا يعـرفه أنكر ذلك وقال: لا أدرى. ومنها: فَـرقُه بين الحق والباطل فإنه إذا أخبر بخبر تجده فى بعض الأوقـات لا يصدّقه حتى إذا تظاهر عنده بخبر آخر وآخر صدّقه وسكن إلى ذلك. ومنها: علمه بأنه لا يكون شىء إلا فى زمان فإنك إذا ذكرت له أمراً مّا قال: متى كان؟ وإذا قلت له: لِمَ تفعل كذا وكذا، قال: متى كنت

أفـعله؟ وهذا علـم منه بأنه لا يكون شيء مما في الـعـالم إلاَّ في زمـان، ويَعْـرِفُ أن للأشياء طبائع وماهية تقف عندها ولا تتجاوزها، فتراه إذا رأى شيئًا لا يعرفه قال: أيّ شيء هذا؟! فإذا شرح له سكت. ومنها: علمـه بأنه لا يكون فعل إلاَّ من فاعل، فإنه إذا رأى شيئًا قال: من عمل هذا؟ ولا يقنع ألبتة بأنه انعمل بدون عامل. وإذا رأى بيد آخر شيـئًا قال: من أعطاك هذا؟ ومنها: مـعرفته بأن في الخـبر صدقًا أو كـذبًا، فتراه يكذِّب بعض ما يُخْبَرُ به، ويُصدِّق بعضه، ويتوقف في بعضـه. هذا كلّه مشاهد من جميع الناس في مبدأ نشأتهم.

قال أبو محمد: فهذه أوائل العقل التي لا يختلف فيها ذو عقل، وهاهنا أيضًا أشياء غير ما ذكرنا إذا فُتِّشت وجدت وميزها كل ذي عقل من نفسه ومن غيره، وليس يدري أحد كيف وقع له العلم بهذه الأشياء كلها بوجه من الوجوه.

ولا يشك ذو تمييـز صحيح في أن هذه الأشـياء كلها صحـاح لا امتراء فيـها، وإنما يَشُكُّ فيـها بعد صحـة علمه بها من دخلت عَقْلَه آفـةٌ وفسد تمييـزه أو مال إلى بعض الآراء الفـاسدة فكان ذلك أيضًـا آفة دخلت علـى تمييـزه كالآفـة الدَّاخلة على من به هيجان الـصفراء فيجـد العسل مرًّا، ومن في عينه ابتداء نزول الماء فـيرى خيالات لا حقيقة لها، وكسائر الآفات الدَّاخلة على الحواسِّ.

قال أبو محمد: فهذه المقدمات الصحاح التي ذكرنا هي التي لا شك فيها، ولا سبيل إلى أن يَطلُب عليها دليلاً إلا مجنونٌ أو جاهلٌ لا يعلم حقائق الأشياء ومَن الطفل أهدى منه، وهذا أمر يسـتوي في الإقرار به كـبارُ جمـيع بني آدم عليه السلام وصـغارهم في أقطار الأرض، إلاَّ من غالط حسَّه، وكابر عقلَه، فيلحق بالمجانين، لأن الاستدلال على الشيء لا يكون إلاَّ في زمـان، ولابدّ ضرورة أن يُعلم ذلك بأوّل العقـل، لأنه قد عُلِم بضرورة العـقل: أنه لا يكون شيء مما في العالم إلاَّ في وقـت، وليس بين أوّل أوقات تميز النفس في هذا العالم، وبين إدراكها لكل ما ذكرنا مهلة ألبتة، لا دقيقة ولا أقل ولا أكثر فلا سـبيل إلى الاستدلال عليها، إذ لا وقت يمكن فيـه الاستدلال على ذلك فصح أنها ضرورات أوقعها الله تعالى في النفـس، ولا سبيل إلى الاستدلال ألبتة إلاَّ من هذه المقدمـات، ولا يصح شيء إلاَّ بالردّ عليها، فـما شهدت لـه مقدمة من هذه المقـدمات بالصحة فهو صحيح متيقَّن، وما لم تشهد له بالصحة فهو باطل ساقط.

إلاَّ أن الرجوع إليها قد يكون من قُرب، وقد يكون من بُعد، فما كان من قُرب فهو

أظهر إلى كل نفس، وأمكن للفهم، وكلما بعدت المقدّمات المذكورة صعب العمل فى الاستدلال حتى يقع فى ذلك الغلط إلا للفَهِم القويِّ الفَهْم والتمييز، وليس ذلك مما يقدح فى أن ما رجع إلى مقدّمة من المقدّمات التى ذكرنا حق، كما أن تلك المقدمة حق، لا فرق بينهما فى أنهما حقٌّ، وهذا مثل الأعداد فكلما قلّت الأعداد سهل جمعها ولم يقع فيها غلط، حتى إذا كثرت الأعداد وكثر العمل فى جمعها صعب ذلك حتى يقع فيها الغلط إلاَّ للحاسب الكافى المجيد، وكلٌّ ما قرب من ذلك وبعد فهو كلّه حق، ولا تَفَاضُل فى شىء من ذلك، ولا تُعارضُ مقدمة كما ذكرنا مقدمةً أخرى منها، ولا يعارض ما يرجع إلى مقدِّمة أخرى منها رجوعًا صحيحًا، وهذا كله يعلم بالضرورة. ومن علم النفس بأن علم الغيب لا يعرف صحَّ ضرورة أنه لا يمكن أن يحكى أحد خبرًا كاذبًا طويلاً فيأتى من لم يسمعه فيحكى ذلك الخبر بعينه كما هو لا يزيد فيه ولا ينقص إذ لو أمكن ذلك لكان الحاكى لمثل ذلك الخبر عالمًا بالغيب، لأن هذا هو علم الغيب نفسه، وهو الإخبار عما لا يعلم المخبر عنه بما هو عليه، فإن ذلك بلا شك فكل ما نقله من الأخبار اثنان فصاعداً مفترقان قد أيقنا أنهما لم يجتمعا ولا تشاعرا فلم يختلفا فيه، فبالضرورة يعلم أنه حقٌّ متيقَّن مقطوع به على غيبه، وبهذا علمنا صحّة موت من مات وولادة من ولد، وعزل من عزل، وولاية من ولى، ومرض من مرض، وإفاقة من أفاق، ونكبة من نكب، والبلاد الغائبة عنّا، والوقائع والملوك، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ودياناتهم، والعلماء وأقوالهم، والفلاسفة وحكمهم، لا شك عند أحدٍ يوفِّى عقله حقه فى شىء مما نقل من ذلك مما ذكرنا، وبالله تعالى التوفيق.

❑ ❑ ❑

القسم الأول
« السوفسطائية »
باب الكلام على أهل القسم الأول
وهم مبطلو الحقائق وهم السوفسطائية

قال أبو محمد: ذكر من سلف من المتكلمين أنهم ثلاثة أصناف[1]؛ فصنف منهم نفى الحقائق جملة، وصنف منهم شكُّوا فيها، وصنف منهم قالوا: هى حقٌّ عند من هى عنده حق، وهى باطل عند من هى عنده باطل.

وعمدة ما ذكر من اعتراضهم: هو اختلاف الحواس فى المحسوسات، كإدراك البصر مَنْ بَعُدَ عنه صغيراً؛ ومن قَرُبَ منه كبيراً، وكوجود من به حمى صفراء حلو المطاعم مرًّا، وما يرى فى الرؤيا مما لا يشك فيه رائيه أنه حقٌّ من أنه فى البلاد البعيدة.

قال أبو محمد: وكل هذا لا معنى له، لأن الخطاب وتَعاطى المعرفة إنما يكون مع أهل المعرفة، وحسُّ العقل شاهد بالفرق بين ما يخيّل إلى النائم، وبين ما يدركه المستيقظ، إذ ليس فى الرؤيا من استعمال الجرى على الحدود المستقرة في الأشياء المعروفة، وكونها أبدًا على صفة واحدة ما فى اليقظة، وكذلك يشهد الحسُّ أيضًا بأنَّ تبدّل المحسوس عن صفته اللازمة له تحت الحس إنما هو لآفة فى حسِّ الحاسِّ له لا فى المحسوس، جارٍ كل ذلك على رتبة واحدة لا تتحول، وهذه هى البداية والمشاهدات التى لا يجوز أن يطلّب عليها برهان إذ لو طُلب على كل برهان برهانٌ لاقتضى ذلك وجود موجودات لا نهاية لها، ووجود أشياء لا نهاية لها محالٌ لا سبيل إليه، على ما سنبينه

(١) تحول السوفسطائيون عن الفلسفات الطبيعية إلى دراسة الإنسان، ذهب السوفسطائيون إلى أن الحقيقة أمر نسبي تختلف باختلاف العقول وأخذوا يبحثون في جميع المعارف الإنسانية..،
ومن أشهر فلاسفتهم (بروتا جوارس) ٤٨٠ ـ ٤١٠ ق م، الذي ألَّف كتابًا أسماه «الحقيقة» جاء في أول عبارة «لا أستطيع أن أعلم إن كان الألهة موجودين أم غير موجودين ...» فاتهم بالإلحاد وحكم عليه بالإعدام وأحرقت كتبه علنًا.
ومن فلاسفتهم أيضًا «غورغياس» ٤٨٠ ـ ٣٧٥ ق م وضع كتابًا في «اللا وجود» أورد فيه قضايا ثلاثًا: الأولى: لا يوجد شيء، الثانية: إذا كان هناك شيء فالإنسان قاصر عن إدراكه، الثالثة: إذا فرضنا أن إنسانًا أدركه فلن يستطيع أن يبلغه لغيره من الناس... انظر حاشية الطوسى ٢٣، ودراسات في الفلسفة ٥٢.

إن شاء الله تعالى. والذى يطلب على البرهان برهانًا فـهو ناطق بالمحال، لأنه لا يفعل ذلك إلا وهو مثبت لبرهان مّا، فإذا وقف عند البرهان الذى ثبت لزمه الإذعان له.

فإن كان لا يُثبت برهانًا فلا وجه لطلبه مـا لا يثبته لو وجده، والقول بنفى الحقائق مكابرة للعقل والحسّ.

ويكفى من الردّ عليهم أن يقـال لهم: «قولُكم إنه لا حقيقـة للأشياء»، أحقٌّ هو أم باطل؟ فإن قالوا «هو حق» أثبـتوا حقيقة مّا، وإن قالوا: «لـيس هو حقًا» أقرُّوا ببطلان قولهم، وكفوا خصومهم أمرهم.

ويقال للشُّكاك منهم -وبالله تعالى التوفيق-: أشكُّكم موجود صحيح منكم أم غير صحيح ولا موجـود؟ فإن قالوا: هو موجود صحـيح منّا أثبتوا أيضًا حقـيقة مّا، وإن قالوا: هو غير موجود نفـوا الشك وأبطلوه. وفى إبطال الشك إثبات الحقائق أو القطع على إبطالها.

وقد قدّمنا بعون الله تعالى إبطال قول من أبطله فلم يبق إلا الإثبات.

ويقال ـ وبالله التـوفيق ـ لمن قـال هى حق عند من هى عنده حق، وهى باطل عند مَن هى عنده باطل: إن الشيء لا يكون حـقًا باعتقـاد من اعتقد أنه حق، كـما أنه لا يبطل باعتقاد مـن اعتقد أنه باطل. وإنما يكون الشىء حقًا بكونه مـوجودًا ثابتًا، سواء اعتُقـد أنه حق أو اعتُقد أنه باطل. ولو كان غـير هذا لكان معدومًا مـوجودًا فى حال واحدة فى ذاته. وهذا عين المحال.

وإذا أقروا بأن الأشيـاء حق عند من هى عنده حق، فمن جملة تلك الأشـياء التى تُعتَقد أنهـا حق عند من يعتقد أن الأشياء حق بطلانُ قـولِ من قال إن الحقائق باطلة، وهم قد أقـروا أن الأشياء حق عند من هي عنده حق، وبطلان قـولهم من جملة تلك الأشياء فقد أقروا بأن بطلان قولهم حق، مـع أن هذه الأقوال لا سبيل إلى أن يعتقدها ذو عقل ألبتة، إذ حسّه يشهد بخـلافها؛ وإنما يمكن أن يلجأ إليها بعض المُتَنَطِّعين على سبيل الشغب. وبالله تعالى التوفيق.

القسم الثانى

من قال بأن العالم لم يزل وأنه لا مدبر له

قال أبو محمد: لا يخلو العالم من أحد الوجهين: إمّا أن يكون لم يزل أو أن يكون مُحدثًـا لم يكن ثم كان. فذهبت طائفة إلى أنـه لم يزل وهم الدّهرية، وذهبت طائفة من الناس إلى أنه مُحدَث.

فنبتدىء بحـول الله تعالى وقوته بإيراد كل حجة شغب بهـا القائلون بأن العالم لم يزل، وتوفيـة اعتراضهم بهـا، ثم نبين بحول الله تعالى نقـضَها وفسـادَها، فإذا بطل القول بأنه لم يزل وجب القول بالحدوث وصـح؛ إذ لا سبيل إلى وجه ثالث، لكنا لا نقنع بذلك حتى نأتى بالبراهين الظاهرة والنتائج الموجبة والقضايا الضرورية على إثبات حدوث العالم.

ولا قوة إلاَّ بالله العلى العظيم.

الاعتراض الأول:

فمما اعترضوا به أن قالوا: لم نر شيئًا حدث إلاَّ من شىء أو فى شىء، فمن ادّعى غير ذلك فقد ادَّعى ما لا يُشاهَد ولم يُشَاهَد.

الاعتراض الثانى:

وقـالوا أيضًا: لا يخلـو مُحـدِثُ الأجسـام -الجـواهر والأعراض، وهى كل مـا فى العالم- إن كان العلَم مُـحدَثًا من أن يكون أحْدثه لأنه، أو أحدثه لعلة، فـإن كان أحدثه لأنّه؛ فالعالم لم يزل لأنَّ مـحدثه لم يزل إذ هو علة خلقه فالعلّـة لا تفارق المعلول، وما لم يفارق من لم يزل فهو أيضًا لم يزل، إذ هو مثله بلا شك؛ فالعالم لم يَزَل.

وإن كان أحدثه لعلة، فتلك العلَّة لا تخلو من أحد وجهين، إما أن تكون لم تزل وإما أن تكون محدثة.

فإن كانت لم تزل فمعلولها لم يزل، فالعالم لم يَزَل.

وإن كانت تلك العلة مُحـدَثة لزم من حدوثها ما لزم فى حدوث سـائر الأشياء من أنه أحدثها لأنه، أو لعلة.

فإن كان لعلة لزم ذلك أيضًا فى علة العلة، وهكذا أبدًا.

وهذا يوجب وجوب محدثات لا أوائل لها. قالوا: وهذا قولنا.

قالوا: وإن كان أحدثها لأنه، فهذا يوجب أن العلّة لم تزل. كما بينا آنفًا

الاعتراض الثالث:

وقالوا أيضًا: إن كان للأجسام مُحدث لم يخل من أحد ثلاثة أوجه:

إمّا أن يكون مثلها من جميع الوجوه.

وإمّا أن يكون خلافَها من جميع الوجوه.

وإمّا أن يكون مثلها من بعض الوجوه وخلافَها من بعض الوجوه.

قالوا: فإن كان مثلَها من جميع الوجوه لزم أن يكون مَحدثًا مثلها، وهكذا فى مُحْدَثه أيضًا أبدًا.

وإن كان مثلها فى بعض الوجوه لزمه أيضًا من مماثلتها فى ذلك البعض ما يلزمه من مماثلته لها فى جميع الوجوه من الحدوث، إذ الحدوث لازم للبعض كلزومه للكل ولا فرق.

وإن كان خلافَها من جميع الوجوه فمحال أن يفعلها، لأن هذا هو حقيقة الضد والتناقض إذ لا سبيل إلى أن يفعل الشَّىء ضدَّه من جميع الوجوه كما لا تفعل النارُ التبريد.

الاعتراض الرابع:

وقالوا: أيضًا: لا يخلو إن كان للعالم فاعل من أن يكون فَعلَه لإحراز منفعة، أو لدفع مضرة، أو طباعًا، أو لشىء من ذلك.

قالوا: فإن كان فعله لإحراز منفعة، أو لدفع مضرة، فهو محل المنافع والمضار وهذه صفة المحدثات عندكم فهو محدَث مثلُها.

قالوا: وإن كان فعله طباعًا فالطباع موجبة لما حدث بها فالفعل لم يَزَل معه.

قالوا: وإن كان فعله لا لشىء أصلاً فهذا لا يعقل، وما خرج عن المعقول فمحال.

الاعتراض الخامس:

وقالوا أيضًا: لو كانت الأجسام محدثة لكان مُحدثها قبل أن يحدثها فاعلاً لتركها، قالوا وتركها لا يخلو من أن يكون جسمًا أو عرضًا. وهذا يوجب أن الأجسام والأعراض لم تزل موجودة.

قال أبو محمد: فهذه المشاغب الخمس هى كل ما عوّل عليه القائلون بالدّهر قد تقصيناها لهم. ونحن إن شاء الله نبدأ بحول الله وقوته فى مناظرتهم فننقضها واحدًا واحدًا.

إفساد الاعتراض الأول:

قال أبو محمد: يقال وبالله التوفيق والعون لمن قال لم نر شيئًا حدث إلاَّ من شىء أو فى شىء:

هل تُدرَك حقيقة شىء عندكم من غير طريق الرؤية والمشاهدة، أو لا يدرك شىء

من الحقائق إلاَّ من طريق الرؤية فقط؟

فإن قالـوا: إنه قد تدرك حقائق من غـير طريق الرؤية والمشاهدة تركوا اسـتدلالهم وأفسدوه، إذ قد أوجـبوا وجود أشياء من غير طريق الرؤيـة والمشاهدة، وقد نفوا ذلك قبل هذا.

فإذا صـاروا إلى الاستـدلال نوظروا فى ذلك إلاَّ أن دليلهم هذا على كل حـال قد بطل بحمد الله تعالى.

فإن قالوا: لا يدرك شيء إلاَّ من طريق الرؤية والمشاهدة.

قيل لهم: فهل شاهدتم شيئًا قط لم يَزل؟

فلابدَّ من نَعَم أو لا. فإن قالوا لا، صدقـوا وأبطلوا استدلالهم. وإن قالوا: نعم، كابروا وادّعوا ما لا سبيل إلى مشـاهدته، إذ مشاهدة قائل هذا القول للأشياء هى ذاتُ أوَّل بلا شك، وذو الأول هو غـير الـذى لم يزل، لأن الذى لم يزل هو الذى لا أول له، ولا سبـيل إلى أن يُشَـاهدَ ما له أوَّلٌ ما لا أوَّل لـه مشَاهدة مـتصلة. فـبطل هذا الاستدلال على كل وجه. والحمد لله رب العالمين.

إفساد الاعتراض الثانى:

قال أبو محمد: ويقال لمن قـال لا يخلو من أن يفعَل لأنَّه، أو لعلّة: هذه قسـمة ناقصـة. وينقص منها القـسم الثالث وهو الصـحيح وهو أنه فَـعَل لا لأنّه، ولا لعلّة أصلاً، لكن كما شاء.

لأن كلا القـسمين المذكورين أوَّلاً، وهمـا: أنَّـه فعل لأنّه، أو لعلّة، فـقد بطلا بما قدّمنا هـنالك، لأن العلّة توجب إما الفـعل وإمّا التـرك، وهو تعالى يفعـل ولا يفعل فصحّ بذلك أنّه لا علّة لفعله أصلاً، ولا لتركه ألبتة.

فبطل هذا الشغب، والحمد لله رب العالمين.

فإن قالوا: إنَّ تركَ البارى تعالى فى الأزل فعْلٌ منه للترك، فَفعلُه الذى هو الترك لم يزل. قلنا وبالله تعالى التوفـيق: إنَّ ترك الباري تعالى الفعلَ ليس فعـلاً أصلاً على ما نبين فى إفساد الاعتراض الخامس إن شاء الله تعالى.

إفساد الاعتراض الثالث:

قال أبـو محـمد: يقال لمن قـال لو كان للأجسـام محدِث لم يـخل من أحد ثلاثة

أوجه: إمَّا أن يكون مثلَها من جميع الوجوه. أو من بعض الوجوه لا من كلّها، أو خلافها من جميع الوجوه.. إلى انقضاء كلامهم... بل هو تعالى خلافُها من جميع الوجوه، وإدخالكم -علىٰ هذا الوجه- أنه حقيقة الضد والتناقض والضد لا يفعل ضدّه، كما لا تفعل النار التبريد إدخال فاسد. لأن البارى تعالى لا يوصف بأنه ضدٌّ لخلقه، لأن الضد: ما حُمِل على التضاد، والتضادّ: هو اقتسام الشيئين طرفى البعد تحت جنس واحد، فإذا وقع أحد الضدّين ارتفع الآخر.

وهذا الوصف بعيد عن البارى تعالى.

وإنما التضادّ كالخضرة والبياض اللذين يجمعهما اللون.

أو الفضيلة والرذيلة اللتين تجمعهما الكيفية والخُلُق.

ولا يكون الضدّان إلاَّ عرَضين تحت جنس واحد ولابدّ.

وكل هذا منفي عن الخالق عزّ وجل، فبطل بالضرورة أن يكون عزّ وجل ضدًّا لخلقه إذْ ليس كلُّ خلاف ضدًّا؛ فالجوهر خلاف العرض من كل وجه -حاشا الحدوث فقط(١)- وليس ضدًّا له.

ويقال أيضًا لمن قال هذا القول: هل تثبت فاعلاً وفعلاً على وجه من الوجوه؟ أو تنفى أن يوجَد فاعل وفعل ألبتة؟

فإن نفى الفاعل والفعل ألبتة كابر العيان لإنكاره الماشى والقائم والقاعد والمتحرك والساكن.

ومن دفع هذا كان فى نصاب من لا يُكَلَّم.

وإن أثبت الفعل والفاعل فيما بيننا، قيل له: هل يَفْعَلُ الجسمُ إلاَّ الحركةَ والسكون؟ فلابدَّ من نَعم.

والحركة والسكون خلاف الجسم -وليسا ضدًّا له؛ إذ ليسا معه تحت جنس واحد وأصلاً، وإنما يجمعهما وإيّاه الحدوث فقط.

---

(١) إن الأشياء المادية تتعاقب عليها أحوال تعرض لها، ثم تنتقل لتحل مكانها أعراض أخرى من الأشكال والألوان والحركات، والنمو والأعذار وغير ذلك من التغييرات التي تطرأ على جميع الكائنات، وهذه الكائنات تقل تدريجيًا حتى تنتهي إلى أجزاء لا تتجزأ، وهي التي يطلقون على كل جزء منها اسم الجوهر الفرد، فإذا كانت الجواهر لا تنفك عن الأعراض، وكانت الأعراض حادثة وجب أن تكون الجواهر حادثة... مناهج الأدلة ١٢، وفي العقيد للدكتور عبدالفتاح الفاوي ٨٠.

فلو كان كلٌّ خلاف ضداً لكان الجسم فاعلاً لضدّه، وهو الحركة أو السكون.

وهذا نفس ما أبطلوا.

فصحّ بالضرورة أنه ليس كل خلاف ضدًّا. وصحّ أن الفاعل يفعل خلافه، لابدَّ من ذلك. فبطل اعتراضهم، والحمد لله رب العالمين.

إفساد الاعتراض الرابع:

قال أبو محمد: ويقال لمن قال: لا يخلو من أن يكون محدث الأجسام أحدثها لإحراز منفعة، أو لدفع مضرة، أو طباعًا أو لا لشيء من ذلك، إلى انقضاء كلامهم:

أمَّا الفعل لإحراز منفعة أو لدفع مضرة فإنما يوصف به المخلوقون المختارون، وأمَّا فعل الطباع فإنما يوصف به المخلوقون غير المختارين.

وكل صفات المخلوقين فهى منفية عن الله تعالى الذى هو خالق لكل ما دونه(١).

---

(١) كل ما جاء في القرآن، أو صح عن المصطفى عليه السلام من صفات الرحمن وجب الإيمان به وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل، وما أشكل من ذلك وجب إثباته . . . لمعة الاعتقاد (٣١).

وقد وضع فضيلة الشيخ ابن عثيمين قواعد هامة في الأسماء والصفات وهي:

القاعدة الأولى: الواجب في نصوص الكتاب والسنة إبقاء دلالتها من غير تغيير لأن الله أنزل القرآن بلسان عربيٍّ مبين والنبي ﷺ يتكلم باللسان العربي فوجب إبقاء دلالة كلام الله وكلام رسوله على ما هي عليه.

القاعدة الثانية وتحتها فروع:

الفرع الأول: أسماء الله تعالى كلها حسنى.

الفرع الثاني: أسماء الله غير محصورة بعدد.

الفرع الثالث: أسماء الله لا تثبت بالعقل وإنما تثبت بالشرع.

الفرع الرابع: كل اسم من أسماء الله فإنه يدل على ذات الله وعلى الصفة التي تضمنها وعلى الأثر المترتب عليه إن كان متعديًّا.

القاعدة الثالثة تحتها فروع:

الفرع الأول: صفات الله كلها عُلْيًا صفات كمال ومدح ليس فيها نقص بوجه من الوجوه ﴿ولله المثل الأعلى﴾ [النحل: ٦٠].

الفرع الثاني: صفات الله تنقسم إلى قسمين:

ثبوتية: ما أثبتها الله لنفسه كالعلم والحياة . . .

السلبية: التي نفاها الله عن نفسه كالظلم قال تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحدًا﴾.

الفرع الثالث: الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين ذاتية وفعلية:

فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها.

وأمَّا القسم الثالث: وهو أنه فعل لا لشيء من ذلك فهذا هو قولنا.

ثم نقول لمن قال: «إنَّ الفعل لا لشيء من ذلك أمر غير معقول»: «ماذا تعنى بقولك غير معقول؟

أتريد أنه لا يُعقل حسًّا أو مشاهدة؟ أم تقول: إنه لا يعقل استدلالاً؟ فإن قلت: إنه لا يعقل حسًّا ومشاهدة، قلنا لك: صدقت؛ كما أن أزلية الأشياء لا تُعقل حسًّا ومشاهدة. وإن قلت: إنه لا يعقل استدلالاً. كان ذلك دعوى منك مفتقرة إلى دليل والدَّعوى إذا كانت هكذا فهى ساقطة، فالاستدلال بها ساقط، فكيف والفعل لا لشيء من ذلك مُتَوَهم ممكن متشكل غير داخل فى الممتنع وما كان هكذا فالمانع منه مُبطل، والقول به يُعقل. فسقط هذا الاعتراض.

ثم نقول: لما كان البارى تعالى - بالبراهين الضرورية- خلافًا لجميع خلقه من جميع الوجوه- كان فعله خلافًا لجميع أفعال خلقه من جميع الوجوه، وجميع خلقه لا يفعل إلا طباعًا، أو لاجتلاب منفعة أو لدفع مضرة- فوجب أن يكون فعله تعالى بخلاف ذلك. وبالله التوفيق.

إفساد الاعتراض الخامس:

قال أبو محمد: ويقال لمن قال إنَّ ترك الفاعل أن يفعل الأجسام لا يخلو من أن يكون جسمًا أو عرضًا إلى منتهى كلامهم.

إنَّ هذه قسمة فاسدة بينة العُوار[1] وذلك أن الجسم هو الطويل العريض العميق،

= الفعلية: هي التي تتعلق بالمشيئة إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالاستواء على العرش والمجيء . .

الفرع الرابع: كل صفة من صفات الله فإنه يتوجه عليها:

«١» إنها حقيقية لأن الأصل في الكلام الحقيقة فلا يعدل عنها إلا بدليل صحيح يمنع منها.

«٢» لا يجوز تكييفها لقوله تعالى: ﴿ولا يحيطون به علمًا﴾ [طه: ١١٠].

«٣» لا تماثل صفات المخلوقين لقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١].

القاعدة الرابعة: فيما نرد به على المعطلة:

إن قولهم خلاف ظاهر النصوص وخلاف طريقة السلف وليس عليه دليل صحيح وربما يكون في بعض الصفات وجه رابع أو أكثر.

هذه عقيدة أهل السنّة والجماعة والتي كان عليها النبي ﷺ وصحابته الكرام والأئمة الأربعة ومن تبعهم بإحسان في أسماء الله تعالى وصفاته انظر ما قال الشيخ ابن عثيمين على مقدمة لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص (٢٠: ٢٦).

(١) عار الإنسان وغيره: عوراً: صيره أعور، والشيء: أتلفه، عورت عينه: عوراً: ذهب بصرها، يقال عور الرجل: ذهب بصر إحدى عينيه وهي عوراء ج (عور)، عوّره: صيره أعور، اعوّارت العين: عورت . . . الوسيط (٢/ ٦٣٦).

وترك الفعل ليس طويلاً، ولا عريضًا، ولا عميقًا، فترك الفعل من الله تعالى للجسم والعرض ليس جسمًا، والعرض هو المحمول فى الجسم، وترك فعل الله تعالى للجسم والعرض ليس محمولاً فليس عرضًا، فترك فعل الله تعالى للجسم والعرض ليس جسمًا ولا عرضًا، وإنما هو عدم، والعدم ليس معنًى ولا هو شيئًا، وترك الله تعالى للفعل ليس فعلاً ألبتة بخلاف صفة خلقه، لأن الترك من المخلوق للفعل فعل.

برهان ذلك: أن ترك المخلوق للفعل لا يكون إلا بفعل آخر منه ضرورة، كتارك الحركة لا يكون إلا بفعل السكون. وتارك الأكل، لا يكون إلا باستعمال آلات الأكل فى مقاربة بعضها بعضًا، أو فى مباعدة بعضها بعضًا، وبتعويض الهواء وغيره من الشيء المأكول.

وكتارك القيام لا يكون إلا باشتغاله بفعل آخر من قعودٍ أو غيره.

فصحّ أن فعل الباري تعالى بخلاف فعل خلقه، وأن تركه للفعل ليس فعلاً أصلاً. فبطل استدلالهم، وبالله التوفيق.

البراهين الضرورية على إثبات حدوث العالم

قال أبو محمد: فإذْ قد بطل جميع ما تعلقوا به، ولم يبق لهم شغب أصلاً بعون الله وتأييده، فنحن مبتدئون بتأييده -عزّ وجل- فى إيراد البراهين الضرورية على إثبات حدوث العالم بعد أن لم يكن، وتحقيق أن له محدِثًا لم يزل لا إله إلا هو.

برهان أول:

قال أبو محمد: فنقول - وبالله التوفيق- إن كل شخص فى العالم، وكل عرض فى شخص، وكل زمان، وكل ذلك متناهٍ ذُو أوَّل نشاهد ذلك حسًا وعيانًا، لأن تناهى الشخص ظاهر بمساحته بأول جرمه وآخره، وأيضًا بزمان وجوده.

وتناهى الزمان موجود باستئناف ما يأتى منه بعد الماضى، وفناء كل وقت بعد وجوده، واستئناف آخر يأتى بعده، إذ كل زمان نهايته الآن، وهو حد الزمانين فهو نهاية الماضى، وما بعده ابتداء للمستقبل وهكذا ابدًا يفنى زمان ويأتى آخر.

وكل جملة من جمل الزمان فهي مركبة من أزمنة متناهية، ذات أوائل كما قدمنا.

وكل جملة أشخاص فهى مركبة من أشخاص متناهية بعددها، وذوات أوائل كما قدمنا، وكل مركب من أجزاء متناهية ذات أوائل فليس هو شيئًا غير أجزائه؛ إذ الكل

ليس هو شيئًا غير الأجزاء التى ينحل إليها، وأجزاؤه متناهية كما بينا ذات أوائل، فالجُمل كلها بلا شك متناهية ذات أوائل، والعالم كله إنما هو أشخاصه، ومكانه وأزمانها، ومحمولاتها، ليس العالم كله شيئًا غير ما ذكرناه، فالعالم كله متناهٍ ذو أول ولابدّ.

فإن كانت أجزاؤه كلها متناهية ذات أول بالمشاهدة والحس، وكان هو غير ذى أول. وقد أثبتنا بالضرورة والعقل والحس أنه ليس شيئًا غير أجزائه فهو إذًا ذو أوّل، لا ذو أوّل، وهذا عين المحال.

ويجب من ذلك أيضًا أن لأجزائه أوائل محسوسة، وأجزاؤه ليست غيره وهو غير ذى أول، فأجزاؤه إذن «لها أول ليس لها أول» وهذا محال وتخليط[1].

فصحّ بالضرورة أن للعالم أولاً، إذ كل أجزائه لها أول، وليس هو شيئًا غير أجزائه. وبالله تعالى التوفيق.

برهان ثان:

قال أبو محمد: كل موجود بالفعل فقد حصره العدد، وأحصته طبيعته.

ومعنى الطبيعة وحدّها: هو أن تقول: الطبيعة هى القوة التى تكون فى الشىء، فتجرى بها كيفيات ذلك الشىء على ما هى عليه.

وإن أوجزت قلت: هى قوة فى الشىء يوجد بها على ما هو عليه، وحصر العدد وإحصاء الطبيعة نهاية صحيحة، إذ ما لا نهاية له فلا إحصاء له ولا حصر له، إذ ليس معنى الحصر والإحصاء إلا ضم ما بين طرفى المحصى والمحصور، والعالم موجود بالفعل وكل محصور بالعدد محصى بالطبيعة فذو نهاية، فالعالم كله ذو نهاية، وسواء فى كل ذلك ما وجد فى مدة واحدة أو فى مدد كثيرة إذ ليست تلك المدة إلاّ مدة محصاة إلى جنب مدة محصاة، فهى مركبة من مدد محصاة وكل مركب من أشياء فهو تلك الأشياء التى ركب منها، فهى كلها مدد محصاة كما قدمنا فى الدليل الأول. فصحّ من كل ذلك أنَّ ما لا نهاية له فلا سبيل إلى وجوده بالفعل، وما لم يوجد إلا بعد ما لا نهاية له فلا سبيل إلى وجوده أبدًا، لأن وقوع البَعديَّة فيه هو وجود نهاية له. وما لا نهاية له فلا بَعْدَ له، فعلى هذا لا يوجد شىء أبد الآبدين. والأشياء كلها موجودة بعضها بعد بعض فالأشياء كلها ذات نهاية.

---

(١) خلط الشيء بالشيء خلطا: ضمه إليه، وقد يمكن التمييز بعد ذلك كما في الحيوانات، خالطه: مخالطة: وخلاطًا: مازجه، اختلط عقله: فسد، تخالط:الشيئان: اختلطا. الوسيط (١/ ٢٥٠).

وهذان الدليلان قد نبه الله تعالى عليهما وحصرهما بحجته البالغة إذ يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: ٨]..

برهان ثالث:

قال أبو محمد: ما لا نهاية له فلا سبيل إلى الزيادة فيه، إذ معنى الزيادة إنّما هو أن نضيف إلى ذى النهاية شيئًا من جنسه يزيد ذلك فى عدده أو فى مساحته.

فإن كل الزمان لا أول له يكون به متناهيًا فى عدده الآن، فإذن كل ما زاد فيه ويزيد مما يأتى من الأزمنة منه فإنه لا يزيد ذلك فى عدد الزمان شيئًا.

وفى شهادة الحس أن كل ما وجد من الأعوام على الأبد إلى زماننا هذا الذى هو وقت ولاية هشام المعتد بالله[1] هو أكثر من كل ما وجد من الأعوام على الأبد إلى وقت هجرة رسول الله ﷺ.

فإن لم يكن هذا صحيحًا فيجب إذن أنه إذا دار زحل دورة فى كل ثلاثين سنة - وزحل لم يزل يدور- دار الفلك الأكبر فى تلك الثلاثين سنة إحدى عشرة ألف دورة غير خمسين دورة- والفلك لم يزل يدور- وإحدى عشرة ألف غير خمسين دورة أكثر من دورة واحدة بلا شك. فإذن ما لا نهاية له أكثر مما لا نهاية له بنحو إحدى عشرة ألف مرة، وهذا محال لما قدمنا.

ولأن ما لا نهاية له فلا يمكن ألبتة أن يكون عدد أكثر منه بوجه من الوجوه، فوجبت النهاية فى الزمان من قبل ابتدائه ضرورة ولا مخلص منها.

ويجب أيضًا من ذلك: أن الحس يوجب ضرورة أن أشخاص الإنس مضافة إلى أشخاص الخيل أكثر من أشخاص الإنس مفردة من أشخاص الخيل، ولو كانت الأشخاص لا نهاية لها لوجب أنّ ما لا نهاية له أكثر مما لا نهاية له، وهذا محال ممتنع لا يتشكل فى العقل ولا يمكن.

وأيضًا فلا شك في أنّ الزمان مذ كان إلى وقت الهجرة جزء للزمان مذ كان إلى وقتنا هذا.

---

(١) هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر أبو بكر، المعتد بالله: آخر ملوك بني أمية بالأندلس. كان مقيمًا في حصن «ألبونت» من ثغور قرطبة.
وبويع بعد وفاة المستكفي بالله (سنة ٤١٨هـ) فكان يخطب له في قرطبة، وتنقل في بعض الثغور، مات عقيمًا، في جهة لا ردة وانقرضت به الدولة الأموية في الأندلس.
(الأعلام ٨/٨٨، ابن الأثير ٩/٩٧، والبيان المغرب (٣/١٤٥).

ولا شك أيضًا في أن الزمان مذ كان إلى وقتنا هذا كل للزمان مذ كان إلى وقت الهجرة، ولما بعده إلى وقتنا هذا.

فلا يخلو الحكم فى هذه القضية من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها:

إما أن يكون الزمان مذ كان موجودًا إلى وقتنا هذا أكثر من الزمان مذ كان إلى عصر الهجرة.

وإمّا أن يكون أقل منه.

وإمّا أن يكون مساويًا له.

فإن كان الزمان مذ كان إلى وقتنا هذا أقل من الزمان مذ كان إلى وقت الهجرة فالكل أقل من الجزء والجزء أكثر من الكل، وهذا هو الاختلاط وعين المحال. إذ لا يخيل على أحد أن الكل أكثر من الجزء وهذا ما لا شك فيه ببديهة العقل وضرورة الحس.

وإن كان مساويًا له، فالكل مساوٍ للجزء؛ وهذا عين المحال والتخليط.

وإن كان أكثر منه، وهذا هو الذى لا شك فيه، فالزمان مذ كان إلى وقت الهجرة ذو نهاية.

ومعنى الجزء إنما هو أبعاض الشيء، ومعنى الكل إنما هو جملة تلك الأبعاض فالكل والجزء واقعان فى كلٍّ ذى أبعاض. والعالم ذو أبعاض هكذا توجد حاملاته ومحمولاته وأزمانها ومكانها فالعالمّ كل لأبعاضه، وأبعاضه أجزاء له، والنهاية -كما قدمنا- لازمة لكل ذى كل، وذى أجزاء. والزمان إنما هو مدة بقاء الجرم ساكنًا، أو متحركًا، ولو فارقه لم يكن الجرم موجودًا، ولا كان الزمان أيضًا موجودًا، والجرم والزمان موجودان فكلاهما لم يفارق صاحبه. والزمان ذو أول، فالجرم ذو أول، وهذا مما لا انفكاك له ألبتة.

وأمّا ما لم لم يأت بعدُ من زمانٍ أو شخص أو عَرَض فليس كل ذلك شيئًا، فلا يقع على شيءٍ من ذلك عدد ولا نهاية، ولا يوصف بشيء أصلاً لأنه لا وجود له بعد. فإذا وجد لزمه حينئذ ما لزم سائر ما قد وجد من أجناسه وأنواعه، من النهاية والعدد وغير ذلك من الصفات.

وأيضًا فلا شك فى أن ما وقع ووجد من الزمان إلى يومنا هذا مساوٍ لما هو من يومنا هذا إلى ما وقع من الزمان معكوسًا. وواجب فيه الزيادة بما يأتى من الزمان.

والمساوى لا يقع إلا فى ذى نهاية، فالزمان متناهٍ ضرورة.

وقد ألزمت بعـض الملحدين وهو ثابت بن محـمد الجـرجانى[١] فى هذا البرهان، فأراد أن يعـكسه على بقـاء البارى عزّ وجـل ووجودنا إياه. فـأخبرته بأن هـذا شغب ضعيف مـضمحل ساقط، لأن البارى تعـالى ليس فى زمان، ولا له مدة ولا فناء لأن الزمان إنما هو حركـةُ كلٍّ ذى الزمان وانتقاله من مكان إلى مكان، أو مـدة بقائه ساكنًا فى مكانٍ واحد. والبارى تعالى ليس متـحركًا ولا ساكنًا، فلا شك أنه ليس فى زمانٍ ولا له مدّة ولا فناء، ولا هـو فى مكان أصلا[٢] وليس هو جرمًـا، ولا جوهرًا، ولا عرضًا، ولا عددًا، ولا جنسًا، ولا نوعًا، ولافصـلاً، ولا شخصًا، ولا متحركًا، ولا ساكنًا، وإنما هو تعالى حق فى ذاته، موجود مطلق بمعنى أنه معلوم لا إله غيره، واحدٌ ولا واحدَ فى العالم سواه، مختـرع للموجودات كلها دونه[٣] لا يشبه شيئًا من خلقه بوجه من الوجوه. وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: وقد نبه الله تعالى على هذا الدليل وحصره فى قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر: ١].

برهان رابع:

قال أبو مـحمد: إن كان العـالمُ لا أول له ولا نهاية له، فالإحصـاء منّا له بالعدد والطبيعة إلى ما لا نهاية له من أوائل العالم الماضـية محال لا سبيل إليه؛ إذ لو أحصى

---

(١) ثابت بن محمد أبو الفتوح الجرجاني الأندلسي النحوي. قال الحـميدي: كان إمامًا في العربية متمكنًا في الآداب:
وقال ابن بشكـوال: كان قيـمًا بعلم المنطق، شـرح جمل الجرجـاني، وروى عن ابن جنى وعلى بن عيسى والدبعى. وقتله باديس أمير صنهاجة، .... (بغية الوعاه ١/ ٤٨٢).

(٢) استواء الله على العرش من صفاته الثابتة له بالكتاب والسنة وإجماع السلف قال الله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وذكر استواءه على عرشه في سبعة مواضع من القرآن وقال النبي ﷺ: «إن الله لما قضي الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي» رواه البخاري.
وأجمع السلف إثبات استواء الله على عرشه فـيجب إثباته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وهو اسـتواء حقـيقي معناه العلو والاسـتقرار على وجـه يليق بالله تعالى ... ابن عثـيمين في تعليقه على اللمعة (٦٠، ٦٢)، وطريق الهجرتين لابن القيم وإثبات صفة العلو لابن قدامة المقدسي، ومؤلفات ابن تيمية.

(٣) الأفضل الالتـزام بالمصطلح القرآني وهو «الخَلق» كمـا في قوله تعالى: ﴿إنـا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمـر: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فـقدره تقديرًا﴾ وإن كل شيء في السـموات والأرض مخلوق لله تعـالى لا خالق غـيره ولا رب سواه كـما قـال على لسان إبراهيم عليـه السلام: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩].

ذلك كله لكان له نهاية ضرورة، فإذن لا سبيل إليه.

فكذلك أيضًا هو محال أن تكون الطبيعة والعدد أحصيا ما لا نهاية له من أوائل العالم الخالية حتى يبلغا إلينا، وإذا كان ذلك محالاً فالعدد والطبيعة إذن لم يبلغا إلينا، وقد تيقّنا وقوع العدد والطبيعة في كل ما خلا من العالم حتى بلغنا إلينا بلا شك. فإذًا قد أحصى العدد والطبيعة كل ما خلا من أوائل العالم إلى أن بلغا إلينا، فكذلك الإحصاء منا إلى أوّلية العالم صحيح موجود ضرورة بلا شك.

وإذْ ذلك كذلك فللعالم أوَّل ضرورة، وبالله تعالى التوفيق.

برهان خامس:

قال أبو محمد: لا سبيل إلى وجود ثانٍ إلا بعد أول، ولا إلى وجود ثالث إلا بعد ثانٍ، وهكذا أبدًا. ولو لم يكن لأجزاء العالم أول لم يكن ثان. ولو لم يكن ثان لم يكن ثالث. ولو كان الأمر هكذا لم يكن عدد ولا معدود.

وفي وجودنا جميع الأشياء التي في العالم معدودةً إيجابٌ أنها ثالث بعد ثانٍ، وثانٍ بعد أوّل.

وفي صحّة هذا وجوبُ أوّلٍ ضرورة. وقد نبه الله تعالى على هذا الدليل، وعلى الذي قبله وحصرهما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [سورة الجن: ٢٨].

وأيضًا فالآخر والأوَّل من باب المضاف، فالآخر آخر للأول، والأول أوّلٌ للآخر. ولو لم يكن أوّل لم يكن آخر.

ويومنا هذا بما فيه، آخرٌ لكلّ موجود قبله؛ إذ ما لم يأتِ بعدُ فليس شيئًا، ولا وقع عليه بَعْدُ شيء من الأوصاف فله أولٌ ضرورة.

قال أبو محمد: وقد أخبرني بعض أصدقائنا وهو: محمد بن عبد الرحمن بن عقبة رحمه الله تعالى: أنه عارض بهذا البرهان بعض الملحدين، وهو: «عبد الله بن عبد الله ابن شنيف» فعارضه الملحد في قوله بخلود الجنة والنار وأهلهما فقال له ابن عقبة: إنما أخذنا خلود داري الجزاء وخلود أهلهما بلا نهاية على غير هذا الوجه، ولكن على أنَّ الله تعالى ينشيء لكل ذلك بقاء محدودًا، وحركات حادثة، ولذات مترادفة أبدًا وقتًا بعد وقت، إلاَّ أن الأول والآخر جاريان حادثان في كل موجود من ذلك، وإذا ثبت الأوّل فغير ممتنع تمادي الزمان حينًا بعد حين أبدًا بلا نهاية، وهذا مثل العدد فإنه لو لم يكن له أول لم يقدر أحد على عَدِّ أي شيء أبدًا؛ فالعدد له أول ضرورة، يعرف ذلك بالحس

والمشاهدة، وهو قـولنا واحد فإنَّ هذا مبـدأ العدد الذى لا عدد قـبله، ثم الأعداد يمكن فيـها الزيادة أبد الأبد لا إلى غـاية، لكن كلما خرج منـه جزء إلى حَدّ الوجـود وُجِدَ، فالفعل فله نهاية، وهكذا أبداً سرمداً. وبالله تعالى التوفيق.

فانقطع الشنيفى، ولم يكن عنده إلاّ الشغب.

قال أبـو محـمد: وقـد قال بعض أهل الإلحـاد فى هذه البـراهين التى أوجبنا بهـا استـحالة وجود مـوجودات لا أوائل لهـا: أتقولون إن الله تعالى يوفـى أهل الجنة ما وعدهم من النعيم الذى لا آخر له ولا نهاية أم لا يوفيهم ما وعدهم من ذلك؟

فـإن قلتم: إنه تعالى يوفـيـهم إياه. دخل عليكم كل ما أدخـلتمـوه علينا فى هذه البراهين ولا فرق.

وإن قلتم: إنه تعالى لا يوفيهم ذلك ألزمتموه خلف الوعد والكذب؛ وهو كفر عندكم.

قال أبو مـحمد: هذه شغيبـة قد طالما حذرنا من مثلها فى كتـبنا التى جمعناها فى حدود المنطق. وهى منفسخة من وجهين:

أحدهما: أن تعلق المرء بما يقول خـصمه ضعـف، وإنما يلزم المرء أن يخلِّص قوله مجرداً، ولا أسوة له فى تناقض خصمه، بل لعله خصمه لا يقول ذلك.

الثانى: أن المسؤول بها إن كان جهمياً[(١)] سقط عنه هذا السؤال المذكور.

وأمّا نحن فعلينا بحول الله تعالى بيان فـساد هذا الاعتراض وتمويهه، فنقول -وبالله التوفيق- إنَّ من شغب أهل السـفسطة إدخال كلمة لا يؤبه لها يجعلونهـا مقدمة وهى كذب، فيموّهون بها على الجهّال مما يبنون عليها.

وهذا الاعتراض من هذا الباب.

وذلك أنهم أرادوا إلزامنا بأن الله عزّ وجل وعد أهل الجنة أن يوفيـهم نعيماً لا نهاية له، وهذا خطأ وكذب، ومـا وعدهم الله عزّ وجل قط بأن يوفيـهم ذلك النعيم، ولو

---

(١) أتباع جهم بن صفوان أي بدعـة الجبر نشأ الجهم بن صفوان بسمرقند بخراسـان وكان تلميذ الجعد بن درهم وتلقى عنه منهجه في التأويل.
وأنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً كما أنه لم يكلم موسى تكليماً.
وإلى جهم ينسب القول بالجبر ونفى الصـفات الإلهية، ومع أنه يعد جبريًا كما وصفـه الشهر ستاني، إلا أنه في الوقت نفسـه يعد من شـيوخ المعتـزلة لقوله بنفي الصفـات وخلق القرآن. (قـواعد المنهج السلفي ١٢٦، ومقالات الإسلاميين ١/ ٣١٢ تحقيق» محي الدين عبدالحميد).

وعدهم بذلك لكان ذلك النعيم إذا استوفى بطل وفنى وانقضى، وإنما وعدهم تعالى بنعيم لا نهاية له. وكل ما ظهر ووجد من ذلك النعيم فهو محصور ذو نهاية، وما لم يخرج إلى حدّ الفعل فهو عدم بَعْدُ، ولا يقع عليه عدد ولا صفة، وهكذا أبدًا. فقد ظهر أن لفظه «يوفيهم» هى الشغيبة المفسدة التى موّهوا بها، فإذا أسقطها المعترض من كلامه سقط اعتراضه جملة وصحت القضية. وبالله التوفيق.

فإن قال قائل: فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾(١) [سورة هود: ١٠٩].

قلنا: صدق الله تعالى وهذا لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما:

إمّا أن يكون أراد بذلك نصيبهم من الجزاء، أو يكون أراد نصيبهم من مساحة الجنة.

فإن كان عني -عزّ وجل- بذلك نصيبهم من الجزاء والنعيم فهو صحيح، لأن كل ما خرج من ذلك إلى حد الوجود فهو مستوفى بيقين وهكذا أبدًا. وإن كان تعالى عنى بذلك نصيب كل واحد من الجنة والنار، فهذا صحيح، لأن كل مكان منها متناه من جهة المساحة، وإنما نفينا التوفية التي توجب الانقضاء بلا زيادة فيها. وقد قال - عزّ وجل- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [سورة النساء: ١٧٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢) [سورة الزمر: ١٠].

وهاتان الآيتان تبينان أن الأجر المستوفى هو كل ما يعطونه من مساحة الجنة، وكل ما خرج إلى الوجود من النعيم، ثم لا يزال تعالى يزيدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فهذا لا يستوفى أبدًا لأنه لا نهاية له، ولا كل، ولو استُوفى لم يمكن أن تكون فيه زيادة، إذ بالضرورة يعلم أن ما استُوفى فلا زيادة فيه، وما تُمكن الزيادة فيه فلم يستوف بعد.

والله تعالى قد نص على أن بعد تلك التوفية زيادة فصح أنها توفية لشيء محدود متناه، وأن ما لا نهاية له فلا يستوفى أبدًا.

---

(١) قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن مجاهد عن ابن عباس قال: ما وعدوا من خير أو شر، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص ثم ذكر تعالى أنه آتي موسى الكتاب... تفسير ابن كثير (٢/ ٧١٣).

(٢) قال الأوزاعي ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يغرف لهم غرفًا، وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك، وقال السدي: يعني في الجنة.

فقد ثبت بكل ما ذكرنا أن العـالم ذو أول، وإذا كان ذا أول فلابدّ ضرورة من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها، وهى:

١ - إما أن يكون أحدث ذاته.

٢- وإما أن يكون حدث بغير أن يحدثه غيره، وبغير أن يحدث هو نفسه.

٣ - وإما أن يكون أحدثه غيره.

فإن كان هو أحدث ذاته، فلا يخلو من أحد أربعة أوجه لا خامس لها وهى:

١- إمّا أن يكون أحدث ذاته وهو معدوم وهى موجودة.

٢- أو أحدث ذاته وهو موجود وهى معدومة.

٣ - أو أحدثها وكلاهما موجود.

٤- أو أحدثها وكلاهما معدوم.

وكل هذه الأربعة الأوجه محال ممتنع لا سبيل إلى شىء منها.

لأن الشىء، وذاته هى هو، وهو هى.

وكلّ ما ذكرنا من الوجوه يوجب أن يكون الشىء غير ذاته.

وهذا محال وباطل بالمشاهدة والحس.

فهذا وجه قد بطل.

ثم نقـول: إن كل ما خـرج عن العدم إلـى الوجود بغـير أن يُخـرج هو ذاته، أو يُخرجـه غيره. فهـو أيضًا محال، لأنـه لا حال أولى بخروجه إلى الوجـود من حال أخرى، ولا حال أصلاً هناك.

فإذاً لا سـبيل إلى خـروجه، وخروجـه مشـاهد ممكن. فحال الخـروج غيـر حال اللاخروج، وحـال الخروج هى علّة كونه. وهذا لازم فى تلك الحـال، أعنى أن حال الخروج يلزم فى حدوثها مثل ما لزم فى حـدوث العالم من أن تكون أخرجت نفسها، أو أخرجها غيرها، أو خرجـت بغير هذين الوجهين، وهكذا فى كل حال. فإن تمادى الكلام يوجب ألا نهاية. ولا نهاية فى العالم من مبدئه باطل ممتنع محال بما قدمنا.

فإذًا قد بطل أن يخرج العـالم بنفسه، وبطل أن يخرج دون أن يخرجه غـيره، فقد ثبت الوجه الثـالث ضرورة، إذ لم يبق غيـره ألبتة فـلابدّ من صحتـه، وهو أن العالَمَ أخرجَه غيرُه من العدم إلى الوجود وبالله تعالى التوفيق.

أدلة أخرى على حدوث العالم

وأيضًا فإن الفلك بكل ما فيه ذو آثار محمولة فيه من نُقْلة زمانية، وحركة دورية؛ في كون كل جزء من أجزائه فى مكان الذى يليه، والأثرُ مع المؤَثِّر من باب المضاف فإن لم يكن أثر لم يكن مؤَثِّر، وإن لم يكن مؤثِّر لم يكن أثر، فوجب بذلك أنه لابد لهذه الآثار الظاهرة من مؤثر أثَّرها، ولا سبيل إلى أن يكون الفلك أو شيء مما فيه هو المؤثر، لأنه هو الموثَّر فيه، والموثَّر فيه مع المؤثِّر والأثَر من باب المضاف أيضًا، ومعنى قولنا أنَّ المؤثِّر والأثر والمؤثَّر فيه من باب المضاف إنما هو أنَّ الأثر والمؤثَّر فيه يقتضيان مؤثِّرًا ولابد.

ولم يَرِد أن البارى تعالى يقع تحت الإضافة فلابدَّ ضرورة من مؤثِّر ليس مؤثَّرًا فيه، وليس هو شيئًا مما فى العالم، فهو بالضرورة الخالق الأول الواحد تبارك وتعالى.

فصحَّ بهذا أنَّ العالَم كلَّه محدَث، وأنَّ له محدِثًا هو غيره.

هذا إلى ما نراه ونشاهده بالحواس من آثار الصنعة التى لا يشك فيها ذو عقل.

ومن بعض ذلك: تراكيب الأفلاك وتداخُلها، ودوام دورانها على اختلاف مراكزها، ثم أفلاك تداويرها، والبون بين حركة أفلاك التداوير، والأفلاك الحاملة لها، ودوران الأفلاك كلها من غرب إلى شرق، ودوران الفلك التاسع الكلى بخلاف ذلك من شرق إلى غرب، وإدارته لجميع الأفلاك مع نفسه كذلك، فحدث من ذلك حركتان متعارضتان فى حركة واحدة.

فبالضرورة نعلم أن لها محركًا على هذه الوجوه المختلفة.

ثم تراكيب أعضاء الإنسان والحيوان من إدخال العظام المحدَّبة فى المقعَّرة، وتركيب العضل على تلك المداخل، والشدّ على ذلك بالعصب والعروق.

صناعة ظاهرة لا شك فيها، لا ينقصها إلا رؤية الصانع فقط.

ومن ذلك ما يظهر فى الأصباغ الموضوعة فى جلود كثير من الحيوان وريشه، ووبره، وشعره، وظفره، وقِشْره، على رتبة واحدة ووضع واحد لا تخالف فيه، كأصباغ الحَجَل، والشفانين (اليمام)، والسِّمان، والبزاة، وكثير من الطير والسلاحف، والحشرات والسمك، لا يختلف تنقيطه ألبتة، ولا تكون أصباغه موضوعة إلاَّ وضعًا واحدًا كأذناب الطواويس -وفى السمك والجراد والحشرات- نوعًا واحدًا كالذى يصوّره المصور بيننا. ثم منها ما يأتى مختلفًا كأصباغ الدّجاج والحمام والبط وكثير من الحيوان.

فبالضرورة والحس نعلم أنّ لذلك صانعًا مختارًا يفعل ذلك كله كما شاء، ويحصيه إحصاءً لا يضطرب أبدًا عمّا شاء من ذلك، وليس يمكن ألبتة فى حسّ العقل أن تكون هذه المختلفات المضبوطة ضبطًا لا تفاوت فيه من فعل الطبيعة؛ ولابد لها من صانع قاصد إلى صنعة كل ذلك.

ومن درى ما الطبيعة؛ علم أنها قوة موضوعة فى الشىء تجرى بها صفاته على ما هى عليه فقط، وبالضرورة يعلم أن لها واضعًا، ومرتِّبًا، وصانعًا، لأنها لا تقوم بنفسها وإنما هى محمولة على ذى الطبيعة.

ومنها ما يُرى في لِيفِ النخل، والدّوْم من النسج المصنوع يقينًا بنِيرين(١) وسَدًى(٢) كالذى يصنعه النسّاج، ما تنقصنا إلا رؤية الصانع فقط، وليس هذا ألبتة من فعل طبيعة، ولا بنسج ناسج، ولا بنّاء، ولا صانع أصباغ مرتبة. بل هو صنعة صانع مختار قاصد إلى ذلك غير ذى طبيعة لكنه قادر على ما يشاء.

هذا أمر معلوم بضرورة العقل وأوله يقينًا، كما نعلم أن الثلاثة أكثر من الاثنين فصحّ أنه خالق أوّل واحدٌ حقٌّ لا يشبه شيئًا من خلقه ألبتة لا إله إلاّ هو الواحد الأول الخالق عزّ وجل.

القسم الثالث

باب الكلام على من قال: إن العالم لم يزل وله مع ذلك فاعل لم يزل

قال أبو محمد: قد أفسدنا بحول الله وقوته بالبراهين التى قدمنا هذه المقالة: ولكن بقى لهم اعتراض وجب إيراده تقصيًّا لكلٍّ ما موّهوا به.

قال أبو محمد: اعتمد أهل هذه المقالة على أن قالوا: إنَّ علة فعل البارى تعالى لما فعل إنما هو: جوده، وحكمته، وقدرته، وهو تعالى لم يزل جوادًا حكيمًا قادرًا. فالعالم لم يزل، إذ علته لم تزل.

(١) نار: الثوب: نيرًا، ونيارة، جعل له نيرًا، أي صورًا أو خطوطًا والحمَه جعل له لحمة، أنار: به: صات به، ويقال: هو يسدى الأمور وينيرها، يحكمها ويبرمها. الوسيط (٢/٩٦٦).

(٢) سدى: الثوب: سديًا: مدّ سداه، سدى: سدًى: ندى، أسدى الثوب: سداه إليه معروفًا: أعطى وأولى والأمر: أصابه، سدّى الثوب: سداه، وإليه أحسن وبينهما أصلح .. الوسيط (١/٤٢٤).

وهذا فاسدٌ ألبتة بالأدلة التى قدمنا التى لا تضطر إلى المعرفة والتيقن بحدوث العالم.

ثم نقول: إنه إنما يلزم هذا من أقر بهذه المقدمة أعنى أن للعالم علة، وأما نحن فإنّا نقول: إنه لا علّة لتكوين الله عزّ وجل كلَّ ما كوَّنه، وأنه لا شىء غير الخالق وخلقه، ثم نقول على علم هؤلاء قولاً كافيًا إن شاء الله تعالى:

وهو أن المفعول هو المتنقل من العدم إلى الوجود، بمعنى مِنْ ليسَ، إلى شىءٍ فهذا هو المحدَث.

ومعنى المحدَث: هو ما لم يكن ثم كان.

وهم يقولون: إنه الذى لم يزل، وهذا هو خلاف المعقول، لأن الذى لم يكن ثم كان هو غير الذى لم يزل، فالعالم إذن هو غير نفسه، وهذا هو عين المحال، وبالله تعالى التوفيق.

فإن قال لنا قائل:

لما كان البارى تعالى غير فاعل على قولكم ثم صار فاعلاً، فقد لحقته استحالة، وتعالى الله عن ذلك.

قلنا له وبالله التوفيق: هذا السؤال راجع عليكم إذ صححتموه فهو لكم لازم، لا لنا لأنا لا نصححه، وذلك أنه إذا كان عندكم الفعل منه بعد أن كان غيرَ فاعل يوجب الاستحالة على الفاعل تعالى، فإنَّ فعله لما أحدثَ من الأعراض عندكم بعد أن كان غير محدِث لها، وإعدامه، ما أعدم منها بعد أن كان غير معدم لها موجب عليه الاستحالة.

فأجيبوا عن سؤالكم الذى صححتموه، ولا جواب لكم إلا بإفساده.

وأمّا نحن فنقول: إنَّ الاستحالة ليست ما ذكرتم. وإنما معنى الاستحالة: أنه حدوث شىءٍ فى المستحيل لم يكن فيه قبل ذلك ثم صار فيه مستحيلاً عن صفته المحمولة عليه إلى غيرها.

وهذا المعنى منفى عن الله تعالى، أى أنه تعالى يجل عن أن يكون حاملاً لصفة فيه. بل بذاته لم يفعل إن كان غير فاعل، وبذاته فَعَل إن فَعل، ولا علة لما فعل، ولا علّة لما لم يفعل.

وأيضًا: فإنَّ الذى لم يزل هو الذى لا فاعل له، ولا مخرج له من عدم إلى وجود، فلو كان العالَم لم يزل لكان لا مخرج له ولا فاعل له.

وقد أقرّ أهل هذه المقالة بأن العـالم لم يزل، وأن له فاعلاً لم يزل يفعل وهذا عين المحال والتخليط والفساد. وبالله تعالى التوفيق.

القسم الرابع

باب الكلام على من قال إن للعالم خالقا لم يزل وإن النفس والمكان المطلق الذى هو الخلاء والزمان المطلق الذى هو المدة لم تزل موجودة وأنها غير محدثة

قال أبو محمد: والنفس عند هؤلاء جوهر قائم بنفسه، حامل لأعراضه لا متحرك، ولا منقسم، ولا متمكن أى لا فى مكان.

وقد ناظرتى قـوم من أهل هذا الرأى، ورأيته كـالغالب على ملحـدى أهل زماننا، فألزمتهم إلزامات لم ينفكوا عنها، أظـهرت بطلان قولهم بعون الله تعالى وقوّته. ولم نر واحدًا ممن تكلم قـبلنا ذكر هذه الفرقـة، فجمـعت ما ناظرتهم به وأضفت إليـه ما وجبت إضافته إليه مما فيه تزييف قولهم. وما توفيقنا إلاّ بالله تعالى.

وهذا الزمـان والمكان عندهم هما غـير الزمـان والمكان المعهـودين عندنا لأن المكان المعهود عندنا: هو المحيط بالمتمكِّن فيه من جهاته أو من بعضها.

وهو ينقسم إلى قسمين:

إمّا مكان يتشكل المتمكِّن فيه بشكله كالبَرَى، أو الماء فى الخابية، أو ما أشبه ذلك.

وإمّا مكان يتشكل هو بشكل المتمكِّن فيه كالماء لما حلَّ فيه من الأجسام، وما أشبهه.

والزمان المعـهود عندنا: هو مـدة وجود الجرم سـاكنًا أو متـحركًا، أو مـدة وجود العرض فى الجسم.

ويعُمُّه أن نقول: هو مدة وجود جرم الفلك وما فيه من الحوامل والمحمولات.

وهم يقولون: إنَّ الزمان المطلـق والمكان المطلق هما غير ما حـدّدناه آنفًا من الزمان والمكان. ويقولون: إنهما شيئان متغايران.

ولقد كان يكفى فى بطلان قولهم إقرارهم بمكانٍ غير ما يـعهد، وزمانٍ غير ما يعهد بلا دليل على ذلك.

ولكن لابدَّ من إيراد البراهين على إبطال دعواهم فى ذلك بحول الله وقوته.

فيقال لهم وبالله تعالى التوفيق:

أخبرونا عن هذا الخلاء الذى أثبتم وقلتم إنه كان موجوداً قبل حدوث الفلك وما فيه. هل بطل بحدوث الفلك ما كان منه فى مكان الفلك قبل أن يحدث الفلك أو لم يبطل؟.

فإن قالوا: لم يبطل وبذلك أجابنى بعضهم.

فيقال لهم: فإن كان لم يبطل، فهل انتقل عن ذلك المكان بحدوث الفلك فى ذلك المكان أو لم ينتقل؟

فإن قالوا: لم ينتقل -وهو قولهم- قيل لهم: فإن لم يبطل، ولا انتقل، فأين حدث الفلك وقد كان فى موضعه قبل حدوثه عندكم معنى ثابتًا قائمًا بنفسه موجودًا؟ وهل حدث الفلك فى ذلك المكان المطلق الذى هو الخلاء أم فى غيره؟

فإن كان حدث فى غيره. فها هنا إذًا مكان آخر غير الذى سميتموه خلاء.

وهو إمّا مع الذى ذكرتم فى حيز واحد أم هو فى حيّز آخر.

فإن كان معه فى حيز واحد، فالفلك فيه حدث ضرورة، وقد قلتم إنه لم يحدث فيه. فهو إذًا حادث فيه غير حادث فيه، وهذا تناقض ومحال.

وإن كان فى حيز آخر فقد أثبتم النهاية للخلاء، إذ الحيز الآخر الذى حدث فيه الفلك ليس هو فى ذلك الخلاء، وهذا ينطوى فيه بالضرورة نهاية الخلاء الذى ذكرتم فهو متناهٍ لا متناه؛ وهذا تناقض وتخليط.

وإذا بطل أن يكون غير متناه، وثبت أنه متناه، فهو المكان المعروف المعهود المضاف إلى المتمكن فيه، وهذا هو المكان الذي لا يعرف ذو عقل سواه. وإن كان الفلك حدث فيه والفلك ملاء بلا شك، ولم ينتقل الخلاء عندكم ولا بطل، فالفلك إذًا خلاء وملاءً معًا فى مكانٍ واحد. وهذا محال وتخليط.

فإن قالوا: بطل بحدوث الفلك ما كان منه فى موضع الفلك قبل حدوث الفلك أو قالوا: انتقل. فقد أوجبوا له النهاية ضرورة. إمّا من طريق الوجود بالبطلان؛ إذ لا يَفْسُدُ ويبطل إلاَّ ما كان حادثًا لا ما لم يزل. وإمّا من طريق المساحة بالنقلة، إذ لو لم يجد أين ينتقل لم تكن له نقلة، إذ معنى النقلة إنما هو تصيير الجرم إلى مكان لم يكن فيه قبل ذلك، أو إلى صفة لم يكن عليها قبل ذلك.

ووجودُه مكانًا ينتقل إليه موجِبٌ أنه لم يكن فى ذلك المكان الذى انتقل إليه قبل انتقاله إليه وهذا هو إثبات النهاية ضرورة فهذا هو الذى أبطلوا.

ويلزمهم فى ذلك أيضًا أن يكون متحيزًا ضرورة لأن الذى بطل منه هو غير الذى لم يبطل، والذى انتقل هو غير الذى لم ينتقل.

وهو إذا كان كذلك، فإمّا هو جسم ذو أجزاء، وإمًّا هو محمول فى جسم فهو ينقسم بانقسام الجسم.

وقد أثبتنا النهاية للجسم فى غير هذا المكان من كتابنا هذا بما فيه البيان الضرورى، والحمد لله رب العالمين.

وأيضًا، فإن كان لم يبطل: فالذى كان منه فى موضع الفلك ثم لم يبطل، ولا انتقل لحدوث الفلك فيه؛ فهو والفلك إذًا موجودان فى حيز واحد معًا، فهو إذًا ليس مكانًا للفلك لأن المكان لا يكون مع المتمكن فيه فى مكان واحد، وهذا يعرف بأولية العقل. ولو كان ذلك لكان المكان مكانًا لنفسه، ولما كان واحدًا منهما أولى بأن يكون مكانًا للآخر من الآخر بذلك. ولا كان أحدهما أولى أيضًا بأن يكون متمكنًا فى الآخر من الآخر فيه. وكل هذا فاسد ومحال بالضرورة.

وأيضًا فإن الخلاء عندهم مكان لا متمكِّن فيه، والفلك عندهم موجود فى الخلاء إذ لا نهاية للخلاء عندهم من طريق المساحة، فإذا كان الفلك متمكنًا فى الخلاء عندهم والخلاء عندهم مكان لا متمكِّن فيه، فالخلاء إذن مكان فيه متمكن ليس فيه متمكن. وهذا محال وتخليط.

وهذا بعينه لازم فى قولهم إن ذلك الجزء من الخلاء لم ينتقل لحدوث الفلك فيه، فإن قالوا انتقل، فإنما صار إلى مكان لم يكن فيه قبل ذلك خلاء ولا ملاء[1] فقد ثبت عدم الخلاء والملاء فيما فوق الفلك ضرورة، وهذا خلاف قولهم.

وإن قالوا بطل؛ لزمهم أيضًا أنه قد عدَّته المدد ضرورة، فإذا عدَّته المدد فقد تناهى من أوله بالمبدأ ضرورة.

فإن قالوا: بل لم يحدث الفلك فى شىء من ذلك المكان الذى هو الخلاء. فقد أثبتوا حيزًا آخر، ومكانًا للفلك غير الخلاء الشامل عندهم.

وإذا كان فقد تناهى كلا المكانين من جهة تلاقيهما ضرورة، وإذا تناهيا من جهة

---

(١) ملا فلان: ملوًا: عدا، الملاء: الصحراء ومتسع من الأرض، والقطعة من الزمن، ويقال: مرّ ملا من الليل: ما بين أوّله إلى ثلثه، أو قطعة منه، الملوان: الليل والنهار، الملى: الرماد الحار والحين من الدهر، المليّ: الزمان الطويل وفي التنزيل العزيز: ﴿واهجرني مليّا﴾ الوسيط مادة (ملا).

تلاقيهما لزمتهما المساحة، ووجب تناهيهما لتناهى ذرعهما ضرورة.

ويُسألون أيضًا عن هذا الخلاء الذى هو عندهم مكان لا متمكّن فيه: هل له مبدأ متصل بصفحات الفلك العليا أم لا مبدأ له من هنالك؟ ولابد من أحد الأمرين ضرورة.

فإن قالوا: لا مبدأ له. وهو قولهم. قيل لهم إنّ قول القائل «مكان»، إنما يفهم منه ما يتمثل فى النفس من المقصود بهذه اللفظة وموضعها فى اللغة لتكون عبارة عن التفاهم بالمراد بها أنه مساحة، ولا بدّ للمساحة من الذرع ضرورة، ولابد للذرع من مبدأ لأنه كمية، والكمية أعداد مركبة من الآحاد.

فإن لم يكن له مبدأ من واحد، اثنين، ثلاثة، لم يكن عدد. وإذا لم يكن عدد لم يكن ذرع أصلاً. وإذا لم يكن ذرع لم تكن مساحة، ولا انفساح ولا مسافة.

وكل هذه الألفاظ واقعة إما على ذرع المذروع، وإما على مذروعٍ بالذرع ضرورة. فإن قالوا: له مبدأ من هنالك وجبت له النهاية ضرورة لحصر العدد لمساحته بوجود المبدأ له.

ويسألون أيضًا: أمماس هو للفلك أو غير مماس، وباين[1] عنه أم غير باين؟

فإن قالوا: لا مماس ولا مباين. فهذا أمر لا يعقل بالحس، ولا يتشكل فى النفس، ولا يقوم على صحته برهان أبدًا إلاَّ فى الأعراض المحمولة فى الأجسام. وهم يقولون: إن الخلاء عرض محمول فى جسم. وكل دعوى لم يقم عليها دليل فهى باطلة مردودة.

وإن أثبتوا المماسة أو المباينة وجب عليهم ضرورة إثبات النهاية له كما لزم بإثبات المبدأ، إذ النهاية منطوية فى ذكر المبدأ، والمماسة أو المباينة ضرورة لا شك فيها. وبالله التوفيق.

ويُسألون أيضًا عن هذا الخلاء الذى يذكرون، والزمان الذى يثبتون: أمحمولان هما أم حاملان؟ أم أحدهما محمود والثانى حامل؟ أم كلاهما لا حامل ولا محمول؟

فأيهما أجابوا فيه بأنه حامل فلا شك فى أن محموله غيره؛ إذ لا يكون الشىء حاملاً لنفسه، فله إذًا محمول لم يزل وهو غير الزمان. فإن قالوا ذلك كُلِّموا بما قدّمنا قبلُ على أهل الدّهر القائلين بأزلية العالم.

---

(١) بان منه، وعنه ـ بينا، وبيونًا، وبينونة: بعد وانفصل، ويقال: بانت المرأة عن زوجها، ومنه: انفصلت بطلاق فهي بائن، وباينه: فارقه، وهجره، وتباينا: بان كل واحد منهما عن الآخر، وتباين ما بينهما: افترقا وتهاجرا، تبين: مطاوع بينه. الوسيط مادة «بان» (١/ ٨٠).

وأيضًا فـإن كان المكان حـاملاً فلو يخلو ضـرورة من أحد وجهـين: إما أن يكون حامـلاً لجرم متـمكن فيه، وهذا يوجب النهـاية له لوجوب نهـاية الجرم المتمكن فـيه بالدلائل التى قدمنا فى إثبات نهايات الأجرام. وإمَّا أن يكون حاملاً لكيفياته، فإن كان حاملاً لكيفياته فهو مركب من هيولاه[١] وأعراضه، وجنسه وفصوله.

وبالضرورة يـعلم كل ذى حس سليم أن كل مركب فـهو متـناه بالجرم[٢] والزمان بالدلائل التى قدمنا. ولا سبيل إلى حَمْلٍ ثالث.

وأيهما قـالوا فيه إنه محمـول فإن يقتضى حاملاً، وبعـكس الدليل الذى ذكرنا آنفًا سواء بسواء.

وأيهما قالوا فيه إنه حامل محمول وجب كل ما ذكرنا فيه أيضًا بعكسه.

وأيهما قالوا فيه لا حامل ولا محمول، فلا يخلو من أن يكون باقيًا أو يكون بقاء.

فإن كان باقيًا فهو مفتقر إلى بقاء وهو مدته إذ لا باقى إلا ببقاء.

وإذا كان بقاء فلابدّ له من باق به، وهذا من باب الإضافة.

والمدة وهى البقاء إنما هى مـحمولة، وباعثة للباقى بهـا ضرورة، هذا الذى لا يقوم فى العقل سواه، ولا يقوم برهان إلاَّ عليه.

ويُسألون أيضًـا عن هذا الزمان الذى يذكـرون: هل زاد فى مدة اتصاله مـذ حدث الفلك إلى يومنا هذا، أو لم يزد فى أمده؟

فإن قالوا: لم يزد ذلك فى أمده، كـانت مكابرة لأنها مدة متصلة بها مضـافة إليها وعدد زائد على عدد.

فإن قالوا: زاد ذلـك فى أمده سئلوا: متى كـانت تلك المدة أطول؟ أقبل الزيادة أم هى وهذه الزيادة معًا؟

فإن قالوا: هي والزيادة معـها، فقد أثبتوا النهاية ضرورة إذ ما لا نهـاية له فلا يقع فيه زيادة ولا نقص، ولا يكون شيء مساويًا له، ولا أكثر منه، ولا أنقص منه. ولا يكون هو

(١) الهيـولي: بضم الياء مـخففـة أو مشـددة مادة الشيء التي يصنع منهـا، كالخشب للـكرسي والحديد للمسمار، والقطن للملابس القطنية، وعند القدماء.
مادة لا شكل ولا صورة معـينة قابلة للتشكيل والتصوير في شـتى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية، والتخطيط المبدئي للصورة أو التمثال . . . الوسيط (١٠٠٤/٢).

(٢) الجِرْم: الجسد (ج) أجْرام، وجُرُوم، وجُرُمٌ، وجِرم الصَّوت: جهارتُه. الوسيط (١١٨/١).

أيضًا منفصلاً أصلاً، فلا يكون مساويًا لنفسه كما هو، ولا أكثر من نفسه ولا أقل منه.

فإن قالوا: ليست هي والزيادة معها أطول منها قبل الزيادة، فقد أثبتوا أن الشيء وغيره معه ليس أكثر منه وحده، وهذا باطل.

وهم يقولون: إن الخلاء والزمان المطلق شيئان متغايران، فيقال لهم: فإذا هما كذلك فبأى شيء انفصلا بعضهما من بعض؟

فإن قالوا: انفصل بشيء مَّا وذكروا في ذلك أيَّ شيء ذكروه، فقد أثبتوا لهما التركيب من جنسهما وفصلهما.

وأيضًا فجعلهم لهما شيئين إيقاع منهم للعدد عليهما، وكل عدد فهو متناه محصور، وكل محصور فقد سلكته الطبيعة، وكل ما سلكته الطبيعة فهو متناه ضرورة.

فإن أرادوا إلزامنا فى البارى تعالى مثل ما ألزمناهم فى هذا السؤال، فقالوا: أيما أكثر: البارى تعالى وحده أم البارى وخلقه معًا؟

قلنا: هذا سؤال فاسد بالبرهان الضرورى؛ لأن هذا البرهان إنما هو على وجوب حدوث الزمان، وما لم ينفك من الزمان، وعلى حدوث النوامى كلها فقط. والبارى تعالى لا زمان له ولا هو من النوامى.

وأيضًا فإن البارى تعالى ليس عددًا، ولا بعض عدد، ولا هو أيضًا معدود ولا بعض المعدود، لأن واحدًا ليس عددًا بالبرهان الذى نورده فى الباب الذى يتلو هذا الباب إن شاء الله تعالى.

ولا واحد على الحقيقة إلا الله عزّ وجل فقط. فهو الذى لا يتكثر ألبتة ولا ينضاف إلى سواه، إذ لا يجمعه مع شيء سواه عدد ولا صفة ألبتة، لأن كل ما وقع عليه اسم واحد مما دونه تعالى فإنما هو مجاز لا حقيقة. لأنه إذا قَسِّم استبان أنه كان كثيرًا لا واحدًا. فلذلك وقع العدد على الأجرام والأعداد المسماة آحادًا فى العالم. وأما الواحد فى الحقيقة فهو الذى ليس كثيرًا أصلاً، ولا يتكثر بوجه من الوجوه فلا يقع عليه عدد بوجه من الوجوه، لأنه يكون حينئذ واحدًا لا واحدًا كثيرًا وهذا تخليط ومحال وممتنع لا سبيل إليه.

فلا يجوز أن يضاف الواحد الأول إلى شيء مما دونه لا فى عدد، ولا كمية، ولا في جنس، ولا فى صفة، ولا فى معنى من المعانى أصلاً.

وبالله تعالى التوفيق.

فإن ذكر ذاكر قول الله تعالى: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا﴾ [سورة المجادلة: ٧].

فمعنى قوله تعالى: «هو رابعهم، وهو سادسهم»، إنما هو فعل فَعَلَه فيهم وهو أنه ربَّعهم بإحاطته بهم لا بذاته، وسدَّسهم بإحاطته بهم لا بذاته، أو قد يُربِّعهم بِمَلَكٍ يشرف عليهم، ويُسدِّسهم كذلك.

وبرهان هذا القول: أن الله تبارك وتعالى إنما عنى بهذه الآية ٠ بلا خلاف بل بضرورة العقل من كل سامع- أنه لا تخفى عليه نجواهم، وهذا نص الآية لأنه تعالى افتتحها بذكر نجوى المتناجين، إنما أراد عزّ وجل علمه بنجواهم لا أنه معدود معهم بذاته إلى ذواتهم. حاشا لله من ذلك. إذ من المحال الممتنع الخارج عن رتبة الأعداد والمعدودين أن يكون الله عزَّ وجل معدوداً بذاته مع ثلاثة بالهند، ومع ثلاثة بالسند، ومع ثلاثة بالعراق، ومع ثلاثة بالصين فى وقت واحد؛ لأنه لو كان ذلك لكان الذين هو رابعهم بالهند، مع الثلاثة الذين هو رابعهم بالصين، ثمانية كلهم لأنهم أربعة وأربعة بلا شك، فكان تعالى حينئذ يكون اثنين وأكثر وهذا محال.

وكذلك إذا كان بذاته سادسًا لخمسة ها هنا فهم ستة، ورابعًا لثلاثة هنالك فهم أربعة فهم كلهم بلا شك عشرة فهو إذًا اثنان.

وكذلك قوله تعالى فى الآية نفسها ﴿إلا هو معهم أين ما كانوا﴾ [سورة المجادلة: ٧].

إنما أضاف تعالى الآينية إليهم لا إلى نفسه تعالى - معناه أينما كانوا فهو تعالى معهم بإحاطته، إذ محال أن يكون بذاته فى مكانين[1].

فبطل اعتراضهم والحمد لله رب العالمين كثيراً.

---

(١) هذا معتقد أهل السنة والجماعة أي بالعلم، وهذا ليس تأويلاً لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره، وهذه المعاني هي الظاهرة من هذه الألفاظ بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها، وإذا تفرد هذا فالمتبادر إلى الفهم من قوله تعالى: ﴿الله معك﴾ بالحفظ والكلاءة، وذلك قال الله تعالى لموسى: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦] ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص لوجوده في حق غيرهم كوجوده فيهم.
ثم قد ثبت بكتاب الله والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف أن الله تعالى في السماء على عرشه، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوظة بها، دالة على إرادة العلم منها، وهو قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾، ثم قال في آخرها: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فبدأها بالعلم، وختمها به، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم . . . ذم التأويل (٦٣) تحقيق الشيخ/ عمرو عبد المنعم سليم.

وليس قول القائل: الله ورسوله، أو الله وعـمر، مما يعترض به علينا؛ لأننا لم نمنع من ضم اسمه تعالى إلى اسم غـيره معه، لأن الاسم كلمة مركبـة من حروف الهجاء وإنما منعنا من أن تُعد ذاته تعـالى مع أى شىء غيره، إذ العـدد إنما هو جمع شىءٍ إلى غيره فى قـضية مَّا والله تعالى لا يجمـعه وخلقه شىء أصلاً، فصح انتـفاء العددَ عنه تعالى. وإذْ صحّ انتفاء العدد عنه صح أنه ليس معدوداً ألبتة، والحمد لله رب العالمين.

ويُسألون أيضـًا: أهذا الزمان والمكان اللذان يذكـران، أهما واقـعان تحت الأجناس والأنواع أم لا؟ وهل هما واقعان تحت المقولات العشر[1] أم لا؟

فإن قالوا: لا، فقد نفوهما أصلاً، وأعدموهما ألبتة، إذ لا مقول من الموجودات إلاّ هو واقع تحتهـا، وتحت الأجناس والأنواع. حاشا الحق الأول الواحـد الخالق عزَّ وجل الذى علِم بضرورة الدلائل، ووجب لها خروجه عن الأجناس والأنواع والمقولات.

وبالجملة شاءوا أو أبوا، فالخلاء والزمان المطلق اللذان يذكران إن كانا موجودين فهما واقعان تحت جنس الكمية والعدد ضرورة، فإذا كان ذلك كذلك فهذا الزمان الذى ندريه نحن وهم؛ وذلك الزمان الذى يدّعونه هما واقعان جميعًا تحت جنس «متى».

وكذلك المكان الذى يدّعونه واقع مع المكان الذى نعرفه نحن وهم تحت جنس «أين».

وبالضرورة يجب أن مـا لزم بعض ما تحت الجنس مما يوجبـه له الجنس - فإنه لازم لكل ما تحت ذلك الجنس، وإذْ لا شك فى هذا فهما مركبـان، والنهاية فيهما موجودة ضرورة إذ المقولات كلها كذلك.

وأيضًا فإن المكان لابدّ له من مدّة يوجد فـيها ضرورة، فنسألهم: هل تلك المدة هى الزمان الذى يدّعونه أم هى غيره؟

فإن كانت هى هو، فهو زمان للمكان فهو محمول فى المكان، فهو ككل زمان لذى الزمان فلا فرق.

وإن كانت غيـره، فها هنا إذن زمن ثالث غير مدة ذلك المكان، وغـير الزمان الذى ندريه نحن وهم، وهذه وسـاوس لا يعجز عن ادّعـائها كل من لم يبـال بما يقول ولا

---

(١) في هامش العلمية

المقولات العشر الأرسطية هي: الكمية، والكـيفية، والإضافة، والمكان، والزمان، والوضع، والملك، والفعل والانفعال، والجوهر.

(انظر الموسوعة العربية الميسرة ص ١٧٣١، ١٧٣٢).

استحيا من فضيحة.

ويقال لـهم: إذ ليس المكان الذى تدّعونه والزمـان الذى تدّعونه واقـعين مع المكان المعهود والزمان المعهود تحت جنس وحَدّ واحـد. . . فلم سميتموه مكانًا وزمانًا؟ وهلاَّ سمـيتموهمـا باسمين مفردين لـهما ليبـعدا بذلك عن الإشكال والتلبيس والسـفسطة بالتخليط بالأسماء المشتركة؟!.

فإن كانا مع الزمـان والمكان المعهودين تحت جنس واحد، فقـد بطلت دعواكم زمانًا ومكانًا غير الزمان والمكان المعهودين بالضرورة. وبالله تعالى التوفيق.

ويُسـألون أيضًـا عن هذا الزمـان والمكان غـير المعـهـودين: أهمـا داخل الفلك أم خارجه؟ أم لا داخل ولا خارج؟

فإن قـالوا: هما داخل الفلك فالخلاء، إذًا هو المـلاء، والمكان إذًا فى المتمكن يعنى فى داخله. وهذا محال، والزمان إذن هو الذى لا يُعرف غيره.

وإن قالوا: هما خارج الفلك، أوجبوا لهما نهايةً ابتداءً مما هو خارج الفلك.

وإن قالوا: لا خارج ولا داخل، فـهذه دعوى مفتـقرة إلى برهان، ولا برهان على صحتها فهى باطلة.

فإن قالوا: أنتم تقولون هذا فى البارى تعـالى؟ قلنا لهم: نعم، لأن البرهان قد قام على وجوده، فلما صحّ وجـوده تعالى قام البرهان بوجوب خلافـه لكل ما فى العالم على أنه لا داخل ولا خارج، وأنـتم لم يصح لكم برهان على وجود الخـلاء والزمان الذى تدّعونه، فصار كلامكم كله دعوى. وبالله التوفيق.

قـال أبـو مـحـمـد: ولم نجـد لـهم سـؤالاً أصـلاً، ولا أتونا قـط بـدليـل فنورده عنـهم، ولا وجـدنـا لـهم شيـئًا يـمكن الشـغب بـه فى أزليـة الخـلاء والمدة فنورده عنهم، وإن لم يتنبهـوا له، وإنما هو رأى قلدوا فيه بعض قدماء المـلحدين فقط. وبالله التـوفيـق.

قـال أبو مـحمـد: ومما يَبْطُل به الخـلاء الذى سمـوه مكانًا مطلقًا، وذكـروا أنه لا يتناهى، وأنه مكان لا متمكن فـيه، وأنه برهان ضرورى لا انفكاك منه -وأطرف شىء أنه برهانهم الذى مـوَّهوا به وشغبـوا بإيراده، وأرادوا به إثبات الخـلاء- وهو أننا نرى الأرض والماء والأجسام التـرابية من الصخور والزئبق ونحو ذلك طباعـها السفل أبدًا،

وطلب الوسط والمركز، وأنهـا لا تفارق هذا الطبع فتصعـد إلاَّ بقسر[(١)] يغلبها ويدخل عليها كرفعنا الماء والحجر قهراً، فإذا رفعناهـما ارتفعا، فإذا تركناهما عادا إلى طبعهما بالرسوب، ونجد النار والهواء طبعهما الصعود والبعد عن المركز والوسط، ولا يفارقان هذا الطبع إلا بحركة قسر تدخل عليـهما. ويرى ذلك عيانًا كالزق[(٢)] المنفوخ، والإناء المجوف المصوب فى الماء، فإذا زالت تلك الحركة القسـرية رجعا إلى طبعهما، ثم نجد الإناء المسمى سارقـة الماء يبقى الماء فيها صعدًا ولا يـسفل ونجد الزرّاقة[(٣)] ترفع التراب والزئبق والماء، ونجد إذا حفرنا بئـرًا امتلأ هواء وسفل الهواء حينئذ. ونجـد المحجمة[(٤)] تمص الجسم الأرضى إلى نفسها.

فليس كل هذا إلاَّ لأحد وجـهين لا ثالث لهما؛ إمَّا عـدم الخلاء جملة كمـا نقول نحن وإمَّا لأن طبع الخلاء يجتذب هذه الأجسام إلى نفسه كما يقول من يثبت الخلاء.

فنظرنا فى قولهم: إن طبع الخـلاء يجتذب هذه الأجسـام إلى نفسه كمـا يقول من يثبت الخلاء فوجدناه دعوى بلا دليل فسقط.

ثم تأملناه أخرى: فوجدناه عائدًا عليهم، لأنه إذا اجتُذبت الأجسام ولابد فقد صار ملاء، فـالملاء حاضر موجـود، والخلاء دعوى لا برهان عليـها؛ فسـقطت وثبت عدم الخلاء.

ثم نظرنا فى قـولنا، فـوجدناه يُعلم بالمشـاهدة، وذلك أننا لم نجـد لا بالحس ولا بتوهم العقل بالإمكان مكانًا يبقى خاليًـا قطّ دون متمكّن، فصحّ الملاء بالضرورة وبطل الخلاء، إذ لم يقم عليه دليل ولا وجد قط، وبالله تعالى التوفيق.

ثم نقول لهم: إن كـان خارج الفلك خلاء على قـولكم فلا يخلو من أن يكون من جنس هذا الخلاء الذى تدّعون أن يجـتذب الأجسام بطبعه، أو يكون من غـير جنسه، لابد من أحد هذين الوجهين ضرورة، ولا سبيل إلى ثالث ألبتة.

---

(١) قسر فلانًا: قسراً: قهره على كره، وعلى الأمر: أكرهه عليه:
اقتـسره: غلبـه وقهره، وعلى الأمـر: قسره، قـسور الرجل: أسن والنبت: كـثر والتف، القـسور: الأسد. الوسيط (٢/ ٧٣٣).

(٢) الزق: وعاء من يجز شعره ولا ينتف للشراب وغيره ج (أزْقَاق) (وزِقَاق).

(٣) الزراقة: أنبوبة من الزجاج ونحوه أحد طرفيها واسع والآخر ضيق، في جوفها عود يجذب السائل ثم يدفعـه الزرق: الذكـر من البـزاة (ج) (زراريق)، الزّروق: القـارب يدفع بـالمجـاديف أو بالآلة ج (زوارق). الوسيط (١/ ٣٩٣).

(٤) آلة لمص الدم الفاسد من جسم الإنسان الوسيط (١/ ١٥٨).

فإن قـالوا: هو من جنسه - وهو قَولهم - فـقد أقروا بأن طبع هذا الخـلاء الغالب بجميع الطبائع هو أن يجـتذب المتمكنات إلى نفسه فيمتلىء بهـا، حتى أنه يحيل قوى العناصر عـن طباعهـا، فوجب أن يكون ذلك الخـلاء الخارج عن الفلك كـذلك أيضًا ضرورة؛ لأن هذه صـفة طبعـه وجنسه، فوجب بذلك ضـرورة أن يكون متمكنًا فـيه ولابدَّ وإذا كان هذا -وذلك الخلاء عندهم لا نهاية له- فالجسم المالىء له أيضًا لا نهاية له، وقد قـدَّمنا البراهين الضـرورية أنه لا يجوز وجـود جسم لا نهايـة له وهذا القول يوجب وجود جسم لا نهاية له، وكل ما أوجـب كون ما لا يكون فهو باطل لا يكون أصلاً فالخلاء باطل.

ولو كان ذلك أيضًا لكان ملاء لا خلاء، وهذا خلاف قولهم.

ثم يقال لهم: بأى شيء عـرفتموه؟ وبم اسـتدللتم عليه؟ وكيف وجب أن تـسموه خلاء، وهو ليـس خلاء، وهذا لا مخلص لهم مـنه. وبالله تعالي التوفـيق. وهم فى هذا سواء ومن قـال: إنَّ فى مكان خارج من العالم ناسًا لا يحـدُّون بحدّ الناس، ولا هم كهؤلاء الناس، أو من قال: إنَّ في خارج الفلك نارًا غـير محرقة ليست من جنس هذه النار وكل هذا حمق وهوس.

قال أبو محـمد: وكل ما أدخلنا فى الباب من إبطال قولـهم بأزلية المكان والزمان، فهو لازم بأزلية النفس أيضًا ولا فرق، وبالله تعالي التوفيق.

باب الكلام على من قال: إن فاعل العالم ومدبّره أكثر من واحد

قال أبو محمد: افترق القائلون بأن فاعل العالم أكثر من واحد فرقًا، ثم ترجع هذه الفرق إلى فرقتين:

(أ) فـإحدى الفـرقتين تذهب إلـى أن العالم غـير مـدبّريه، وهم القـائلون بتدبيـر الكواكب السبعـة، وأزليتها، وهم المجوس؛ فإن المتكـلمين ذكروا عنهم أنهم يقولون: إن البـارى عزّ وجل لما طالت وحـدته اسـتوحش، فلمـا اسـتوحش فكر فكرة سـوء فتجسمت فـاستحالت ظلمة، فحدث منهـا «اهرمن» وهو إبليس، فرام البارىء تعالى إبعاده عـن نفسه فلم يـستطع فتـحرز منه بخلـق الخيرات، وشـرع «اهرمن» فى خلق الشر، ولهم فى ذلك تخليط كثير.

قال أبو محمد: وهذا أمر لا تعرفه المجوس بل قولهم الظاهر هو أن البارى تعالى،

وهو «أورمن» وإبليس وهو «اهرمن» و«كـام» وهو الزمان، و«جـام» وهو المكان، وهو الخـلاء أيضًـا، و«توم» وهو الجـوهر، وهو أيضًـا «الهـيـولى»، وهو أيضًـا «الطينة» و«الخـميـرة» خمـسة لـم تزل. وأن «أهرمن» هو فـاعل الشرور. وأن «أورمن» فـاعل الخيرات. وأن «توم» هو المفعول فيه كل ذلك.

وقـد أفردنا فى نقض هذه المقـالة كتـابًا فى نقض كـلام محـمد بن زكـريا الرازى الطبيب، فى كتابه الموسوم بـ«العلم الإلهى».

والمجوس يعظـمون الأنوار، والنيران، والمـياه، إلاَّ أنهم يقرون بـنبوّة «زرادشت»، ولهم شرائع يضيفونها إليه.

ومنهم «المزدكية»: وهم أصحاب مزدك الموبذ، وهـم القائلون بالمساواة فى المكاسب، والنساء.

والخُرَّمـية: أصحاب بابـك. وهم فرقة من فرق المرذكـية، وهـم أيضًا سـر مذهب الإسماعيلية[1]، ومن كان على قول القرامطة، وبنى عبيد وعنصرهم.

وقد يضـاف إلى جملة من قال إن مدبّر العـالم أكثر من واحد الصـابئون[2]، وهم

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنَّة النبوية (٤/ ١٠٠) إن ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، وقد صنف العلماء كتبًا في كشف أسـرارهم وهتك أستارهم وبيان كذبهم في دعوى النسب ودعوى الإسلام وأنهم بريئون من النبي ﷺ نسبًا ودينًا.

قال الإيجي في المواقف (٣/ ٦٨٤): ولقبـوا بسبعة ألقاب بالباطنية لقـولهم بباطن الكتاب دون ظاهره فإنهم قالوا للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه، وظاهره المعلوم من اللغة ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر.

ولقبوا بالقرامطة لأن أولهم الذي دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له حمدان قرمط وهي إحدى قرى واسط،

وبالخرمية: لإباحتهم المحرمات والمحارم.

وبالسبـعية: لأنهم زعمـوا أن النطقاء بالشرائع أي الرسل سـبعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعـيسى ومحمد ومحمد المهدي سابع النطقاء . . .

وبالإسماعيلية: لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعـفر الصادق وهو أكبر أبنائه وقيل لانتساب زعيمهم إلى محمد بن إسماعيل. المواقف (٣/ ٦٨٤: ٦٨٨).

(٢) قال شيخ الإسـلام ابن تيمية: وقد ذكر الله قـصتهم في القرآن في غير مـوضع وأولئك هم الصابئون المشركـون الذين ملكهم نمروذ وعلماؤهم الفـلاسفة من اليـونانيين وغيرهم الذين كـانوا بأرض الشام والجزيرة والعراق . . . وهم الذين كـانوا يقاتلون بني إسرائيل فيغلبـون تارة ويغلبون تارة وسنحاريب وبخت نصرهم ملوك الصابئة بعد الخليل والنمروذ الذي كان في زمانه.

انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٤٦).

يقولون بقدم الأصلين على مـا قدمنا من نحو قول المجوس، إلاَّ أنـهم يقولون بتعظيم الكواكب السـبعـة، والبـروج الاثنى عـشـر، ويصـورونهـا فى هيـاكلهم ويقـولون بقدمهـا، ويقربون الذبائح، والدخن[١]، ولهم صلوات خمس فى اليـوم والليلة تقرب من صلوات المسلمين، ويصومون شهر رمضان ويسـتقبلون فى صلاتهم الكعبة والبيت الحرام، ويعظمون مكة والكعبة، ويحرمون الميتة، والدَّم، ولحم الخنزير، ويحرمون من القرائب مـا يحرم على المسلمين، وعلى نحـو هذه الطريقة تفعـل الهند بالبِدَدة[٢] فى تصـويرها على أسـمـاء الكواكب وتعظيـمهـا، وهو كـان أصل الأوثان فى العـرب، والدقاقـرة في السودان، حـتى آل الأمر طول الزمـان إلى عبادتهم إيّـاها. وكان الذى ينتـحله الصابئـون، أقدم الأديان على وجـه الدهر، والغالب على أهل الدنـيا إلى أن أحدثوا فـيه الحوادث، وبدّلوا شـرائعه بما ذكرنا، فـبعث الله عزَّ وجـل إليهم إبراهيم خليله ﷺ بدين الإسلام الذى نحن عليه الآن، وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السمحة التى أتى بها محمد ﷺ، من عند الله تعالى. فبيّن لهم كما نصّ فى القرآن بطلان ما أحدثوه، من تعظيم الـكواكب وعبادتهـا وعبادة الأوثان، فلقى منهم مـا نصّه الله فى كتابه، وكانوا فى ذلك الزمان وبـعده يسمّون بالحنفاء[٣]، ومنهم اليوم بقايا «بحرّان»، وهم قليل جداًّ فهذه فـرقة. ويدخل فى هذه الفرقة من وجه، ويخـرج منها من وجهٍ آخر النصارى.

فأما الوجه الذى يدخلون به فهو قولهم بالتثليث، وأن خالق الخلق ثلاثة.

وأمّا الـوجه الذى يخـرجون به فـهو أنّ للصـابئين شرائع يسندونهـا إلى «هرمس» ويقولون إنه «إدريس»، وإلى قـوم آخرين، يذكرون أنهم أنبياء «كـإيلون» ويقولون إنه

---

(١) الدُّخْنُ: نبات عشبي من النجيليات، حبه صغير أملس كحب السمسم، ينبت بريا ومزروعًا، والدُّخنة ما يتبخر به من الطيب، وبخور خاص تقتل به الجراثيم. (الوسيط ١/ ٢٧٦).

(٢) البُدُّ: النصيب من كل شيء والعوض والفـراق، ويقال: لابد منه: لا مـفر ـ والصنم، أو بيـته، ج (أبداد)، وبِدادة . . . الوسيط (١/ ٤٣).

(٣) يقول الشهرستـاني في الملل والنحل: والحنفاء كانت تقول إنا نحتاج في المعرفـة والطاعة إلى متوسط من جنس البشـر تكون درجته في الطـهارة والعصمـة والتأييد والحـكمة فوق الروحـانيات يماثلنا من حديـث البشـرية، وبما يزنا من حيث الروحـانيات فـيتلقى الـوحى بطرف الروحانيـة ويلقى إلى نوع الإنسان بطرف البشـرية وذلك قوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مـثلكم يُوحى إليَّ أنما إلهكم إلهٌ واحدٌ﴾ (الملل والنحل ١/ ٢٢٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الخليل إبراهيم إمـام الحنفاء الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب واتفق أهل الملل على تعظيمه لقوله: ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ فتاوى ابن تيمية (٢/ ١٢٨).

«نوح» عليه السلام، و«اسفلانيوس» صاحب الهيكل الموصوف و«عاظيمون» و«يوداسف» وغيرهم. والنصارى لا يعرفون هؤلاء، لكن يقرون بنبوة كل نبى تعرفه من بنى إسرائيل، وإبراهيم وإسحاق، ويعقوب عليه السلام، ولا يعرفون نبوة إسماعيل، وصالح، وهود، وشعيب. وينكرون نبوة محمد ﷺ، وعلى إخوته الأنبياء عليهم السلام، والصابئون لا يقرون بنبوة أحد ممن ذكرنا أصلاً، وكذلك المجوس لا يعرفون إلاَّ زرادشت فقط.

(ب) وأما الفرقة الثانية فإنها تذهب إلى أنَّ العالم هم مدبروه لا غيرهم ألبتة، وهم: الديصانية، والمرقيونية، والمانية: القائلون بأزلية الطبائع الأربع وأنها بسائط غير ممتزجة، ثم حدث الامتزاج فحدث العالم بامتزاجها. فأمّا المانية فإنهم يقولون إنَّ أصلين لم يزالا وهما نور وظلمة، وأن النور والظلمة حيان، وأن كليهما غير متناه إلاَّ من الجهة التى لاقى منها الآخر، وأما من جهاته الخمس فغير متناه، وأنهما جرمان، ثم لهم فى وصف امتزاجهم أشياء شبيهة بالخرافات، وهم أصحاب «ماني». وقال المتكلمون: إن «ديصان» كان تلميذ «مانى» وهذا خطأ بل كان أقدم من «ماني» لأن «ماني» ذكره فى كتبه وردّ عليه. وهما متفقان فى كل ما ذكرنا إلاَّ أنَّ الظلمة عند «مانى» حية، وقال «ديصان»: هى موات.

وكان «مانى» راهبًا بحرَّان، وأحدث هذا الدّين، وهو الذى قتله الملك «بهرام بن بهرام» وإذ ناظره بحضرته «أذرباذ بن مار كسفند موبذ موبذان» فى مسألة قطع النسل، وتعجيل فراغ العالم، فقال له «الموبذ»: أنت الذى تقول بتحريم النكاح ليستعجل فناء العالم، ورجوع كل شكل إلى شكله، وإن ذلك حقٌّ واجب؟

.فقال له «مانى»: واجب أن يعان النور على خلاصه بقطع النسل مما هو فيه من الامتزاج.

فقال له: «أذرباذ» فمن الحق الواجب أن يُعجَّل لك هذا الخلاص الذى تدعو إليه، وتعان على إبطال هذا الامتزاج المذموم. فانقطع «ماني». فأمر «بهرام» بقتل «مانى» فقتل هو وجماعة من أصحابه. وهم لا يرون الذبائح، ولا إيلام الحيوان، ولا يعرفون من الأنبياء عليهم السلام إلا عيسى عليه السلام وحده، ويقرون بنبوة «زرادشت» ويقولون بنبوة «مانى».

وقالت: «المزدقية» أيضًا كذلك إلاَّ أنهم قالوا: نور وظلمة لم يزالا، وثالث أيضًا

بينهما لم يزل، إلاَّ أن هؤلاء كلهم متفقون على أن هذه الأصول لم تحدث شيئًا هو غيرها، لكن حدث من امتزاجها ومن أبعاضها بالاستحالة صور العالم كله.

فهذه الفرق كلها مطبقة على أن الفاعل أكثر من واحد، وإن اختلف فى العدد والصفة، وكيفية الفعل، وإلزامات الشرائع.

وكلامنا هذا كلام اختصار وإيجاز وقصد إلى استيعاب قواعد الاستدلال، والبراهين الضرورية، والنتائج الواجبة من المقدمات الأولية الصحيحة، وإضراب عن الشغب والتطويل الذى يكتفى بغيره عنه، فإنما وعدنا بعون الله تعالى أن نبين بالبراهين الضرورية: أن الفاعل واحد لا أكثر ألبتة، ونبين بطلان أن يكون أكثر من واحد كما فعلنا بتأييد الله عزّ وجل، إذ بينا بالبراهين الضرورية أن العالم محدَث كان بعد أن لم يكن؛ وأن له مخترعًا ومدبرًا لم يزل فإذا ثبت أنه تعالى واحد بطلت الأقوال التى ذكرنا كلها وسقطت خرافاتهم المضافة إلى الأوائل الفاسدة فى وصفهم الفاعلين وكيفية أفعالهم، إذ لا تكون صفة إلاَّ لموصوف، فإذا بطل الموصوف بطلت الصفة التى وصفوه بها.

وأما الاشتغال بأحكام الشرعية فلسنا من ذلك فى شىء، لأنه ليس من الشرائع العلمية شىء يوجبه العقل، ولا شىء يمنع منه العقل، بل كلها من باب الممكن، فإذا قامت البراهين الضرورية على صحة قول الآمر بها، ووجوب طاعته، وجب قبول كل ما أتى به كائنا ما كان من الأعمال، ولو أنه قتل أنفسنا، وأبناءنا، وآباءنا، وأمهاتنا، وإذا لم يصح قول الآمر بها، ولم يصح وجوب طاعته لا يلتفت إلى ما يأمر به أى شىء كان من الأعمال.

وكل شريعة كانت على خلاف هذا فهى باطلة.

فكلامنا مع الفرق التى ذكرنا فى إثبات أن الفاعل الأول واحد لا أكثر، وإبطال أن يكون أكثر من واحد. وهو حاسم لكل شغب يأتون به بعد ذلك، وكاف من التكلف لما قد كفته المرء بيسير من البيان. وما توفيقنا إلا بالله تعالى.

ونبدأ بحول الله تعالى وقوته بإيراد عمدة ما موَّهوا به فى إثبات أن الفاعل أكثر من واحد. ثم ننقضه بحول الله تعالى وقوّته بالبراهين الواضحة، ثم نشرع إن شاء الله تعالى فى إثبات أنه تعالى واحد بما لا سبيل إلى ردّه ولا اعتراض فيه كما فعلنا فيما خلا من كتابنا والحمد لله رب العالمين.

فنقول وبالله تعالى التوفيق.

حجج القائلين بأن الفاعل أكثر من واحد

إنَّ عمدة ما عوّل عليه القائلون بأن الفاعل أكثر من واحد، استدلالان فاسدان:

أحدهما: هو استدلال: المانية[١]، والديصانية[٢]، والمجوس[٣]، والصابئة، والمزدكية[٤] ومن ذهب مذاهبهم، وهو أنهم قالوا: وجدنا الحكيم لا يفعل الشر، ولا

---

(١) المانية صاحبها رجل فارسي يقال له ماني فأظهر دين المانية وزعم أنه نبي فأخذه بهرام بن بهرام ملك الفرس فشقه نصفين وأخذ من أصحابه وممن يقول بقوله مائتي رجل، فغرس رؤوسهم في الطين منكسين حتى ماتوا منكسين. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٢٠٢) والتنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (١/ ٢٣).

(٢) قال الديصانية أن الظلام موات جاهل لا حس له وإن النور حي بنفسه حساس وأن سمع النور هو بصره وهو ذائقه. . . . وزعموا أن النور بياض كله وأن الظلام سواد كله وإنما اختلفت الألوان فصار منها صفرة وخضرة إلى غير ذلك لاختلاف اختلاط هذين اللونين وزعموا أن اللون هو الطعم . . . مقالات الإسلاميين (١/ ٢٣٩، ٣٤٩، ٣٥٠).

وحكى محمد بن شبيب عن الديصانية أنهم زعموا أن المعدل هو الإنسان الحساس الدراك إذ هو ليس بنور محض ولا ظلام محض وحكى عنهم أنهم يرون (المناكحة وكل ما فيه منفعة لبدنه وروحه حرامًا ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الألم . . الملل والنحل (١/ ٢٥٣) وانظر تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل (٨٥)، وتلبيس إبليس (٥٨) والروح (١٧٧).

(٣) وقالوا في المجوس أنهم أربع فرق زروانية ومسخية وفرمدينية وبها فريدية وذبائح جميعهم حرام وكذلك نكاح نسائهم حرام. (الفرق بين الفرق ١/ ٣٤٧).

قال الشهرستاني: أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين بل النور أزلي والظلمة محدثة ثم لهم اختلاف في سبب حدوثها أمن النور حدثت والنور لا يحدث شرًّا جزئياً فكيف يحدث أصل الشر أم من شيء آخر ولا شيء يشرك النور في الإحداث والقدم وبهذا يظهر ضبط المجوس . . .(الملل والنحل ١/ ٢٢٣)، وفضائح الباطنية (١٤: ١٢٦)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٦١، ٨٧) اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٩٥) إفحام اليهود (١/ ١٨٦).

(٤) قال الشهرستاني: المزدكية أصحاب مزدك، ومزدك هو الذي ظهر في أيام قباذ والد أنوشروان ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه واطلع أنوشروان على خزيه . . . حكى الوراق أن قول المزدكية كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين إلا أن مزدك كان يقول أن النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط، والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى . . .

وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحل الناس وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والكلأ وحكى عنه أنه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة (الملل والنحل ١/ ٢٥١) والتبصير في الدين (١٣٥) والفرق بين الفرق (١/ ٢٦٨)، وتلبيس إبليس (٩٥).

يخلق خَلْقًا ثم يسلط عليه غيره، وهذا عيب في المعهود. ووجدنا العالم كله ينقسم قسمين، كل قسم منهما ضد الآخر كالخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والحياة والموت، والصدق والكذب.

فعلمنا أن الحكيم لا يفعل إلاَّ الخير، وما يليق فعله به، وعلمنا أن الشرور لها فاعل غيره، وهو شر مثلها.

والاستدلال الثاني: وهو استدلال من قال بتدبير الكواكب السبعة، والاثنى عشر برجًا، ومن قال بالطبائع الأربع. وهو أن قالوا:

لا يفعل الفاعل أفعالاً مختلفة إلاَّ بأحد وجوهٍ أربعة:

إمَّا أن يكون ذا قوى مختلفة.

وإمَّا أن يفعل بآلات مختلفة.

وإما أن يفعل باستحالة.

وإما أن يفعل فى أشياء مختلفة.

قالوا: فلما بطلت هذه الوجه كلها، إذ لو قلنا: إنه يفعل بقوى مختلفة لحكمنا عليه بأنه مركب، فكان يكون من أحد المفعولات.

ولو قلنا: إنه يفعل باستحالة، لوجب أن يكون منفعلاً للشيء الذى أحاله، فكان يدخل فى جملة المفعولات.

ولو قلنا إنه يفعل فى أشياء مختلفة لوجب أن تكون تلك الأشياء معه، وهو لم يزل فتلك الأشياء لم تزل فكان حينئذ لا يكون مخترعًا للعالم ولا فاعلاً له.

قالوا: فعلمنا بذلك أن الفاعلين كثير، وأن كل واحد يفعل ما يشاكله.

إبطال هذه الأدلة:

قال أبو محمد: فهذه عمدة ما عوّل عليه من لم يقل بالتوحيد، وكلا هذين الاستدلالين خطأ فاحش ما نبين إن شاء الله تعالى.

فيقال وبالله تعالى التوفيق، لمن احتج بما احتجت به المانية، من أنه لا يفعل الحكيم الشر ولا العبث:

- لا يخلو علمكم بأن هذا الشيء شر وعبث من أحد وجهين لا ثالث لهما:

إمَّا أن تكونوا علمتموه بسمع وردكم وخبر.

وإمَّا أن تكونوا علمتموه بضرورة العقل.

فإن قلتم: إنكم علمتموه بطريق السمع. قيل لكم: هل معنى السمع شيء غير أن مبتدع الخلق ومرتبه سمّى هذا الشيء شرًّا وأمر باجتنابه، وسمّى هذا الشيء الآخر خيرًا وأمر بإثباته؟

- فلابدّ من نعم، إذ هو هذا معنى اللازم عند كل من قال بالسمع.

فيقال لهم: فإنما صار الشرّ شرًّا لنهى الواحد الأول عنه، وإنما صار الخير خيرًا لأمره به.

فلابدّ من نعم. فإذا كان هذا، فقد ثبت أن من لا مبدع ولا مدبر له ولا آمر فوقه لا يكون شيء من فعله شرًّا، إذ السبب فى كون الشرّ شرًّا هو الإخبار بأنه شر، ولا مخبر يلزم طاعته إلا الله تعالى.

فإن قالوا: فكيف يفعل هو شيئًا قد أخبر أنه شر؟

قيل لهم: ليس يفعل الجسم فيما يشاهد غير الحركة والسكون، والحركة كلها جنس واحد فى أنها نقلة مكانية، وكذلك السكون جنس واحد كله، فإنما أمرنا تعالى بفعل بعضها، ونهانا عن فعل بعضها، ولم يفعل هو تعالى الحركة قط على أنه متحرك بها، ولا السكون على أنه ساكن به، وإنما فعلهما على سبيل الإبداع. فتَحرُّكُنا نحن بحركة نهينا عنها، وسكوننا بسكون نهينا عنه هو الشر لا شر غيره أصلاً. وكذلك اعتقاد النفس ما نهيت عنه - وهذا كله غير موصوف به البارى تعالى.

وإن قالوا: علمنا ذلك ببداهة العقل.

قيل لهم وبالله التوفيق:

أليس العقل قوة من قوى النفس وداخلاً تحت الكيفية على الحقيقة أو تحت الجوهر على قول من لا عَقِل؟ فلابد من نعم، إنما يُؤْثِرُ العقل ما هو من شكله فى باب الكيفيات فيميز بين خطئها وصوابها، ويعرف أحوالها ومراتبها.

وأمَّا فيما هو فوقه، وفيما لم يزل والعقل معدوم، وفى مخترع العقل ومرتبه كما هو، فلا تأثير للعقل فيه، إذ لو أثّر فيه لكان مُحدثًا، لما قدّمنا من أنّ الأثر من باب المضاف، فهو يقتضى مؤثرًا فكان يكون البارى تعالى منفعلاً للعقل، وكان يكون العقل

فاعلاً فيه تعالى، وحاكمًا عليه جلّ الله عن ذلك.

وقد بيّنا فى كتابنا هذا أن البارى تعالى لا يشبهه شىء من خلقه بوجه من الوجوه، ولا يجرى مجرى خلقه فى معنى ولا حكم.

وذكرنا أيضًا فيه إبطال قول من قـال بتسمية البارى حيًّا، أو حكيمًا، أو قادرًا، أو غيـر ذلك من سائر الصفـات من جهة الاسـتدلال حاشـا أربعة أسمـاء فقط، وهى: الأول، الواحد، الحق، الخـالق فقط. وهذه الأسماء هـى التى لا يستحقـها شىء فى العالم غيـره؛ فلا أول سواه ألبتة، ولا واحـد سواه ألبتة، ولا خالق سـواه ألبتة، ولا حق سواه ألبتة على الإطلاق. وكل ما دونه تعـالى فإنما هو حق بالبارى تعالى، ولولا البارى تعالى ما كان شىء فى العالم حقًّا، وما دونه تعالى فإنما حُقَّ بالإضافة.

ولولا أن السمع قـد ورد بسائر الأسـماء التى ورد الخبـر الصادق بها، مـا جاز أن يسـمى الله عزَّ وجل بشىء منهـا، ولكن قـد بيّنا فى مكانه من هذا الكتـاب على أى شىء تسميته بما ورد السمع، وأن ذلك تسمـية لا يراد بها غيره تعالى، ولا يرجع منها إلى شىء سواه ألبتة.

وأيضًا فـإنَّ دليلهم فيما سـموا به البارى تعالى، وأجـروا عليه إقناعىّ شغبـىّ وفيه تشبيه للخالق بخلقه.

وفى تشبيههم له بخلقه حكم عليه بالحدوث، وأن يكون الفاعل مفعولاً، وقد قدمنا إبطال ذلك.

ويقال لهم: إن التزمتم أن يكون فاعل الشر فـيما عندنا عابثًا فقررتم بذلك على أن يكون فاعل العالـم واحدًا، فقد علمنا فـيما بيَّنَّا أن تارك الشىء لا يغيره وهو قادر على تغييره عابث ظالم.

ولا يخلو فاعل الخيرات عندكم من أن يكون قـادرًا على تغيير الشر والمنع منه أو لا يكون قادرًا على ذلك، فإن قلتم إنه قادر على تغييـره والمنع منه ولم يغيّره، فقد صار عندكم عابثًا ضرورة، فقد وقعتم فيما عنه فررتم ضرورة.

وإن قلتم: إنه غير قـادر على تغييره، ولا المنع منه، فهو بلا شك عـاجز ضعيف. وهذه صفة سوء عندكم، فـهلا تركتم القول بأنه أكثر من واحد لهـذا الاستدلال، فإنه أصح على أصولكم ومقدّماتكم؟

وأما نحن فمقدمتكم عندنا فاسدة بالبرهان الذى ذكرناه.

قال أبو محمد: والمانية تزعم أن النور كان فى العلو إلى ما لا نهاية له، وأن الظلمة فى السفل إلى ما لا نهاية له، وأن كل واحدٍ منهما متناهى المساحة من الجهة التى لاقى منها الآخر، وغير متناهٍ من جهاته الخمس، وأن اللذة للنور خاصة لا للظلمة، وأن الأذى للظلمة خاصة لا للنور.

قال أبو محمد: فأما بطلان هذا القول فى عدم التناهى من الجهات الخمس، فيفسد بما أوجبنا به تناهى جسم العالم.

وأمّا قولهم بالعلو والسفل فظاهر الفساد، لأن السفل لا يكون إلا بالإضافة، وكذلك العلو.

فكل علو فهو سفل لما فوقه حتى تنتهى إلى الصفحة العليا من الفلك الأعلى التى لا صفحة فوقها، وهم يقرون بهذا.

وكل سفل فهو علو لما تحته حتى تنتهى إلى المركز، وهم يقرون بهذا.

فصح ضرورة أن فى الظلمة على قولهم علوًا وأن فى النور سفلاً.

وأمَّا قولهم فى اللّذة والأذى ففاسدٌ جدًا؛ لأن اللذة لا تكون إلا بالإضافة وكذلك الأذى.

فإنَّ الإنسان لا يلتذ بما يلتذ به الحمار ويتأذى بما لا تتأذى به الأفعى؛ فبطل هَوَسُهم بيقين والحمد لله رب العالمين.

سؤال على المانية دامغ لقولهم بحول الله وقوته، وهو أن يقال لهم:

ألهذه الأجساد أنفس أم لا؟

فإن قالوا: لا. قيل لهم: فهذه الأجساد لا تخلو على أصولكم من أن يكون فى كل جسد منها نور وظلمة أو يكون بعض الأجساد نورًا محضًا، وبعضها ظلمة محضة؟

فإن قالوا: فى كل جسد نور وظلمة -قيل لهم: فهل يجوز من الظلمة فعل الخير؟ فلابدَّ من لا؛ لأنه لو فعلت الخير لانتقلت إلى النور، وكذلك لا يجوز أن يفعل النور شرًا لأنه كان يصير ظلمة.

فيقال لهم: فأى معنى لدعائكم إلى الخير، ونهيكم عن النكاح والقتل؟ وأخبرونا، من تدعون إلى كل ذلك؟

فإن كنتم تدعون النور فهو طبعه، وهو فاعل له بطبعه قبل أن تدعوه إليه، لا يمكنه أن يحول عـنه. فدعاؤكم له إلـى ما يفعلـه، وأمركم له بتـرك ما لا يفعله عـبث من النور، داع إلى المحال. وهذا خلاف أصلكم.

وإن كنتم تدعون للظلمـة فذلك عبث من النور الداعى لها إلـى ذلك، إذ لا سبيل لها إلى ترك طبعها.

وهكذا يقال لهم سواء بسواء، إن قالوا: إنَّ من الأجساد ما هو نور محض، ومنها ما هو ظلمة محضة.

وهكذا يسألون فى الأرواح إن أقروا بها.

ثم يسألون عـمن رأيناه ينكح، ويقـتل، ويظلم، ويكذب ثم تاب عن كل ذلك من القاتل الظالم؟ أهو النور أم الظلمة؟ ومن التائب؟ النور أم الظلمة؟

فأىّ ذلك قالوا فهو هدم مذهبهم، وقد جوَّزوا الاستحالة.

فإن قـالوا: معنى دعائنا إلـى ما ندعو إليـه من ذلك إنما هو حضٌ للنور على المنع للظلمة من ذلك.

قيل لهم: أكان النور قادرًا على منعها قبل دعائكم أم لا؟

فإن قالوا: كان قـادرًا. قيل لهم: فقد ظَلَمَ بتركه إيَّاها تظلم وهو يـقدر على منعها قبل دعائكم.

وإن قلتم: لم يَذكُرْ حتى نُبِّـه. قيل لهم: فهذا نقص منه وجهل، وصـفات شر لا تليق بالنور على قولكم.

وهذا ما لا انفكاك لهم منه.

وأيضًـا فيـقال لهم: إنَّ الدَّاعى منكـم إلى دينه لا يقول لمن دعـاه كف غيـرك عن ظلمــه، إنما يقـول له: كفّ عن ظـلمك، وارجع عن ضـلالك، ولقـد أحـسنت فى رجوعك عن الباطل إلى الحق.

فإن كنتم تأمرون بأن يخاطب بذلك الظلمة فالآمر بذلك كاذب آمر بالكذب.

وإن كنتم تأمرون بأن يخاطب بذلك النور، فالآمر بذلك أيضًا كاذب آمر بالكذب.

فإن قالوا: فـأى معنى لدعائكم إلى الخيـر، وقد سبق علم الله تعالى فـيمن يعلمه ومن لا يعلمه؟

قيل لهم: جـواب بعضنا فى هذا هو أنَّ كـل من يُدعى إلى الخير فـممكن وقـوعه منه، وممكن أيضًا فـعل الشر منه، ومتـوهم كل ذلك منه، فوجه دعائنا له مـعروف، وليس علم الله تعالى إجبارًا، وإنما هو أنه تعالى علم ما يختاره العبد.

وجواب بعضنا فى ذلك هو: أن فاعل كل ما يبدو فى العالم فعل خلق وإبداع فهو لله عزَّ وجل لا يتعقب عليه، فهو خـالق دعائنا من ندعوه. فإذ ذلك كذلك فلا يجوز سؤال الخالق لما شاء بلِمَ فعلت؟ وهذا هو الجواب الذى نختاره.

ويقال لهم أيضًـا: أخبـرونا عن «ماني» و«المسيح» و«زرادشت» وأنتم تـعظمونهم، أفيهم ظلمة أم كانوا أنوارًا محضة؟

فمن قولهم ولا بد: إن فـيهم ظلمة، لأنهم يتغوّطون، ويجوعـون ويألمون. فيقال لهم: فبعض من تعظمـون ظلمة مسخوطة، ويقال لهم: من فـعل تلك العجائب التى تنسبون إليهم؟ فمن قولهم: النور الذى فيـهم. فيقال لهم: فلم عجز النور الذى فيكم عن مثل ذلك؟

فإن قـالوا: لقلّته. قـيل لهم: فكان يجب أن يأتى من المعجـزات ولو بيسـير على قدره. وهذا ما لا مخلص لهم منه ألبتة أصلاً.

ويقـال لهم أيضًا: إنَّ من العـجائـب التزامكم ترك النكاح لتـعـجلوا قطع التناسل فهـبكم قـدرتم على ذلك فى الناس، فكيف تصنعـون فى الوحش، والطير، وسـائر الحيوان البرى، والحشرات، وحيوان المياه والبحار التى تقتل بعضها بعضًا أشدّ من قتل بعض الناس لبعض وأكثـر؟ فكيف السبيل إلى قطع تناسلها وفراغ امتـزاجها؟ وهذا ما لا سبيل لكم إليه أصلاً.

فإن كان النور عاجزًا عن قطعها عن ذلك فلا سبيل له إلى خلاص أجزائه أبد الأبد. وإن كان على ذلك قادرًا فلِمَ لم يعجل خلاص أجزائه؟ ولِمَ يتركها تتردّد فى الظلمات؟

وأعـجب شىء مَنْعُهم من الـقتل، وهذا عـون منهم على بقاء المزاج، وعلى منع الخلاص وتأخره، وكان القتل أبلغ شىء فى تمام مرادهم وبغـيتهم من تعجيل الخلاص واستنقاذ النور وقطع المزاج. وهذا تناقض ظاهر منهم لا خفاء به، وبالله تعالى نتأيد.

وكل ما قدمنا من البراهين على حدوث العالم، وإيجـاب النهاية فى جرمه وأشخاصه وأزمانه فـهو لازم للأصلـين النور والظلمة على أصـول المانية، وعلى كل من يـقول بأن الفاعل أكثر من واحد، وأنه لم يزل مع الفاعل غيره لزوم ضرورة. وبالله تعالى التوفيق.

وأما الاستـدلال الثانى الذى عولّوا فيـه على أقسام من يفعل أفـعالاً مختلفـة فهو استدلال فاسدٌ أيضًا، لأنهم إنما عولّوا فيه على الأقسام الموجودة فى العالم.

وقد قدمـنا البراهين الضرورية على حدوث العـالم، وعلى أنَّ محدثه لا يشبـهه فى شىء من الأشيـاء، فلا سبيل إلـى أن يدخل تحت شىء من أقسام العـالم، لكنه تعالى يفعل الأشيـاء المختلفة والأشياء المتفـقة مختارًا لكل ذلك كمـا شاء وحين شاء، لا علة لشىء من ذلك؛ إذ قدّمنا أنَّ كل ما حصرته الطبيعة فهو متناه، والمتناهى محدَث على ما قدّمنا؛ وكل من فعل فعـلاً واحدًا لا يفعل غيره فإنما يفعل بطبـاعه كالنار التي لا تفعل إلا فعلاً واحدًا وهو الإحـراق، وتصعيد الرطوبات، وسائر ما يفـعل بطباعه. فلو كان البارى تعـالىٰ لا يفعل إلا فعـلاً واحدًا لوجب أن يكون ذا طبيـعة، وإذ ليس ذا طبيـعة فواجب فى العـقل ألا يكون يفعل فـعلاً واحدًا بل أفـعالاً مخـتلفة، وبطلت الأقـسام الأربعة التى قدمنا من أن يكون ذا قوة مختلفة أو فـاعلاً بآلات، أو فاعلاً باستحالة، أو فاعـلاً فى أشياء، لأن هذا كله يقـتضىْ أن يكون محـدثًا تعالى الله عن ذلك، وهو لم يزل؛ فقـد وجب ضرورة أن يكون البارى تعـالى يفعل ما يشـاء من مختلف ومـتفق، مختارًا دون علة موجبة عليه شيئًا من ذلك، ولا بقوة هى غيره. وبالله تعالى التوفيق.

وكلُّ ما ألزمنا مَنْ يقول إنَّ العـالَم لم يزل من البراهين الضرورية فهـو لازم للمانية، والدَّيصانية، والمرقـونية، والقائلين بأزلية الطبائع والهـيولى، لأن العالم عند هؤلاء ليس هو شيئًا غير تلك الأصول التى لم تزل عندهم، وإنما حدثت فيهم عندهم الصورة فقط.

ويدخل أيضًا عليهم القـول بتناهى الأصلين لأنهما عندهم جسمـان، والجسم متناهٍ ضرورة لبرهانين نوردهما إن شاء الله تعالى. وذلك أننا نقول:

لا يخلو كل جرم من الأجرام من أن يكون متحركًا أو ساكنًا.

فإن كـان متحركًـا فقد علمنا أن المسافة التى تتناهى لا تُقطع أصـلاً، لا فى زمانٍ متناهٍ، ولا فى زمانٍ غير متناهٍ.

ثم لا تخلو حركـته من أن تكون، إمَّـا باستدارة وإمَّـا إلى جهة من الجـهات، ولا ثالث لهذين الوجهين.

فإن كان مـتحركًا باستدارة وهو غـير متناه فهذا مـحال، لأن الخطّين الخارجين من الوسط إلى الشرق وإلى العلو غيـر متناهيين إذن، فكان يجب أن يكون الجزء الذى فى سمـت المشرق منه لا يبلغـه إلى العلو الذى هو سـمت الرأس منه أبدًا، فقـد بطلت

الحركة إذن على هذا، فهو متحرك لا متحرك، وهذا محال مع مشاهدة العيان، لقطع كل جزءٍ من الفلك الكلى جميع مسافته ورجوعه إلى حيث ابتدأ منه فى كل أربع وعشرين ساعة.

وإن كان متحركًا إلى جهة من الجهات فهذا أيضًا محال؛ لأن الحركة نقلة من مكان إلى مكان، فإذَا وَجَد هذا الجسم مكانًا ينتقل إليه لم يكن فيه قبل ذلك فقد ثبتت النهايةً له ضرورة، لأن وجوده غير كائن فى المكان الذى انتقل إليه موجب لانقطاعه قبله.

وإن كان لم يزل فى المكان الذى انتقل إليه، وهكذا فيما بعده من الأمكنة فلم يزل غير منتقل وقد قلتم: إنه لم يزل منتقلاً، فهو إذن متحرك لا متحرك، وهذا محال.

وإن قلتم: ساكنٌ. قلنا لكم: اقطعوا من هذا الجرم قطعة بالوهم، فإذا توَهَّموا ذلك سألناهم: متى كان هذا الجرم أعظم؟ أقبل أن تقطع منه هذه القطعة؟ أو بعد أن قطعت؟ فأيًا مًا قالوا، أو إن قالوا: إنه مساوٍ لنفسه قبل أن تقطع منه هذه القطعة، فقد أثبتوا النهاية، إذ لا تقطع الكثرة والقلة والتساوى إلاَّ فى ذى نهاية.

وأيضًا فإن المكان والجرم مما يقع تحت العدد كوقوع الزمان تحت العدد إلاَّ فى نهاية، وأيضًا فإن كان المكان والجرم مما يقع تحت العدد فكل ما أدخلناه - فيما خلا من تناهي الزمان- من طريق العدد فهو لازم فى تناهى المكان والجرم من طريق العدد بالمساحة. وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: وكل ما ألزمنا مَنْ يقول بأن الأجسام لم تزل فهو لازم بعينه لمن يقول بأن السبعة الكواكب والاثنى عشر برجًا لم تزل لأنها أجسام جارية تحت أقسام الفلك وحركته، فانظر هنالك ما ألزمناه فى حدوث الأجسام وأزمانها فهو لازم لهؤلاء، وتركنا ما يلزم المانية وغيرها فى فروع أقوالهم، كقولهم فى المزاج والخلاص وصفات النور والظلمة إذ إنما قصدنا اجتثاث أصول المذاهب الفاسدة فى أن الفاعل أكثر من واحد، واعتمدنا البيان فى إثبات الواحد فقط، فإذ قد ثبت ذلك ببراهين ضرورية بطل كل ما فرعوه من هذا الأصل الفاسد، إذ إنما قصدنا ما تدفع إليه الضرورة من الاستيعاب لما لا بدّ منه بإيجاز بحول الله تعالى وقوته.

وأمَّا من جعل الفاعل أكثر من واحد إلاَّ أنهم جعلوهم غير العالم كالمجوس والصابئين والمزدكية، ومن قال بالتثليث من النصارى، فإنه يدخل عليهم من الدلائل الضرورية بحول الله وقوته ما نحن نورده إن شاء الله تعالى. فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إنَّ ما كان أكثر من واحد، فهو واقع تحت جنس العدد، وما كان واقعًا تحت جنس العدد فـهو نوع من أنواع العـدد، وكل ما كان نـوعًا فهـو مركب من جنسـه العام له ولغيـره، ومن فصل خَصَّـه ليس فى غيره، وله مـوضوع وهو الجنس القـابل لصورته وصورة غيره من أنواع ذلك الجنس، وله محمول وهو الصورة التى خصته دون غيره، فهو ذو موضوع وذو محمول، فهو مركب من جنسه وفصله، والمركب مع المركب من باب المضاف الذى لا بد لكل واحد منهما من الآخر، فـأما المركب فإنما يقتضى وجود المركب من وقت تركبه، وحينئذ يسمى مركبًا لا قبل ذلك.

وأمَّا الواحـد فليس عددًا لما سنبـينه إن شاء الله تعـالى بعد انقضـاء الكلام فى هذا الباب وبالله تعالى التوفيق.

ومن البرهـان على أن الفاعل للعـالم ليس إلاَّ واحدًا: أن العـالم لو كان مـخلوقًا لاثنين فصاعدًا لم يخل من أن يكون لم يزالا متشابهين أو مختلفين، فأيًا مّا قالوا فقد أثبتوا مـعنى فيهمـا أو فى أحدهما به اشتـبها أو به اختلـفا، فإن نفوا ذلك فـقد نفوا الاختلاف والاشتبـاه معًا، ولا يجوز ارتفاعهما معًـا أصلاً، لأن ذلك محال وموجب للعدم، لأن وجود شيئين لا يشتبهـان فى شىء ولا يختلفان بوجه من الوجوه محال، إذ فى ذلك عدمهـما، لأن هذه الصفة معدومة، وإذا كـانت الصفة معدومة فـحاملها معدوم، وهم قد أثبتوا وجودها فيلزمهم القول بموجود معدوم فى وقت واحد من وجه واحد وهذا محـال. وهم إذا أثبتوهما مـوجودين لم يزالا فقد أثبـتوا لهما مـعانى قد اشتبها فيها،وهى كونها مشتبهين فى الوجود، مشتبهين فى الفعل، مشتبهين فى أن لم يزالا. ولا يجوز أن تكون هذه الأشيـاء ليست غيرهما لأنهـا صفاتٌ عَمَّتْـهما: أعنى اشتباههما فى المعانى المذكورة، فإن كان اشتباههما هو هما فهما شىء واحد، وكذلك أيضًا يلزم فى كـونهما مخـتلفين فى أن كلَّ واحد منهما غـير صاحبـه، فإن كان هذا الاختلاف فيهما هو غيـرهما، فها هنا ثالث، وهكذا أيضًا أبدًا. وسنذكر ما يدخل فى هذا إن شاء الله تعـالى. وإن كان التـغاير هو هما، والاشـتباه هو همـا فالتـغاير هو الاشتباه، وهذا هو عين المحـال، لأنه لابدّ من معنى موجود فى المتغايـر ليس اشتباهًا لأن معنى التغاير هو أن هذا هو غير هذا ولا يجوز أن يكون الشيئان مشتبهين بالتغاير.

فإذ قد ثبت ما ذكرناه، ولم يكن بد من اشتباه أو اختلاف هو معنى غيرهما، فقد ثبت ثالث، وإذ ثبت ثالث لزم فـيهم ثلاثتهـم مثل ما لزم فى الاثنين مـن السؤال، وهكذا أبدًا. وهذا يوجب ضرورة أن كل واحد منهما أو أحدهما مركب من ذاته، ومن المعنى الذى بان به عن الآخر، أو به أشبه الآخر.

فإن أثبتـوا ذلك لهما جميـعًا، وكلاهما مركـب، والمركب محدث فهمـا مخلوقان لغيرهما ولابدّ.

وإن أثبتوا ذلك لأحـدهما فقط كانِ مركـبًا، وكان الآخر هو الفاعل له، فـقد عاد الأمر إلى واحد غير مركب ولابدّ ضرورة.

ويوجب أيضًا إن تمادوا على ما ألزمناهم من وجوب معنى به بان كُلٌّ من الآخر وجود قدماء لم يزالوا، ووجود فاعلين آلهة أكـثر من المألوهين. وهذا محال؛ لأنه لا سبيل إلى وجوب أعـداد قائمـة ظاهرة في وقت واحـد لا نهاية لهـا، لأنه إن كان لهـا عدد فـقد حصرها ذلك العدد على مـا قدّمنا، وكل ما حصر فهو متناه، وقـد أوجبنا عليهم القول بأنها غير متناهية، فلزمهم القول بأعداد متناهية لا متناهية، وهذا من أعظم المحال.

فإن لم يكن لها عـدد فليست موجودة، لأن كلّ موجـود فله عدد، وكل ذى عدد متناه كما قدمنا.

فإن قال قائل: فبأيٍّ شيء انفصل الخالق عن الخلق؟ وبأى شيء انفصل الخلق بعضه من بعض؟ وأراد أن يلزمنا فى ذلك مثل الذي ألزمناه فى الأدلة المتقدمة؛ قيل له وبالله التوفيق:

الخلق كله حامل ومـحمول، فكل حامل فـهو منفصل من خالقـه، ومن غيره من الحاملين بمحموله، وبما هو عليه مما باين به سائر الحاملين من فصله، ونوعه، وجنسه، وخواصه، وأعراضه، فى مكانه وسائر كيفياته.

وكل محمـول فهو منفصل من خـالقه ومن غيره من المحمـولات بحامله، وبما هو عليه مما باين فيه سائر المحمولات، من نوعه، وجنسه، وفصله.

والبارى تعالى غير موصوف بشيء من ذلك كله. وبالله تعالى التوفيق.

وقد ذكـرنا فى باب الكلام فى بقاء الجنة والنار، وبقـاء الأجسـام فيهـا بلا نهاية، وفيما خلا من كتابنا، الانفصال ممن أراد أن يلزمنا هنالك ما ألزمناهم نحن هنالك من القول بالأعداد التى لا تتناهى. إلا أننا نذكر هنا من ذلك إن شاء الله تعالى طرفًا كافيًا - وبالله تعالى التوفيق وبه نستعين - فنقول:

إن الفرق بين المسـألتين المذكورتين أننا لم نوجب نحن فى الجنة والنار وجـود أعداد لا تتناهى. بل قولنا: إن أعدادهم متناهية لا تزيد ولا تنقص، وأن مساحة النار والجنة محـدودة متناهيـة لا تزيد ولا تنقص، وأن كل ما ظهـر من حركاتهم ومـددهم فيـها

فمحصورة متناهية. وإنما نفينا عنها النهاية بالقوة بمعنى أن البـاري تعالى محدث لهم فى كلتا الدارين بقاء ومددًا، ونعيمًا وعذابًا، أبدًا لا إلى غاية. وليس ما ظهر من ذلك بعضًا لما لم يظهر، فيلزمنا أن يكون اسم كل ما يقع على الموجود والمعدوم لأن الموجود لا يكون بعضًا للمعدوم، وإنما هو بعض لموجود مثله، هذا يعلم بالحس لأن الأسماء إنما تقع على معانيها. ومعنى الوجود إنما هو ما كان قائمًا فى وقت من الأوقات، ماضٍ من الأوقات أو حالٌ منها. فما لم يكن هكذا فليس موجودًا، وأبعاض الموجودات كلها موجودة، فكلها موجود، وكلها كان موجودًا فليس الموجود بعضًا للمعدوم، والعدم هو إبطال الوجود ونفيه، ولا سبيل إلى أن تكون أبعاض الشىء التى يلزمها اسمه الذى لا اسم لها سواه يبطل بعضها بعضًا.

وقد يمكن أن يشغب مشغب فى هذا المكان فيقول: قد وجدنا أبعاضًا لا يقع عليها اسم كلها كاليد والرجل والرأس، وسائر الأعضاء ليس شىء منها يسمى إنسانًا فإذا اجتمعت وقع عليها كلها اسم إنسان.

قال أبو محمد: وهذا شغب لأننا إنما تكلمنا على الأبعاض المتساوية التى كان بعض منها يقع عليه اسم الكل كالماء الذى كل بعض منه ماء؛ وكله ماء؛ وليس الإنسان الجزء من هذا الباب، وكل بعض من أبعاض الموجود فإنه يقع عليه اسم موجود.

وقد يمكن أن يشغب أيضًا مشغب فى قولنا: إن الأبعاض لا تتنافى، فيقول: إن الخضرة تنافى البياض، وكلاهما بعض للون الكلى، فهذا أيضًا ليس مما أردناه فى شىء، لأن قولنا موجود ليس جنسًا فيقع على أنواع المتضادات، وإنما هو إخبار عن وجود أشياء قد تساوى كلها فى وجودنا إياها حقًا، فهو يعم بعضها كما يعم كلها، وأيضًا فإن الخضرة لا تضاد البياض فى أن هذا لون، بل يجتمعان فى هذا المعنى اجتماعًا واحدًا لا يختلفان فيه، وإنما اختلفا بمعنى آخر. وكذلك لا يخالف موجود موجودًا فى أنه موجود، والموجود يخالف المعدوم فى هذا المعنى نفسه، وليس بعضًا للمعدوم، والمعدوم ليس شيئًا، ولا له معنى حتى يوجد، فإذا وجد كان حينئذ شيئًا موجودًا.

وقد تخلصنا أيضًا فى باب التجزؤ، وكلامنا فى هذا الديوان من مثل الإلزام هنالك.

الكلام على النّصارى

قال أبو محمد: النصارى وإن كانوا أهل كتاب، ويقرون بنبوة بعض الأنبياء عليهم السلام، فإن جماهيرهم وفرقهم لا يقرون بالتوحيد مجردًا، بل يقولون بالتثليث، فهذا

مكان الكلام عليهم.

والمجوس أيضًا وإن كانوا أهل كتاب لا يقرون ببعض الأنبياء عليهم السلام، ولكنا أدخلناهم فى هذا المكان لقولهم بفاعلين لم يزالا.

فالنصارى أحق منهم بالإدخال هاهنا، لأنهم يقولون بثلاثة لم يزالوا.

والنصارى فرق:

منهم أصحاب «آريوس»(١) وكان قسيسًا بالإسكندرية. ومن قوله: التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التى بها خلق السموات والأرض. وكان فى زمن قسطنطين الأول، بانى القسطنطينية وأول من تنصر من ملوك الروم، وكان على مذهب «آريوس» هذا.

ومنهم أصحاب «بولس الشمشاطى»(٢): وكان بطريركًا بأنطاكية قبل ظهور النصرانية. وكان قوله: التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله تعالى فى بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه ألبتة. وكان يقول: لا أدرى ما الكلمة ولا روح القدس؟

وكان منهم أصحاب «مقدونيوس»(٣) وكان بطريركًا فى «القسطنطينية» بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بن قسطنيطين بانى «القسطنطينية»، وكان هذا الملك «آريوسيًّا» كأبيه. وكان من قول «مقدونيوس» هذا: التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد

---

(١) قال الشهرستاني: زعم آريوس: أن الله واحد سماه آبا وإن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء وهو مخلوق قبل خلق العالم وهو خالق الأشياء وزعم أن الله تعالى روحًا مخلوقة أكبر من سائر الأرواح وأنها واسطة بين الأب والابن تؤدي إليه الوحي.
وزعم أن المسيح ابتدأ جوهرًا لطيفًا روحانيًا خالصًا غير مركب ولا ممزوج بشيء من الطبائع الأربع.. انظر الملل والنحل (١/ ٢٢٧)، والإعلام بما في دين النصارى (١/ ٤٨٧).

(٢) وكان يقول لا أدري ما الكلمة ولا الروح القدس وهو أول من ابتداع في شأن المسيح اللاهوت والناسوت وكانت النصارى قبله كلمتهم واحدة أنه عبد رسول مخلوق مصنوع مربوب لا يختلف فيه اثنان منهم.. وكانت مقالته أن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت إنسانًا كواحد منا في جوهره، فإن ابتداء الابن من مريم وأنه اصطفى ليكون مخلصًا للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية فحلت فيه بالمحبة والمشيئة ولذلك سمى ابن الله، وقال إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد، ولا نؤمن بالكلمة ولا بروح القدس، قال وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر أسقفا في مدينة أنطاكية ونظروا في مقالة بولس فأوجبوا على هذا الشمشاطى اللعن فلعنوه ولعنوا من يقول مقالته وانصرفوا.. انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح [٤/ ٨٥، ٢٠٤، ٢٠٥] وهداية الحيارى [١/ ١٧١].

(٣) انظر أيضًا الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٨٦).

مخلوق، إنســان نبى، رسول الله كسـائر الأنبيـاء عليهم السلام. وأن عـيسى هو روح القدس، وكلمة الله عزَّ وجل. وأن روح القدس والكلمة مخلوقان، خلق الله كل ذلك.

ومنهم «البربرانية»[١]: وهم يقولون إن عيســى وأمه إلهان من دون الله عزَّ وجل. وهذه الفرقة قد بادت.

وعمدتهم اليوم ثلاث فرق: فـأعظمها فرق «الملكانية»[٢]: وهى مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا حاشا الحبشة والنوبة، ومـذهب جميع نصارى إفريقية، وصقلية، والأندلس وجمهـور الشام، وقولهم: إن الله تعالى -عبارة عن قـولهم- ثلاثة أشياء: أب وابن وروح القدس، كلها لم تزل، وأن عيـسى عليه السلام: إله تام كله، وإنسان تام كله، ليس أحدهمـا غير الآخر، وأن الإنســان منه هو الذى صلب وقتل، وأن الإله منه لم ينله شىء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معًا شىء واحد ابن الله. تعالى الله عن كفرهم.

وقالت النسطورية[٣] مثل ذلك سواء بسـواء إلاَّ أنهم قالوا: إنَّ مريم لم تلد الإله،

---

(١) انظر أيضًا الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/٨٦).

(٢) أصحاب ملكًا الـذي ظهر بأرض الروم واستولى عليهـا ومعظم الروم ملكانية قالـوا إن الكلمة اتحدت بجسـد المسيح وتدرعت بناسوته ويعنون بالكـلمة أقنوم العلم ويعنون بروح القدس أقنوم الحـياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا بل المسيح مع ما تدرع به ابن . . .
وقالت الملكانية أن المسـيح ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم أزلي . . وقد ولدت مـريم إلهًا أزليًا . . وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله عز وجل وعلى المسيح (الملل والنحل ١/ ٢٢٢).
وهم يقولون إن اتحاد الله تعالى بعيسى كان باقيا حالة صلبه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٨٤).
وقالوا إن الأقـانيم هي الجوهر غيـر الأقانيم وزعمـوا أن الجوهر هو الأب والأقانيم الحـياة وهي روح القدس والقدرة والعلم وأن الله اتحد بأحـد الأقانيم الذي هو الابن بعيسى ابن مريم وكان مـسيحًا عند الاتحاد لاهوتًا وناسوتًا حمل ووالد ونشأ وقتل وصلب ودفن «الجواب الصحيح» (٤/ ٨١).

(٣) أما النسطورية فذهبوا إلى القول بأن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة وأن طبيعة اللاهوت لما وجـدت بالناسوت صـار لها إرادة واحـدة واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقـصان ولا يمتـزج بشيء والناسوت يقبل الزيادة والنقـصان فكان المسيح بذلك إلهًا وإنسانًا فـهو الإله الجوهر اللاهوت الذي لا يقبل الزيادة والنقصان وهو إنسان بجوهر الناسوت الذي يقبل الزيادة والنقصان.
وقالوا إن مريم ولدت المسيح بناسوته وإن اللاهوت لم يفارقه قط وكل هذه الفرق استنكفت أن يكون المسيح عبـدالله وهو لم يستنكف من ذلك ورغبت به عن عبـودية الله وهو لم يرغب عنها بل . . . . هداية الحيارى (١/ ١٦٥، ١٦٦).
واختلفوا أيضًا فـقالت النسطورية إن المسيح جوهران أقنومان قديم وحديث وأن اتحـاده إنما هو بالمشيئة وأن مشيئتها واحدة وإن كـانا جوهرين. . . الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٨٢)، والإعلام بما في دين النصارى (١/ ١٢٧)، ومنهاج السنة النبوية (١/ ١٩).

وإنما ولدت الإنسان، وأن الله تعالى لم يلد الإنسان وإنما ولد الإله. تعالى الله عن كفرهم. وهذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان. وهم منسوبون إلى «نسطور» وكان بطريركًا بالقسطنطينية.

وقالت «اليعقوبية»[(١)]: إن المسيح هو الله تعالى نفسه، وإن الله -تعالى عن عظيم كفرهم- مات وصلب وقتل، وإن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر، والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان، وإن الله تعالى عاد محدثًا، وإن المحدث عاد قديمًا، وإنه تعالى هو كان فى بطن مريم محمولاً به.

وهم فى أعمال مصر، وجميع النوبة، وجميع الحبشة، وملوم الأمتين المذكورتين.

قال أبو محمد: ولولا أن الله تعالى وصف قولهم فى كتابه إذ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[سورة المائدة: ١٧] وإذ يقول تعالى حاكيًا عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[سورة المائدة: ٧٣] وإذ يقول تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[سورة المائدة: ١١٦] لَمَا انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع، السمج، السخيف، وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن فى العالم عقلاً يسع هذا الجنون ونعوذ بالله من الخذلان.

فأما «اليعقوبية»: فإنهم ينسبون إلى «يعقوب» البرذعانى، وكان راهبًا بالقسطنطينية، وهم فرقة نافرت العقل والحس منافرة وحشية تامة، لأن الاستحالة نقلة، والنقلة والاستحالة لا يوصف بهما الأول الذى لم يزل تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

ولو كان كذلك لكان مخلوقًا، والمحدَث يقتضى محدِثًا خالقًا له، ويكفى من بطلان هذا القول دخوله فى باب المحال والممتنع الذى أوجب العقل والحس بطلانه، وليس فى باب المحال أعظم من أن يكون الذى لم يزل يعود محدثًا لم يكن ثم كان، وأن يصير غير المؤلف مؤلَّفًا، ويلزم هؤلاء القوم أن يعرفونا من دبر السماوات والأرض وأدار

---

(١) اليعقوبية أتباع يعقوب البردعي ولقب بذلك لأن لباسه كان من خرق برادع الدواب يرقع بعضها ببعض ويلبسها، إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين إحداهما طبيعة الناسوت والأخرى طبيعة اللاهوت، وإن هاتين الطبيعتين تركبتا فصار إنسانًا واحدًا وجوهر واحدًا وشخصًا واحدًا فهذه الطبيعة الواحدة والشخص الواحد هو المسيح وهو إله كله وإنسان كله وهو شخص واحد وطبيعة واحدة من طبيعتين، وقالوا: إن مريم ولدت الله، وأن الله سبحانه قبض عليه وصلب وسمر ومات ودفن ثم عاش بعد ذلك ... هداية الحيارى (١/ ١٦٤)، والجواب الصحيح (٤/ ٨٣)، والإعلام بما في دين النصارى (١/ ١٢٧) ومقالات الإسلاميين (١/ ٦٩)، واعتقادات فرق المسلمين (١/ ٨٤).

الفلك هذه الثلاثة الأيام التى كان فيها ميتًا؟! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ثم يقال للقائلين بأن البارى تعالى ثلاثة أشـياء أب وابن ورح القدس: أخبرونا، إذ هذه الثلاثة الأشياء لم تزل كلها، وأنها مع ذلك شيء واحد إن كان ذلك كما ذكرتم؟ فبأى معنى استحق أن يكون أحـدهما يسمى أبًا والثانى ابنًا والثالث روح القدس وأنتم تقولون: إن الثـلاثة واحد، وأن كل واحد منهما هو الآخـر؟ فالأب هو الابن والابن هو الأب وهما روح القــدس، وليس ووح القدس سواهمـا؟ وهذا هو عين التخليط، وإنجيلهم يبطل هذا بقـولهم فيه «سأقعـد عن يمين أبى». وبقولهم فيه: «إن القـيامة لا يعلمها إلا الأب وحده، وإن الابن لا يعلمها».

فهذا يوجب أن الابن ليس هو الأب.

وإن كانت الثلاثة متغايرة -وهو لا يقولون بهذا- فيلزمهم أن يكون فى الابن معنى من الضعف، أو من الحدوث، أو من النقص به وجب أن ينحط عن درجة الأب.

والنقص ليس من صفة الذى لم يزل، مع مـا يدخل على من قال بهذا من وجوب أن تكون محدثة لحصر العدد وجَرْيِ طبيعةِ النقص والزيادة فيها، على حسب ما قدمناه فى حدوث العالم.

قال أبو محمد: وقد لفق بعضهـم أشياء قالوا إنها لا معنى لها، إلا أننا نـنّبه عليها ليتبين هجنة قولهم وضعفه بحـول الله تعالى وقوّته، وذلك أنَّ بعضهم قال: لما وجب أن يكون البارى تعالى حيًّا وعالمًا وجب أن تكون له حـياة وعلم، فحـياته هى التى تسمى روح القدس، وعلمه هو الذى يسمى الابن.

قال أبو محمد: وهذا من أغث ما يكون من الاحتجـاج، لأننا قد قدّمنا أن البارى تعالى لا يوصف بشيء من هذا من طريق الاستـدلال، لكن من طريق السمع خاصة، ولا يصح لهم بدليل لا من إنجيلهم ولا من غـيره من الكتب أن العلم يسمّى ابنًا، ولا فى كتبهم أن علم الله هو ابنه وقد ادّعى بعضهم أنَّ هذا تقتضيه اللغة اللاتينية من أنَّ علم العالِم يقال فيه: إنّه ابنه.

قال أبو مـحمد: وهذا باطل ظاهر الكذب؛ لأن الإنجـيل الذى كان فيـه ذكر الأب والابن وروح القدس، لا يخـتلف أحدٌ من الناس فى أنه إنما نقل عن الـلغة العبـرانية إلى السريانية وغيرها. فعبّر عن معانـى تلك الألفاظ العبرانية، وبها كان فيه ذكر الأب والابن وروح القدس. وليس فى اللغة العبرانية شيء مما ذكر وادّعى.

وإن كانوا ممن يقولون بتسمية الباري عزَّ وجل من طريق الاستدلال، فقد أسقطوا صفة القدرة، إذ ليس الاستدلال على كونه عالمًا بأصح ولا أولى من الاستدلال، على كونه قادرًا، لاسيما مع قول «بولس» وهو عندهم فوق الأنبياء: «إن المسيح قدرة الله وعلمه تعالى».

قال هذا النص فى رسالته الأولى إلى أهل قونية: فليضيفوا إلى هذه الثلاث صفة رابعة وهى القدرة، وأخرى وهى السمع، وأخرى وهى البصر، وأخرى وهى الكلام، وأخرى وهى العقل، وأخرى وهى الحكمة، وأخرى وهى الجود.

فإن قالوا: القدرة هى الحياة.

قيل لهم: والعلم هو الحياة.

فإن قالوا: ليس العلم الحياة لأنه قد يكون حيّ ليس عالمًا كالمجنون، قيل لهم: قد يكون حى ليس قادرًا كالمُغْشَى عليه ونحو ذلك، فالقدرة ليست الحياة.

وأيضًا فإن كان الابن هو العلم وروح القدس هو الحياة، فما بال إقحامهم المسيح عليه السلام فى أنه الابن وروح القدس. أترى المسيح هو حياة الله وعلمه؟ وما بال قول بعضهم إنَّ مريم ولدت ابن الله؟ أتراها ولدت علم الله؟!

أيكون فى التخليط أكثر من هذا؟ وهل حظ المسيح عليه السلام من علم الله وحياته إلاّ كحظ غيره ولا فرق؟

وهذا لا مخلص منه. وبالله التوفيق.

وقال بعضهم: لما وجدنا الأشياء قسمين حيًا ولا حيًا، وجب أن يكون البارى عزَّ وجل حيًّا، ولمّا وجدنا الحيَّ ينقسم قسمين: ناطقًا وغير ناطق، وجب أن يكون البارى تعالى ناطقًا.

قال أبو محمد: وهذا الكلام فى غاية الكلال[1] لوجهين:

أحدهما: أن هذه القسمة قسمة طبيعية واقعة تحت جنس؛ لأنه إذا كان تسمية البارى تعالى حيًّا إنما هو من هذا الوجه، فهو إذًا يقع مع سائر الأجسام تحت جنس الحى، ويُحدّ بحدّ الحى وبحد الناطق.

وإذا كان كذلك فهو مركب من جنسه وفصله، وكل ما كان محدودًا فهو متناه،

(١) الكَلُّ: الضعيف، الكليل: الضعيف أو المتعب ـ الوسيط (٢/٧٩٦).

وكل ما كان مركبًا فهو محدث.

والوجه الثاني: أن هذه القسمة التي قسموها منقوضة مموّهة، لأنه يلزمهم أن يبدءوا بأول القسمة الذى هو أقرب إلى الطبيعة؛ فيقولوا: وجدنا الأشياء جوهرًا ولا جوهرًا، ثم يدخلوه تحت أى القسمين شاءوا، وهم إنما يدخلونه تحت الجوهر، فإذا أدخلوه تحت الجوهر فقد وجب ضرورة أن يحدّوه بحد الجوهر.

فإذا كان ذلك وجب أن يكون محـدثًا، إذ كل محدود فهو محـدث كما قدمنا. ثم نعترضهم فى قسمتهم من قبل أن يبلغوا إلى الحى الناطق.

وعلى بعض القسم قبله يقع الثانى.

وهذه كلها مخلوقات.

فلو كان البارى تعالى بعضها، أو كانت هذه الصفات واقعة عليه من طريق وجوب وقوعها علينا، لكان مخلوقًا. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وقال بعضهم: لما كانت الثلاثة تجمع الزوج والفرد، وهذا أكمل الأعداد، وجب أن يكون البارى تعالى كذلك لأنه غاية الكمال.

قال أبو محمد: وهذا من أغث الكلام لوجوه ضرورية **أحدها:** أن البارى تعالى لا يوصف بكمال ولا تمام، لأن الكمال والتمام من باب الإضافة، لأن التمام والكمال لا يقعان ألبتة إلاَّ فيما فـيه النقص، لأن معناهما إنما هو إضافة شيء إلى شيء به كملت صفاته، ولولاه لكان ناقصًا. ولا معنى للكمال والتمام إلاَّ هذا فقط.

والوجه الثاني: أن كل عدد بعد الثـلاثة فهو أتم من الثلاثة، لأنه يجـمع إما زوجًا وفردًا وإمّا زوجًا وزوجًا، وإمّا زوجًا وزوجًا وفردًا، وإمّا أكثر من ذلك.

وبالضرورة يعلم أن ما جـمع أكثر من زوج فهو أتم وأكـمل مما لم يجمع إلا زوجًا وفردًا فقط، فيلزمه أن يقول: إن ربّه أعداد لا تتناهى، أو أنه أكثر الأعداد، وهذا أيضًا ممتنع محال لو قاله، ويكفى فسادًا بقول يؤدى إلى المحال.

والوجه الثالث: أن هذا الاستدلال مضاد لقولهم: إن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة، لأن الثلاثة التى تجـمع الزوج والفرد هي غير الثـلاثة التي هي عندكم واحد بلا شك، لأن الثـلاثة التي تجمع الزوج والفـرد ليست الفـرد الذى هو فيـها، وهي جـامعـة له ولغيـره؛ بل ذلك الفرد بعض لها، وهي كـل له ولغيره والبـارى تعالى لا كل له ولا بعض، والكل ليس هو الجزء والجـزء ليس هو الكل، والفرد جزء للثـلاثة والثلاثة كل

للفرد وللزوج معه، فالفرد غير الثلاثة، والثلاثة غير الفرد، والعدد مركب من واحد يراد به الفرد، وواحد كذلك، وواحد كذلك إلى نهاية العدد المنطوق به، فالعدد ليس الواحد، والواحد ليس هو العدد، لكن العدد مركب من الآحاد التى هى الأفراد، وهكذا كل مركب من أجزاء، فذلك المركب ليس هو جزء من أجزائه، كالكلام الذى هو مركب من حرف وحرف حتى يقوم المعنى المعبر عنه؛ فالكلام ليس هو الحرف، والحرف ليس هو الكلام.

والوجه الرابع: أنَّ هذا المعنى السخيف الذى قصده هذا الجاهل نجده فى الاثنين، لأن الاثنين عدد يجمع فردًا وفردًا، وهو زوج مع ذلك، فقد وجدنا فى الاثنين الزوج والفرد، فيلزمه أن يجعل ربه اثنين.

والوجه الخامس: أن كلَّ عدد فهو محدث، وكذلك كل معدود يقع عليه عدد فهو أيضًا محدث، على ما قد بينا فيما خلا من كتابنا هذا.

والمعدود لم يوجد قط إلا ذا عدد، والعدد لا يوجد قط إلاَّ ذا معدود، والواحد ليس عددًا على ما نبينه بعد هذا إن شاء الله تعالى، وبه يتم الكلام فى التوحيد بحول الله وقوته.

قال أبو محمد: وهم يقولون: إن الإله اتحد مع الإنسان بمعنى أنهما صارا شيئًا واحدًا.

فقالت اليعقوبية: كاتحاد الماء يلقى فى الخمر فيصيران شيئًا واحدًا.

وقالت النسطورية: كاتحاد الماء يلقى في الزيت فكل واحدٍ منهما باق بحسبه.

وقالت الملكية: كاتحاد النار فى الصفيحة المحماة.

قال أبو محمد: وكل هذا فى غاية الفساد.

أول ذلك: أنها دعاوى لا يعجز عن مثلها متحامق، وليس فى إنجيلهم شىء من هذه الأقسام.

والثانى: أنها كلها محال، لأن قول الملكية فى تمثيلهم بما مثلوا إنما هو عرض فى جوهر لا يجوز ولا يمكن إلا من عرض فى جوهر ولا يتوهم غير ذلك، فالإله على قولهم عرض والإنسان جوهر وهذا فى غاية الفساد.

وقول اليعقوبية أفسد، لأننا نقول لهم إن كان استحال الإله إنسانًا، فالمسيح إنسان

وليس إلهًـا، وإن كان الإنسان استحـال إلهًا، فالمسيح إله وليس بإنسـان، وإن كان كلاهما لم يستحل واحد منهمـا إلى الآخر فهذا قول النسطـورية لا قولهم. وإن كان كل واحد منهما استحال إلى الآخر فـقد صار الإله إنسانًا لا إلهًا، وصار الإنسان إلهًا لا إنسانًا، وحصلوا بعد هذا الحمق على قـول النسطورية ولا مزيد. وإن كان استحالا إلى غير الإنسان والإله، فالمسيح لا إله ولا إنسان، وكل هذا خلاف قولهم.

وأما قول النسطورية، فلم يزيدوا على أن قالوا: إن الإنسان إنسان، والإله إله. وهكذا كل فاضل وفاسق فى العالم هو إنسان والإله إله، فالمسيح وغيره من الناس سواء.

وأيضًا فإنَّ ما قالوا محال، لأن البارى عزَّ وجل الذى لم يزل لا يستحيل إلى طبيعة الإنسان المحـدث، ولا يستحـيل المحدث إلهًـا لم يزل، وهذا محال بذاتـه لا يتشكل وكذلك الإنسان: لا يجاوز الإله مجاوزة مكانية؛ لأنه محال أيضًا، وكذا لا يتوهم ولا يمكن أن يكون الإله عرضًا يحمله جوهر الإنسان.

ولا يمكن أيضًا أن يكون الإنسان عرضًا يحـمله الإله فى ذاته كما تدّعى الملكية من تشبيه ذلك الاتحاد بضوء الشمس فى البـيت، وبالنار فى الحديدة المحماة، فقد صح أنَّ كل ما قالوا محال وباطل وسخف لا يقبله إلاَّ مخذول.

ولا يمكنهم ادعاء وجود شىء من هذا فى كتب الأنبياء أصلاً:

وأيضًا فإنهم يضيفون إلى ذكرهم الأب والابن وروح القدس شيئًا رابعًا وهو الكلمة، وهى المتحدة عندهم بالإنسان، الملتحمة فى مشيـمة مريم عليها السلام. فإنَّ أمانتهم التى اتفقوا عليـها كلهم هى كما نورده نصًا: «نؤمن بالله الأب مـالك كل شىء صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرَّب الـواحد يسوع المسـيح، بكر الخلائق كلهـا، وليس بمصنوع. الإله حق من الإله حق، من جوهر أبيـه الذى بيده أتقنت العوالـم كلها وخلق كل شىء الذى من أجلنا معشـر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجـسد من روح القدس، وصار إنسانًا، وولد من مريم البـتول، وألم وصلب أيام «قيطوش بلاطش»، ودفن وقام فى اليوم الثالث، كـما هو مكتوب، وصعد إلى السـماء، وجلس عن يمين الأب، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء. ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذى هو مـشتق من أبيـه روح محـبة، وبمعـمودية واحـدة لغفـران الخطايا، وبجماعة قدسية سليحية جاثليقية، وبقيامة أبداننا، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين».

وقال فى أول إنجيل «يوحنا التلميذ»: «فى الـبدء كانت الكلمة، والكلمة عند الله، والله كان الكلمة».

قال أبو محمد: فهذه أقوال إذا تأملها ذو عقل علم أنها وساوس أو جنون ملقًى من الشيطان لا يمتحن به إلاَّ مخذول مشهودٌ له ببراءة الله تعالى منه.

ويقال لهم: الكلمة هى الأب؟ أو الابن أو روح القدس؟ أم شىء رابع؟

فإن قالوا: شىء رابع. فقد خرجوا عن التثليث إلى التربيع.

وإن قالوا: إنهـا أحد الثلاثة، سـئلوا عن الدليل على ذلك، إذ الدعوى لا يعـجز عنها أحد.

ثم يقال لهم: الأب هو الابن أم هو غيره؟

فإن قالوا: هو غيره، سئلوا أيضًا:

من الملتحم فى مشـيمة مريم؟ المتحـد مع طبيعة المسـيح الأب أم الابن؟ فإن قالوا: الابن. فقـد بطل أن يكون هو الأب، وخالفـوا «يوحنا» إذ يقول فـى أول إنجيله: إن الكلمة هى الله والتحمت. فإذا كانت هى الله، والكلمة التحمت فى مشيمة مريم فالله تعالى هو نفسه التحم فى مشيمة مريم فعلى هذا فالأب والابن والكلمة كلهم التحموا فى مشيمة مريم، وفى أمانتهم: أن الابن هو الذى التحم فى مشيمة مريم.

وهذه وساوس لا نظير لها.

ويقال لهم أيضًا: هل معنى التحم إلاَّ صار لحمًا؟ وهذا غير قول النسطورية والملكية.

وإن قالوا: بل الأب، فقد بطل أن يكون هو الابن، وخالفوا «يوحنا» والأمانة.

وإن قالوا: هو الأب وهو الابن. تركوا قولهـم: إن الابن يقعد عن يمين أبيه، وأن الأب يعلم وقت القيامة، والابن لا يعلمـها، وقولهم فى إنجيل «يوحنا»: الأب فوّض الأمر إلى ابنه، والأب أكبر من الابن، فـهذه نصوص على أن الابن غير الأب، إذ لا يقعد المرء عن يمين نفسه، ولا يفوض الأمـر إلى نفسه، ولا يجهل ما يعلم، وهذا كله يبطل قولهم: إن الابن هو العلم والقدرة أو غير ذلك؛ لأن هذه الصفات لا تقعد عن يمين حامله، ولا يفوَّض إليها شىء.

وإن قالوا: لا هو هو، ولا هو غـيره؛ دخل عليهم من الجـنون ما يدخل على من ادّعى أن الصفات لا هى الموصوف ولا هى غيره.

وإن قالوا: الأب هو الابن وهو غيره - لم يكن ذلك ببدع من سخافاتهم وخروجهم عن المعقـول، ولزمهم ان الابن ابن لنفـسه، وأب لنفـسه، وأن الأب أب لنفـسه وابن

لنفسه، وليس فى الحمق والهوس أكثر من هذا. ولا متعلق لهم بشىء مما فى «الزبور» وفى كتاب «شعياء» وغيره، لأنه ليس فى شىء منها أن المراد بما ذكر هنالك هو عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وقد قال «لوقا» في آخر إنجيله: «إنه كان نبيًّا مقتدراً عبد الله». وهذا كله بيِّن عظيم مناقضتهم، وما توفيقنا إلا بالله عز وجل.

فإن تعلقوا بما فى الإنجيل من ذكر المسيح أنه ابن الله، قيل لهم: فى الإنجيل أيضًا: أبى وأبيكم الله، «إلهى وإلهكم». وأمرهم إذا دعَوْا أن يقـولوا: يا أبانا السماوى، فله من ذلك كالذى لهم ولا فرق.

فإن فإن: إنه أتى بالعـجائب. قيل لهم: والحواريون أيضًا عـندكم أتوا بالعجائب، وموسى قبله «وإلياس» وسـائر الأنبياء عليهم السلام قد أتوا بمثـل ما أتى به من إحياء الموتى وغيره، فأى فرق بينه وبينهم؟

على أنه ليس فى شىء من الإنجيل نص الأمانة التى لا يصح الإيمان عندهم إلاَّ بها من ذكر أب وابن وروح القـدس معًا وسـائر ما فيـها. وإنما هى تقليد لأسـلافهم من الأساقفة، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأمانتهم التى ذكروا أنهم مـتفقون عليها موجـبة أن الابن هو الذى نزل من السماء وتجسّد من روح القـدس، وصار إنسانًا، وقتل وصلب، فـيقال لهم: هذا الابن الذى فى أمانتكم أنه نزل من السماء وتجسّد من روح القدس، وصار إنسانًا، أخبرونا قبل أن ينزل من السماء أمخلوقًا كان أو غير مخلوق أم كان لم يزل؟ فإن قالوا: كان مخلوقًا. فقد تركـوا قولهم، لا سيمـا إن قالوا: إنه ليس هو غير الأب بـل يصير الأب وروح القدس مخلوقين.

وإن قالوا: كـان قبل أن ينزل غيـر مخلوق. قيل لهم: فقـد صار مخلوقـًا إنسانًا. وهذا محال وتناقض.

وأيضًا فقد لزم من هذا أن الابن مخلـوق، وروح القدس مخلوق، إذ صار إنسانًا ثم يقـال لهم: أخبـرونا عن هذا الابن الذى أخبـرتم عنه بما لم تخبـروا عن الأب، والذى يقعد عندكم عن يمين أبيه، ثم ينزل لفصل القضاء أله علم وحياة أم لا علم له ولا حياة؟

فإن قالوا: لا علم ولا حياة، فارقوا إجـماعهم، ولزمهم ضرورة أنْ قالوا مع ذلك إنه غـير الأب الذى له حـياة وعلم، إذ مـا لا علم له هو بلا شك غيـر الذى له علم

والذى لا حياة له هو بلا شك غير الذى له حياة. وهذا ترك منهم للنصرانية.

وإن قالوا: بل له علم وحياة لزمهم أن الأزليين خمسة: الأب وعلمه وحياته والابن الذى هو علم الأب وعلمه وحياته، وهكذا يسألون أيضًا عن روح القدس، ولا فرق.

وقد قال «يوحنا» فى أول إنجيله: فمن تقبله منهم وآمن به أعطاهم سلطانًا أن يكونوا أولاد الله، أولئك المؤمنون باسمه الذين لم يتوالدوا من دم ولا شهوة اللحم، ولا باه رجل، ولكن توالدوا من الله.

فصح بهذا أن كلّ نصرانى من ولادة والأزلية والكون من جوهر الأب كالذى للمسيح سواء بسواء ولا فرق.

وإلاَّ فقد كذب «يوحنا» اللعين قائل هذا الكفر، وأهل للكذب هو. وهذا ما لا انفكاك منه.

وهذا يلزم الأشعرية الذين يقولون بأن علم الله تعالى وقدرته هما غير الله. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وممّا يعترض به علينا اليهود والنصارى ومن ذهب إلى إسقاط الكواف من سائر الملحدين: أن قال قائلهم: قد نقلت اليهود والنصارى أن المسيح عليه السلام قد صلب وقتل، وجاء القرآن بأنه ﷺ لم يقتل ولم يصلب. فقولوا لنا كيف كان هذا؟

فإن جوزّتم على هذه الكواف العظام المختلفة الأهواء والأديان والأزمان والبلدان والأجناس نقل الباطل، فليست بذلك أولى من كافتكم التى نقلت أعلام نبيكم وشرائعه وكتابه.

فإن قلتم: اشتبه عليهم، فلم يتعمدوا نقل الباطل، فقد جوزّتم التلبيس على الكواف، فلعل كافتكم أيضًا ملتبس عليها. فليس سائر الكواف أولى بذلك من كافتكم.

وقولوا لنا: كيف فرض الإقرار بصلب المسيح عندكم قبل ورود الخبر عليكم ببطلان صلبه وقتله؟ فإن قلتم كان الفرض على الناس الإقرار بصلبه وجب من قولكم الإقرار أن الله تعالى فرض على الناس الإقرار بالباطل، وأن الله تعالى فرض على الناس تصديق الباطل والتدين به، وفى هذا ما فيه.

وإن قلتم كان الفرض عليكم الإنكار لصلبه، فقد أوجبتم أن الله تعالى فرض على

الناس تكذيب الكواف، وفى هذا إبطال قـول كافـتكم، بل إبطال جميـع الشرائع بل إبطال كل خبر كان فى العالم عن كل بلد وملك ونبى وفيلسوف وعالم؛ ووقعتم وفى هذا ما فيه.

قال أبو محمد: هذه الإلزامات كلها فاسدة فى غاية الحوالة والاضمحلال بحمد الله تعالى. ونحن مـبينون ذلك بالبراهين الضـرورية بيانًا لا يخفـى على من له أدنى فهم بحول الله تعالى وقوته.

فنقول وبالله التـوفيق: إن صلب المسيح عـليه السلام لم يقله قط كـافَّةٌ، ولا صحَّ بالخبر قط، لأن الكافّة التى يلزم قبول نقلها هي: إمَّا الجماعة التى يوقن أنها لم تتواطأ لتَنَابُذِ طرقـهم، وعدم التقـائهم، وامتناع اتفـاق خواطرهم على الخبـر الذى نقلوه عن مَشاهدة، أو رجع إلى مشاهدة ولو كانوا اثنين فصاعداً.

وإمَّا أن يكون عدد كـثير يمتنع منه الاتفاق فـى الطبيعة على التمـادى على سنن ما تواطئوا عليـه، فأخبـروا بخبر شـاهدوه ولم يختلفوا فـيه، فمـا نقله أحد أهل هاتين الصفتين عن مثل إحداهما وهكذا حتى يبلغ إلى مشاهدة، فهذه صفة الكافة التى يلزم قبول نقلـها، ويضطر خبرها سامـعها إلى تصديقـه، وسواء كانوا عدولاً أو فـساقًا أو كفَّارًا وما عدا هذا من الخبر فليس كافة، ولا يضطر سامعه إلى تصديقه، وسواء أكانوا عدولاً أم غيـر عدول ولا يقطع على صحـته إلا ببرهان. فلما صح ذلك نظرنا فـيمن نقل خبر صلب المسيح علـيه السلام فوجدناه كواف عظيمـة صادقة بلا شك فى نقلها جيلاً بعد جـيل إلى الذين ادّعوا مشاهدة صلبه، فإنَّ هنالك تبـدّلت الصفة ،ورجعت لى شُرَطِ مأمورين مجتمعين مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل.

والنصارى مقرون بأنهم لم يقدموا على أخـذه نهارًا خوف العامة، وإنما أخذوه ليلاً عند افتـراق الناس عن الفصح، وأنه لم يبق فى الخشـبة إلاَّ ست ساعـات من النهار، وأنه أنزل إثر ذلك، وأنه لم يصلب إلاَّ فى مكان نازح(١) عن المدينة فى بستـان فخار متملك للفـخار، ليس موضعًا مـعروفًا بصلب ولا موقوفًـا لذلك، وأنه بعد هذا كله رُشِيَ الشُرط على أن يقولوا إن أصحابه سرقوه ففعلوا ذلك، وأن مريم المجدلانية وهى امرأة من العامة لم تقـدم على حضور موضع صلبه، بل كانت واقـفة على بعد تنظر، هذا كله فى نص الإنجيل عندهم فـبطل أن يكون صلبه منقولاً بكافة، بل بخبـر يشهد

(١) نزح: نزحًا، ونزوحًا: بَعُد، يقال: نزحت الدار والبـئر: قل ماؤها أو نفد أو القوم نزحت آبارهم.. الوسيط (٢/٩١٣).

ظاهره على أنه مكتوم متواطأ عليه. وما كان الحواريون ليلتذ بنص الإنجيل إلا خائفين على أنفسهم، غُيَّبًا عن ذلك المشهد، هاربين بأرواحهم مستترين. وأنَّ «شمعون الصفا» غُرِّر ودخل دار «قيقان» الكاهن أيضًا بضوء فقال له: أنت من أصحابه فانتفى وجحد وخرج هاربًا عن الدار. فبطل أن ينقل خبر صلبه أحدٌ تطيب النّفس عليه على أن تظن به الصدق، فكيف أن ينقله كافة؟ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [سورة النساء: ١٥٧] إنما عني بذلك تعالى: أنّ أولئك الفساق الذين دبّروا هذا الباطل وتواطئوا عليه، هم شبهوا على من قلّدهم(١) فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه وهم كاذبون في ذلك، عالمون أنهم كذبة. ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذي حاسة سليمة لبطلت الحقائق كلها، ولأمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس، وفيمن يجالس، وفي حيث هو فلعله نائم أو مشبه على حواسه. وفي هذا خروج إلى السخف، وقول السفسطائية والحماقة.

وقد شاهدنا نحن مثل ذلك، وذلك أننا أندرنا(٢) للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر(٣) فرأيت أنا وغيري نعشًا فيه شخص مكفن، وقد شاهد غسله رجلان شيخان جليلان حكيمان من حكام المسلمين، ومن عدول القضاة في بيت، وخارج البيت أبي رحمه الله وجماعة عظماء البلد، ثم صلينا في ألوف من الناس عليه. ثم لم يلبث إلاَّ شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيًّا، وبويع بعد ذلك بالخلافة. ودخلت عليه أنا وغيري وجلست بين يديه ورأيته، وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام.

قال أبو محمد: وأما قوله قد جوزتم التمويه على الكافة فقد بينا أنها لم تكن كافة قط، وحتى لو صح أنها كانت كافة فكيف لا يجوز ذلك في كل آية تحيل الطبائع

---

(١) قال الإمام ابن كثير: أي رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ يعني بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود، ومن سلمه إليهم من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر، ولهذا قال: ﴿وما قتلوه يقينًا﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين.

(٢) أندر: أتى بنادر من قول أو فعل، والشيء: أسقطه، يقال: أندر التاجر من حسابي كذا وكذا، ويقال: أندرت يد فلان عن هذا العمل: أزلت تصرفه فيه وأخرجه الوسيط (٢/ ٩١٠) ـ انظر مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٣).

(٣) هشام بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر، أبو الوليد المؤيد الأموي: من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس. وُلد بقرطبة، وبُويع يوم وفاة أبيه (سنة ٣٦٦هـ) فاستأثر بتدبير مملكته وزير أبيه محمد بن عبدالله الملقب بالمنصور ابن أبي عامر . . . . .
(الأعلام ٨/ ٨٥، نفح الطيب ١/ ١٨٧، وابن خلدون ٤/ ١٤٧، والنبراس ٢٢، وابن الأثير٨/ ٢٢٤.

والحـواس؟ فهو ضرورة لا يحمل على الممكنات، فلو صحّ أنهـا كانت كافة لكان خبر الله تعالـى أنه شُبِّـه لهـم حاكـمًا على حـواسهـم ومحيـلاً لهـا كخـروج النبى ﷺ ليلـة هاجر بحضـرة مائة رجل من قريش، وقد حجب الله سبـحانه أبصارهم عنه فلم يروه.

وأما ما لم يأت خبر عن الله عزَّ وجل بأنه شُبِّه على الكافة فلا يجوز أن يقال ذلك لأنه قطع بالمحال وإحالة طبيعة، وإحالة الطبائع لا تدخل فى الممكن إلا أن يأتى بذلك يقين عن الله عزَّ وجل فيلزم قبوله.

وأمّا الـتشـبيه عـلى الواحد والاثنين ونحـو ذلك فإنه جـائز، وكذلك فَـقدُ العـقلِ والسخافة يجوز ذلك على الواحد، والاثنين ونحو ذلك، ولا يجوز على الجماعة كلها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [سورة النساء: ١٥٧] إنما هو إخبار عن الذين يقـولون بتقليد أسلافـهم من النصارى واليهود: إنه عليـه السلام قتل وصلب، فهؤلاء شُبِّه لهم القول أى أُدخلوا فى شبـهة منه. وكان المشبهون لهم شيوخ السوء فى ذلك الوقت وشُـرَطهم المدَّعون لهم أنهم قتلوه وصلبـوه وهم يعلمون أنه لم يكن ذلك، وإنما أخـذوا من أمكنهم فقـتلوه، وصلبوه فـى استـتـار ومنع من حـضور الناس، ثم أنزلوه ودفنوه تمويهًا على العامة الذين شُبِّه لهم الخبر.

ثم نقول لليهود والنصـارى بعد أن بينا بحول الله وقوته فساد مـا شغبوا به فى هذه المسألة: إنَّ كوافّكم قد نقلت عن بعض أنبيائكم فسوقًا ووطء إماء وهو حرام عندكم، وعن هارون عليـه السلام: أنه هو الذى عـمل العجل لبنى إسـرائيل وأمرهم بعـبادته والرقص أمامه، وقد نزه الله تعالى الأنبياء عليـهم السلام عن عبادة غيره، وعن الأمر بذلك، وعن كل معصـية ورذيلة، فإذا جوَّزوا كلهم هذا على أنبيـاء منهم موسى عليه السلام وسـائر الأنبياء كان كل مـا أمروهم به من جنس عمل العـجل والرقص والأمر بعبادته، ومن جـنس وطء الإماء وسائر ما نسبـوه إلى داود وسليمان عليهـما السلام، وسائر أنبيائهم؛ لا سيما وهم يقرون بأن العجل كان يخور بطبعه.

وأمّا نحن فجوابنا فى هذا كله بأن ليس شىء منه نقل كافة، ولكن نقل آحاد كذبوا فيـه، وأمّا خوار العجل فـإنما هو على ما رويناه عن ابن عبـاس ﷺ من أنه إنما كان صفير الريح تدخل من فيه وتخرج من دبره، لا أنه خار بطبعه قط، وحتى لو صح أنه خار بطبعه لكان ذلك من أجل القـوة التى كانت فى القبضة التى قبضـها السامرى من

أثر جبـريل عليه السلام، والـذى يعتمـد عليه قول ابن عـباس[(١)] ﷺ الذى ذكرناه، وبالله تعالى التوفيق.

وأمّا قـوله: كيف كـان الغرض قبل ورود النـص ببطلان صلبه؟ الإقرار بـصلبه أم الإنكار له؟

فهذه قسمة فاسدة شغبية قد حذَّر منها الأوائل كثيرًا، ونبه عليها أهل المعرفة بحدود الكلام، وذلك أنهم أوجبوا فرضًا ثم قسموه على قسمين: إمَّا فرض بإنكار وإمّا فرض بإقرار، وأضربوا عن القسم الصحيح فلم يذكروه، وهذا لا يرضى به لنفسه إلاَّ جاهل أو سخيف مغالط غابن لنفسه غاشٌ لمن اغتر به. وإنما الحقيقة ها هنا أن يقول:

هل لزم الناس قبل ورود القـرآن فرض بالإقرار بصلب المسـيح أو بإنكار صلبه، أو لم يلزمهم فرض بشيء من ذلك؟

فهذه هى القسمة الثابتة من السؤال الصحيح.

وحق الجـواب: أنه لم يلزم الناس قط قـبل ورود القرآن فـرض بشيء من ذلك لا بإقرار ولا بإنكار، وإنما كـان خبرًا لا تقطع العـذر ولا يوجب العلم الضرورى، ممكن صدق قائله، فقد قتل أنبـياء كثيرة، وممكن أن يكون ناقله كذب فى ذلك. وهو بمنزلة شيء مغيب فى دار، فيـقال لهذا المعرِّض بهذا السؤال الفـاسد: ما الفرض على الناس فيـما فى هذا الدار؟ الإقـرار بأن فيهـا رجلاً أم الإنكار لذلك؟ فهـذا كله لا يلزم منه شيء، ولم ينزل الله عزَّ وجل كـتابًا قبل الـقرآن بفرض إقـرار بصلب المسيح ﷺ ولا بإنكاره، وإنما لزم الفرض بعد نزول القرآن بتكذيب الخبـر بقتله وصلبه. فإن قالوا: قد نقل الحواريون صلبه، وهم أنبياء وعدول.

قيل لهم وبالله التوفيق:

الناقلون لنبوتهم وإعـلامهم ولقولهم بصلبه عليـه السلام هم الناقلون عنهم الكذب فى نسبه، والقول بالتثليث الذى من قال به فهو كاذب على الله تعالى مفتر عليه كافر.

---

(١) عبدالله بن عباس بن عـبدالمطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس: حبـر الأمة، الصحابي الجليل. ولد بمكة. ونشأ في بدء عصـر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيـحة. وشهد مع على الجمل وصـفين. وكف بصره في آخر عمـره، فسكن الطائف، وتوفي بها. له في الصـحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثًا ولحسان بن ثابت شعر في وصفه وذكر فضائله.

وينسب إليه كتاب في «تفسير القرآن ـ ط» . . . . . .

(الأعـلام ٤/ ٩٥، الإصابـة، ت٤٧٧٢، وصـفة الصـفـوة ٢/ ٣١٤، وحلية الأوليـاء ١/ ٣١٤ وذيل المذيل ٢١).

فـإن كان الناقل لذلك عنهم صـادقًـا، أو كانوا كـافـة فمـا كان «يوحنا» و«مـتّى» و«بولس» إلاّ كفارًا كاذبين، وما كانوا قط من صالحي الحواريين.

وإن كان ناقل مـا ذكرنا عنهم كاذبًا فـالكاذب لا يقوم بنقله حـجة. فبطل التـمويه المتقدم والحمد لله رب العالمين.

طبيعة المسيح:

وقال مـتكلموهـم: إن الاتحاد المذكور إنمـا هو تقليد للإنجـيل، ولم يكن نقلة ولا حركة ولا فارق الباري ولا العلم ما كانا عليه ولا انتقلا.

فيـقال لهم: هذا إبطال للاتحاد، وقـول منكم بأن حظه وحظ غيـره في ذلك سواء وخلاف لأمانتكم فيها أن الابن نزل من السماء، وتجسّد وولد، وقتل ودفن.

وقالت طائفة منهم: المسيح حجابٌ خاطبنا الله تعالى منه.

فيـقال لهم: أنتم تقـولون إن المسيح رب مـعبـود، وإله خالق، والحجـاب عندكم مخلوق والمسيح عند بعضكم طبـيعة واحدة، وعند بعضكم طبيعتـان ناسوتية ولاهوتية فأخبرونا أتعبدون الطبيعتين معًا اللاهوتية والناسوتية أن تعبدون إحداهما دون الأخرى؟

فإن قـالوا: نعبدهما جـميعًـا أقروا بأنهم يعبدون إنسـانًا وحجابًا مـخلوقًا مع الله تعالى. وهذا أقبح ما يكون من الشرك.

وإن قالوا: بل نعبد اللاهوت وحده قيل لهم فإنما تعبدون نصف المسيح لا كله لأنه طبيعتان عندكم ولستم تعبدون إلاّ إحداهما دون الأخرى.

وكذلك يسألون عن موت المسيح وصلبه؟

فمن قـول الملكية والنسطورية: إن الموت والصلب إنما وقع على الناسوت خـاصة. فيقال لهم: فأنتم في قولكم «مات المسيح وصلب»: كاذبون، لأنه إنما مات نصفه فقط وصلب نصفه فقط، لأن اسم المسيح عندكم واقع على اللاهوت والناسوت كليهما معًا على أحدهما دون الآخر.

وكل من قال من اليـعقوبية: الإنسان والإله شـيء واحد فإنه يلزمه أن يعـبد إنسانًا لأنه إذا عبد الإله، والإله هو الإنسان، فقد عبد إنسانًا وربه إنسان مخلوق.

وكل من قـال منهم: الإله غيـر الإنسان فقـد أبطل الاتحاد. وهكذا يقـال لهم في الحجاب مع الله تعالى سواء بسواء، ويلزمهم جمـيعهم إذ قد أقروا بعبادة المسيح هكذا

جملة، وأنه رب خالق - وفى الإنجيل أنه جاع وأكل الخبز والحيتان وعرق، وضُرب- أن ربهم أكل وجاع، وأن الإله ضرب ولطم وصلب. وكفى بهذا رذالة وفحش قول وبيان بطلان.

ويقال للملكية واليعقوبية القائلين بأن المسيح ابن الله وابن مريم وقد أقررتم أن المسيح إنسان وإله، فالإنسان هو ابن الله وابن مريم، والإله هو ابن مريم وابن الله وهذه غاية الشناعة.

فإن قالوا: ما تقولون فيما فى كتابكم: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: ٥١] وأنه تعالى كلم موسى من جانب الطور من الشجرة من شاطىء الوادى؟

قلنا: التكليم فعل الله تعالى مخلوق، والحجاب إنما هو للتكليم، والتكليم هو الذى حدث فى الشجرة وشاطىء الوادى وجانب الطور، وكل ذلك مخلوق محدث وكذلك تحوّل جبريل عليه السلام فى صورة دحية إنما هو أن الله تعالى جعل للملائكة والجن قوى يتحولون بها فيما شاءوا من الصور، وكلهم مخلوق تتعاقب عليهم الأعراض بخلاف الله تعالى فى ذلك.

قال أبو محمد: وما يعترض به على النصارى - وإن كان ليس برهانًا ضروريًا لكنه يقرب من فهم كل ذى فهم، وينقض عليهم به جميع شرائعهم نقضًا ضروريًا على جميعهم لكنه برهان ضرورى على كل من تقلد منهم الشرائع التى يعمل بها الملكيون والنساطرة واليعاقبة والمارونية- قاطع لهم، وهى مسألة جرت لنا مع بعضهم، وذلك أنهم لا يخلون من أحد وجهين؛ إمّا أن يكونوا يقولون ببطلان النبوة بعد عيسى عليه السلام، وإمّا أن يقولوا بإمكانها بعده عليه السلام.

فإن قالوا بإمكان النبوة بعده عليه السلام لزمهم الإقرار بنبوة محمد ﷺ إذ ثبت نقل أعلامه بالكواف التى بمثلها نقلت أعلام عيسى وغيره عليهم الصلاة والسلام، وإن قالوا ببطلان النبوة بعد عيسى عليه السلام لزمهم ترك جميع شرائعهم من صلاتهم، وتعظيمهم الأحد، وصيامهم وامتناعهم من اللحم ومناكحهم، وأعيادهم، واستباحتهم الخنزير والميتة، والدّم، وترك الختان، وتحريم النكاح علي أصل المراتب فى دينهم، إذ كل ما ذكرنا ليس منه فى أناجيلهم الأربعة شيء ألبتة، بل أناجيلهم مبطلة لكل ما هم عليه اليوم، إذ فيها أنه عليه السلام قال: «لم آت لأغير شيئًا من شرائع التوراة». وأنه كان يلتزم هو وأصحابه بعده السبت، وأعياد اليهود من الفصح وغيره، بخلاف كل ما

هم عليه اليـوم، فإذا منعـوا من وجود النبوة بعـده وكانت الشـرائع لا تؤخذ إلاَّ عن الأنبياء عليهم السلام، وإلاَّ فإنَّ شارعهـا عن غير الأنبياء عليهم السلام حاكم على الله تعالى وهذا أعظم ما يكون من الشرك والكذب والسـخف، فشرائعهم التى هى دينهم غير مأخوذة عـن نبي أصلاً فهى معاصٍ مفتراة على الله عـزّ وجل بيقين لا شك فيه. وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: وهذا حين نبدأ بعون الله وتوفيقه وتأييده إن شاء الله لا إله إلاَّ هو فى تبيين أن الواحد ليس عددًا فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إن خاصة العدد هو أن يوجد عدد آخر مـساو له، وعدد آخر ليس مساويًا له، هذا شيء لا يخلو منه عدد أصلاً.

والمسـاواة هى: أن تكون أبعاضـه كلهـا مسـاوية له إذا جزئت، ألا ترى أن الفـرد والفرد مـساويان للاثنين، وأن الزوج والفرد لـيسا مسـاويين للزوج الذى هو الاثنان، والخمسة مساوية للاثنين والثلاثة، غير مساوية للثلاثة وهكذا كل عدد فى العالم؟ فهذا معنى قولنا: إن المساوى وغير المساوى هو خاصة العدد، وهذه المساواة أردنا لا غيرها، فلو كـان للواحد أبعـاض مسـاوية له لكان كثـيرًا بلا شك؛ لأن الواحـد المطلق على الحقيقة هو الذى ليس كثيرًا، هذا ما لا شك فيه عند كل ذى حس سليم. وكان ما كان له أبعاض فهو مركب كثيرًا بلا شك، فهو إذًا بالضرورة ليس واحدًا، فالواحد ضرورة هو الذى لا أبعاض له، فإذ لا شك فيه فالواحد الذى لا أبعاض له تساويه عددًا، وهو الذى أردنا أن نبين، وأيضًا فإن الحسَّ وضرورة العـقل يشهدان بوجود الواحد إذ لو لم يكن الواحد موجودًا لم يُقْدَر على عدد أصلاً، إذ الواحد مبدأ العدد والمعدود الذى لا يوصل إلى عدد ولا معدود إلاَّ بعد وجـوده، ولو لم يوجد الواحد لما وجد فى العالم عددٌ ولا مـعدود أصلاً، والعـالم كله أعداد ومـعدودات موجـودة، فالواحد مـوجود ضرورة. فلما نظرنا فى العلم كله نظرًا طبيعيًا ضروريـًا لم نجد فيه واحدًا على الحقيقة ألبتـة بوجه من الوجـوه، لأن كل جرْمٍ من العالم فـمنقسم مـحتمل للتـجزئة مـتكثر بالانقسام أبدًا بلا نهـاية، وكل حركة فهى أيضًا منقـسمة بانقسام المتحـرك بها والزمان حركة الفلك فهو منقسم بانقسام الفلك، فكل مدة فـمنقسمة أيضًا بانقسام المتحرك بها الذى هو المدة، وكذلـك كل معقـول من جنس أو نوع أو فصل، وكـذلك كل عَرَضٍ محمول فى جرم فإنه منقسم بانقـسام حامله، هذا أمر يعلم بضرورة العقل والمشاهدة، وليس العالم كله شيئًا غير ما ذكرنا، فصح ضرورة أنه ليس فى العالم واحد ألبتة.

وقد قدمنا ببرهان ضرورى آنفًا أنه لا بدّ من وجود الواحد، فإذ لابدّ من وجود الواحد، وليس هو فى شىء من العالم ألبتة، فهو إذًا بالضرورة شىء غير العالم، فإذ ذلك كذلك فبالضرورة التى لا محيد عنها فهو الواحد الأول الخالق للعالم، إذ ليس يوجد بالعقل ألبتة شىء غير العالم ولا بوجه من الوجوه، ولا واحد سواه ألبتة ولا أول غيره أصلاً، ولا مخترع فاعلاً خالقًا إلا هو وحده لا شريك له.

وإنما قلنا فى كل فرد فى العالم، وهو الذى يسمى فى اللغة عند العد واحدًا على المجاز، أنه كثير بمعنى أنه يحتمل أن يقسم، وأن له مساحة كثيرة الأجزاء فإذا قسم ظهرت الكثرة فيه، وإمّا ما لم يقسم فهو يعد فردًا حقيقيًا، وقد ذكرنا برهان وجوب احتمال الانقسام لكل جزء فى العالم فى آخر كتابنا هذا ببراهين ضرورية لا محيد عنها، وبالله تعالى التوفيق.

فإن قال قائل: فما تقول فى الباء والتاء وسائر حروف الهجاء؟ أليس كل واحد منها واحدًا لا ينقسم؟ قيل له وبالله التوفيق: إنَّ هذا شغب ينبغى أن يتحفظ من مثله؛ لأن الحرف إنما هو هواء يندفع من مخرج ذلك الحرف بعصر بعض آلات الصوت له من الرئة، وأنابيب الصدر والحلق، والحنك واللسان والأسنان والشفتين، فإذ لا شك فى هذا فذلك الهواء المندفع جسم طويل عريض عميق، فهو محتمل الانقسام ضرورة، فذلك الهواء هو الحرف، فالحرف هو جسم محتمل للقسمة ضرورة، وبالله تعالى التوفيق.

الكلام على من يقول إن البارىء خلق العالم جملة كما هو بجميع أحواله بلا زمان

قال أبو محمد: رأينا من يقر بالخالق تعالى ولا يقر بالنبوة، ومن يذهب إلى ذلك، وناظرناه على ذلك، فقلت: إنَّ الذى تقول ممكن فى قوة الله تعالى، والذى نقول نحن من أنه تعالى خلق من النوع الإنسانى ذكرًا واحدًا وأنثى واحدة تناسل الناس كلهم منهما لا يمكنك إخراجه عن الإمكان. فمن أين ملت إلى تلك الحيثية دون هذه؟ فتردد ساعة فلما لم يجد دليلاً قال: فمن أين ملتم أنتم إلى هذه الحيثية دون تلك؟ فقلت: لبراهين ضرورية توجب ما قلنا وتنفى ما قلتم.

منها: أنه لو كان ما قلتَ، لكان كل من أخرجه الله تعالى حينئذ من العدم إلى الوجود، من الشبان والشيوخ يعلمون ذلك ويحسونه من أنفسهم، ويوقنون أنهم الآن

به حدثوا، وأنهم لم يكونوا قـبل ذلك، لكن حدثوا الآن فى حال توليـهم لصناعاتهم وتجاراتهم وأعمالهم من حرث وحصاد ونسج وخياطة وخبز وطبخ وغير ذلك.

ولو كان هذا لنقلوه إلى أولادهم نقلاً يقـتضى لهم العلم الضرورى بذلك ولا بد، كما يقتضى العلم الضـرورى كل نقل جاء بأقل من هذا المجىء مما كان قبلنا من الملوك والدول والوقائع، ولبلغ الأمـر إلينا كذلك، ولعلمه جميع الـناس علمًا ضروريًا، لأن شيئًا ينقله جـميع أهل الأرض عن مشاهدتهم له لا يمكن التشكك فـيه أبدًا، كما نقل طلوع الشمس وغروبها والموت والولادة وغير ذلك.

ونحن نجد الأمر بخلاف هذا لأنا نجد جميع أهل الأرض قاطبة لا يعرفون هذا، بل لا يدريه أحد منهم، وإنمـا قلتَه أنت ومن وافقـته أو من وافقك برأى وظن، لا بخـبر ونقل أصلاً.

هذا ما لا تخالفنا فيه أنت ولا أحد من الناس، فمن المحال الممتنع أن يكون خبرٌ نقلَه جمـيعُ سكان العالم أولهم عن آخرهم إلى كل من حـدث بعدهم عما شـاهدوه يخفى حتى لا يعرفه أحدًا من سكان الأرض، هذا أمر يُعرف كذبه بأول العقل وبديهته.

فقـال: والذى تحكونه أنتم أيضًا قـد وجدنا جمـاعات ينكرونه فينبـغى أن يبطل بما عارضتنا به. فـقلت: بين النقلين فرق لا خفاء فـيه؛ لأن نقلنا نحن لما قلناه إنما يرجع إلى خبر رجل واحد، وامرأة واحـدة فقط، وهما أول من أحدثهم الله تعالى من النوع الإنسانى، وما كان هكذا فـإنه لا يوجب العلم الضرورى، إذ التواطؤ ممكن فى ذلك، ولولا أن الأنبياء عليهم السـلام الذين جاءوا بالمعجزات أخبروا بتـصحيح ذلك ما صحّ قولنا من جهة النقل وحده، بل كان ممكنًا أن يكون الله تعالى ابتدأ خلق جماعة تناسل الخلق منهم، لكن لما أخبر من صممت المعجزة قوله بأن الله تعالى لم يبتدىء من النوع الإنسانى إلا رجلاً واحدًا وامرأة واحدة وجب تصديق قولهم.

وبرهان آخـر: وهو أنكم قـد أثبـتم ضـرورة صحـة قـولنا من أن الله ابتـدأ النوع الإنسانى بأن خلق ذكرًا وأنثى، ثم ادعـيتم زيادة أن الله تعالى خلق سواهما جـماعات ولم تأتوا على ذلك ببرهان أصـلاً ولا بدليل إقناعى فضلاً عن برهانى. وقـد صحت البـراهين التى قدمنا قـبل؛ أنه لا بد من مبـدأ ضرورة، فـوجب ولا بدَّ حـدوثُ ذكر وأنثى، وكان من ادّعي حـدوث أكثر من ذلك مدّعـيًا لما لا دليل له عليه أصـلاً، وما كان هكذا فهـو باطل بيقين لا مريه فيه، وكل ما ذكـرت عنه نبوة فى الهند والمجوس

والصابئين واليهود والنصارى والمسلمين فلم يختلفوا فى أن الله تعالى إنما أحدث الناس من ذكر وأنثى، وما جاء هذا المجيء فلا يجوز الاعتراض عليه بالدّعوى. وإنما اختلف عنهم في الأسماء فقط وليس فى هذا معترض لأنه قد يكون للمرء أسماء كثيرة فلم يمنع من هذا مانع وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: فلم نجد عندهم فى ذلك معارضة أصلاً، وما علمنا أحداً من المتكلمين ذكر هذه الفرقة أصلاً.

قال أبو محمد وقلت له فى خلال كلامى معه: أترى العالم إذْ خرج دفعة أخرج فيه الحوامل يطلقن، والطباقون[1] قعوداً على أطباقهم يبيعون التين والسِّرقين[2] فضحك وعلم أنى سلكت به مسك السخرية فى قوله لفساده، وقال لى: نعم. فقلت: ينبغى أن يكونوا كلهم أنبياء يوحى إليهم أولهم عن آخرها بما هم عليه من العلوم والصناعات، أو يلهمون ذلك.

وفى هذا من بطلان الدّعوى ما لا خفاء به.

وكان مما اعترض به: أن ذكر الجزائر المنقطعة فى البحار، وأنه يوجد فيها النمل والحشرات، وكثير من الطير، وكثير من حشرات الأرض، فقلت: إن كل ذلك لا ينكر ذو حس دخوله فى جملة رحالات المسافرين الداخلين إلى تلك البلاد فقد شاهدنا دخول الفئران فى جملة الرحل كذلك، وليس فى ذلك ما يوجب ما ذكرتَ أصلاً. مع أن الحيوان نوعان، نوع متولد يخلقه الله تعالى من عفونات الأبدان، وعفونات الأرض، فهذا لا ينكر تولده بإحداث الله تعالى له في كل حين.

وقسم آخر متوالد قد رتب الله تعالى فى بنية العالم أنه لا يخلقه إلاَّ عن مَنِيٍّ ذكر وأنثى، فهذا هو الذى صار فى تلك الجزائر عن دخول المسافرين إليها بلا شك وبالله تعالى التوفيق.

وما ننكر فى كل نوع ما عدا الإنسان أن يخلق الله منه أكثر من اثنين، فهذا ممكن

(١) طبق: الجازر: أصاب الطبق وهو المفصل، والحاكم: أصاب وأحكمُ أمره، والفرس ونحوه: رفع يديه معًا ووضعهما معًا في العدو ـ والشيء: أطبقه (الوسيط ٢/ ٥٥٠).

(٢) (سرقن) الأرض: سمدها بالزِّبل.
(السرقين): ويقال أيضًا: الزبل.
(المعجم الوسيط ص ٤٢٥ ـ ٤٢٨).

فى قدرة الله تعالى، ولم يأت خبر صادق بخلافه، لأن الله تعالى قد قال فى أمر نوح عليه السلام وسفينته حين الطوفان: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [سورة هود: ٤]. ومع هذا فقد يمكن أن يكون نوح عليه السلام مأموراً بأن يحمل من كلٍّ زوجين اثنين. ولا يمنع ذلك من بقاء بعض أنواع نبات الماء وحيوانه فى غير السفينة والله أعلم.

وإنما نقول فيما لا يخرجه العقل إلى الوجوب والامتناع بما جاءت به النبوة فقط.

وبرهان آخر: وهو أنه لو كان إخراج الله تعالى لكل ما فى العالم، من المعلوم، والعلماء بها، والصناعات، والصانعين لها، دفعة واحدة لكان ذلك بضرورة العقل وأوله لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما:

إمَّا أن يكون ذلك بوحى إعلام وتوقيف منه تعالى.

وإمّا بطبع مركب فيهم يقتضى لهم ما علموا من ذلك ما صنعوا.

فإن كان بوحى إعلام وتوقيف فقد صحت النبوة لجميعهم، إذ ليست النبوة معنى غير هذا، وهذه دعوى ممن قال بهذا القول بلا دليل، وما لا دليل عليه فهو باطل، لا يجوز القول به، لا سيما والقائلون بها منكرون للنبوة، فلاح تناقض قولهم.

وإن كان كل ذلك عن طبيعة تقتضى لهم كونهم عالمين بالعلوم، متكلمين باللغة متصرفين فى الصناعات بلا تعليم ولا توقيف، فهذا محال ضرورة، وممتنع فى العقل وفى الطبيعة؛ إذ لو كان ذلك لوجدوا أبدًا كذلك، إذ الطبيعة واحدة لا تختلف وبالضرورة ندرى أنه لا يوجد أحدٌ أبدًا فى شيء من الأزمان ولا فى مكان أصلاً يأتى يعلم من العلوم لم يُعلِّمه إياه أحد، ولا يتكلم بلغة لم يعلِّمه إيَّاها أحد، ولا بصناعة من الصناعات لم يوقفه عليها أحد.

وبرهان ذلك ما قدمنا قبل من أن البلاد التى ليست فيها العلوم وأكثر الصناعات كأرض الصقالبة(١)، والسودان، والبوادى التى فى خلال المدن ليس يوجد فيها أبدًا أحد يدرى شيئًا من العلوم ولا من الصناعات حتى يعلمه ذلك معلم، وأنه لا ينطق أحد حتى يعلمه معلم، فظهر فساد هذا القول ببرهان وقبل البرهان بتعرية من البرهان، وبالله تعالى التوفيق.

(١) جيل: من الناس كانت مساكنهم إلى الشمال من بلاد البلغار وانتشروا الآن في كثير من شرقي أوروبة وهم المسمون الآن السلاف (الوسيط ٢/ ٥١٩).

الكلام على من ينكر النبوة والملائكة

البراهمة وإبطال آرائهم:

قال أبو محمد: ذهبت البراهمة[١] وهم قبيلة بالهند فيهم أشراف أهل الهند، ويقولون إنهم من ولد برهمى ملك من ملوكهم قديم، ولهم علامة ينفردون بها، وهى خيوط ملونة بحمرة وصفرة يتقلدونها تقلد السيوف، وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلاَّ أنهم أنكروا النبوات.

وعمدة احتجاجهم فى دفعها أن قالوا: لما صحّ أن البارى عز وجلّ حكيم، وكان من بعث رسولاً إلى من يدرى أنه لا يصدقه فلا شك فى أنه متعنت[٢] عابث فوجب نفى بعث الرسل عن الله عز وجل لنفى العبث والعنت عنه.

وقالوا أيضًا: إن كان الله تعالى إنما بعث الرسل إلى الناس ليخرجهم بهم من الضلال إلى الإيمان فقد كان أولى به فى حكمته وأتم لمراده أن يضطر العقول إلى الإيمان به، قالوا: فبطل إرسال الرسل على الوجه أيضًا.

ومجىء الرسل عندهم من باب الممتنع. وأمّا نحن فنقول: إنّ مجىء الرسل قبل أن يبعثهم الله تعالىَ واقع فى باب الإمكان، وأمّا بعد أن بعثهم الله عزَّ وجل ففى حدّ الوجوب:

ثم أخبر الصادق عليه السلام عنه تعالى: أنه لا نبىّ بعده[٣] فقد جدَّ الامتناع ولسنا

---

(١) وهم المنكرون للنبوات أصلاً ومنهم من يميل إلي الدهر ومنهم من يميل إلى مذهب الثنوية ويقول بملة إبراهيم عليه السلام وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها فمن قائل بالروحانيات ومن قائل بالهياكل ومن قائل بالأصنام إلا أنهم مختلفون في شكل الهياكل التي ابتدعوها وكيفية أشكال واضعوها، ومنهم حكماء على طريق اليونانيين علمًا وعملاً . . .

والبراهمة خمس فرق: أصحاب الروحانيات وأصحاب الهياكل وعبدة الأصنام والحكماء.

من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام وذلك خطأ، فإن هؤلاء هم المخصوصون بنفي النبوات، أصلاً ورأسًا .... الملل والنحل (٢/ ٢٤٩)، وفضائح (١/ ١١٥)، والفرق بين الفرق (١/ ٣٣٢).

(٢) العنت: محركة الفساد والإثم والهلاك ودخول المشقة على الإنسان وإعنته غيره ولقاء الشدة . . .، وعنت عنه: أعرض، والعانت: المرأة العانس ـ القاموس المحيط (١/ ١٥٢).

(٣) إسناده صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٤٣) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٣٨) ح (١٤٦٧٩)، وأبي يعلي في مسنده (٢/ ٩٩) ح (٧٥٥)، والهيثمي =

نحتاج إلى تكلف ذكر قــول من قال من المسلمين: إن مجيء الرسل من باب الواجب واعتلالهم فى ذلك بوجوب الإنذار فى الحكمة إذ ليس هذا القول صحيحًا.

وإنما قولنا الذى بيناه فى غير موضع أنه تعالى لا يفعل شيئًا لعلّة، وأنه تعالى يفعل ما يشاء، وأن كل ما فعله فهو عدل وحكمة أى شىء كان.

فيـقال وبالله تعـالى التوفـيق لمن احتج بالحـجة الأولى من أن الحكمـة تضاد بعـثة الرسل، وأن الحكيم لا يبـعث الرسل إلى من يدرى أنـه يعصيـه إنكم اضطركم هذا الأصل الفاسد الحاكم بذلك إلى موافقـة المانية على أصولها فى أن الحكيم لا يخلق من يعـصيـه، ولا من يكفر به ويقـتل أوليـاءه. وهم يقولون: إن الله تعـالى خلق الخلق ليدلَّهم به على نفسه.

ويقال لهم: قـد علمنا وعلمتم أنَّ فى الناس كـثيرًا يجـحدون الربوبية والوحـدانية فقولوا: إنه ليس حكيمًا مَنْ خلق دلائل لمن يدرى أنه لا يستدل بها.

فإن قالوا: إنه قد استدل بها كثير، قيل لهم: وقد صدَّق الرسل أيضًا كثير.

فإن قـالوا: إنه خلق الخلق كمـا شاء. قيل لهم: وكـذلك بعث الرسل أيضًا كـما شاء، فبعثته تعالى الرسل هى بعض دلائله التـى خلقها تعالى ليدل بها على المعرفة به تعالى، وعلى توحيده.

ويقال لمن احتج بالحـجة الثانية من أن الأولى به أنه كـان يضطر العقول إلى الإيمان به: إن هذا قول مرذول مردود عليكم فى قولكم: إن الله عز وجل خلق الخلق ليدلَّهم بهم على نفسه ووحدانيته.

فـيلزمكم عـلى ذلك الأصل الفـاسـد أنه كـان الأولى إذ خلـقـهم أن لا يدعـهم والاستدلال، وقد علم أن فيهم من لا يستدل، وأن فيهم من يغمض عليه الاستدلال. فكان الأولى فى الحـكمـة أن يضطر عـقـولهم إلى الإيمان به، ولا يـكلفـهم مـؤونة الاستدلال، وأن يلطف بهم ألطافًا يختار جميعهم معها الإيمان كما فعل بالملائكة.

قال أبو محمد: وملاك هذا كله ما قد قلناه فى غير موضع من أن الخلق لما كانوا لا يقع منهم فعل إلاَّ لعلَّة، ووجب بالبـراهين الضرورية أن البارىء تعالى بخـلاف جميع خلقه من جمـيع الجهات، وجب أن يكون فعله لا لعلة بخلاف أفعـال جميع الخلق،

= في مجمع الزوائد (٩/ ١١١)، والنسـائي في السنن الكبرى (٥/ ١٢٥) ح (٨٤٤٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ٣٧٧).

وأنه لا يقال في شيء من أفعاله تعالى أنه فعل كذا لعلّة، ولا إذ جاء الإنسان بالنطق وحرمه سائر الحيوان، وخلق بعض الحيوان صائدًا وبعضه مصيدًا، وباين بين جميع مفعولاته، كما شاء، فليس لأحد أن يقول لم خلق الإنسان ناطقًا وحرم الحمار النطق، وجعل الحجر جامدًا لا حياة فيه ولا نطق، وهذا أصل قد وافقتنا البراهمة عليه، وسائر من خالفنا من تفريع هذا المعنى ممن يقول بالتوحيد. وهكذا إذا بعث الله تعالى الرسل ليس لأحد أن يقول: لم بعثهم؟ أو لم بعث هذا الرجل ولم يبعث هذا الآخر؟ ولا لِمَ بعثهم في هذا الزمان دون غيره من الأزمان؟ ولا لِمَ بعثهم في هذا المكان دون غيره من الأمكنة؟ كما لا يقال لما حبا هذا المكان بالخصب دون غيره، ولا لِمَ حَبَا هذا الإنسان بالجمال دون غيره، ولا لِمَ حباه بالسَّعد في الدنيا دون غيره؟ وهكذا كل ما في العالم إذا نظر فيه تعالى الذي لا يسأل عن شيء. قال تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٣].

قال أبو محمد: وإذ قد نقضنا شغبهم بحول الله تعالى وتأييده، فلنقل الآن بعون الله تعالى وتأييده في إثبات النبوة إذ وجدت قولاً بيِّنًا وبالله تعالى التوفيق: فنقول وبالله تعالى نستعين: قد قدّمنا فيما خلا إثبات حدوث الأشياء وأن لها محدثًا لم يزل واحدًا لا مبدأ له، ولا كان معه غيره، ولا مدبر سواه، ولا خالق غيره. فإذ قد ثبت هذا كله وصح أنه تعالى أخرج العالم كله إلى الوجود بعد أن لم يكن بلا كلفة، ولا معاناة، ولا طبيعة، ولا استعانة، ولا مثال سلف، ولا علّة موجبة، ولا حكم سابق قبل الخلق يكون ذلك الحكم لغيره تعالى، فقد ثبت أنه لم يفعل إذ لم يشأ، وفعل إذ شاء، كما شاء وينقص ما شاء، فكل منطوق به مما يتشكك في النفس أو لا يتشكك فهو داخل له تعالى في باب الإمكان على ما بيّنا في غير هذا المكان، إلاّ أننا نذكر منه ها هنا طرفًا إن شاء الله عزَّ وجلّ فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إن الممكن ليس واقعًا في العالم وقوعًا واحدًا؛ ألا ترى أن نبات اللحية للرِّجال ما بين الثماني عشرة إلى عشرين سنة ممكن؟ وهو في حدود الاثنتي عشرة سنة إلى العامين ممتنع، وأن فك الإشكالات العويصة، واستخراج المعاني الغامضة، وقول الشعر البديع، وصناعة البلاغة الرائقة ممكن لذي الذهن اللطيف والذكاء النافذ، وغير ممكن من ذي البلادة الشديدة والغباوة المفرطة؟

فعلى هذا كان ممتنعًا بيننا -إذ ليس في بنيتنا ولا طبيعتنا، ولا من عادتنا- فهو غير ممتنع على الذي لا بنية له، ولا طبيعة له، ولا عادة عنده، ولا رتبة لازمة لفعله، فإذ

قد صح هذا، فقد صح أنه لا نهاية لما يقوى عليه تعالى، فصح أن النبوة فى الإمكان.

وهى بعثة قوم قد خصهم الله تعالى بالحكمة والفضيلة والعصمة لا لعلة إلاَّ أنه شاء ذلك، فعلَّمهم الله تعالى العلم بدون تعلم، ولا تنقل فى مراتبه، ولا طلب له، ومن هذا الباب ما يراه أحدنا فى الرؤيا فيخرج صحيحًا، وما هو من باب تقدّم المعرفة فإذ قد أثبتنا أن النبوّة قبل مجىء الأنبياء عليهم السلام واقعة فى حدِّ الإمكان، فلنقل الآن بحول الله تعالى وقوته على وجوبها إذا وقعت ولا بدّ. فنقول:

إذ قد صحّ أن الله تعالى ابتدأ العالم ولم يكن موجودًا حتى خلقه الله تعالى فبيقين ندرى أن العلوم والصناعات لا يمكن ألبتة أن يهتدى أحد إليها بطبعه فيما بيننا دون تعليم كالطب، ومعرفة الطبائع، والأمراض وسببها على كثرة اختلافها ووجود العلاج لها بالعقاقير التى لا سبيل إلى تجريبها كلها أبدًا، وكيف يجرَّب كل عقار فى كل علة؟ ومتى يتهيأ هذا؟ ولا سبيل له إلا فى عشرة آلاف من السنين؟ ومشاهدة كل مريض فى العالم، وهذا يقطع دونه قواطع الموت والشغل بما لا بدّ منه من أمر المعاش وذهاب الدول، وسائر العوائق. وكعلم النجوم، ومعرفة دورانها وقطعها وعودها إلى أفلاكها مما لا يتم إلاَّ فى عشرة آلاف من السنين، ولابدّ من أن يَقْطع دون ضبط ذلك العوائقُ التى قلنا. وكاللغة التى لا يصح تربيةٌ ولا عيشٌ ولا تصرف إلا بها، ولا سبيل إلى الاتفاق عليها إلا بلغة أخرى ولابد، فصحّ أنه لابدّ من مبدأ إمَّا للغة. وكالحرث والحصاد، والدراس، والطحن وآلاته، والعجن، والطبخ والحلب وحراسة المواشى، واتخاذ الأنسال منها، والغرس واستخراج الأدهان، ودق الكتان والقنب[1] والقطن وغزله، وحياكته، وقطعه، وخياطته، ، ولبسه وآلات كل ذلك، وآلات الحرث والأرحاء، والسفن، وتدبيرها فى القطع بها للبحار، والدواليب، وحفر الآبار، وتربية النحل ودود الخز، واستخراج المعادن، وعمل الأبنية منها، ومن الخشب والفخار.

وكل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم. فوجب بالضرورة ولابدّ أنه لابدّ من إنسان واحد فأكثر علَّمهم الله تعالى ابتداءً كلَّ هذا دون معلم، لكن بوحى حققه عنده، وهذه صفة النبوة. فإذًا لابدّ من نبىٍّ أو أنبياء ضرورة. فقد صح وجود النبوّة والنبى فى العالم بلا شك.

---

(١) القنب: الجراب أو الغطاء يستر الشيء، كجراب قضيب الدابة، والغطاء يستر مخالب الأسد وغلاف الزهر والنبات ج (قنوب) (الوسيط ٢/ ٧٦١).

ومن البرهان على ما ذكرنا: أننا نجد كل من لم يشاهد هذه الأمور لا سبيل له إلى اختراعها ألبتة، كالذى يولد وهو أصم فإنه لا يمكن له ألبتة الاهتداء إلى الكلام، ولا إلى مخارج الحروف.

وكالبلاد التى ليست فيها بعض الصناعات وهذه العلوم المذكورة كبلاد السودان والصقالبة، وأكثر الأمم، وسكان البوادى نعم والحواضر لا يمكن ألبتة منذ أول العالم إلى وقتنا هذا ولا إلى انقضائه اهتداء أحد منهم إلى علم لم يعرفه، ولا إلى صناعة لم يُعرَّف بها، فلا سبيل إلى تهدِّيهم إليها ألبتة حتى يعلَّمُوها، ولو كان ممكنًا فى الطبيعة التهدّى إليها دون تعليم لوجد من ذلك فى العالم على سعته وعلى مرور الأزمان من يهتدى إليها، ولو واحدًا، وهذا أمر يقطع على أنه لا يوجد ولم يوجد.

وهكذا القول فى العلوم، ولا فرق، ولسنا نعنى بهذا ابتداء جمعها فى الكتب لأن هذا أمر لا مؤونة فيه، إنما هو كتاب مَا سمعه الكاتب وإحصاؤه فقط كالكتب المؤلفة فى المنطق وفى الطب، وفى الهندسة وفى النجوم، وفى الهيئة والنحو، واللغة والشعر، والعروض. إنما نعنى ابتداءً مؤونة اللغة والكلام بها، وابتداءَ معرفة الهيئة وتعلمها، وابتداء تعلم أشخاص الأمراض وأنوعها وقوى العقاقير والمعاناه بها، وابتداءَ معرفة الصناعات. فصح بذلك أنه لابدّ من وحى الله تعالى فى كل ذلك.

قال أبو محمد: وهذا أيضًا برهان ضرورى على حدوث العالم، وأن له محدثًا مختارًا ولابدّ. إذ لا بقاء للعالم ألبتة إلا بنشأة ومعاش، ولا نشأة ولا معاش إلاّ بهذه الأعمال والصناعات والآلات، ولا يمكن وجود شىء من هذه كلها إلا بتعليم البارى تعالى. فصح أن العالم لم يكن موجودًا، إذ لا سبيل إلى بقاءه إلا بما ذكرنا. ثم أوجد معلمًا مدبرًا مبتدأ بتعليمه على ما ذكرنا - وبالله تعالى التوفق.

البراهين الدالة على صدق مُدَّعى النبوة:

قال أبو محمد: وإذ قد تكلمنا على أنه لابدّ من نبوّة وصحّ ذلك ضرورة، فلنتكلم على براهينها التى صحّ بها علم صدق مدّعيها إذ وقعت فنقول: إنه قد صح أن البارى تعالى هو فاعلُ كل شىء ظهر وأنه قادر على إظهار كلّ متوهَّم لم يظهر وعلمنا بكل ما قدمنا أنه تعالى مرتب هذه المراتب التى فى العالم ومجريها على طبائعها المعلومة منا الموجودة عندنا، وأنه لا فاعل على الحقيقة غيره تعالى؛ ثم رأينا خلافًا لهذه الرتب والطبائع قد ظهرت، ووجدنا طبائع قد أحيلت، وأشياء فى حدّ الممتنع قد وجبت

ووجدت، كصخرة انفلقت عن ناقة(١)، وعصا انقلبت حية(٢)، وميّت أحياه إنسان(٣)، ومئين من الناس رووا وتوضؤوا كلهم من ماء يسير في قدح صغير يضيق عن بسط اليد فيـه، لا مادة له(٤)؛ فعلمنا أن مـحيل هذه الطبائع، وفاعل هذه المعـجزات هو الأول الذي أحدث كل شيء. ووجدنا هذه القوى قد أصحبها الله تعالى رجالاً يدعون إليه، ويذكرون أنه تعالى أرسلهم إلى الناس، ويستشهدون به تعالى فيشهد لهم بهذه المعجزات المحدثة منه تعالى، في حين رغبة هؤلاء القوم إليه فيـها، وضراعتهم إليه في تصديقهم بها، فعلمنا علمًا ضروريًا يقينيًا لا مجـال للشك فيه أنهم مبعوثون من قبله عزّ وجل، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عنه تعالى، إذ لا سبيل في طبيعة مخلوق في العالم إلى التحكم على البـارئ، ولا على طبائع خلقـه مثل هذا، ووجوب النبـوة إذ ظهر على مدّعيها معجزة من إحالة الطبائع المخالفة لما بُني عليه العالم.

---

(١) ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح فدعـاهم إلى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمـرهم، فقالوا له: إن أنت أخـرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صـخرة هناك ـ ناقة، من صـفتها كـيت وكيت، وذكروا أوصـافًا سموها ونعـتوها وتعنتوا وأن تكون عـشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم . . .
ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعـا الله أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا قـال تعالى: ﴿وقد جاءتكم بينة من ربكم، هذه ناقـة الله لكم آية، فذروها تأكل في أرض الله، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ [الأعراف: ٧٣].
انظر قصص الأنبياء لابن كثير (١١٧).

(٢) وذلك أن موسى لما ألقى عـصاه، صارت حـية عظيمة ذات قـوائم فيمـا ذكره غير واحـد من علماء السلف، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحـازوا منها وهربوا سراعًا وتأخروا عن مكانها، وأقـبلت هي على ما ألقوه من الحبـال والعصي، فجعلت تـلقفه واحدًا واحدًا فـي أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها . . . . قال تعالى: ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾.
قصص الأنبياء لابن كثير (٣١٠).

(٣) قـوله تعالى: ﴿وتبرئ الأكمه﴾ قال بعض السـلف: وهو الذي يولد أعمى ولا سـبيل لأحـد من الحكماء إلى مـداواته و﴿الأبرص﴾ هو الذي لا طب فيه بل قـد مرض بالبرص وصار داؤه عـضالاً، ﴿وإذ تخرج الموتى﴾ أي من قبورهم أحياء ﴿بإذني﴾ قصص الأنبياء لابن كثير (٥٥٦).

(٤) صحـيح البخاري (١/ ٧٤) ح (١٦٧)، ومسلـم (٤/ ١٧٨٣) ح (٢٢٧٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٥٦) ح (١٠٧)، وابن حـبـان في صـحـيحـه (١٤/ ٤٧٧) ح (٦٥٣٩)، والتـرمـذي في سننه (٥/ ٥٩٦) ح (٣٦٣١)، ومسند أبي عوانة (٥/ ١٣٧) ح (٨١٣٠).

وقد تكلمنا فى غير هذا المكان على أنّ هذه الأشياء لها طرق توصل إلى صحة اليقين بها عند من لم يشاهدها كصحتها عند من شاهدها ولا فرق. وهى نقل الكافة التى قد استشعرت العقول ببدايتها والنفوس بأوّل معارفها أنه لا سبيل إلى جواز الكذب ولا الوهم عليها، وأن ذلك ممتنع فيها. فمن تجاهل وأجاز ذلك عليها خرج عن كل معقول، ولزمه أن لا يصدق أن من غاب عن بصره من الإنس بأنهم أحياء ناطقون كمن شاهد، وأن صورهم على حسب الصورة التى عاين، ولزم أن يكون عنده ممكنًا فى بعض من غاب عن بصره من الناس أن يكونوا بخلاف ما عهد من الصورة، إذ لا يعرف أحد أن كل ما غاب عن حسه فإنه فى مثل كيفية ما شاهد من نوعه إلا بنقل الكواف ذلك، كما نقلت أن بعضهم بخلاف ذلك فى بعض الكيفيات، فوجب تصديق ذلك ضرورة كبلاد السودان، وما أشبه ذلك. ويلزم من لم يصدق خبر الكافة، ويجيز فيه الكذب والوهم أن لا يصدق ضرورة بأن أحدًا كان قبله فى الدنيا، ولا أن فى الدنيا أحدًا إلاَّ من شاهد بحسه. فإن جوَّز هذا عرف بعقله أنه كاذب، وخرج عن حدود من يتكلم معه، لأن هذا الشىء لا يعرف ألبتة إلاَّ من طريق الخبر لا غير، فإن نفر عن هذا وأقر بأنه قد كان قبله ملوك وعلماء، ووقائع وأمم، وأيقن بذلك، ولم يكن فى كثير منها شك بل هى عنده فى الصحة كما شاهد ولا فرق - سئل: من أين عرفت ذلك وكيف صح عندك؟ فلا سبيل له أصلاً إلى أن يصح ذلك عنده إلا بخبر منقول نقل كافة. وبالله تعالى التوفيق. فنقول له حينئذ: فرّق بين ما نقل إليك من كل ذلك، وبين كل ما نقل إليك من علامات الأنبياء عليهم السلام! ولا سبيل له إلى الفرق بين شىء من ذلك أصلاً. فإن قال: الفرق بينها وبينها أنه لا ينكر أحد هذه الأمور، وكثير من الناس ينكرون أعلام الأنبياء، قيل له وبالله تعالى التوفيق: إن كثيرًا من الناس لا يعرفون كثيرًا مما صح عندك من الأخبار العارضة لمن كان فى بلادك قبلها فليس جهلهم بها ودفعهم لها لو حدثوا بها مُخرِجًا لها عن الصحة، وكذلك جحد أعلام الأنبياء ليس مُخْرِجًا لها عن الوجوب والصحة.

فإن قال: إنه ليس نجد الناس على الكذب فيما كان قبلنا من الأخبار ما نجدهم على الكذب فى أعلام النبوة. قيل له وبالله التوفيق:

هذا كذب، بل الأمران سواء لا فرق بينهما. ومن الملوك من يشتد عليهم وصف أسلافهم بالجور والظلم والقبائح، ويحمى هذا الباب بالسيف فما دونه، فما انتفعوا بذلك فى كتمان الحق.

قد نقل ذلك كلـه وعرف، كمـا نقلت فضائل من تغـضب ملوك الزمان من مـدحه كفضائل على بن أبى طالب ﷺ(١)، ما قَدِر قط ملوك بنى مروان على سترها وطيها.

وقد رام المأمون(٢) والمعتصم(٣) والواثق(٤) على سعة ملكهم لأقطار قطع القول بأن القرآن غير مخلوق(٥) فما قدروا على ذلك.

---

(١) علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي أبو الحسن: أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأول الناس إسلامًا بعد خديجة. روى عن النبي ﷺ ٥٨٦ حديثًا وكان نقش خاتمة «الله الملك» وجمعت خطبه وأقواله ورسائله في كتاب سمى «نهج البلاغة ـ ط».
وبما كتب المتأخرون في سيرته: «الإمام علي ـ ط» عدة أجزاء لعـبدالفتاح عبدالمقصود، و«ترجمة علي ابن أبي طالب ـ ط» لأحـمد زكي صـفوت (الأعـلام ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، (صفـة الصفـوة ١/ ١١٨، وحلية الأولياء ١/ ٦١، وشرح نهج البلاغة ٢/ ٥٧٩).

(٢) عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس: سابع الخلفاء من بني العبـاس في العراق، وأحد أعـاظم الملوك، في سيرتـه وعلمه وسعـة ملكه وعرّفه المؤرخ ابن دحـية بالإمام «العالم المحدّث النحوي اللغوي» ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ.
فتـمم ما بدأ به جده المنصـور من ترجمـة كتب العلم والفلسفـة وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة لولا المحنة بخلق القرآن في السنة الأخيرة من حيـاته. أخباره كثيرة جمع بعضها في مجلد مطبوع صفـحاته ٣٨٤ من «تاريخ بغداد» لابن أبي طيفور وكتاب «عصـر المأمون ـ ط» لأحمد فريد الرفاعي. (الأعلام ٥/ ١٤٢، تاريخ بغداد لابن الخطيب ١٠ :١٨٣).

(٣) محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، أبو إسـحاق المعتصم بالله العباس: خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة. بويع بالخلافة سنة ٢١٨هـ يوم وفاة أخيه المأمون ويعهد منه. . . . .
وهو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقية . . . .
وهو أول من أضاف إلى اسمه اسم الله تعالى من الخلفاء فقيل: «المعتصم بالله . . .
(الأعلام ٧/ ١٢٧، ١٢٨ ابن الأثير ٦/ ١٤٨ ـ ١٧٩).

(٤) هارون والواثق بالله ابن محـمد (المعتـصم بالله) ابن هارون الرشيد العـباسي، أبو جعفـر: من خلفاء الدولة العباسـية بالعراق. ولد ببغداد، وولي الخـلافة بعد وفاة أبيه (سنة ٢٢٧هـ) فـامتحن الناس في خلق القرآن. وسجن جماعة، وقتل في ذلك أحمد بن نصر الخزاعي بيده (سنة ٢٣١).
قال أحد مؤرخيـه: كان في كثير من أموره يذهب مذهب المأمون، وشـغل نفسه في محنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم . . .
(الأعلام ٨/ ٦٢ ـ ٦٣، ابن الأثير ٧/ ١٠، والطبري ١١/ ٢٤).

(٥) الصحيح أن يقول «أن القرآن مخلوق» وهو قول فرقة من المعتزلة يزعمون أن القرآن مخلوق لله، وهو عرض، وأبوا أن يكون جسمًا، وزعموا أنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد . . . فهو يوجد في الأمـاكن بالتلاوة والحـفظ والكتابة، ولا يجـوز عليـه الانتقـال والزوال، وهذا قول: «أبي الهـذيل» وأصحـابه، وكذلك قـوله في كلام الخلـق إنه جائز وجـوده في أماكن كـثيرة في وقـت واحد . . . مقالات الإسلاميين (١/ ٢٦٨).

وكل نبى فله عدو من الملوك والأمم يكـذبونهم، فما قدروا قط على طيّ أعـلامهم ولا على تحقـيق ما زادوا على ذلك لمن يـغضب له من لا دين له. فـصح أن الأمرين سواء، وأن الحقّ حق. فإن قـال قائل: فلعلّ هذا الذى ظهرت منه المعجـزات قد ظفر بطبيعة وخاصية قدر معها على إظهار ما أظهر. قيل له وبالله التوفيق.

إن الخواصّ قـد علمت، ووجـوه الحيل قـد أُحكمت، وليس فى شىء منها عـمل يحدث عنه اختراع جسم لم يكن كنحـو ما ظهر من اختراع الماء الذى لم يكن ولا فى شىء منه إحالة نوع آخـر دفعة علـى الحقيقـة، ولا جنس إلى جنس آخر دفـعة على الحقـيقة، وهذا كله قـد ظهر على أيدى الأنبيـاء عليهم السـلام فصح أنه من عند الله تعالى، لا مدخل لعلم إنسان ولا حيلته فيه.

الفرق بين المعجزة والسحر:

ونحن نبين إن شاء الله تعـالى الفرق الواضح بين معـجزات الأنبياء عليـهم السلام وبين ما يقدر عليه السحر وبين حيل العجائبيين. فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إن العالم كله جوهر وعرض، لا سبيل إلى وجود قسم ثالث في العالم دون الله تعالى.

فأمَّا الجـواهر فاختراعـها من ليس إلى أيس[١] وهو من العدم إلى الوجود فـممتنع غير ممكن ألبتة لأحد دون الله تعالى، مبتدىء العالم ومخترعه. فمن ظهر عليه اختراع جسم كالماء النابع من أصابع رسول الله ﷺ بحضرة الجيش فهى معجزة[٢] شاهدة من الله تعالى بصحة نبوته لا يمكن غير ذلك أصلاً.

وكذلك إحـالة الأعراض إلى جـوهريات ذاتيات، وهى الـفصول التى تـؤخذ من الأجناس، وذلك كـقلب العصـا حية، وحـنين الجذع[٣]، وإحيـاء الموتى الذين رمّوا وصاروا عظامًا، والبقاء فى النار ساعات لا تؤذيه[٤]، وما أشبه ذلك.

(١) قولهم «أيس وليس» من حـيث هو ولا هو أو معناه لا وجد أو أيس أي موجـود ولا أيس لا موجود القاموس المحيط (٢/٢٤٨)، الوسيط (١/٣٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) عن جابر بن عبدالله ﷺ أن امـرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ ألا أجعل لك شيئًـا تقعد عليه فإن لي غلامًـا نجاراً قال: إن شئت قال: فعـملت له المنبر فلما كان يوم الجمعـة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع فـصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حـتى كادت أن تنشق فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت.

صحيح البخاري (٢/٧٣٨) ح (١٩٨٩)، (٣٣٩١).

(٤) وذلك حينما أرادوا وضع الخليل عليه السـلام في النار، فلما وضع الخليل عليه السـلام في كفة =

وكذلك الأعـراض التى لا تزول إلا بفساد حـاملها كالـغطس والرزق ونحو ذلك. فهذا لا يقدر عليه أحد دون الله تعالى بوجه من الوجوه.

وأمـا إحالة الأعـراض من الغـيرات التـى تزول بغيـر فـساد حـاملهـا فقـد تكون بالسحر. ومنه طلسمات[1] كتنفير بعض الحيوان عن مكان مًا فلا يقرب أصلاً، وكإبعاد البرد ببعض الصناعات، وما أشبه هذا، وقد يزيد الأمر ويفشو العلم ببعض هذا النوع حتى يُحسنه أكثر الناس كالطب والأصباغ وما أشبه هذا.

وأمّا التخييل بنوع من الخديعة كسكين مثقوبة النصاب تدخل فيها السكين ويظن من رآها أنها دخلت فى جسد المضروب بها، فى حـيل غير هذه من حيل أرباب العجائب كالحلاج[2] وأشباهه فـأمر يقدر عليه من تعلمه، وتعلـمه ممكن لكل من أراده. فالذى يأتى به الأنبـيـاء عليهم السـلام هو إحـالة الذاتيـات، ومن ذلك صرف الحـواس عن طبائعها كمن أراك ما لا يراه غيرك، أو مسح يده على مريض فأفاق، أو سقاه ما يضر علته فبرىء، أو أخبر عن الغيوب فى الجـزئيات عن غير تعديل ولا فكرة، فهذه كلها إحالة الذاتيات وما ثبت، إذ ثباتها لا يكون إلاَّ لنبى.

فإذْ قد تكلمنا على إمكان النبوة قبل مجـيئها ووجوبها حين وجودها، فلنتكلم الآن بحول الله وقوته على امتناعها بعد ذلك. فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إذ قد صح كل ما ذكرناه من المعجزات الظاهرة من الأنبياء عليهم السلام شهادة من الله تعالى لهم مصدقًا بها أقوالـهم، فقد وجب علينا الانقياد لما أتوا به، ولزمنا تيقن. كل ما قالوا. وقـد صح عن رسول الله ﷺ بنقل الكواف التى نقلت نبوتـه وأعلامه وكتابه أنه أخـبر أنه لا نبى بعده[3]، إلاَّ ما جاءت الأخبار الصـحاح عن نزول عيسى

= المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثم ألقوه منه إلى النار قال حسبنا الله ونعم الوكيل (قصص الأنبياء: ١٣٦).

(١) الطلسم: في علم السـحر. خطوط وأعـداد يزعم كاتبـها أنه يربط بهـا روحانيـات الكواكب العلوية بالطبائع السـفلية لجلب محـبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هـو غامض مبهم كـالألغاز والأحاجي (الوسيط ٢/ ٥٦٢).

(٢) الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث: فيلسوف يـعد تارة من كبار المتعبدين والزهاد، وتارة في زمرة الملحدين أصله من بيضاء فارس وظهر أمره ٢٩٩هـ فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان ثم كان يتنقل في البلدان وينشر طريقته سرًا .....

من تصانيفه «السياسة والخلفاء والأمراء» و«علم البقاء والفناء» و«مدح النبي والمثل الأعلى»، و«اليقين» ... (الأعلام ٢/ ٢٦٠، الفهرست ١/ ١٩٠، ولغة العرب ٣/ ١٥٤).

(٣) سبق تخريجه، وإسناده صحيح كما قال الذهبي.

عليه السلام[١] الذى بعث إلى بني إسرائيل وادّعى اليهود قتله وصلبه، فوجب الإقرار بهذه الجملة، وصحّ أن وجود النبوة بعده عليه السلام باطل لا يكون ألبتة.

وبهذا يبطل أيضًا قول من قال بتـواتر الرسل ووجوب ذلك أبدًا وبكل ما قدمناه مما أبطلنا به قول من قال بامتناعه ألبتة؛ إذ عمدة حجة هؤلاء هى قولهم: إن الله حكيم، والحكيم لا يجوز فى حكمته أن يترك عباده هملاً دون إنذار.

قال أبو محمد: وقد أحكمنا بحول الله تعالـى وقوتـه قبل هذا أن الله عز وجل لا شرط عليه، ولا علة عليـه أن يفعل شيئًا، ولا ألا يفـعله؛ وأنه تعالى لو أهمل الناس لكان حقًا وحسنًا لو خلقهم كما خلـق سائر الحيوان الذى لم يلزمه شريعة، ولا حُظر عليـه شيء، وأنه تعالى لو واتر الرسـل والنذارة أبدًا لكان حقًـا وحسنًا، كـما فـعل بالملائكة الذين هم حـملة وحيـه ورسله أبدًا، وأنه تعـالى لو خلق الخلق كفـارًا كلهم لكان ذلك منه حقًـا وحسنًا، أو لو خلقهم مـؤمنين كلهم لكان حقًا وحسنًا، كـما أن الذى فعل تعـالى من كل ذلك حق وحسن، وأنه لا يقبح شيء إلاَّ مِنْ مـأمورٍ ومنهى قد تقدّمت الأوامر وجوده وسبقت الحدود المرتِّبة للأشياء كونَه، وأما من سبق كُلَّ ذلك فله أن يفعل ما يشاء ويترك لا معقب لحكمه.

وأمّا الملائكة فكل من له معرفة ببنيـة العالم والأفلاك والعناصر فإنه يعلم أن الأرض وعمقها أقربِ إلى الفساد من سـائر العناصر، ومن سائر الأجرام العلوية، وأنها مواتية كلها، وأنِ الحيـاة إنما هى فى النفس المنزلة قسرًا إلى مجـاورة البدن الترابى المواتى من سائر جـميع الحـيوان. فقـد ثبت يقينًا بضـرورة المشاهدة أن مـحلَّ الحياة وعـنصرها، ومعدنها، وموضعها إنما هو هنالك من حيث جاءت النفوس الحية الناقصة بما فى طبعها من مجاورة هذه الأجساد، والتثبت بها عن كمال ما خُصَّ بالحياة الدائمة ولم يُشَنْ ولا نقص فضلُه وصـفاؤه بمجاورة الأجسـاد الكدرة المملوءة آفاتٍ ودرنًا وعيـوبًا، فصحَّ أن العلو الصافى هو محل الأحياء الفاضلين السالمين من كل رذيلّة، ومن كل نقص، ومن كل مزاج فاسد، المحـبُوِّين بكل فضيلة فى الخلق، وهذه صفـة الملائكة عليهم السلام.

---

(١) عقد الإمام البخاري بابًا بعنوان «نزول عيسى ابن مريم عليه السلام» وذكر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليـوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عـدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضـع الجزية ويفيض المال حتى لا يقـبله أحد، حتى تكون السجـدة الواحدة خيرًا من الدنيا ومـا فيها» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئـتم: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيـامة يكون عليهم شهيدًا﴾ صحـيح البخاري (٣/ ١٢٧٢) ح (٣٢٦٥)، ومسلم في صحيحه (١/ ١٣٥) ح (١٥٥)، والترمذي في سننه (٤/ ٥٠٦) ح (٢٢٣٣).

وصح بهذا أن على قدر سعة ذلك المكان يكون كـثرة من فيه من أهله وعُمّاره، وأنه لا نسبة لما فى هذا المحل الـضيق والنقطة الكدرة مما هنالك كما لا نسـبة لمقدار هذا المكان من ذلك، وبهذا صحت النبوة وهكذا أخبر سول الله ﷺ عن كثرة الملائكة من ذلك، فى الأخبار المسندة الـثابتة عنه ﷺ، وبهذا وجب أن يكونوا هم الرسل والوسائط بين الأول تعـالى الذى خصـهم بالنبـوّة والرسالة وتعليم الـعلوم، وبين إنقاذ النفـوس من الهلكـة.

الرد على من ادّعى أنّ فى البهائم رسلاً

قال أبو مـحمد: ذهب أحمد بن حـابط وكان من أهل البصرة من تلامـيذ إبراهيم النظام[(١)] يظهر الاعتزال، وما نراه الكافر كان إلا منانيًا.

وإنما استجزنا إخراجه عن الإسـلام لأن أصحابه حكوا عنه وجوهًا من الكفر، منها التناسخ، والطعن على رسول الله ﷺ بالنكاح، وكـان من قوله إن الله عز وجـل نبأ أنبيـاء من كل نوع من أنواع الحيوان، حتّى البق والبـراغيث والقمل وحجـته فى ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [سورة الأنعام: ٣٨] ، ثم ذكر قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ [سورة فاطر: ٢٤] .

قال أبـو محمـد: وهذا لا حجة لهم فيه لأن الله عز وجل يقول: ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [سورة النساء: ١٦٥]، وإنما يخاطب الله بالحـجة من يعقلها قال الله تعالى: ﴿**يا أولي الألباب**﴾. وقد علمنا بضرورة الحس أن الله تعالى إنما خص بالنطق الذى هو التصرف فى العلوم، ومعرفة الأشياء على ما هى عليه، والتصرف فى الصناعات على اختـلافها الإنسانَ خاصـة. وأضفنا إليهم بالخبر الصـادق مجرد الجن، وأضفنا إليهم بالخـبر الصادق، وببراهين أيضًا ضـرورية الملائكة، وإنما شارك من ذكرنا سائر الحيوان فى الحياة خاصـة وهى الحس والحركة الإرادية، فعلمنا بضرورة العقل أن

(١) إبراهيم بن سيـار بن هانئ البصري، أبو إسـحاق النظام: من أئمة المعتـزلة، تبحر في علوم الفلسـفة واطلع على أكثر ما كـتبه رجالها، وانفرد بآراء خاصة تابعـته فيها فرقة من المعتزلة سـميت «النظامية» نسبة إليه . . . . له كتبًا كثيرة في الفلسفة والاعتزال.
ولمحمد عبدالهادي أبي ريدة كتاب «إبراهيم بن سيار النظام ـ ط»
(الأعلام ١/ ٤٣، تاريخ بغداد ٦/ ٩٧، أمالي المرتضى ١/ ١٣٢، اللباب ٣/ ٢٣٠).

الله تعالى لا يخاطب بالشرائع إلاَّ من يعقلها ويعرف المراد بها، وبقوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]. ووجدنا جميع الحيوان حاشا الناس يجرى على رتبة واحدة فى تصرفها فى معاشها وتناسلها، لا يجتنب منها واحد شيئًا يفعله غيره. هذا الذى يدرك حسًّا فيما يعاشر الناس فى منازلهم من المواشى والخيل والبغاء والحمير والطير وغير ذلك. وليس الناس فى أحوالهم كذلك، فصح أن البهائم غير مخاطبة بالشرائع وبطل قول ابن حابط. وصح أن معنى قول الله تعالى: ﴿أمم أمثالكم﴾[١] أى أنواع أمثالكم، إذ كل نوع يسمى أمة. وأن معنى قوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ إنما عنى تعالى تلك الأمم من الناس، وهم القبائل والطوائف، ومن الجن لصحة وجوب العبادة عليهم. فإن قال قائل: فما يدريك لعل سائر الحيوان له نطق وتمييز؟[٢].

قيل له وبالله التوفيق: بقضية العقول وبدهيها عرفنا الأشياء على ما هى عليه، وبها عرفنا الله عز وجل وصحة النبوات وهى التى لا يصح شىء إلاَّ بموجبها. فما عرف بالعقل وجوبه فهو واجب بيننا -نريد فى الوجود فى العالم- وما عرف بالعقل أنه محال فهو محال فى العالم وما وجد بالعقل إمكانه فجائز أن يوجد، وجائز أن لا يوجد، وبضرورة العقل والحس علمنا أن كل نوعين واقعين تحت جنس واحد فإن ذلك الجنس يعطيهما اسمه وحدَّه عطاء مستويًا. فلما كان جنس الحى يجمعنا مع سائر الحيوان استوينا معها كلها استواء لا تفاضل فيه، فما اقتضاه اسم الحياة من الحس والحركة الإرادية، وهذان المعنيان هما الحياة لا حياة غيرهما أصلاً. وعلمنا ذلك بالمشاهدة لأننا رأينا الحيوان يألم بالضرب والنخس، ويحدث لها من الصوت والقلق ما يحقق ألمها كما نفعل نحن ولا فرق. ولذلك لما تشاركنا والحيوان وجميع الشجر والنبات فى النماء استوى جميع الحيوان فيما اقتضاه اسم النمو من طلب الغذاء، واستحالته فى المتغذّى به إلى نوعه، ومن طلب بقاء النوع مع جميع الشجر والنبات استواء واحداً لا تفاضل فيه.

ولما شاركنا وجميع الحيوان والشجر والنبات وسائر الجمادات فى أن كل ذلك أجسام

---

(١) قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة، قال السدي أي خلق أمثالكم. (تفسير ابن كثير ٢/ ٢١٠).

(٢) وقال ابن كثير: «وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل كما قال تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ تفسير ابن كثير (٣/ ٨٧٩).

طويلة عريضة عميقة جميعَ الأجرام استوى كل ذلك فيما اقتضاه له اسم الجسمية فى ذلك استواء لا تفاضل فيه. ولم يدخل ما لم يشارك شيئًا مما ذكرنا فى الصفة التى انفرد بها عنه. هذا كله يعلمه ضرورة من وقف عليه مما له حس سليم. فلما كان النطق الذى هو التصرف فى العلوم والصناعات قد خصنا دون سائر الحيوان وجب ضرورة أن لا يشاركنا شىء من الحيوان فى شىء منه، إذ لو كان فيه شىء منه لما كنا أحق بكله من سائر الحيوان. كما أنا لسنا بالحياة أحق منها، ولا بالنمو ولا بالحركة ولا بالجسمية، فصح بهذا أنه لا نطق لها أصلاً.

فإن قال قائل: لعل نطقها بخلاف نطقنا؟ قيل له وبالله التوفيق:

لا يتشكل فى العقول ألبتة حياة على غير صفة الحياة عندنا، ولا نماء على غير صفة النماء عندنا، ولا حمرة على غير الحمرة عندنا، ولا جسم على خلاف الأجسام عندنا، وهكذا فى كل شىء، ولو كان شىء بخلاف ما عندنا لم يقع عليه ذلك الاسم أصلاً، وكان كمن سمّى الماء ناراً، والعسل حجراً، وهذا هو الحمق والتخليط فالبضرورة وجب أن كل صفة هى بخلاف نطقنا فليس نطقًا. والنطق عندنا هو التصرف فى العلوم والصناعات ومعرفة الأشياء على ما هى عليه، فلو كان ذلك النطق بخلاف هذا لكان ليس معرفة الأشياء على ما هى عليه، ولا تصرفًا فى العلوم والصناعات، فهو إذًا ليس نطقًا، فبطل هذا الشغب السخيف والحمد لله رب العالمين.

فإن اعتراض معترض بفعل النحل ونسج العنكبوت، قيل له وبالله التوفيق:

إنَّ هذا طبيعة ضرورية، لأن العنكبوت لا يتصرف فى غير تلك الصفة من النسج ولا توجد أبدًا إلا كذلك. وأمّا الإنسان فإنه يتصرف فى عمل الديباج والوشى[(١)] والقباطى[(٢)] وأنواع الأصباغ والدباغ، والخرط والنقش، وسائر الصناعات من الحرث والحصاد والطحن والطبخ والبناء والتجارات، وفى أنواع العلوم من النجوم ومن الأغانى والطب والنبل والجبر، والعبارة والعبادة وغير ذلك.

ولا سبيل لشىء من الحيوان إلى التصرف فى غير الشىء الذى اقتضاه له طبعه، ولا إلى مفارقة تلك الكيفية. فإن اعترض معترض بقول الله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [سورة النمل: ١٦]. وبما ذكر الله تعالى من قول النملة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

(١) الوشي: نقش الثوب، ويكون من كل لون ج، (وشاء) الوسيط (٢/ ١٠٣٦).

(٢) القبطية: ثياب من كتان بيض رقاق، كانت تنسج بمصر، وهي منسوبة إلى القبط (ج) (قباطي)، (قباطي). الوسيط (٢/ ٧١١).

﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾ [سورة النمل: ١٨] الآية. وقصة الهدهد. وقيل وبالله تعالى التوفيق:

لم ندفع أن يكون للحيوان أصوات عند معاناة ما تقتضيه له الحياة من طلب الغذاء، وعند الألم، وعند المضاربة، وطلب السِّفاد، ودعاء أولادها، وما أشبه ذلك فهذا هو الذى علمه الله تعالى سليمان رسوله عليه السلام، وهذا الذى يوجد فى أكثر الحيوان، وليس هذا من تمييز دقائق العلوم والكلام فيها، ولا من عمل وجوه الصناعات كلها فى شىء. وإنما عنى الله تعالى: بـ«منطق الطير» أصواتها التى ذكرنا لا تمييز العلوم والتصرف فى الصناعات التى من ادعاها لها أكذبه العيان، والله تعالى لا يقول إلاَّ الحق.

وأما قصة النملة والهدهد: فهما معجزتان خاصتان لذلك النمل ولذلك الهدهد، وآيتان لسليمان رسول الله ﷺ. ككلام الذراع[1] وحنين الجذع، وتسبيح الطعام[2] لمحمد ﷺ آيات لنبوته عليه السلام، وكذلك حياة عصا موسى عليه السلام آية لرسول الله موسى عليه السلام، لأن هذا النطق شامل لأنواع هذه الأشياء.

قال أبو محمد: وقد قاد السخف والضعف والجهل من يُقَدِّر فى نفسه أنه عالم وهو المعروف بخويزمنداد المالكى إلى أن جعل للجمادات تمييزاً.

قال أبو محمد: ولعلّ معترضًا يعترض بقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤] وبقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [سورة الحج: ١٨] الآية. وبقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] الآية. وبقوله تعالى حاكيًا أنه قال للسموات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ

---

(١) روى الدارمي في سننه (١/ ٤٦) ح (٦٧) من حديث أبي سلمة قال: «كان رسول الله ﷺ يأكل الهدية، ولا يقبل الصدقة، فأهدت له امرأة من يهود خيبر شاة مصلية، فتناول منها وتناول منها بشر ابن البراء ثم رفع النبي ﷺ ـ يده ثم قال: إن هذه تخبرني أنها مسمومة فمات بشر بن البراء، فأرسل إليها النبي ﷺ فقال، ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: إن كنت نبيًّا لم يضرك شيء، وإن كنت ملكًا أرحت الناس منك . . . .».

وأخرجه الحاكم من حديث أبي سعيد الخدري (٤/ ١٢٢) ح (٧٠٩١) وقال الذهبي: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبي داود في سننه (٤/ ١٧٤) ح (٤٥١٢)، والمعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٤)، ح (١٢٠٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣١٢)، ح (٣٣٨٦)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ١٠٢) ح (٢٠٤)، والترمذي في سننه (٥/ ٥٩٧) ح (٣٦٣٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي في سننه (١/ ٢٨) ح (٢٩).

كرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[سورة فصلت: ١١] وبقول رسول الله ﷺ: «يوم يقتص للشاة الجماء من الشاه القرناء»(١) فهذا كله حق ولا حجة لهم فيه والحمد لله رب العالمين، لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره كذلك كلام رسول الله ﷺ، ومن خالف ذلك كان عاصيًا لله عزّ وجل مبدلاً لكلماته، ما لم يأت نص فى أحدهما، أو إجماع متيقن، أو ضرورة حسٍّ على خلاف ظاهره، فيوقف عند ذلكم، ويكون مَنْ حَمَله على ظاهره حينئذ ناسبًا الكذب إلى الله عزّ وجل أو كاذبًا عليه وعلى نبيه عليه السلام نعوذ بالله من كلا الوجهين. وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية أن الحيوان غير الإنس والجن والملائكة لا نطق له نعنى أنه لا تبصرف له فى العلوم والصناعات، وكان هذا القول مشاهدًا بالحس معلومًا بالضرورة لا ينكره إلا وقح مكابر لحسه، وبينا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعهود عندنا فإنه ليس تمييزًا، وكان هذا أيضًا يعلم بالضرورة والعيان والمشاهدة، فوجب أنه بخلاف ما يسمى فى الشريعة واللغة نطقًا وقولاً وتسبيحًا وسجودًا، فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها، وأما معانيها فمختلفة لا يحل لأحد أن يحملها على غير هذا، لأنه إن فعل كان مخبرًا أن الله تعالى قال ما يبطله العيان والعقل الذى به عرفنا الله تعالى ولولاه ما عرفناه، ومن أجاز هذا كان كافرًا مشركًا، ومن أبطل العقل، فقد أبطل التوحيد إذ كذب شاهده عليه، إذ لولا العقل لم يَعرف الله عزّ وجل أحد، ألا ترى المجانين والأطفال لا يلزمهم شريعة لعدم عقولهم: ومن جوّز هذا فلا ينكر على النصارى ما يأتون به من خلاف المعقول، ولا على الدهرية، ولا على السوفسطائية ما يخالفون به المعقول، لكنا نقول: إنَّ اللفظ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه، كما فعلنا في النزول وفي الوجه واليدين والأعين وحملنا كل ذلك على أنه حق بخلاف ما يقع عليه اسم «ينزل» عندنا، واسم «يد» و«عين» عندنا، لأن هذا عندنا في اللغة واقع على الجوارح والنقلة، وهذا منفيّ عن الله تعالى.

فإذ لا شك فى هذا فلنقل الآن على معانى الآيات التى ذكرنا أنه ربما اعترض بها من لا يمعن النظر بحول الله وقوته فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أما تسبيح كل شيء فالتسبيح عندنا إنما هو قول «سبحان الله وبحمده» وبالضرورة

(١) صحيح ابن حبان (١٦/٣٦٣) ح (٧٣٦٣) من حديث أبي هريرة، والحاكم في المستدرك (٤/٦١٩) ح (٨٧١٦)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ومجمع الزوائد (١٠/٣٥٢) وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وأحمد في مسنده (١/٧٢) ح (٥٢٠) من حديث عثمان بن عفان.

نعلم أن الحجارة والخشب والهوام والحشرات والحيوان غير الناطق لا تقول «سبحان الله» بالسين والباء والحاء والألف والنون واللام والهاء. هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل، فإذ لا شك فى هذا فباليقين علمنا أن التسبيح الذى ذكره الله تعالى هو حق، وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك. فإذ لا شك فى هذا فإن التسبيح فى أصل اللغة هو تنزيه الله تعالى عن السوء. فإذ قد صح هذا فإن كل شىء فى العالم بلا شك منزه لله تعالى عن السوء الذى هو صفة الحدوث، وليس فى العالم شىء إلا وهو دال بما فيه من دلائل الصنعة، واقتضائه صانعًا لا يشبه شيئًا مما خلق تعالى، على أن الله تعالى منزه عن كل سوء ونقص. وهذا هو الذى لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[سورة الإسراء: ٤٤].

فهذا هو تسبيح كل شىء بحمد الله تعالى بلا شك. وهذا المعنى حق لا ينكره موحد(١).

فإن كان قولنا هذا متَّفَقًا على صحته وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعهود عندنا، فقد ثبت قولنا، وانتفى قول من خالفنا بظنه الكاذب.

وأيضًا فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[سورة الإسراء: ٤٤] والكافر الدّهرى شىء، لا يُشَك فى أنه شىء، وهو لا يسبح بحمد الله تعالى ألبتة. فصح ضرورة أن الكافر يسبح إذ هو من جملة الأشياء التى تسبح بحمد الله تعالى، وأن تسبيحه ليس هو قول سبحان الله وبحمده بلا شك، ولكنه تنزيه الله تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبهًا لشىء مما خلق. وهذا يقين لا شك فيه. فصح بما ذكرنا أن لفظة التسبيح هى من الأسماء المشتركة، وهى التى تقع على نوعين فصاعدًا.

وأما السجود الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[سورة الرعد: ١٥].

فقد علمنا أن السجود المعهود عندنا فى الشريعة واللغة هو وضع الجبهة واليدين والركبتين، والرجلين، والأنف فى الأرض بنية التقرب بذلك إلى الله تعالى.

---

(١) أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . . . تفسير ابن كثير (٣/ ٧٠).

هذا ما لا يشك فيه مسلم، وكذلك نعلم ضرورة لا شك فيها أن الحمير والهوام والخشب والحشيش والكفار لا تفعل ذلك، لا سيما من ليس له هذه الأعضاء. وقد نص تعالى على صحة ما قلنا، وأخبر تعالى أن فى الناس من لا يسجد له السجود المعهود عندنا بقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [سورة فصلت: ٣٧، ٣٨].

فأخبر تعالى أن في الناس من يستكبر عن السجود له فلا يسجد، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: ١٥].

فبين تعالى أن السجود كرهًا غير السجود بالطوع الذى هو السجود المعهود عندنا. وإذ قد أخبر الله تعالى بهذا وصح أيضا بالعيان، فقد علمنا بالضرورة أن السجود الذى أخبر الله تعالى أنه يسجده له من فى السموات والأرض هو غير السجود الذى يفعله المؤمنون طوعًا، ويستكبر عنه بعض الناس، ويمتنع منه أكثر الخلق. هذا مما لا يشك فيه مسلم، فإذ هو كذلك بلا شك فواجب علينا أن نطلب معنى هذا السجود ما هو؟ ففعلنا فوجدناه مبينًا بلا إشكال فى آيتين من كتاب الله وهما قوله تعالى: . ﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [سورة الرعد: ١٥] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٨].

فبن تعالى فى هاتين الآيتين بيانًا لا إشكال فيه: أن ميل الفيىء والظل بالغدوات والعشيات من كل ذى ظل هو معنى السجود المذكور فى الآية، لا السجود المعهود عندنا. وصح بهذا أن لفظة السجود هى من الأسماء المشتركة التى تقع على نوعين فأكثر. وأما قوله تعالى ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول فى اللغة التى نزل بها القرآن إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك، واللسان والشفتين والأضراس بهواء يصل إلى أذن السامع فيفهم به مرادات القائل، فإذ لا شك فى هذا فكل من لا لسان له ولا شفتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق فلا يكون منه القول المعهود منا. هذا ما لا يشك فيه ذو عقل، فإذ هذا هكذا كما قلنا بالعيان فكل قول ورد به نص ولفظ مخبر به عمن ليست هذه صفته فإنه ليس هو القول المعهود عندنا، لكنه معنى آخر فإذ هذا كما ذكرنا فبالضرورة قد صح أن معنى قوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ إنما هو الجرى على نفاذ حكمه عز وجل فيهما وتصريفه لهما. وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال وإباية كل

واحد منها وإشفاقها فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك.

وهذا نص قوله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الكهف: ٥١]. فمن تكلف أو كلف غيره معرفة ابتداء الخلق وأن له مبدأ لا يشبهه ألبتة، فأراد معرفة كيف كان فقد دخل في قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور: ١٥].

إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة إلاَّ وقد جعل فيها تمييزاً لما عرض عليها، وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها، فلما أبتها وأشفقت منها سلبها ذلك التمييز وتلك القوة، وأسقط عنها تكليف الأمانة. هذا ما يقتضيه كلامه عزَّ وجل، ولا مزيد عندنا على ذلك، وأمّا ما كان بعد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [سورة الأنعام: ١١٥].

فصح أنه لا تبديل لما رتبه الله تعالى مما أجرى عليه خلائقه، حاشا ما أحال فيه الرتب والطبائع للأنبياء عليهم السلام. فإن اعترضوا أيضًا بقول الله تعالى يصف الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٧٤].

فقد علمنا بالضرورة أن الحجارة لم تؤمر بشريعة ولا بعقل ولا بعث إليها نبي قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [سورة الإسراء: ١٥].

فإذ لا شك في هذا فإن القول المذكور منه تعالى يخرج على أحد ثلاثة أوجه:

إحداها: أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ راجع إلى القلوب المذكورة في أول الآية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ الآية.

فذكر تعالى: أن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يومًا ما فيهبط عن القسوة إلى اللين من خشية الله تعالى. وهذا أمر يشاهد بالعيان فقد تلين القلوب القاسية بلطف الله تعالى ويخشى العاصي.

وقد أخبر عزّ وجل أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليهم. وكما أخبر تعالى أن من الأعراب من يؤمن بالله من بعد أن أخبر تعالى أن

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [سورة التوبة: ٩٧]. فهذا وجه ظاهر متيقن الصحة.

والوجه الثاني: أن الخشية المذكورة فى الآية إنما هى التصرف بحكم الله تعالى وجرى أقداره كما قلنا في قوله تعالى عزَّ وجل حاكيًا عن السماء والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. وقد بين جل وعز ذلك موصولاً بهذا اللفظ فقال جل وعزَّ: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: ١٢] فبين الله تعالى بيانًا رفع كل إشكال: أن تلك الطاعة من السماوات والأرض إنما هى تصرفه لها، وقضاؤه تعالى إياهن سبع سماوات، ووحيه فى كل سماء أمرها، فصح قولنا نصًّا جليًا ببيان الله تعالى لذلك والحمد لله رب العالمين.

وصح بهذا أن إباية السماوات والأرض والجبال من قبول الأمانة إنما هو لما ركبها الله تعالى عليه من الجمادية وعدم التميز، وقد علم كل ذى عقل امتناع قبول ما هذه صفته للشرائع والأوامر والنواهى، وقد ذم الله تعالى من ﴿يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [سورة البقرة: ١٧١].

ولا يحل لمسلم أن ينسب إلى الله تعالى فعلاً ذمه.

والوجه الثالث: أن يكون الله تعالى عنى بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: الجبل الذى صار دكًّا إذ تجلى الله تعالى له يوم سأله كليمه عليه السلام الرؤية، فذلك الجبل من جملة الحجارة، وقد هبط عن مكانه من خشية الله تعالى. وهذه معجزة وآية وإحالة طبيعة فى ذلك الجبل خاصة. ويكون «يهبط» بمعنى «هبط» كما قال الله عزَّ وجل ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

ومعناه بلا شك: وإذ مكر.

وبين قوله تعالى مصدقًا إبراهيم خليله ﷺ فى إنكاره على أبيه عبادة الحجارة ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾ [سورة مريم: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزمر: ٤٣] ما هى عليه من الجمادية وعدم التمييز.

قال أبو محمد: فصح بهذا صحة لا مجال للشك فيها أن الحجارة لا تعقل لأنها التى كانوا يعبدون مما يعقل.

وأما سائر ما كانوا يعبدون من الملائكة، والمسيح وأمه عليهما السلام، ومن الجن

فكل هؤلاء عاقلون مميزون، فلم يبق إلا الحجارة فصح بالنص أنها لا تعقل، وإذ تيقن ذلك بالنص وبالضرورة وبالمشاهدة، فقد انتفى عنها النطق والتمييز والخشية المعهودة كل ذلك عندنا وصحّ أن هذه الألفاظ واقعة على معان غير المعهودة عندنا وهذا نص قولنا «والحمد لله رب العالمين»(١).

وأما الأحاديث المأثورة فى أن الحجر له لسان وشفتان، والكعبة كذلك، وأن الجبال تطاولت، وخشع جبل كذا فخرافات موضوعة نقلها كل كذاب وضعيف لا يصح شيء منها من طريق الإسناد ولا يصح شيء من ذلك أصلاً.

ويكفى من التطويل فى ذلك أنه لم يُدخل شيئًا منها من انتدب من الأئمة لتصنيف الصحيح من الحديث، أو ما يستجاز روايته مما يقارب الصحة.

قال أبو محمد: وكل من يخالفنا فى هذا فإنه إذا أقر لنا أن القول المذكور فى الآيات التى تلونا، والسجود والخشية ليس شيء منه على الصفة المعهودة بيننا، فقد وافقنا أحب أو كره، وهم كلهم مقرون بذلك، وقد جاء ذلك فى أشعار العرب:

قال الشاعر:

يَشْكُو إليَّ جَمَلي طُولَ السُّرَى(٢)

وقال آخر:

فقالت له العينان سَمْعًا وطاعة(٣)

---

(١) وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يريد أن ينقض﴾، قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة ولا حاجة إلى هذا. فإن الله تعالى يخلق منها هذه الصفة كما في قوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ وقال: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ وقال: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾، ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيئوا ظلاله﴾، ﴿قالتا أتينا طائعين﴾، ﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾، ﴿وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله﴾.

وفي الصحيح: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، وكحنين الجزع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إني لا أعرفه الآن»، وفي صفة الحجر الأسود: أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة. تفسير ابن كثير ١/ ١٧٠).

(٢) البيت من الرجز وهي في لسان العرب (١٤/ ٤٤٠) وقال أبو منصور: الشكاة: توضع موضع العيب والذم، وعيّر رجل عبد ابن الزبير بأمه: فقال ابن الزبير: وتلك شكاة ظاهر عنك عارها.

(٣) البيت في لسان العرب (١١/ ٥٧٢)، (١١/ ٥٧٣)، والمعنى أي: أومأت.

وقال الراعي:

قلق الفؤوس إذا أردن نصولا[(١)]

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [سورة الكهف: ٧٧].

وهذا بلا شك غير الإرادة المعهودة من الحيوان. فصح قولنا بالنص والضرورة، والحمد لله رب العالمين.

وأما قول رسول الله ﷺ: «يوم يقتص للشاة الجمّاء من الشاة القرناء»[(٢)] فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [سورة التكوير: ٥].

فصح أنها تحشر بلا شك، ويسلط الله تعالى ما يشاء من خلقه على من يشاء فإذا سلط القرناء على الجماء فى الدنيا فله تعالى أن يسلط الجماء على القرناء فى الآخرة يوم القيامة. ولم يأت نص ولا إجماع ولا دليل عقل ولا دليل خبر على أن المواشى متعبدة بشريعة. وهذا مما نُقِرُّ به ونقول: يفعل الله ما يشاء، ولا علم لنا إلا ما علمنا. وبالله تعالى التوفيق.

الرد على من زعم أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا أنبياء اليوم ولا الرسل اليوم رسلاً

قال أبو محمد: حدثت فرقة مبتدعة تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ ليس هو الآن رسول الله ﷺ، ولكنه كان رسول الله ﷺ، وهذا قول ذهب إليه الأشعرية[(٣)].

(١) البيت للراعي النميري في لسان العرب (٣/١٨٩)، وصدره:

في مهمة قلقت به هاماتها

قال ابن منظور: أردته بكل ريدة أي بكل نوع من الإرادة، ويريد والإرادة إنما تكون من الحيوان والجدار لا يريد إرادة حقيقية لأن تهيؤه للسقوط قد ظهر كما تظهر أفعال المريدين، فوصف الجدار بالإرادة إذا كانت الصورتان واحدة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هي فرقة إسلامية حاولت الارتباط بالسلف ولكن أُدخلت علم الكلام في المدرسة الأشعرية الذي بدأ بابن كلاب، وتابعه فيه أبو الحسن الأشعري، ومضى بعده شيوخ المذاهب كالباقلاني والجويني =

وأخبرنى «سليمان بن خلف الباجى»[١] وهو من مقدميهم اليوم «أن محمد بن الحسن بن فورك»[٢] الأصبهانى على هذه المسألة قتله بالسم «محمود بن سبكتكين»[٣] صاحب ما دون وراء النهر من خراسان رحمه الله.

قال أبو محمد: وهذه مقالة خبيثة مخالفة لله تعالى ولرسول ﷺ، ولما أجمع عليه جميع أهل الإسلام إلى يوم القيامة، وإنما حملهم على هذا قولهم الفاسد إن الروح عَرَضٌ، والعرض يفنى أبدًا، ويحدث ولا يبقى وقتين، فروح النبى ﷺ عندهم قد فنيت وبطلت، ولا روح له الآن عند الله تعالى. وأما جسده ففى قبره موات فبطلت نبوته عندهم بذلك ورسالته.

قال أبو محمد: ونعوذ بالله من هذا القول فإنه كفر صراحٍ لا تردد فيه، ويكفى من بطلان هذا القول الفاحش الفظيع أنه مخالف لما أمر الله عزّ وجل به، ورسوله ﷺ، واتفق عليه جميع أهل الإسلام من كل فرقة وكل نحلة من الأذان فى الصوامع كل يوم خمس مرَّات فى كل قرية من شرق الأرض إلى غربها بأعلى أصواتهم، وقد قرنه

= والغزالي والشهرستاني والرازي وغيرهم، وتحول عدد من أئمة الأشاعرة إلى طريقة السلف أهمهم الإمام أبو الحسن الأشعري ويعتبر كتاب «الإبانة» من آخر مؤلفاته، الإمام الباقلاني فكان حريصًا على الانتساب إلى الإمام أحمد بن حنبل (قواعد المنهج السلفي للدكتور مصطفى حلمي ١٥٠ـ١٥٣).

(١) سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي، أبو الوليد الباجي: فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث. أصله من بطليوس ومولده في باجة بالأندلس. من كتبه: «السراج في علم الحِجَاج» و«إحكام الفصول» في أحكام الأصول ـ خ» و«التسديد إلى معرفة التوحيد».
و«واختلاف الموطآت» و«شرح فصول الأحكام ـ خ» و«الحدود» و«الإشارة ـ خ» . . . .
(الأعلام ٣/ ١٢٥، الوفيات ١/ ٢١٥، ونفح الطيب ١/ ٣٦١، وابن الوردي ١/ ٣٨٠).

(٢) محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني أبو بكر: واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. سمع بالبصرة وبغداد. وحدث بنيسابور وبنى فيها مدرسة . . . .
من تصانيفه: «مشكل الحديث وغريبه ـ ط» و«النظامي ـ خ» في أصول الدين، ألفه لنظام الملك، و«الحدود ـ خ» في الأصول، . . . . . .
(الأعلام ٦/ ٨٣، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٠، وفيات الأعيان ١/ ٤٨٢).

(٣) محمود بن سبكستكين الغزنوي، السلطان عين الدولة أبو القاسم ابن الأمير ناصر الدولة أبي منصور: فاتح الهند، وأحد كبار القادة. امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور . . . .
استعان بأهل العلم على تأليف كتب كثيرة في فنون مختلفة، نسبت إليه، منها كتاب «التفريد» في فقه الحنفية، نحو ستين ألف مسألة، وخطب ورسائل، وشعر وله صنف «العتبى تاريخه الذي سماه «اليمني ـ ط».
(الأعلام ٦/ ١٧١، ابن الأثير ٩/ ١٣٩ وما قبلها).

الله تعالى بذكره: أشـهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمدًا رسـول الله، فعلى قول هؤلاء الموكلين إلى أنفسهم يكون الأذان كذبًا، ويكون من أمر به كاذبًا وإنما كان يجب أن يكون الأذان على قولهم أشهد أن محمـدًا كان رسول الله وإلا فمن أخبر عن شيء كان وبطل أنه كـائن الآن فهو كاذب، فالأذان كـذب على قولهم، وهذا كفـر مجرد، وكذلك ما اتفق عليه جميع أهل الإسلام بلا خلاف من أحد منهم من تلقين موتاهم: لا إله إلا الله محـمد رسـول الله، فإنه باطل على قـول هؤلاء، وكذلك مـا عمل به رسول الله ﷺ مدة قـتاله الأمـة، وأمره عن الله عـز وجل بأن يُعمل به بـعده أبدًا، وأجمع على القـول به والعمل جميعُ أهل الإسلام مـن أول الإسلام إلى آخره، ومن شرق الأرض إلى غربها، إنسـهم وجهنم بيقين مقطوع به دون مخالف فـيما تخرج به الدماء من التحليل إلى التحريم، أو إلى الحـقن بالجزية من أن يعرض على أهل الكفر أن يقولوا: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، فيجب على قول هؤلاء المخذولين أن هذا باطل وكذب، وإنما كـان يجب أن يكلفوا أن يقولوا مـحمد كان رسـول الله، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [سورة النساء: ١٦٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [سورة المائدة: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [سورة الزمر: ٦٩].

فسماهم الله رسـلاً وقد ماتوا، وسماهم نبيين ورسلاً وهـم في القيـامة، وكذلك ما أجمع الناس عليه وجاء به النص من قـول كل مُصَلٍّ أو نافلة: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاتـه، فلو لم يكن روحه عليه السلام موجودًا قـائمًا لكان السلام على العدم هذرًا.

فإن قـالوا: كيف يكون ميـتًا رسول الله؟ وإنما الرسـول هو الذي يخاطب عن الله بالرسالة.

قيل لهم: نعم يكون من أرسله الله تعـالى مرة واحدة فقط رسـولاً لله تعالى أبدًا، لأنه حاصل على مرتبة جلالة لا يحطّه عنها شيء أبدًا ولاَ يسقط عنه هذا الاسم أبدًا.

ولو كان ما قلتم لوجب ألا يكون رسول الله ﷺ رسولاً إلى أهل اليمين في حياته لأنه لم يكلمهم ولا شافههم.

ويلزم أيضًا أن لا يـكون رسولَ الله إلا ما دام يكلم النـاس، فإذا سكت أو أكل أو

نام أو جامع لم يكن رسول الله، وهذا حمق مشوب بكفر، وخلاف للإجماع المتيقن، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأيضًا فإن خبر الإسراء[١] الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن وهو منقول نقل التواتر، وأحدُ أعلام النبوة ذكر فيه رسول الله ﷺ أنه رأى الأنبياء عليهم السلام فى سماء سماء فهل رأى إلاَّ أرواحهم التى هى أنفسهم؟! ومن كذَّب بهذا أو بعضه فقد انسلخ عن الإسلام بلا شك ونعوذ بالله من الخذلان. وهذه براهين لا محيد عنها.

وقد صح عن رسول الله ﷺ : أنه أخْبَرَ أن لله ملائكة يبلِّغونه منّا السلام، وأنه من رآه فى النوم فقد رآه حقًا[٢]، ولقد بلغنى عن بعضهم أنهم يقولون: «إن أمهات المؤمنين رضوان الله عليهم لسن الآن أمهات المؤمنين، لكنهن كن أمهات المؤمنين».

قال أبو محمد: وهذا ضلال بحت وحماقة محضة، ولو كان هذا لوجب أن لا تكون أم المرء التى ولدته، وأبوه الذى ولده أباه، ولا أمه، إلاَّ فى حين الولادة والحمل من الأم فقط، وفى حين الإنزال من الأب فقط لا بعد ذلك، وهذا من السخف الذى لا يرضى به لنفسه ذو مسكة[٣].

فإن قالوا: أتقولون إن عمر أمير المؤمنين أو عثمان أيضًا كذلك؟

---

(١) لقد بوب الإمام «البخاري» بابًا بعنوان «باب حديث الإسراء وقول الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾، وذكر حديث جابر بن عبدالله ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبني قريش قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» صحيح البخاري (٣/ ١٤٠٩).

وعقد الإمام «مسلم بابًا بعنوان» باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات وساق حديثًا عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام .....» صحيح مسلم (١/ ١٤٥) ح (١٦٢).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٢٥٦٨) ح (٦٥٩٣) من حديث أنس بلفظ «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتخيل بي ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٧٥) ح (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر.

والترمذي في السنن ح (٢٢٧٦) (٤/ ٥٣٥) وروى بلفظ فإن الشيطان لا يتمثل بي «قال أبو عيسى وفي الباب عن أبي هريرة وأبي قتادة وابن عباس وأبي سعيد وجابر وأنس .... وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) والمسكة بالضم ما يتمسك به، وما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب أو ما يتبلغ به منهما والعقل الوافر كالمسيك فيهما، المحيط (٣/ ٣٠٩)، والوسيط (٢/ ٨٦٩).

قلنا لهم: لا، وهذا إجماع لأنه لا يكون أميـر المؤمنين إلاَّ مَنْ يكون الائتمارُ بأمره واجب، وليس هذا لأحد بعـد موته إلاَّ للنبى ﷺ وإنما هو لخليفـة بعد خليـفة طول حياته فقط.

فبطل أن يكون لهم فيها متعلق. وبالله تعالى التوفيق.

الكلام على من قال بتناسخ الأرواح

قال أبو محمد: افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين: فذهبت الفرقة الواحدة إلى أن الأرواح تنتقل بعـد مفارقـتها الأجـساد إلى أجسـاد أخر، وإن لم تكن من نوع الأجساد الـتى فارقت. وهذا قول «أحمـد بن حابط» تلميذ النظام «أحـمد بن نانوس» تلميذ أحـمد بن حابط و«أبى مسلم الخـراساني» و«محمد بن زكـريا الرازى» الطبيب، صرّح بذلك فى كـتابه الموسـوم بالعلم الإلهى، وهو قول القرامـطة من الإسماعـيلية، وغالية الرافـضة الذين رفضوا الإسـلام جملة، لا أبا بكر وعمر وعـثمان ﷺ، ومنهم النضرية والمحمدية[1] وانقسمت النضرية على فرق تزيد على خمس عشرة فرقة، أولها: السبـابية، وكل هذه الفرق تقول بألوهيـة على ﷺ، وسنذكر فى الكلام على الشيـعة طرفًا من أمـرهم، وقد صـرح بهذا محـمد بن زكـريا الرازى فى كتابه الموسـوم بالعلم الإلهى، فقد قـال فى بعض كتبه: لولا أنه لا سبـيل إلى تخليص الأرواح عن الأجسام المتصوّرة بالصور البهيمية إلى الأجساد المتصوّرة بصور الإنسان إلا بالقتل والذبح لما جاز ذبح شيء من الحـيوان ألبـتة. وقـد ادّعى بعضـهم: أن النسخ لا يكون إلا فى الأنفس فقط، فنجد الإنسان يتخلق بأخلاق غير نوع الإنسان، قال: فهذا هو النسخ.

والمسخ: هو تغيير الصورة ونفسها معًا، والنسخ هو تغيير النفس عن أخلاقها فقط، ولهم فى هذا خباط كثير لا يحصى، وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: وهذه كما ترى دعاوى وخرافات بلا دليل.

وذهب هؤلاء إلى أن التناسخ إنما هو على سبيل العقـاب والثواب، قالوا: فالفاسق

(١) وهي من الرافضـة لانتظارهم محمـد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن وكان جابر الجـعفي على هذا المذهب، وادعى وصية المغيـرة بن سعيد إليه بذلك فلما مات جابر ادعى بكر الأعـور الهجري وصية جابر إلـيه وزعم أنه لا يموت ... الفـرق بين الفرق (١/ ٢٣٢)، ومـقالات الإسـلاميين (١/ ٢٤)، والتبصير في الدين (١/ ٢٣).

المسيء الأعمال تنتقل روحه إلى أجساد البهائم الخبيثة المرتطمة فى الأقذار، والمسخرة المؤلَمة الممتهنة بالذبح.

واختلفوا فى الذى كانت أفاعيله كلها شرًّا لا خير فيها، فقال بعضهم: أرواح هذه الطبقة هى الشياطين، وقال «أحمد بن حابط»: إنها تنتقل إلى جهنم فتعذَّب بالنَّار أبد الأبد.

واختلفوا فى الذى كانت أفاعليه كلها خيرًا لا شرَّ فيها، فقال بعضهم: أرواح هذه الطبقة هى الملائكة: وقال «أحمد بن حابط»: إنها لا شك أنها تنتقل إلى الجنة فتنعم فيها أبد الأبد. واحتجت هذه الطائفة المرتسمة بالإسلام أعنى «أحمد بن حابط» و«أحمد بن نانوس» بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: ٦ ـ ٨].

ويقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [سورة الشورى: ١١].

واحتج من هذه الطائفة من لا يقول بالإسلام بأن قالوا: إن النفس لا تتناهى، والعالم لا يتناهى لأمده، فالنفس متنقلة أبدًا، وليس انتقالها إلى نوعها بأولى من انتقالها إلى غير نوعها.

قال أبو محمد: وذهبت الفرقة الثانية إلى أن منعت انتقال الأرواح إلى غير أنواع أجسادها التى فارقت، وليس من هذه الفرقة أحد يقول بشىء من الشرائع، وهم من الدهرية[١]. وحجتهم هى حجة الطائفة التى ذكرنا قبلها، القائلة إنه لا تناهى للعالم فوجب أن تتردد النفس فى الأجساد أبدًا. قالوا: ولا يجوز أن تنتقل إلى غير النوع الذى أوجب لها طبعها الإشراف عليه وتعلّقها به.

قال أبو محمد: أما الفرقة المرتسمة باسم الإسلام فيكفى من الردّ عليهم إجماع جميع أهل الإسلام على تكفيرهم، وعلى أن من قال بقولهم فإنه على غير الإسلام، وأن النبى ﷺ أتى بغير هذا، وبما المسلمون مجمعون عليه من أن الجزاء لا يقع إلاَّ بعد فراق الأجساد للأرواح بالنكر أو التنعم قبل يوم القيامة، ثم بالجنة أو بالنَّار فى موقف الحشر فقط، إذا جُمعت أجسادُها مع أرواحها التى كانت فيها.

---

(١) القائلون بقدم العالم ومنهم القائلون بقدم هيولي العالم مع إقرارهم بحدوث الأعراض منها ومنهم الفلاسفة الذين قالوا بقدم العالم وأنكروا الصانع . . . الفرق بين الفرق (١/ ٣٤٦)، المواقف (٣/ ١٠٤). والتبصير في الدين (١/ ١٤٩).

وأما احتجاجهم بالآيتين فكفى من بطلان قولهم أيضًا ما ذكرناه من الإجماع وأن الأمّة كلها مجمعون بلا خلاف على أن المراد بهاتين الآيتين غيرُ ما ذكر هؤلاء الملحدون، وأن المراد بقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(١) أنها الصورة التى ركّب الإنسان عليها من طول أو قصر، أو حسن أو قبح، أو بياض أو سواد، وما أشبه ذلك.

وأما الآية الأخرى فإنَّ معناها أن الله تعالى امتنَّ علينا فى أن خلق لنا من أنفسنا أزواجًا نتولّد منها، ثم امتنَّ علينا بأن خلق لنا من الأنعام ثمانية أزواج، ثم أخبر تعالى أنه يذرؤنا فى هذه الأزواج يعني التى هى من أنفسنا فتبيّن ذلك بيانًا ظاهرًا لا خفاء به أن الله تعالى أخبرنا فى هذه الآية نفسها أن الأزواج المخلوقة لنا، إنما هى أنفسنا، ثم فرّق بين أنفسنا وبين الأنعام، فلا سبيل إلى أن يكون لنا أزواح نتولد فيها غير أنفسنا، ويكفى من هذا أن قولهم إنما هو دعوى لا برهان، وإنّما رتبوه على أصلهم فى العدل فأخرجوا هذا الوجه لما شاهدوه من إيلام الحيوان، وكل قول لم يوجبه برهان فهو باطل، ولم يأت هذا القول قط عن أحد من الأنبياء. وهولاء القوم مقرّون بالأنبياء عليهم السلام فلاح يقينًا فساد قولهم.

وأما الفرقة الثانية القائلة بالدّهر، فإننا نقول وبالله التوفيق:

إنه يكفى من فساد قولهم هذا أنه دعوى بلا برهان لا عقلى ولا حسى، وما كان هكذا فهو باطل بيقين لا شك فيه، لكننا لا نقنع بهذا بل نبيّن عليهم بيانًا لائحًا ضروريًا بحول الله وقوته، فنقول وبالله تعالى نستعين:

إن الله تعالى خلق الأنواع والأجناس، ورتب الأنواع تحت الأجناس، وفصّل كل نوع من النوع الآخر بفصله الخاص له الذى لا يشاركه فيه غيره، وهذه الفصول المذكورة لأنواع الحيوان إنما هى لأنفسها التى هى أرواحها، فنفس الإنسان حية ناطقة، ونفس الحيوان حية غير ناطقة هذا هو طبيعة كل نفس وجوهرها الذى لا يمكن

---

(١) قال ابن كثير: أي جعلك سويا مستقيمًا معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال وعن بشر ابن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: يا ابن ادم أني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت . . .

ثم قال ابن كثير: قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم، وقال عكرمة: إن شاء في صورة قرد وإن شاء في صورة خنزير، وقال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك، ومعنى هذا القول: أن الله قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكنْ بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام حسن المنظر والهيئة تفسير ابن كثير (٧٥٨/٤).

استحالته عنه، فلا سبيل إلى أن يصير غير الناطق ناطقًا، ولا الناطق غير ناطق، ولو جاز هذا لبطلت المشاهدات، وما أوجبه الحس وبديهة العقل والضرورة من انقسام الأشياء على حدودها.

وأما الفرقة الثالثة التى قالت: إن الأرواح تنتقل إلى أجساد نوعها، فيبطل قولهم بحول الله تعالى وقوَّته بطلانًا ضروريًا بكل ما كتبناه في إثبات حدوث العالم ووجوب الابتداء له والنهاية من أوله. وبما كتبناه فى إثبات النبوة، وأن جميع النبوات وردت بخلاف قولهم، وببرهان ضرورى عليهم، وهو أنه ليس فى العالم كله شيئان يشتبهان بجميع أعراضهما اشتباهًا تامًّا من كل وجه؛ يعلم هذا من تدبر اختلاف الصور، واختلاف الهيئات، وتباين الأخلاق، وإنما يقال هذا الشىء يشبه هذا على معنى أن ذلك فى أكثر أحوالهما لا فى كلها، ولو لم يكن ما قلنا ما فرَّق أحد بينهما ألبتة.

وقد علمنا بالمشاهدة أن كل من يتكرر عليه ذلك الشيئان المشتبهان تكرراً كثيراً متصلاً أنه لابد أن يفصل بينهما، وأن يُميِّز أحدهما عن الثانى، وأن يجد فى كل واحد منهما أشياء بَانَ بها عن الآخر، لا يشبهه فيها فصحَّ بهذا أنه لا سبيل إلى وجود شخصين يتفقان فى أخلاقهما كلها حتى لا يكون بينهما فرق فى شىء منها، وقد علمنا بيقين أن الأخلاق محمولة فى النفس، فصح بهذا أن نفس كل ذى نفس من الأجساد من أىّ نوع كانت غيرُ النفس التى فى غيره من الأجساد كلها ضرورة.

وقال أيضًا بعض من ذهب إلى التناسخ من الحاملين ذلك على سبيل الجزاء: إن الله تعالى عدل حكيم رحيم كريم، فإذ هو كذلك، فمحال أن يعذّب من لا ذنب له، قال: فلما وجدناه تعالى يقطع أجسام الصبيان الذين لا ذنب لهم بالجدرى والقروح ويأمر بذبح بعض الحيوان الذى لا ذنب له، وبطبخه وأكله، ويسلط بعضها على بعض فيقطعه ويأكله، ولا ذنب له؛ علمنا أنه تعالى لم يفعل ذلك إلاَّ وقد كانت الأرواح عصاة مستحقة للعقاب فركبت فى هذه الأجساد لتعذّب فيها.

قال أبو محمد: وقد تكلمنا على إبطال هذا الأصل الفاسد فى غير هذا المكان فى باب الكلام على «البراهمة» فى كتابنا هذا بما يكفى، وقد ردَّدنا الكلام أيضًا فى بيان بطلانه فى غير ما موضع من كتابنا، وفى باب الكلام على من أبطل القدر من المعتزلة فى كتابنا هذا، والحمد لله رب العالمين.

ويكفى من بطلان هذا الأصل الفاسد أن يقال لهم: إن طردتم هذا الأصل وقعتم فى مثل ما أنكرتم ولا فرق. وهو أن الحكيم العدل الرحيم على أصلكم لا يخلق من

يعرضه للمعصـية حتى يحتاج إلى إفساده بالعذاب بعد إصـلاحه، وقد كان قادرًا على أن يطهر كل نفس خلقها ولا يعـرضها للفتن، ويلطف بها ألطافًا فيصلحـها بها، حتى تستحق كلُّها إحسانه والخلود فى النعيم، وما كان ذلك يُنقص شيئًا من ملكه، فإن كان عاجـزًا عن ذلك فهـذه صفة نقص، ويلزم حـاملها أن يكون من أجل نقـصه مـحدثًا مخلوقًا، فإن طرودا هذا الأصل خرجوا إلى قـول المانوية فى أن للأشياء فاعِلَيْن. وقد تقدّم إبطالنا لقولهم وبالله تعالى التوفيق.

وبينا أن الذى لا آمر فوقه ولا مرتب عليه فـإن كل ما يفعله فهو حق وحكمة، وإذ قد تـعلق هؤلاء القوم بالشـريعة فـحكم الشـريعة أن كل قـولٍ لم يأتِ عن نبى تلك الشريعة فهو كذب وفرية، فإذ لم يأتِ عن أحد من الأنبياء عليهم السلام القول بتناسخ الأرواح فقد صار قولهم به خرافة وكذبًا وباطلاً. وبالله تعالى التوفيق.

فصل فى الكلام على
من أنكر الشرائع من المنتمين إلى الفلسفة بزعمهم
وهم أبعد الناس عن العلم بها جملة

قال أبو محمد: نبين فى هذا الفصل بحول الله تعالى وقـوته وجوب صحة الشرائع على ما توجبه أصـول الفلاسفة على الحقيقة أولهم عن آخـرهم على اختلاف أقوالهم فى غير ذلك إن شاء الله تعالى.

قال أبو محمد: الفلسفة على الحقـيقة إنما معناها وثمرتها والغـرض المقصود نحوه بتعليمها، ليس هو شـيئًا غير إصلاح النفس، بإن تَستعمـل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد، وحسن السياسة والرعية، وهذا نفسه لا غيره هو الغرض فى الشريعة، هذا ما لا خلاف فيه بين أحد العلماء بالفلسفة، ولا بين أحد من العلماء بالشريعـة، فيقال لمن انتمى إلى الفلـسفة بزعمه هو ينكر الشـريعة بجهله على الحقيقة بمعانى الفلسفة، وبعده عن الوقوف على غرضها ومعناها:

أليست الفلسفة بإجماع من الفلاسفة مبينة للفضائل من الرذائل؟ موقفة على البراهين المفرِّقة بين الحـق والباطل؟ فلابد من بلى ضرورة. فـيقال له أليس الفلاسفـة كلهم قد قالوا: صـلاح العالم بشيئين: أحـدهما باطن والآخر ظاهر؟ فـالباطن: هو استعـمال النفس للشـرائع الزاجـرة عن تظـالم الناس وعن القـبـائح. والظاهر: هو التـحـصين

بالأسوار، واتخاذ السلاح لدفع العدو الذى يـريد ظلم الناس والإفساد، ثم أضافوا إلى إصلاح النفوس بما ذكرنا إصلاحَ الأجسـاد بالطب؟ فلابدَّ من بلى ضرورة. فيقال لهم: فهل صلاح العالم وانكفاف الناس عن القتل الذى فيه فناء الخلق، وعن الزنى الذى فيه فسـاد النسل وخـراب المواريث، وعن الظلم الذى فيـه الضرر على الأنفـس والأموال وخراب الأرض، وعن الـرذائل من البغى والحـسد والكذب والجبن والبـخل والنميـمة والغش والخيـانة وسائر الرذائل إلاَّ بشـرائع زاجرة للناس عن كل ذلك؟ فـلابد من نعم ضرورة، وإلاَّ وجب الإهمال الذى فـيه فساد كل ما ذكـرنا، فإذًا لابدَّ من ذلك، ولولا ذلك لفسد العالـم كله، ولفسدت العلوم كلها، ولكان الإنسان قد بطلت فـضيلة الفهم والنطق والعقل الذى فيه صار كالبهائم، فلا تخلو تلك الشرائع من أحد وجهين:

إمَّا أن تكون صحاحًا من عند الله عزّ وجل الذى هو خالق العالم ومدبره كما يقول أصحاب الشرائع.

وإمَّا أن تكون موضوعـة باتفاق من أفاضل الحكماء لسياسـة الناس بها وكفّهم عن التظالم والرذائل.

فإن كانت مـوضوعة كما يقـول هؤلاء المخاذيل، فقد تيقـنا أن ما ألزموا الناس من ذلك كذب لا أصل له، وزور مـختلق، وإيجاب لمـا لا يجب، وباطل لا حقيـقة له، ووعيد ووعد كـلاهما كذب، فإن كان ذلك كذلك فـقد صار الكذبُ هو أرذل الرذائل وأعظم الشر لا يتم صلاح العالم الذى هو الغرض من طلب الفضائل إلا به، وإذ ذلك كذلك، فـقد صار الحق باطلاً، والصدق رذيلة وصـار الباطل حقًا وصـدقًا، والكذب فضيلة، وصـار لا قوام للعالـم أصلاً إلا بالـباطل، وصار الكذب نتيـجة الحق، وصار الباطل ثمرة الصدق، وصار الغرور والغش والخديعـة فضائل ونصيحة، وهذا أعظم ما يكون من المحال والممتنع والخلف الذى لا مدخل له فى العقل، فإن قالوا إنه لو كُشف السرُّ فـى ذلك إلى العامـة لم ترغب فى الفضـائل، فوجب لذلك أن يُوتى بما تَـرهبُه وتتقيـه، فاضْطُرَّ فى ذلك إلى الكذب لهم كما يُفـعل بالصبيان، وكمـا أبحتم أنتم فى شرائعكم كذب الرجل لامرأته ليستصلحها بذلك، وفى دفاع الظالم على سبيل التقية، وفى الحرب كذلك فيلزمكم فى هذا ما ألزمتموه إيانا من أن الكذب صار حقًا وفضيلة.

قال أبو محمد: فيقال لهم وبالله التوفيق:

أما نحن فـقولنا: إنه ليس -كمـا ذكرتم- قبـيحًا، إذ أباحـه الله عزَّ وجل الذى لا حسن إلاَّ ما حسَّن وما أمر به، ولا قبيح إلا مـا قبَّح وما نهى عنه، ولا آمر فوقه، فلا

يلزمنا ما أردتم إلزامنا إياه.

ثم أيضًا على أصولكم فـإنه ليس ما ذكرتم معارضـة، ولا ما شبهتم به مُشْـبِهًا لما شبهتموه به، لأننا إنما أبحنا الكذب فـى الوجوه التى ذكرتم للضرورة الدافعة إلى ذلك بالنص الوارد علينا بذلك كـما جاز بالنـص عند الضرورة دفع القتل عن الـنفس بقتل المريد لقـتلها، ولو أمكننا كفُّ الصـبى والمرأة بغـير ذلك لما جـاز أصلاً فإذا ارتفـعت الضرورة وجب الرجوع إلى استعمال الصدق على كل حال، ولولا النص لـم نبح شيئًا من ذلك ولا حرمنـاه، وأنتم فيمـا تدعونه من مـداراة الناس كلهم مبتـدئون لاختـيار الكذب دون أن يأمـركم به من يسقط عنكـم اللّوم بطاعتـه، فأنتم لا عـذر لكم على خلاف حكمنا فى ذلك.

ثم أنتم لا تخلون من أحد وجهين لا ثالث لهما:

إما أن تطووا هذا السر عن كل أحد فتـصيرون إلى ما ألزمناكم من أن قطع الصدق جملة فضيلة، وأن الكذب على الجملة حق واجب، وهذا هو الذى ألزمناكم ضرورة.

وإمّا أن تبوحوا بذلك لمن وثقتم به فهذا إن قلتم به يوجب ضرورة كشف سركم فى ذلك، لأنه لا يجـوز ألبـتة أن يـنكتم أصلاً عـلى كثـرة العـارفين به، هذا أمـر يعلم بالضرورة، أن الشىء إذا كثر العارفون به فبالضرورة لابد من انتشاره، فإن كنتم تقولون إن طيَّه واجب إلا عمن يوثـق به، وفى كشفه إلى من يوثق به ما يـوجب انتشاره إلى من لا يوثق به فقد رجـعتم إلى وجوب كشفه، لأن كشـفه ألبتة هو نتيجـة كشفه إلى خاص دون عام، وفى كشفه بطلان مـا دبرتموه صلاحًا، فقد بطل حكمكم بالضرورة، لا سيمـا والقائلون بهذا القول مجـدون فى كشف سرهم هذا إلى الخاص والعـا، فقد أبطلوا عِلّتهم جملة وتناقضوا أقـبح تناقض، وعلى كل ذلك فقد صار الباطل والكذب لا يتم الخير والفضائل ألبتة فى شىء من الأشياء إلاَّ بهما، وهذا خلاف الفلسفة جملة.

وأيضًا فـإن كانت الشرائع مـوضوعة فليس مـا وضعه واضع مَّـا بأحق أن يُتَّبع ممَّا وضعه واضع آخر، هذا أمر يعلم بالضرورة.

وقد علمنا بموجب العقل وضرورته أن الحق لا يكون من الأقوال المختلفة والمتناقضة إلاَّ فى واحد، وسائرها باطل. فإذ لا شك فـى هذا فأى تلك الموضوعات هو الحق أم أيها هو الباطل؟ ولا سـبيل إلى أن يأتوا بما يحق منها شيئًا دون سـائرها أصلاً، فإذ لا دليل على صحة شىء منهـا بعينه فقد صارت كلها باطلة، إذ مـا لا دليل على صحته فهو باطل، وليس لأحد أن يأخذ بقول ويترك غيره بلا دليل فبطل بهذا بطلانًا ضروريًا

كل ما تعلقوا به والحمد لله رب العالمين، وبطل بهذا البرهان الضرورى ما توهمه هؤلاء الجهال المجانين، وصح يقينًا أن الشرائع صحاح من عند منشىء العالم ومدبره الذى يريد بقاءه إلى الوقت الذي سبق في علمه تعالى أنه يبقيه إليه كما هو، وإذ ذلك كذلك ضرورة لا يخلو الحكم فى ذلك من أحد وجهين لا ثالث لهما:

إمَّا أن تكون الشرائع كلها حقًا - **قال أبو محمد:** - وقد رأيت منهم من يذهب إلى هذا.

وإمَّا أن يكون بعضها حقًا وسائرها باطلاً. لابدَّ من أحد هذين الوجهين ضرورة.

فإن كانت كلها حقًا، فهذا محال لا سبيل إليه، لأنه لا شريعة منها إلاَّ وهى تكذب سائرها، وخبر بأنها باطل وكفر وضلال وإلحاد.

فوجدنا هذا المخذول الذى أراد بزعمه موافقة جميع الشرائع، قد حصل على خلاف جميعها أولها عن آخرها، وحصل على تكذيب جميع الشرائع له كلها بلا خلاف، وعلى تكذيبه هو لجميعها، وما كان هكذا وهو يقول إنها كلها حق، وهى كلها مكذبة له وهو مصدق لها كلها فقد شهد على نفسه بالكذب وبطلان قوله، وصحَّ باليقين أنه كاذب فيه.

وأيضًا فإن كل شريعة فهى مضادّة فى أحكامها لغيرها، تحرِّم هذه ما تحلُّ هذه، وتوجب هذه ما تسقط هذه، ومن المحال الفاسد أن يكون الشيء وضده حقًا معًا فى وقت واحد حرامًا حلالاً فى حين واحد على إنسان واحد ووجه واحد، واجبًا غير واجب كذلك، وهذا أمر يعلمه باطلاً كل ذى حسٍّ سليم، وليس فى العقل تحريم شيء مما جاء فيها تحريمه، ولا إيجاب شيء مما جاء فيها إيجابه، فبطل أن يرجح بما فى العقل، إذ كل ذلك فى حدِّ الممكن فى العقل، فإذ قد بطل هذا الوجه ضرورة فقد وجبت صحة الوجه الآخر ضرورة، وهو أن فى الشرائع شريعة واحدة صحيحة عند الله عزَّ وجل، وأن سائر الشرائع كلها باطلة. فإذ ذلك كذلك فَفَرضٌ على كل ذى حس طلب تلك الشريعة، واطِّراحُ كل شريعة دون ذلك وإن جلت، حتى يوقف عليها بالبراهين الصحاح، إذ بها يكون صلاح النفس فى الأبد، وبجهلها يكون هلاك النفس فى الأبد.

فالحمد لله الذي وفّقنا لتلك الشريعة، ووقفنا عليها، وهدانا إلى طريقها وعرفناها، حمدًا كثيرًا طيبًا كما هو أهله. ونحن نسأله تعالى أن يثبتنا عليها حتى نلقاه ونحن من أهلها وحَمَلَتها آمين يا رب العالمين. وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

فمن نازعنا فى هذا القول وادعاه لنفســه فنحن فى ميدان النظر وحمل الأقوال على السير بالبراهين، فسنزيف الباطل والدعاوى التى لا دليل عليها حيثما كانت، وبيد مَنْ كانت، ويلوح الحق ثابتًا حـيثما كان وبيد مَنْ كـان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الكلام على اليهود وعلى من أنكر التثليث من النصارى ومذهب الصابئين وعلى من أقر بنبوة زرادشت من المجوس، وأنكر من سواه من الأنبياء عليهم السلام

قال أبـو محـمد: إن أهل هذه الملّة يعنى اليهـود، وأهل هذه النحلة يعنى من أنكر التثليث من النصارى موافقون لنا فى الإقرار بالتّوحيد، ثم بالنبوة وبآيات الأنبياء عليهم السـلام، وبنزول الكتب من عند الله عـزّ وجل، إلاّ أنهم فارقـونا فى بعض الأنبيـاء عليهم السلام دون بعض. وكذلك وافقتنا الصابئة والمجوس على الإقرار ببعض الأنبياء دون بعض. فأمّا اليهود فإنهم افترقوا على خمس فرق وهى:

١- السّـامـرية:(١) وهم يقـولون إنّ مـدينة القدس هـى: «نابلس» وهى من بيت المقدس على ثمانية عـشر ميلاً، ولا يعرفون حرمة لـبيت المقدس، ولا يعظمونه ولهم توراة غير التوراة التى بأيدى سائر اليهود، ويبطلون كل نبوّة كانت فى بنى إسرائيل بعد موسى عليـه السلام وبعد «يوشـع» عليه السلام، فـيكذبون بنبوة «شمـعون» و«داود» و«سليمان» و«إشعيَا» و«اليسع» و«إلياس» و«عـاموص»، و«حبقوق» و«زكريا» و«إرميا» وغيرهم، ولا يقرون بالبعث ألبتة. وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها.

٢- والصدوقـيـة: ونسبـوا إلى رجل يقال له «صدوق» وهم يقـولون من بين سائر اليهود إن العُزير هو ابن الله تعالى الله عن ذلك. وكانوا بجهة اليمن.

٣- والعنانيـة:(٢) وهم أصحـاب «عأنان» الداودى اليـهودى، وتسمـيهم اليـهود

---

(١) هؤلاء قوم يسكنون جبـال بيت المقدس وقرايا من أعمال مصـر ويتقشفون في الطهارة أكـثر من تقشف سائر اليـهود وأثبتوا نبوة مـوسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام، وأنكروا نبـوة من بعدهم من الأنبياء إلا نبيًا واحدًا، وقالوا: التـوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتي من بعـد موسى . . . وظهر في السامرة رجل يقال لـه الألفان ادعى النبـوة وزعم أنـه هـو الـذي بشـر به موسى عليه السلام وافترقت السامـرة إلى دوستـانيـة وهم الألفانيـة وإلى كوستانية، والدسـتانية: معناها: الفرقة المتـفرقة الكاذبة، والكوستانيـة معناها الجماعة الصادقة وهم يقرون بالآخرة . . . الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢١٥).

(٢) نسبـوا إلى رجـل يقـال له عنان بن داود رأس جالوت يخالفون سـائـر اليـهـود في السبت والأعياد =

القرَّائين والمين، وقولهم إنهم لا يتعدون شرائع التوراة، وما جاء فى كتب الأنبياء عليهم السلام، ويتبرؤون من قول الأحبار، ويكذبونهم، وهذه الفرقة بالعراق ومصر والشام، وهم من الأندلس «بطليطلة»[١] و«طلبيرة»[٢].

٤- والربانية: وعم الأشعنية، وهم القائلون بأقوال الأخبار ومذاهبهم وهم جمهور اليهود.

٥- والعيسوية: [٣] وهم أصحاب أبى عيسى الأصبهانى، رجل من اليهود كان بأصبهان وبلغنى أن اسمه محمد بن عيسى، وهم يقولون بنبوة عيسى ابن مريم ومحمد ﷺ، ويقولون: إن عيسى بعثه الله عزَّ وجل إلى بنى إسرائيل على ما جاء فى الإنجيل، وأنه أحد أنبياء بنى إسرائيل. ويقولون إن محمداً ﷺ نبى أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بنى إسماعيل عليهم السلام، وإلى سائر العرب، كما كان أيوب نبيًا فى «بنى عيص» وكما كان «بلعام» نبيًا فى «بنى مؤاب» بإقرار من جميع فرق اليهود.

قال أبو محمد: وقد لقيت من ينحو إلى هذا المذهب من خواص اليهود كثيراً، وقرأت فى تاريخ لهم جمعه رجل هارونى كان قديمًا فيهم، ومن كبارهم وأئمتهم، وممن عصبت به ثلث بلدهم، وثلث حروبهم، وثلث جيوشهم أيام حرب «طيطوس»

= وينهون عن أكل الطير والظباء والسمك والجراد ويذبحون الحيوان على القفا، ويصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإشاراته ويقولون إنه لم يخالف التوراة ألبتة بل قررها ودعا الناس إليها وهو من بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام، إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته.
ومن هؤلاء من يقول أن عيسى عليه السلام لم يدع أنه نبي مرسل وليس من بني إسرائيل، وليس هو صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام، بل هو من أولياء الله المخلصين . . الملل والنحل (١/ ٢١٥)، وغاية المرام (١/ ٣٤٩، ٣٥٧)، واعتقادات فرق المسلمين (١/ ٨٢).

(١) «طليطلة» هكذا ضبطه الحميدي بضم الطائين، وفتح اللامين وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس وهي غربي ثغر الروم ـ معجم البلدان (٤/ ٤٠).

(٢) «طلبيرة» بفتح أوله وثانيه وكسر الباء الموحدة ثم ياء مثناة من تحت ساكنة وراء مهملة مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة قديمة البناء على نهر تاجه بضم الجيم، وكانت حاجزاً بين المسلمين والأفرنج إلى أن استولى الأفرنج . . . معجم البلدان (٤/ ٣٧).

(٣) نسبوا إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني وقيل إن اسمه عوفيد الوهيم: أي عابد الله، كان في زمن المنصور، وابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد الحمار فاتبعه بشر كثير من اليهود وادعوا له آيات ومعجزات . . . زعم أبو عيسى أنه نبي وأنه رسول المسيح المنتظر وزعم أن للمسيح خمسة من الرسل يأتون قبله واحداً بعد واحد، وزعم أن الله تعالى كلمه، وكلفه أن يخلص بني إسرائيل من أيدي الأمم العاصين والملوك الظالمين . . . الملل والنحل (١/ ٢١٦).

وخراب البيت، وكان له فى تلك الحروب آثار عظيمة. وكان قد أدرك أمر المسيح عليه السلام، واسـمه يوسف بن هارون؛ فذكـر ملوكهم وحروبـهم إلى أن وصل إلى قتل «يحيى بن زكريا» عليـه السلام فذكره أجمل ذكر، وعظّم شأنه، وأنه قـتل ظلمًا لقوله الحق، وذكر أمـر «المعمـودية» ذكرًا حسنًا، لـم ينكرها ولا أبطلها، ثم قـال فى ذكره لذلك الملك «هردوس بن هردوس»: وقبل هذا الملك من حكماء بنى إسرائيل وخيارهم جماعة، ولم يذكر من شأن المسيح ابن مريم عليهما السلام أكثر من هذا.

قال أبـو محـمد: وإنما ذكرت هذا الـكلام لأُرى أن هذا المذهب كان فيـهم ظاهرًا، فاشيًا من أئمتهم من حينئذ إلى الآن، ثم انقسم اليهود جملة على قسمين:

قسم أبطل النسخ ولم يجعلوه ممكنًا.

والقسم الثاني أجازوه، إلاَّ أنهم قالوا لم يقع.

وعمدة من أبطل النسخ أن قالوا: إن الله عزّ وجل يستحيل منه أن يأمر بالأمر ثم ينهى عنه، ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً، والطاعة معصية، والباطل حقًا، والمعصية طاعة.

قال أبو محمد: لا نعلم لهم حجة غير هذه، وهى من أضعف ما يكون من التمويه الذى لا يقوم على ساق، لأن من تدبّر أفعال الله كلّهـا، وجميع أحكامه وآثاره تعالى فى هذا العالم تيقن بطلان قولهم هذا؛ لأن الله تعـالى يحيى ثم يميت ثم يحيى وينقل الدولة من قـوم أعزّة فـيذلهم، إلى قـوم أذلّة فيـعزّهم، ويمنح من شـاء ما شـاء من الأخلاق الحسنة والقبيحة، ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [سورة الأنبياء: ٢٣].

ثم نقول لهم وبالله التوفيق: ما تقولون فيمن كان قبلكم من الأمم المقبول دخولها فيكم إذا غزوكم؟ أليس دماؤهم لكم حلالاً، وقتلهم حقًا وفرضًا وطاعة؟ فلابدّ من بلى.

فنقول لهم: فإن دخلوا في شريعتكم أليس قـد حرمت دماؤهم، وصار عندكم قتلُهم حرامًا وباطلاً ومعصية بعد أن كان فرضًا وحقًّا وطاعة؟

فلابدّ من بلى.

ثم إن عدوا فى السبت وعملوا أليس قد عاد قتلهم فرضًا بعد أن كان حرامًا؟ فلابدَّ من بلى.

فهـذا إقرارٌ ظاهر منهم ببطلان قـولهم. وإثباتٌ منهم لما أنكـروه من أن الحق يعود باطلاً، والأمـر يعود نهـيًا، وأن الـطاعة تعـود معـصيـة، وهكذا القـول فى جميـع شرائعهم؛ لأنها إنما هى أوامر فى وقت محدود بعمل محدود، فإذا خرج ذلك الوقت

عاد ذلك الأمر منهيًا عنه، كالعمل هو عندهم مباح فى الجمعة محرم يوم السبت، ثم يعود مباحًا يوم الأحد، وكالصيام والقرابين وسائر الشرائع كلها، وهذا بعينه هو نسخ الشرائع الذى أبوه وامتنعوا منه، إذ ليس معنى النسخ إلا أن يأمر الله عزّ وجل بأن يُعمل عمل مّا، مدة مّا، ثم ينهى عنه بعد انقضاء تلك المدة، ولا فرق فى شىء من العقول بين أن يعرف الله تعالى، ويخبر عباده بما يريد أن يأمرهم به قبل أن يأمرهم به، ثم بأنه سينهى عنه بعد ذلك، وبين ألاَّ يعرفهم به إذ ليس عليه تعالى شرط أن يعرف عباده بما يريد أن يأمرهم قبل أن يأتى الوقت الذى يريد إلزامهم فيه الشريعة. وأيضًا فإن جميعهم مقر بأن شريعة يعقوب عليه السلام كانت غير شريعةٌ موسى عليه السلام، وأن يعقوب تزوج «ليّا» و«راحيل» ابنتى «لابان» وجمعهما معًا فى عصمته، وهذا حرام فى شريعة موسى عليه السلام.

هذا مع قولهم: إن أم موسى عليه السلام كانت عمة أبيه أخت جدّه، وهى «يوحانذا» بنت «لاوى» وهذا فى شريعة «موسى» حرام، ولا فرق فى العقول بين شىء أحلّه الله تعالى، ثم حرّمه، وبين شىء حرَّمه الله ثم أحلَّه.

والمفرق بين هذين مكابر للعيان، مجاهر بالقحة[(١)]، ولو قلب عليه قالبٌ كلامه ما كان بينهما فرق، وفى توراتهم أن الله تعالى افترض عليهم بالوحى إلى موسى عليه السلام، وأوهم موسى بذلك فى نص توراتهم: ألاَّ يتركوا الأمم السبعة الذين كانوا سكانًا فى فلسطين والأردن أحدًا أصلاً إلا قتلوه ثم إنه لما اختدعتهم الأمة التى يقال لها «عباوون»: وهى إحدى تلك الأمم التى افْتَرض عليهم قتلَهم واستئصالهم، فتحيَّلوا عليهم، وأظهروا لهم أنهم أتَوا من بلادٍ بعيدة حتى عاهدوهم، فلما عرفوا بعد ذلك أنهم من السكان فى الأرض التى أُمرواً بقتل أهلها حرَّم الله عزَّ وجل عليهم قتلهم على لسان «يوشع» النبى بنص كتاب «يوشع» عندهم، أبقوهم ينقلون الماء والحطب إلى مكان التقديس، وهذا هو النسخ الذى أنكروا بلا كلفة.

وفى توراتهم «البَداء» الذى هو أشدُّ من النسخ، وذلك أنَّ فيها: أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: سأهلك هذه الأمة، وأقدمك على أمة أخرى عظيمة، فلم يزل موسى يرغب إلى الله تعالى فى أن لا يفعل ذلك حتى أجابه وأمسك عنهم، وهذا هو «البداء» بعينه، والكذب المنفيان عن الله تعالى، لأنه ذكر أن الله تعالى أخبر أنه سيهلكهم، ويقدمه على غيرهم ثم لم يفعل فهذا هو الكذب بعينه تعالى الله عنه.

(١) القح: بالضم، الخالص من اللؤم والكرم وكل شيء والجافي من الناس وغيرهم . . . المحيط (٢٣٩/١)، والوسيط (١٠٤٨/٢).

وفى سفر «إِشْعِيَا» أن الله تعالى سيرتب فى آخر الزمان من الفرس خدَّامًا لبيته.

قال أبو محمد: وهذا هو النسخ بعينه لأن التوراة موجبة أن لا يخدم فى البيت المقدس أحد غير «بنى لاوى» بن يعقوب على حسب مراتبهم فى الخدمة. فعلى أىّ وجه أنزلوا هذا القول من «إشْعيَا»؟. فهو نسخ لما فى التوراة على كل حال، وأما فى الحقيقة فهو إنذار بالملة الإِسلامية التى صار فيها الفرس والعرب وسائر الأجناس فى المساجد ببيت المقدس وغيره، التى هى بيوت الله تعالى.

قال أبو محمد: وأمّا الطائفة التى أجازت إلاّ أنها أخبرت أنه لم يكن فإنه يقال لهم - وبالله تعالى التوفيق - بأىّ شىءٍ علمتم صحة نبوة موسى عليه السلام، ووجوب طاعته؟

فلا سبيل أن يأتوا بشىء غير إعلامه وبراهينه، وأعلامه الظاهرة.

فيقال لهم - وبالله تعالى التوفيق -: إذا وجب تصديق موسى، والطاعة لأمره لما ظهر من إحالة الطبائع على ما بيناه الكلام فى بيان إثبات النبوات، فلا فرق بينه وبين من أتى بمعجزات غيرها، وبإحالة لطبائع أخر، وبضرورة العقل يعلم كل ذى حس أن ما أوجبه لنوع فإنه واجب لأجزائه كلها. فإذا كانت إحالة الطبائع موجبة تصديق من ظهرت عليه فوجوب تصديق موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام واجب وجوبًا مستويًا، ولا فرق بين شىء منه بالضرورة.

ويقال لهم: ما الفرق بينكم فى تصديقكم بعض من ظهرت عليه المعجزات وتكذيبكم بعضهم: وبين من صدق من كذبتم، وكذب من صدقتم كالمجوس المصدقين بنبوة «زرادشت» المكذبين بنبوة موسى، وسائر أنبيائكم، أو «المانوية» المصدقة بنبوة «عيسى» و«زرادشت» المكذبة بنبوة موسى، أو «الصابئين» المكذبين بنبوة إبراهيم عليه السلام فمن دونه، المصدقين بنبوة «إدريس» وغيره.

وكل هذه الفرق والملل تقول فى «موسى» عليه السلام، وفى سائر أنبيائكم أكثر مما تقولون أنتم فى «عيسى» و«محمد» عليهما السلام، تنطق بذلك تواريخهم وكتبهم، وهى موجودة مشهورة. وأقرب ذلك إليكم «السامرية» الذين ينكرون نبوّة كل نبى لكم بعد موسى عليه السلام، ولا سبيل إلى أن تأتوا على جميع من ذكرنا بفرق إلا أتوكم بمثله، ولا أن تدّعوا عليهم دعوى إلاّ ادعوا عليكم بمثلها، ولا أن تطعنوا فى نقلهم بشىء إلا أروكم فى نقلكم مثله سواء بسواء.

وقد نبه الله تعالى على هذا البرهان بقوله تعالى:

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦].

فنص تعالى على أن طريق الإيمان بما آمنوا به من النبوة، وطريق ما آمنا به نحن منها واحد، وأنه لا فرق بين شيء من ذلك، وأن الإيمان بالإله الباعث لموسى هو الإيمان بالإله الباعث لمحمد ﷺ. وأن طريق كل ذلك طريق واحدة، لا فرق فيها، وبالله التوفيق.

وأما شغب من شغب منهم بأننا نؤمن بموسى، وهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ، فهو شغب ضعيف بارد لأنهم لا يخلون من أن يكونوا إنما صدّقوا بنبوة موسى من أجل تصديقنا نحن، ولولا ذلك لم يصدقوا به، أو يكون إنما صدّقوا به لما أظهر من البرهان فقط.

فإن كانوا إنما صدّقوا به من أجل تصديقنا نحن فواجب عليهم أن يصدقوا بمحمد ﷺ من أجل تصديقنا نحن به، وإلا فقد تناقضوا.

وإن كان إنما صدّقوا به لما أظهر من الآيات فلا معنى لتصديق من صدّقه ولا لتكذيب من كذبه، والحق حق صدقه الناس أو كذّبوه، والباطل باطل صدّقه الناس أو كذبوه، ولا يزيد الحق درجة فى أنه حقّ إطباقُ الناس كلّهم على تصديقه، ولا يزيد الباطل مرتبة فى أنه باطل تكذيب الناس كلهم له.

ولا يظن ظانٌّ أننا فى مناظرتنا من نناظره من أهل ملتنا المخالفين لنا فى بعض أقوالنا بالإجماع قد نقضنا كلامنا فى هذا المكان، فليعلم أننا لم ننقضه لأن الإجماع حجة قد قام البرهان على صحتها فى الفتيا فى دين الإسلام. وما قام على صحة البرهان فهو حجة قاطعة على من خالفه، وعلى من وافقه. وأمّا أن نحتج على مخالفنا بأنه موافق لنا فى بعض ما نختلف فيه فليس حجة علينا، فإن وجد لنا يومًا من الأيام فإنما نخاطب به جاهلاً نَستَكِفُّ تخليطه بذلك، أو نبكته لنريه تناقضه فقط.

وأيضًا فإنا إنما آمنا بنبوة «موسى» الذى أنذر بنبوة محمد ﷺ وبالتوراة التى فيها الإنذار برسالة محمد ﷺ باسمه ونسبه وصفة أصحابه ﷺ.

وهكذا نقول فى «عيسى» والإنجيل حرفًا حرفًا، لا بنبوة من لم ينذر بنبوة النبى ﷺ. ولا نؤمن «بموسى» و«عيسى» اللذين لم ينذرا برسالة محمد ﷺ ولا نؤمن بتوراة ولا إنجيل ليس فيهما الإنذار برسالة محمد ﷺ وبصفة أصحابه، بل نكفر بكل ذلك، ونبرأ منهم، فلم نوافقهم قط على ما يدّعونه. فبطل شغبهم الضعيف وبالله تعالى التوفيق.

وجملة القول فى هذا أن نقل اليهود والنصـارى فاسدٌ لما ذكرنا، ونذكر إن شاء الله تعالى من عظيم المفتريات الداخلة فى كتبهم المبينة أنها مفتعلة، ونبيّن فساد نقلهم.

فإنما صدّقنا بنبوة موسى وعيسى عليـهما السلام لأن محمداً ﷺ صدقهما وأخبرنا عنهما وعن أعلامهما، ولولا ذلك لما صدقنا بهما ولا قطعنا بصحتهما، وكذلك نقول فى «إلياس» و«اليسع» و«يونس» و«لوط» فى ذلك.

كما أننا لا نقطع بصحـة نبوة «سموال» و«حقاى» و«حبقـوق» وسائر الأنبياء الذين عندهم كموسى وسائر من ذكرنا ولا فرق.

ولكن نقول «آمنا بالله وكتبه ورسله» فإن كان المذكورون أنبياء فنحن نؤمن بهم، وإن لم يكونوا أنبياء فـلا نُدخل فى أنبياء الله تعالى من ليس منهم بأخبار الـيهود والنصارى الكاذبة التى لا أصل لها، الراجعة إلى قوم كفار كاذبين، وبالله تعالى نتأيد.

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[سورة فاطر: ٢٤]..

وقال تعـالى في الرسل: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [سورة غافر: ٧٨].

فنحن نؤمن بالأنبياء جملة، ولا نسمى منهم إلاَّ من يسمى محمد ﷺ فقط.

قال أبو محمد: ويقال لسـائر فرق اليهود حـاشا السامرية: مـا الفرق بينكم وبين السامـرية الذين كذبوا بنبوّة كل نبى صـدقتم أنتم به بعد يوشع بمثل مـا كذبتم أنتم به «عيسى» و«محمداً» ﷺ؟.. وهذا ما لا انفكاك منه بوجه من الوجوه.

فإن ادَّعـوا أن عيـسى ومـحمـداً عليهـما السـلام لم يأتيا بالمعـجزات بان كـذبهم ومجاهرتهم، إذ قد نقلت الكواف عن النبى ﷺ: أنه سقى العسكر فى «تبوك» وهم ألوف كثيرة من قـدح صغير نبع فيه الماء من بين أصـابعه عليه السلام[(١)]. وفعل أيضًا مثل ذلك بالحديبـية، وأنه أطعم عليه السلام فى منزل «أبى طلـحة» أهل الخندق حتى شبعوا[(٢)]. وفى منزل «جابر» أيضًا[(٣)].

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحـيح البخـاري (٣/ ١٣١١) ح (٣٣٨٥)، ح (٥٠٦٦)، ومسلـم في الأشربة ح (١٤٢)، وأخـرجه الترمذي في السنن (٥/ ٥٩٥) ح (٣٦٣٠، ومـالك في الموطأ ح (١٦٥٧)، (٢/ ٩٢٧) من حديث أنس بن مالك.

(٣) صحـيح البخاري (٤/ ١٥٠٥) ح (٣٨٧٥)، والدارمي في السنن (١/ ٣٣)، ح (٤٢) وابن أبي شيـبة في مصنفه (٦/ ٣١٤)، ح (٣١٧٠٩) كلهم من حديث جابر بن عبدالله.

ورمى «هوازن» في جيش فعميت عيون جميعهم بتراب يده[١]، وفيها أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [سورة الأنفال: ١٧].

وشق القمر إذ سأله قومه آية[٢] فأنزل الله تعالى فى ذلك:
﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [سورة القمر: ١-٤].

وكذلك حنين الجذع[٣] الذى سمعه كل من حضره من الصحابة رضوان الله عليهم. ومن أبهر ذلك وأعظمه قوله لليهود الذى كانوا فى وقته وهم زيادة على ألف بلا شك، ولعلهم كانوا ألوفًا وهم بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو إهدل، وبنو قينقاع، أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين فى تكذيبهم نبوته، وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلاً، فعجزوا عن ذلك أى عن تمنى الموت، وحيل بينهم وبين النطق بذلك، وهذه قصة منصوصة فى سورة الجمعة يقرأ بها كل يوم جمعة فى جميع جوامع المسلمين من شرق الدنيا إلى غربها. وقد كان أسهل الأمور عليهم أن يكذبوا بأن يتمنوا الموت لو استطاعوا، وهم يسمعونه يقول: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ⑥ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الجمعة: ٦، ٧].

قال أبو محمد: وهذا أمر لا يدفعه إلاَّ وقَاحٌ جاهل مكابر للعيان، لأن القرون والأعصار تقلت هذه الآيات جيلاً جيلاً يخاطبون بها. فكل أذعن وأقر، ولم يمكن أحدٌ دفعه.

ودعا عليه السلام من حيث مبعثه العرب كلهم -على فصاحة ألسنتهم، وكثرة استعمالهم لأنواع البلاغة من الإطالة والإيجاز، والتصرف فى أفانين البلاغة، والألفاظ المركبة على وجوه المعانى- إلى أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم ردّهم إلى سورة فعجزوا كلُّهم عن ذلك على سَعة بلادهم طولاً وعرضًا، وأنه ﷺ أقام بين أظهرهم ثلاثةً وعشرين عامًا، يستسهلون قتله، والتعرض لسفك دمائهم، واسترقاق ذراريهم، وقد

(١) صحيح مسلم (٣/١٤٠٢) ح (١٧٧٧)، وأخرجه أبو يعلي في مسنده (١٢/٦٦) ح (٦٧٠٨) من حديث أبي العباس بن عبد المطلب.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣٣٠) ح (٣٤٣٧) من حديث ابن مسعود بلفظ «قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال النبي ﷺ أشهدوا»، وصحيح مسلم (٤/٢١٥٨) ح (٢٨٠٠)، وصحيح ابن حبان (١٤/٤٢١) ح (٦٤٩٦)، والترمذي ح (٣٢٨٧) (٥/٣٩٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سبق تخريجه.

أضربوا عمَّا دعاهم إليه من المعارضة للقرآن جملة.

قال أبو محمد: هذا لا يخفى على من له أقل فهم: أنه إنما حملهم على ذلك العجزُ عما كلفهم من ذلك وارتفاعُ القوة عنهم، وأنه قد حيل بينهم وبين ذلك، ثم عمر الدنيا من البلغاء الذين يتخللون بألسنتهم تخلل الباقر[1] ويطيلون فى المعنى التافه إظهاراً لاقتدارهم على الكلام، جماعاتٌ لا بصائر لهم فى دين الإسلام منذ أربعمائة عام وعشرين عامًا، فما منهم أحد يتكلَّف معارضته إلا افتضح وسقط، وصار مهزأة ومعيرة يُتَماجَنُ به ويتطايب عليه، منهم «مسيلمة» بن حبيب الحنفى[2]، لما رام ذلك لم ينطق لسانه إلا بما يضحك الثكلى، وقد تعاطى بعضهم ذلك يومًا فى كلام جرى بينى وبينه، فقلت له: اتق الله على نفسك، فإن الله تعالى قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقتَ بها، ووالله لئن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسلبنك الله هذه النعمة، وليجعلنك فضيحة وشهرة ومسخرة وضُحكة، كما فعل بمن رام هذا من قبلك. فقال لى: صدقت والله. وأظهر الندم، والإقرار بقبحه.

قال أبو محمد: وهذا الذى ذكرنا مُشَاهد، وهى آية باقية إلى اليوم، وإلى انقضاء الدنيا، وسائرُ آيات الأنبياء عليهم السلام قد فنيت بفنائهم فلم يبق منها إلاَّ الخبر عنها فقط.

قال أبو محمد: وقد ظنَّ قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن أعلى طبقات البلاغة.

قال أبو محمد: وهذا خطأ شديد، ولو كان ذلك وقد أبى الله عزَّ وجل أن يكون لما كان حينئذ معجزة، لأن هذه صفة كل باسق فى طبقته والشىء الذى هو كذلك، وإن كان قد بسق فى وقت مَّا، فلا يؤمن أن يأتى فى غدٍ ما يقاربه بل ما يفوقه. ولكن الإعجاز فى ذلك إنما هو أنّ الله عزَّ وجل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله، ورفع

(١) روى أحمد في مسنده (٢/ ١٦٥) من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ فيما يعلم نافع أنه قال: «إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تخلل الباقرة بلسانها» وتبقَّر: تشقق وفي الكلام توسع فيه وأفاض. (الوسيط ١/ ٦٥).

(٢) مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي أبو ثمامة: متنبىء من المعمرين ولما ظهر الإسلام في غربي الجزيرة وافتتح النبي ﷺ مكه أرسل إليه مسيلمة خطابًا يقول فيه أنه نبى شريك لمحمد ﷺ في الرسالة ....

توفى النبي قبل القضاء على فتنته فلما انتظم الأمر لأبي بكر جهز جيشًا ضخم بقيادة خالد بن الوليد للهجوم على ديار بني حنيفة .... (الأعلام ٧/ ٢٢٦، ابن هشام ٣/ ٧٤).

عنهم القوة فى ذلك جملة، وهذا مثل لو قال قائل إنِّى أمشى اليوم فى هذا الطريق، ثم لا يمكن أحدٌ بعدى أن يمشى فيها، وهو ليس بأقوى من سائر الناس، وأما لو كان العجز عن المشى لصعوبة الطريق وقوة هذا الماشى لما كانت آيةً ولا معجزة، وقد بيَّنا فى غير هذا المكان أن القرآن ليس من نوعٍ بلاغة الناس لأنّ فيه الأقسامَ التى فى أوائل السور والحروف المقطعة التى لا يعرفُ أحد معناها وليس هذا من نوع بلاغة الناس المعهودة وقد روينا عن «أُنَيْس» أخى أبى ذر الغفاري[1] ﷺ: أنه سمع القرآن فقال: لقد وَضَعْتُ هذا الكلام على ألسنة البلغاء، وألسنة الشعراء، فلم أجده يوافق ذلك، أو كلاما هذا معناه. فصح بهذا ما قلناه من أن القرآن خارج عن نوع بلاغة المخلوقين، وأنه على رتبةٍ قد منع الله تعالى جميع الخلق عن أن يأتوا بمثله، ولنا فى هذا رسالةٌ مستقصاة كتبنا بها إلى «أبى عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد»[2]. وسنذكر منها هنا إن شاء الله تعالى ما فيه كفاية فى كلامنا مع المعتزلة والأشعرية فى خلق القرآن من ديواننا هذا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

قال أبو محمد: فإن قال قائل: إنّه مُنع المعارضون حينئذ من المعارضة أو عارضوا فسُتِرَ ذلك. قيل له وبالله التوفيق: لو أمكن ما تقول لأمكن لغيرك أن يدّعى فى آيات موسى عليه السلام مثل ذلك، بل كان يكون أقرب إلى التلبيس؛ لأن فى توراتكم أن السحرة عملوا مثل ما عمل موسى عليه السلام حاشا البعوض خاصة فإنهم لم يطيقوه.

قال أبو محمد: وهذا هو الباطل والتبديل الظاهر، لأن السحر لا يحيل عينًا ولا يقلبها، ولا يحيل طبيعة، إنما هو حيل قد بينا الكلام فيها بعون الله تعالى فى موضعه

---

(١) جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد الله من بني غفار من كنانة ابن خزيمة، أبو ذر: صحابي، من كبارهم قديم الإسلام، يقال أسلم بعد أربعة وكان خامسًا. يضرب به المثل في الصدق. وهو أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام. هاجر بعد وفاة النبي ﷺ إلى بادية الشام . . .
روى له البخاري ومسلم ٢٨١ حديثًا.
(الأعلام ٢/ ١٤٠، حلية الأولياء ١/١٥٦).

(٢) أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد، من بني الوضاح من أشجع من قيس عيلان، أبو عامر الأشجعي: وزير، من كبار الأندلسيين أدبًا وعلمًا.
مولده ووفاته بقرطبة ـ له شعر جيد يهذل فيه ويجد في «ديوان ـ ط» وتصانيف بديعة منها «كشف الدك وإيضاك الشك» و«حانوت عطار» و«التوابع والزوابع ـ ط» قطعة منه مصدّرة بدراسة تاريخية لبطرس البستاني.
(الأعلام ١/١٦٣) بغية الملتمس ١٧٨، وفيات الأعيان ١/ ٣٥).

من هذا الكتاب وفى غيره.

قال أبو محمد: وهذا الاعتراض هو على سبيل إبطال الكواف لا سبيل من أقر بشىء منها، ثم يقال كل من وَلِىَ الأمر بعده عليه السلام معروف ليس منهم أحدٌ إلا وله أعداء يخرجون من عداوته إلى الغايات من الحنق والغيظ فأبو بكر وعمر تعاديهما «الرافضة» وتبلغ فى عداوتهما وتكفيرهما أقصى الغايات. وما قال قط أحدٌ مؤمن ولا كافر عدوٌّ لهما ولا ولىٌّ: إن أحدًا منهما أجبر أحدًا على الإقرار بآيات محمد ﷺ، ولا على ستر شىء عورض به، ولا قدر أن يقول هذا أيضًا يهودىٌّ ولا نصرانى.

وكذلك عثمان أيضًا وعلىّ تعاديهما الخوارج، وتخرج فى عداوتهما وتكفيرهما إلى أبعد الغايات، ما قال قط قائل فى أحدهما شيئًا من هذا، وحتَّى لو رام أحدٌ من الملوك ذلك لما قدر عليه، لأنه لا يملك أيدى الناس ولا ألسنتهم، يصنعون فى منازلهم ما أحبُّوا، وينشرونه عند من يثقون به حتى ينتشر.

وهذا أمر لا يقدر على ضبطه والمنع منه أحدٌ، لا سيما مع انخراق الدنيا وسعة أقطارها من أقصى السند إلى أقصى الأندلس، فلو أمكنت معارضته ما تأخر عن ذلك من له أدنى حظ من استطاعة عند نفسه على ذلك ممن لا بصيرة له فى الإسلام فى شرق الأرض وغربها. فإن قال قائل من اليهود: إن موسى عليه السلام قال لهم فى التوراة: «لا تقبلوا من نبى أتاكم بغير هذه الشريعة وإن جاءكم بآيات».

قال أبو محمد: قلنا له وبالله تعالى التوفيق:

لا سبيل إلى أن يقول موسى عليه السلام هذا بوجه من الوجوه، لأنه لو قال ذلك لكان مبطلاً لنبوة نفسه، وهذا كلام ينبغى أن يتدبَّر؛ وذلك أنه لو قال لهم: لا تصدقوا من دعاكم إلى غير شريعتى وإن جاء بآيات، فإنه يلزمه إذا كانت الآيات لا توجب تصديق غيره إذا أتى بها فى شىء دعا إليه، فهى غير موجبة تصديق موسى عليه السلام فيما أتى به، إذ لا فرق بين معجزاته ومعجزات غيره، إذ بالآيات صحَّت الشرائع، ولم تصح الآيات بالشرائع، لأن تصديق الشريعة موجبة للآية، والآية موجبة تصديق الشريعة، ومن قال خلاف هذا ممن يدين بشريعة وبنبوة فهو عظيم المجاهرة بالباطل.

قال أبو محمد: وأيضًا فإن هذا القول المنسوب إلى موسى عليه السلام كذب موضوع ليس فى التوراة شىء منه، وإنما فيها: «من أتاكم يدّعى نبوةً وهو كاذب فلا تصدقوه» فإن قلتم من أين نعلم كذبه من صدقه؟ فانظروا فإذا قال عن الله شيئًا، ولم

يكن كما قال فهو كاذب. هذا نص ما فى التوراة فصح بهذا أنه إذا أخبر عن الله تعالى بشيء فكان كما قال فهو صادق، وقد وجدنا كلَّ ما أخبر به النبى ﷺ فى غلبة الروم على كسرى، وإنذاره بقتل الكذاب العنسى، ويوم ذى قار، وبخلع كسرى، وبغير ذلك. فإن قالوا: إن فى التوراة أن هذه الشريعة لازمة لكم فى الأبد، قلنا: هذا محال فى التأويل، لأنه كذلك أيضًا فيها: أن هذه البلاد يسكنونها أبدًا، وقد رأيناهم بالعيان خرجوا عنها.

قال أبو محمد: فإن قال قائل: فقد قال لكم محمد ﷺ: لا نبى بعده[1]. قيل لهم وبالله تعالى نتأيد: ليس هذا الكلام مما ادعيتموه على موسى عليه السلام، لأننا قد علمنا من إخباره عليه السلام أنه لا سبيل إلى أن يظهر أحد آية بعده أبدًا ولو جاز ظهورُها لوجب تصديق من أظهرها، ولكنا قد أيقنا أنه لا تظهر آية على أحدٍ بعده عليه السلام بوجه من الوجوه.

فإن قال قائل: وكيف تقولون فى «الدجال» وأنتم ترون أنه يظهر له عجائب؟

فالجواب وبالله تعالى التوفيق: أن المسلمين فيه على أقسام، فأما «ضرار بن عمرو»[2] وسائر فرق الخوارج، فإنهم ينفون أن يكون الدجال جملة فكيف أن يكون له آية.

وأما سائر فرق المسلمين فلا ينفون ذلك. والعجائب المذكورة عنه إنما جاءت بنقل الآحاد.

وقال بعض أصحاب الكلام: إن الدَّجال إنما يدّعى الربوبية، ومدَّعى الربوبية فى نفس قوله بيان كذبه.

قالوا: فظهور الآية عليه ليس موجبًا لضلال من له عقل.

وأمَّا مدَّعى النبوة فلا سبيل إلى ظهور الآيات عليه؛ لأنه كان يكون ضلالاً لكل ذى عقل.

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٨٩) ح (٥٨٤١) موقوفًا، بلفظ «ولو قضى أن يكون بعد محمد ﷺ نبي عاش ابنه، ولكن لا نبي بعده»، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٠) ح (٤٢٠٤) من حديث عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

(٢) ضرار بن عمرو الغطفاني: قاضٍ من كبار المعتزلة، طمع برياستهم في بلده، فلم يدركها. فخالفهم، فكفروه، وطردوه. وصنف نحو ثلاثين كتابًا، بعضها في الرد عليهم وعلى الخوارج وفيها ما هو مقالات خبيثة. وشهد عليه الإمام أحمد بن حنبل عند القاضي سعيد بن عبدالرحمن الجمحي فأفتى بضرب عنقه، فهرب، وقيل: إن يحيى بن خالد البرمكي أخفاه.
(الأعلام ٣/ ٢١٥، لسان الميزان ٣/ ٣٠٣، وفضل الاعتزال ٣٩١).

قال أبو محمد: وأما قولنا فى هذا فهو أن العجائب الظاهرة من الدجال إنما هى حيل من نحو ما صنع سحرة فرعون، ومن باب أعمال «الحلاَّج» وأصحاب العجائب، يدل على ذلك حديث «المغيرة بن شعبة» إذ قال للنبى ﷺ: إن معه نهر ماء ونهر خبز، فقال له رسول الله ﷺ: هو أهون على الله من ذلك(١).

حدثنا «يونس بن عبد الله بن مغيث» حدثنا «أحمد بن عبد الرحيم»، حدثنا «محمد ابن عبد السلام الخُشنِى»، حدثنا «محمد بن بشار بندار»، حدثنا «يحيى بن سعيد القطان» حدثنا «هشان بن حسان القردوسى»، حدثنا «حميد بن هلال» عن «أبى الدّهماء»، عن «عمران بن حصين» عن النبى ﷺ قال: **«من سمع من أمتى بالدّجال فلينأ عنه،فإن الرجل يأتيه وهو يحسبه مؤمنًا فيتبعه مما يرى من الشبهات»**(٢).

قال أبو محمد: وبهذا تتآلف الأحاديث. وقد بيَّن رسول الله ﷺ فى هذا الحديث أن ما يظهر الدَّجال من نهر ماء ونار وقتل إنسان وإحيائه – أنّ هذا حيل.

ولكلّ ذلك وجوه إذا طلبت وُجدت. فقد تَحيَّل ببعض الأجساد المعدنية إذا أذيب أنه ماء، وتَحَيَّل بالنفط الكاذب أنه نار، ويُقتَل إنسان ويغطى وآخر معه مخبوء فيظهر ليرى أنه قتل ثم أحيى كما فعل «الحسين بن منصور الحلاج» فى الجدى الأبلق، وكما فعل «الشريعى» و«النميرى» بالبغلة، وكما فعل «زيروب» بالزرزور.

وأنا أدرى من يطعم الدجاج الزرنيخ فيخدَّر ولا يشك فى موتها ثم يصبُّ فى حلوقها الزيت فتقوم صحاحًا.

وإنما كانت معجزة لو أحيا عظامًا قد أرمّت، فيظهر نبات اللحم عليها، فهذه كانت تكون معجزة ظاهرة لا شك فيها، ولا يقدر غير نبى عليها ألبتة يظهرها الله عزَّ وجل على يديه آية له.

وقد رأينا الدَّبْر(٣) يلقى فى الماء حتى لا يشك أحد أنها ميتة، ثم كنا نضعها

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٢٦٠٦) ح (٦٧٠٥) من حديث المغيرة بلفظ: «ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته، وأنه قال لي: ما يضرك منه؟ قلت: لأنهم يقولون: إن معه جبل خبز ونهر ماء قال: هو أهون على الله من ذلك، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٦٩٣) ح (٢١٥٢) بلفظ مختلف.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٧٦) ح (٨٦١٥) من حديث عمران بن حصين، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وأبو داود (٤/ ١١٦) ح (٤٣١٩)، وأحمد في مسنده (٤/ ٤٣١) ح (١٩٨٨٨)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٢٧) ح (٥٦٤).

(٣) الدبر: جماعة النحل والزنابير الوسيط (١/ ٢٦٩).

للشمس فلا تلبث أن تقوم وتطير، وقد بلغنا مثل ذلك فى الذباب المسترخى فى الماء إذا ذُرَّ عليه سحق الآجر الجديد.

وآيات الأنبياء عليهم السلام لا تكون من وراء حائط، ولا فى مكان بعينه، ولا من تحت ستارة، ولا تكون إلاَّ بادية مكشوفة.

وقد فضحت أنا حيلة «أبى محمد» المعروف بالمحرق فى الكلام المسموع بحضرته ولا يُرى المتكلم، وسُمْتُ[1] بعض أصحابه أن يُسمعنى ذلك فى مكان آخر، أو بحيث الفضاء دون بنيان، فامتنع من ذلك، فظهرت الحيلة، وإنما هى قصبة مثقوبة توضع وراء الحائط على شق خفى، ويتكلم الذى طرف القصبة على فيه على حين غفلة ممن فى المسجد كلماتٍ يسيرة، الكلمتين والثلاث لا أكثر من ذلك، فلا يشك من فى البيت مع المحرّق الملعون فى أن الكلام اندفع بحضرتهم. وكان المتكلم فى ذلك «محمد بن عبد الله الكاتب» صاحبه.

فإن اعترض معترض بقول الله تعالى:
﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [سورة الإسراء: ٥٩].

قيل له وبالله تعالى التوفيق: هذا يُخرَّج على وجهين، **أحدهما** أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ إنما هو على معنى التبكيت لمن قال ذلك، وأورد تعالى كلامهم، وحذف ألف الاستفهام، وهذا موجود فى كلام العرب كثيراً.

والثاني: أنه إنما عنى تعالى بذلك الآيات المشترطة فى الرُّقىِّ إلى السماء وأن يكون معه ملك وما أشبه هذا، وليس على الله تعالى شرط لأحد.

قال أبو محمد: والقول الأول هو جوابنا، لأن الله تعالى لا شيء يمنعه عما يريد.

وكذلك إن اعترض معترض بقول النبى ﷺ: **«ما مَن الأنبياء إلاَّ من قد أُوتى ما على مثله آمن البشر، وإنَّما كان الذَّى أوتيته وَحْيًا أُوحِىَ إلىَّ، وإنِّى لأرجو أنْ أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة»**[2].

قيل له وبالله التوفيق: إنما عنى رسول الله ﷺ بهذا القول آيته الكبرى الثابتة الباقية

---

(١) السوم في المبايعة كالسوام بالضم، سمت بالسلعة وساومت واستمت بها غاليت واستمته إياها وعليها سألته، (المحيط ٤/ ١٣١).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٥) ح (٤٦٩٦) بنحوه، ح (٦٨٤٦)، ومسلم في صحيحه (١/ ١٣٤) ح =

أبد الآباد التى هى أول معـجزته حين بعث وهى القرآن؛ لبـقاء هذه الآية على الآباد. وإنما جعلهـا عليه السلام بخلاف سـائر آيات الأنبياء عليـهم السلام، لأن تلك الآيات يستوى فى معرفـة إعجازها العالم والجاهل وأما إعجاز القرآن فـإنما يعرفه العلماء بلغة العرب، ثم يعرفه سائر الناس بإخبار العلماء لهم بذلك. مع ما فى التوراة من الإنذار البيِّن برسول الله ﷺ من قوله تعالى فـيها: «**سأُقـيمُ لبنى إسرائيل نبيًّا مِنْ إخْوتِهم، أجعلُ على لِسانه كَلامى فَمَنْ عَصَاه انتقمتُ منْه**».

قال أبو محمد: ولم تكن هذه الصفة لغير محمد ﷺ. وأخوةُ بنى إسرائيل هم بنو إسمـاعيل. وقوله في السفـر الخامس منها: «جـاء الله من سيناء وأشرق مِن سَاعِـير، واستعلن مِن جبال فاران».

قال أبو محمد: وسيناء هو موضع مبعث موسـى عليه السلام بلا شك، و«ساعير» هو موضع مـبعث «عيـسى» عليه السلام، و«فـاران» بلا شك هى مكة موضع مـبعث «محمد» ﷺ. بيان ذلك: أن «إبراهيم» عليه السلام أسكن «إسـماعيل» «فاران»، ولا خلاف بين أحد فى أنه إنما أسكنه مكة. فهذا نصٌّ على مبعث النبى ﷺ.

والرؤيا التى فـسرها «دانيـال» فى أمر الحـجر الذى رأى الملك فى نومـه الذى دق الصنم الذى كان بعضه ذهبًـا، وبعضه فضة، وبعضه نحاسًا، وبعـضه حديدًا، وبعضه فخـارًا وخلطه كله وطحنه شـيئًـا واحدًا ثم ربا الحـجر حـتى مـلأ الأرض، ففـسره «دانيال»: أنه نبى بجـميع الأجناس، ويبلغ ملك أمره ملء الآفاق، فـهل كان نبى قط غير «مـحمد» ﷺ جمع الأجناس كلها على اخـتلافها، واختلاف لغـاتها، وأديانها، وممالكهـا، وبلادهم، فجـعلهم جنسًـا واحدًا، ولـغة واحـدة، وأمة واحـدة، ومملكة واحدة، ودينًا واحدًا؟.

فإن الـعرب، والفـرس، والنبط والأكراد، والتـرك، والديلم، والجبل، والبـربر، والقـبط، ومن أسلم من الروم والهند والـسودان، على كـثـرتم كلهم ينطقـون بلغـة واحدة، وبهـا يقرؤون القـرآن، وقد صـار كل من ذكرنا أمـة واحدة والحـمد لله رب العالمين. فصحت النبوة المذكورة بلا إشكال، والحمد لله رب العالمين.

وكل ما ذكرنا فى هذا الـباب أنه يدخل على النصارى الذين يقولون بنبـوة «عيسى» عليه الـسـلام فقط من «الآريوسيـة» و«المقدونية» و«البولقـانية» سواء بسـواء مع ما فى

= (١٥٢) من حـديث أبي هريرة، والبيـهقي في السنن الكـبرى (٩/٤) ح (١٧٤٩٠)، وأحمـد في مسنده (٢/٣٤١) ح (٨٤٧٢).

الإنجيل من دعاء المسيح عليه السلام فى قوله: «اللهم ابعث البارقليط ليعلم الناس أن ابن البشر إنسان».

قال أبو محمد: وهذا غاية البيان لمن عقل؛ لأن المسيح عليه السلام علم أنه سيغلو قومه فيه، فيقولون: إنه الله، وإنه ابن الله، فدعا الله فى أن يبعث الذي يبين للناس أنه ليس إلهًا، ولا ابن إله، وإنما هو إنسان ولد من امرأة من البشر. فهل أتى بعده نبي يبين هذا إلا «محمد» ﷺ؟ وهذا أمر لا يَحيل بيانه على ذى حسٍّ سليم وإنصاف، ونسأل الله إيزاع الشكر على ما وفق له من الهدى.

فإن قال قائل: فإن المجوس تصدّق بنبوة «زرادشت»، وقوم من اليهود يصدقون بنبوة «أبى عيسى الأصبهانى»، وقوم من كفرة الغالية يصدّقون بنبوة «بزيع الحائك»، و«المغيرة بن أبى سعيد»، و«بنان بن سمعان التميمى» وغيرهم من كلاب الغالية.

فالجواب وبالله تعالى التوفيق: أن أبا عيسى، وبنان، وبزيعًا وسائر من تدَّعى له الغالية بنبوة أو إلهية من خيار الناس وشرارهم، لم تظهر لواحد منهم آية بوجه من الوجوه. والآيات لا تصح إلاَّ بنقل الكواف، وكل هؤلاء كان بعد رسول الله ﷺ. وقد أخبر الذى جاءت البراهين بصدقه ﷺ - أنه لا نبى بعده، فقد صحّ البرهان ببطلان ما ادُّعى لهؤلاء من النبوة. وأمّا «زرادشت» فقد قال كثير من المسلمين بنبوته.

قال أبو محمد: ليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله ﷺ لمن صحت عنه معجزة. قال الله عزَّ وجل: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾[سورة فاطر: ٢٤]. وقال عزَّ وجل: ﴿**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**﴾[سورة النساء: ١٦٤]. .

وقالوا: إن الذى ينسب إليه المجوس من الأكذوبات باطل مفترى منهم. وبرهان ذلك أن «المانية» تنسب إليه مقالتهم، وأقوال هؤلاء كلهم متضادة لا سبيل إلى أن يقول بها قائل واحد صادق ولا كاذب فى وقت واحد.

وكذا المسيح عليه السلام ينسب إليه «الملكانية» قولهم فى التثليث، وتنسب إليه «النسطورية» قولهم أيضًا، وكذلك «اليعقوبية». وتنسب إليه «المانية» أيضًا قولهم، وكذلك «المرقيونية». وهذا برهان ظاهر على كذب جميعهم عليهما بلا شك.

وقد رامت الغالية مثل هذا فى القرآن، ولكن قد تولّى الله حفظه، وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلهما، وكانا محظورين على من

سواهما فالتبديل والتحريف مضمون فـيهما. وكتاب المجوس وشريعتهم إنما كانا طول مدة دولتهم عند «الموبذ»[(١)] وعند ثلاثة وعشرين «هربذا»[(٢)] لكل «هربذ» سفر قد أفرد به وحده لا يشـاركه فيه غـيره من الهرابذة ولا من غيـرهم، ولا يباح بشيء من ذلك لأحد سواهم. ثم دخل فـيها الخرم بإحراق «الإسكندر» لكتـابهم أيام غلبته «لدارا ابن دارا» وهم مـقرون بلا خـلاف منهم أنه ذهب منه مـقـدار الثلث. ذكـر ذلك «بشيـر الناسك» وغيره من علمائهم.

وكـذلك التوراة، إنما كـانت طول مـدة ملك بنى إسرائيـل عند «الكوهن الأكبـر» الهاروني وحده، لا ينكر ذلك منهم إلاَّ كذاب مجاهر.

وكذلك الإنجيل: إنما هى كـتب أربعة مختلفة من تأليف أربعـة رجال، فأمكن فى كل ذلك التبـديل، وقـد نقلت كـواف المجـوس الآيات المـعـجـزات عن زرادشت «كالصُّفر»[(٣)] الذى أفـرغ وهو مذاب على صـدره فلم يضـره، وقوائم الفـرس التى غاصبت فى بطنه فأخرجها. وغير ذلك.

وممـن قـال: إنّ المجـوس أهـل كـتـاب علـى بـن أبـى طـالـب، و«حـذيـفـة»[(٤)] رضي الله عنه، و«سعـيـد بـن المسيـب»[(٥)]، و«قـتـادة»[(٦)]،

---

(١) قال مسلم بن يسار لو كان أبو قلابة من العجم كـان «موبذ» موبذان، قـال عارم: يعني: قاضي القضـاة. (حلية الأوليـاء (٢/ ٢٨٤)، وقال النووي: يقـولون لقاضي القضـاة «موبذ مـوبذان» شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢٢).

(٢) قومه بيت النار للهند أو عظماء الهند أو علماؤهم أو خدم نار المجـوس، والهربذي مشية في اختيال، وعدا الجمل الهربذي أي في شق (القاموس المحيط ١/ ٣٥٨).

(٣) الصفر: النحاس الأصفر، والخالي من الأشياء (الواحـد والجمع فيه سواء) ويجمع أيضًا على أصفار، ويقولون: إناء أصفار (الوسيط ٥١٦).

(٤) حذيفة بن حِسل بن جابر العبسي، أبو عبدالله واليمان لقب حسل: صحابي، من الولاة الشـجعان الفاتحين كانَ صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحد غـيره. ولما ولي عمر سأله: أفي عمالى أحد من المنافقين؟ فقال: نعم، واحد. قال: من هو؟ قال: لا أذكره.
له في كتب الحديث ٢٢٥ حديثًا.
(الأعلام ٢/ ١٧١، ابن عساكر ٤/ ٩٣، تهذيب التهذيب ٢/ ٢١٩).

(٥) سعيد بن المسيب بن حـزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: سيد التـابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جـمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من الـتجارة بالزيت. لا يأخذ عطاءً. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمى راوية عمر. توفى بالمدينـة.
(الأعلام ٣/ ١٠٢، الوفيات ١/ ٢٠٦، صفة الصفوة ٢/ ٤٤).

(٦) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عُزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري: مفسر حافظ ضرير أكمه. وكان مع =

و«أبــو ثور»(١)، وجمهور أصحاب أهل الظاهر. وقد بينا البراهين الموجبة لصحة هذا القول فى كتـابنا المسمى «الإيصال»(٢) فى كتاب الجهـاد منه، وفى كتاب الذبائح منه، وفى كتاب النكاح منـه، والحمد لله رب العالمين، ويكفى من ذلك صحـة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم وقد حرّم عز وجل فى نص القرآن فى آخر سورة نزلت منه وهى براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابى.

قال أبو محمد: وأما العيسوية من اليهود فإنه يقال لهم: إذا صدقتم الكافة فى نقل القرآن عن النبى ﷺ، وفى نقل معـجزاته، وصحة نبـوته فقد لزمكم الانقـياد لما فى القرآن من أنه عليه السـلام بعث إلى الناس كافة بقوله تعالى فيــه آمراً لرسوله ﷺ أن يقول:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨].

وقــوله تعــالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [سورة آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى فيه: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ إلى قوله: ﴿**حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [سورة التوبة: ٢٩].

وما فيه من دعــاء اليهود إلى ترك ما هم عليه، والرجوع إلى شريعـته عليه السلام وهذا مـا لا مخلص منه. فـإن اعتـرضوا بما فى القـرآن بما حُرِّم عليـهم يعنى اليـهود وحضهم على التزام السبت، فإنَّما هو تبكيت لهم فـيما سلف من أسلافهم الذى قفوا هم آثارهم، يبين هذا نص القـرآن فى قـوله تعـالى عن عيـسـى عليـه السـلام: «أنه

= علمه بالحديث رأسًا في العربية، ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب .... مات بواسط الطاعون. (الأعلام ٥/ ١٨٩، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٥، إرشاد الأريب ٦/ ٢٠٢).

(١) إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي، أبو ثور: الفقيه صاحب الإمام الشافعي. مات ببغداد شيخًا. وقال ابن عبدالبر: له مصنفات كثيرة منها كتاب ذكر فيه اختلاف مالك والشافعي وذكر مذهبه في ذلك ..... (الأعلام ١/ ٣٧، تذكـرة الحفـاظ ٢/ ٨٧، ميـزان الاعتـدال ١/ ١٥ وتاريخ بغداد ٦/ ٦٥، والانتـفاء ١٠٧).

(٢) في كشف الظنون بعنوان «الخصال الجامعة لمحـصل شرائع الإسلام في الواجب والحرام» مجلد شرحه ابن حزم الظاهري وسماه الإيصال إلى فـهم كتاب الخصال «وهو شرح كبير أورد فـيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في مسائل الفقه ودلائله. كشف الظنون (٧٠٤).

رسـول الله ﷺ إلى بنى إسرائيل ليحل لهم بعض الذى حُرِّم عليهم» وهذا نصٌّ جليٌّ على نسخ شريعتهم وبطلانها، ثم ما لا ينكره أحد مؤمن ولا كافر من أنه عليه السلام حارب يهود بنى إسـرائيل من «بنى قريظة» و«النضير» و«هذل» و«بنى قـينقاع» وقتلهم وسباهم، وألزمهم الجزية، وسمَّاهم كفَّاراً إذا لم يرجعـوا إلى الإسلام، وقَبِل إسلام من أسلم منهم، فلو لم يكن دينهم منسوخًا ما حـل له إجبارهم على تركه، أو الجزية والصغار، ولا جـاز له قبول ترك ما ترك منهم بدين بنى إسـرائيل. ومن المحال الممتنع أن يكون عند العيسويين رسولاً صادقًا نبـيًا، ثم يجور ويظلم دين الحق. فوضح فساد قولهم وتناقضه بيقين لا إشكال فيه، والحمد لله رب العالمين.

وهكذا يقال لمن أقر بنبوة بعض الأنبياء عـليهم السلام من فرق الصابئين «كإدريس» وغيره ممن لا يوقن بصحة قولهم فيه «كـعادمون» و«اسقلابيوس» و«أيلون»، وغيرهـم. وللمـجوس المقتـصرين على «زرادشت» فـقط: أخبـرونا بأى شىء صحت نـبوة من تدَّعون له النبوة؟ فليس ها هنا إلاَّ صحة ما أتوا به من المعجزات.

فيقال لهم: فـإنّ النقل إلى محمد ﷺ فى معجزاته أقرب عـهداً، وأظهر صحة؛ وأكثر عـدد ناقلين، وأدخل فى الضرورة. ولا فرق ولا مـخلص لهم من هذا أصلاً، لأنه نقل ونقل، إلاَّ أنَّ نقلـنا أفشى وأظهـر وأقـوى انتـشاراً، ومـبـدأ هذا مع ذهاب الصّابئين وانقطاعهـم، ورجوع نقلهم إلى من لا يقوم بهم حجة لقلـتهم ولعلهم اليوم فى جميع الأرض يبلغون أربعين، وأما المجوس فإنهم معترفون مقرون بأن كتابهم الذى فيه دينهم أحرقه «الإسكندر»، إذ قتل «دارا بن دارا» وأنه ذهب منه الثلثان وأكثر، وأنه لم يبق منه إلا أقلّ من الثلث، وأنَّ الشرائع كانت فيما ذهب، فإذ هذا صفة دينهم فقد بطل القـول به جملة لذهاب جـمهوره، وإنَّ الله تعـالى لا يكلف أحداً مـا لا يتكفل بحـفظه حتى يبلغ إليـه. وفى كـتاب لهم اسـمه «خـذاى نامة» يعظمـونه جدًّا - أن «أنوشروان» الملـك منع من أن يتعلم دينهم فى شىء من البـلاد إلاَّ فى «أزدشيـرحَره» و«فشا» من «داتجرد» فقط، وكان قبله لا يُتَعلَّم إلا «باصطخر» فقط، وكان لا يباح إلا لقوم خصـائص. وكتابهم الذى بقى بعـدما أحرق «الإسكندر» ثلاثة وعشـرين سفراً- فلهم ثلاثة وعشرون «هربذاً» لكـل «هربذ» سفر لا يتعداه إلى غيـره. و«موبذ موبذان» يشرف على جميع تلك الأسفار. وما كان هكـذا فمضمون تبديله وتحريفه. وكل نقل هكذا فهو فاسـد لا يوجب القطع بصحته. هذا إلى ما فى كـتبهم التى لا يصح دينهم إلاَّ بالإيمان بها مـن الكذب الظاهر، كقولـهم إن جرم الملك كان يركب إبـليس حيث

شـاء. وأن مبـدأ الناس من بقلة «الريبـاس» وهى «الشـرالية» وأنَّ من ولادة «بيـروان سيـاوش بن كيفاوش» من بنى مـدينة «كنكدر» بين السماء والأرض، وأسكنهـا ثمانين ألف رجل من أهل البيوتات هم فيها إلى اليـوم، فإذا ظهر «بهرام هماوند» على البقرة ليرد ملكهم نزلت تلك المدينة إلى الأرض، ونصروه، وردّوا دينهم وملكهم.

قال أبو مـحمد: وكل كتاب دُوِّنَ فيه الكذب فـهو باطل موضوع ليس من عند الله عزّ وجل، فظهـر من فساد دين المجوس كالذى ظـهر من فساد دين اليهـود والنصارى سواء بسواء، والحمد لله رب العالمين.

فصل فى مناقضات ظاهرة وتكاذيب واضحة فى الكتاب الذى تسميه اليهود التوراة، وفى سائر كتبهم وفى الأناجيل الأربعة يتيقّنُ بذلك تحريفها وتبديلها وأنها غير الذى أنزل الله عزّ وجل

قال أبو محمد: نذكر إن شاء الله تعالى ما فى الكتب المذكورة من الكذب الذى لا يشك كل ذى مُسكةِ تمـييز فى أنه كـذب على الله تعالى وعلى الملائكة عليـهم السلام وعلى الأنبياء عليهم السلام، إلى أخبارٍ أوردها لا يخفى الكذب فيها على أحد كما لا يخفى ضوء النهار على ذى بصر.

وقد كنا نعـجب من إطباق النصارى على تلك الأقـوال الفاسدة المتناقـضة التى لا يخفى فسادها على أحدٍ به رمق، إلى أن وقفنا على مـا بأيدى اليهود فرأينا أن سبيلهم وسبـيل النصارى واحدةً كـشق الأبلمة(١) وثبت بذلك عند كل منصف من المخـالفين صحة قولنا: إنَّ كل من خالف دين الإسلام، ونحلة السّنة ومذهب أصحاب الحديث، فإنه عارف بضلال ما هو عليـه، إلاَّ أنهم بخذلان الله تعالى إياهم مكابرون لعقولهم، مغلِّبُـون لأهوائهم وظنونهم على يقينهم تقليداً لأسـلافهم وعصبـية واستدامـة لرياسة دنيوية. وهكذا وجدنا أكثر من شاهدناه من رؤسائهم.

فنحم الله كثيـرًا على ما هدانا له من الإسلام، ونحلة السنة، واتبـاع الآثار الثابتة، ونسأله تثبيتنا على ذلك، وأن يجعلنا من الدُّعاة إليه حتى يدعونا إلى رحمته ورضوانه عند لقائه آمين.

---

(١) بلم: البلمـة: برمـة العـضاه عن أبي حنيـفـة، والإبلم والأبلم والأبلم والإبلمـة والأبلمـة كل ذلك الخوصة، ويقال: المال بيننا شق الإبلمة وبعضهم يقول: شق الأبلمة (لسان العرب ١٢/٥٣).

قال أبو محمد: وليعلم كل من قرأ كتابنا هذا أننا لم نُخْرِج من الكتب المذكورة شيئًا يمكن أن يُخرَّج على وجهٍ مَّا وإن دقَّ وبعد، فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له، وكذلك أيضًا لم نُخْرِج منه كلامًا لا يفهم معناه وإن كان ذلك موجودًا فيها، لأن للقائل أن يقول قد أصاب الله به ما أراد، وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه ولا وجه أصلاً إلا الدَّعاوى الكاذبة التى لا دليل عليها أصلاً لا مُحتَملاً ولا خفيًا.

فصل

التوراة السامرية

قال أبو محمد: أول ذلك أن بأيدى السامرية توراةً غير التوراة التى بأيدى سائر اليهود، يزعمون أنها المنزَّلة، ويقطعون أن التى بأيدى اليهود محرّفة مبدّلة. وسائر اليهود يقولون إنَّ التى بأيدى السّامرية محرَّفةٌ مبدّلة، إلى آخره، ولم يقع إلينا توراة السّامرية لأنَّهم لا يستحلُّون الخروج عن فلسطين والأردن أصلاً، إلاَّ أننا أتينا ببرهان ضرورى على أن التوراة بأيدى السَّامرية أيضًا محرَّفةٌ مبدّلة مكذوبة عندما ذكرنا فى آخر هذه الفصول أسماء ملوك بنى إسرائيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلى العظيم.

فصل

عدم الاختلاف فى توراة اليهود

فى أول ورقة من توراة اليهود التى عند ربَّانيهم، وعانانيهم وعيسويهم حيث كانوا فى مشارق الأرض ومغاربها- لا يختلفون فيها على صفة واحدة ولو رام أحد أن يزيد فيها لفظة أو ينقص أخرى لافتضح عند جميعهم مبلغة ذلك إلى أحبارهم الذين كانوا أيام ملك الهارونية لهم قبل «الخراب الثانى» بدهر، يذكرون أنها مبلغة ذلك فى أولئك إلى عزرا الوراق الهارونى، ففى صدرها قال الله تعالى:

«أَصْنَعُ بنَاء كَصُورتنَا كشَبَهنَا».

قال أبو محمد: ولو لم يقل إلا كصورتنا لكان له وجه حسن ومعنى صحيح، وهو أن نضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق، كما تقول هذا عمل الله، وتقول للقرد والقبيح والحسن هذه صورة الله، أى تصوير الله، والصفة التى انفرد بملكها وخلقها، لكن قوله «كشبهنا» منع التأويلات، وسدَّ المخارج، وقطع السبل

وأوجب شبه آدم لله عزَّ وجل ولابد ضرورة.

وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل؛ إذ الشبه والمثل معناهما واحد، وحاشا لله أن يكون له مثل أو شبيه.

فصل

الكلام عن الأنهر فى التوراة

وبعد ذلك قال:

«ونَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدَنٍ فيسقى الجنانَ، ومنْ ثَمَّ يَفْتَرقُ فيصيرُ أربعةَ أرْؤسٍ، اسمُ أحدها النيل، وهو محيطٌ بجميع بلاد زَوِيلَة[١] الذى به الذَّهب، وذَهبُ ذلكَ البلد جيدٌ، وبها اللُّؤلؤ وحجارة البلور. واسم الثانى «جيحان»[٢] وهو محيط بجميع بلاد الحبشة. واسم الثالث الدّجلة، وهو السائر شرق «الموصل». واسم الرابع الفرات «وأخذ الله آدم ووضعه فى جنّات عدن».

قال أبو محمد: فى هذا الكلام من الكذب وجوه فاحشة قاطعة بأنها من توليد كذاب مستهزىء.

وأول ذلك: إخباره أن هذه الأربعة تفترق من النهر الذى يخرج من جنات عدن التى أسكن الله فيها آدم، إذ خلقه ثم أخرجه منها إذ أكل من الشجرة التى نهاه الله تعالى عن أكلها، وكل من له أدنى معرفة بالهيئة وبصفة الرُّبع المعمور من الأرض الذى هو فى شمال الأرض أو من مشى إلى مصر والشام والموصل يدرى أن هذا كلَّه كذب فاضح، وأن مخرج النيل من عين الجنوب من خارج المعمور، ومصبه قبالة «تنيس»[٣]، وقبالة الإسكندرية فى آخر أعمال مصر فى البحر الشامى. وأن مخرج

---

(١) زويلة بفتح أوله وكسر ثانيه، وبعد الياء المثناة من تحت الساكنة لام بلدان وإفريقية قال البكري: زويلة مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وهي أول حدود بلاد السودان . . .
وزويلة من أطرابلس بين المغرب والقبلة . . . .
وزويلة المهدية وهي مدينة بإفريقية بناها المهدي. (معجم البلدان ٣/ ١٦٠).

(٢) جحيان بالفتح ثم السكون والحاء المهملة وألف ونون نهر بالمصيصة بالثغر الشامي، ومخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفربيّا بإزاء المصيصة وعليه وعند المصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة . . . . . (معجم البلدان ٢/ ١٩٦).

(٣) تنيس بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة جزيرة في بحر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط والفرما في شرقيها، قال المنجمون: طولها أربع وخمسون درجة وعرضها إحدى وثلاثون درجة (معجم البلدان ٢/ ٥١).

الدجلة والفرات وجيحان من الشمال.

فأما «جيـحان» فيخرج من بلاد الروم، ويمر ما بـين «المصيصة»[١] وربضها[٢] المسمى «كَفَـرْبيًّا» حتى يصب فى البحـر الشامى على أربعة أمـيال من «المصيصـة». وأما «دجلة» فمخرجها من أعين بقرب «خِلاَط»[٣] من عمل «أرمينية»[٤] بقرب «آمد»[٥] من ديار بكر، وتصب مياها فى البطائح المشهورة بقرب البصرة فى أرض العراق متاخمة أرض العرب.

وأما الفرات فمخرجه من بلاد الروم على يوم من «قالى قلا»[٦] قرب «أرمينية» ثم يخـرج إلى «ملطية»، ثم يـأخذ على أعـمال «الرقـة»[٧] إلى العراق، وينـقسم على قسمين: كلاهما يقع فى «دجلة».

فهـذه كذبة شنيعـة كبيـرة لا مخلص منها. والله تعـالى لا يكذب. وأخرى وهى قوله: إنَّ النيل محيط ببلد «زويلة» و«جيحان» مـحيط ببلد الحبشة، وهذه كذبة شنيعة ما فى جميع أرض السودان والحـبشة وغير الحبشة نهير غيـر النيل وما ثم غيره أصلاً، ويتفرع سبعة فروع كلها مخرج واحد، ثم يجتمع فوق بلاد النوبة.

---

(١) المصيصة بالفـتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وصاد أخرى كذا ضـبطه الأزهري وغيره من اللغويين بتشديد الصاد الأولى وهي مـدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشـام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس (معجم البلدان ٥/ ١٤٤).

(٢) الربض: محركة الأمـعاء أو ما في البطن سوى القلب وسور المدينة ومـأوى الغنم وحبل الرحل أو ما يلي الأرض منه لا ما فوق الرحل ... القاموس المحيط (٢/ ٣٢٨).

(٣) خلاط: بكسر أوله وآخـره طاء مهملة البلدة العامرة المشهـورة ذات الخيرات الواسعة والثمـار اليانعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى (معجم البلدان ٢/ ٣٨٠،٣٨١).

(٤) إرمينية: بكسر أوله ويفتح وسكون ثانيه وكسر الميم وياء ساكنة وكسر النون خفيفة مفتوحة اسم لصقع عظيم واسع في جهة الشمال والنسبة إليـها (أرمني)، وحدهما من برذعة إلى باب الأبواب ومن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب السرير.

وقيل إرمينية الكبرى: خلاط ونواحيها وإرمينيـة الصغرى تفليس ونواحيها وقيل ثلاث أرمينيات وقيل أربع ... معجم البلدان (١/ ١٥٩، ١٦٠).

(٥) بكسر الميم ... وهي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا وأشهرها ذكرًا، ودجله محيطه بأكثره مستديره به كالهلال (معجم البلدان ١/ ٥٦،٥٧).

(٦) وهي مدينة سميت قـالي لأن، ملكتهم امرأة كانت تسمى قالي وصورت نفـسها على باب من أبوابها ... وهي بلدة بأرمينية معجم البلدان (٤/ ٢٩٩).

(٧) الرقة: بفتح أوله وثانيـه وتشديده وأصله كل أرض إلى جنب واد ينبسط عليها، وهي مـدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حـرّان ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة، لأنها من جـانب الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام. (معجم البلدان ٤/ ٥٨).

وكذبة ثالثة: وهى قوله: إن ببلد «زويلة» اللؤلؤ الجيد وهذا كذب، وما للؤلؤ بها مكان أصلاً إنما اللؤلؤ فى مغاصاته فى بحر فارس وبحر الهند والصين، وهذه فضائح لا خفاء بها لم يقلها الله تعالى قط، ولا إنسان يهاب الكذب.

فإن قال قائل: فقد صح عن نبيكم ﷺ أنه قال: **«النيل والفرات وسيحان وجيحان من أنهار الجنة»**(١) قلنا: نعم. هذا حق لا شك فيه، ومعناه هو على ظاهره بلا تكلف تأويل أصلاً، وهى أسماء لأنهار الجنة كالكوثر والسلسبيل.

فإن قيل: قد صح عنه عليه السلام أنه قال:

«ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة»(٢).

قلنا: هذا حق، وهو من أعلام نبوته، لأنه أنذر بمكان قبره فكان كما قال، وذلك المكان لفضله وفضل الصلاة فيه يؤدى العمل فيه إلى دخول الجنة، فهى روضة من رياضها، وباب من أبوابها. ومعهود اللغة أن كل شىء فاضل طيب فإنه يضاف إلى الجنة. ونقول لمن بشرنا بخبر حسن: هذا من الجنة. وقال الشاعر: «روائح الجنة فى الشباب».

وليس كذلك هذا الذى فى توراة اليهود لأن واضعها لم يدعنا فى لبس من كذبه بل بين أنه عنى النيل المحيط بأرض زويلة بلد الذهب الجيد، ودجلة التى بشرقى «الموصل» و«جيحان» المحيط ببلاد الحبشة الذى لم يخلق بعد، فلم يدع لطالب تأويل لكلامه حيلةً ولا مخرجًا. وأيضًا فإنهم لا يمكنهم ألبتة تخريج ما فى توراتهم المكذوبة على ما وصفنا نحن الآن فى نص توراتهم أن الجنة التى أخرج منها آدم لأكله من الشجرة التى فيها إنما

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٣) ح (٢٨٣٩) بلفظ «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة»، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٨٩) ح (٧٨٧٣)، قال ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٢١٤) قيل: إنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهًا لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة، وقال: والحاصل أن أصلها في الجنة وهما يخرجان أولاً من أصلها ثم يسيران إلى أن يستقرا في الأرض ثم ينبعان واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات لكون منبعهما من الجنة وكذا سيحان وجيحان . . .

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٠١٠) ح (١٣٩٠) وأحمد في مسنده (٢/ ٤٠١) ح (٩٢٠٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٨٦)، قال ابن حجر في الفتح: أي كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل في ملازمة حلق الذكر لاسيما في عهده ﷺ فيكون تشبيهًا بغير أداة أو المعنى أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة فيكون مجازًا، أو هو على ظاهره وأن المراد أنه روضة حقيقية بأن ينتقل ذلك الموضع بعينه في الآخرة إلى الجنة هذا محصل ما أوله العلماء في هذا الحديث . . فتح الباري (٤/ ١٠٠).

هي شرق عدن، في الأرض لا في السماء كما نقول نحن. فثبتت الكذبة لا مخرج منها أصلاً، ولو لم يكن في توراتهم إلا هذه الكذبة وحدها لكفت في بيان أنها موضوعة لم يأت بها «موسى» قط، ولا هي من عند الله تعالى، فكيف ولها نظائر ونظائر ونظائر؟.

فإن قيل: في القـرآن ذكر سد «يأجوج» و«مـأجوج» ولا يدرى مكانه ولا مكانهم. قلنا: مكانه معـروف في أقصى الشمـال في آخر المعمـور منه. وقد ذكر أمـر يأجوج ومأجـوج في كتـب اليهـود التي يؤمنون بها ويؤمن بهـا النصـارى وقد ذكر يـأجوج ومأجوج والسد «أرسططاليس» في كتابه في الحيوان عند كلامه على «الغرانيق»، وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج «بطليموس» في كـتاب المسمى «جغرافيا» وذكر طول بلادهم وعرضها. وقد بعث إليه «الواثق» أمير المؤمنين «سلام الترجمان» في جماعة معه حتى وقفوا عليه. ذكر ذلك «أحـمد بن الطيب السرخسي»[1] وغيره، وقد ذكره «قدامة بن جعفر»[2] والناس، فهيهات خبر من خبر. وحتى لو خفي مكان «يأجوج» و«مأجوج» والسدّ فلم يعرف في شيء من المعمور مكانه لما ضر ذلك خـبرنا شيئًا، لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاسـتواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعهـا وبعدها كما هو في الجهة الشمـالية، بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المـسكونة، والهواء كهواء بعض البلاد التي يوجد فيها النبات والتناسل.

واعلموا أن كـل ما كان في عنصـر الإمكان فأدخله مُـدخلٌ في عنصر الامـتناع بلا برهان فهو كاذب مبطل جاهل أو متجاهل، لا سيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صـدق خبـره، وإنما الشأن في المحـال المتنـع الذي تكذبه الحواس والعـيان أو بديهـة العقل، فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر ونعوذ بالله من البلاء.

---

(١) أحمد بن محمـد بن مروان بن الطيب، أبو العباس: فيلسوف غزير العلم بالتـاريخ والسياسة والأدب والفنون. ولد في سرخس (من نواحي خراسان) وقرأ على الكندي الفيلسوف،
له تصانيف منها «كتاب السياسة» و«المدخل إلى صناعة النجوم» و«كتاب الموسيقى» الكبير و«الموسيقى» الصغير و«المسـالك والممالك» و«الأرثماطيقي والجبر والمقابلة» و«الجلسـاء والمجالسة» و«وصف مذهب الصابئين» . . . .
(الأعلام ١/ ٢٠٥، لسان الميزان ١/ ١٨٩، ومعجم الأدباء ١/ ١٥٨).

(٢) قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغـدادي، أبو الفرج: كاتب من البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة. كان في أيام المكتفي بالله العـباسي وأسلم على يده، وتوفى ببغداد. يضرب به المثل في البـلاغة له كـتب منها «الخـراج ـ ط» قسم منه، و«نقـد الشعـراء ـ ط» و«جواهر الألـفاظ ـ ط» و«السياسة» . . . . . (الأعلام ٥/ ١٩١، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٩٧، وإرشاد الأريب ٦/ ٢٠٣ ـ ٢٠٥، ونقد النثر ٣٣).

فصل

ادعاء التوراة أن آدم إله من الآلهة

ثم قال: وقال الله: «هذا آدم قد صار كواحد منا معرفة فى الخير والشر والآن كيلا يمدَّ يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيا إلى الدَّهر فطرده الله من جنات عدن».

قال أبو محمد:

حكايتهم عن الله تعالى أنه قال هذا آدم قد صار كواحد منًا مصيبة من مصائب الدّهر، وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد، ولقد أدّى هذا القول الخبيث المفترى كثيرًا من خواص اليهود إلى الاعتقاد أن الذى خلق آدم لم يكن إلاَّ خلقًا خلقه الله تعالى قبل آدم، وأكل من الشجرة التى أكل منها أدم فعرف الخير والشر، ثم أكل من شجرة الحياة فصار إلهًا من جملة الآلهة، نعوذ بالله من هذا الكفر الأحمق، ونحمده إذ هدانا للملَّة الزاهرة الواضحة التى تشهد سلامتُها من كل دَخَل(١) بأنَّها من عند الله تعالى.

فصل

وبعد ذلك، «وأسْكِنَ فى شرقىٍّ جنَّة عدن الكروبيم، ولهيب سيف متقلب بحراسة شجرة الحياة».

ورأيت فى نسخة أخرى منها: «ووكل بالجنان المشتهر «إسرافيل» ونصب بين يديه رمحًا ناريًا ليحفظ طريق شجرة الحياة».

قال أبو محمد: إن لم يكن أحدهما خطأ من المترجم وإلا فلا أدرى كيف هذا؟

فصل

عن قاتل قابيل

وبعد ذلك قال الله تعالى: «كل من قتل قابيل يقاد به إلى سبعة». ولا تناكر بين جميعهم فى أن «لامَك بن متوشائيل» بن محويائيل بن عيراد بن حنوك بن قابين «هو الذى قتل قابين جد جدِّ أبيه، وأنه لم يقد به، فنسبوا إلى الله تعالى الكذب لأنه وعده أن يَقِيد به إلى السبعة ولم يُقد به، وأيضًا فإن ذكر السبعة هنا حمق، لأن «لامَك»

(١) الدخل: الداء والعيب والريبة ويحرك وما دخل عليك من ضيعتك (المحيط (٣/ ٣٦٣).

الذى قـتله هو الخامس من ولد قـابين، و«قـابين» هو الخامس من آباء «لامك»، فـلا مدخل للسبعة ها هنا.

فصل

كلام التوراة عن هابيل

وقبل هذا ذكـر «هابيل» بن آدم وأنه راعى غنم، ثم قال ذلك بنحـو ورقتين: «إن» «لامك» المذكورة آنفًا اتخذ امرأتين اسم إحداهما «عادة» والثانية «صِلَّةُ» وولدت «عادة» «يابال» وهو أول من سكن الأخبية، وملك الماشية.

وهاتان قضيتان تكذب إحداهما الأخرى ولابد.

فصل

ادعاء التوراة أن أولاد الله اتخذوا نساء

وبعد ذلك قال: «فلما ابتدأ الناس يكثرون على ظهر الأرض وولد لهم البنات فلما رأى أولاد الله بنات آدم أنهنّ حسان اتخذوا منهن نساءً».

وقـال بعـد ذلك: «كان يـدخل بنو الله إلى بنات آدم، ويولد لهم حـرامًـا، وهم الجبابرة الذين على الدهر لهم أسماء».

وهذ حمق ناهيـك به، وكذب عظيم إذ جعل لله أولادًا ينكـحون بنات آدم، وهذه مصاهرة تعالى الله عنها، حتى أن بعض أسلافهم قال: إنما عنى بذلك الملائكة، وهذه كذبة إلاَّ أنها دون الكذبة الأولى فى ظاهر اللفظ.

فصل

وفى خـلال هذا قـال: «لا يدين روحى فى الإنسـان إلى الدّهر إذ هم منتـشـرون لزيغانه هو بشر فتكون أعمارهم مائة وعشرون سنة».

وهذا كذب فـاحش، ومصـيبة الأبد، لأنه ذكـر بعد هذا القـول أن «سام بن نوح» عاش بعد ذلك ستمائة سنة، و«أرفخشاذ بن سام» عاش أربعمائة وخمسًا وستين سنة،

و«شالخ» بن أرفخشاذ عاش أربعمائة سنة وثلاثًا وثلاثين سنة. و«عابر» بن شالخ عاش أربعمائة سنة وأربعًا وستين سنة، و«فالغ» بن «عابر» مائتى سنة وسبعًا وثلاثين سنة، و«رعو بن فالغ» عاش مائتى سنة وتسعًا وعشرين سنة، و«سروغ بن رعو» عاش مائتى سنة وثلاثين سنة، و«ناحور بن سروغ» عاش مائة وثمان وأربعين سنة، و«تارح بن ناحور» عاش مائتى سنة وخمسين سنة، و«إبراهيم بن تارح» عاش مائة سنة وخمسًا وسبعين سنة، و«إسحاق بن إبراهيم» عاش مائة سنة وثمانين سنة، و«إسماعيل بن إبراهيم» عاش مائة سنة وسبعًا وثلاثين سنة، و«يعقوب بن إسحاق» عاش مائة وسبعًا وأربعين سنة، و«لاوى بن يعقوب» عاش مائة سنة وسبعًا وثلاثين سنة. و«عمران بن فهث» عاش كذلك أيضًا، و«فهث بن لاوى» عاش مائة سنة وثلاث وثلاثين سنة. وأن «سارح بنت أشر» و«مريم بنت عمران» و«هارون بن عمران» عاش كل واحد منهم أزيد من مائة وعشرين سنة بسنيهم. فاعجبوا لهذه الفضائح ولعقول تتابعت على التصديق والتدين بمثل هذا الإفك الذى لا خفاء به.

فصل

اضطراب التوراة فى أعمار البشر

وبعد ذلك ذكر أنّ «متوشالح بن حنوك بن مارد» عاش تسعمائة سنة وتسعًا وستين سنة، وأنه ولد له «لامك» وهو ابن مائة سنة وسبع وثمانين سنة. وأن «لامك» المذكور إذ بلغ مائة سنة واثنين وثمانين سنة ولد له «نوح» عليه السلام. فلا شك من أن «متوشالح» كان إذ ولد له نوح ابن ثلاثمائة سنة وتسع وستين سنة. فوجب من هذا ضرورة أن نوحًا عليه السلام كان ابن ستمائة سنة إذ مات «متوشالح» فاضبطوا هذا.

ثم قال: «إن فى اليوم السابع عشر من الشهر الثانى من سنة ستمائة من عمر «نوح»، اندفعت المياه بالطوفان». ثم قال: «إن فى اليوم سبعة وعشرين يومًا من الشهر الثانى من سنة إحدى وستمائة لنوح، خرج نوح من التابوت - يعنى السفينة - وأنه فيها مات قبل خروجهم منها بشهرين غير ثلاثة أيام، وقد قطع فيها وبتّ على أنه لم يدخل التابوت أحد من الناس إلاّ نوح وبنوه الثلاثة وامرأة نوح، وثلاث نساء لأولاده، وقد قطع فيها وبتّ على أنه لم ينج من الغرق إنسى أصلاً ولا حيوان فى غير التابوت.

وهذه كذبات واضحـة نعوذ بالله من مثلها، لأن فى نصـوص توراتهم كما أوردنا: أن «متـوشالح» لم يغـرق، لأنه لو غرق لم يـستوف تمام الـسنة الموفيـة ستمـائة سنة «لنوح». وفى نصها أنه استوفاها. وأيضًا فإنه عندهم محمود ممدوح لم يستحق الهلال قط. وأبطلوا أيضًا أن يكون دخل التابوت إذ قطعوا بأنه لم يدخلها إنسىٌّ أعنى السفينة إلا نوح وبنوه الثلاثة ونساؤهم. وأبطلوا أن ينجو فى غـير التابوت بقطعهم أنه لم ينج إنس ولا حيـوان فى غير الـتابوت. ولابد «لمتوشـالح» من أحد هذه الوجـوه الثلاثة، فلاح الكذب البحت فى نقل توراتهم ضرورة. وتيـقن كل ذى عقل أنها غير منزلة من الله تعـالى ولا جـاء بهـا نبى أصـلاً، لأن الله تعـالى لا يكذب، والأنبـيـاء لا تأتى بالكذب، فصح يقينًا أنهـا من عمل زنديق جاهل، أو مُستَخِفٍّ مـتلاعب بها. ونعوذ بالله من مثل مقالهم، وفى هذا الفصل كفاية فكيف ومعه أمثال كثيرة.

فصل

مباركة نوح لابنه سام

وبعد ذلك ذكر أن نوحًا إذ بلغه فعل ابنه حام أبى كنعان فقال: ملعون «كنعان» عبد العبيد يكون لإخواته مستعبـدًا يكون لأخويـه. يبارك الإله سامًا ويكون أبو كنعان عبدًا لهم، إحسان الله «ليـافث»، ويسكن فى أخبية سام، ويكون أبو كنعـان عبدًا لهم. ثم نسى المحرف أو تعاظم استـخفافًا بهم فلم يطل لكنه بعد سـتة أسطر قال إذ ذكر أولاد حام فقال: بنو حـام «كوش» و«مصرايم» و«فوحا» و«كنعـان». وبنو كوش: «وصبان» و«زويلة» و«رغاوة» و«رعمه» و«سفتخا». وبنو «رعمه»: «السند» و«الهند» و«كوش ولد نمرود» الذى ابتدأ يكون جبارًا فى الأرض الذى كان جبار صيد بين يدى الله عزَّ وجل، وكان أول مملكته «بابل». فحصل من هذا الخـبر تكذيب نوح فى خبره، وهو بإقرارهم نبى معظم جدًّا. وإذ وصف أن ولد أبى كنعان صـاروا ملوكًا على إخـوة بنى كنعان وعلى بنيهم، ثم العجب كله أن على ما توجـبه توراتهم كان ملك نمروذ بن كوش بن كنعـان بن حام عـلى جمـيع الأرض ونوح حى، وسـام بن نوحٍ حى، لأن فى نص توراتهم أن نوحـًا عاش إلى أن بلغ إبراهيم بن تارح عليـه السلام، ثمـانية وخـمسين عامًـا. وأن سام بن نـوح عاش إلى أن بلغ إبراهيم وعـيصـا ابنا إسحـاق بن إبراهيم عليهما السلام خمسًا وأربعين سنة، على ما ذكره من مواليدهم أبًا فأبًا.

فمـا لنا نرى خبـر نوح معكوسًـا؟ فإن قـالوا: إنَّ السودان تملكوا اليـوم قلنا وفى

السودان ملك عظيم جداً، وممالك شتى «كخانة» و«الحبشة» و«النوبة» و«الهند» والتبت» والأمر بينهم سواء يملكون طوائف من بين سام كما يملك «بنو سام» طوائف منهم، وحاشا لله أن يكذب نبي.

فصل

اضطراب التوراة في أعمار أبناء نوح

وقالت توراتهم: إن نوحًا لما بلغ خمسمائة سنة، ولد له «يافث وسام وحام» ثم ذكرت أن نوحًا إذ بلغ ستمائة سنة كان الطوفان، ولسام يومئذ مائة سنة. وقالت بعد ذلك: إن «سام بن نوح» لما كان ابن مائة سنة ولد «أرفخشاذ» لسنتين بعد الطوفان، وهذا كذب فاحش، وتلون سمج، وجهل مظلم، لأنه إذا كان نوح إذ ولد له «سام» ابن خمسمائة سنة، وبعد مائة سنة كان الطوفان، فسام حينئذ ابن مائة سنة، وإذ ولد له بعد الطوفان بسنتين «أرفخشاذ» فسام كان إذ ولد له «أرفخشاذ» ابن مائة سنة وسنتين. وفي نص توراتهم أنه كان ابن مائة سنة، وهذا كذب لا خفاء به حاشا لله من مثله.

فصل

التوراة وتشريد نسل إبراهيم عليه السلام

وبعد ذلك: أن الله تعالى قال لإبراهيم: اعلم علمًا أنه سيكون غريبًا في بلد ليس له، ويستعبدونهم ويعذبونهم أربعمائة سنة، وأيضًا القوم الذين يعذبونهم يحكم لهم... وبعد ذلك يخرجون بسرح عظيم وأنت تسير لآبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة، والجيل الرابع من البنين يرجعون إلى ها هنا.

قال أبو محمد: في هذا الفصل على قلته كذبتان فاحشتان شنيعتان منسوبتان إلى الله تعالى، وحاش لله من الكذب والخطأ.

فأحدهما قوله: «والجيل الرابع من البنين يرجعون إلى ها هنا».

وهذا كذب فاحش لا خفاء به، لأن الجيل الأول من بني إبراهيم عليهم السلام هم «إسحاق» وإخوته عليهم السلام، والجيل الثاني هم: «يعقوب وعيصا» وبنو أعمامهما، والجيل الثالث: أولاد يعقوب لصلبه، وهم «دوبان» و«شمعون» و«يهوذا» و«لاوى» و«ساخار» و«زابلون» و«يوسف» و«بنيامين» و«داى» و«هباد» و«عاذ» و«أشاد» وأولاد «عيصا» ومن كان في تعدادهما من سائر عقب إبراهيم، والجيل الرابع: عم أولاد

هؤلاء المذكورين، وهم الجـيل الثالث آباؤهم، ويعقوب جدهم هـم الداخلون مصر لا الخارجون منهـا بنص توراتهم وإجماعهم كلهم بلا خـلاف من أحد منهم. وإنما رجع إلى الشام بنص توراتهم وإجماعـهم كلهم الجيل السادسُ من أبناء إبراهيم، وهم أولاد الجيل الرابع المذكور، وما رجع من الجـيل الرابع ولا من الجيل الخامس ولا واحد إلي الشام. وحاشا لله من أن يكذب في خبره.

فإن قيل: إنما تعـد الأجيال من الجيل المعـذب قلنا: هذا خلاف نص توراتهم، لأن نصها: «الجيل الرابع من الأبناء».

وأيضًا: فإن لم يعذّب أحد من أولاد يعقوب بل كانوا مبرورين، وهم الجيل الثالث بنص توراتهم حرفًا حرفًا، على ما نورد بعد هذا إن شاء الله تعالى.

إنما ابتدأ التعذيب في أبناء يعـقوب، وهم الداخلون مع آبائهم، وهم الجيل الرابع، فعدّ من حيث شئت لست تخرج من شرك الكذب الفاضح وفي هذا كفاية.

والكذبة الثانية: طامة من الطامات، وهي قوله لإبراهيم: «إن نسلك سيكون غريبًا، في بلد ليس له، ويستعبدونهم أربعمائة سنة وبعد ذلك يخرجون».

فهذه سـوءة وعار الدهر، لأنه إذا عذب الأربعمائة سنة من وقـت بدأ بتعذيب بني إسرائيل بمصر، فإنما ذلك بعد موت يوسف عليه السلام إلى أن خرج بهم موسى عليه السلام نصًا، إذ في سياق توراتهم:

«ولما مـات يوسف وجمـيع أخوته وذلك الجـيل كله، كـثر بنو إسـرائيل وتكاثروا وتقوّوا، فـملكوا الأرض، وولي عند ذلك بمصر ملك جـديد لم يعرف يوسف فـقال لأهل مملكته: إن بني إسرائيـل قد كثروا، وصاروا أقوى منا فـأذلّوهم بيننا لئلا يزدادوا كثرة ويكونوا عونًا لمن رام محاربتنا فقدّم عليهم أصحاب صناعته لسخرتهم».

هذا نص توراتهـم شـاهدة بما قلنا. وقـد ذكـر في توراتـهم إذ ذكـر من دخل مع «يعـقوب» من ولده، وولد ولده: أن «فـاهث» بن لاوى بن يعقـوب والد عمـران بن «فاهث» وهـو جد موسى عـليه السلام -كـان ممن ولد بالشـام ودخل مصر مـع أبيه «لاوى» وجده «يعقوب»- وذكر فيها أيضًـا: أن جميع عمر «فاهث» المذكور ابن لاوى كان مائة سنة وثلاثًا وثلاثين سنة، وأن جميع عمر «عمران بن فاهث» المذكور كان مائة سنة وسبعًا وثلاثين سنة. وذكـر فيها نصًا: «أن موسى عليـه السلام كان إذ خرج ببني إسرائيل من مصر ابن ثمانين سنة».

هذا كله نص توراتهم حرفًا بحرف بإجماع منهم أولهم عن آخرهم، فهبك أن «فاهاث» كان إذ دخلها ابن أقل من شهر، وأن «عمران» ولد له سنة موته، وأن «موسى» ولد لعمران سنة موته. فالمجتمع من هذا العدد كله ثلاثمائة سنة وخمسون سنة، وهذه كانت مدتهم بمصر من يوم دخولها إلى أن خرجوا منها على هذا الحساب فأين الأربعمائة سنة؟ فكيف ولابد أن يسقط سن «فاهاث» إذ دخل مصر مع أبيه «لاوى» والمدة التى كانت من ولادة «عمران» لفاهث إلى موت «فاهث» والمدة التى كانت من ولادة «موسى» عليه السلام إلى موت أبيه «عمران».

وفى كتب اليهود: أن «فاهث» دخل مصر وله ثلاث سنين، وأنه كان إذ ولد له «عمران» ابن ستين سنة، وأن «عمران» كان إذ ولد له موسى عليه السلام ابن ثمانين سنة.

فعلى هذا لم يكن بقاء بنى إسرائيل بمصر مذ دخلوها مع «يعقوب» إلى أن خرجوا منها مع موسى إلا مائتى عام وسبعة عشر عامًا فأين الأربعمائة عام؟

فكيف ولابد أن يسقط من هذا العدد الأخير مدة حياة يوسف مذ دخل إخوته وأبوهم وبنوهم مصر إلى أن مات يوسف عليه السلام؟

فطوب هذا الأمد لم يكونوا مستخدمين، ولا معذبين، ولا مستعبدين بل كانوا أعزَّاء مكرَّمين.

وفى نصّ توراتهم أن يوسف عليه السلام كان إذ دخل على فرعون ابن ثلاثين سنة، ثم كانت سنو الخصب سبع سنين، وبدأت سنو الجوع ودخل يعقوب ونسله مصر بعد سنتين من سنى الجوع، فليوسف حينئذ تسع وثلاثون سنة.

وفى نص توراتهم: أن يوسف كان إذ مات ابن مائة سنة وعشر سنين، فصح أن مدّتهم مذ دخلوا مصر إلي أن مات يوسف عليه السلام كانت إحدى وسبعين سنة فقط ولابد، فالباقى مائة سنة وست وأربعون سنة يسقط منها ولابد بنص توراتهم مدة بقاء من بقى من إخوة يوسف بعده، ولم نجد من ذلك إلاَّ عمر «لاوى» فقط على نص التوراة كان يزيد على يوسف ثلاثة أعوام أو أربعة، فعاش بعد يوسف ثلاثة وعشرين عامًا فقط تسقط ولابد من هذا العدد، فالباقى مائة سنة وثلاث وعشرون سنة، هذه مدة عذابهم واستخدامهم واستعبادهم على أبعد الأعداد، وقد تكون أقل، فأين الأربعمائة سنة؟!.

ولعل وقاح الوجه أن يقول: ما أعُدُّ إلاَّ من دخول يوسف مصر مستعبدًا مستخدمًا معذبًا ثم مسجونًا، فأعلم أنه لا يزيد على المائتى عام وسبعة عشر عامًا التى ذكرنا قبلُ

إلا اثنين وعشرين عامًا فـقط. فذلك مائتا عام وتسعة وثلاثون عامًـا. فأين الأربعمائة سنة؟ فظهر الكذب المفضوح الذى لا يدرى كيف خفى عليهم جيلاً بعد جيل.

ورأيت لنذل منهم مقالة ظريفة، وهى أنه ذكر هذه القـصة وقال: إنما ينبغى أن تعد هذه الأربعمائة سنة من حين خاطب الله عز وجل إبراهيم بهذا الكلام.

قال أبـو محـمد: وأراد هذا الساقط الخـروج من مزبلة فوقـع فى كنيف عذرة لأنه جاهر بالباطل وتعـجل الفضيحة ونسبـة الكذب إلى الله تعالى. إذ نص ما حكوه عن الله تعالى أنه قال لإبراهيم:

«إنَّ نسلك يستـعبد أربعـمـائة سنة». ولم يقل لـه قـط «من الآن إلى انـقـضـاء استخدامهم أربعمائة سنة». وأيضًا فإنَّ نص توراتهم: أن الله تعالى إنما قال هذا الكلام لإبراهيم قبل ولادة إسمـاعيل هذا أيضًا فكان إبراهيم حينئذ ابن أقل من سـتة وثمانين عامًا ثم عاش بعد ذلك أربعة عشر عامًا وولد له إسحاق، وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة، ومات إسـحاق وليعـقوب مائة وعـشرون سنة، ودخل يعـقوب مصـر وله مائة وثلاثون سنة، كل هذا نصوص توراتهم بلا اختلاف منهم، فـمات إسحاق قبل دخول يعقوب مصر بعشـرة أعوام فمن حين ادعوا أن الله تعالى قال هذا الكلام لإبراهيم إلى دخول يعقـوب مصر مائتا عامـا وأربعة أعوام، ومن دخول يعقوب مـصر إلى خروج موسى عنها كما ذكرنا مائة عام وسبعة عـشر عامًا، فحصلنا على أربعمائة عام وأربعة وعشـرين عامًا فلا منجى من الكـذب إما بزيادة أو نقصان، وحـاشا لله أن يكذب فى حساب بدقيقة فكيف بأعوام؟ والله خالق الحساب ومعلمه عباده، ومعاذ الله أن يكذب موسى عليه السلام أو يخطىء فيما أوحى الله تعالى به، فوضح لكل من له أدنى فهم وضوحًا يقينيًا كما أن أمس قبل اليوم أنهـا ليست من عند الله تعالى، ولا من أخبار نبى ولا من تأليف عالم يتقى الكذب، ولا من عمل من يحسن الحساب، ولا يخطىء فيما لا يخطيء فيـه صبى يحسن الجمع والطرح والقسمة والتسـمية، ولكنها بلا شك من عمل كافر مستخف ماجن سخر بهم، وتطايب عليهم، وكتب لهم ما سخّم الله به وجوههم عاجلاً فى الدنيـا بالفضيحة، وآجلاً فى الآخرة بـالنار والخلود فيها، أو من عمل تيس أرعن تكلف إمـلاء ما لم يقم بحفظه جـاهل مع ذلك مظلم الجهل بالهيـئة وصفة الأرض وبالحساب وبالله تعالى وبرسله عليهم السلام، فأملى ما خرج إلى فهمه من خبيـث وطيب، ولقد كان فى هذا الفصل كـفاية لمن نصح نفسه لو لم يـكن غيره فكيف ومعه عجائب جمة؟ ونحمد الله تعالى على نعمة الإسلام كثيراً.

فصل

ادعاء التوراة بأن نسل إبراهيم يملكون من النيل إلى الفرات

وبعد ذلك أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام:

«لنسلك أعطى هذا البلد من نهر مصر النهر الكبير إلى نهر الفرات». وهذا كذب وشهرة من الشهر، لأنه إن كان عنى بنى إسرائيل، وهكذا يزعمون، فما ملكوا قط من نهر مصر، ولا على نحو عشرة أيام منه شبراً مما فوقه، وذلك من موقع النيل إلى قرب بيت المقدس، وفى هذه المسافة الصحارى المشهورة الممتدة، والحضار، ثم «رفح»[(١)] و«غزة»[(٢)] و«عسقلان»[(٣)] و«جبال الشراة»[(٤)] التى لم تزل تحاربهم طول مدة دولتهم، وتذيقهم الأمرين إلى انقضاء دولتهم، ولا ملكوا قط من الفرات ولا على عشرة أيام منه، بل بين آخر حوز بنى إسرائيل إلى أقرب مكان من الفرات إليهم نحو تسعين فرسخًا فيها «قنسرين»[(٥)] «وحمص»[(٦)] التى لم يقربوا منها قط، ثم «دمشق» و«صور»[(٧)] و«صيدا» التى لم يزل أهلها يحاربونهم، ويسومونهم الخسف طول مدة دولتهم بإقرارهم ونصوص كتبهم، وحاشا لله عز وجل أن يخلف وعده فى قدر دقيقة

(١) رفح بفتح أوله وثانيه آخره حاء مهملة منزل في طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد مصر وهو أول الرمل . . . معجم البلدان (٣/ ٥٤).

(٢) غزة: بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتحه في الإقليم الثالث وغزة مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان معجم البلدان (٤/ ٢٠٢).

(٣) عسقلان: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم قاف وآخره نون وعسقلان في الإقليم الثالث من جهة المغرب . . . وهي اسم أعجمي فيما علمت وقد ذكر بعضهم أعلى الرأس فإن كانت عربية فمعناه أنها في أعلى الشام وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضًا وقد نزلها جماعة . . . معجم البلدان (٤/ ١٢٢).

(٤) الشراة بفتح أوله قال الأصمعي بن شراة: إذا كانت خيارًا، والشراة صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة التي كان يسكنها ولد على بن عبدالله بن عباس، معجم البلدان (٣/ ٣٢٢).

(٥) قنسرين: بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قوم ثم سين مهملة، كانت قنسرين وحمص شيئًا واحدًا، وقد فتحت على يد أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٧هـ معجم البلدان (٤/ ٤٠٣).

(٦) حمص بالكسر ثم السكون والصاد مهملة بلد مشهور قديم كبير مسور بين دمشق وحلب بناه رجل يقال له «حمص بن المهر بن جان بن مكنف . . . . معجم البلدان (٢/ ٣٠٢).

(٧) صور: بضم أوله وسكون ثانيه وآخره وهي في الإقليم الرابع، وهي مدينة مشهورة . . . كانت من ثغور المسلمين وهي مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد . . . معجم البلدان (٣/ ٤٣٣).

من سرابه فكيف فى تسعين فرسخًا فى الشمال ونحوها فى الجنوب.

ثم قوله: «النهـر الكبير» ومـا فى بلادهم التى ملكوا نهر يذكـر إلا الأردن وحده، وما هو بكبير، إنما مسافة مجراه من بحيرة الأردن إلى مسقطه فى البحيرة المنتنة[١] نحو ستين ميلاً فـقط. فإن قال قائل: إنما عنى الله بهذا الوعد بنى إسمـاعيل عليه السلام، قلنا: وهذا أيضًا خطأ، لأن هذا القدر المذكور ها هنا من الأرض أقل من جزء من مائة جزء مما ملّك الله عز وجل بنى إسـماعيل عليه السلام. وأين يـقع ما بين مصب النيل عند «تنِّيس» وبين الفرات، و«كابل»[٢] مما يلى بلاد الهند، ومن ساحل اليمن إلى ثغور «أرمينية» و«أذربيجان» فما بين ذلك والحمد لله رب العالمين.

فكيف وهذه الدعوى باطلة لأن ذلك الكلام بعضه معطوف على بعض، فالموعودون بملك ذلك البلد هم المتوعـدون بأنهم يمتلكون ويعذبون فى البلد الآخـر. وقد أكرم الله تعالى بنى إسمـاعيل وصانهم عن ذلك فوضح الكذب الفاحش فى الأخـبار المذكورة، وصح أنه ليس من عنـد الله عز وجل، ولا من كـلام نبى أصـلاً بل من تبـديل وغـد جاهل كالحمار بلادة، أو متلاعب بالدين وفاسد المعتقد ونعوذ بالله من الخذلان.

فصل

إخراج إبراهيم من أتون الكردانيين إلى بلد آمن

ومنها أن الله تعالى قال لإبراهيم:

«أنا الله أخـرجـتك من أتون الكردانيـين لأعطيك من هذا البلد حـوزًا. فـقـال له إبراهيم: يا رب بماذا أعرف أنى أرث هذا البلد؟».

قال أبو محمد: حاشا لله أن يقول إبراهيم عليه السلام لربه هذا الكلام، فهذا كلام من لـم يثق بخبـر الله عز وجل حتى طلـب على ذلك برهانًا. فإن قال قـائل جاهل: ففى القرآن قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠] وأن زكريا قـال لله تعالـى إذ وعـده بابن يسمـى «يحـيى»: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [سورة آل عمران: ٤١] قلنا: بين المراجعـات المذكورة فرق كـما بين المشرق والمغـرب، أما طلب إبراهيم

---

(١) البحيرة المنتنة قرب أريحا معجم البلدان (١/ ٣٥٢).

(٢) «كابل» بضم البـاء الموحدة ولام وكابل بل في الإقليم الثـالث، التي بين الهند ونواحي سجسـتان في ظهر الغور، ونسبتها إلى الهند أولى (معجم البلدان ٤/ ٤٢٦).

عليه السلام رؤية إحياء الموتى فإنما طلب ذلك ليطمئن قلبه المنازع له إلى رؤية الكيفية في ذلك فقط.

بيان ذلك قوله تعالى له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠] فوضح أن إبراهيم لم يطلب ذلك برهانًا على شك أزاله عن نفسه، لكن ليرى الهيئة فقط. وأما زكريا عليه السلام فإنما طلب آية تكون له عند الناس لئلا يكذّبوه، هذا نص كلامه، والذي ذكروه عن إبراهيم عليه السلام كلام شاكٍّ يطلب برهانًا يعرف به صحة وعد ربه له. تعالى الله عن ذلك، وحاشا لإبراهيم منه.

فصل
التقاء إبراهيم بالملائكة عليهم السلام

وبعد ذلك قال:

«وتجلّى الله لإبراهيم عند بلّوطات مَمْرأ وهو جالس عند باب الخباء عند حمى النهار، ورفع عينيه ونظر فإذا بثلاثة نفر وقوف أمامه فنظر وركض لاستقبالهم عند باب الخباء وسجد على الأرض، وقال: يا سيدى، إن كنت قد وجدتَ نعمةً فى عينيك فلا تتجاوز عبدك ليؤخذ قليل من ماء، واغسلوا أرجلكم، واستندوا تحت الشجرة، وأقدم لكم كسرة من الخبز تشتد بها قلوبكم وبعد ذلك تمضون، فمن أجل ذلك مررتم على عبدكم فقالوا: اصنع كما قلت، فأسرع إبراهيم إلى الخباء إلى سارة، وقال لها: اصنعى ثلاث صيعانٍ من دقيق سميذ، اعجنيه واصنعى خبز ملّة[(١)]، وحضر إبراهيم إلى البقر، وأخذ عجِلاً رخيصًا[(٢)] سمينًا ودفعه للغلام واستعجل بإصلاحه، وأخذ سمينًا ولبنًا، والعجل الذى صنعوه وقُدِّم بين أيديهم وهو واقف عليهم تحت الشجرة وقال: كلوا».

---

(١) ملّ: الشيء وملّ من الشيء يمل بالفتح مللا وملة وملالة، الملة: الرماد الحار، وقال أبو عبيد: الحفرة (مختار الصحاح ٢٦٤)، ولسان العرب (١١/ ٦٣٢).

(٢) رخص: الرُّخص ضد الغلاء، والرَّخص: الناعم يقال له: رخص الجسد بين الرخاصة والرخوصة، قال ابن منظور:

الرخص: الشيء الناعم اللين إن وصفت به المرأة فرُخصانها نعمة بشرتها ورقتها، وكذلك رخاصة أناملها لينها (لسان العرب ٧/ ٤٠).

قال أبو محمد: فى هذا الفصل آيات من البلاء شنيعة نعوذ بالله من قليل الضلال وكثيره.

فأوّل ذلك إخباره أن الله تعالى تجلّى لإبراهيم وأنه رأى الثلاثة النفر فأسرع إليهم وسجد وخاطبهم بالعبودية، فإن كان أولئك الثلاثة هم الله فهذا هو التثليث بعينه بلا كلفة بل هو أشد من التثليث؛ لأنه إخبار بشخوص ثلاثة والنصارى يهربون من التشخيص، وقد رأيت فى بعض كتب النصارى الاحتجاج بهذه القضية فى إثبات التثليث، وهذا كما ترى فى غاية الفضيحة. وإن كان أولئك الثلاثة ملائكة وهكذا يقولون فعليهم فى ذلك أيضًا فضائح عظيمة، وكذب فاحش من وجوه.

أولها: من المحال والكذب أن يخبر بأن الله تعالى تجلّى له، وإنما تجلّى له ثلاثة من الملائكة.

وثانيها: أنه يخاطب أولئك الملائكة بخطاب الواحد، وهذا مما يزيد فى ضلال النصارى فى هذا الفصل، وهذا أيضًا محال فى الخطاب.

وثالثها: سجوده للملائكة فإنّ من الباطل أن يسجد رسول الله ﷺ وخليله لغير الله تعالى ولمخلوق مثله، فهذه كذبة. وإن قالوا بل لله سجد فهذه كذبة، ولابد، أو يكون الله عندهم هم الثلاثة المتجلون. لابدّ من إحداها، وعادت البلية أشد ما كانت.

ورابعها: خطابه لهم بأنه عبدهم؛ فإن كان المخاطب بذلك هو الله تعالى وهو المتجلى له فقد عادت البلية، وإن كان المخاطبون بذلك الملائكة فحاشا لله أن يخاطب إبراهيم عليه السلام بالعبودية غير الله تعالى ومخلوقًا مثله، مع أن من المحال أن يخاطب ثلاثة بخطاب واحد.

وخامسها: قوله: «يؤخذ قليل من ماء ويغسل أرجلكم، وأقدم كسرة من الخبز تشتد بها قلوبكم».

فهذه الحالة لئن كان خاطب بهذا الخطاب الله تعالى فهى التي لا سوى لها ولا بقية بعدها، والتى تملأ الفم، وإن كان خاطب بذلك الملائكة فهذا أكذب، لأن إبراهيم عليه السلام لا يجهل أن الملائكة لا تشتد قلوبهم بأكل كسر الخبز. فهذه على كل حال كذبة باردة سمجة. فإن قالوا: ظنهم ناسًا. قلنا: هذا كذب لأن فى أول الخبر يخبر أن الله تجلّى له، وكيف يسجد إبراهيم ويتعبد لخاطر طريق؟ حاشا له من هذا الضلال.

وسادسها: إخباره أنهم أكلوا الخبز والشوى والسمن واللبن، وحاشا له أن يكون

هذا خبراً عن الله تعالى، لا ولا عن الملائكة، أين هذا الكذب البارد الفاضح الذى يشبه عقول اليهود المصدقين به من الحق المنير الواضح عليه ضياء اليقين من قول الله عز وجل فى هذه القصة نفسها:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [سورة هود: ٦٩، ٧٠]

هيهات نور الحق من ظلمات الكذب! والحمد لله رب العالمين كثيراً.

وفيها أيضًا وجه سابع ليس كهذه الوجوه فى الشناعة: وهو إقرارهم بأن إبراهيم أطعم الملائكة اللحم واللبن والسمن معًا. والربانيون منهم يحرّمون هذا اليومَ. فأقل ما فيه النسخ على أن يكون سلامته من أطم الدّواهى، والسلامة والله منهم بعيدة.

فصل

بشرى إبراهيم بإنجاب ولد

ثم قال متصلاً بهذا الفصل: «وقالوا له: أين سَارَة زوجتك؟ فقال: ها هى ذه فى الخباء. قال: سأرجع إليك مثل هذا الوقت من قابل ويكون لها ابن، وسارة تسمع فى الخباء وهو وراءها، وكان إبراهيم وسارة شيخين قد طعنا فى السن، وانتهى لسارة أن لا يكون لها عادة كالنساء فضحكت سارة فى نفسها قائلة: أبعد أن يليت يصير لى ذا وسيدي شيخ؟! قال الله لإبراهيم: لما ضحكت سارة قائلة هل لى أن ألد وأنا عجوز وهلى يخفى عن الله أمرى فى هذا الوقت إذْ قال عزَّ من قائل: يكون لسارة ابن فجحدت سارة وقالت: لم أضحك لأنها خافت، وقال السيد: ليس كما تقولين بل قد ضحكت فقام القوم من ثَمَّ».

قال أبو محمد: عاد الخبر بين سارة وإبراهيم وبين الله عزَّ وجل وعاد الحديث الماضى، ثم فى هذا زيادة: أن الله تعالى قال: «إنَّ سارة ضحكت» وقالت سارة: لم أضحك. فقال الله: بلى، قد ضحكت. فهذه مراجعة الخصوم وتعارض الأكفاء، حاشا لسارة الفاضلة المنبأة من الله عز وجل بالبشارة من أن تكذب الله عزَّ وجل فيما يقول، وتكذب هى في ذلك فتجحد ما فعلت، فتجمع بين سوأتين، إحداهما كبيرة من الكبائر، قد نزه الله عزَّ وجل الصالحين عنها، فكيف الأنبياء؟ والأخرى أدهى وأمر، وهى التى لا يفعلها مؤمن ولو أنه أفسق أهل الأرض لأنها كفر، ونعوذ بالله من الضلال.

فصل

وبعد ذلـك وصف أن الملكين باتا عند لوط، وأكلا عنده الخبز الفطيـر، وأن لوطًا سجـد لهما عـلى وجه الأرض وتعبـد لهما، وقـد مضى مـثل هذا وأنه كذب، وأن الملائكة لا تأكل فطيرًا، ولا مختمرًا، وأن الأنبيـاء عليهم السلام لا يسجدون لغير الله تعالى، ولا يتعبدون لسواه.

فصل

طلب إبراهيم من ربه عدم هلاك قوم لوط جميعًا

وذكر أن إبراهيم عليـه السلام قال لله عزَّ وجل إذ ذكر له هـلاك قوم لوط فى كلام كثيـر: «أنت معاذٌ من أن تصنع هذا الأمر لا تقتل الصـالح مع الطالح فيكون الصالح كالطالح فأنت معاذ يا حاكم جميع العالم من هذا».

ولم ينكر الله تعالى عليه هذا القول. وقال بعد ذلك:

«إن الملكين قـالا للوط انظر مَنْ لَكَ هُنا من صـهـر بنيك وبناتِك وكل مـا لك فى القريةِ أخْرِجْهم مِن هَذا الموضع لأنَّا مهلكو هذا الموضع».

وقال بعد ذلك: «إن لوطًـا كلَّم أصهاره المتزوجين بناته» وقـال لهم: «اخرجُوا من هذا الموضع فإن الله مُهلكهم، وأنه صار عندهم كاللاعب».

ثم قال بعـد ذلك: «إن الملائكة أمسكوا بيـد لوط وبيد زوجـته وابنتيـه لشفـقة الله عليهم وأخرجوهم خارج القرية، ثم ذكر هلاك القريةِ بكل ما فيها».

قال أبو محمد: لا يخلو أصهار لوط وبنوه وبناته الناكحات من أن يكونوا صالحين أو طالحين، فإن كـانوا صالحين فـقد هلكوا مع الطالحـين، وبطل عقد الله تعـالى مع إبراهيم فى ذلك، وحاشا لله من هذا. وإن كـانوا طالحين فكيف تأمر الملائكة بإخراج الطالحين، وهم كانوا مبعوثين لهلاكهم؟ فلابدّ من الكذب فى أحد الوجهين، وبالجملة فأخبارهم معفونة جدًا.

فصل

ادعاء التوراة على لوط عليه السلام بمضاجعة ابنتيه

وبعد ذلك قال: «وأقـام لوط فى المغارة هو وابنتاه فقالت الكبـرى للصغرى: أبونا شَيَخٌ وليس فى الأرضِ أحـدٌ يأتينا كسبَيلَ النساء، تعالى نسق أبانـا الخَمْرَ ونضاجـعه

ونستبق منه نسلاً فسقتا أباهمـا خمراً فى تلك الليلة فأتت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنومها ولا بقـيامها فلما كان مـن الغد قالت الكبرى للصغرى قـد ضاجعت أبى أمس تعالى تسقيه الخـمر هذه الليلة وضاجعيه أنت، ونستبقى من أبينا نسـلاً. فسقتاه تلك الليلة خمراً، وأتت الصـغرى فضاجعتـه ولم يعلم بنومها ولا بقيامـها، وحملت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت الكبرى ابنًا وسمته «مؤاب»، وهو أبو المؤابيين إلى اليوم، وولدت الصغرى ابنًا سمته «عمـون» وهو أبو العمونيين إلى اليوم. وفى السفر الخامس من التوراة بزعـمهم أن موسى قال لبنى إسـرائيل: «إن الله تعالى قال: لما انتـهينا إلى صحراء بنى مؤاب قال لى: لا تحارب بنى مؤاب ولا تقـاتلهم فإنى لم أجعل لكم فيما تحت أيديهم سهـمًا لأنى قد ورثت بنى لوط (ادوا) وجـعلتها مـسكنًا لهم» ثم ذكر أن موسى قال لهم: «إن الله تعـالى قال له أيضًا أنت تخلف اليوم حـوز بنى مؤاب المدينة التى تدعى عاد، وتنزل فى حـوز بنى عمون فلا تحاربهم، ولا تقـاتل أحداً منهم فإنى لم أجعل لكم تحت أيديهم سهمًا لأنهم من بنى لوط، وقد ورثتهم تلك الأرض».

قال أبو محمد: فى هذه الفصول فضائح وسوآت تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام.

فأولها: ما ذكر عن بنتى لوط عليه السلام من قولهما: «ليس أحد فى الأرض يأتينا كسبيل النساء، تعالَى نسق أبانا خمراً، ونضاجـعه ونستبق منه نسلاً» فهذا كلام أحمق فى غاية الكذب والـبرد؛ أترى كان انقطع نسل ولد آدم كله حـتى لم يبق فى الأرض أحد يضـاجعهمـا؟ إنَّ هذا لعجب فكيف والموضع معـروف إلى اليوم؟ ليس بين تلك المغارة التى كان فيها لوط عليه السـلام مع بنتيه، وبين قرية سكنى إبراهيم عليه السلام إلاَّ فرسخ واحد لا يزيد، وهو ثلاثة أميال فقط - فهذه سوأة -.

والثانية: إطلاق الكذاب الواضع لهم هذه الخرافـة لعنه الله -هذه الطومة[1]- على الله عز وجل من أنه أطلق نبيَّه ورسوله ﷺ على هذه الفاحشة العظيمة من وطء ابنتيه واحدة بعد أخرى.

فإن قـالوا: لا ملامة عليه فى ذلك لأنه فـعل ذلك وهو سكران، وهو لا يعلم من هما، قلنا: فكيف عمل إذ رآهما حاملتين؟ وإذ رآهما قد ولدتا ولدين لغير رشدة؟ وإذ رآهما تربيان أولاد الزنى؟.

(١) طمَّ: الماء يطم طمًّا وطمومًا: علا وغمر، الطامة: الداهية تغلب ما سواها، وطم الإناء طمًّا ملأه.. ولسان العرب ١٢/ ٣٧٠، ومختار الصحاح (١/ ١٦٧).

هذه فضـائح الأبد، وتوليد الزنادقـة المبالغين فى الاستـخفاف بالله تـعالى وبرسله عليهم السلام.

والثالثة: إطلاقهم على الله تعالى أنه نسب أولادَ ذينك الزنيمين[١] فرخى الزنى إلى ولادة لوط عليه السلام، حـتى ورثهما بلدين كما ورث بنى إسرائيل وبنى عـيسو ابنى إسحاق سواء بسواء. تعالى الله عن هذا علواً كبيراً.

فإن قالوا: كان مباحًا حـينئذ. قلنا: فقد صح النسخ الذى تنكرونه بلا كلفة. وقال قبل هذا: «إن إبراهيم إذ أمـره الله تعالى بالمسـير من حران إلى أرض كنعـان أخذ مع نفســه امرأته سارة، وابن أخـيه لوط بن هاران، وذكروا فى بعض توراتهم أنه كلمـته الملائكة، وأن الله تعـالى أرسلهم إليـه، فصح بإقـرارهم أنه نبى الله عـزّ وجل، وهم يقولـون: إنه بقى فى تلك المغارة شـريدًا طريدًا فقـيراً لا شىء له يرجع إليـه. فكيف يدخل فى عقل مـن له أقل إيمان أن إبراهيم عليه السلام يـترك ابن أخيـه الذى تغرب معه، وآمن به، ثم تنبأ مـثله يضيع ويسكن فى مغارة مع ابنتيه فـقيراً هالكًا وهو على ثلاثـة أميـال منه؟! وإبراهيم على ما ذكر فى التـوراة عظيم المال، مفرط الغنى، كثـير اليسار من الذهب والفضة، والعبيد والإماء، والجمال والبقر والغنم والحمير، ويقولون فى توراتهم: اسـتنقذوه وماله. فكـيف يضيعـه بعد ذلك هذا التـضييع؟ لـيست هذه صفات الأنبياء ولا كرامتهم ولا صـفات من فيه شىء من الخير؛ لكن صفات الكلاب الذى وضعوا لهم هذه الخرافات الباردة التى لا فائدة فيها، ولا موعظة، ولا عبرة حتى ضلوا بها، ونعوذ بالله من الخذلان.

فصل

أسر فرعون لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام

فى موضعين من توراتهم المبدَّلة: أنَّ سارة امـرأة إبراهيم عليه السلام أخذها فرعون ملك مصر، وأخـذها ملك الخلَص أبو مالك مرة ثانية، وأن الله سبـحانه وتعالى أرى الملكين فى منامـهما مـا أوجبَ ردّها إلى إبراهيم عليه السـلام. وذكر أن سنَّ إبراهيم عليه السلام إذ انحدر من «حران»[٢] خمسة وسبعـون عامًا، وأن إسحاق ولد له وهو

(١) الزنيم: الدعى الملصق بالقوم، وليس منهم وقـيل الذي يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشـاة بزنمتها. لسان العرب (١٢/٢٧٧).

(٢) حـرّان بتشـديد الراء وآخره نون يجـوز أن يكون فـعالاً من حـرن الفرس إذا لم ينقد ويجـوز أن =

ابن مائة سنة، ولسارة إذ ولد تسعون عامًا فصح أنه كان يزيد عليها عشر سنين. وذكر أن ملك الخَلْص أخذها بعد أن ولدت إسحاق -وهى عـجوز مسنة بإقرارها بلسانها إذ بشر بإسحـاق- فكيف بعد أن ولدت وقد جاوزت تسعين عـامًا؟ ومن المحال أن تكون فى هذا السن تفتن مـلكًا، وأن إبراهيم قـال فى كلتـا المرتين هى أختـى، وذكـر عن إبراهيم أنه قال للملك هى أختى بنت أبى ليست من أمى فـصارت لى زوجة. فنسبوا فى نص توراتهم إلى إبراهيم عليه السلام أنه تزّوج أخته. وقد وقفت على هذا الكلام من بعض من شـاهدنـاه منهم، وهو إسـمـاعـيل بن يوسف الكـاتب المعـروف بابن النغرالى، فـقال لى: إن نص اللفظة فى التـوراة «أخت» وهى لفظة تقع فى العبـرانية على الأخت وعلى القـريبة، فـقلت: يمنع من صـرف هذه اللفظة إلى القريبـة ها هنا قوله: «لكن ليست من أمى وإنما بنت أبى». فوجب أنه أراد الأخت بنت الأب. وأقل ما فى هذا إثبات النسخ الذى تفرون منه. فخلط ولـم يأتِ بشىء.

فصل

إبراهيم عليه السلام له أكثر من زوجة

ثم ذكرت مـوت سارة وقال: «تـزوّج إبراهيم عليه السلام امـرأة اسمـها «قطورة» وولدت له «زِمْرَان» و«يقـشان» و«مدان» و«مديان» و«يِشْبق» و«شـوحا» وأعطى إبراهيم جميع ماله لإِسحاق، وأعطى بنى الإِماء عطايا وأبعدهم عن إسحاق».

قال أبو مـحمد: هذا نص الكلام كله متتـابعًا مرتبًا، ولم يذكر له زوجـة فى حياة «سارة»، ولا أمة لها ولد إلا «هاجر» أم إسماعـيل عليه السلام، ولا ذكر له بعد سارة زوجة ولا أمة، ولا ولدًا غير «قطورة» وبنيـها، وفى كتبهم أن «قطورة» هذه بنت ملك «الربذ»[1] وهو موضع «عـمان» اليوم بقـرب البلقاء[2]، وهذه أخبـار يكذب بعضـها بعضًا.

= يكون فعلان من الحر، وهي مدينة عـظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصـبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم (معجم البلدان ٢/ ٢٣٥).

(١) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عـرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيدتريد مكة (معجم البلدان ٣/ ٢٤).

(٢) كورة من أعمال دمـشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عـمان وفيها قرى كثيـرة ومزارع واسعة ... (معجم البلدان (١/ ٤٨٩).

فصل

ثم ذكر أن «رفقة» بنت شوال بن تارح زوجة إسحاق عليه السلام كانت عاقرًا. قال فشفعه الله وحملت، وازدحم الولدان فى بطنها وقالت: لو علمت أن الأمر هكذا كان يكون ما طلبته. ومضت لتلتمس علمًا من الله عز وجل. فقال لها: فى بطنك أُمّتان وحزبان يفترقان منه، أحدهما أكبر من الآخر، والكبير يخدم الصغير. فلما كانت أيام الولادة إذا بتوأمين فى بطنها وخرج الأول أحمر كله كفروة من شعر فسمى «عيسو» وبعد ذلك خرج أخوه ويده ممسكة بعقب «عيسو» فسماه «يعقوب».

قال أبو محمد: لا مؤونة على هؤلاء السفلة فى أن ينسبوا الكذب إلى الله عز وجل، وحاشا لله أن يكذب، ولا خلاف بينهم فى أن «عيسو» لم يخدم قط «يعقوب»، أن بنى عيسو لم تخدم قط بنى يعقوب، بل فى التوراة نصًا: أن «يعقوب» سجد على الأرض سبع مرات «لعيسو» إذ رآه. وأن يعقوب لم يخاطب «عيسو» إلا بالعبودية والتذلل المفرط وأن جميع أولاد يعقوب حاشا «بنيامين» الذى لم يكن ولد بعد كلهم سجدوا لعيسو. وأن «يعقوب» أهدى لعيسو -مداراة له- خمسمائة رأس وخمسين رأسًا من إبل وبقر وحمير وضأن ومعز، وأن يعقوب رآها منه عظيمة إذ قبلها منه، وأن بنى عيسو لم تزل أيديهم على أقفاء بنى إسرائيل من أول دولتهم إلى انقطاعها، إما يتملكون عليهم، أو يكونون على السواء معهم، وأن بني إسرائيل لم يملكوا قط أيام دولتهم بنى عيسو. فاعجبوا لهذه الفضائح أيها المسلمون، واحمدوا الله على السلامة مما ابتلى به غيركم من الضلال والعمى.

فصل

طلب إسحاق من ابنه عيسو أن يصيد صيدًا

ثم ذكر أن إسحاق قال لابنه «عيسو»: يا بنى قد شخت ولا أعلم يوم موتى فاخرج وصد لى صيدًا، واصنع لى منه طعامًا كما أحب، وائتنى به لآكله كى تباركك نفسى قبل أن أموت، وأن «رفقة» أم عيسو ويعقوب، أمرت يعقوب ابنها أن يأخذ جديين، وتصنع هى منهما طعامًا، ويأتى يعقوب إلى إسحاق أبيه ليأكله ويبارك عليه، وأن يعقوب قال لأمه: إن عيسو أخى أشعر وأنا أجرد، لعل أبى أن يحس بي وأكون عنده كاللاعب وأجلب على نفسى لعنة لا بركة، فقالت له أمه: علىّ استدقاع لعنتك. وأن يعقوب فعل ما أمرته به أمه، فأخذت هى ثياب عيسو ابنها الأكبر وألبستها يعقوب،

وجعلت جلود الجديين على يديه وعلى حلقه، وأعطته الـطعام. جاء به إلى أبيه: فقال له: يا أبى. فقـال له إسحاق: من أنت يا ولدى؟ قـال يعقوب: أنا ابنك عيـسو بكرك صنعت جميع مـا قلت لى، فأجلس وتأكل من صيدى لتبارك عـلىّ. وأن إسحاق قال ليعقوب: تقدم حـتى أجسّك يا بنى، هل أنت ابنى عيسو أم لا؟ فتقدم يعـقوب فجسه إسحـاق وقال: الصوت صـوت يعقوب واليـدان يدا عيسـو. وقال: هل أنت هو ابنى عيـسو؟ فقال: أنا. فـبارك عليه وقـال له فى بركته تلك: تخـدمك الأمم وتخضع لك الشعوب، وتكون مولى إخوتك، وتسجد لك بنو أمك. ثم ذكر أن «عيسو» أتى بالصيد إلى إسحاق، فلـما عرف إسحاق القـصة قال لعيـسو عن يعقوب: قد صـيّرته سلطانًا وجعلت جـميع إخوته عبـيدًا، فرغب إليـه عيسو فى أن يبـاركه أيضًا ففـعل وقال فى بركته: «هو ذا بلا دَسـمِ الأرض يكون مسكنك؛ وبلا نَدَى السماء من فـوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حينما تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك».

قال أبو محمد:وفى هذا الفصل فضائح وأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات.

فأول ذلك: إطلاقهم على نبى الله يعقوب عليـه السلام أنه خدع أباه وغشه، وهذا مبعد عمن فيه خـير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء، فكيف من نبى مع أبيه النبى أيضًـا؟ هذه سوءات مـضاعـفـات. أين ظلمة هذا الكـذب من نور الصدق فى قـوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾[سورة البقرة: ٩].

وثانية: وهى إخبارهم أن بركـة يعقوب إنما كانت مـسروقة مأخـوذة بغش وخديعة وتخابث. وحاشا للأنبياء عليهم السلام من هذا. ولعمرى إنها لطريقة اليهود فما تلقى منهم إلاَّ الخبيث المخادع إلاَّ الشاذ.

وثالثة: وهى إخبارهم أن الله تعالى أجرى حكمـه وأعطى نعمته على طريق الغش والخديعة. وحاشا لله من هذا.

ورابعة: وهى التى لا يشك أحـد فى أن إسحـاق عليه السـلام إذ بارك يعـقوب إذ خدعه - يزعم النذل الذى كتب لهم هذا الهوس إنما قصد بتلك البركة عيسو وله دعا لا ليعقوب، فأى مـنفعة للخديعة ها هنا لو كان لهم عقل؟ وما أشـبه هذه العقول فى هذه القضية بحـمق الغالية من الرافضة القائلين: **إن الله** تعالى بـعث جبريل إلى على فأخطأ جبريل وأتى إلى محمد، وهكذا بارك إسحاق عـلى عيسو فأخطأت البركة ومضت إلى يعقوب. فعلى كلتا الطائفتين لعنة الله. فهذه وجوه الخبث والغش فى هذه القضية.

وأمَّا وجوه الكذب فكثيرة جدًا، من ذلك: نسبتهم الكذب إلى يعقوب عليه السلام وهو نبى الله تعالى ورسوله فى أربعة مواضع:

أولها: قوله لأبيه إسحاق أنا ابنك «عيسو» وبكرك. فهذه كذبتان فى نسق لأنه لم يكن ابنه «عيسو» ولا كان بكره.

وثالثة: قوله لأبيه: صنعت جميع ما قلت لى فاجلس وكل من صيدى فهذه كذبتان فى نسق، لأنه لم يكن قال له شيئًا ولا أطعمه من صيده.

وكذبات أخر: وهى بطلان بركة إسحاق إذ قال له «تخدمك الأمم، وتخضع الشعوب وتكون مولى إخوتك، ويسجد لك بنو أبيك» وقوله لعيسو: «ولأخيك تستبعد» وهذه كذبات متواليات، والله ما خدمت الأمم قط «يعقوب» ولا بنيه بعده، ولا خضعت لهم الشعوب، ولا كانوا موالى إخوتهم، ولا سجد لهم ولا له بنو أبيه بل بنو إسرائيل خدموا الأمم فى كل بلدة وفى كل أمة، وهم خضعوا للشعوب قديمًا وحديثًا فى أيام دولتهم وبعدها. فإن قالوا سيكون هذا قلنا لهم:

قد حصلتم على الصِّغار قديمًا والأمانى بضائع السخفاء

هيهات:

تَرَجَّى ربيع أن ستحيا صغارها بخير وقد أعيا ربيعًا كبارُها

لا سيما مع تقضى جميع الآماد التى كانوا ينبئون بأنها لا تنقضى حتى يرجع أمرهم، واعلموا أن كل أمة أدبرت فإنهم ينتظرون من العودة، ويعنون أنفسهم من الرجعة بمثل ما تُمنِّى به بنو إسرائيل أنفسهم، ويذكرون فى ذلك مواعيد كمواعيدهم، فأمل كأمل ولا فرق، كانتظار مجوس الفرس «بهرام هماوند» راكب البقرة، وانتظار الروافض للمهدى، وانتظار النصارى الذين ينتظرون فى السحاب، وانتظار الصابئين أيضًا لقصة أخرى، وانتظار غيرهم للسفيانى.

تمنٍّ يلذ المستهام بمثله وإن كان لا يغنى فتيلاً ولا يجدى
وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا ولكنَّه غيظ الأسير على القدِّ

وأما قوله «تكون مولى إخوتك ويسجد لك بنو أبيك» فلعمرى لقد صح ضد ذلك جهارًا، إذ فى توراتهم أن «يعقوب» كان راعى ابن عمه «لابان» بن ناحور بن لامك وخادمه عشرين سنة، وأنه بعد ذلك سجد له وجميع ولده حاشا من لم يكن خلق

منهم بعد لأخيه «عيسو» مراراً كثيرة، وما سجد «عيسو» قط ليعقوب قط ولا ملك قط أحد من بنى يعقوب بنى عيسو، وأن يعقوب تـعبد لعيسوى فى جميع خطاب له، وما تعبد قط عيسـو ليعقوب، وسأله «عيسو» عن أولاده فقـال له يعقوب: هم أصاغر منَّ الله بهم على عـبدك، وأن يعـقوب طلب رضـا «عيـسو» وقـال له: «إنى نظرت إلى وجهك كمن نظر إلى بهجة الله فارض عنّى واقبل ما أهديت إليك» وأن عيسو بالحرىّ قبل هدية يعقوب حينئذ، فما نرى عيـسو وبنيه إلاَّ موالي يعقوب وبنيه، وكذلك ملك بنو عيسو بإقرار توراتهم ميراثهم بسـاعير وهى جبال الشراة، وبنو لوط ميراثهم بمواب وعمان، قبل أن يملك بنو إسرائيل ميراثهم بفلسطين والأردن بدهرٍ طويلٍ، ثم لم يزالوا يتغلبون على بنى إسرائيل أو يساوونهم طول دولة بنى إسرائيل بإقرار كتبهم، وما ملك بنو إسرائيل قط بنى عيسـو، ولا بنى لوط، ولا بنى إسرائيل بإقرارهم، ولقد بقى بنو عيسو وبنو لوط بإقـرار كتبهم فى ميراثهم بساعير ومـؤاب وعمان بعد هلاك دولة بنى إسرائيل وأخـرجهم عن ميـراثهم ثم ملكهم بنو إسمـاعيل إلى اليوم، فـما نرى تلك البـركة كـانت إلاَّ معكوسـة. ونعوذ بالله من الخـذلان، ولكن حق البركـة المسـروقة المأخوذة بالخبث فى زعمهم أن تخرج معكوسة منكوسة.

فصل

ذكر خدمة يعقوب لخاله لابان

ثم ذكر أن يعقـوب إذ مضى إلى خاله «لابان بن بثوال» خطب إليـه ابنته «راحيل» وقال له: أخـدمك سبع سنين فى «راحيـل» ابنتك الصغرى، فـقال له: «لابان»: «أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها رجلاً آخر. أقم عندى».

وخدم «يعقوب» فى «راحيل» سبع سنين، وصارت عنده أيامًا يسيرة فى محل لها، وقال «يعـقوب» «للابان»: أعطنى زوجـتى إذ قد كـملت أيامى، فأدخل بهـا، وجمع «لابان» جميع أهل الموضع وصنع وليمة، فلما كان بالعشى أخذ «ليئة» ابنته وزفها إليه ودخل بها، فلمـا كان بالغد ورأى أنهـا «ليئة» قال «لـلابان»: ماذا صنعت؟ أليس فى «راحيل» خدمتك؟ فلم خدعتنى؟ فقال «لابان»: لا نصنع هكذا فى موضعنا: أن نزوج الصغرى قـبل الكبرى، أكمل أسبوع هذه، وأعطـيك أيضًا هذه بخدمة تخدمـها سبع سنين أخرى، وصنع «يعقوب» كذلك، وأكمل أسبوع «ليئة» وأعطى راحيل ابنته لتكون له زوجة.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل آبدة[1] الدهر: وهى إقرارهم أن «يعـقوب» عليه السلام تزوج «راحيل»، فـأدخلت عليه غيرها، فحصلت «ليـئة» إلى جنبه بلا نكاح، وولد لها منه ستة ذكور وابنة، وهذا هو الزنى بعينه، أخـذ امرأة لم يتزوجها بخديعة، وقد أعاذ الله نبـيه من هذه السوأة، وأعاذ أنبياءه عليـهم السلام «موسى وهارون وداود وسليمـان» من أن يكونوا من مـثل هذه الولادة، وهذا يشهـد ضرورة أنها من تـوليد زنديق متلاعب بالديانات.

فإن قـالوا: لابد أنه قد تزوجـها إذ يعلم أنهـا ليست التى تزوج. قلنـا: فعلى أن يسمح لكم بهذا فقد دخل بها بغير نكاح، لأنه ذكر أنه لم يدر أنها «ليئة» إلا بالغداة، وقد صـرّح بالدخول بها، إلا أن يقـولوا: لم يدخل بها بل علم أنها ليـست «راحيل» فـإن قلتم هذا كـذبتم النص فى قـوله «دخل بها فلـما كـان بالغـداة» فليس لكم من الفضحية بد، وإن سكتّم عن هذا فالنسخ ثابت ولابدّ، لأن نكاح أختين معًا حرام فى توراتكم، وقـد قال لى بعـضهم فى هذا: لم تكن الشـرائع نازلة من الله تعالـى قبل موسى. فـقلت: هذا كذب، أليس فى نص تـوراتكم: أن الله تعالى قال لنـوح عليه السلام: «كل دبيب حى يكون أكله كـخضراء العشب أعطيـتكم، لكن اللحم بدمه لا تأكلوه، وأمّا دماؤكم فى أنفسكم فسأطلبها».

فهذه شريعة إباحة وتحريم قبل موسى عليه السلام.

فصل

عودة يعقوب من رحلته

وبعد ذلك ذكـر أن «يعقوب» رجع من عند خاله «لابان» بنسـائه وأولاده قال: ولما أصبح أجاز امرأتيه وجاريتـه وأحد عشر من ولده المخاضة[2]، وبقي وحده، وصارعه رجل إلى الصبح، فلمـا عجز عنه ضـرب حُقّ فخذه فـانخلع حقّ فخذ يعـقوب فى مصـارعته معـه، وقال له خلّنى لأنه قد طلع الفـجر، قال: لست أدعك حـتى تبارك

(١) الآبدة: الداهية تبقى على الأبد، والآبدة: الكلمة أو الفعلة الغـريبة، وجاء فلان بآبدة أيْ بداهية يبقىَ ذكرها على الأبد (لسان العرب ٣/ ٦٩).

(٢) المخاض: من النهر الكبير: الموضع القليل الماء الذي يعبر فيه الناس النهر مشياة وركبانًا (ج) (مخاض، ومخاوض). الوسيط (١/ ٢٦٢).

عليّ، فقال له كيف اسمك؟ قال: «يعقوب». قال له: لست تدعى من اليوم «يعقوب» بل «إسـرائيـل» من أجل أنك كنت قـويًا عـلى الله، فكيف على النـاس؟ فـقـال له «يعقـوب»: عرفنى باسـمك. فقال له: لـم تسألنى عن اسمى؟ وبارك عـليه فى ذلك الموضع، فسمّى يعقوبُ ذلك الموضع «فنيئيل» وقال: رأيت الله تعالى مواجهة وسلمت نفسى، وبزغت له الشمس بعد أن جاوز «فنـيئيل» وهو يعرج من رجله ولهذا لا يأكل بنو إسرائيل العـقب الذى على حُقِّ الفخذ إلى اليـوم، لأنه ضرب حق فخذ يعـقوب لمسّ الله وانقباضه.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل شنعة عفت على كل مـا سلفت يقشعر منها جلود أهل العقول، وبالله العظيم لولا أن الله عزَّ وجل قـصَّ علينا كفرهم بقولهم ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ [سـورة المائـدة: ٦٤] وبقـولهـم:﴿**إِنَّ اللَّـهَ فَقِـيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَـاءُ**﴾ [سورة آل عمـران: ١٨١] لما نطقت ألسنتنا بحكاية هذه العظائم، لكـنا نحكيه منكرين له، كـما نتلوه فيما نصّه عزَّ وجل تحذيرًا من إفكهم.

قال أبو مـحمد: ذكر فى هذا المكان أن يعقـوب صارع الله عزَّ وجل تعالى الله عن ذلك، وعن كل شـبـهـة لخلقـه، فكيف عن لـعب الصـراع الذى لا يفـعله إلاَّ أهل البطالة؟! وأما أهل العقول فلا يفعلونه لغيـر ضرورة. ثم لم يكتفوا بهذه الشوهة حتى قالوا: إن الله عز وجل عجز عن أن يصرع «يعقوب» بنص كلام توراتهم، وحقق ذلك قولهم عن الله تعالى أنه قال له: «كنت قويًا على الله تعالى فكيف على الناس؟!».

ولقد أخبرنى بعض أهل البـصر بالعبرانية أنه لذلك سمّـاه إسرائيل. و«إيل» بلغتهم هو اسم الله تعالى بلا شك ولا خلاف. فمعنـاه «إِسرُ الله» تذكيرًا بذلك الضبط الذى كان بعد المصارعة، إذ قال له: دعنى. فقال له «يعقوب»: لا أدعك حتى تبارك عليَّ. ولقد ضربت بهذا الفصل وجوه المتعرضين منهم للجدال فى كل محفل، فثبتوا على أن نصَّ التوراة أن «يعقوب» صارع «ألوهيم» وقال: إن لفظ «ألوهيم» يعبر بها عن الملَك، فإنما صارع مَلَكًا مـن الملائكة. فقلت لهم: سياق الكلام يبطل مـا تقولون ضرورة أن فيه: «كنت قـويًا على الله فكيف على الناس؟». وفيه أن «يعـقوب» قال: «رأيت الله مواجهة وسلّمت نفسى» ولا يمكن ألبتـة أن يعجب من سلامة نفسه إذ رأى الملك! ولا يبلغ من مَسِّ الملك -كما نصَّ يعقوب- أن يُحَـرِّم على بنى إسرائيل أكل عروق الفخذ إلى الأبد من أجل ذلك. وفيـه: أنه سمّى الموضع بذلك «فنيئيل» لأنه قـابل فيه «إيل» وهو الله عز وجل بلا احتمال عندكم.

ثم لو كـان مَلَكًا - كمـا تدعون عن المناظـرة - لكان أيضًا من الخطأ تصـارع نبى وملك لغير معنى. فهذه صفة المتحدين فى العنصر لا صفة الملائكة والأنبياء.

فـإن قيل: قـد رويتم أنَّ نبيكـم صارع «ركـانة بن عبـد يزيد»(١). قلنا: نعم لأن «ركانة» كان من القـوة بحيث لا يجد أحدًا يقاومه فى جـزيرة العرب ولم يكن رسول الله ﷺ موصوفًا بـالقوة الزائدة فدعاه إلى الإسلام فقـال له: إن صرعتنى آمنت بك، ورأى أن هذا من المعـجزات فـأمره عليـه السلام بالتـأهب لذلك، ثم صرعـه للوقت وأسلم «ركانة» بعـد مدة. فبين الأمـرين فرق، كمـا بين العقل والحمق، ولكل مـقام مقال، ولكن إذا أكل الملائكة عندكم كسر الخبز حتى تشتد بها قلوبهم، والشواء واللبن والسمن والفطائر، فما ينكر بعضـهم للصراع مع الناس فى الطرقات!! وهذه مصائب شاهدة بضلالهم وخذلانهم وصحة اليقين بأن توراتهم مبدّلـة.

فصل

الفصل المذكـور أن الله تعالى قـال ليعقـوب: «لست تدعى من اليوم يعـقوب لكن إسرائيل».

ثم فى السـفر الثانى مـن توراتهم: قال الله تعـالى: «قل لآل يعقوب وعـرف بنى إسرائيل». فقد سماه بعد ذلك «يعقوب» وهذه نسبة الكذب إلى الله تعالى.

فصل

ثم قال: وبيـنا «إسرائيل» بذلك الموضع ضـاجع رؤوبينُ بن ليئـة سريَّة أبيـه «بلهةَ» وهى أم «دان»، و«نفتالى» وهما أخواه وابنا يعقوب ثم أكد هذا بأن ذكر فى قرب آخر السفر الأول ذكر موت «يـعقوب» عليه السلام، ومخاطبتـه لبنيه ابنًا ابنًا، وأن يعقوب قال «لـرؤوبين» ابنه: «إنك صعـدت على سرير أبيك، ووسـخت فراشـه، وليس مما ابتذلت فراشى تخلص».

(١) ركانة بن عبـد يزيد الذي صارع النبي ﷺ بمكة قبل الإسلام، وكـان أشد الناس، فقال يا مـحمد إن صرعتني آمنت بك فصرعه رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك ساحر ثم أسلم بعد وأطعمه رسول الله ﷺ ونزل المدينة مـات بها في أول خلافـة معـاوية بن أبي سفـيان . . . تهذيـب الكمال (٩/ ٢٢٣) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٥).

بعد أن ذكـر فى توراتهم: «أن شكيم بن حمـور الحوى» أخذ «دِيْنَة» بنت يعـقوب عليه السلام، واضطجع معها وأذلها، ثم بعد ذلك خطبها إلى «يعقوب» أبيها، إلى أن ذكـر قتل «لاوى» و«شـمعـون» لحمـور وشكيم ابنه، وجـمـيع أهل مدينتـه، وإنكار «يعقوب» على ابنيه قتلهما لهم.

قال أبو محمد: معاذ الله أن يخذل الله نبيه ولا يعصـمه فى حرمة امرأته وابنته من هذه الفضائح، ثم لا ينكر ذلك بأكثر من التعزير الضعيف فقط.

فصل

بعـد ذلك قال: «وأولاد يعـقوب اثنا عـشر فـأولاد ليئـة: رؤوبين بكر يعقـوب، وشمـعون، ولاوى، ويهوذا، ويسـاخر، وزبولون، وأبناء راحيـل: يوسف وبنيامين. وابنا بلهة أمـة راحيل: دان، ونفشـالى. وابنا زلفة أمة ليـئة: جادا وأشـير. هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا له بفدان آرام».

قال أبو مـحمد: هذا كذب ظاهر، لأنه ذكر قبلُ: أنّ بنيـامين لم يولد ليعقوب إلاَّ «بأفراشا» بقرب بيت لحم على أربعة أميال من بيت المقدس بعد رحيله من «فدان آرام» بدهر. والله تعالى لا يتعمد الكذب ولا ينسى هذا النسيان.

فصل

محبة يعقوب لابنه يوسف عليه السلام

وبعد ذلك قال: «وكان إسرائيل يحب يوسف لأنه كان ولد له فى شيخوخته».

قال أبو مـحمد: هذه العلة توجب محبـة بنيامين لأنه ولد له بعد يوسف بأزيد من ست سنين بنص توراتهم. وتوجب مشاركة «يساكر» و«زبولون» فى المحبة ليوسف لأنه ذكر قـبل هذا أن يعقـوب قال «للابان» خاله: «خـدمتك عشـرين سنة من ذلك أربع عشرة سنة لابنتيك وست سنين لأدواتك» وذكر أن بعد سنين أعطاه «ليئة»، وبعد سبعة أيام أعطاه «راحيل»، لم يكن بينهما إلا سبعة أيام وهو أسبوع «ليئة» فقط، وأن «ليئة» ولدت له «رؤوبين» ثم «شـمعـون» ثم «لاى» ثم «يهـوذا» ثم قعـدت عن الولد. وأنَّ «راحيل» أعطت بعد ذلك يعقـوب أمتها «بلهة» فتزوجهـا فولدت له «دانا» ثم «نفثالى» ثم أعطت «ليئـة» أمتهـا «زِلْفَة» ليـعقوب فـتزوجهـا فولدت له «جادا» ثم «أشـير» ثم

أطلقت له «راحيل» مماسة «ليئة» فى لُفّاح أخذته منها فولدت له «راحيل» «يوسف» ثم بعد ولادة «يوسف» ابتدأ «يعقوب» بمعاملة خاله «لابان» على أجرة ذكرها لرعاية غنمه فرعاها له ست سنين، هذا كله نص توراتهم، فصح أنّ «يوسف» كان له عند تمام الست سنين ست سنين فقط بلا شك. وأن جميع أولاد يعقوب حاشا بنيامين فإنما ولدوا ولابدّ فى السبع سنين التى كانت قبل الست سنين المذكورة بلا شك. والأولاد سبعة، ففى كل عشرة أشهر ولدت ولدًا لا يمكن أقل من هذا فلا شك فى أن «زبولون» لا يزيد عن «يوسف» إلاَّ سنة واحدة فقط، ولا يزيد عليه «يساكر» إلا سنتين فقط، وأقل من هذا على أن تلغى المدة التى ذكرنا أن «ليئة» قعدت فيها عن الولد، والمدة التى اعتزلها فيها «يعقوب» ولابدّ أن لها مقدارًا ما. فعلى هذا «فزبولون» و«يوسف» ولدا معًا، والمدة المذكورة تضيق عن هذه القسمة. ففى هذا الخبر كذب مقطوع به ضرورة ولابدّ. ولا يجوز قليل الكذب ولا كثيره على الله تعالى، ولا على الأنبياء. فصح أنها مفتعلة مبدلة ولو كان لهذا الخبر وجه وإن غمض، ومخرج وإن بعد، أو أمكنت فيه حيلة أو ساغ فيه تأويل ما ذكرناه، ونسأل الله تعالى العافية.

وفى توراتهم عند ذكر أولاد «عيسو» خبال شديد، وتخليط فى الأسماء والوالدات، إلاَّ أنه ربما خُرِّج على وجوه بعيدة ضعيفة، فلم نعتن بإيراده لذلك. ولكن نبهنا عليه فالأظهر الأغلب فيه الكذب وأنه إيراد جاهل بتلك القضية بلا شك. وبالله تعالى نستعين.

فصل

ذكر بيع يوسف عليه السلام

ثم ذكر بيع إخوة يوسف ليوسف، وأن إخوته كانوا مجتمعين حينئذ يرعون أذوادهم. ثم قال: «وفى ذلك الزمان اعتزل «يهوذا» عن إخوته وكان مع رجل من أهل «عَدُلاَّم» يدعى اسمه «حيرة» فبصر فى ذلك الموضع بابنه رجل كنعانى اسمه «شوع» فتزوجها وضاجعها فحملت وولدت ولدًا اسمه «عيرا» ثم حملت ووضعت ثانيًا وسماه «أونان»، ثم حملت ووضعت ثالثًا وسمته «شيلة» ثم أمسكت عن الولد فزوج «يهوذا» «عيرا» بكر ولده امرأة، وكان «عيرا» بكر «يهوذا» مذنبًا بين يدى السيد، ولذلك قتل. فقال «يهوذا» لابنه «أونان»: «ادخل إلى أمراة أخيك وضاجعها لتحيى نسله» فلما علم أنه لا ينسبُ إليه مَنْ ولد منها دخل إلى امرأة أخيه وكان يعزل عنها لئلا يولد لأخيه

منه، ولذلك أهلكه السيد للفاحشة التى اطلع عليها منه فعند ذلك قال «يهوذا» «لثامار» كَنَّته كونى أرملة فى بيت أبيك إلى أن يكبر ابنى «شيله». وكان يتوقع أن يصيبه من الموت ما أصاب أخاه إن ضاجعها، فسكنت في بيت أبيها، وبعد أيام كثيرة توفيت بنت «شوع» امرأة «يهوذا» فتصبَّر «يهوذا» وتسلى عن حزنها. وتوجه إلى جُزَّاز أغنامه مع «حيرة» صديقه العَدُلاَّمى إلى «تمْنَة». وقيل «لثامار» إن ختنك صاعد إلى «تمْنَة» ليجزَّ أغنامه، فألقت عن نفسها ثياب الأرامل وتقنعت وقعدت فى مجمع الطرق المسلوكة إلى «تمنة» فعلت ذلك مذ كبر «شيلة» ولم تزوج مه. فلما رآها «يهوذا» ظنها زانية، وكانت غطت وجهها لئلا تعرف فمال إليها، وقال: ائذنى لى فى مضاجعتك، وكان يجهل أنها كنته. فقالت: ماذا تعطينى إن أمكنتك من مضاجعتي؟ قال لها: أبعث إليك جديًا من الغنم، فقالت: نعم، إن أعطيتني رهنًا إلى أن تبعث ما وعدت. فقال لها: «يهوذا»: وما أرهنه لك؟ قالت: ارهن لى خاتمك وحزامك والعصا التى بيدك. فحبلت من مضاجعة واحدة، ثم انطلقت وألقت الشكل التى كانت فيه، وعادت إلى شكل الأرامل، وبعث «يهوذا» الجدى مع صديقه العَدُلاَّمى ليأخذ من المرأة الرهن الذى وضعه عندها. فسأل عنها إذ لم يجدها من سكان ذلك الموضع. فقال: أين المرأة القاعدة فى مجمع الطرق؟ فقالوا له: لم تكن فى هذا الموضع زانية، فانصرف إلى «يهوذا» فقال له: لم أجدها. وقال لى سكان ذلك الموضع لم تكن ها هنا زانية. فقال له «يهوذا» تأخذ ما عندها مخافة أن تكون ضحكة فإنى قد أرسلت الجدى إليها، وأنت تقول لم أجدها.

وبعد ثلاثة أشهر قيل ليهوذا: إنَّ كنَّتك «ثامار» قد زنت، وقد بدأ بطنها يظهر. فقال «يهوذا» أخرجوها لتحرق، فلمّا أخرجت بعثت إلى «يهوذا» إنما حبلت من الذى له هذا فاعرف هذا الخاتم والزنار والعصا. فلما عرف قال: هى أعدل منى إذ منعتها «شيلة» ولدى. ولم يضاجعها بعد ذلك.

فلما أدركتها الولادة ظهر فيها توأمان، ففى وقت خروجهما بدر أحدهما وأخرج يده، فربطت القابلة فى يده خيطًا أرجوانًا، وقالت: هذا يخرج أولاً. فأدخل يده على نفسه وأخرج الولد الآخر. فقالت له القابلة: لم افترصت[1] أخاك؟ فسمى «فارصًا» وبعده خرج الذى ربط فى يده الخيط الأرجوان. وسمى «زارح». تم الفصل.

---

(١) افترص: الفرصة: اغتنمها، وفلانًا ظلمًا: تمكن بالوقيعة في عرضه. الوسيط (٢/ ٦٨٢)، والمحيط (٢/ ٣٠٨).

قال أبو محمد: ثم بعد فصول وقصص ذكـر أولاد يعقوب المولودين بالشام الذين دخلوا معه مصـر إذ بعث يوسف عليه السلام فيهم كلهم. فذكـر «يهوذا» وبنيه الثلاثة الأحياء «شيلة» و«فارص» و«زارح». وذكر لفـارص هذا نفسه اثنين، وهما «حصرون» و«حامول» ابنا «فارص» بن «يهوذا» المذكور.

قال أبو محمد: ففى هذا الكلام عار وفضيحة مكذوبة وكذب فاحش مفرط القبح؛ فأمّـا العار فـالذى ذكر عن «يهـوذا» من طلبه الزنى بامـرأة لقيهـا فى الطريق على أن يعطيها جديًا، ثم جوره فى الحكم عليها بالحرق، فلما علم أنه صاحب الخَصْلَة أسقط الحكم عن نفسه وعنها.

ثم شنعة أخـرى وهى قوله: إن «ونان» بن «يهوذا» لما عـرف أنه لا ينسب إليه من يولد له من امرأته التي تزوجها بعد موت أخيه جعل يعزل عنها. وهذا عجب جداً أن تلد امـرأة رجل من زوجهـا من لا ينسب إليـه لكن إلى غـيره ممن قـد مات قـبل أن يتزوجها هذا. فلعل فيهم الآن ولادات وأنساب فى كتبهم مثل هذه.

فهذه والله أمور سمجة.

ثم دع «يهوذا» فليس نبيًا، ولا ينكر ممن ليس نبيًا مثل هذا، إنما الشأن كله والعجب فى أنهم مطبـقون بأجـمعهم قـطعًا على أن «سليـمان بن داود» عليـهما الـسلام ابن «إشمـاى» بن «عونين» بن «يـوغز» بن «بشـاى» بن «مخشـون» بن «عمـينا ذاب» بن «نورام» بن «حصـرون» بن «فارص» المذكور ابن «يهـوذا» فجعلوا الرسـولين الفاضلين مولودين من تلك الولادة الخبيثة راجعين إلى ولادة الزنى.

ثم أقـبح مـا يكون من الزنـى رجل مع امـرأة ولده - حـاشـا لله من هذا الإفـك المفترى؟! ولقد قال لى بعضهم إذ قررته علـى هذا الفصل: إن هذا كان مباحًا حينئذ، فقلت له: فلم امـتنع من مضاجعـتها بعد ذلك؟ وكـيف يكون مباحًا وهى لم تـعرفه بنفسهـا ولا عرفها عند تلك المعاملة الخـبيثة بالجدى المسـخوط، والرهن الملعون؟ وإنما وطئها على أنها زانية، إذا اغتلم[1] إليها لا على أنها امرأة الميت ولده، إلاَّ إن قلتم إن الزنى جملة كان مباحًا حينئذ فقد قرت عيونكم فسكت خزيان كالحًا.

وتالله ما رأيت أمة تقـر بالنبوّة وتنسب إلى الأنبياء ما ينسـبه هؤلاء الأنذال الكفرة، فتـارة ينسبـون إلى إبراهيم عليه السـلام أنه تزوج أختـه فولدت له إسحـاق عليهـما

(١) غلم: الغلمة بالضم: شهـوة الضراب، غلم الرجل وغيره بالكسر يغلم غلما واغـتلم اغتلامًا إذا هاج وفي المحكم: إذا غلب شهوة وكذلك الجارية لسان العرب (١٢/ ٤٣٩) (الوسيط ٢/ ٦٦٠).

السلام. ثم ينسبون إلى «يعقوب» أنه تزوج امرأة فدست إليه أخرى ليست امرأته فولدت له أولادًا منهم انتسل «موسى» و«هارون» و«داود» و«سليمان» وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام. ثم ينسبون إلى «روبان» بن «يعقوب» أنه زنى بربيبته زوج النبى أبيه، وأم أخويه، ثم ينسبون إلى «يهوذا» ما ذكرنا من زناه بامرأة ولديه فحبلت وولدت من الزنى ولدًا منه انتسل «داود» و«سليمان» عليهما السلام. ثم ينسبون إلى «يوشع بن نون» أنه تزوج «رحب» الزانية المشهورة الموقفة نفسها للزنى لكل من دبَّ ودرج فى مدينة «أريحا» ثم ينسبون إلى «عمران بن فهث بن لاوى» أنه تزوّج عمته أخت والده واسمها «يوحانذ» ولدت لجده بمصر فولد له منها «هارون وموسى» عليهما السلام. هكذا ذكر نسبها فى قرب آخر السفر الرابع ثم ينسبون إلى داود عليه السلام أنه زنى جهارًا بامرأة رجل من جنده محصنة وزوجها حى، وأنها ولدت منه من ذلك الزنى ابنًا ذكرًا، ثم مات ذلك الفرخ الطيب ثم تزوجها، وهى أم سليمان بن داود عليهما السلام. ثم ينسبون إلى «أمثون» بن داود عليهما السلام أنه فسق بسرارى أبيه علانية أمام الناس، ثم ينسبون إلى سليمان عليه السلام العهر، وأنه تزوج نساء لا يحل له زواجهن، وأنه بنى لهن بيوت الأوثان، وقرَّب لهن القرابين للأوثان. مع ما ذكرنا قبل ونذكر إن شاء الله تعالى من نسبتهم الكذب إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام. ولكن أين هذا مما فى توراتهم من نسبتهم لعب الصراع إلى الله تعالى مع «يعقوب»، والكذب المفضوح فيما وعده وأخبر به؟ فعلى من يصدق بشىء من كل هذا الإفك لعنة الله وغضبه، فاعجبوا لعظيم كفر هؤلاء القوم، وما افتراه الكفرة أسلافهم الأنتان على الله تعالى وعلى رسله عليهم السلام. ثم على كل كتاب حقق فيه شىء من هذا وعلى كاتبه لعنة الله وغضبه عدد كل شىء خلقه الله. فاحمدوا الله معاشر المسلمين على ما هداكم له من الملة الزهراء التى لم يَشُبْها تبديل ولا تحريف، والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: وأما الكذبة الفاحشة المفضوحة التى هى من المحال المحض والافتراء المجرد فهى ما أذكره إن شاء الله تعالى، فتأملوه تروا عجبًا.

ذكر فى توراتهم نصًا: أنَّ «يهوذا بن يعقوب» كان مع إخوته يرعون أذوادهم إذ باعوا أخاهم «يوسف» وأن «يهوذا» أشار عليهم ببيعه وإخراجه من الجب ليخلصه بذلك من الموت. ثم ذكر بعد ذلك أن «يهوذا» اعتزل عن إخوته وصار مع «حيرة العدلامى» ورأى ابنة رجل كنعانى اسمه «شوع» فتزوجها، وولدت له ولدًا اسمه «عير» ثم ولدًا آخر اسمه «أونان» ثم ولدًا آخر اسمه «شيلة» كما ذكرنا آنفًا حرفًا حرفًا. وذكر بعد

ذلك: أن «عيـر» تزوج امرأة اسـمها «ثامـار» ودخل بها وكـان مذنبًا ولذلـك قتله الله تعالى. فزوجهـا من أخيه «أونان» فكان يعزل عنها فمـات لذلك، وبقيت أرملة ليكبر «شيلـة» وتزوّج منه، وأن «شيلة» كـبر ولم تزوج منه. وقـد اعترف بذلـك «يهوذا» إذ قال: هي أعـدل مني إذ منعتهـا «شيلة» ابنى، وذكـر بعد ذلك أنها تحيّلت حتى زنت «بيهـوذا» نفسه والد زوجهـا وحبلت منه، وولدت منه توأمين «فارص» و«زارح» كـما ذكرنا قبل. ثم ذكر بعد ذلك نسل يعقوب وأولاد أولاده المولودين بالشام، ودخلوا معه مصر فذكر فيهم «حصرون» و«حامول» ابني فارص بن يهوذا، فاضبطوا هذا.

وذكر فى توراتهم: أن «يوسف» عليه السلام إذ بلغ ست عشرة سنة كان يرعى ذودًا مع إخوته عند أبيه، وأنهم باعوه، فصح أنه كان ابن سبع عشرة سنة إذ باعوه، وهكذا ذكر فى توراتهم.

ثم ذكر فى توراتهم: أن «يوسف» عليـه السلام كان إذ دخل على فرعـون وفسر له رؤياه فى البقرات والسنابل وولاه أمر مصر ابن ثلاثين سنة.

ثم ذكر فى توراتهم: أن «يوسف» عليه السلام كـان إذ دخل أبوه يعقوب مصر مع جميع أهله ابن تسع وثلاثين سنة. هذا منصوص فيها بلا خلاف من أحد منهم. فصح يقينًا أنه لم يكن بين دخول يعقوب مع نسله مصر، وبين بيع يوسف إلا اثنان وعشرون سنة وربما أشهر يسيرة زائدة لا أقل ولا أكثـر. هذا حساب ظاهر لا يخفى على جاهل ولا عالم.

وقد ذكـر فى توراتهم أن فى هذه المدة تزوج «يهوذا» بنت «شـوع» وولدت له ولدًا ثم ثانيًا ثم ثالثًـا. وأن الأكبر بلغ فزُوِّج زوجة ثـم مات بعد دخوله بها، فـزُوِّجت بعده من أخيه فكان يعزل عنها فمات، وبقيت مـدة حتى كبر الثالث ولم تزوّج منه فزنت «بيهوذا» والد زوجها فـولد له منها توأمان ثم وُلد لأحد ذينك التوأمـين ابنان وهذا محال ممتنع لا خفاء به، ولا يمكن ألبتة فى طبيعة بشر ولا سبيل إليه فى الجبلة والبنية بوجه من الوجوه.

هبك أن «يهوذا» اعتزل عن إخوته، وتزوج بنت شوع بإثر بيع يوسف بيوم وحبلت زوجته، وولدت له الولد الأكبر فى عامها الثانى، ثم الثانى فى عام آخر ثم الثالث فى عام ثالث.

وهبك أن الأكبر زُوِّج وله اثنا عشر عامًا فهذه ثلاثة عشر عامًا من جملة اثنين وعشرين عامًا وبقى مـعها ما بقى. ثم زوجت من الثانى وله اثنا عـشر عامًا فبقى يعـزل عنها لئلا

ينسب إلى أخيه من يولد له منها، ثم مات وبقيت تنتظر أن يكبر «شيلة» وتزوّج منه، حتى طال عليها، ورأت أنه قد كبر ولم تزوج منه. وهذا لا يكون ألبتة فى أقل من عام. فهذه أربعة عشر عامًا. ثم زنت «بيهوذا» فحملت فولدت، فهذا عام أو أقل بيسير، فلم يبق من الاثنين وعشرين عامًا إلا سبعة أعوام إلى ثمانية أعوام لا أكثر ألبتة. فمن المحال الممتنع فى العقل أن يوجد لرجل ابن ثمان سنين أو سبع سنين ولدان؟!.

ما رأيت أجهل بالحساب من الذى عمل لهم التوراة. وحاشا لله أن يكون هذا الخبر البارد الكاذب عن الله تعالى أو عن موسى عليه السلام، ولا عن إنسان يعقل ما يقول، ويستحى من تعمد الكذب الفاضح. ونسأل الله العافية.

فصل

أولاد يعقوب المولودين بالشام

وبعد ذلك ذكر عدد بنى يعقوب المولودين بالشام عند خاله «لابان» الداخلين معه مصر، فذكر الذين ولدت له «ليئة» وهم ستة ذكور، وابنة واحدة. وذكر أولاد هؤلاء الستة وسماهم، فذكر لرؤوبين أربعة ذكور، ولشمعون ستة ذكور، وللاوى ثلاثة ذكور، و«ليهوذا» ثلاثة ذكور، وابنى ابن له، فهم خمسة، و«ليساخر»: أربعة ذكور، و«لزابلون» ثلاثة ذكور، المجتمع من بنى «ليئة» ستة ذكور وابنة سابعة وخمسة وعشرون أولاد الأولاد فهؤلاء اثنان وثلاثون، وقال فى نص توراتهم بعقب تسميتهم:

«هؤلاء بنو ليئة، وعدد أولادها وبناتها ثلاثة وثلاثون»، هكذا نص توراتهم. وهذا خطأ فى الحساب تعالى الله عن أن يخطئ فى الحساب أو أن يخطىء فيه موسى عليه السلام. فصح أنها من توليد جاهل غث أو من عابث سخر بهم، وكشف سوءاتهم.

فصل

ثم ذكر بعد هذا أولاد «راحيل» فذكر «يوسف» و«بنيامين» وبينهما قال: وهم أربعة عشر ذكرًا، أولاد «زلفى»: «عاد» و«أشار» وبينهما قال: وهم ستة عشر. وذكر أولاد «بلهة»: «دان» و«نفتالى» وبنيهما. وقال: وهم سبعة. ثم وصل ذلك بأن قال: وعدد نسل «يعقوب» الذين دخلوا معه مصر سوى نساء أولاده ستة وستون. وابنا يوسف اللذان له بمصر اثنان. فجميع الداخلين إلى مصر سبعون.

قال أبو محمد: هذا خطأ فاحش لأن المجتمعَ من الأعداد المذكورة تسعة وستون، فإذا أسقطت منهم ولدى يوسف اللذين ولدا له بمصر بقى سبعة وستون، وهو يقول: ستة وستون. فهذه كذبة. ثم قال: فجميع الدّاخلين معه إلى مصر سبعون، فهذه كذبة ثانية.

وقد قلنا إن الذى عمل لهم التوراة كان ضعيف البصارة بالحساب وليست هذه صفة الله عزّ وجل، ولا صفة من معه مسكة عقل تردعه عن الكذب وتعمده على الله تعالى، وعن تكلف ما لا يحسن ولا يقوم به.

وذكر فى هذا الفصل قصة أخرى فيها الاعتراض إلاّ أنها تُخرَّج على وجه مّا فلذلك لم نفرد لها فصلاً.

وهى: أنه ذكر أولاد «بنيامين» فقال: «بالع» و«باكر» و«أشبيل» و«أجير» و«نعمان» و«أيجى» و«روش» و«مُفّيم» و«خُفِّيم» و«أرْد».

فصل
بركة يعقوب عليه السلام لأولاده

ثم ذكر بركة «يعقوب» عليه السلام على بنيه، وأنه وضع يده اليمنى على رأس «أفرايم» بن «يوسف»، واليسرى على رأس «مَنَسَّى» بن «يوسف»، وأن ذلك شق على «يوسف» عليه السلام، قال: لا يحسن هذا يا أبت لأن هذا بكر ولدى فاجعل يمينك على رأسه، يعنى مَنَسَّى، فكره ذلك «يعقوب» وقال: علمت يا بنى علمت، وستكثر ذرية هذا وتعظم، ولكنّ أخاه الأصغر يكون أكثر نسلاً وعدداً. يعنى أن «أفرايم» يكون عدد نسله أكثر من عدد «منسى».

ثم ذكر فى مصحف «يوشع» أن بنى «مَنَسَّى» كانوا إذْ دخلوا الشام وقسمت عليهم الأرض اثنين وخمسين ألف مقاتل وسبعمائة. وأن بنى «أفرايم» كانوا حينئذ اثنين وثلاثين ألفًا وخمسمائة، وذكر فى كتاب لهم مُعظَّم عندهم اسمه «سفطيم» أنه ذكر بنى إسرائيل قبل داود عليه السلام أربعة من ملوك بنى «منسى» وأربعة من بنى «أفرايم» وأن من جملة بنى «منسى» المذكورين رجلاً اسمه «مفتاح بن علفاذ» قتل من بنى «أفرايم» اثنين وأربعين ألف مقاتل حتى كاد يستأصلهم، وفى كتاب لهم آخر معظَّم عندهم أيضًا اسمه «ملاخيم»: أنه ملك عشرة أسباط من بنى إسرائيل بعد سليمان عليه السلام، إلى

أن ذهب الأسباط المذكورين وسبوا من بنى «أفرايم» ملكين كانت مدتهما جميعًا ستة وعشرين سنة فقط، وهما «باريعام» وابنه «باباط» ووليهم من بنى «منسى» خمسة ملوك، واتصلت دولتهم مائة عام وعامين وهما «زحريا» بن «باريعام» بن «نواس» بن «يهويا» و«حار» بن «يهو» كلهم ملك ابن ملك ابن ملك ابن ملك ابن ملك، ولم يكن فيمن ملك الأسباط العشرة أقوى ملكًا من هؤلاء المنسانين، وهذا ضد قول «يعقوب» الذى حكوه عنه. وحاشا لله أن يكذب نبى فيما ينذر به عن الله عز وجل.

فإن قالوا: إن «يوشع» بن «نون» و«دبور» أنسه، وميخا المورشي النبى كلهم كان من بني «أفرايم»، وكان بنو «أفرايم» إذْ أخرجوا من مصر أربعين ألف مقاتل، وخمسمائة مقاتل ومائتى مقاتل. وكان بنو «منسى» يومئذ اثنين وثلاثين ألف مقاتل ومائتى مقاتل. قلنا: لم تذكروا أن «يعقوب» قال: «يكون الشرف فى نسل أفرايم». إنما حكيتم أنه قال: إن «أفرايم» يكون أكثر نسلاً وعددًا من «منسى» على التأبيد والعموم، وإيصال البركة لا على وقت خاص قليل، ثم يعود الأمر بخلاف ذلك فتبطل البركة، ويصير المبارك مدبرًا، والمدبر مباركًا فى الأبد.

فصل

ثم ذكر عن «يعقوب» عليه السلام أنه قال لرؤوبين فى ذلك الوقت: أنت أول المواهب مفضل فى الشرف، مفضل فى العز، ولا تَفْضُل منهملة ماء.

قال أبو محمد: هذا كلام يكذب أوّله آخره.

فصل

تنبأ التوراة بإعطاء أولاد يهوذا القيادة

ثم ذكر أنه عليه السلام قال «ليهوذا» حينئذ: لا تنقطع من «يهوذا» المخصرة[1] ولا من نسله قائد حتى يأتينى المبعوث الذى هو رجاء الأمم.

قال أبو محمد: وهذا كذب قد انقطعت من ولد «يهوذا» المخصرة وانقطعت من نسله القواد، ولم يأتِ المبعوث الذى هو رجاؤهم. وكان انقطاع الملك من ولد «يهوذا»

(١) المخصرة: كمكنسة ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوه، وما يأخذ الملك يشير به إذا خاطب والخطيب إذا خطب (القاموس المحيط ٢/ ٣٠)، (والوسيط ١/ ٣٢٧).

من عهد «بخت نصر» مذ أزيد من ألف عام وخمسمائة عام إلا مدة يسيرة، وهى مدة «زربائيل» بن «صلثائيل» فـقط. وقد قررت على هذا الفصل أعلمـهم وأجدلهم، وهو «أشموال بن يوسف اللاوى» الكاتب المعروف بابن النغرال فى سنة أربع وأربعمائة فقال لى: لم تزل رؤوس الجواليت ينـتسلون من ولد داود وهم من بنى «يهوذا» وهى قـيادة وملك ورياسة، فقلت: هذا خطأ لأن رأس الجالوت لا ينفذ أمره على أحد من اليهود ولا من غيرهـم، وإنما هى تسمية لا حـقيقة لهـا، ولا له قيادة، ولا بيده مـخصرة، فكيف وبعد أحـزيا بن بورام لم يكن من بنى «يهوذا» وال أصلاً مدة سـتة أعوام، ثم بعده نشأ الملقب «صـدقيا» بن «يوشيا»، لم يكن منـهم لأحد له معين، ولا من يملك على أحـد اثنين وسبـعين عـامًا مـتصـلة حتى ولى «زربائيـل» ثم انقطع الولادة منهم جملة، لا رأس «جـالوت» ولا غيره مـدة ولاة الهارونيين ملكًا ملكًا مـئين من السنين ليس لأحد من «يهوذا» فى ذلك أمـر إلى دولة المسلمين أو قبلها بيسيـر، فأوقعوا اسم رأس الجالوت على رجل من بنى «داود» إلى اليوم، إلاَّ أنَّ بعض المؤرخين القدماء ذكر أن «هردوس» وابنيـه، وابن ابنه «أعريفـاس» بن «أعريفـاس» كانوا من بنى «يـهوذا»، والأظهر أنهم من الروم عند كل مؤرخ، فظهر كـذب هؤلاء الأنذال بيقين، وحاشا لله أن يكذب نبى.

فصل

ثم ذكر أن «يعقوب» عليه السلام قال «للاوى» و«شمعون» سأبددهما فى «يعقوب» وأفرقهما فى «إسرائيل».

قال أبو مـحمد: أما لاوى فكان نسله مـبددًا فى بنى إسرائيل كمـا ذكر، وأما «ابنو شمعون» فـلا، بل كانوا مجتمعين فى البلد الذى وقع لهم كسـائر الأسباط ولا فرق، وليس إنذار النبـوة مما يكذب فى قـصـة ويصـدق فى أخرى، هذه صـفـات إنذارات الحسَّاب القاعدين على الطرق للنساء ولمن لا عقل له.

فصل

إرسال موسى عليه السلام لفرعون

وقال فى السـفر الثـانى من توراتهم: إن الله تعالى قـال لموسى عليه السـلام: قل لفرعـون السيد يقول «إسـرائيل» بكر ولدى، ويقول لك ائذن لولدى ليـخدمنى، وإن

كرهت الإِذن سأهلك بكر ولدك.

قال أبو محمد: هذا عجب ناهيك به، ليت شعرى ماذا ينكرون على النصارى بعد هذا؟ وهل طرق للنصارى سبيل الكفر فى أن يجعلوا لله ولدًا، ونهج لهم طريق التثليث -على ما ذكرنا قبل هذا- إلا هذه الكتب الملعونة المبدّلة؟!.

إلاَّ أنّ النصارى لم يدعوا بنوّة لله تعالى إلا لواحد أتى بمعجزات عظيمة؛ وأما هذه الكتب السخيفة، وكل من تَدَيَّن بها فإنهم ينسبون بنوّة لله إلى جميع بنى إسرائيل، وهم أوسخ الأمم وأرذلهم جملة، وكفرهم أوحش، وجهلهم أفحش.

فصل

معجزات موسى أمام فرعون

ثم ذكر أن «هارون» ألقى العصا بين يدى فرعون وعبيده فصارت حية فدعا فرعون بالعلماء والسحرة، وفعلوا بالرقى المصرى مثل ذلك، ولكن عصا موسى ازدردت عصيهم. ثم ذكر أن «موسى» و«هارون» فعلا ما أمرهما السيد، فرفع العصا وضرب بها ماء النهر بين يدى فرعون وعبيده فعاد دمًا ومات كل حوت فيه، ونتن النهر، ولم يجد المصريون سبيلاً إلى الشرب منه، وصار الماء فى جميع مصر دمًا، ففعل مثل ذلك سحرة مصر برقاهم.

ثم ذكر أن «هارون» مدَّ يده على مياه مصر وخرجت الضفادع منها، وغطت أرض مصر، ففعل السحرة برقاهم مثل ذلك، وأقبلوا بالضفادع على أرض مصر. ثم ذكر أن «هارون» مدّ يده بالعصا وضرب بها غبار الأرض، فتخلق منها بعوض فى الآدميين والأنعام وعاد جميع الغبار بعوضًا فى جميع أرض مصر، فلم يفعل السحرة مثل ذلك برقاهم، وراموا اختراع البعوض فلم يقدروا عليه، فقال السحرة لفرعون: هذا صنع الله.

قال أبو محمد: هذه الآبدة المصمَئلّة(١) والصَّيْلَم(٢) المطبقة ولو صحّ هذا لبطلت نبوة موسى عليه السلام، بل نبوة كلٍّ نبي.

ولو قدر السحرة على شيء من جنس ما يأتى به النبى لكان باب السحرة، وبابُ

---

(١) يعني بهذا التعبير: «الشيء العجيب المستمر إلى آخر الدهر». (الوسيط ١/ ٥٢٢).

(٢) صلم: الشيء صلمًا: قطعه من أصله، وقيل: الصلم قطع الأذن والأنف من أصلهما، والصَّيلمُ: الداهية لأنها تصطلم ويسمى السيف صيلمًا ... (لسان العرب ١٢/ ٣٤٠).

مدَّعى النبـوة واحدًا، ولما انتـفع موسى بازدراد عـصاه لعصيهم، ولا بعـجزهم عن البعـوض وقد قدروا على قلب العـصىِّ حياتٍ، وعلى إعـادة الماء دمًا، وعلى المجىء بالضفـادع، ولما كان لموسى عليه السلام عليـهم بنبوته أكثـر من أنه أعلم بذلك العمل منهم، فـقط، ولو كان كـما قال هؤلاء الكـذابون الملعونون لكان فـرعون صـادقًا فى قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [سورة طه: ٧١، والشعراء: ٤٩] ولا منفعة لهم فى قول السحـرة فى البعوض: «هذا صنع الله»، لأنه يقال لبنـى إسرائيل: فعلى موجب قـول السحـرة لم يكن من صنع الله قلب العصـا حيـة، والماء دمًا، والمجىء بالضفادع، بل من غير صنع الله؟.

وهذه عظيـمة تقـشعـر منهـا الجلود. أين هذا الإفك المفـترى البـارد من نور الحق الباهر؟! إذ يقول الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [سورة طه: ٦٩] وإذ يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١١٣ - ١٢٢]

وإذ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: ٦٦] فأخبـر عزَّ وجل أن الذي عمل موسى حق، وأن عصاة صـارت ثعبانًا على الحقيقة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٧، والشعراء: ٣٢].

فصح أنه تبين ذلك لكل من رآه يقـينًا. وأخبر أن الذى عمل السـحرة إنما هو إفك وتخييل وكـيد، وهذا هو الحق الذى تشهد به العقول، لا فى الكتـاب المبدّل المحرّف، فصح أن فعل السحرة حيلة مموهة لا حقـيقة لها، وهذا الذى يصححه البرهان، إذ لا يحيل الطـبائع إلاَّ خالقـها، شهـادة لرسله وأنبيـائه، وفرْقًا بـين الصدق والكذب، لا قولهم عمل الـسحرة مثل ما عـمل موسى فى وقت تكليفه برهانًا عـلى صدق قوله، وعند تحديه لهم على أن يأتوا بمثله إن كانوا صـادقين وهو كاذب، فأتَوْا بمثله، فانظروا النتيجة يرحمكم الله.

هذه سوأة تشهد شهادة قاطعة صادقة بأن صانع ذلك الكتاب الملعون المكذوب الذى يسمونه «الحماش» ويدَّعون أنه توراة موسى عليه السلام إنما كان زنديقًا مستخفًا بالبارى

تعالى ورسله وكتبه، وحاشا لموسى عليه السلام منه، وأنهم إلى الآن يزعمون أن إحالة الطبائع وقلب الأجناس عن صفاتها الذاتية إلى أجناس أُخر، واختراع الأمور فى المعجزات البينية يقدر على ذلك بالرُّقى والصناعات. واعلموا أنَّ من صدَّق بهذا فهو مبطل للنبوة بلا مرية، لا فرق بين النبى وغيره إلاَّ فى هذا الباب، فإذا أمكن لغير النبى فلم يبق إلاَّ دعوى لا برهان عليها، ونعوذ بالله من الضلال.

ولقد شاهدناهم متفقين إلى اليوم على أن رجلاً من علمائهم ببغدادَ دخل من بغداد إلى قرطبة فى يوم واحد، وأنبت قرنين فى رأس رجل من بنى الإسكندرانى كان ساكنًا بقرب دار اليهود عند فَنْدَق الحرقة كان يؤذى يهود تلك الجهة ويسخر منهم، وهذه كذبة وفضيحة لا نظير لها، والموضع مشهور عندنا بقرطبة داخل المدينة، وبنو عبد الواحد بن يزيد الإسكندري من بيئة رفيعة. مشهورة أدركنا آخرهم. كانت فيهم وزارة وعمالة ليس فيهم مغمور ولا خفيٌ إلى أن بادوا ما عرف قط أحدٌ منهم ولا من جيرانهم هذه الأحموقة المختلفة.

والقوم بالجملة أكذب البرية، أسلافهم وأخلاقهم، وعلى كثرة ما شاهدنا منهم، ما رأيت فيهم قط متحريًا إلاَّ رجلين فقط.

فصل

قال أبو محمد: وفى قصة قلب الماء دمًا فضيحة أخرى ظاهرة الكذب وهى: أن فى نص الكلام الذى يزعمونه التوراة: «ثم قال السيد لموسى: قل لهارون مدَّ يدك بالعصا على مياه مصر، وأنهارها وأوديتها، ومروجها، وجناتها، لتعود دمًا، وتصير ماء فى آنية التراب والخشب دمًا. ففعل موسى وهارون كل ما أمرهما به السيد» إلى قوله «وصار الماء فى جميع أرض مصر دمًا. ففعل مثل ذلك سحرة مصر برقاهم، واشتد قلب فرعون، ولم يسمع لهما على حال، ثم انصرف فرعون ودخل بيته ولم يوجه قلبه إلى هذا أيضًا، وحفر جميع المصريين حوالى النهر ليصيبوا الماء منها لأنهم لا يقدرون على شرب الماء من النهر».

قال أبو محمد: هذا نص كتابهم فأخبر أن كلَّ ماء كان بمصر فى أنهارها وأوديتها، ومروجها وجناتها، وأوانى الخشب والتراب، والماء كله فى جميع أرض مصر صار دمًا. فأى ماء بقى حتى تقلبه السحرة دمًا، كما فعل موسى وهارون؟ أبى الله إلا فضيحة الكذابين وخزيهم.

فإن قالوا: قلبوا ماء الآبار التى حفرها المصريون حول النهر. قلنا لهم: فكيف عاش الناس بلا ماء أصلاً؟ أليست هذه فضائح مـرددة؟ وهل يخفى أن هذا من توليد ضعيف العقل أو زنديق مستخف لا يبالى بما أتى به من الكذب؟ ونعوذ بالله من الضلال.

فصل

ذكر بعض المعجزات لموسى

وبعد ذلك ذكـر أن الله تعالى أمـر موسى أن يقـول لفرعون: «ستكون يدى على مكسبك الذى لك فى الفحوص[1] وخيلك وحميـرك وجمالك وبقرك وأغنامك بوباء شديد، ويظهر السيد أعجوبة فيـما يملكه بنو إسرائيل، ووقَّت السيد لذلك وقتًا، وقال غدًا يفعل السيد هذا فى الأرض، ففعل السيد ذلك فى يوم آخر، وماتت جميع دواب المصريين، ولم يمت لبنى إسرائيل دابة فاشتد قلب فرعون ولم يأذن لهم».

ثم ذكر بعد ذلك أمر الله تعالى موسى بأن يأخذ ما حملت الكف من رماد الكانون ويلقيـه إلى السماء بين يدى فـرعون ليصـير غبارًا فى جـميع أرض مصـر فيكون فى الآدميين والأنعام خُراجَات ونفاطات[2] فأخذ رمادًا من كانون ووقف بين يدى فرعون ورماه موسى إلى السماء وصارت منه نفاطات فى الآدميين والأنعام، ولـم تقدر السحرة على الوقوف عند موسى لما كان أصابهم من ألم النفاطات، وكان مثل ذلك فى جميع أرض مصـر والسحرة، فشـدّد الله قلب فرعون، ولـم يسمع لهـما على حال ما عـهد السيّد إلى موسى.

وبعد ذلك قـال: إن الله أمر موسى أن يقـول لفرعون: غـدًا هذا الوقت أمطر بردًا كثيرًا جدًّا لم ينزل مثله على مصر من اليوم الذى أسست فيه إلى هذا الوقت، فابعث واجمع أنعامك وكل من تملكه فى الفدّان، فكل مـا أدركه البرد فى الفدان ولـم يدخل البيوت يموت فمن خاف وعيد السيد من عبيد فرعون أدْخَلَ عبيدَه وأنعامه فى البيوت، ومن استهان بوعيد السيد أبقى عبيده وأنعامه فى الفدّان.

وقال السـيد لموسى: مُدَّ يدك إلى السـماء لينزل البرد فى جـميع أرض مصر فـمدَّ

---

(١) فحص: المطر التراب قلبه، التراب اتخذ فيه أفحوصًا وهو مجثمة كالمفحص (القاموس المحيط ٢/ ٣٠٨).

(٢) النفط: دُهن والكسر أفصح، والنِّفاطات النَّفّاطات: ضرب من السرج يرمى بها بالنفط. (لسان العرب ٧/ ٤١٦).

موسى يده بالعصا، فأتى السيّد بالرّعد والبرد المختلف على الأرض، ثم أمطر السيّد البرد فى جميع أرض مصر مخلوطًا بنار، ولم ينزل بعظمة فى تلك الأرض من حين سكن ذلك الجنس فأهلك البرد فى جميع أرض مصر كلّ ما ظهر به فى الفدادين من الآدميين والأنعام وجميع عشبهما، وكسر جميع شجرها، ولم ينزل منه بشى فى أرض قوص حيث كان بنو إسرائيل.

قال أبو محمد: تأمّلوا هذا الكذب الهجين[1] اللائح. ذكر أولاً أنَّ موسى أتى بالوباء وأخبر عن الله تعالى أنه قال لفرعون سأهلك مكسبك الذى فى الفحوص، وخيلك وحميرك وجمالك، وبقرك، وأغنامك فعمّم جميع الناس، ما أُدْخِل فى البيوت وما لم يدخل، يعم جميع الحيوان صنفًا صنفًا، ثم أخبر: أن جميع دواب المصريين ماتت ولم تمت لبنى إسرائيل ولا دابة. ثم ذكر أمر «النفاطات» ثم ذكر أمر «البرد» وأن موسى أنذر فرعون عن الله تعالى، وأمره بإدخال أنعامه فى البيوت وأن ما أدرك البرد منها فى الفحص يهلك.

فليت شعرى! أى دابة بقيت لفرعون وأهل مصر، وقد ذكر أن الوباء أهلك جميعها؟؟ وأين الإبل والحمير والخيل والغنم والبقر؟ أليس هذا عجبًا!! وليس يمكن أن يقول: إنَّ دواب بنى إسرائيل هلكت آخرًا إذ سلمت أولاً، لأنه قد بيّن أنه لم يقع من البرد شىء فى أرض «قوص» حيث سكنى بنى إسرائيل، ولم يكن بين آية وآية بإقرارهم وقت يمكن فيه جلب أنعام إليهم من بلد آخر؛ لأنه لم يكن بين الآية والآية إلاَّ يوم أو يومان أو قريب من ذلك، ومصر واسعة الأعمال، ولا تتصل بشىء من العمائر، بل بين جميع انتهاء أقطارها من كل جهة وبين أقرب العمائر إليها مسيرة أيام كثيرة، كالشام وبلاد الغرب، وأرض النوبة والسودان، وإفريقية، فظهر كذب من عمل ذلك الكتاب المبدّل المحرّف المفترى الذى يزعمونه التوراة وحاشا لله من ذلك، والحمد لله على السلامة من مثل عملهم وضلالهم كثيراً.

فصل

اضطراب التوراة فى ذكر مدة بقاء بنى إسرائيل بمصر

وبعد ذلك قال: «وكان مسكن بنى إسرائيل بمصر أربعمائة وثلاثين سنة، فلما انقضت هذه السنون خرج ذلك اليوم معكسر السيد من أرض مصر».

(١) الهجين: اللبس ليس بصريح، ويقال: رجل هجين: لئيم (ج) (هجن) الوسيط (٢/ ٩٧٥).

قال أبو محمد: هذه فضيحة الدهر، وشهرة الأبد، وقاصمة الظهر، يقول ها هنا: إنَّ مسكن بنى إسرائيل بمصر أربعمـائة سنة وثلاثون سنة، وقد ذكر قبل: أن «فاهاث» بن «لاوى» دخل مصـر مع جدة «يعقوب» ومع أبـيه «لاوى» ومع سائر أعمـامه وبنى أعمامه، وأن عمر «فاهاث» بن «لاوى» المذكور كان مائة سنة وثلاثة وثلاثين سنة. وأن «عمران بـن فاهاث بن لاوى» المذكور كان عـمره مائة سنة وسبـعًا وثلاثين سنة. وأن «موسى بن عمـران بن فاهاث بن لاوى» المذكور كان إذ خرج ببنى إسـرائيل من مصر مع نفسه ابن ثمانين سنة.

هذا كله منصـوص كما نذكـره فـى الكتاب الذى يزعـمون أنه التوراة، فـهبك أن «فـاهـاث» دخل مـصـر ابن شـهـر أو أقل، وأن «عمـران» ابنه ولد بعـد مـوته، وأن «موسى بن عـمران» ولد بعـد موت أبيه ليـس يجتمع من كل ذلك إلا ثلاثـمائة عـام وخمسـون عامًا فقط. فأين الثمـانون عامـًا الباقـية من جملـة أربعمائـة سنـة وثـلاثـين سنـة؟.

فإن قـالوا: نضيف إلى ذلك مدة بقـاء يوسف بمصر قبـل دخـول أبيـه وإخوتـه، قلنا: قـد بيّن فى التـوراة أنه كان إذ دخلها ابن سـبع عشرة سنة، وأنه كـان إذ دخلها أبوه وإخـوته ابن تسع وثلاثين سنة، فـإذن كان مـقامـه بمصر قـبل أبيه وإخـوته اثنين وعشرين سنة ضمها إلى ثلاثمـائة سنة وخمسين سنة يقوم من الجمع بلا شك ثلاثمائة واثنان وسبعـون سنة. أين الثمانى والخمـسون الباقية من أربعـمائة وثلاثين سنة؟ هذه شهـرة لا نظير لهـا، وكذب لا يخفى علـى أحد، وباطل نقطع بأنه لا يمكن ألبـتة أن يعتقـده أحد فى رأسه شىء من دماغ صحـيح، لأنه لا يمكن أن يكذب الله تعالى فى دقيقـة، ولا أن يكذب رسوله ﷺ عامدًا ولا مسخطئًا فى دقيقة فيـقره الله تعالى على ذلك، فكيـف؟ ولا بد أن يسقـط من هذه المدة سنّ «فاهاث» إذ ولد له «عمران» وسنّ «عمران» إذ ولد لـه «مـوسـى» عليه السلام، والصحـيـح الـذى يُخَرَّج على نصوص كتبهم: أنَّ مـدة بنـى إسرائيل مذ دخل «يعقوب» وبنوه مصر إلـى أن خرجوا منها مع «موسى» عليـه السـلام، لم تـكن إلا مائـتـى عـام وسبعـة عـشر عامًا، فهذه كذبة فى مائتى عـام وثلاثة عشر عـامًا، ولو لم يكن فى توراتهم إلاَّ هذه الكذبة وحدها لكفت فى أنها موضوعة مبدلة من حمار فى جهله، أو مستخف سخر بهم ولابد.

فصل

التوراة المحرفة تصف الإله بألفاظ لا تليق

وبعد ذلك قال: وعند ذلك مجد «موسى» و«بنو إسرائيل» بهذه السورة، وقالوا: مجد بنا السيد فإنه يعظم ويشرف، وأغرق فى البحر الفرس وراكبه، قوّتى ومديحى للسيّد الذى صار لى مُسلمًا، هذا إلهى أمجده، وإله أبى أعظمه، السيد قاتل كالرجل القادر.

وفى السفر الخامس: «اعلموا أن السيّد إلهكم الذى هو نار أكول».

قال أبو محمد: هذه سوأة من السوءات لتشبيه الله عز وجل بالرجل القادر، ويخبر بأنه نار، هذه مصيبة لا تجبر ولقد قال بعضهم: أليس الله تعالى يقول عندكم: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[سورة النور: ٣٥].

قلت: بلى. وقد قال رسول الله ﷺ إذْ سأله «أبو ذرّ»: هل رأيت ربك؟. فقال: «**نورٌ أنَّى أراه**»(١).

وهذا بيِّنٌ ظاهرٌ أنه لم يعن النور المرئى، لكن نور لا يرى. فلاح أن معنى «نور السماوات والأرض» إذا ثبت، أنه ليس هو النور المرئى الملون، أنّه الهادى لأهلهما فقط. وأن النور اسم من أسماء الله تعالى فقط.

وأما قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ**﴾إلى قوله: ﴿**وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾[سورة النور: ٣٥].

فإنه شبه نوره الذى يهدى به أولياءه بالمصباح الذى ذكر، فإنه شبه مخلوقًا بمخلوق.

وبيان ذلك: قوله تعالى متصلاً بالكلام المذكور فى الآية نفسها: ﴿**نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ**﴾[سورة النور: ٣٥].

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٦١) ج (١٧٨)، والطبراني في الأوسط (٨/ ١٧٠) ح (٨٣٠٠)، والإيمان لابن منده (٢/ ٧٦٧). ح (٧٧٠).

قال الإمام النووي في شرح الحديث: «حجابه نور فكيف أراه .... الضمير في أراه عائد على الله سبحانه وتعالى، ومعناه أن النور منعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار، ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائى وبينه، وقوله ﷺ: «رأيت نوراً» معناه رأيت النور، فحسب ولم أر غيره، ويحتمل أن يكون معناه راجعًا إلى ما قلناه أي خالق النور المانع من رؤيته فيكون من صفات الأفعال .... شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ١٢).

فصحح ما قلناه يقينًا مــن أنه تعالى إنما عنى بنوره هداه للمؤمنين فقط، وهذا أصح تشبيه يكون، لأن نور هداه فى ظلمة الكفر كالمصباح فى ظلمة الليل.

فصل

وصف التوراة للمنَ النازل من السماء

ثم وصف المنَّ النازل عليهم من السـماء فقال: وكـان أبيض شبيهًـا بزريعة الكزبر ومذاقه كمذاق السميذ المعسل، ثم قال فى السفر الرابع:

«كان المَنُّ شـبيـهًا بزريعـة الكُزْبر، ولونه إلى الصَّفـرة، وكان طعـمه كطعم الخبز المعجون بالزيت».

قال أبو مـحمد: هذا تناقض فى الصفـة واللّون والطعم، وإحدى الصـفتين تكذّب الأخرى بلا شك.

فصل

تجسيم التوراة للإله ووصفه بصفات البشر

وبعـد ذلك قال: إنّ الله عـزَّ وجل قال لبنى إسـرائيل: لقـد رأيتمـونى كلكم من السماء، فلا تتخذوا معى آلهة الفضة. ثم قال بعد ذلك: ثم صعد «موسى» و«هارون» و«ناداب» و«أبيهو» وسـبعون رجلاً من المشايخ ونظروا إلى إلـه إسرائيل، وتحت رجليه كلَبِنَةٍ من زمرد فـيروزى، وكسماءٍ صـافية، ولم يمدَّ الرَّبُّ يده إلى خيـار بنى إسرائيل الذينَ نظروا إلى الله، وأكلُوا وشربوا وقال بمقربة من ذلك: «وكـان منظر عظمة السيد كنارٍ أكلة فى قرن الجبل يراه جماعة من بنى إسرائيل».

قال أبو محمد: هذا تجسيم لا شك فيه، وتشبـيه لا خفاء به؛ وليس هذا كقول الله تعالى:

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[سورة الفجر: ٢٢].

ولا كقوله تعالى:

﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾[سورة البقرة: ٢١٠].

ولا كقول رسول الله ﷺ: «**ينزل الله تبـارك وتعالى كل ليلة فى ثلث اللّيل الـباقى**

إلى سماء الدنيا»[(١)]، لأن هذا كله على ظاهره بلا تكلف تأويل، إنما هى أفعال يفعلها الله عزَّ وجل تسمَّى مجيئًا وإتيانًا وتنزيلاً. ولا مثل قوله تعالى:

﴿ **يدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾[سورة الفتح: ١٠] ﴿ **ويبْقَىٰ وجْهُ ربِّك** ﴾[سورة الرحمن: ٢٧].

وسائر ما فى القرآن من مثل هذا، فكله ليس بمعنى الجارحة، لكن على وجوه ظاهرة فى اللغة قد بيناها فى غير هذا المكان، عمدتها أن كل ذلك خبر عن الله تعالى لا يرجع بشىء من ذلك إلى سواه أصلاً، ثم كيف يجتمع ما ذكرنا عن توراتهم مع قوله فى السفر الخامس: «كلمكم الله من وسط اللهيب فسمعتم صوته، ولم تروا له شخصًا».

وهاتان قضيتان تكذب كلٌّ واحدةٍ منهما الأخرى ولابد.

فصل

التوراة تتهم هارون عليه السلام بصناعة العجل

وبعد ذلك قال: فلما أطال موسى المقام اجتمع بنو إسرائيل إلى «هارون» وقالوا: قم واعمل لنا إلهًا يتقدمنا، فإننا لا ندرى ما أصاب موسى الرجل الذى أخرجنا من مصر. فقال لهم هارون: اقلعوا أقراط الذهب عن آذان نسائكم وأولادكم وبناتكم، وائتونى بها. ففعلوا ما أمرهم به وأتوه بالأقراط، فلمَّا قبضها هارون أفرغها وعمل لهم منها عجلاً، وقال: هذا إلهكم يا بنى إسرائيل الذى أخرجكم من مصر فلما بصر بها هارون بني مذبحًا بين يدي العجل، وبرح مسمعًا: غدًا عيد السيد، فلما قاموا صباحًا قربوا له قربانًا، وأهدَوا له هدايا، وقعدت العامة تأكل وتشرب وقاموا للّعب.

ثم ذكر إقبال موسى، وأنه لما تدانى من المعسكر بصر بالعجل وجماعات تتغنى. وبعد ذلك ذكر أنه قال لهارون: ماذا فعلت بك هذه الأمة إذ جعلتكم تذنبون ذنبًا عظيمًا؟.

فقال له هارون: لا تغضب سيدى، فإنك تعرف رأى هذه الأمة فى الشر، قالوا لى: اعمل لنا إلهًا يتقدمنا لأننا نجهل ما أصاب موسى الذى أخرجنا من مصر، فقلت لهم: من كان عنده منكم ذهب فليقبل به إلىَّ وألقيته فى النار، وخرج لهم منه هذا

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٨٤)، ح (١٠٩٤)، ومسلم في صحيحه (١/ ٥٢١) ح (٧٥٨) وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٩٩) ح (٩٢٠)، قال أبو حاتم ﷺ: «صفات الله جل وعلا لا تكيف ولا تقاس إلى صفات المخلوقين، فكما أن جل وعلا متكلم .... لم يجز أن يقاس كلامه إلى كلامنا، لأن كلام المخلوقين لا يكون إلا عن طريق أدوات ... والله جل وعلا يتكلم كما شاء بلا آلة، كذلك ينزل بلا آلة، ولا تحرك ولا انتقال ... صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠٠).

العجل. فلما رأى «موسى» القوم قد تعروًا، وكان «هارون» قد عرَّاهم بـجهالة قلبه، وصَيَّرَهُمْ بين يدى أعدائهم عراة.

قال أبو محمد: هذا الفصل عفا على ما قبله وطم عليه، أن يكون «هارون» وهو نبى مرسل يتعمد أن يعمل لقومه إلهًا يعبدونه من دون الله عز وجل وينادى عليه: «غدًا عيد السيد» ويبنى للعجل مذبحًا ويساعدهم على تقريب القربان للعجل، ثم يجردهم ويكشف أستاهم للرقص وللغناء أمام العجل إلا أن تكون أحق أستاه كشفت، إن هذا لعجب!! نبى مرسل كافر مشرك يعمل لقومه إلهًا من دون الله، أو يكون العجل ظهر من غير أن يتعمد «هارون» عمله؟ فهذه والله معجزة كمعجزات موسى ولا فرق. إلاَّ أنَّ هذا هو الضلال والتلبيس، والإشكال والتدليس المبعد عن الله تعالى، إذ لو كان هذا لما كان موسى أولى بالتصديق من عابد العجل الملعون. أترى بعد استخفاف النذل الذى عمل لهم هذه الخرافة بالأنبياء عليهم السلام استخفافًا؟ حاشا لله من هذا! أَوْ ترون بَعْد حمق من يؤمن بأن هذا من عند «موسى» رسول الله وكليمه عن الله تعالى- حمقًا؟! نحمد الله على العافية.

أين هذا الهوس البارد والكذبُ المفترى من نور الحق الذى يشهد له العقل بالصحة الذى جاء به «محمد رسول الله ﷺ عن الله عز وجل حقًا؟».

إذ يقول في هذه القصة نفسها ما لا يمكن سواه:

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾[سورة الأعراف: ١٤٨].

وقوله عزَّ وجل:

﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[سورة طه: ٨٧ - ٩٤].

وقوله: ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾[سورة الأعراف: ١٥٠].

فهذا هو الصدق حقًا، إنما عمل لهم العجلَ الكافر الضالُّ السامرى، وأما «هارون»

فنهاهم عنه جهده، وأنهم عصوه، وكادوا يقتلونه، وقد تبين الصُّبحُ لذى عينين، ولاح صدق قوله تعالى من كذب الآفكين.

وأما «الخوار» فقد صح عن ابن عباس ما لا يجوز سواه، وأنه إنما كان دويّ الريح تدخل من قبله وتخرج من دبره[1]، وهذا هو الحق لأنه تعالى أخبر أنه لا يكلمهم، ولو خار من عند نفسه لكان ضربًا من الكلام، ولكانت حياة فيه، وهو محال، إذ لا تكون معجزة، ولا إحالة لغير نبى أصلاً. وبالله تعالى التوفيق.

فصل

الإله يستجيب لموسى فى العفو عن بنى إسرائيل

وفى خلال هذه الفصول ذكر أن الله عزّ وجل قال لموسى: دعنى أغضب عليهم وأهلكهم، وأُقْدِمُك على أمة عظيمة، وأن موسى رغب إليه وقال له: تَذَكَّرْ إبراهيم وإسرائيل وإسحاق عبيدك الذين خلقتهم بيدك، وقلت لهم سأكثر ذريتكم حتى يكونوا كنجوم السماء، وأورثتهم جميع هذه الأرض التى وعدتهم بها ويملكونها، فحنَّ السيد ولم يتم ما كان أراد إنزاله من المكروه بأمته.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل عجائب.

أحدها: إخباره بأن الله تعالى لم يتم ما أراد إنزاله من المكروه بهم، وكيف يجوز أن يريد الله عزّ وجل إهلاكَ قوم قد تقدّم وعده لهم بأمور ولم يتمها لهم بعد؟ وحاشا لله من أن يريد إخلاف وعده فيريد الكذب.

وثانيها: نسبتهم البداء إلى الله عز وجل، وحاشا لله من ذلك، والعجب من إنكار من أنكر منهم النسخ بعد هذا، ولا نكرة فى النسخ لأنه فعل من أفعال الله أتبعه بفعل آخر من أفعاله مما قد سبق فى علمه كونه كذلك، وهذه صفة كل ما فى العالم من أفعاله تعالى.

وأما البداء: فمن صفات من يهم بالشيء ثم يبدو له غيره، وهذه صفة المخلوقين لا صفة من لم يزل ولا يخفى عليه شيء فى المستأنف.

وثالثها: قوله فيها: «ويملكونها»، وهذا كذب ظاهر ما ملكوها إلاَّ مدة ثم خرجوا عنها إلى الأبد، والله تعالى لا يكذب، ولا يخلف وعده.

---

(١) قال ابن كثير: «حفيف الريح فيه فهو خواره. ابن كثير (٢٦٢١٣).

فصل

طلب الإله لموسى أن يذهب وقومه لفلسطين

وبعد هذا ذكر أن الله تعالى قال لموسى: اذهب واصعد من هذا الموضع أنت وأمتك التى أخرجت من مصر إلى الأرض التى وعدت بها مقسمًا «إبراهيم» و«إسحاق» و«يعقوب» لأورثها نسلهم، وأبعث بين يديك ملكًا لإخراج «الكنعانيين»، و«الأموريين» و«الحيثيين» و«الفرزيين»، و«الحويين» و«اليبوسيين» -تدخل فى أرض تفيض لبنًا وعسلاً، لست أنزل معكم لأنكم أمة قساة الرقاب لئلا تهلك بالطريق. فلما سمعت العامة هذا الوعيد الشديد عجبت ولم تأخذ زينتها، فقال السيد لموسى: قل لبنى إسرائيل أنتم أمة قد قست رقابكم سأنزل عليكم مرة وأهلككم، فضعوا زينتكم لأعلم ما أفعل بكم.

وبعد ذلك بفصول قال: «إن موسى قال لله تعالى: إن كنت سيدى عنى راضيًا فأنا أرغب إليك أن تذهب معنا».

وبعد ذلك: «إن الله تعالى قال لموسى: سأخرج بنفسى بين يديك».

قال أبو محمد: فى هذا الفصل كذبتان وتشبيه محقق أما الكذبتان:

فإحداهما قوله: إنه سيبعث بين يدى موسى ملكًا لإخراج الأعداء، وأما هو تعالى فليس ينزل معهم ثم نزل معهم، وهذا كذب لا مخلص منه؛ تعالى الله عن هذا، وحاشا له من أن يقول سأفعل ثم لا يفعل، وأن يقول لا أفعل ثم يفعل.

والثانية قوله: «إنى سأنزل لكم مرة وأهلككم» ثم لم يفعل. حاشا لله من هذا.

وأما التشبيه المحقق: فامتناعه من أن ينزل بنفسه، واقتصاره على أن يبعث ملكًا لنصرتهم، ثم أجاب إلى النزول معهم، وهذا لا يسوغ فيه ما يسوغ فى حديث التنزيل من أنه فعل بفعله تعالى، لأنه لو كان هذا لكان إرسال الملك أقوى ما يوجد فى العالم، فإذ قد بطل فقد صح أنه نزول نقلة ولابد.

فصل

ادعاء التوراة أن الله وعد موسى أن يراه من ظهره لا من وجهه

وفى خلال هذه الفصول قال: وكان السيد يكلم «موسى» مواجهة فمًا بفم كما يكلم المرء صديقه، وأن موسى رغب إلى الله تعالى أن يراه، وأن الله تعالى قال له:

سأدخلك فى حجر، وأحفظك بيمينى حتى أجتاز ثم أرفع يدى وتبصر ورائى لأنك لا تقدر أن ترى وجهى.

ففى هذين الفصلين تشبيه شنيع قبيح جدًا من إثبات آخر بخلاف الوجه وهذا ما لا مخرج منه.

فصل

وفى السفـر الثالث: أن البارى تعالى قـال له: من ضاجع امرأة عمـه أو خاله، أو كشف عورة بنته فيحملان جميعًا ذنوبهما ويموتان من غير أولاد.

قال أبو محمد: كنا ذكرنا أننا لا نخرّج عليهم من توراتهم كلامًا لا يفهم معناه، إذ للقائل أن يقـول: قد أصاب الله به مـا أراد، لكن هذا المكان لم يتخلف فيـه وعدنا، لأنها شـريعة مكلِّفة ملـزِمة، ومن المحال أن يكلِّف الله الناسَ عـملاً لا يفهـمونه ولا يعقلون معنى الأمر به.

فصل

وفى السفـر الرابع: ذكر أن عدد بنى إسـرائيل الخارجين من مصـر، القادرين على القتال خـاصة -من كان ابن عشـرين سنة فصاعدًا- كـانوا ستمائة ألف مـقاتل وثلاثة آلاف مقاتل وخمسمائة مقاتل، وخمسين مقاتلاً، وأنه لا يدخل فى هذا العدد من كان له أقل من عشـرين ولا من لا يطيق القتال، ولا النساء جـملة، وأن عددهم إذ دخلوا الأرض المقدسة ستمائة ألف رجل، وألف رجـل، وسبعمائة رجل وثلاثون رجلاً. لم يُعَدَّ فيهم من له أقل من عشرين سنة، وأن على هؤلاء قسمت الأرض المغنومة، وعلى النساء وعلى من كان دون العشرين أيضًا.

وفى كـتبـهم: أن «داود» عليه السـلام أحصى فـى أيامه بنى إسـرائيل فوجـد بنى «يهوذا» خاصـة: خمسمائة ألف مـقاتل. ووجد التسعـة الأسباط الباقيـة -حاشا بنى لاوى، وبنى بنيامين فلم يحـصهما- ألف ألف مـقاتل غير ثلاثين ألفًـا سوى النساء، وسوى من لا يقدر على القـتال من صبى أو شيخ أو مـعذور، وكل هؤلاء، إنما كانوا فى «فلسطين» و«الأردن» وبعض عمل «الغور» فقط. والبلد المذكور بحالته كما كان لم يزد بالاتساع ولا نقص.

وفى كتبهم أيضًا: أن إبيا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام قتل من العشرة

الأسباط من بنى إسرائيل خمسمائة ألف رجل. وأن ابنه «انتيا بن إبيا» كان معه من بنى يهوذا خاصةَ ثلاثمائة ألف مقاتل ومن بنى بنيامين خاصة اثنين وخمسين ألف مقاتل.

قال أبو محمد: البلد المذكور باق لم ينقص ولا صغرت أرضه. وَحَدُّه بإقرارهم فى الجنوب «غـزة» و«عسقـلان» و«رفح» وطرف من جـبال الشـراة - بلد «عيـسو»، ولا خلاف بينهم فى أنهم لم يملكوا قط قـرية فما فوقهـا من هذه البلاد، وأنهم لم يزالوا من أول دولتهم إلى آخرها محاربين مـرة لبنى إسرائيل ومراراً عليهم. وحد ذلك البلد فى الغرب: البحـر الشامى. وحدّه فى الشمـال: «صور» و«صيدا» وأعـمال «دمشق» التى لا يخـتلفون فى أنهم لم يملكوا قط منهـا مضـرب وتد، وأنهم لم يزالوا من أول دولتهم إلى آخرها محاربين لهم، فمـرة عليهم ومرة لهم، وفى أكثر ذلك يملكون بنى إسرائيل ويسومـونهم سوء العذاب، ومرة يخرج بنو إسـرائيل عن ملكهم فقط، وحدّ البلد المذكور فى الشـرق بلاد «مؤاب» و«عمـون» وقطعة من صحـراء العرب التى هى الفلوات والرمال، ولا خلاف بينهم فى أن نصَّ توراتهم أن الله تعالى قال لموسى وبنى إسرائيل: «إلى هنا لا تحاربوا بنى «عيسـو»، ولا «بنى مؤاب»، ولا «بنى عمون» فإنى لم أورثكم من بلادهم وطأة قدم فـما فوقهـا، لأنى قد ورثت بنى عيـسو، وبنى لوط هذه البلاد، كـما ورثت بنى إسرائيل تلك التى وعـدتم بها»، وأنهم لم يزالوا من أول دولتـهم إلى آخـرها يحاربونهـم، فمـرة يملكهم «بنو عـمـون» و«بنو مؤاب»، ومـرة يخرجون عن رقهم فقط، وطول بلاد بنى إسرائيل المذكـورة بمساحة الحلفاء المحققة من «عقبـة أفيق»، وهى على أربعة وخـمسين ميلاً من دمـشق إلى طبرية، ثمانيـة أميال، وهى «جبل أفـرايم» إلى الطور اثنى عشر ميـلاً، إلى «اللجون» اثنى عشر مـيلاً، إلى «علمين» عندهمـا ينقطع عمل الأردن، ومبـدأ عمل فلسطين مـيل واحد، إلى الرملة نحو أربعين ميلاً، إلى عـسقلان ثمانية عشر ميلاً. ومـوضع الرملة هو كان آخر عمل بنى إسرائيل. فـذلك ثلاثة وسبعون ميـلاً. وعرضه من البحر الـشامى إلى أول عمل جبل الشراة، وأول عـمل مؤاب، وأول عمل «عمـان» نحو ذلك أيضًا وعمل صـغير شرقى الأردن يسمى «الغـور» فيه مدينة «بيسان» يـكون أقل من ثلاثين ميلاً فى ثلاثين ميلاً ولا يزيد، وكان هذا العـمل الذى بشرقى الأردن بزعمهم وقع لبنى رؤوبين و«بنى جاد» ونصف بنى منسى بن يوسف عليه السـلام، لأنه كان يصلح لرعى المواشى وكان هؤلاء أصحاب بقر وغنم.

فاعـجبـوا لهذا الكذب الفاحش المفـضوح، وهذا المحـال الممتنع أن تكون المسـافة

المذكورة تقسم أرضها على عدد يكون أبناء العشرين منهم فصاعداً خاصة أزيد من ستمائة ألف فأين من دون العشرين؟ وأين النساء؟ والكل بزعمهم أخذ سهمه من الأرض المذكورة ليعيش من زرعها وثمرتها، واعلموا أنه لا يمكن ألبتة أن يكون فى المساحة المذكورة تكون مساحة كل قرية ميلاً فى ميل، مزارعها ومشاجرها إلا ستة آلاف قرية ومائتى قرية، هذا على أن يكون جميع العمل المذكور عمرانًا متصلاً، لا مرج فيه ولا شجر، ولا أرض محجرة لا تعمر، ولا أرض مرملة كذلك، ولا سبخة ملح كذلك، وهذا محال أن يكون. فعلى هذا يقع لكل قرية من الرجال المذكورين مائة رجل أو نحو ذلك، سوى من هو دون العشرين منهم، وسوى النساء، لا سبيل ألبتة على هذا أن يدركوا فيها المعاش، وهذا كذب لا خفاء به، ولاسيما إذ بلغوا ألف ألف مقاتل وخمسمائة مقاتل، سوى من لا يقاتل، وسوى النساء.

أين هذا الكذب البارد من الحق الواضح فى قوله تعالى حاكيًا عن فرعون أنه قال إذ تبع بنى إسرائيل ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٥٤].

هذا الذى لا يجوز غيره، ولا يمكن سواه أصلاً.

وكذبة أخرى: وهى أنهم ذكروا فى كتاب «يوشع»: أن البلد المذكور كان فيه من المدن فى سهم بنى يهوذا مائة مدينة وأربعة مدن، وفى سهم بنى شمعون سبع عشرة مدينة، وفى سهم بنيامين ثمان وعشرون مدينة، وفى سهم بنى زبلون اثنتا عشرة مدينة، وفى سهم بَنى نفتالى تسع وعشرة مدينة. وفى سهم بنى دان ثمانى عشرة مدينة فذلك مائتا مدينة واثنتان وست وثلاثون مدينة. قال فى الكتاب المذكور: «سوى قراها» لا يحصيها إلا الله عزَّ وجل.

وذكر فيه أنه وقع لنصف «بنى منسى» بن يوسف بشرقى الأردن «باشان»[1] وعملها، وأن مدائنهم المحصنة ستون مدينة سوى قراها لا يحصيها إلا الله. فالمجتمع من هذه المدن المذكورة ثلاثمائة مدينة غير أربع مدن، ولم يذكر عدد مدائن بنى «رؤوبين» ولا عدد مدائن بنى عاد، ولا عدد مدائن نصف بنى مَنَسَّى الذى بغرب الأردن، ولا مدائن بنى أفرايم.

وهذه الأسباط التى لم تذكر مدنها تقع على ما توجبه توراتهم فى الربع من جميع

(١) باشان: الشين معجمة من قرى هراة منها أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي صاحب كتاب «الغريبين» .. معجم البلدان (١/ ٣٢٢).

بنى إسرائيل، يقع لهم على هذا الحساب نحـو مائة مدينة: إذا ضمت إلى العدد الذى ذكرنا فتمام الجميع نحو أربعمائة مدينة. فاعجبوا لهذه الشهرة أن تكون البقعة التى قد ذكرنا مساحتها على قلتها وتفاهتها تكون فيها هذه المدن. وقد ذكر أن نصف سبط بنى منسى الذين وقعوا بشـرقى الأردن، ووقع فى خطهم ستون مدينة كانوا سـتة وعشرين ألف رجل مقاتلين كلـهم ليس فيهم ابن أقل من عشرين سنـة، والعمل باق إلى اليوم لعله اثنى عشـر ميلاً فـى مثلها، مـا رأيت أقل حياء من الذى كـتب لهم تلك الكتب المرذولة، وسخم بها وجوههم. ونعوذ بالله من الضلال.

فصل

ويتصل بهـذا الفصل فـصل آخر هو أشنع منه فى شـهرة الكذب وشنعـة المحال، وظهور التوليد، وبشاعة الافتعال:

ذكر فى صدر السـفر الثانى إذ ذكر خـروج بنى إسرائيل عن مصر مع مـوسى عليه السلام: أن الله تعـالى أمر موسى أن يعد بنى إسـرائيل بعد خروجهم من مـصر بسنة واحدة، وشهر واحد فقط، فعدَّ جميع قبائلهم فقال: هؤلاء أكابر البيوت فى قبائلهم: «حنوك» و«فلو» و«حـصـرون» و«كـرم» وهـم بنو «رؤوبين» بكر ولد «إسـرائيل»، هذه قبائل «رؤوبين».

وذكر فى أول السفر الـرابع: أن مُقدَّمهم كان «اليصور بـن شديئور»، وأن عددهم كان سـتة وأربعين ألف رجل، لم يـعدَّ فيـهم من له أقل من عشـرين سنة ولا من لا يطيق الحرب.

وذكر فى صـدر السفر الـثانى فقـال: «وبنو شمعـون» «يموئيل» و«يامين» و«أوهد» و«ياكين» و«صوحر» و«شأول» ابن الكنعانية. هذه قبائل شمعون.

وذكر فى أول السـفر الرابع: أن مُـقدَّمهم كـان شلوميـئيل بن صـوريشداى. وأن عددهم كان تسعة وخمسين ألف رجل، لم يعد فيهم من له أقل من عشرين سنة، ولا من لا يطيق الحرب.

وقال فى صدر السفر الثانى: هذه تسمية بنى لاوى فى قبائلهم «جرشون» و«قهات» و«مرارى» و«ابن جـرشون» و«لبنى» و«شمعى» فى قـبائلهم، «وبنو قهـات»: «عمرام» و«يصهار» و«حبرون» و«عزيئـيل». وابن مرارى: «محلى» و«موشى». هذه أنساب بنى

لاوى فى قبائـلهـم. فتزوج «عمران» «يوكـابد» عمته، فـولدت له «موسى» و«هارون» وبنو يصهار: «قـورح» و«نافج» و«ذكرى» وبنو قورح: «أشير» و«القـانة» و«أبياساف». وبنو عزيئيل: «مـيشائيل» و«الصافان»، و«سترى». فـتزوج «هارون» إلى «يشيع» بنت «عميناداب» أخت نخشون، فولدت له «ناداب» و«أبيـهوا» ،«العازار» و«إيثامار» فتزوج «العازار» بن هارون فى بنات بنى «فوطيئيل» فولدت «فيحاس».

وقال فى صدر السـفر الرابع: فكلم السيد موسى فى غار سـينا، وقال له: عدَّ بنى لاوى فى بيوت آبائهم وأهاليهم، فكل ذكر ابن شهر فصاعـداً حسبهم موسى كما عهد إليه السيد فوجد ولد «لاوى» على أسمـائهم مسمين: «جرشون» و«قهاث» و«مراري». وولد جرشون «لبنى» و«شمعى». وولد «قهاث» «عمرام» و«يصهار» و«عزيئيل». وولد مرارى: «مـحلى» و«موشى». وأنه عدَّ عامـة ذكور بنى «جرشـون» ابن شهر فصـاعداً فكانوا ستة آلاف وخمسمائة، كانوا فى ساقة القبة فى الغرب تحت أيدي «ألياساف» بن «لايل». وبعد ذلك ذكر أنه حسب ألف رجل وسـتمائة رجل وثلاثين رجلاً. ثم قال: هذه نسبة «قهاث» خرج منه رهط «عمرام» و«يصهار» و«حبرون» و«عزيئيل» فحسب من كان منهم ذكراً ابن شهر فـصاعداً، فوجدهم ثمانية آلاف رجل وستمـائة ذكر مقدّمهم «الصافـان» بن «عزيئيل» المذكـور. وأمرهـم أن يكونوا فى جنوب القـبة، حاشـا موسى و«هارون» وأولادهما، فإنهم يكونون أمام القبـة فى الشرق، وأنه حسب من كان منهم ابن ثلاثين سنة إلى ابن خمسين سنة فقط فوجدهم ألفى رجل وسبعمائة رجل وخمسين رجلاً. وذكر أنه حسب بنى مرارى «مـحلى» و«موشى» بنى مرارى ومن كان منهم ابن شهـر فصـاعداً من الذكـور فوجدهم سـتة آلاف ومـائتين مقـدّمهم: «صوريـئيل» بن «أبيحايل» وأمرهم أن يكونوا فى شمال القبة، وأنه حسب من كان منهم ابن ثلاثين سنة فصاعداً إلى خمسين سنة فـوجدهم ثلاثة آلاف رجل، ومائتى رجل. وبعد أن ذكر من كان من بنى لاوى ابن شـهر فصـاعداً من الذكور كمـا أوردنا: قال: فجـميع اللاويين الذين حسب موسى وهارون من كل ذكر من ابن شهر فصاعداً اثنان وعشرون ألفًا.

وأن السيد أوحى إلى موسى: احسب بكور ذكور ولد إسرائيل المذكور من ابن شهر فصاعداً، وتأخذ لى اللاويين عن بكور جمـيع ولد إسرائيل فعدَّ موسى بكور ولد بنى إسرائيل الذكور من ابـن شهر فصاعـداً فوجدهم اثنين وعشرين ألفـا، ومائتين وثلاثة وسبـعين. فقال السيـد لموسى: خذ «بنى لاوى» عن بكور ذكـور ولد إسرائيل ليكون «بنى لاوى» لى، وعن المائتين والثـلاثة والسبعين الزائدين عن عـدد بنى لاوى، تأخذ

عن كل واحد خـمسة أثقال بوزن الهـيكل، فأخذ موسى دراهم الزائدين فـبلغت ألفًا وثلاثمائة وخسمة وستين ثقلاً، وأعطاها لهارون وولده على ما عهد عليه السيد.

ثم ذكر فى سـفر «يوشع» أن «العـازار بن هارون» بنفسـه أتى إلى «يوشع بن نون» إذ فتحت الأرض المقدسة، وكلمه فى أن يعطى «بنى لاوى» مدائن للسكنى ففعل. وأنه وقع لبنى هارون خاصة ثلاث عشرة مدينة من مدائن بنى «يهوذا» و«بنيامين» و«شمعون». وأنه وقع لسائر بنى «قاهاث» بن «لاوى» عشر مدائن من مدائن بنى دان وبنى أفرايم، ونصف سبط منسى الذين مع سائر الأسباط، وأنه وقع لبنى جرشون بن لاوى ثلاث عشرة مدينة من مدائن «يساخـر»، و«أشار»، و«نفتالى» ونصف سـبط «منسى» الذى بشرق الأردن. وأنه وقع لبنى مرارى بن لاوى اثنتى عشـرة مدينة من مدائن بنى زابلون، وبنى رؤوبين، وجاد بن يعقوب بشرقى الأردن فذلك لبنى لاوى ثمان وأربعون مدينة.

وذكر فى السفر الرابع: أنه أحصى أيضًا بنى جاد بن يعقوب الرجال خاصة من كان منهم ابن عشرين سنة فـصاعدًا المبارزين للحرب فوجدهم خـمسة وأربعين ألف رجل وخمـسين رجلاً، مـقدمهم «أليـاساف بن رعـوئيل» وأنه أحصى بنى «يهـوذا» الذكور خاصة من كان منهم ابن عشرين سنة فصاعـدًا المبارزين للحرب خاصة فوجدهم أربعة وسبـعين ألفًا وستـمائة رجل، وقد ذكـر قبل وبعد أن هذا العـدد كله إنما هم من ولد «شيلة»، و«فارص» و«زارح» بنى يهوذا فقط، مقدمهم «نحشون» بن عميناداب بن أرام ابن حصرون بن فارص بن يهوذا بن إسرائيل.

وأنه أحصى بنـى يساكر الذكـور خاصة من كـان منهم ابن عشـرين سنة فصـاعدًا المبـارزين للحرب خـاصة، فـوجدهم أربعـة وخمـسين ألف رجل وأربعمـائة رجل، مقدمـهم «نثنائيل بن صوغر»، وأنه أحصى «بنى زبلون» الذكور خـاصة من كان منهم ابن عشرين سنة فصاعدًا المبارزين للحرب خـاصة فوجدهم سبعة وخمسين ألف رجل وأربعمائة رجل، مقدمهم «ألبـاب بن حيلون»، وأنه حسب بنى «يوسف» عليه السلام الذكور خاصة، من كان منهم ابن عشرين فصـاعدًا المبارزين للحرب خاصة، فوجدهم اثنين وسبعين ألف رجل وسبعمائة رجل منهم من ولد «أفرايم بن يوسف» أربعون ألف رجل، وخمسمائة رجل، ومقدمهم «اليشمع بن عميهود» ومن ولد «منسى» بن يوسف اثنان وثلاثون ألف رجل، ومائتا رجل، مقدمهـم «جملئيل بن فدهصور»، وأنه حسب بنى «بنيامين» الذكور خاصة، من كان منهم ابن عـشرين سنة فصاعدًا المبارزين للحرب خـاصة فكانوا خـمـسة وثـلاثين ألف رجل، وأربعمـائة رجل مـقـدّمهم «أبيـدن بن

جدعونى». وأنه حسب «بـنى دان» الذكور خاصة من كان منهم ابن عشـرين فصاعداً من المبارزين للحرب خاصة فكانوا: اثنين وستين ألف رجل وسـبعمائة رجل، مقدمهم «أخيـعزر بن عـميشـداي» وكلهم من ولد «حـوشم بن دان» وأنه حسب «بني أشـير» الذكور خاصة من كان منهم ابن عشرين فصاعداً من المبارزين للحرب خاصة فوجدهم واحداً وأربعين ألف رجل وخمسمائة رجل، مقدمهم «فجعيئيل بن عكران» وأنه حسب «بنى نفتالى» مـن كان منهم من الذكور خاصة ابن عـشرين فصاعـداً المبارزين للحرب خاصـة، فوجدهم ثلاثة وخـمسين ألف رجل وأربعمائة رجـل، مقدمهم «أخـيرع بن عينن» وأن هذا الحساب كان بعد عام واحد وشهـر واحد من خروجهم من مصر حاشا قسمة المدائن المذكورة وأنها بعد دخولهم فلسطين والأردن.

فليتأمل كل ذى تمييز صحيح من الخاصة والعامة هذا الكذب الفاحش الذى لا خفاء به، والمحال الممتنع، والجـهل المفرط الموجب كل ذلك ضرورة أنها كتب محـرفة مبدّلة من تحريف فـاسق سخر بهم، وأنها لا يمكن ألبـتة أن تكون من عند الله، ولا من عند نبى، ولا من عمل صادق اللهجة.

فمن ذلك إخباره: بأن رجال «بنى دان» كانوا إذ خرجوا من مصر اثنين وسبعين ألفًا وسبعمائة رجل، لم يعد فيهم من كان منهم ابن أقل من عشرين سنة، ولا من لا يطيق البروز للحرب، ولا الـنساء، وأنهم كلهم راجعون إلى «حـوشيم بن دان» وحده. ولم يكن «للدان» بإقرارهم ولد غير «حوشيم» مع قرب أنسابهم من «حوشيم»، لأن فى نصٍّ توراتهم: أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: أن الجيل الرابع من الأولاد يرجعون إلى الشام، فاضبطوا هذا يظهر لكم الكذب عـلانية لا خفاء به، وأن «بنى يهوذا» كانوا أربعة وسبعين ألفًا وستمائة رجل، ليس غيـرهم. وفى الحياة يومئذ رئيسهم: «نحشون» ابن عـميـناداب بن أرام بن حصـرون بن فـارص بن يهـوذا. وأن «بنى يوسف» عليـه السلام: كانوا اثنين وسبعين ألف رجل، وسبعمائة رجل، ليس يعد فهم من له أقل من عشـرين سنة وكلهم راجع إلى «أفرايم» و«منسى» لم يعقب ليـوسف غيرهما، وفـيهم يومئذ فى الحياة «صلفحاد بن حافز بن جلعاد بن منسى بن يوسف» عليه السلام.

وقد ذكر أيضًا فى توراتهم أولاد «أفرايم» فلم يجعل له إلا ثلاثة ذكور، ولـم يجعل «لمنسى» إلا ولدين. وذكر أولاد «جلعـاد» المذكور ابن «منسى» ولـم يجعل له إلا سـتة ذكور فقط، فاجعلـوا «المنسى» و«أفرايم» أقصى ما يمكن أن يكون للرجل من الأولاد،

ثم لجلعاد وإخــوته وبنى عمه مثل ذلك. ثم «الحـافر» وطبقتـه مثل ذلك. وانظروا هل يمكن أن يبلغ ذلك ثلث هذا العدد. والأمر في ولد «دان» أفـحش من سائر ما في ولد إخوته، وإن كان الكذب في كل ذلك فاحشًـا، لأن البضع والسبعين ألف رجل وزيادة لم يعد فيهم ابن أقل من عشرين سنة، يرجعون إلى ثلاثة من ولد «يهوذا»، واثنين من ولد «يوسف» وأما الاثنان وسـتون ألف رجل ونيف لا يعد فيهم ابـن أقل من عشرين سنة، فـإنما يرجع إلى واحد فـقط لم يكن«لدان» غـيره بلا خـلاف منهم، فكيف إذا أضيف إلى هذا العـدد من له أقل من عشرين سنه من الرجـال؟ والأغلب أنهم قريب من عدد المتجاوزين عشرين سنه أو أقل بيسـير، وجميع النساء والأغلب أنهن فى عدد الرجال أو قريبًا من ذلك، فيجتمع من ولد«حوشيم بن دان» وحده فى مدى مائتى عام وسبعة عشر عامًا نحو مائة ألف وستين ألف إنسان.

هذا المحال الممتنع الذى لم يكن قط فى العالم على حسب بنيته ورتبته.

ويجتمع من ولد «يوسف» عليه السـلام على هذا أرجح من مائتى ألف إنسان ومن ولد «يهوذا» نحو ذلك، وليس يمكنهم أن يقولوا إن الطبقات من الولادات كانت كثيرة جدًا لوجهين:

أحدهما: قوله فى توراتهم إن الجيل الرابع من الأولاد يرجعون إلى الشام.

والثاني: أن الذى ذكر أنسابهـم من «بنى لاوى» و«بنى يهوذا» و«بنى يوسف» و«بنى رؤوبين» كانوا متقاربين فى التعداد «كموسى» و«هارون» و«مريم» بنى «عمران بن فاهاث ابن لاوى بن إسـرائيل». و«اليصافـان بن عزيئـيل بن فاهاث بن لاوى بن إسـرائيل». وقورح وإخوته «بنو يصـهار بن فاهات بن لاوى بن إسرائيل». و«نحـشون وإخوته بنو عميناداب بن آرام بن حصرون بن فـارص بن يهوذا بن إسرائيل». و«أحار بن كرمى بن سيـداى بن شيلة بن يهـوذا بن إسرائيل». و«دابان» و«أبيرام» ابنا «البـاب بن ملوكن بن روبان بن إسرائيـل» وإخوتهم، وأولادهم وأولاد أولادهم، هذا نص ذكر أنـسابهم فى توراتهم، فوضح أن الأمر متقارب فى تعدادهم، وظهر بهذا عظيم الكذب الفاحش فى الأعداد التى ذكروا، ولا يمكنهم ألبتـة أن يقولوا: إنه كـان لإسرائيل غير من سمينا من الأولاد الاثنى عشر، ولا أنه كان لأولاد إسرائيل المذكورين غير من سمينا من الأولاد، وعددهـم واحد وخمسـون رجلاً فقط، «لبنامين» عشرة، و«لجادا» سبـعة، و«لشمعون» ستة و«لرؤوبين» و«أشير» و«يساخر» و«نفتالي» لكل واحد منهم أربعة أربعة. و«ليهوذا» و«لاوى و«زبلون» لكل واحد منهم ثلاثة ثلاثة. و«ليوسف» ولدان اثنان.

فيـاللناس!! كيف يمكن أن يتناســل من ولادة واحد وخمـسين رجلاً فـقط فى مدة مائتى عام وسبعة عشر عامًا فقط أزيد من ألفى ألف إنسان؟.

هذا غاية المحال الممتنع، لأنه نص فى توراتهم: أنه انتسل منهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف رجل كلهم لم يعد فيهم ابن أقل من عشرين سنة. ولعلَّ من دون العشرين عامًا منهم يقاربون هذا العدد. ثم النساء ولعلهن نحو هذا العدد. فـاعجبوا لهذه الفضائح. وقد رام بعض من صككت وجهـه من علمائهم بهذه الفضيحـة أن يلوذ بهذا الشغب. فقـلت: دع عنك هذا التمـويه فقـد سدّت عليك توراتك كل المـذاهب، لأن فيـها - بعلمك- حيث ذكر خروجهم من مصر، وحيث ذكر دخولهم إلى الشام، وحيث ذكر قسمـة الأرض عليهم فى سفر «يوشع» ذكـر أفخاذ قبائلهم، وتسـمية أسبـاطهم اسمًا اسمًا، فلم يزد على من سمينا ولا واحداً.

فلو كان ما تقول؛ لكانت أيضًا قـد كَذَبَتْ فى هذا الموضع إذ ذكرت بزعمك هذا، قسـمة الأرض، ورتبة الجيـوش، وأعداد الأسباط بخـلاف ما تزعم. فلابدَّ فيـها من الكذب المتيقن كيفما تصرفت الحال، فسكت خاسئًا.

فإن قيل: ألم يقل «يعقوب» إذ عرض عليه «يوسف» ابنه «أفرايم» و«منسى» فقال له «يعقـوب»: «أفرايم و«منسى» يكونان لى، وينسبـان إلىّ، ومن ولد لك بعدهما ينسـبان إليك.

قلنا: لا يخلو «يوسف» عليـه السلام من أن لا يكون له ولد غـيرهمـا ممَّن أعقب خاصـة، كما نـقول نحن، وتشهـد به نصوص توراتكم، وجـميع كتـبكم، أو يكون ليوسف ولد أعقب غير أفرايم و«منسى»، فلو كـان ذلك فكتبكم كلها كاذبة أولها عن آخرها من التوراة فمـا وراءها. لأنه فى كل مكان ذكر فيه رتبة معكسـر الأسباط سبطًا سبطًا وعـددهم إذ خرجـوا من مصـر، وعددهم إذ دخلوا الشـام، وعددهم إذ أهدَوا الكباش والعـجول وحقـاق الذهب، وعددهم إذ وقفـوا على الجبلين للبـركة واللعنة، وعددهم إذ نقشت أسماؤهم فى الفـصوص المرتبة على صدر هارون فى أزيد من ألف موضع فى سـائر كتبـهم. ولم يذكر ليوسف إلا سـبطين فقط؛ سـبط «منسَّى» وسبط «أفرايم» فبطل الاعتراض بذلك الكلام المذكور. وبالله التوفيق.

وقد علم كل من يميـز من الرجال والنساء أن الكثرة الخـارجة من الأولاد لـم توجد فى العالم لصعوبة الأمر فى تربيـة أطفال الناس ولكون الإسقاط فى الحوامل، ولإبطاء حمل المرأة بين بطن وبطن، ولكثرة الموت فى الأطفال.

فهذه أربع عوارض قواطع دون الكثرة الخارجية فى الأولاد للناس، ثم كون الإناث فى الولادات أيضًا. ولو طلبنا أن نعـد من عاش له عشرون ولدًا فصـاعدًا من الذكور وبلغوا الحلم فما وجدناهم إلاَّ فى الندرة، ثم فى القليل من الملوك وذوى اليسار المفرط الذين تنطلق أيديه على الكثـير من النساء والإماء، ثم على الخـدام اللواتى هن العون على التربية والكفاية، وعلى كـثرة المال الذى لا يكون المعاش إلاَّ به، وأمَّا من لا يجد إلا الكفاف وفوق مما لا يبلغ الإكثار من الوفر، ولا يقدر إلا على المرأة والمرأتين ونحو ذلك، فلا يوجد هذا فـيهم ألبتة بوجه من الوجـوه ولا يمكن ذلك أصلاً لهم لما ذكرنا آنفًا من القواطع والموانع، وقد شـاهدنا الناس وبلغتنا أخبار أهل البلاد البعـيدة، وكثر بحثنا عما غاب عنا منا، ووصلت إلينا التواريخ الكثـيرة المجموعة فى أخبار من سلف من عرب وعجم فى كـثير من الأمم، فما وجدنا فى كل ذلك المعـهود من عدد أولاد الذكور فى المكثرين الذين يتحدث بهم عند كثـرة الولد إلاَّ من أربعة عشر ذكرًا فأقل، وأمّا ما زاد إلى العشرين فنادر جدًّا.

هذه الحال فى جميع بـلاد أهل الإسلام، والذى بلغنا عن ممالك النصارى إلى أرض الروم، وممالك الصقالبة والتـرك والهند والسودان قديمًا حديثًا، وأما الثلاثون فـأكثر فما بلغنا ذلك إلا عن نفر يسير عمن سلـف. منهم «أنس بن مالك الأنصارى» وخليفة بن أبى السعدى، وأبو بكرة، فإن هؤلاء لم يموتوا حتى مشى بين يدى كل واحد منهم مائة ذكر من ولده. وعـمر بن عـبد الملك[1] فإنه كـان يركب معه ستـون رجلاً من ولده، وجعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس، فإنه عاش له أربعون ذكرًا من ولده سوى أبنائهم، وعبـد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحـمن بن معاوية[2] فإنه

(١) عـمر بن عـبد الملـك بن عبـد الرحمن بـن معـاوية بن حديج المـعروف بابن الملاك: أحـد من ولى الإسـكندرية. استـخلفه بها مـحمد بن هبيـرة، ثم عزله المطلب بن عبـدالله (أمير مصـر) وولى أخاه الفضل بن عبد الله . . . .
(الأعلام ٥/ ٥٣، ٥٤ وخطط المقريزي ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣، والولاة للكندي (١٥٧ ـ ١٦٤).

(٢) عـبد الرحـمن بن الحكم بن هشام بن عـبد الرحـمن الأمـوي، أبو المطرف: رابع ملوك بني أميـة في الأندلس. ولد في طليطلة وكان أبوه واليًا فـيها قبل ولايته الملك وبويـع بقرطبـة بعـد وفاة أبيه بيوم واحد.
وهو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، فشيد القصور وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف وبنى المساجـد في الأندلس وضرب الدراهم ونظم الجيش واستكثر من الأسلحة والعدد . . . .
(العدد ٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥، نفح الطيب ١/ ١٦٣).

ولد له خمسة وأربعون ذكـرًا عاش منهم نيف وثلاثون، وموسى بن إبراهيم بن موسى ابن جعفر بن محـمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فإنه بلغ له منهم الرجال واحـد وثلاثون ابنًا ذكورًا كلهـم، وكان أبوه أميـرًا على اليمن مرة قائمًا ومرة واليًا للمأمون، ووصيف مولى المعتصم التركى كان له خمسة وخمسون ذكرًا بالغين من ولده الأدنين. و«تامرت» مولى ابن مناد صـاحب «طرابلس» فإنه كان يركب معه ثمانون ذكرًا من أولاده الأدنين، إلا أن هذا كان يغتـصب كل امرأة أعجبته من أمة أو حرة ويولدها، ورجل من ملوك البربر من «بنـى دمر» معتزلى كان يركب مـعه مائتا فارس من ولده وولد ولـده، وتميم بن زيد بن يزيد بن يعلى بن محـمد العـرنى، فإنه بلغنا أنه كـان له نيف وخـمـسون ذكـرًا بالغين وكـان ملك بنى يفـرن ممن ملك بلادًا عظيمة. وأبو النهار بن زيرى بن منكاد فكان يركب معه ثلاثون ذكرًا من ولده الأدنين. ومرزوق بن أشكر بن الـثغرى بجـهة «لاردة»(١) -فكان يركب معـه ثلاثون فارسًا من ولده الأدنين. وبلغنا عن ملك من ملوك الهند أنه كان له ثمانون ولدًا ذكرًا بالغون.

وتذكر اليـهود فى تواريخهم أن رئيسًـا كان يدبر أمرهم كلهم يسمى «جـدعون بن بواش» من بنى منسى بن يوسف عليه السلام كان له سبعون ولدًا ذكورًا، وأن آخر من مدبـريهم أيضًا من سـبط منسى يسمى «بـايين بن جلعاد» كـان له اثنان وثلاثون ولدًا ذكورًا، وآخر من مـدبريهم اسمه «عبدون بن هلال» من بـنى أفرايم بن يوسف كان له أربعون ابنًا ذكرًا بالغون. وآخر من مدبريهم من سـبط يهوذا اسمه «أفصان» من سكان بيت لحم كان له ثلاثون زوجـة، وثلاثون ابنا ذكورًا، وثلاثون بنتًـا. وتزعم الفرس أن «جودرز» الملك على كرمان كان له تسعون ابنًا ذكورًا بالغون. فإذا كانت هذه الصفة لم نجـدها منذ نحو ثلاثة آلاف عـام إلاَّ فى أقل من عـشرين إنسـانًا فى مشـارق الأرض ومغـاربها فى الأمم السالفـة والخالفة ممن علت حـاله، وامتد عـمره، وكثـرت أمواله وعيالـه، فكيف يتأتى من هذا العدد ما لم يـسمع بمثله قط فى الدّهر، لا فى نادر ولا فى شاذ لبنى إسـرائيل كافة بمصر؟ وحالهـم فيها معـروفة مشهورة لا يـقدر أحد على إنكارها، وهى أنهم كانوا فى حياة يوسف عليه السـلام فى كفاف من العيش أصحاب غنم فـقط، ولم يكونوا فى يسار فـائض، ثم كـانوا بعد مـوت يوسف وإخوته عليـه السلام فى فاقـة عظيمة وعذاب ونصب، وسخـرة متصلة، وذلٌّ راتب، وبلاء دائب،

(١) لا ردة: بالراء المكسورة والدال المهـملة مدينة مشهـورة، بالأندلس شرقي قرطبة تـتصل أعمالهـا بأعمال طركونة منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجـوف ينسب إلى كورتها عدة مـدن . . . (معجم البلدان ٥/ ٧).

وتعب زاهق، يكاد يقطع عن الشبع، فكيف عن الاتساع فى العيال، والأشر فى الاستكثار من الولد، فهذه كذبة عظيمة مطبقة فاضحة.

وثانية: وهى أن فى توراتهم: أنهم كانوا ساكنين في أرض «قوص» فقط وأن معاشهم كان من المواشي فقط.

وذكر في توراتهم: أنهم إذ خرجوا من مصر خرجوا بجميع مواشيهم، فاعجبوا أيها السامعون وتفكروا ما الذى يكفي ستمائة ألف وثلاثة آلاف لم يعد فيهم ابن أقل من عشرين سنة، سوى النساء للقوت والكسوة من المواشى، ثم اعلموا يقينًا أن أرض مصر كلها تضيق عن مسرح هذا المقدار من المواشى فكيف أرض قوص وحدها؟.

وهم يقولون فى توراتهم: إن أبراهيم ولوطًا عليهما السلام لم تحمل كثرة مواشيهم أرض واحدة، ولا أمكنهما أن يسكنا معًا، فكيف بمواشٍ تقوّم بأزيد من ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان؟ لقد كان الذى عمل لهم هذه الكتب الملعونة المكذوبة ضعيف العقل، قليل الفكرة فيما يطلق به قلمه، فهذه كذبة فاحشة ثانية عظيمة جدًّا.

وثالثة: أنه ذكر فى توراتهم أنهم كانوا كلهم يسخرون فى عمل (الطوب) وتالله إن ستمائة ألف طَوَّاب لكثير جدًا، لا سيما فى «قوص» وحدها، وليس يمكنهم أن يقولوا: إنهم كانوا متفرقين، فإن توراتهم تقول غير هذا وتخبر أنهم كانوا مجتمعين، ذكر ذلك فى مواضع جمة منها، حيث أمرهم بذبح الخرفان ومس العنب بالدم منها حيث أباح لهم فرعون الخروج مع موسى عليه السلام، فكانوا كلهم مجتمعين بمواشيهم يوم خروجهم. وهذه كذبة عظيمة ثالثة لا خفاء بها.

والرابعة: أنه ذكر «بنى لاوى» ثلاثة رجال فقط: «فهاث» و«جرشون»، «ومراري»، وأن ذكور نسل هؤلاء الثلاثة فقط كانوا: اثنين وعشرين ألفًا من الذكور خاصة من ابن شهر فصاعدًا، من جملتهم ثمانية آلاف رجل وخمسمائة رجل وثمانون رجلاً ليس فيهم ابن أقلّ من ثلاثين سنة، ولا ابن أكثر من خمسين سنة، ثم ذكر أولاد «مرارى» فلم يذكر له إلاَّ ولدين: «محلّى» و«موشى» فقط، وذكر أولاد «جرشون» بن «لاوى» فلم يذكر له إلا ولدين فقط: «لبنى» و«شمعي» وذكر أولاد («فهاث» بن «لاوى» فلم يذكر إلاَّ أربعة فقط: «عمرام» و«يصهار» و«حبرون» و«عزيئيل». فرجع نسل «لاوى» كله إلى هؤلاء الثمانية و«هارون» عليهما السلام فقط، و«العازار» و«فرصوم» ابنى «موسى» عليه السلام وكانا صغيرين حينئذ جدًّا، وأربعة أولادِ لهارون عليه السلام، وعد أولاد «يصهار» فذكر «قورح» وإخوته، وثلاثة أولاد لقورح وبقى سائر العدد المذكور من

الألوف وهى: ثمانية آلاف «حبرون» و«عزيئيل» وأخوى «قورح» فقط، هذا و«الصافان» بن «عزيئيل» حى مقدم طبقته سوى النساء، ولعلَّ عددهن كعدد الرجال، وهذا من الحمق الذى لا نظير له، ومن قلة الحياء فى الدرجة العليا، ومن الكذب البحت فى المقدمة، ومن المحال فى المحلّ الأقصى، وجارٍ مجرى الخرافات التي تقال عند السمر بالليل، ولعمري لو ضل بتصديق هذا الهوس الفاجر واحد واثنان لكان عجبًا، فكيف أن يضل به عالم عظيم، وجيل بعد جيل مذ أزيد من ألف وخمسمائة عام مذ كتب لهم «عزرا» الوراق هذا السخام الذى أضلهم به؟ ونحمد الله على عظيم نعمته علينا حمداً كثيراً. ونسأله العصمة في باقي أعمارنا مما امتحن به من شاء إضلاله آمين آمين.

والخامسة قوله فى سفر يوشع: إنه وقع لبنى هارون ثلاث عشرة مدينة، و«العازار ابن هارون» حى قائم، فياللناس!! أفي المحال أكثر من أن يدخل فى عقل أحد أن نسل «هارون» بعد موته بسنة وأشهر يبلغ عدداً لا يسعه للسكنى إلا ثلاث عشرة مدينة؟ هل لهذا الحمق دواء إلا الغل والقيد والمجمعة وما يتبع ذلك من الكى والسوط؟ ونعوذ بالله من الخذلان.

وكذبة **سادسة** ظريفة جدًّا: وهى أنه ذكر فى توراتهم أن عدد ذكور «بنى جرشون» ابن لاوى من ابن شهر فصاعداً فكانوا ستة آلاف وخمسمائة، وأن عدد ذكور «بنى فهات» بن «لاوى» من ابن شهر فصاعداً كانوا ثمانية آلاف وستمائة، وأن عدد ذكور بنى مرارى بن لاوى من ابن شهر فصاعداً كانوا ستة آلاف ومائتين، ثم قال: فجميع الذكور من بنى لاوى من ابن شهر فصاعداً اثنان وعشرون ألفًا، فكان هذا ظريفًا جدًّا، وشيئًا تندى منه الآباط. وهل يجهل أحد أن الأعداد المذكورة إنما هى يجتمع منها واحد وعشرون ألفًا وثلاثمائة؟.

هذا أمر لا ندرى كيف وقع؟ أتراه بلغ المسخم الوجه الذى كتب لهم هذا الكتاب الأحمق من الجهل بالحساب هذا المبلغ؟ إن هذا لعجب!!.

ولقد كان الثور أهدى منه، والحمار أنبه منه بلا شك. أترى لم يأت بعده من اليهود مذ أزيد من ألف عام وخمسمائة عام من تبين له أن هذا خطأ وباطل؟ ولا يمكن أن يدعى هنا غلط من الكاتب، ولا وهم من الناسخ، لأنه لم يدعنا فى لبس من ذلك، ولا فى شك من فساد ما أتى به، بل أكد ذلك وبينه وفضحه وأوضحه بأن قال: إن بكور ذكور بنى إسرائيل كانوا اثنين وعشرين ألفًا ومائتين وثلاثة وسبعين، وأن الله تعالى أمر «موسى» أن يأخذ بنى لاوى الذكور عن بكور ذكور بنى إسرائيل، وأن يأخذ عن المائتين والثلاثة والسبعين الزائدين من بكور بنى إسرائيل عن الاثنين

وعشرين ألفًا من بـنى لاوى عن كل رأس خمسة أثقال فضة، فـاجتمع من ذلك ألف ثقل وثلاثمائة ثقل، وخمسة وستون ثقلاً، فارتفع الإشكال جملة. (وبالله التوفيق).

وتالله ما سمعنا قط بأخبث طينة، ولا أفـسد جبلة ممن كتب لهم هذا الضلال إلا من اتبعه وصدّق بضلاله. فـهذه ست كذبات فى نسق، لـو لم يكـن فى توراتـهم منهـا إلاّ واحدة لكان برهانًا قاطعًا موجبًا لليقين بأنها كتاب موضوع بلا شك، مبدّل محرّف مُغَيّر مكذوب. فكيف بجميع ما أوردنا من ذلك ونورد إن شاء الله، ونعوذ بالله من الخذلان.

ويتلو هذا كـذبة سابعة بشـيعـة شنيعة، وهـى أنهم لا يختلفون فـى أن داود عليه السلام وهو ابن «أبشباى بن عونيذ بن بوعـز بن شلومون بن نحشون بن عميناداب بن أرام بن حصـرون» لا يختلفـون فى أن «عونيـذ» المذكور جـد داود أبا أبيه كـانت أمه «روث» العمونية التى لها عندهم كتاب مفرد من كتب النبوة، ولا يختلفون فى أن من خروجهم من مصر إلى ولاية «داود» عليه السلام كانت ستمائة سنة وستًّا وستين.

وفى نص التوراة عندهم وبلا خلاف منهم: أن مقدم بنى يهوذا إذ خرجوا من مصر كان «نحشون بن عميناداب» المذكور، وأنه أخو امرأة «هارون» عليه السلام.

وفى نص توراتهم أنهم: قالوا: قال الله تعـالى: إنه لا يدخل الأرض المقدسة أحد خرج من مصر، وله عشرون سنة فصاعداً إلا «يوشع بن نون» الأفرايمى، و«كالب بن يُفَنَّة اليهـوذانى»، فصح ضرورة أن «نحـشون» مات فى التـيه، وأن الدَّاخل فى أرض الشـام هو ابنه «شلومـون» الداخل ثم ولادة «داود» عليـه السلام، ثم «أبشـاى» ثم لا تختلف كتبهم فى أن «داود» عليه السلام ولى وله ثلاث وثلاثون سنة عند تمام الستمائة سنة وست وسـتين، فينبـغى أن تسقـط سنو «داود» إذ ولى من العدد المذكـور -يكون الباقى خمسمـائة سنة وثلاثًا وسبعين سنة لثلاث ولادات. وهى ولادة «أبشاى» وولادة «عونيذ» وولادة «بوعـز». فتأملوا: ابن كم كان [عمـر كل] واحد منهم إذ ولد له ابنه المذكور؟ تعلموا أنه كذب مـستحيل فى نسبة ذلك من أعمارهم يومـئذ لأن فى كتبهم نصًّا أنه لم يعش أحد بعـد موسى عليه السلام فى بنى إسـرائيل مائة وثلاثين سنة إلا «يهوباراع» الكوهن الهـارونى وحده، بالضرورة يجب أن كل واحد ممن ذكـرنا كان له أزيد من مائة ونيف وأربعين إذ ولد له ابنه المذكور.

وهذه أقـوال يكذب بعـضهـا بعضـًا، فـصح ضـرورة لا محـيـد عنهـا أنها كـلها مبدلـة مسـتعملـة محرفـة مكذوبة ملعـونة، وثبت أن ديانتهم المأخوذة من هذه الكتب ديانة فاسدة مكذوبة من عمل الفسّاق ضرورة كالشيء المدرك بالعيان واللمس، ونحمد الله على السلامة.

فصل

شوق بنى إسرائيل إلى خضروات الأرض

ثم وصف قيام بنى إسرائيل على موسى عليه السلام، وطلبهم منه اللحم للأكل وذكروا شوقهم إلى القرع، والقثاء، والبصل، والكرات، والثوم الذى تشبه رائحته فى الروائح عقولهم فى العقول، وذكروا ضجرهم من المنّ، والله عزّ وجل قال لموسى عليه السلام: «تقول للعامة تقدسوا غدًا تأكلوا اللحم، ها أنا أسمعكم قائلين: من ذا يطعمنا أكل اللحم؟ وقد كنا بخير بمصر ليعطينكم السيد اللحم فتأكلون، ليس يومًا واحدًا ولا يومين، ولا خمسة، ولا عشرة حتى تكمل أيام الشهر، حتى يخرج على مناخركم، ويصيبكم التخم لما تخليتم عن السيّد الذى هو فى وسطكم، ويبكون قدامه قائلين: لماذا خرجنا من مصر؟ فقال موسى لله تعالى: هم ستمائة ألف رجل، وأنت تقول: أنا أعطيهم اللحوم شهرًا طعمًا؟ أترى تكثر بذبائح البقر والغنم فيقتاتون بها؟ أم تجمع حيتان البحر معًا لتشبعهم؟. فقال له الرب: أترى يد السيد عاجزة؟! سترى أن يوافيك كلامى أم لا»؟.

ثم ذكر أن الله تعالى: أرسل ريحًا فأتت بالسُّمانَى(١) من خلف البحر إلى بنى إسرائيل فأكلوها، ودخل اللحم بين أضراسهم، وأصابهم التخم، وأخذهم وباء شديد مات منهم به كثير، وأن هذا كان فى الشهر الثانى من السنة الثانية من خروجهم من مصر.

قال أبو محمد: ذكر فى هذا الفصل آيات من الله رب العالمين، وما تأتى له طامة إلاَّ تكاد تنسى ما قبلها. فأول ذلك: إخبار اللعين المبدل للتوراة بأن الله تعالى إذ قال لموسى: غدًا تأكلون اللحم إلى تمام الشهر. قال له موسى: هم ستمائة ألف رجل وأنت تقول: أنا أعطيهم اللحوم طعامًا شهرًا. أترى تكثر بذبائح البقر والغنم يقتاتون بها، أو تجمع حيتان البحر معًا لتشبعهم؟.

قال أبو محمد: حاشا لله أن يراجع رجل له مسكة عقل ربه عز وجل هذه المراجعة، وأن يشك فى قوته على ذلك، وعلى ما هو أعظم منه. فكيف رسول نبى؟ أترى «موسى» عليه السلام دخله قط شك فى أن الله تعالى قادر على أن يكثر بذبائح البقر والغنم حتى يشبعهم؟ أو على أن يأتيهم من حيتان البحر بما يشبعهم منه؟ حاشا

(١) والسُّماني: كحبارى طائر للواحد والجمع أو الواحدة سُماناةٌ والسمّانُ كشداد أصباغ يزخرف بها . . . القاموس المحيط (٤/ ٢٣٢).

لله من ذلك أتراه خفي على «موسى» عليه السلام أن الله تعالى هو الذى يرزق جميع بنى آدم فى شرق الأرض وغربها اللحم وغير اللحم؟ وأنه تعالى رازق سائر الحيوانات كلها من الطائر والعائم والمنساب، والماشى على رجلين، وأربع، وأكثر، حتى يستنكر أن يشبع شرذمة قليلة لا قدر لها من اللحم. حاشا له من ذلك!! فكيف يقول «موسى» عليه السلام هذا الكلام الأحمق؟ حاشا له من ذلك.

وقبل ذلك بعام وشهر وبعض آخر طلبوا اللحم فأتاهم بالسمانى، والمنّ، وأكلوا ذلك بنص توراتهم، أتراه نسى ذلك فى هذه المدة اليسيرة؟ أو يظن أنه قدر على الأولى ويعجز عن الثانية؟ حاشا له من هذا الهوس. ثم زيادة فى بيان هذا الكذب: أن فى توراتهم أن بنى إسرائيل إذ خرجوا من مصر مع «موسى» خرجرا بجميع مواشيهم من البقر والغنم، وأن أهل كل بيت منهم ذبحوا جديًا أو خروفًا فى تلك الليلة.

وذكر فى مواضع منها: أنهم أهدوا الكباش والتيوس والخرفان والجديان والبقر والعجول إلى قبة العهد.

وذكروا فى آخرها: أن «بنى رؤوبين» و«بنى جادا» ونصف سبط «بنى منسى» كان معهم غنم كثير، ومن البقر عدد لا يحصى، فى حين ابتداء قتالهم، وفتحهم لأرض الشام، فأى عبرة فى إشباعهم من اللحم، واللحم حاضر معهم كثير لا قليل؟ ثلاثة من الغنم كانت تكفى الواحد منهم شهرًا كاملاً، وثور واحد كان يكفى أربعة منهم شهرًا كاملاً، على أن يأكلوا اللحم قوتًا حتى يشبعوا بلا خبز، فكيف إذا تأدموا به؟ فأى عجب فى إشباعهم باللحم حتى يراجع «موسى» ربه تعالى بإنكار ذلك من قوة ربه عزَّ وجل، فهل فى العالم أحمق ممن كتب هذه الكذبة الشنيعة الباردة السخيفة الممزوجة بالكفر؟ اللهم لك الحمد على تسليمك لنا مما امتحنتهم به.

فإن قالوا: إنَّ فى كتابكم أن الله تعالى قال لزكريا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [سورة مريم: ٧] الآية.

وأن زكريا قال لربه تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [سورة مريم: ٨، ٩] الآية ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: ١٠]. وفي كتابكم أيضًا: أن الملك قال لمريم: ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [سورة مريم: ١٩] قالت: ربِّ أنَّى يكون لى غلام؟ الآية ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [سورة مريم: ٢١] الآية.

قلنا: ليس فى جواب زكريا ومريم. عليهما السلام اعتراض على بشرى البارى عزّ وجل لهما، كما فى كتابكم عن موسى عليه السلام، ولا فى كلام زكريا ومريم عليهما السلام إنكار على أن يعطيهما ولدين، وهما عقيم وبكر، إنما سألا أن يعرفا الوجه الذى منه يكون الولد فقط. لأن «أنَّى» فى اللغة العربية التى بها نزل القرآن بلا خلاف معناها «من أين». فصح ما قلنا من أنهما سألاه أن يعرفهما الله تعالى من أين يكون لهما الولدان؟ أو من أى جهة؟ أبنكاح زكريا لامرأة أخرى؟ أم نكاح رجل لمريم؟ أم عن اختراعه تعالى وقدرته؟. فإنما سأل زكريا الآية ليظهر صدقه عند قومه، ولئلا يظن أنهما أخذاه وادعياه، هذا ظاهر الآيتين اللتين ذكرنا من القرآن دون تكلف تأويل بنقل لفظ أو زيادة أو حذف، بخلاف ما حكيتم عن موسى من الكلام الذى لا يحتمل إلا التكذيب فقط.

فصل

معاندة هارون ومريم لموسى عليهم السلام

وبعد ذلك ذكر قيام «مريم» و«هارون» أخى موسى عليهِ السلام معاندين «لموسى» من أجل امرأته الحبشية.

قال أبو محمد: وكيف تكون حبشية؟ وقد قال فى أول توراتهم إنها بنت «يثرون» المديانى، وهو بلا شك من ولد «مدين بن إبراهيم» عليه السلام فأحد هذين القولين يكذب الآخر.

فصل

طلب موسى من الأسباط أن يخرجوا للأرض المقدسة

ذكر كما ذكرنا أن فى الشهر الثانى من السنة الثانية من خروجهم من مصر كان طلبهم اللحم كما ذكرنا، وأنه بعد ذلك وقع لهارون و«مريم» الشغب مع «موسى» أخيهما عليه السلام -كما ذكرنا- وأن «مريم» مرضت وأخرجت من المعسكر سبعة أيام حتى برئت ثم رجعت، وأن بعد ذلك وجه «موسى» عليه السلام الاثنى عشر رجلاً الذين كان من جملتهم «هوشع بن نون» الأفرايمى، و«كالب بن يفنّه» اليهوذانى، ليروا الأرض المقدسة وذكر أنهم طافوها فى أربعين يومًا، ثم رجعوا، وخوّفوا بنى إسرائيل، حاشا «كالب» و«هوشع». وأن الله تعالى سخط عليهم، وأهلكهم، وأوحى إلى

موسى: «أمـا جيـفكم فسـتكون ملقاة فى المفـاز، ويكون أولادكم سابحين فـى المفاز أربعين سنة على عدد الأربعين يومًا التى دوختم فـيها البلد، أجعل لكم كل يوم سنة، وتكافئون أربعين سنة بخطاياكم». وأنهم بقوا فى التـيه أربعين سنة. فلما أتموها أمرهم الله عزّ وجل بالحركة فتحركوا، ثم ماتت «مريم» أخت «موسى» عليه السلام، ثم مات «هارون» عليه السلام، ثم حارب «موسى» «عوج» و«سحون» الملكين، وأخذ بلادهما، وأعطى بلادهما لبنى رؤوبين، و«بنى جادا»، ونـصف سبط «منسى» ثم حارب المدنيين وقتل ملوكهما، ثم إنه عليه السلام مات وله مائة سنة وعشرون سنة.

وفى صدر توراتهم: أنه عليه السلام إذ خرج عن مصر كان له ثمانون سنة هذا كله نص توراتهم حرفًا حرفًا.

قال أبو محمد: هذا كذب فاحش، وقد قلنا: إن الذى عمل لهم التوراة التى بأيديهم كان قليل العلم بالحساب، ثقـيل اليد فيه جداً، أو عيَّاراً[1]، ماجنًا مستخفًّا لا دين له سخر منهم بأمـثال التيوس والحمـير. لأنه إذا خرج وله ثمانون سنة ويبقى بعـد خروجه سنة وشهراً، ثم قاتلـوا ملوكًا عدة وقتلوهم وأخذوا بلادهم وأموالهم، فـقد اجتمع من ذلك ضرورة زيادة على المائة والعشرين سنة أكـثر من سنة ولابد، والأغلب أنهما ستتان زائدتان، فكذب ولابدّ فى سنّ مـوسى إذ مـات، أو كذب الوعـد الذى أخبـر عن الله تعالى بتـيههم أربعين سنة، حـاشا للبارى تـعالى أن يكذب، أو أن يغلط فى دقيـقة أو أقل، وحاشا لنبيه ﷺ من مثل ذلك، وصحّ أنها مولدة موضوعة.

فصل

طلب موسى من قومه عدم السماع لأدعياء النبوة

ثم ذكر فى السـفر الخـامس فقال: إن طلع فـيكم نبى وادّعى أنه رأى رؤيا وأتاكم. بخبر ما يكون، وكـان ما وصفه ثم قال لكم بعد ذلك: اتبـعوا أبناء آلهة الأجناس فلا تسمعوا له.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل شنعة من شنع الدّهر وتدسيس كافر مبطل للنبوات كلها، لأنـه أثبت النبوة بقـوله: إن طلع فيكم نبى ويصـدقه فى الأخبـار بما يكون ثم أمرهم بمعصيته إذا دعاهم إلى اتباع آلهة الأجناس، وهذا تناقض فاحش، ولئن جاز أن

(١) العـيّار: الكثـير الذهاب والمجيء في الأرض ومن الرجـال الذي يخلي نفسـه وهواها لا يردعـها ولا يزجرها. (المعجم الوسيط ٦٣٩/٢).

يكون نبى يصدق فيما ينذر به يدعو إلى الباطل والكفر، فلعل موسى صاحب هذه الوصية من أهل هذه الصفة، وما الذى يؤمننا من ذلك؟ وهل ها هنا شيء يوجب تصديقه واتباعه ويبينه من الكذابين إلا ما صحح نبوته من المعجزات؟ فلما لزمت معصيته إذا أمر بباطل فإن معصية موسى لازمة وغير جائزة فى شيء مما أمر به، إذ لعلَّه أمر بباطل إذ كان فى الممكن أن يكون نبى يأتى بالمعجزات يأمر بباطل، وحاشا لله من أن يقول موسى عليه السلام هذا الكلام. والله ما قاله قط، ولقد كذب عليه الكذاب المبدل للتوراة. وكذلك وحاشا لله من أن يكون نبى من الأنبياء يكذب أو يأمر بباطل، وحاشا لله أن تظهر آية على يدى من يمكن أن يكذب، أو يأمر بباطل، هذا هو التلبيس من الله على عباده، ومزج الحق بالباطل وخلطهما حتى لا يقوم برهان على تحقيق حق ولا إبطال باطل.

واعملوا أن هذا الفصل من توراتهم، والفصل الملعون الذى فيه أن السحرة عملوا مثل بعض ما عمل «موسى» عليه السلام، فإنهما مبطلان على اليهود المصدقين بهما نبوة كل نبى يقرون له بنبوة قطعًا، لأنه لا فرق فيهما بين «موسى» وسائر أنبيائهم، وبين الكذابين والسحرة، وحاشا لله من هذا، وبه تعالى نعوذ من الخذلان.

هذا مع قوله بعد ذلك: «وأيما نبى أحدث فيكم من ذاته نبوة ممّا لم نأمر به، ولم أعهد إليه به، أو تنبأ فيكم يدعو للآلهة والأوثان فاقتلوه».

فإن قلتم فى أنفسكم: من أين يعلم أنه من عند الله أو من ذاته؟ فهذا علمه فيكم؛ إذا أنبأ بشىء ولم يكن، فاعلموا أنه من ذاته.

قال أبو محمد: هذا كلام صحيح، وهذا مضادٌّ للذى قبله من أنه ينبىء بالشىء فيكون كما قال، وهو مع ذلك يدعو إلى عبادة غير الله، والقوم مخذولون نقلوا دينهم عن زنادقة مستخفين لا مؤنة عليهم أن ينسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام الكفر والضلال والكذب والعهر كالذى ذكرنا قبلُ، وكنسبتهم إلى «هارون» عليه السلام: أنه هو الذى عمل العجل لبنى إسرائيل، وبنى له مذبحًا، وقرب له القربان، وجرَّد أستاه قومه للرقص والغناء قدام العجل عراة.

وكما نسبوا إلى سليمان عليه السلام: أنه قرَّب القرابين للأوثان على الكدى(١)،

---

(١) الكُدى: الصحراء، الكدية: الأرض الغليظة أو الصلبة لا تعمل بها الفأس (ج) كدًى (الوسيط ٢/ ٧٨٠).

وأنه قتل «يواب بن صوريا» صبراً، وهو نبى مثله.

وكما نسبوا إلى «شاول» وهو نبى عندهم يوحى إليه قتل النفوس ظلمًا.

ونسبـوا إلى «بلعام بن ناعـورا» وهو نبى عندهم يوحى الله تعالى إليـه مع الملائكة العون على الكفر، وأن «موسى» وجيشه قتلوه.

ثم نسبـوا النبوة إلى «منسى بن حـزقيـا» الملك، وهو بإقرارهم كافـر ملعون يعـبد الأوثان، ويقتل الأنبياء.

وينسبـون المعجرات إلى «شـمشون» الدابى، وهو عندهم فـاسق مشهـور بالفسق، متعشق للفواسق ملم بهنَّ. وينسبون المعجزات إلى السحرة.

فاعجبوا لعظيم بليتهم، واحمدوا الله على السلامة، واسألوه العافية لا إله إلاَّ هو.

فصل

ثم قال فى آخر توراتهم: فتوفى «موسى» عبد الله بذلك الموضع فى أرض «مواب» مقابل بيت «فغور»، لم يعرف آدمى موضع قبره إلى اليوم، وكان موسى يوم توفى ابن مائة وعـشرين سنة لم ينقص بصـره ولا تحركت أسنانه، فنعاه بنـو إسرائيل فى أوطنة «مواب» ثلاثين يومًا، وأكملوا نعيه.

ثم إن «يوشع بن نون» امـتلأ من روح الله، إذ جعل مـوسى يديه عليه وسـمع له بنو إسرائيـل، وفعلوا مـا أمر الله به «موسـى»، ولـم يخلف «موسى» فى بنى إسـرائيل نبى مثله، ولا من يكلمه الله مواجهة فى جميع عجائبه التى فعل يديه بأرض مصر فى فرعون مع عبيده، وجميع أهل مملكته، ولا من صنع ما صنع موسى فى جماعة بنى إسرائيل.

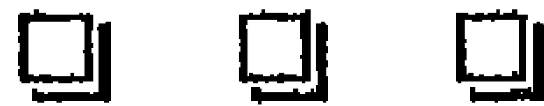
قال أبو مـحمد: هذا آخر توراتهم وتمامها، وهذا الـفصل شاهد عدل وبرهان تام، ودليل قاطع، وحجة صـادقة فى أن توراتهم مبدّلة، وأنها تاريخ مؤلـف كتبه لهم من تخرّص[1] بجهله، أو تعمّد بكفره، وأنها غير منزلة من عند الله تعالى، إذ لا يمكن أن يكون هذا الفصل منـزلاً على موسى فى حيـاته، فكان يكون إخباراً عنهـما، لم يكن بمساق ما قد كان، وهذا هو محض الكذب تعالى الله عن ذلك.

وقوله «لم يعـرف قبره آدمى إلى اليـوم» بيان لما ذكرنا كـاف، وأنه تاريخ ألف بعد

(١) الخرص: الحـزر والكذب وكل قول بالظن، والخرص: بالضم ويكسـر حلقة الذهب والفضـة (المحيط ٢/٢٩٨).

دهر طويل ولابد.

قال أبو محمد: ها هنا انتهى ما وجدنا من التوراة لليهود التي اتفق عليها الربانيون، والعانانيون، والعيسويون، والصدوقيون منهم مع النصارى أيضًا بلا خلاف منهم فيها من الكذب الظاهر فى الأخبار وفيما يخبر به عن الله تعالى ثم عن ملائكته، ثم عن رسله عليهم السلام من المناقضات الظاهرة، والفواحش المضافة إلى الأنبياء عليهم السلام، ولو لم يكن فيها إلاً فصل واحد من الفصول التى ذكرنا لكان موجبًا ولابدّ لكونها موضوعة محرفة مبدّلة مكذوبة، فكيف وهى سبعة وخمسون فصلاً، من جملتها فصول يجمع الفصل الواحد منها سبع كذبات أو مناقضات فأقل، سوى ثمانية عشر فصلاً يتكاذب فيها نص توراة اليهود مع نص تلك الأخبار بأعيانها عند النصارى، والكذب لائح ولابد من إحدى الحكايتين، فما ظنكم بمثل هذا العدد من الكذب والمناقضة فى مقدار توراتهم؟ وإنما هى مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق فى كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرًا إلى نحو ذلك بخط هو إلى الانفساح أقرب يكون فى السطر بضع عشرة كلمة.



كيف حرفت التوراة؟

قال أبو محمد: ونحن نصف إن شاء الله تعالى حال كون التوراة عند بنى إسرائيل من أول دولتهم إثر موت موسى عليه السلام إلى انقراض دولتهم، إلى رجوعهم إلى بيت المقدس إلى أن كتبها لهم «عزرا» الوراق بإجماع من كتبهم، واتفاق من علمائهم دون خلاف يوجد من أحد منهم فى ذلك، وما اختلفوا فيه من ذلك، نبهنا عليه ليتيقن كل ذى فهم أنها محرفة مبدلة - وبالله تعالى نستعين -.

قال أبو محمد: دخل بنو إسرائيل الأردن وفلسطين والغور مع «يوشع بن نون» مدبر أمرهم عليه السلام إثر موت «موسى» عليه السلام، ومع «يوشع» «العازار ابن هارون عليه السلام» صاحب السرادق بما فيه، وعنده التوراة لا عند إحد غيره بإقرارهم، فدبر «يوشع» عليه السلام أمرهم فى استقامة وألزمهم للدّين إحدى وثلاثين سنة مذ مات «موسى» عليه السلام إلى أن مات «يوشع» ثم دبرهم «فينحاس بن العازار ابن هارون» وهو صاحب السرادق، والكوهن الأكبر، والتوراة عنده لا عند أحد غيره خمسًا وعشرين سنة فى استقامة والتزام للدين، ثم مات وطائفة منهم عظيمة يزعمون أنه حىٌّ إلى اليوم وثلاثة أنفس إليه، وهم «إلياس» النبى الهارونى عليه السلام، وملكيصيدق بن قالع بن عامر بن أرفخشاذ بن سام بن نوح عليه السلام، والعبد الذى بعثه إبراهيم عليه السلام ليزوّج إسحاق عليه السلام «رفقة بنت بتوئيل بن ناخور» أخى إبراهيم عليه السلام، فلما انقضت المدة المذكورة «لفينحاس» «بن العازار»، كفر بنو إسرائيل، وارتدوا كلهم، وعبدوا الأوثان علانية، فملكهم كذلك ملك «صور» و«صيدا» مدة ثمانية أعوام على الكفر، ثم دبّر أمرهم «عثنيال بن قنار ابن أخى كالب ابن يفنة بن يهوذا» أربعين سنة على الإيمان، ثم مات فكفر بنو إسرائيل كلهم، وارتدّوا، وعبدوا الأوثان علانية، فملكهم كذلك «عغلون» ملك «بنى مواب» ثمانى عشرة سنة على الكفر، ثم دبر أمرهم «أهوذ بن قار» قيل إنه من سبط «أفرايم»، وقيل من سبط «بنيامين»، واختلف أيضًا فى مدة رياسته، فقيل ثمانون سنة، وقيل خمس وخمسون سنة على الإيمان إلى أن مات. ثم دبرهم «سمعان بن غاث بن سبط أشار» خمسًا وعشرين سنة على الإيمان، ثم مات فكفر بنو إسرائيل كلهم، وعبدوا الأوثان جهارًا، فملكهم كذلك «مراش» الكنعان» عشرين سنة على الكفر، ثم دبّرت أمرهم

«دبور» النبتية من سبط «يهوذا»، وكان زوجها رجلاً يسمى «السدوث» من سبط أفرايم إلى أن ماتت وهم على الإيمان، فكان مدة تدبيرها لهم أربعون سنة، فلما ماتت كفر بنو إسرائيل كلهم وارتدوا وعبدوا الأوثان جهارًا، فملكهم «عوزيب» و«زاب» ملك بنى مدين سبع سنين على الكفر. ثم دبّر أمرهم «جدعون بن يوآش» من سبط «أفرايم»، وقيل بل من سبط «منسى»، وهم يصفون أنه كان نبيًا وكان له واحد وسبعون ابنًا ذكورًا، فملكهم على الإيمان أربعين سنة، ثم مات وولى ابنه أبو مالك بن جدعون، وكان فاسقًا خبيث السيرة، فارتد جميع بنى إسرائيل، وكفروا وعبدوا الأوثان جهارًا، وأعانه أخواله من أهل «نابلس» من بنى إسرائيل من سبط يوسف بتسعين دبرًا من بيت «ماعل» الصنم، ومضوا معه فقتل جميع أخواته، حاشا واحدًا منهم أفلت بقى كذلك ثلاث سنين إلى أن قتل، ودبّرهم بعده «مولع بن قوا» من سبط «يساخر»، ولم نجد بيانًا هل كان على الإيمان أو على الكفر خمسًا وعشرين سنة، ثم مات، ثم دبّر أمرهم بعده «بابين بن جلعاد» من سبط «منسى» اثنين وعشرين عامًا على الإيمان إلى أن مات، وكان له اثنان وثلاثون ولدًا ذكورًا قد ولى كل واحد منهم مدينة من مدائن بنى إسرائيل، فارتدّ بنو إسرائيل كلهم بعد موته، وعبدوا الأوثان جهارًا، وملكهم «بنو عمون» ثمان عشرة سنة متصلة على الكفر، ثم قام فيهم رجل من سبط «موسى» اسمه «هيلع» بن «جلعاد» ولا يختلفون فى أنه كان ابن زانية، وكان فاسقًا خبيث السيرة، نذر إن أظفره الله بعدوه، أن يقرب لله سبحانه وتعالى أول من يلقاه من منزله، فأول من لقيه ابنته، ولم يكن له ولدٌ غيرها فوفى بنذره وذبحها قربانًا، وكان فى عصره نبى فلم يلتفت إليه، وأنه قتل من «بنى أفرايم» اثنين وأربعين ألف رجل، فملكهم ست سنين، ثم مات، فوليهم بعده «أفصان» من سبط «يهوذا» من سكان بيت لحم، وكان له ثلاثون ابنًا ذكورًا، فوليهم سبع سنين، وقيل ست سنين، ثم مات، والأظهر من حاله على ما توجبه أخبارهم الاستقامة، ووليهم بعده «أيلون» من سبط «زبلون» عشر سنين إلى أن مات. وولى بعده عبدون بن هلال من سبط «أفرايم» ثمانى سنين على الإيمان، وكان له أربعون ولدًا ذكورًا، فلما مات ارتد بنو إسرائيل كلهم، وكفروا وعبدوا الأوثان جهارًا، فملكهم الفلسطينيون وهم الكنعانيون وغيرهم أربعين سنة على الكفر، ثم دبرهم «شمشون بن مانوح» من سبط «دانى» وكان مذكورًا عندهم بالفسق واتباع الزوانى، فدبّرهم عشرين سنة، وينسبون إليه المعجزات، ثم أُسِرَ ومات، فدبر بنو إسرائيل بعضهم بعضًا فى سلامة وإيمان

أربعين سنة بلا رئيس يجمعهم، ثم دبرهــم الكاهن الهارونى على الإيمان عشرين سنة إلى أن مات، ثم دبّرهم «شـمويل» بن «فـتان» النبى من سبـط «أفرايم» قيل عـشرين سنة، وقيل أربـعين سنة، كل ذلك فى كتـبهم على الإيمان. وذكروا أنه كـان له ابنان «يوهال» و«أبيا» يجـوران فى الحكم ويظلمان الناس، وعند ذلك رغبوا إلـى «شمويل» أن يجعل لهم ملكًا، فولّى عليهم «شاول الدّباغ بن قيش بن أنيل بن شارون بن بورات ابن آسيا بن خس» من سبط «بنيامين» وهو «طالوت»، فوليهم عشرين سنة، وهو أول ملك كان لهم، ويصـفونه بالنبوة وبالفـسق والظلم والمعاصى معًـا، وأنه قتل من بنى «هارون» نيفًا وثمانين شابًا وقتل نساءهم وأطفالهم، لأنهم أطعموا «داود» عليه السلام خبزًا فقط.

فاعلموا الآن أنه كـان مذ دخلوا الأرض المقدسة إثر مـوت «مـوسـى» عليه السلام إلى ولايـة أول ملك لهم وهـــو «شاول» المذكـور سـبع ردّاتٍ فـارقوا فـيهـا الإيمان، وأعلنوا عبادة الأصنام.

فأولها: بقوا فيها ثمانية أعوام. والثانية: ثمانية عشر عامًا. والثالثة: عشرين عامًا. والرابعة: سبـعة أعوام. والخامـسة: ثلاثة أعوام وربما أكثـر. والسادسة: ثمانيـة عشر عامًا. والسابعة: أربعين عامًا.

فتـأملوا!! أى كتاب يبقى مع تمادى الكـفر ورفض الإيمان هذه المدد الطوال فى بلد صغير مـقدار ثلاثة أيام فى مثلها فقط، ليس على دينهم واتباع كـتابهم أحدٌ على ظهر الأرض غيرهـم.

ثم مات «شاول» المذكور مقتولاً، وولى أمرهم «داود» عليه السلام وهم ينسبون إليه الزنى علانـية بأم سليمـان عليه السـلام، وأنهـا ولدت منه من «الزنى» ابنًا مـات قبل ولادة سليمان.

فعلى من يضيف هذا إلى الأنبياء عليهم السلام ألف ألف لعنة.

وينسبون إليه أنه قتل جـميع أولاد «شاول» لذنب أبيهم، حاشا صغيـرًا مقعدًا كان فيهم فقط. وكانت مدته عليه السلام أربعين سنة.

ثم ولى «سليمـان» عليه السلام، وقد صفـوه بما ذكرنا قبل. وذكروا عنه أن نفـقته فرضـها على الأسبـاط، لكل سبط شهـر من السنة. وأن جنده كانوا اثنى عـشر ألف

فارس على الخيل، وأربعين ألفًا على الرمك[1]، خلافًا لما فى التوراة، أن لا يكثروا من الخيل وهو الذى بنى الهيكل فى بيت المقدس وجعل فيه السرادق والمذبح والمنارة الآن والقربان والتوراة، والتابوت، وسكنه بنى هارون، فكانت ولايته أربعين سنة. ثم مات عليه السلام. فافترق أمر بنى إسرائيل، فصار «بنو يهوذا»، و«بنو بنيامين» لبنى «سليمان بن داود» عليه السلام فى بيت المقدس. وصار مُلْكُ الأُسباط العشرة الباقية إلى مَلِكٍ آخر منهم يسكن «بنابلس» على ثمانية عشر ميلاً من «بيت المقدس»، وبقوا كذلك إلى ابتداء إدبار أمرهم على ما نبين إن شاء الله تعالى، فنذكر بحول الله تعالى وقوته أسماء ملوك بنى سليمان عليه السلام وأديانهم، ثم نذكر ملوك الأسباط العشرة، وبالله عزّ وجل نتأيد، ليرى كل واحد كيف كانت حال التوراة، والديانة فى أيام دولتهم.

ملوك الأسباط العشرة

قال أبو محمد: ولى إثر موت «سليمان بن داود» عليه السلام ابنه «رحبعام بن سليمان» وله ست عشرة سنة وكانت ولايته سبعة عشر عامًا، فأعلن الكفر طول ولايته، وعبد الأوثان جهارًا هو وجميع رعيته وجنده بلا خلاف منهم. ويقولون: إن جنده كانوا مائة ألف وعشرين ألف مقاتل، وفى أيامه غزا ملك مصر فى سبعة آلاف فارس، وخمسة عشر ألف رجل بيت المقدس، فأخذها عنوة بالسيف وهرب «رحبعام»، وانتهب ملك مصر المدينة والقصر والهيكل وأخذ كل ما فيها، ورجع إلى مصر سالمًا غانمًا.

ثم مات «رحبعام» على الكفر، فولى مكانه ابنه «أبيا» وله ثمانى عشرة سنة فبقى على الكفر هو وجنده ورعيته، وعلى عبادة الأوثان علانية. وكانت ولايته ست سنين. ويقولون: قتل من الأسباط العشرة فى حروبه معهم خمسمائة ألف إنسان.

ثم ولى بعد موته ابنه «أشا بن أبيا» وله عشر سنين، وكان مؤمنًا، فهدم بيوت الأوثان، وأظهر الإيمان، وبقى فى ولايته إحدى وأربعين سنة على الإيمان. وذكروا أن جنده كانوا ثلاثمائة آلاف مقاتل من «بنى يهوذا»، واثنين وخمسين ألفًا من «بنى بنيامبن».

(١) رمك: الرّمكة: الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل معرب والجمع «رمكّ» و«أرماك» جمع الجمع، الجوهري الرمكة الأنثى من الراذين والجمع «رماك». (لسان العرب ١٠/ ٤٣٤).

ومات وولى بعده ابنه: «يهوشـافاط بن أشا» وهو ابن خمس وثلاثين سنة، فكانت ولايته: خمسًا وعشرين سنة، وذكروا عنه أنه كان على الإيمان إلى أن مات.

فولى ابنه «يهورام بن يهوشافاط»: ولم نجد أمر سيرته ودينه إلا أنه كان مؤلفًا لعبادة الأوثان من ملوك سائر الأسـباط. وولى وله اثنان وثلاثون سنة، وكانت ولايته ثـمانية أعوام، ومات.

فولى مكانه ابنه «أحزياهو» وله اثنان وعشرون سنة فأظهر الكفر وعبادة الأصنام فى جميع رعيته، وكانت ولايته سنة وقتل. فوليت أمه «عثلياهو» بنت عمرى ملك العشرة الأسبـاط، فتمـادت على أشد ما يكون من الكفـر وعبادة الأوثان، وقـتلت الأطفال، وأمـرت بإعـلان الزنـى فى البـيت المقـدس، وجـميع عملها، وعـهدت ألا تمنع امرأة ممن أراد الزنـى معهـا، وعهدت أن لا ينكر ذلك أحـد، فبقيت كذلك ست سنين إلى أن قتلت.

فولى ابن ابنها «يؤاش بن أحزياهو»: وله سبع سنين، فاتصلت ولايته أربعين سنة، وأعلن الكفر، وعـبادة الأوثان، وقـتل «زكريا» النبى عليه السـلام بالحجـارة، ثم قتله غلمانه فولى بعده ابنه «أمصيـاهو بن يؤاش»: وله خمس وعشرون سنة، فأعلن الكفر وعبادة الأوثان هو وجـميع رعيتـه فبقى كذلك إلى أن قتل وهو علـى الكفر، وكانت ولايته تسعًـا وعشرين سنة، وفى أيامه انتـهب ملك الأسباط العشـرة البيت المقدس، وأغاروا على كل ما فيه مرتين.

ثم ولى بعده «عـزياهو بن أمصياهو»، وله ست عـشرة سنة، فأعلن الكفـر وعبادة الأوثان هو وجميع رعـيته إلى أن مات. وكانت ولايته اثنتين وخـمسين سنة وهو قتل «عاموص» النبى عليه السلام الداوودى.

فولى بعـده ابنه «يوثام بن عزياهو» ولـه خمس وعشـرون سنة ولم نجد له سـيرة، وكانت ولايته ست عشرة سنة فمات.

فولى مكانه ابنه «أحـار بن يوثام» وله عشرون سنة، فأعلن الكفـر وعبادة الأوثان، وكانت ولايته ست عشرة سنة إلى أن مات.

فولى بعده ابنـه «حزقيا بن أحاز» وله خـمس وعشرون سنة، وكانت ولايتـه تسعًا وعشرين سنة فأظهر الإيمان، وهدم بيوت الأوثان، وقتل خدمتهما، وبقى على الإيمان إلى أن مات هو وجـميع رعيـته، وفى السنة السابعـة من ولايته انقطع ملك العـشرة

الأسباط من بنى إسرائيل، وغلب عليهم «سليمان» الأعسر ملك «الموصل»، وسباهم ونقلهم إلى «آمد» و«بلاد الجزيرة».

وسكن فى بلاد الأسباط العشرة أهل «آمد» والجزيرة، فأظهروا دين «السّامرة» الذين هناك إلى اليوم.

ثم مات «حزقيا»، وولى بعده ابنه «منسى بن حزقيا»، وله اثنتا عشرة سنة ففى السنة الثالثة من ملكه أظهر الكفر، وبنى بيوت الأوثان، وأظهر عبادتها هو وجميع أهل مملكته. وقتل «شعيا» النبى، قيل نشره بالمنشار من رأسه إلى مخرجه، وقيل قتله بالحجارة وأحرقه بالنار، والعجب كله أنهم يصفون فى بعض كتبهم بأن الله أوحى إليه مع ملك من الملائكة، وأن ملك «بابل» كان أسره وحمله إلى بلده وأدخله فى ثور نحاس، وأوقد النار تحته، فدعا الله فأرسل إليه ملكًا فأخرجه من الثور، وردّه إلى بيت المقدس، وأنه تمادى مع ذلك كله على كفره حتى مات، وكانت ولايته خمسًا وخمسين سنة، فقولوا يا معشر السامعين، بلد تعلن فيه عبادة الأوثان، وتبنى هياكلها، ويقتل من جد وفيه من الأنبياء، كيف يجوز أن يبقى فيه كتاب الله سالمًا؟ أم كيف يمكن هذا؟.

فلما مات «منسى» ولى مكانه ابنه «آمون بن منسى» وهو ابن اثنين وعشرين عامًا، فكانت ولايته سنتين على الكفر وعبادة الأوثان إلى أن مات.

فولى مكانه ابنه «يوشيا بن آمون» وهو ابن ثمان سنين. ففى السنة الثالة من ملكه أعلم الإيمان، وكسر الصلبان وأحرقها، واستأصل هياكلها، وقتل خدامها، ولم يزل على الإيمان إلى أن قتل، قتله ملك مصر. وفى أيامه أخذ «أرميا» النبى السرادق والتابوت والنار، وأخفاها حيث لا يدرى أحد لعلمه بقوت ذهاب أمرهم.

ثم ولي بعده ابنه «يهوياحوز بن يوشيا»، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، فأعلن الكفر وردّ عبادة الأوثان، وأخذ التوراة من الكاهن الهارونى ونشر منها أسماء الله حيث وجدها، وكانت ولايته ثلاثة أشهر، وأسره ملك مصر.

فولى مكانه «يهوياقيم بن يوشيا» أخوه، وهو ابن خمس وعشرين سنة فأعلن الكفر وبنى بيوت الأوثان هو وجميع أهل مملكته، وقطع الدين جملة، وأخذ التوراة من الهارونى فأحرقها بالنار، وقطع أثرها، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة، ومات.

فولى مكانه «يهوياكين بن يهوياقيم» وتلقب «بنخيا» وهو ابن ثمانى عشرة سنة فأقام على الكفر وأعلن عبادة الأوثان. وكانت ولايته ثلاثة أشهر، وأسره «بختنصر».

فولى مكانه عمه «متنيا بن يوشيا» وتلقب «صدقيا» وهو ابن إحدى وعشرين سنة فثبت على الكفر، وأعلن عبادة الأوثان هو وجميع أهل مملكته، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة، وأسره «بختنصر» وهدم البيت والمدينة، واستأصل جميع بنى إسرائيل، وأخلى البلد منهم، وحملهم مسبيين إلى بلد «بابل». وهو آخر ملوك بنى إسرائيل، وبنى سليمان جملة، فهذه كانت صفة ملوك بنى «سليمان بن داود» عليهما السلام.

فاعلموا الآن أن التوراة لم تكن من أول دولتهم إلى انقضائها إلاَّ عند الهارونى الكوهن الأكبر وحده فى الهيكل فقط.

وأما ملوك الأسباط العشرة فلم يكن فيهم مؤمن قط ولا واحد فما فوقه، بل كانوا كلهم معلنين عبادة الأوثان، مخيفين للأنبياء، مانعين القصد إلى «بيت المقدس» لم يكن فيهم نبى قط إلاَّ مقتولاً، أو هاربًا مخافًا.

فإن قيل: أليس قد قتل «إلياس» جميع أنبياء «بابل» لأجل الوثن الذى كان يعبده الملك، والنخلة التى كانت تعبدها بنى إسرائيل، وهم ثمانمائة وثمانون رجلاً؟ قلنا: إنما كان بإقرار كتبهم فى مشهد واحد، ثم هرب من وقته وطلبته امرأة الملك لتقتله، وما أبصره أحد.

فأول ملوك الأسباط العشرة «يربعام بن ناباط» الأفرايمى، وليهم إثر موت «سليمان» النبى ﷺ، فعمل من حينه عجلين من ذهب وقال: هذان إلاهاكم اللذان خلصاكم من مصر، وبنى لهما هيكلين، وجعل لهما سدنة من غير «بنى لاوى» وعبدهما هو وجميع أهل مملكته، ومنعهم من المسير إلى بيت المقدس، وهو كان شريعتهم لا شريعة لهم غير القصد إليه والقربان فيه، فملك أربعًا وعشرين سنة، ثم مات.

وولى ابنه «ناداب بن يربعام» على الكفر المعلن سنتين ثم قتل هو وجميع أهل بيته.

وولى «بعشا بن إيلا» من «بنى يساخر» على عبادة الأوثان علانية أربعًا وعشرين سنة.

وولى ولده «إيلا بن بعشا» على الكفر وعبادة الأوثان سنتين إلى أن قام عليه رجل من قواده اسمه «زمرى» فقتله وجميع أهل بيته.

وولى «زمرى» سبعة أيام، فقتل وأحرق عليه داره، وافترق أمرهم على رجلين أحدهما يسمى «تبنى بن جينة» والآخر «عمرى» فبقيا كذلك اثنى عشر عامًا، ثم مات

«تبنى» وانفرد بملكهم «عمرى» فبقى كذلك ثمانية أعوام على الكفر وعبادة الأوثان إلى أن مات.

وولى بعده ابنه «أحاب بن عمرى» على أشد ما يكون من الكفر وعبادة الأوثان إحدى وعشرين سنة. وفى أيامه كان إلياس النبى عليه السلام هاربًا عنه فى الفلوات، وعن امرأته بنت ملك «صيدا» وهما يطلبانه للقتل، ثم مات «أحاب» وولى ابنه «أحزيا ابن أحاب» على الكفر وعبادة الأوثان ثلاث سنين ثم مات. وولى مكانه أخوه «يهورام ابن أحاب» على الكفر وعبادة الأوثان اثنتى عشرة سنة إلى أن قتل هو وجميع أهل بيته.

وفى أيامه كان «اليسع» عليه السلام وولى مكانه «ياهو بن نمشى» من سبط «منسى» فكان أقلهم كفرًا، هدم هياكل ما على الوثن، وقتل سدنته، إلا أنه لم ينقض قطع عبادة الأوثان بل ترك الناس عليها، ولم يظهر الإيمان، فولى كذلك ثمانيًا وعشرين سنة ومات.

وولى مكانه ابنه «يهوياحاز بن ياهو» سبع عشرة سنة فبنى بيوت الأوثان، وأعلن عبادتها هو ورعيته إلى أن مات. وفى كتبهم أن أمر الأسباط العشرة ضعف فى أيامه، حتى لم يكن معه من الجند إلا خمسون فارسًا وعشرة آلاف رجل فقط، لأن ملك «دمشق» غلب عليهم وقتلهم.

وولى مكانه ابنه «يواش بن يهوياحاز» ست عشرة سنة على أشد من كفر أبيه، وأخذ فى عبادة الأوثان، وهو الذى غزا «بيت المقدس» وأغار عليه، وعلى الهيكل، وأخذ كل ما فيه، وهدم من سور المدينة أربعمائة ذراع، وهرب عنه ملكها «يهوذا» ثم مات.

وولى مكانه ابنه «ياربعام بن يؤاش» خمسًا وأربعين سنة على مثل كفر أبيه، وعبادة الأوثان، وغزا أيضًا «بيت المقدس» وهرب أمامه ملكها الداوودى، فأتبعه فقتله ثم مات.

وولى مكانه ابنه «زخريا بن ياربعام بن يؤاش بن يهوياحاز بن ياهو بن نمشى» ستة أشهر على الكفر وعبادة الأوثان إلى أن قتل هو وجميع أهل بيته.

وولى مكانه «شلوم بن نامس» من سبط «نفتالى» فملك شهرًا واحدًا على الكفر وعبادة الأوثان، ثم قتل.

وولى بعده «مياخيم» بن «قارا» من سبط «يساخر» عشرين سنة على عبادة الأوثان والكفر ومات.

وولى مكانه ابنه «محيا بن مياخيم» على الكفر وعبادة الأوثان سنتين إلى أن قتل هو وجميع أهل بيته.

وولى مكانه «ناجح بن مليا» من سبط «دانى» فملك ثمانيًا وعشرين سنة على الكفر وعبادة الأوثان إلى أن قتل هو وجميع أهل بيته.

وفى أيامه أجلى «تباشر» ملك الجزيرة «بنى رؤوبين» و«بنى جادا» ونصف سبط «منسى» من بلادهم «بالغور» وحملهم إلى بلاده وسكّن بلادهم قومًا من بلاده.

ثم ولى مكانه «هوسيع بن أيلا» من سبط «جادا» على الكفر وعبادة الأوثان سبع سنين إلى أن أسره كما ذكرنا «سليمان» الأعسر ملك «الموصل»، وحمله والتسعة الأسباط، ونصف سبط «منسى» إلى بلاده أسرى وسكّن بلادهم قومًا من أهل بلده، وهم «السامرية» إلى اليوم. و«هوشيع» هذا آخر ملوك الأسباط العشرة. وانقضى أمرهم.

فبقايا المنقولين من «آمد» و«الجزيرة» إلى بلاد بنى إسرائيل هم الذين ينكرون التوراة جملة، وعندهم توراة أخرى غير هذه التى عند اليهود، ولا يؤمنون بنبى بعد «موسى» عليه السلام، ولا يقولون بفضل بيت المقدس، ولا يعرفونه، ويقولون: إن المدينة المقدسة هى «نابلس» فأمر توراة أولئك أضعف من توراة هؤلاء، لأنهم لا يرجعون فيها إلى نبى أصلاً ولا كانوا هنالك أيام دولة بنى إسرائيل، وإنما عملها لهم رؤساؤهم أيضًا فقد صح يقينًا أن جميع أسباط بنى إسرائيل حاشا سبط «يهوذا» و«بنيامين» ومن كان بينهم من بنى هارون بعد «سليمان» عليه السلام مدة مائتى عام وواحد وسبعين عامًا لم يظهر فيهم قط إيمانٌ ولا يومًا واحداً فما فوقه، وإنما كانوا عباد أوثان، ولم يكن قط فيهم نبى إلا مخاف، ولا كان للتوراة عندهم لا ذكر، ولا رسم، ولا أثر، ولا كان عندهم شىء من شرائعها أصلاً، مضى على ذلك جميع عامتهم، وجميع ملوكهم، وهم عشرون ملكًا، قد سميناهم إلى أن جاءوا ودخلوا فى الأمم وتدينوا بدين الصابئين الذين كانوا بينهم متملكين، وانقطع اسمهم ورسمهم إلى الأبد فلا يُعرف منهم عينُ أحد، وظهر يقينًا أن «بنى يهوذا» و«بنى بنيامين» كانت مدة ملكهم بعد موت «سليمان» عليه السلام أربعمائة سنة غير أعوام على اختلاف من كتبهم فى

ذلك فى بضعة عشر عامًا، وقد قلنا: إنهـا كتب مدخولة فاسدة. ملك هذين السبطين فى هذه المدة من «بنى سليمان بن داود» عليهما السلام تسعة عشر رجلاً. ومن غيرهم امرأة تمّوا بها عشرين ملكًا، قد سميناهم كلهم آنفًا، كانوا كفارًا معلنين عبادة الأوثان، حاشـا خمـسة منهم فـقط كانوا مـؤمنين ولا مزيد، وهـم «أشا بن أسا» ولـى إحدى وأربعين سنة، وابنه «يهـوشافـاط» بن «أشا» ولى خمـسًا وعـشرين سنة. فـهذه ست وستون سنة اتصل فيهم الدين ظاهرًا بعد ثلاث وعـشرين سنة اتصل فيها الكفر ظاهرًا وعبادة الأوثان، ثم ثمانية أعوام «ليورام بن يهوشافاط» لم نجد له حقيقة دين، فحملناه على الإيمان لسبب أبيه. ثم اتـصل الكفر ظاهرًا وعبادة الأوثان فى ملوكهم وعـامتهم مائة عام وستين عامًا، مع كفر سائر أسباطهم، فعمهم الكفر وعبادة الأوثان فى أولهم وآخرهم. فأىّ كتاب أو أى دين يبقى مع هذا؟.

ثم ولى «حزقـيا» المؤمن تسـعًا وعشـرين سنة، ثم اتصل الكفر بعـده فى عامـتهم وملوكهم وعبادة الأوثان سبعًا وخمسين سنة.

ثم ولى «يوشا» المؤمن الفاضل إحدى وثلاثين سنة، ثم لم يـلِ بعده إلاَّ كافر معلن عبادة الأوثان مدة اثنين وعشرين عامًا وستة أشهر منهم من نشر أسماء الله من التوراة، ومنهم من أحرقـها وقطع أثرها، ولم نجـد بعد هؤلاء من ظهر فـيهم إلا الكفـر وقتل الأنبياء عليـهم السلام إلى أن انقطع أمرهم جملة بغارة «بختنصـر» وسبوا كلهم، وهدم البيت، واسـتأصل أثره، هذا إلى غـارات كانت على مـدينة «بيت المقدس» وهيـكلها الذى لم تكن التوراة عند أحـد إلا فيه، لم يترك فـيها شيء مرة أغار علـيهم صاحب مصر أيام «رحـبعام بن سليمـان»، ومرتين فى أيام «أمصياهو» الملـك من قبل صاحب العشرة الأسباط إلى أن أملاها عليهم من حفظه «عزرا» الوراق الهارونى، وهم مقرون أنه وجدها عندهم وفيها خلل كثير فـأصلحه، وهذا يكفى، وكان كتابة «عزرا» للتوراة بعد أزيد من سـبعين سنة من خـراب بيت المقدس، وكـتبهم تـدل على أن «عزرا» لم يكتبها لهم ولم يصلحها إلا بعد نحو أربعين عامًا من رجوعهم إلى البيت بعد السبعين عامًا التى كانوا فيها خاليين، ولم يكن فيهم حينئذ نبى أصلاً، ولا القبة ولا التابوت، واختلف فى المنارة كانت عندهم أم لا؟.

ومن ذلك الوقت انتشرت التوراة ونسخت، وظهرت ظهـورًا ضعيفًا أيضًا ولم تزل تتداولـها الأيدى مع ذلك إلى أن جـعل «أنطاكيـوس» الملك الذى بنى «أنطاكيـة» وثنًا للعبـادة فى «بيت المقدس». وأخذ بنى إسـرائيل بعبادته، وقـربت الخنازير على مذبح

البيت، ثم تولى أمرهم قوم من «بنى هارون» بعد مئين من السنين، وانقطعت القرابين فحينئـذ انتشرت نسخ التوراة التى بأيديهم اليوم، وأحـدث لهم أحبارهم صلوات لم تكن عندهم جعلوها بدلاً من القرابين، وعلمـوا لهم دينًا جديدًا، ورتبوا لهم الكنائس فى كل قرية، بخلاف حالهم طول دولتهم وبعد هلاك دولتهم بأزيد من أربعمائة عام، وأحدثوا لهم اجـتماعًـا فى كل سبت على ما هم عليـه اليوم - بخلاف مـا كان طول دولتهم، فإنـه لم يكن لهم فى شىء من بلادهم بيت عبادة، ولا مجـمع ذكر وتعلم، ولا مكان قربانٍ قـربةٍ ألبتة إلا بيت المقـدس وحده، وموضع السرادق قـبل بنيان بيت المقـدس فقط، وبرهان هـذا أن فى سفـر «يوشع بن نون» بإقـرارهم أن «بنى رؤوبين» و«بنى جادا» ونـصف سبط «منسى» إذ رجعـوا بعد فـتح بلاد الأردن و«فلسطين» إلى بلادهم بشرقى الأردن بنوا مـذبحًا، فَهَمَّ «يوشع بن نون» وسائر بنى إسـرائيل بغزوهم من أجل ذلك، حتى أرسلوا إليه: إننـا لم نُقمه لا لقربان ولا لتقديس أصـلاً. ومعاذ الله أن نتخذ مـوضع تقديس غير المجـتمع عليه الذى فى السرادق وبيت الله. فـحينئذ كف عنهم، ففى دون هذا كفاية لمن عقل فى أنها كتاب مبدَّل مكذوب موضوع، ودين مـعمـول خلاف الدين الذيـن يقرون أن «مـوسى» عليه الـسلام أتاهم به، ومـا يريد الشيطان منهم أكثر من هذا، ولا فى الضلال فوق هذا، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأيضًا فإن فى التـوراة التى ترجمها السبعـون شيخًا «لبطليمـوس» الملك بعد ظهور التوراة وأفشوها مخالفة للتى كتبها لهم «عزرا» الوراق، وتدّعى النصارى أن تلك التى ترجم السبعون شـيخًا فى اختلاف أسنان الآباء بين آدم ونوح عليهـما السلام التى من أجل ذلك الاختلاف تولد بين تاريخ اليهود وتاريخ النصارى زيادة ألف عام ونيف على ما ذكر بعد هذا إن شاء الله تعالى.

فإن كـان هو كذلك فقـد وضح اليقين، بكذب الـسبعين شيـخًا، وتعـمدهم لنقل الباطل، وهم الذين عنهم أخذوا دينهم، وأفٍّ أفٍّ لدين أخذ عن متيقن كذبه.

وأيضًا فإن فى السفر الخامس من أسفار التوراة الذى يسمونه التكرار: أن الله تعالى قال لموسى: «اصنع لوحين على حـال الأولين، واصعد إلى الجـبل، واعمل تابوتًا من خشب لأكـتب فى اللوحين العشـر كلمات التى أسمـعكم السيـد فى الجبل من وسط اللهيب عند اجـتماعكم إليه. ويَرَى بـهما إلىّ فانصـرفت من الجبل، وجعلتهـما فى التابوت، وهما فيه إلى اليوم».

وفى السفـر المذكور أيضًـا بعد هذا الفصل قـال: ومن بعد أن كـتب «موسى» هذه

العهود فى مصـحف، واستوعبها، أمر «بنى لاوى» حـاملى تابوت عهد الرب، وقال لهم: خـذوا هذا المصحف، واجـعلوه فى المذبح، واجعلوا عليـه تابوت عهـد الرب إلهكم ليكون عليكم شاهداً.

وقال قبل ذلك فى السفر المذكور أيضًا: إذا استجمعتم على تقديم ملك عليكم على حال ملوك الأجناس فلا تقـدموا إلاَّ من ارتضاه الرب من عدد إخـوتكم، ولا تقدموا أجنبيًا على أنفسكم. إلى أن قال: فـإذا قعد على سرير ملكه فليكتب من هذا التكرار فى مصحف مـا يعطيه الكوهن المتقدم من «بنى لاوى» بما يشـاكله ويكون ذلك معه، فيقـرأه كل يوم طول ولايته ليخـاف الرب إلهه، ويذكر كتـابه وعهده. فهـذا كله بيان واضح بصحة ما قلنا من أن العشر كلمـات ومصحف التوراة إنما كان فى الهيكل فقط تحت تابوت العهد، وفى التابوت فقط عند الكوهن الأكـبر وحده، لأنه بإجماعهم لم يكن يصل إلى ذلك الموضع أحد سواه.

وفيه أيضًا: أنه أمر أن يكتب الكوهن المذكور من السفر الخامس فقط شيئًا يمكن أن يقرأه الملك كل يوم، ومثـل هذا لا يكون إلا يسيراً جدًّا ورقة أو نحو ذلك. مع أنهم لا يختلـفون فى أنه لم يلتفـت إلى ذلك ألبتة بعـد «سليمـان» عليه السـلام أحد من ملوكهم إلا أربعة أو خمسة كما قدمنا فقط، من جملة أربعين ملكًا.

وأيضًا فـإنه قال فى السـفر المذكور: ثـم كتب «موسى» هذا الكتـاب ويرى به إلى الكهنة من «بنى لاوى» الذين كـانوا يحـسنون عهـد الرب، وقال لهم «مـوسى»: إذا اجتمعـتم للتقديس بين يدى الرب إلهكم فى الموضع الذى تخيره الـرب فاقرؤوا ما فى هذا المصحف فى جماعة «بنى إسرائيل» عند اجتماعهم فقط يسمعوا ما يلزمهم.

قـال أبو مـحـمـد: وفى نصِّ توراتهم: أنـهم كانـوا لا يلزمـهم المجىء إلى «بيت المقدس» إلاَّ ثلاث مرات فى كل سنة فقط، فإنما أمر بنص التوراة كما أوردنا أن يقرأها عليهم الكوهن الهارونى عند اجتماعهم فقط. فثبت أنها لم تكن إلاَّ فى الهيكل فقط، عند الكوهن الهارونى فقط لا عند أحدٍ سواه.

وقد أوضحنا قـبل أنَّ العشرة الأسباط لم يدخل قط «بيت المقـدس» منهم أحد بعد موت «سليمان» عليه السلام إلى أن انقطعـوا، وأن «بنى يهوذا» و«بنيامين» لم يجتمعوا إليه إلاَّ فى عـهد الملوك الخمسـة المؤمنين فقط فظهر بهـذا -كما قلنا- وصح تبـديلها بيقين، ولا شك فى أن تلك المدة الطويلة التى هى أربعمائـة سنة غير شىء قد كان فى

الكهنة الهارونيين ما كـان فى غيرهم من الكفر والفسق وعبـادة الأوثان كالذى يذكرون عن ابنى الكوهن عـالى الهاروني، وغـيرهمـا، ممن يقرّون فى كـتبـهم أنهم خـدموا الأوثان، وبيوتها من «بنى هارون» و«بنى لاوى». ومَنْ هذه صفته فلا يؤمن عليه تغيير ما ينفرد به، وهذه كلها براهين أضوأ من الشمس على صحة تبديل توراتهم وتحريفها.

قال أبو محمد: إلاَّ سورة واحدة ذكر فى توراتهم أنَّ «موسى» عليه السلام أمر بأن تكتب وتعلم جميع «بنـى إسرائيل» ليحفظوها ويقوموا بـها، ولا يمتنع أحد من نسلهم من حفظهـا، وهذا نصها حـرفًا بحرف: «اسمـعى يا سماوات قـولى وتسمع الأرض كلامى، يكثـر كالمطر، ويسيل الرذاذ كـلامى، ويكون كالمطر على العـشب، وكالرذاذ على الخصب لأنى أنادى باسم الرَّب، فيعظمه الرَّب إلهنا الذى أكمل خلقته واعتدلت أحكامه، الله الأمين، الذى لا يجور، العدل القيـوم، أذنب لديه غير أوليائه، ومحت الأمة العاصيـة المستحيلة، وهذا شكر للرَّب يا أمة جاهلة نـهمة، أما هو: أبوكم الذى خلقـكم، ومليككـم، فـتـــذكـــروا القـديم، وفـكروا فى الأجناس، وسلـوا آباءكم فيعلمونـكم، وأكابركم فيعرفونكم، إذا كـان يقسم العلى الأجناس، ويميز بين بنى آدم جعل قســمة الأجناس على حساب بنى إسرائيل، فـهم الربٌّ أمته، ويعقوب قسـمته، وجده فى الأرض المقـفرة، وفى موضع قـبيح غير مـسلوك فأطلقه وأقـبل به وحفظه كحفظ الشـعر للعين، وأطارهم كما يستطير العـقاب بفراخها، وتحوم عليـها، وتبسط جناحها حفظًا لها، فأقبل بهم وحـملهم على منكبيه، فالرب وحده كان قائدهم، ولم يكن مـعه إله غـيره، فـجعلهم فى أشـرف أرضه ليـأكلوا خبـزها، ويصيـبوا عـسل حجارتها، وزيت جنادلها، وسمن مواشيهـا، ولبن ضانها، وشحوم خرفانها، وكباش بنى باسان، ولحـوم التيـوس، بلباب البُـرِّ، ودم العنب، وتعاموا؛ سـمنوا، ودبروا، واتسعوا، ثم تخلوا من الله خالقهم، وكفروا بالله مـسلمهم، فألجئوه بعبادتهم الأوثان إلى أن سخط عليهم، ولسجودهم للشـيطان لا لله، ولسجودهم لآلهة الأجناس كانوا يجـهلونها، ولم يـعبـدها قبلـهم آباؤهم فتـخلوا من الله الذى ولدهم، فنسـوا الرب خالقهم، فـبصر الرب بهذا، وغضب له، إذ تخلى بنوه وبناته، فقـال: أخفى وجهي عنهم حتى أعلم آخر أمرهم، فإنها أمة كافـرة عاصية، وقد أسخطونى بعبادة من ليس إلهًا، وأغضبونى بفـواحشهم، وسأغيرهم على يدى أمة ضعـيفة، وأخسف بهم على يدى أمة جاهلة، ويتـقدم غضبى نارٌ تحرق إلـى الهواء، فيأتى على الأرض بمعاقـبته، وتذهب أصـول الجبـال فأجـمع عليـهم بأسى، وأثقـبهم بنبـلى، وأهلكهم جوعـًا،

وأجعلهم طعامًا للطير، وأسلط عليهم أنياب السباع، وأصعب عليهم الحياة، فإن برزوا أهلكتهم رماحًا، وإن تحصنوا أهلكت الشاب منهم، والعذار، والطفل، والشيخ، رعبًا حتى أقول: أين هم؟ فأقطع من الأرض ذكرهم، لكنى فهت عنهم لشدة حرد أعدائهم لئلا يزهوا ويقولوا أيدينا القوية فعلت لا الرب، فهذه الأمة لا رأى لها ولا تمييز فليتها عرفت وفهمت وأبصرت ما يدركها فى آخر أمرها، كيف يتبع واحدًا منهم ألف ويفر عن اثنين عشرة آلاف؟.

أما هذا بأن ربهم أسلمهم، وربهم أعلق فيهم، ليس إلهنا مثل آلهتهم، وصار حكمًا، كَرْمُهم من كَرْم «سدوم»، وعناقيدهم من أرباض «عامورا»، فعناقيدهم عناقيد المرارة، وشرابهم مرارة الثعابين، ومن السم الذى لا داوء له، أما هذا فى علمى، ومعروف فى خزائنى لى الانتقام، وأنا أكافىء فى وقته، فترهق أرجلكم، فكان قد حان وقت خرابهم، وإلى ذلك تسرع الأزمنة سيحكم الرّبُّ على أمته، ويرحم عبيده إذا أبصرهم قد ضعفوا، وأغلق عليهم وذهب أواخرهم، وقال: أين آلهتهم التى يتقون، ويأكلون من قربانهم، ويشربون منه، فليقوموا وليغيثوهم فى وقت حاجتهم. فتبصَّروا تبصروا: أنا وحدى ولا إله غيرى، أنا أميت، وأنا أحيى، وأنا أمرض، وأنا أبرئ، ولا ينخلص شىء من يدى، فأرفع إلى السماء يدى، وأقول: بحياتى الدائمة، لئن حددت رمحى كالصاعقة، وابتدأت يمينى بالحكم، لا كافانى أعدائى، وأهل السنان، ولأسكرن نبلى دمًا، ولأقطعن برمحى لحومًا، فامدحوا يا معشر الأجناس أمة، فإنه سيأخذ بدماء عبيده، وينتقم من أعدائهم، ويرحم أرضهم».

قال أبو محمد: هذه السورة التى أبيحت لهم، وأمروا بحفظها وكتابتها لا ما سواها بنص توراتهم بزعمهم، وقد بينا قبل أنهم لم يشتغلوا بعد موت «سليمان» عليه السلام، لا بهذه السورة ولا بغيرها إلا مدة الملوك الخمسة فقط، لأنهم قد عبدوا كلهم الأوثان، وقتلوا الأنبياء وأخافوهم، وشردوهم، هذا ما لا يشك فيه كافر ولا مؤمن.

على أن فى هذه السورة من الفضائح ما لا يجوز أن ينسب إلى الله عز وجل، مثل قوله: إن الله تعالى هو أبوهم الذى ولدهم، وأنهم بنوه وبناته حاشا لله من هذا، وهل طرق للنصارى وسهّل عليهم أن يجعلوا لله ولدًا إلاَّ ما وجدوا فى هذا الكتب الملعونة المكذوبة المبدّلة بأيدى اليهود؟!.

وليس فى العجب أكثـر من أن يجعلهم أنفسهم أولاد الله تعـالى، وكل من عرفهم يعرف أنـهم أوضر[1] الأمم بزة، وأبردهم طلعـة، وأغثـهم مـفاظع، وأتمهم خـبثًـا، وأكثرهم غشًا، وأجـبنهم نفوسًا، وأشدهم مهانة، وأكذبهم لهجـة، وأضعفهم همة، وأرعنهم شمائل بل حاشا لله من هذا الاختيار الفاسد.

ومثل قوله فى هذه السورة: أنه تعالى حملهم على منكبيه.

ومثل قوله: أنه قد قسم الأجناس من بنى آدم، وجعل قسمة الأجناس على حساب بنى إسرائيل، وجعلهم سهمه، فـهذا كذب ظاهر حاشا لله منه لأن أولاد بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر، فعلـى هذا يجب أن يكون أجناس «بنى آدم» اثنى عشر، وليس الأمر كذلك، فإن كان عنى من تناسل من أولاد إسرائيل، فالكذب حينئذ أشنع وأبشع، لأن عددهم لا يستقر على قدر واحد، بل كل يوم يزيدون وينقصون بالولادة والموت، هذا ما لا شك فيه، فكل هذه براهين واضحة بأنها مـحرَّفة مبدَّلة مكذوبة، فإذ هى كذلك فلا يجوز ألبتة فى عقل أحد أن يشهـد فى تصحيح شريعة، ولا فى نقل معجزة، ولا فى إثبات نبوة، بنقل مكذوب مفترى موضوع. هذا ما لا شك فيه.

وقد قلنـا أو نقول: إنَّ نقل اليـهود فاسـدٌ مدخـول، لأنه راجع إلى قوم اتبـعوا من أخـرجهم من الذل والبـلاء والسخـرة والخدمـة فى عـمل الطوب، وذبح أولادهم عند الولادة، ومن حال لا يصيـر عليها كلب مطلق، ولا حمار مسـيب إلى العزّ، والراحة، والعـافـية، والتـملك للأمـوال، وأن يكونوا آمـرين مـخـدومين، آمنين على أولادهم وأنفسهم. ولا ينكر فى مثل هذا الحال أن يشهد المخلص للمخلص بكل ما يريد منه.

ومع هذا كله فإنَّ اتباعهم «لموسى» عليـه السلام الذى أخرجهم من تلك الحالة إلى هذه الأخرى وطاعتهم له كانت مدخولة ضعيفة مضطربة.

وقـد ذكر فى نص توراتهـم: أنهم إذ عملوا العـجل نادَوْا هذا إله «مـوسى» الذى يخلصهم من «مصر».

ومرة أخرى أرادوا قتله، وتصايحوا: قدِّم على أنفسنا قائدًا ونرجع إلى مصر، ومع هذا كله قولهم: إن السحرة عملوا مثل كثير مما عمل موسى، وأن كل ذلك بيان ممكن بصناعة معروفة، وفى هذا كفاية.

(١) وضر: يوضـر: وضراً: وسخ، والإناء: دسم، فـهو وَضِـر، وهي وضرة ووضـري، الوضر: الدرن (الوسيط ٢/١٠٣٩).

وهم مقرون بلا خلاف من أحد منهم: أنه لم يتبع موسى أمةٌ سواهم، ولا نقلت لهم معجزة طائفة غيرهم، وأمّا النصارى: فعنهم أخذوا نبوّة موسى ومعجزاته، وأما سائر الأمم والملل، كالمجوس والفرس والصابئين، والسريانيين، والمانية، والسمنية، والبراهمة، والهند والصين، والترك - فلا، أصلاً. ولا على أديم الأرض مصدق بنبوة «موسى» وبالتوراة التى بأيديهم إلا هم، ومن هو شعبة منهم كالنصارى.

وأمّا نحن - المسلمين - فإنما قبلنا نبوة «موسى»، و«هارون»، و«داود» و«سليمان»، و«إلياس» و«اليسع» عليهم السلام، وصدقنا بذلك وآمنا بهم، وأنَّ «موسى» الذى أنذر «بمحمد» ﷺ لإخبار رسول الله ﷺ بصحة نبوتهم، ومعجزاتهم فقط، ولولا إخباره عليه السلام بذلك ما كانوا عندنا إلا «كشموال»، و«إيراث»، و«حداث»، و«حقاى»، و«حبقوق»، و«عدوا»، و«يؤال»، و«عاموص»، و«عوبديا»، و«ميسخا»، و«ناحوم»، و«صفينا»، و«ملاخى» وسائر من تقر اليهود بنبوتهم، كإقرارهم بنبوة «موسى» سواء بسواء، ولا فرق بين طرق نقلهم لنبوة جميعهم، ونحن لا نصدق نقل اليهود فى شىء من ذلك، بل نقول: إنه قد كان لله تعالى أنبياء فى «بنى إسرائيل» أخبر بذلك الله تعالى فى كتابه المنزل، على نبيه الصادق المرسل، فنحن نقطع بنبوة من سمًّى لنا منهم، ونقول فى هؤلاء الذين لم يسم لنا محمد ﷺ أسماءهم: الله عزّ وجل أعلم، إن كانوا أنبياء فنحن نؤمن بهم، وإن لم يكونوا أنبياء فلسنا نؤمن بهم.

آمنا بالله، وكتبه ورسله؛ لا نفرق بين أحدٍ من رسله.

وهكذا نقر بنبوة «صالح»، و«هود»، و«شعيب»، و«إسماعيل» وبأنهم رسل الله يقينًا، ولا نبالى بإنكار اليهود لنبوتهم، ولا بجهلهم بهم، لأن الصادق عليه السلام شهد برسالتهم. وأما التوراة فما وافقنا قط عليها، لأننا نحن نقر بتوراة حق أنزلها الله تعالى على «موسى» عليه السلام وأصحابه، لأنه تعالى أخبرنا بذلك فى كتابه الناطق على لسان رسول الله ﷺ الصادق، ونقطع بأنها ليست هذه التى بأيديهم بنصها، بل حرف كثير منهم وبدّل، وهم يقرون بهذه التى بأيديهم، ولا يعرفون التى نؤمن نحن بها، وكذلك لا نصدِّق بشريعتهم التى هم عليها الآن، بل نقطع بأنها محرفة مبدَّلة مكذوبة، وهم لا يؤمنون «بموسى» الذى بشر «بمحمد» ﷺ، وبرسالته وبأصحابه.

فاعلموا أننا لم نوافقهم قط على التصديق بشىء من دينهم، ولا مما هم عليه، ولا مما بأيديهم من الكتاب، ولا بالنبى الذى يذكرونه لما قد أوضحناه من فساد نقلهم، ووضوح الكذب فيه، وعموم الدواخل فيه.

قال أبو محمد: ونذكر إن شاء الله تعالى طرفًا مما في سائر الكتب التي عندهم، التي يضيفونها إلى الأنبياء عليهم السلام من الفساد كالذي ذكرنا في توراتهم، ولا خلاف في أن اهتبالهم(١) بالتوراة كان أشد وأكثر أضعافًا مضاعفة من اهتبالهم بسائر كتب أنبيائهم.

أما كتاب «يوشع» فإن فيه براهين قاطعة بأنه أيضًا تاريخ ألفه لهم بعض متأخريهم بيقين، وأن «يوشع» لم يكتبه قط، ولا عرفه ولا أنزل عليه، فمن ذلك أن فيه نصًا: (فلما انتهى ذلك إلى «دوسراق» ملك «بيوس» التي بنى فيها «سليمان بن داود» بيت المقدس، فعل أمرًا ذكره).

قال أبو محمد: ومن المحال الممتنع أن يخبر «يوشع» أن «سليمان» بنى بيت المقدس، و«يوشع» قبل سليمان بنحو ستمائة سنة، ولم يأت هذا النص في كتاب «يوشع» المذكور على سبيل الإنذار أصلاً، إنما مساقه - بلا خلاف منهم- مساق الإخبار عما قد مضى. وفيه قصة بشيعة جدًا، وهي أن «عخار» بن «كرمى» بن «شذان» بن «شيلة» بن «يهوذا» بن «يعقوب» عليه السلام غَلَّ(٢) من المغنم خيطًا أرجوانًا، وحُقّ ذهب فيه خمسون مثقالاً، ومائتا درهم فضة، فأمر «يوشع» برجمه، ورجم بنيه، ورجم بناته حتى يموتوا كلهم بالحجارة، وأمر بإحراق مواشيه كلها، وحاشا لله أن يحكم نبي بهذا الحكم فيعاقب بأغلظ العقوبة من لا ذنب له من ذرية لم تجن شيئًا بجناية أبيهم، مع أن نص التوراة: لا يقتل الأبُ بذنب الابن، ولا الابن بذنب الأب. فلابدّ ضرورة من أن يقولوا نسخ «يوشع» هذا الحكم، فيثبتوا النسخ من نبي لشريعة نبي قبله، وفي شريعة «موسى» أيضًا، أو ينسبوا الظلم وخلاف أمر الله إلى «يوشع» فيجعلوه ظالمًا عاصيًا لله مبدلاً لأحكامه، وما فيها حظ لمختارٍ منهم. وبالله تعالى التوفيق.

وفيه: أن كل من دخل من بني إسرائيل الأرض المقدسة، فإنهم كان مختونين، وفيه أبناء تسعة وخمسين عامًا، وأقل، وأن «موسى» عليه السلام لم يختن ممن ولد بعد خروجه من مصر أحدًا، هذا مع إقرارهم أن الله تعالى شدّد في الختان، وقال: «من لم يختتن في يوم أسبوع ولادته فلتنف نفسه من أمته» بمعنى: فليقتل.

---

(١) اهتبل: إذا غنم واهتبل إذا ثكل، وسمع كلمة فاهتبلها أي اغتنمها، والاهتبال: الاغتنام والاحتيال والاقتصاص، لسان العرب (١١/ ٦٨٧).

(٢) غلّ: أغلّ: خان، وفلانًا نسبه إلى الغلول والخيانة، وغلّ غلولاً، خان، كأغل أو خاص بالفيء (المحيط ٤/ ٢٥).

فكيف يضيع «موسى» هذه الشريعة الوكيدة؟ حتى يختتنهم كلهم «يوشع» بعد موت «موسى» بدهر؟.

ولقد فضحت بهذا وجه بعض علمائهم. فقال لى: كانوا فى التيه فى حل وارتحال، فقلت له: فكان ماذا؟ فكيف وليس كما تقولون: بل كانوا يبقون المدة الطويلة في مكان واحد. فى نص كتاب «يوشع» بزعمكم: أنه إنما ختنهم إذ جازوا الأردن قبل الشروع فى الحرب، وفى أضيق وقت، وختنهم كلهم حينئذ، وهم رجال كهول، وشبان، وتركوا الختان إذ لا مؤونة فى ختانهم أطفالاً تحمله أمة مختونًا كما تحمله غير مختون، ولا فرق، فسكت منقطعًا.

وأما الكتاب الذى يسمونه (الزبور): ففى المزمور الأول منه: «قال لى الرَّب: أنت ابنى أنا اليوم ولدتك».

قال أبو محمد: فأى شيء تنكرون على النصارى فى هذا الباب؟ ما أشبه الليلة بالبارحة! وفيه أيضًا: «أنتم بنو الله، وبنو العلى كلكم».

هذه أطم من التى قبلها ومثل ما عند النصارى أو أنتن.

وفيه فى المزمور الرابع والأربعين منه: «عرشك يا الله فى العالم، وفى الأبد، قضيت العدل، قضيت ملكك، أحببت الصلاح، وأبغضت المكروه، من أجل ذلك دهنك إلهك بزيت القرح بين أشراكك».

قال أبو محمد: هذه سوأة الأبد، ومضيعة الدهر، وقاصمة الظهر، وإثبات إله آخر على الله تعالى دَهَنَه بالزيت إكرامًا له، ومجازاة على محبته الصلاح، وإثبات أشراك لله تعالى، وهذا دين النصارى بلا مؤونة - ولكن إثبات إله دون الله - وقد ظهر عند اليهود هذا علانية على ما نذكر بعد إن شاء الله تعالى.

وبعده بيسير يخاطب الله تعالى: «وقفت زوجتك عن يمينك وعقاصها من ذهب أيتها الابنة: اسمعى، وميلى بأذنيك، وأبصرى، وآنسى عشيرتك، وبيت أبيك، فيهواك الملك وهو الرب والله فاسجدى له طوعًا».

قال أبو محمد: ما شاء الله كان. أنكرنا الأولاد فأتونا بالزوجة، والأختان!! تبارك الله، فما نرى لهم على النصارى فضلاً أصلاً، ونعوذ بالله من الخذلان.

وفيه في المزمور الموفى مائة وسبعًـا: «قال الرَّب لربِّي: اقعد على يمينى حتى أجعل أعداءك كرسى قدميك».

قال أبـو محمـد: هذا كالذى قبله فى الجنون والكفـر، ربٌّ فوق ربٍّ، وربٌّ يقعد عن يمين ربٍّ، وربٌّ يحكم على ربٍّ. ونعوذ بالله من الخذلان.

وفيه فى المزمور السادس والثمانين منـه: «يقول روح القدس لصهيون: يقال رجل، ورجل ولد فيها، وهو الذى أسسها الرب العلىّ، الذى خلقها عند مكتنه الأمة».

قـال أبو مـحـمـد: هذا دين النصـارى الذى يشنعـون به عليـهم، من أن الله ولد «صهيون»، لو انهدمت الجبال من هذا ما كان عجبًا.

وفيـه فى المزمور السابع والسبـعين منه: «الرَّب قام كالمنتـبه من نومه كالجـبار الذى يقربه أثر الخمار كما يقوم الجريش»(١).

وفيه: «اتقوا ربكم الذى قوته كقوة الجريش».

قال أبـو محـمد: ما سـمع فى الحمق اللفـيف، ولا فى الكفر السخـيف بمثل هذا الفعل، مرة يشبـه قيام الله تعالى بالمنتبه من نومـه، وقد علمنا أنه لا يكون المرء أكسل ولا أحوج إلى التمدد، ولا أثقل حـركة منه حين قيامه منه، ومرة يشبـهه بجبار ثمل، ومـا عهـد للمـرء وقت يكون فيـه أنكد ولا أثقل عـينين، ولا أخـبث نفسًـا ولا آلم صداعًـا، ولا أضعف عويلاً مـنه فى حين الخمار. ومـرة يمثله بالجريش، ومـا الجريش والله ما هو إلاَّ ثور من الثيران بقرن وسط رأسه، حاشا لله من هذه النحوس التى حَقٌّ من يؤمن بها السـوط حتى يعتدل دمـاغه، أو يحمق بالكل ويقذف الناس بـالحجارة، ويسقط عنه الخطاب ونعوذ بالله من البلاء.

وفيه من المزمور الحادى والثمانين: «قـام الله فى مجتمع الآلهة، وقف إله العزة فى وسطهم يقضى».

وهذه حماقـة ممزوجة بكفر سمج، مجـتمع الآلهة، وقيـام الله بينهم، ووقوفه فى وسط أصحـابه. ما شاء الله كـان!! ألا إنَّ هذا أخبث من قول النصـارى؛ لأن الآلهة عند النصارى ثلاثة، وهم عند هؤلاء السفلة الأراذل جماعة. ونعوذ بالله من الخذلان.

وفيه من المزمور الثامن والثمانين: «من ذا يكون مثل الله فى جميع بنى الله»؟ وبعده

---

(١) الجريش: يجرشه الشيء لم يزعم دقه فهو جريش (القاموس المحيط (٢/ ٢٦٢).

يقول: «إن داود يدعونى والدًا وأنا جعلته بكر بنىّ» وبعده: «إن عرش داود يبقى ملكه سرمدًا أبدًا».

قال أبو محمد: هذه كالتى قبلها صارت الآلهة قبيلة وبنى أب، وكان فيهم واحد هو سيدهم ليس فيهم مثله، والآخرون فيهم نقص بلا شك تعالى الله عن ذلك ونحمده كثيرًا على نعمة الإسلام، ملّة التوحيد الصادقة التى تشهد العقول بصحتها وصحة كل ما فيها. مع كذب الوعد فى بقاء ملك «داود» سرمدًا.

وفيها مما يوافق قول الملحدين الدهرية: الناس كالعشب إذا خرجت أرواحهم نسوا، ولا يعلمون مكانهم، ولا يفهمون بعد ذلك.

قال أبو محمد: وإن دين اليهود ليميل إلى هذا ميلاً شديدًا، لأنه ليس فى توراتهم ذكر المعاد أصلاً، ولا الجزاء بعد الموت. وهذا مذهب الدَّهرية بلا كلفة، فقد جمعوا الدَّهرية، والشكّ، والتشبيه، وكل حمق فى العالم، على أن فيه بما أطلعهم الله على تبديل ما شاء رفعه من كتابهم، وكف أيديهم عما شاء إبقاءه حجة لنا عليهم، ومعجزة لنبينا ﷺ.

وفى المزمور الحادى والستين منه: «أن العرب وبنى سبأ يؤدون إليه المال ويتبعونه، وأن الدم يكون له عنده ثمن». وهذه صفة الدِّية التى ليست إلاّ فى ديننا. وفيه أيضًا: «ويظهر من المدينة» هكذا نصًا. وهذا إنذار بيِّن برسول الله ﷺ.

وأمَّا الكتب التى يضيفونها إلى «سليمان» عليه السلام، فهى ثلاثة:

أحدها: يسمى «شارهسير» ثم معناه شِعْر الأشعار، وهو على الحقيقة هوس الأهواس، لأنه كلام أحمق لا يعقل، ولا يدرى أحدٌ منهم مراده، إنما هو مرة يتغزل بمذكر، ومرة يتغزل بمؤنث، ومرة يأتى منه بَلْغَم لزج بمنزلة ما يأتى به المصدوع والذى فسد دماغه. وقد رأيت بعضهم يذهب إلى أنه رموز على الكيميا، وهذا وسواس آخر ظريف.

والثانى: يسمى: «مثلاً معناه الأمثال»، فيه مواعظ، وفيه أن قال قبل أن يخلق الله شيئًا فى البدء من الأبد: أنا صرت، ومن القديم قبل أن تكون الأرض، وقبل أن تكون النجوم: أنا قد كنت استلمت، وقد كنت ولدت، وليس كان خلق الأرض بعد، ولا الأنهار، وإذ خلق الله السماوات قد كنت حاضرًا، وإذ كان يجعل للنجوم حدًّا صحيحًا، ويدق بها، وكان يوثق السماوات فى العلو، ويقدر عيون المياه، وإذ كان

يحدق فى البحـر بتخمة، ويجعل للميـاة تُخُمًا(١) لئلا تجاوز جـوزها، وإذ كان يعلق أساسات الأرض، أنا معه كنت مهيئًا للجميع.

قال أبو مـحمد: فهل فى الملحدة أكثـر من هذا؟ وهل يضاف هذا الحمق إلى رجل معـتدل؟ فكيف إلـى نبي مرسل؟ وهل هذا الإِشـراك صحـيح؟ وحاشـا لله أن يقول «سليمان» عليه السلام هذا الكلام. وتالله ما غبط أهل الإِلحاد بإلحادهم إلاَّ هذا ومثله. ورأيت بعضهم يخرج هذا على أنه إنما أراد علم الله تعالى.

قال أبو محمد: ولا يعجز من لا حياء له عن أن يقلب كل كلام إلى ما اشتهى بلا برهان، وصرف الكلام عن موضـعه ومعناه إلى معنى آخر لا يجـوز إلا بدليل صحيح غير ممتنع المراد فى اللغة.

والثالث: يسمى «فوهلث»، معناه الجوامع.

فيه أن قال مخاطبًا لله تعالى: «اخترنى أميراً لأمتك، وحاكمًا على بنيك وبناتك».

وهذا كالذى سلف. وحاشا لله أن يكون له بنات وبنون، لا سيما مثل بنى إسرائيل فى كفرهم فى دينهم، وضعفهم فى دنياهم، ورذالتهم فى أحوالها النفسية والجسدية.

وفي كتاب «حزقيا» يقول السيد: «سأمدّ يدى على «بنى عيسو» وأُذْهِبُ عن أرضهم الآدميين والأنعام، وأُفْقِرهم، وأنتقم منهم على يدى أمتى بنى إسرائيل».

قال أبو محمد: وهذا ميعاد قد ظهر كذبه يقينًا، لأن «بنى إسرائيل» قد بادوا جملة «وبنو عيسـو» باقون فى بلادهم بنص كتبـهم، ثم بعد ذلك باد «بنو عيســو» فما على أديم الأرض منهم أحد نعرف أنه منهم، وصـارت بلادهم للمسلمين، وسكانها «لخم» وغيرها من العرب، وبطل بذلك أن يدعوا: أن هذا يكون فى المستأنف.

وفى كتـاب «الشعيـا»: أنه رأى الله عزَّ وجل شيـخًا أبيض الرأس واللحـية، وهذا تشبيه، حاشا لنبى أن يقوله:

وفيه: «قال الرب من سمع قط مثل هذا! أنا أعطى غيرى أن يلد، ولا ألد أنا؟ وأنا الذى أرزق غيرى البنين أفأكون أنا بلا ابن»؟.

قال أبو مـحمد: هذا أطم ما سُـمِعَ به أن يقيس الله عزَّ وجل نفسـه فى كون البنين

---

(١) التخوم: الفصل بين الأرضين من الحـدود والمعالم مؤنثة، وقال الفراء: تخومـها حدودها . . . اللسان (١٢/ ٦٤).

على خلقه، وكل هذا أشنع من قول النصارى فى إضافة الشرك، والولد، والزوجة إلى الله تعالى. ونعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو محمد: لم نكتب مما فى الكتب التى يضيفونها إلى الأنبياء عليهم السلام إلاَّ طرفا يسيراً، دالاً على فضيحتها أيضًا وتبديلها، وقد قلنا: إنهم كانوا فى بلد صغير محاط به، ثم لا ندرى كيف يمكنهم اتصال شيء من ذلك إلى نبى من أنبيائهم؟ لا سيما مَن لم يكن إلاَّ فى أيام كفرهم مخافًا ومقتولاً، فصح بلا شك أنها من توليد مَنْ عمل لهم الصلوات التى هم عليها، والشرائع التى يقرون أنها من عمل أحبارهم فى دولتهم الثانية، إذ ظهر دينهم، وانتشرت بيوت عبادتهم، فصارت لهم مجامع يتعلمون فيها دينهم، وعلماء يعلمونها فى كلِّ بلد، بخلاف ما أوضحنا أنهم كانوا عليه أيام دولتهم الأولى، من كونهم كلِّهم كفاراً مئين من السنين، وكونهم لا مسجد لهم أصلاً إلا بيت المقدس، ولا مجمع بعلم لهم أصلاً، ولا عالمًا يعلمهم بوجه من الوجوه، ولا جامع لشيء من كتبهم - والحمد لله رب العالمين -.

ولو تقصينا ما فى كتب أنبيائهم من المناقضات والكذب لكثر ذلك جدًّا. وفيما أوردناه كفاية.

قال أبو محمد: وقد اعترض بعضهم فيما كان يدّعى عليهم من تبديل التوراة، وكتبهم المضافة إلى الأنبياء قبل أن نبين لهم أعيان ما فيها من الكذب البحت، فقال: قد كان فى مدة دولتهم أنبياء وبعد دولتهم، ومن المحال أن يقر أولئك الأنبياء على تبديلها.

قال أبو محمد: فجواب هذا القول أن يقال إن كان يهوديًا: كذبت، ما فى شيء من كتبكم أنه رجع إلى البيت مع «زربائيل» بن «صيلئال» بن «صدقيا» الملك بنبى أصلاً، ولا كان معه فى البيت نبى بإقرارهم أصلاً، وكان ذلك قبل أن يكتبها لهم «عزرا» الوراق بدهر، وقبل رجوعهم إلى البيت مع «زربائيل» مات «دانيال» آخر أنبيائهم فى أرض «بابل» وأما الأنبياء الذين كانوا فى بنى إسرائيل بعد «سليمان» فكلهم كما بينا إما مقتول بأشنع القتل، أو مخاف مطرود منفى لا يسمع منهم كلمة إلاَّ خفية، حاشا مدة الملوك المؤمنين الخمسة فى «بنى يهوذا» أو «بنى بنيامين» خاصة، وذلك قليل تلاه ظهور الكفر، وحرق التوراة، وقتل الأنبياء. وهو كان خاتمة الأمر، وعلى هذا الحال وافاهم انقراض دولتهم.

وأيضًا: فليس كل نبى يبعث بتصحيح كتاب من قبله، فبطل اعتراضهم بكون الأنبياء فيهم جملة.

وإن كان نصرانيًا يقر بالمسيح و«زكريا» و«يحيى» عليهم السلام، قيل له: إن المسيح بلا شك كانت عنده التوراة المنزلة كما أنزلها الله تعالى، وكان عنده الإنجيل المنزل. قال الله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٨، ٤٩]. إلاَّ أنه عرض فى النقل عنه بعد رفعه عارض أشد وأفحش من العارض فى النقل إلى «موسى» عليه السلام، فلا كافة فى العالم متصلة إلى المسيح عليه السلام أصلاً، والنقل إليه راجع إلى خمسة فقط وهم: «متى»، و«باطرة بن نونا» و«يوحنا بن سبذاى»، و«يعقوب»، و«يهوذا» أبناء «يوسف» فقط. ثم لم ينقل عن هؤلاء إلا ثلاثة فقط، وهم: «لوقا» الطبيب الأنطاكى، و«مارقس» الهارونى و«بولس» البنيامينى. وهؤلاء كلهم كذابون، وقد وضح عليهم الكذب جهارًا على ما نوضحه بعد هذا إن شاء الله تعالى. وكل هؤلاء مع ما صح من كذبهم وتدليسهم فى الدين، فإنما كانوا متسترين بإظهار دين اليهود، ولزوم السبت بنص كتبهم، ويدعون إلى التثليث سرًا، وكانوا مع ذلك مطلوبين حيث ما ظفروا بواحد منهم ظاهرًا قتل. فبطل الإنجيل والتوراة برفع المسيح عليه السلام بطلانًا كليًا. وهذا الجواب إنما كان يحتاج إليه قبل أن يظهر من كذب توراتهم وكتبهم ما قد أظهرنا، وأما بعد ما أوضحنا من عظيم كذب هذه الكتب بما لا حيلة فيه فاعتراضهم ساقط، لأن يقين الباطل لا يصححه شىء أصلاً، كما أن يقين الحق لا يفسده شىء أبدًا.

فاعلموا الآن أن كل ما عورض به الحق المتيقن ليبطل به، أو عورض به دون الكذب المتيقن ليصحح به، فإنما هو شغب، وتمويه، وتخييل فاسد بلا شك، لأن يقينين لا يمكن ألبته فى البنية أن يتعارضا أبدًا، وبالله تعالى التوفيق.

فإن قيل: فإنكم تقرون بالتوراة والإنجيل، وتستشهدون على اليهود والنصارى بما فيهما من ذكر صفات نبيكم، وقد استشهد نبيكم عليهم بنصها فى قصة الراجم للزانى المحصن. وروى «أن عبد الله بن سلام» ضرب يد «عبد الله بن صوريا» إذ وضعها على آية الرجم. وروى أن النبى ﷺ: أخذ التوراة، وقال: آمنت بما فيك. وفى كتابكم: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة المائدة: ٦٨].

وفيه أيضًا: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣].

وفيه أيضًا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [سورة المائدة: ٤٤].

وفيه: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة المائدة: ٤٧].

وفيه أيضًا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [سورة المائدة: ٦٦].

وفيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [سورة النساء: ٤٧].

وفيه: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [سورة المائدة: ٤٣].

قلنا وبالله التوفيق: كل هـذا حق، حاشا قوله عليه السـلام «آمنت بما فيك»، فإنه باطل لمن يصح قط، وكله موافق لقولنا فى التوراة والإنجيل بتبديلهما، وليس شىء منه حجة لمن ادّعى أنهما بأيدى اليهود والنصارى كما أنزلا، على ما نبين الآن إن شاء الله تعالى بالبرهان الواضح.

قال أبو محمد: أما إقـرارنا بالتوراة والإنجيل فنعم، وأى مـعنى لتمـويهكم بهذا، ونحن لم ننكرهما قط بـل نكفر من أنكرهما؟ إنما قلنا إن الله تعـالى أنزل التوراة على «موسى» عليه السلام حقًا، وأنزل الزبور على «داود» عليه السلام حقًا، وأنزل الإنجيل على «عيسى» عليه السلام حـقًا، وأنزل الصحف عـلى «إبراهيم» و«موسى» عليهـما السلام حـقًا، وأنزل كـتبًا لم تـسم لنا على أنبيـاء لم يُسـمَّوْا لنا حـقـًا، نؤمن بكل ذلك.

قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [سورة الأعلى: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٦].

وقلنا، ونقول: إن كفـار بنى إسرائيل بدّلوا التوراة والزبور فـزادوا ونقصوا، وأبقى الله تعالى بعـضها حجـة عليهم كمـا شاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٣]، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [سورة الرعد: ٤١] وبدل كفـار النصارى الإنجيل

كذلك فزادوا ونقصوا، وأبقى الله تعالى بعضها حجة عليهم كما شاء، ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، فدرس مـا بدَّلوا من الكتب المذكـورة، ورفعـه الله تعالى كـما درست الصحف وكتب سائر الأنبياء جـملة فهذا هو الذى قلنا. وقد أوضحنا البرهان على صحة ما أوردنا من التبديل والكذب فى التوراة والزبور. ونورد إن شاء الله تعالى فى الإنجـيل، وبالله تعالى نـتأيّد. فظهـر فسـاد تمويهـهم بأننا نقـر بالتوراة والإنجـيل والزبور، ولم ينتفعوا بذلك فى تصحيح ما بأيديهم من الكتب المكذوبة المبدَّلة، والحمد لله رب العالمين.

وأما استشـهادنا على اليهود والنصارى بها فيـهما من الإنذار لنبينا ﷺ فحق، وقد قلنا آنفًا إن الله تعالى أطلعهم على تبديل ما شـاء رفعه من ذينك الكتابين، كما أطلق أيديهم على من قـتل من أراد كرامـته بذلك من الأنبـياء الذين قـتلوهم بأنواع المثل، وكفّ أيديهم عمـا شاء إبقاءه من ذينك الكتـابين حجة عليهم، كـما كف أيديهم الله تعالى عمن أراد أيضًا كرامته بالنصر من أنبيائه الذين حال بين الناس وبين أذاهم، وقد أغرق الله تعالى قوم نوح عليه السلام، وقـوم فرعوم نكالاً لهم، وأغرق آخرين شهادة لهم، وأملى لقوم ليزدادوا إثـمًا، وأملى لقوم آخرين ليزدادوا فـضلاً وهذا ما لا ينكره أحد من أهـل الأديان جملة، وكان مـا ذكرناه زيادة فى أعـلام النبى ﷺ الواضحة، وبراهينه اللائحة، والحمد لله رب العالمين. فبطل اعتراضهم علينا باستشهادنا عليهم بما فى كتبهم المحـرفة من ذكر نبينا ﷺ، وأما استشـهاد رسول الله ﷺ بالتوراة فى أمر رجم الزانى المحصن، وضـرب «ابن سلام» رضى الله عنه يد «ابن صوريا» إذ جـعلها على آية الرجم فحق، وهو مما قلناه آنفًا: إن الله تعالى أبقـاه خزيًا لهم وحجة عليهم، وإنما يحتج عليهم بهذا كله بعـد إثبات رسالته ﷺ بالبراهين الواضحـة الباهرة بالنقل القاطع للعذر على ما قد بينا ونبين إن شـاء الله تعالى. ثم نورد ما أبقاه الله تعالى فى كتبهم المحرَّفـة من ذكره عليه السلام إخزاء لهم وتبكيتًا وفضيـحة لضلالهم، لا لحاجة منا إلى ذلك أصلاً، والحمد لله رب العالمين.

وأما الخبر بأن النبى عليه السلام أخذ التوراة وقال: «آمنت بما فيك» فخبر مكذوب، موضوع، لم يأت قط من طرق فيها خـير، ولسنا نستحل الكلام فى الباطل لو صح، فهو من التكلف الذى نهينا عنه، كمـا لا يحل توهين الحق، ولا الاعتراض فيه. وأما قول الله عزَّ وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٦٨].

فحق لا مرية فيه، وهكذا نقول، ولا سبيل لهـم إلى إقامتهما أبدًا لرفع ما أسقطوا منهمـا، فليسوا على شيء إلا بالإيمان بمحـمد ﷺ. فيكونون حـينئذ مقيـمين للتوراة والإنجيل، كلهم يؤمنون حينئذ بما أنزل منهما وُجِـدَ، أو عُدِم، ويكذبون بما بُدِّل فيهما مما لم ينزله الله تعالى فيهـما، وهذه هى إقامتها حقًا، فلاح صـدق قولنا موافقًا لنص الآية بلا تأويل، والحمد لله رب العالمين.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣]. فنعم إنما هى فى كذب كذبوه ونسبوه إلى التوراة على جارى عادتهم زائد على الكذب الذى وضعـه أسلافـهم فى توراتهم، فبكّتـهم عليه السلام فـى ذلك الكذب المحدث بإحضار التوراة إن كانوا صادقين فظهر كذبهم.

وكم عـرض لنا هذا مع علمـائهم فى منـاظراتنا لهم قـبل أن نقف على نصـوص التـوراة، فالقـوم لا مؤونة علـيهم من الكذب حـتى الآن إذا طمـعوا بالتـخلص من مجلسهم لا يكون ذلك إلاّ بالكذب، وهذا خلق خسيس، وعارٌ لا يرضى به مصحح، ونعوذ بالله من مثل هذا.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [سورة المائدة: ٤٤].

فنعم. هذا حق على ظاهره كما هو، وقد قلنا: إن الله تعالى أنزل التوراة، وحكم بها النبيون الذين أسلموا «كموسى» و«هارون» و«داود» و«سليمان» ومن كان بينهم من الأنبيـاء عليهم السلام، ومن كـان فى أزمانهم من الربانيين والأحـبار الذين لم يكونوا أنبياء بل كانوا حكامًـا من قبل الأنبياء عليهم السلام، قـبل حدوث التبديل، هذا نص قولنا، وليس فى هذه الآية أنهـا لم تبدَّل بعد ذلك أصـلاً، لا بنصٍ ولا بدليل، وأمَّا من ظن لجهله مـن المسلمين أن هذه الآية نزلت فى رجم النبى ﷺ لليهـوديين اللّذين زنيا وهم محـصنان فقد ظن الباطل، وقال بالكذب، وتأوّل المحـال، وخالف القرآن، لأن الله تعالى قد نهى نبـينا عليه السلام عن ذلك نصًّا بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة المائدة: ٤٨].

وقال عز وجل: ﴿ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ [سورة المائدة: ٤٩]

قال أبو محمد: فهذا نص كلام الله عزّ وجل الذى ما خالفه فهو باطل، وأما قوله تعالى: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ [سورة المائدة: ٤٧]. فحق على ظاهره لأن الله تعالى أنزل فيه الإيمان بمحمد ﷺ، واتباع دينه، ولا يكونون أبدًا حاكمين بما أنزل الله تعالى فيه إلاّ باتباعهم دين محمد ﷺ، فإنما أمرهم الله تعالى بالحكم بما أنزل فى الإنجيل الذى ينتمون إليـه، فهم أهله، ولم يأمرهم قط تـعالى بما يسمى إنجيلاً، وليس بإنجيل، ولا أنزله الله تعالى كـما هو قط. فالآية موافقة لقولـنا، وليس فيها أن الإنجيـل لم يبدَّل لا بنص ولا بدليل، إنما فـيهـا إلزام النصارى الذين يـتسمَّـون بأهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وهم على خلاف ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [سورة المائدة: ٦٦].

فحق كما ذكرنا قبل، ولا سبيل إلى إقـامة التوراة والإنجيل المنزّلين بعد تبديلهما إلا بالإيمان بمحمد ﷺ، فيكونون حـينئذ مقيمين لـلتوراة والإنجيل حقًّا لإيمانهم بالمنزّل فيهما وجحدهم ما لم ينزل فيهما وهذه هى إقامتهما حقًّا.

وأما قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقًا لما معكم﴾ [سورة النساء: ٤٧].

فنعم، هذا عموم قام البرهان على أنه مخـصوص، وأنه تعالى: إنما أراد مصدقًا لما معكم من الحق، لا يمكن غير هذا، لأننا بالضـرورة ندرى أن معهم حقًّا وباطلاً، ولا يجوز تصديق الباطل ألبتة، فصح أنه إنما أنزله تعالى مصدقًا لما معهم من الحق.

وقد قلنا: إن الله تعالى أبقى فى التوراة والإنجيل حقًّا ليكون حجة عليهم وزائدًا فى خزيهم، وبالله تعالى التوفيق، فبطل تعلقهم بشىء مما ذكرنا والحمد لله رب العالمين.

قال أبـو محـمد: وبلغنا عن قوم مـن المسلمين ينكرون بجهلهم القـول بأن التوراة والإنجيل اللذين بأيدى اليهـود والنصارى محرفان وإنما حمـلهم على هذا قلة اهتبالهم بنصوص القـرآن والسنن، أترى هؤلاء ما سمعـوا قول الله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [سورة آل عمـران: ٧١]. وقوله

تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ٧٨] إلى آخر الآية. وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [سورة المائدة: ١٣].

ومثل هذا فى القرآن كثير جداً. ونقول لمن قال من المسلمين إن نقلهم نقل تواتر يوجب العلم وتقوم به الحجة: لا شك فى أنهم لا يختلفون فى أن ما نقلوه من ذلك عن «موسى» و«عيسى» عليهما السلام لا ذكر فيه لمحمد ﷺ أصلاً، ولا إنذار بنبوته، فإن صدَّقهم هؤلاء الغافلون فى بعض نقلهم فواجب أن يصدقهم فى سائره، أحبُّوا أم كرهوا، وإن كذَّبوهم فى بعض نقلهم وصدقوهم فى بعض فقد تناقضوا، وظهرت مكابرتهم. ومن الباطل أن يكون نقل واحد جاء مجيئًا واحداً بعضه حق وبعضه باطل، فقد تناقضوا. وما ندرى كيف يستحلّ مسلم إنكار تحريف التوراة والإنجيل، وهو يسمع كلام الله عز وجل ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [سورة الفتح: ٢٩].

وليس شىء من هذا فيما بأيدى اليهود والنصارى مما يدعون أنه التوراة والإنجيل، فلابدّ لهؤلاء الجهال من تصديق ربهم عزَّ وجل أن اليهود والنصارى بدّلوا التوراة والإنجيل، وألا يرجعوا إلى الحمق ويكذبوا ربهم عزَّ وجل ويصدقوا اليهود والنصارى فَيَلْحَقُوا بهم، ويكون السؤال عليهم كلهم حينئذ واحداً فيما أوضحناه من تبديل الكتابين وما أوردناه مما فيهما من الكذب المشاهد عيانًا مما لم يأت نص بأنهم بدّلوهما لعلمنا بتبديلهما يقينًا، كما نعلم ما نشهده بحواسنا مما لا نصَّ فيه فكيف قد اجتمعت المشاهدة والنص؟!.

حدثنا أبو سعيد الجعفرى، حدثنا أبو بكر الأدفوي محمد بن على المصرى، حدثنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، حدثنا أحمد بن شعيب عن محمد ابن المثنى عن عثمان بن عمر، حدثنا على هو ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبى هريرة ﷺ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنَّا بالذى أُنزِلَ إلينا وأُنزِلَ إليكم،**

وإلهنا وإلهكم واحد»(١).

قال أبو محمد: وهذا نص قولنا، والحمد لله رب العالمين.

ما نزل القرآن والسنة عن النبى ﷺ بتصديقه صدّقنا به، وما نزل النص بتكذيبه أو ظهر كذبه كذّبنا به، وما لم ينزل نص بتصديقه أو تكذيبه وأمكن أن يكون حقًا أو كذبًا لم نصدقهم ولم نكذبهم، وقلنا ما أمرنا رسول الله ﷺ أن نقوله كما قلنا فى نبوة من لم يأتنا باسمه نص، والحمد لله رب العالمين.

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن خالد، حدثنا إبراهيم بن أحمد البلخى، حدثنا الفربرى، حدثنا البخارى، حدثنا إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، حدثنا ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال ابن عباس: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء، وكتابكم الذى أنزل على رسوله ﷺ حَدَثٌ تقرءونه محضًا لم يُشَب، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب بدَّلوا كتاب الله تعالى وغيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقد قالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً»(٢).

قال أبو محمد: هذا أصح إسناد عن ابن عباس ﵄، وهو نفس قولنا، وما له فى ذلك من الصحابة مخالف.

وقد روينا أيضًا عن عمر رضى الله عنه: أنه أتاه «كعب الحبر» بسفر وقال له: هذه التوراة أفأقرؤها؟ فقال له عمر بن الخطاب: إن كنت تعلم أنها التى أنزل الله على «موسى» فاقرأها آناء الليل والنهار. فهذا عمر لم يحققها.

قال أبو محمد: ونحن إن شاء الله تعالى نذكر طرفًا يسيرًا من كثير جدًا من كلام

(١) صحيح البخاري (٢/ ٩٥٣) باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، (٤/ ١٦٣٠) ح (٤٢١٥)، ح(٦٩٢٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٢٦) ح (١١٣٨٧).

قال ابن حجر: في الفتح: «الغرض منه هنا النهي عن تصديق أهل الكتاب فيما لا يعرف صدقه من قبل غيرهم فيدل على رد شهادتهم وعدم قبولها كما يقول الجمهور (فتح الباري ٥/ ٢٩٢).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٩٥٢) ح (٢٥٣٩)، ح (٦٩٢٩)، ح (٧٠٨٥). والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٤٩) ح (١٦٩٠٤) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٩٩) والبخاري في خلق أفعال العباد (١/ ٩٣) موقوفًا على «ابن عباس».

قال ابن حجر في الفتح (٥/ ٢٩٢): «أي من اليهود والنصارى، قوله وكتابكم أي القرآن، قوله «أحدث الأخبار» بالله أي أقربها نزولاً إليكم من عند الله عز وجل ... قوله «لم يشب» بضم أوله أي لم يخلط ... والغرض منه الرد على من يقبل شهادة أهل الكتاب وإذا كانت أخبارهم لا تقبل فشهادتهم مردودة بالأولى لأن باب الشهادة أضيق من باب الرواية.

أحبارهم الذين أخذوا كتابهم ودينهم، وإليهم يرجعون فى نقلهم لتوراتهم، وكتب الأنبياء، وجميع شرائعهم، ليرى كل ذى فهم مقدارهم من الفسق والكذب، فيلوح له أنهم كانوا كذابين مستخفين بالدين، وبالله تعالى التوفيق. ولقد كان يكفى من هذا إقرارهم بأنهم عملوا هذه الصلوات شريعة عوضًا مما أمر الله تعالى به من القرابين، وهذا تبديل الدين جهارًا.

قال أبو محمد: ذكر أحبارهم وهو فى كتبهم مشهور لا ينكرونه عند من يعرف كتبهم: أن إخوة يوسف إذْ باعوا أخاهم طرحوا اللعنة على كل من بلَّغَ إلى أبيهم حياة ابنه يوسف، ولذلك لم يخبره الله عزّ وجلّ بذلك، ولا أحد من الملائكة. فاعجبوا لجنون أمة تعتقد أن الله خاف أن يقع عليه لعنة قوم باعوا النبى أخاهم، وعقُّوا النبى أباهم أشدَّ العقوق، وكذبوا أعظم الكذب، فوالله لو لم يكن فى كتبهم إلاَّ هذا الكذب، وهذا الحمق، وهذا الكفر لكانوا به أحمق الأمم، وأكفرهم، وأكذبهم، فكيف ولهم ما قد ذكرنا ونذكر إن شاء الله تعالى؟.

وفى بعض كتبهم أن «هارون» عليه السلام قال لله تعالى إذْ أراد أن يسخط على بنى إسرائيل: يا رب لا تفعل، فلنا عليك ذِمامٌ وحق لأن أخى وأنا أقمنا لك مملكة عظيمة.

قال أبو محمد: وهذه طامة أخرى حاشا لهارون عليه السلام أن يقول هذا الجنون. أين هذا الهوس وهذه الرُّعونة من الحق النير إذ يقول الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: ١٧].

وفى بعض كتبهم أن الصورتين اللتين أمر الله تعالى «موسى» أن يصورهما على التابوت خلف الحجلة فى السرادق إنما كانتا صورة الله وصورة «موسى» عليه السلام معه تعالى الله عن كفرهم علواً كبيراً.

وفى بعض كتبهم: أن الله تعالى قال لبنى إسرائيل: من تعرض لكم فقد تعرض حدقة عينى.

وفى بعض كتبهم: أن علة تردد بنى إسرائيل مع «موسى» فى التيه أربعين سنة حتى ماتوا كلهم، إنما كانت لأن فرعون كان بني على طريق مصر إلى الشام صنمًا سمّاه «باعل صفون» وجعله طلمسًا لكل من هرب من مصر يحيّره ولا يقدر على النفاذ.

فاعجبوا لمن يجيز أن يكون طلسم فرعون يغلب الله تعالى ويحيّر نبيَّه «موسى» ومن معه حتى يموتوا!! فأين كان فرعون من هذه القوة إذ غرق فى البحر؟.

وفى بعض كتبهم: أن «دينه» بنت يعقوب عليه السلام إذ غصبها «شكيم بن حمور» وزنى بها حملت وولدت ابنة، وأن عقابًا خطـف تلك الفرخة من الزنى، وحملها إلى مصر، ووقعت فى حجر «يوسف» فربَّاها وتزوجها، وهذه تشبه الخرافات التى يتحدث بها النساء بالليل إذا غزلن.

وفى بعض كتبـهم: أن «يعقوب» إنما قال فى ابنه «نفـتال»: «أيل مطلق» لأنه قطع من قرية «إبراهيم» عليه السلام التى بقرب بيت المقدس إلى «منف» التى بمصر، ورجع إلى قرية الخليل فى ساعـة من النهار لشدة سرعتـه لا لأن الأرض طويت له. ومقدار ذلك مسيرة نيف وعشرين يومًا.

وفى بعض كتبهم ممّا لا يختلفون فى صحته: أن السحرة يحيون الموتى على الحقيقة وأن ها هنا أسماء لله تعالى ودعاء وكلامًا ومن عرفه من صالح أو فاسق أحال الطبائع وأتى بالمعجزات وأحيا الموتى، وأن عجـوزًا ساحرة أحيت لشاول الملك وهو «طالوت» شمـؤال النبى بعد موته، فليت شـعري إذا كان هذا حـقًا!! فمـا يؤمنهم أن «موسى» وسائر من يقرون بنبـوته كانوا من أهل هذه الصفة؟ ولا سـبيل إلى فرق بين شىء من هذا أبدًا.

وفى بعض كتـبهم: أن بعض أحبارهم المعظمين عندهم ذكـر لهم أنه رأى طائرًا يطير فى الهواء وأنه باض بـيضة وقـعت على ثلاث عشرة مـدينة فهدمت كـلها. وفي بعض كتـبهم: أن المرأة المدنيـة التي ذكر في التـوراة التي زنى بهـا زمري بن خالوا مـن سبط «شمعون» طعنه «فينحاس بن العزار بن هارون» برمحه فنفذه، ونفذ المرأة تحته ثم رفعهما فى رمحه إلى السماء كأنهما طائران فى سفود، وقال: هكذا نفعل بمن عصاك.

قال كبير من أحبارهم، معظم عندهم: إنه كان تكسير عَجُزِ تلك المرأة مقدارَ مزرعة مُدى خردل.

وفى كتبهم: أن طول لحـية فرعون كان سبعـمائة ذراع، وهذه والله مضحكة تسلي الثكالى، وترد الأحزان.

قال أبو محمد: عن مثل هؤلاء فلينقل الدين!! وتبًّا لقومٍ أخذوا كتبهم ودينهم عن

مثل هذا الرقيع[١] الكذاب وأشباهه.

وفى بعض كتبهم المعظمة: أن جباية سليمان عليه السلام فى كل سنة كانت ستمائة ألف قنطار، وستة وثلاثين ألف قنطار من ذهب، وهم مقرون أنه لم يملك قط إلا فلسطين والأردن والغور فقط، وأنه لم يملك قط «رفح» ولا «غزة» ولا «عسقلان» ولا «صور» ولا «صيدا»، ولا «دمشق»، ولا «عمان»، ولا «البلقاء» ولا «مواب»، ولا جبال «الشراة». فهذه الجباية التى لو جُمع كلّ الذهب الذى بأيدى الناس لم يبلغها، من أين خرجت؟.

وقد قلنا: إن الأحبار الذين عملوا لهم هذه الخرافات كانوا ثقالاً فى الحساب، وكان الحياء فى وجوههم قليلاً جداً.

وذكروا أنه كان لمائدة سليمان عليه السلام فى كل سنة أحد عشر ألف ثور، وخمسمائة ثور وزيادة، وستة وثلاثين ألف شاه سوى الإبل والصيد، فانظروا ماذا يكفى لحوم من ذكرنا من الخبز؟ وقد ذكروا عدداً مبلغه ستة آلاف مدى فى العام لمائدته خاصة.

واعلموا أن بلاد بنى إسرائيل تضيق عن هذه النفقات. هذا في قوله: إنه عليه السلام كان يهدى كل سنة ثلثى هذا العدد من بُرٍّ ومثله من زيت إلى ملك «صور». فليت شعرى!! لأى شيء كان يهاديه بذلك؟ هل ذلك إلاَّ لأنه كفؤه ونظيره فى الملك؟! وهذه كلمات كذبات، ورعونة لا خفاء بها، وأخبار متناقضة.

وذكروا: أنه كانت توضع فى قصر «سليمان» عليه السلام كل يوم مائة مائدة ذهب، على كل مائدة مائة صحفة ذهب، وثلاثمائة طبق ذهب، على كل طبق ثلاثمائة كأس ذهب، فاعجبوا لهذه الكذبات الباردة، واعلموا أن الذى عملها كان ثقيل الذهن فى الحساب مقصراً فى علم المساحة، لأنه لا يمكن أن يكون قطر دائرة الصحفة أقل من شبر، وإن لم تكن كذلك فهى صحيفة لا صحفة طعام ملك، فوجب ضرورة أن تكون مساحة كل مائدة من تلك الموائد عشرة أشبار فى مثلها لا أقل سوى حاشيتها وأرجلها.

واعلموا أن مائدة من ذهب هذه صفتها لا يمكن ألبتة أن يحركها إلاَّ فيل، لأن الذهب أوزن الأجسان وأثقلها، ولا يمكن ألبتة أن يكون فى كل مائدة من تلك الموائد

(١) الرقيع: الأحمق، وهي مرقعانة، الوسيط (١/ ٣٦٥).

أقل من ثلاثة آلاف رطل ذهب، فـمن يرفعـها، ومن يغـسلها؟ ومن يمـسحهـا؟ ومن يديرها؟ فهذا الذهب كله، وهذه الأطباق من أين؟.

فإن قيل: أنتم تصـدقون بأن الله تعالى آتاه مُلْكًا لا ينبـغى لأحد مِنْ بَعده، وأن الله سخّر له الريح والجن والطير، وعلمـه منطق الطير والنمل، وأن الريح تجرى بأمره، وأن الجن كان يعملون له المحاريب والتمـاثيل، والجفان، والقدور. قلنا: نعم ونُكَفِّرُ من لم يؤمن بذلك، وبين الأمرين فرق واضح، وهو أن الذى ذكرتَ مما نصدِّق به نحن هو من المعجزات التى تأتى بمثلها الأنبيـاء عليهم السلام داخل كله تحت الممكن فى بنية العالم، والذى ذكروه هو خارج عن هذا الباب داخـل فى حدِّ الكذب والامتناع فى بنيـة العالم.

وفى بعض كتـبهم المعظمـة عندهم أن «زارح» ملك السودان غـزا بيت المقدس فى ألف ألف مقاتل، وأن «أسابن» ابن الملك خرج إليـه فى ثلاثمائة ألف مقاتل من «بنى يهوذا» وخمسين ألف مقاتل من «بنى بنيامين» فهزم ملك السودان. وهذا كذب فاحش ممتنع، لأن من أقرب موضع من بلد السودان، وهو النوبة إلى «مسقط» النيل فى البحر نحو مسيـرة ثلاثين يومًا، ومن مسقط النيل إلى بيت المقدس نحو عـشرة أيام صحارى ومفـاوز، وألف ألف مقاتل لا تحـملهم إلا البلاد المعمـورة الواسعة، وأما الصـحارى الجرد فلا، ثم فى مصر جميع أعـمال مصر فكيف يخطوها إلى بيت المقدس هذا ممتنع فى رتبة الجيوش وسيرة الممالك، ومن البـعيد أن يكون عند ملك السودان حيث يتسع بلدهم، ويكثر عددهـم اسم بيت المقدس، فكيف أن يتكلفوا غزوها لبـعد تلك البلاد عن النوبة، وأمـا بلد النوبة والحبـشة والبـجاة فـصغـير الخطة قليل العـدد. وإنما هى خرافات مكذوبة باردة.

وفى كتـاب لهم يسمـى «شعر تومـا» من كتـاب «التلمود» والتلـمود هو معـولهم وعمدتهم فى فقهم وأحكام دينهم وشريعـتهم، وهو من أقوال أحبارهم بلا خلاف من أحد منهم؛ ففى الكتاب المذكـور أن تكسير جبهة خالقهم من أعـلاها إلى أنفه خمسة آلاف ذراع حاشا لله من الصور والمساحات والحدود والنهايات.

وفى كتاب آخر من التـلمود يقال له «سادر ناشيم» ومعناه تفـسير أحكام الحيض أن فى رأس خالقهم تاجًا فيه ألف قنطار من ذهب، وفى إصبعه خاتم له فص تضىء منه الشمس والكواكب، وأن الملك الذى يخدم ذلك التاج اسمه «صندلفون» تعالى الله عن هذه الحماقات.

ومما أجـمع عليه أحبـارهم – لعنهم الله – أنَّ من شـتم الله تعالى وشـتم الأنبـياء

يؤدب، ومن شتم الأحبار يموت أى يقتل. فاعجبوا لهذا، وأعلموا أنهم ملحدون لا دين لهم، يفضلون أنفسهم على الأنبياء عليهم السلام، وعلى الله عزّ وجل. فعليهم ما يخرج من أسافلهم. وفيما سمعنا علماءهم يذكرونه، ولا يتناكرونه، معنى أن أحبارهم الذين أخذوا عنهم دينهم، والتوراة، وكتب الأنبياء عليهم السلام، اتفقوا على أن رشوا «بولس» البنيامينى - لعنه الله - وأمروه بإظهار دين «عيسى» عليه السلام، وأن يضل أتباعهم، ويدخلهم إلى القول بالإلهية، وقالوا له: نحن نتحمل إثمك فى هذا، ففعل وبلغ من ذلك حيث قد ظهر.

واعلموا يقينًا أن هذا عمل لا يستسهله ذو دين أصلاً، ولا يخلو أتباع المسيح عليه السلام عند أولئك الأحبار -لعنهم الله- من أن يكونوا على حق أو على باطل، لابدّ من أحدهما. فإن كانوا عندهم على حق فكيف استحلّوا ضلال قوم محقين وإخراجهم عن الهدى والدين إلى الضلال المبين؟ هذا والله لا يفعله مؤمن بالله تعالى أصلا. وإن كانوا عندهم على ضلال وكفر فحسبهم ذلك منهم. وإنما يسعى المؤمن ليهدى الكافر والضال، وأما أن يقوى بصيرته فى الكفر ويفتح له فيه أبوابًا أشد وأفحش مما هو عليه فهذا لا يفعله أيضًا من يؤمن بالله تعالى قطعًا، ولا يفعله إلا ملحد يريد أن يسخر بمن سواه، فعن هؤلاء أخذوا دينهم وكتب أنبيائهم بإقرارهم، فاعجبوا لهذا، وهذا أمر لا نبعده عنهم لأنهم قد راموا ذلك فينا وفى ديننا، فبعد عليهم بلوغ أربهم من ذلك، وذلك بإسلام «عبد الله بن سبأ» المعروف بابن السوداء اليهودى الحميرى لعنه الله ليضل من أمكنه من المسلمين. فنهج لطائفة رذلة كانوا يتشيَّعون فى عليٍّ رضي الله عنه أن يقولوا بالإلهية فى عليّ، كما نهج «بولس» لأتباع المسيح عليه السلام أن يقولوا بإلهيته، وهم الباطنية، والغالية إلى اليوم، وأخفهم كفرًا الإمامية ـ على جميعهم لعائن الله تترى ـ.

وأشنع من هذا كله نقلُهم الذى لا تمانع بينهم فيه عن كثير من أحبارهم المتقدمين الذين عنه وعن أصحابه أخذوا دينهم، ونقلوا توراتهم، وكتب الأنبياء بأن رجلاً اسمه «إسماعيل» كان إثر خراب البيت إذ خربه طيطش فيذكرون عنه أنه أخبرهم عن نفسه أنه كان ماشيًا فى خراريب ببيت المقدس فسمع الله تعالى يئن كما تئن الحمامة، ويبكى وهو يقول: «الويل لمن أخرب بيته، وضعضع ركنه، وهدم قصره، وموضع سكينته، ويْلى على ما أخربت من بيتى ويْلى على ما فرقت من بنيّ وبناتى، قامتى منكسة، حتى أبنى بيتى وأردّ إليه بنيّ وبناتى».

قال هذا النذل الموسخ ابن الأنذال إسماعيل: فأخذ الله تعالى بثيابى، وقال لى:

أسمعتنى يا بنى يا إسماعيل؟ قلت: لا يا رب. فقال لى: يا بنى يا إسماعيل، بارك على. قال هذا الكلب والجيفة المنتنة: فباركت عليه ومضيت.

قال أبو محمد: «لقد هان من بالت عليه الثعالب»[1] والله ما فى الموجودات أرذل ولا أنتن ممن احتاج إلى بركة هذا الكلب الوضر، فاعجبوا لعظيم ما انتظمت هذه القصة عليه من وجوه الكفر الشنيع.

فمنها: إخباره عن الله تعالى أن يدعو على نفسه بالويل مرة بعد مرة، الويل حقًّا على من يصدّق بهذه القصة، وعلى الملعون الذى أتى بها.

ومنها: وصفه الله تعالى بالندامة على ما فعل!! ما الذى دعاه إلى الندامة؟ أتراه كان عاجزًا عن أن يردهم؟ هذا عجب آخر، وإذا كان نادمًا على ذلك فلمَ تمادى على تبديدهم، وإلقاء النجس عليهم حتى يبلغ ذلك إلى إلقاء الحكة فى أدبارهم، كما نص فى آخر توراتهم؟.

ما فى العالم صفة أحمق من صفة من يتمادى على من يندم عليه هذه الندامة.

ومنها: وصفه الله تعالى بالبكاء والأنين.

ومنها: وصفه لربه تعالى بأنه لم يدر هل سمعه أم لا؟ حتى سأله عن ذلك.

ثم أظرف شيء إخباره عن نفسه بأنه أجاب بالكذب، وأن الله تعالى قنع بكذبه، وجاز عنده ولم يدر أنه كاذب.

ومنها: كونه بين الخرب، وهى مأوى المجانين من الناس وخساس الحيوان كالثعالب والقطط البرية ونحوهما.

ومنها: وصفه الله تعالى بتنكيس القامة.

ومنها: طلبه البركة من ذلك المتن ابن المنتنة والمنتن.

وبالله الذى لا إله إلاَّ هو ما بلغ قط ملحد ولا مستخف هذه المبالغ التى بلغها هذا اللعين ومن يعظمه. وبالله تعالى نتأيد.

ولو ما وصفه الله تعالى من كفرهم وقولهم: ﴿يد الله مغلولة﴾ [المائدة: ٦٤].

---

(١) البيت من الطويل، وهو للعباس بن مرداس في ملحق ديوانه ص ١٥١، وللعباس أو لغاوي بن ظالم السلمي، أو لأبي ذر الغفاري في لسان العرب ١/ ٢٣٧ (ثعلب) ولراشد بن عبد ربه في الدرر ٤/ ١٠٤، وشرح شواهد المغني ص ٣١٧ ... وصدر البيت: «أرب يبول الثعلبان برأسه».

و﴿اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨١]. ما انطلق لنا لسان بشيء مما أوردنا. ولكن سهَّلَ علينا حكاية كفرهم ما ذكره الله تعالى لنا من ذلك. ولا أعجب من إخبار هذا الكلب - لعنه الله - عن نفسه بهذا الخبر، فإن اليهود كلهم يعنى الربانيين منهم مجمعون على الغضب على الله، وعلى تعييبه وتهوين أمره عزّ وجلّ فإنهم يقولون ليلة «عيد الكبود» وهي العاشرة من تشرين الأول وهو أكتوبر يقوم «الميططرون» ومعنى هذه اللفظة عندهم «الرب الصغير» تعالى الله عن كفرهم.

قال: ويقول وهم قائم ينتف شعره ويبكى قليلاً قليلاً: «ويْلِى إذ خربّت بيتى، وأيتمت بَنِىَّ، قامتى منكسة ولا أرفعها حتى أبنى بيتى، وأردّ إليه بَنِىَّ وبناتى». ويردّد هذا الكلام.

واعلموا أنهم أفردوا عشرة أيام من أول «أكتوبر» يعبدون فيه ربًّا آخر غير الله عزّ وجل. فحصلوا على الشرك المجرّد.

واعلموا أن الرَّب الصغير الذى أفردوا له الأيام المذكورة يعبدونه فيها من دون الله عزَّ وجل هو عندهم «صندلفون» الملك خادم التاج الذى فى رأس معبودهم، وهذا أعظم من شرك النصارى، ولقد أوقفت بعضهم على هذا فقال لى: «ميططرون» مَلَكٌ من الملائكة. فقلت: وكيف نقول ذلك الملك وَيْلِى على ما خربَّت من بيتى، وفرَّقت بنىَّ وبناتى!! وهل فعل هذا إلا الله عزَّ وجل؟.

فإن قالوا: تولّى ذلك الملك ذلك الفعل بأمر الله تعالى.

قلنا: فمن المحال الممتنع ندامة الملك على ما فعله بأمر الله تعالى، هذا كفر من الملك لو فعله، فكيف أن يحمد ذلك منه؟ وكل هذا إنما هو تحيُّلٌ منهم عند صكّ وجوههم بذلك، وإلاَّ فهم فيه قسمان: قسم يقول: إنه الله تعالى نفسه فيصغرونه ويحقرونه ويعيبونه، وقسم يقول: إنه ربٌّ آخر دون الله تعالى.

واعلموا أن اليهود يقومون فى كنائسهم أربعين ليلة متصلة من «أيلول» و«تشرين الأول» وهما: «سبتمبر، وأكتوبر» فيصيحون ويولولون بمصائب، منها قولهم: «لأى شىء تسلمنا يا الله هكذا، ولنا الدين القيم، والأثر الأول؛ لم يا لله تتصمَّمُ عنا وأنت تسمع؟ لم يا الله لا تعاقب من يكفر النعم ولا تجازى بالإِحسان ثم تبخسنا حظنا، وتسلمنا لكل معتد، وتقول إن أحكامك عدلة؟».

فاعجبوا لوغادة هؤلاء الأوباش ولرذالة هؤلاء الأنذال الممتنين على ربهم عزَّ وجلّ،

المستخفِّين به وبملائكته وبرسله.

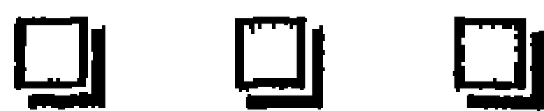
وتالله ما يخسـهم ربّهم حظهم، وما حقهم إلا الخـزى فى الدنيا، والخلود فى النار فى الآخرة، وهو تعالى موفيهم نصيبهم غير منقوص.

واحمدوا الله على عظيم منتـه علينا بالإسلام الملّة الزهراء التى صححتـها العقول، وبالكتاب المنزل من عنده تعالى بالنور المبين، والحقائق الباهرة، نسأل الله تثبيتًا على ما منحنا من ذلك بمنّه إلى أن نلقاه مؤمنين غير مغضوب علينا ولا ضالين.

قال أبو محمد: هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود وكتبهم من الكذب الظاهر، والمناقضات اللائحـة التي لا شك معه فى أنها كـتب مبدَّلة محرَّفـة مكذوبة، وشريعة موضوعـة مستعملة من أكابرهم، ولم يبق بـأيديهم بعد هذا شىء أصلاً، ولا بقى فى فساد دينهم شـبهة بوجه من الوجوه والحمـد لله رب العالمين. وإيّاكم أن يجوز عليكم تمويه من يعارضكم بخرافة أو كذبة، فـإننا لا نصدّق فى ديننا بشىء أصلاً، إلاّ ما جاء فى القرآن، أو ما صح بإسناد الثقات ثـقة عن ثقة حتى يبلغ إلى رسول الله ﷺ فقط وما عدا هذا فنحن نشهد أنه باطل لا نلتفت إليه.

واعلموا أننا لم نكتب من فـضائحهم إلاّ قليلاً مـن كثير، ولكن فـيما كتبنـا كفاية قاطعة فى بيان فساد كلّ ما هم عليه.

وبالله تعالى التوفيق.



ابتداء ذكر الأناجيل

قال أبو محمد: وأما الإنجيل وكتب النصارى فنحن إن شاء الله عزّ وجل موردون من الكذب المنصوص فى أناجيلهم ومن التناقض الذى فيها أمرًا لا يشك كل من رآه فى أنهم لا عقول لهم وأنهم مخذولون جملة.

وأما فساد دينهم فلا إشكال فيه على من له مُسْكَةُ عقل، ولسنا نحتاج إلى تكلف برهان فى أن الأناجيل وسائر كتب النصارى ليست من عند الله عزّ وجلّ، ولا من عند المسيح عليه السلام كما احتجنا إلى ذلك فى التوراة والكتب المنسوبة إلى الأنبياء التى عند اليهود؛ لأن جمهور اليهود يزعمون أن التوراة التى بأيديهم منزلة من الله عز وجل على موسى عليه السلام، فاحتجنا إلى إقامة البرهان على بطلان دعواهم فى ذلك. وأما النصارى فقد كفونا هذه المؤونة كلها لأنّهم لا يدعون أنّ الأناجيل منزلة من عند الله تعالى على المسيح، ولا أن المسيح عليه السلام أتاهم بها، بل كلهم أولهم عن آخرهم آريوسيهم وملكيهم ونسطوريهم ويعقوبيّهم ومارونيهم وبولقانيهم لا يختلفون فى أنها أربعة تواريخ ألّفها أربعة رجال معرفون فى أزمان مختلفة.

فأوّلها تاريخ ألّفه متّى اللاّوانى (تلميذ المسيح) بعد تسع سنين من رفع المسيح عليه السلام وكتبه بالعبرانية فى بلد يهوذا بالشام يكون نحو ثمان وعشرين ورقة بخط متوسط.

والآخر تاريخ ألفه مارقش الهارونى (تلميذ شمعون بن يونا المسمّى باطرة) بعد اثنين وعشرين عامًا من رفع المسيح. وكتبه باليونانية فى بلد أنطاكية[1] من بلاد الروم ويقولون: إن شمعون المذكور هو ألّفه ثم محا اسمه من أوله، ونسبه إلى تلميذه مارقش، يكون أربع عشرة ورقة بخط متوسط، وشمعون المذكور تلميذ المسيح.

والثالث تاريخ ألّفه لوقا (الطبيب الأنطاكى تلميذ شمعون باطرة) كتبه باليونانية فى بلدة إقاية، بعد تأليف مارقش المذكور، يكون منْ قدر إنجيل متّى.

---

(١) أنطاكية بالفتح ثم السكون والياء المخففة، وأنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها . . . معجم البلدان (١/ ٢٦٦).

والرابع تاريخ ألّفه يوحنا بن سـبذاى تلميـذ المسيح، بعد رفع المسيح ببـضع وستين سنة وكتبه باليونانية فى بلد أستيه[١] يكون أربعًا وعشرين ورقة بخط متوسط، ويوحنا هذا نفسه هو ترجم إنجيل متّى صاحبه من العبرانية إلى اليونانية.

ثم ليس للنصارى كتاب قديم يعظّمونه بعد الأناجيل إلاّ الأفركسيس وهو كتاب ألّفه لوقا الطبـيب المذكور فى أخبار الحـواريين وأخبار صاحـبه بولش البنياميني، وسـيرهم وقتلهم يكون نحو خمسين ورقة بخط مجموع.

وكـتاب الوحى والإعـلان ألّفه يوحنا بـن سبـذاى المذكور، وهو كـتاب فى غـاية السخف والركاكة، ذكر فيه ما رأى من الأحلام وإذ أسرى به وخرافات باردة.

والرسائل القـانونية وهى سبع رسـائل فقط منهـا ثلاث رسائل ليوحنا بن سـبذاى المذكور، ورسالتان لباطرة شمعون المذكور، ورسالة واحدة ليعقوب بن يوسف النجار، وأخرى لأخيـه يهوذا بن يوسف تكون كل رسالة من ورقة إلى ورقـتين فى غاية البرد والغثاثة. ورسـائل بولش تلميذ شمـعون باطرة وهى خمس عشرة رسـالة تكون كلها نحو أربعين ورقة، مملـوءة حمقًا ورعونة وكـفرًا، ثم كتاب لهم بعـد ذلك فلا خلاف بينهم أنه من تأليف المتأخـرين من أساقفتهم وبطاركتـهم كمجامع البطاركة والأسـاقفة الكبار الستّة، وسائر مجامعهم الصـغار وفقههم فى أحكامهم الذى عمله لهم «دكريد» الملك وبه يعمل نصـارى الأندلس، ثم لسائر النصارى أحكام أخرى أيضًـا عملها لهم من شاء الله تعالى أن يعملـها من أساقفتهم لا يختلفـون فى هذا كله أنّه كما قلنا. ثمّ أخبار شهـدائهم فقط. فجميع نقل النصارى أوله عن آخـره حيث كانوا هو راجع إلى الثلاثة الذين سـمينا فـقط، وهم بولش ومارقش ولوقا، وهؤلاء الثـلاثة لا ينقلون إلا عن خمسة فقط وهم باطرة ومتّى ويوحنا ويعقوب ويهوذا ولا مزيد.

وكل هؤلاء فأكذب البـرية وأخبثهم على ما نبين بعـد هذا، إن شاء الله تعالى على أن بولش حكى فى الأفركـسيس وفى إحدى رسائله، أنه لم يبق مع باطرة إلا خـمسة عشر يومًـا، ثم لقيه مرة أخرى وبقى معـه أيضًا يسيرًا، ثم لقيـه الثالثة فأخذا جمـيعًا وصلبا إلى لعنة الله. إلا أن الأناجيل الأربعـة والكتب التى ذكرنا أن عليها معـتمدهم فإنهـا عند جميع فـرق النصارى فى شـرق البلاد وغربهـا على نسخة واحـدة، ورتبة واحدة، لا يمكن أحـد أن يزيد فيـها كلمة ولا أن ينقص منهـا أخرى إلا افـتضح عند

(١) أستـيا: بالفتح ثم السكون وكسـر التاء وياء وألف من أشهـر مدن الغور وهي جبـال بين هراة وغزنة معجم البلدان (١/١٧٦).

جميع النصارى، لأنها مبلغة كما هى إلى مارقس ولوقا ويوحنا لأن يوحنا هذا هو الذى نقل إنجيل متّى عن متّى ورسائل بولش مبلغة كذلك إلى بولش.

واعلموا أن أمر النصارى أضعف من أمر اليهود بكثير لأن اليهود كانت لهم مملكة، وجمع عظيم مع موسى عليه السلام وبعده، وكان فيهم أنبياء كثير ظاهرون آمرون مطاعون، كموسى وهارون ويوشع وشموال وداود وسليمان عليهم السلام وإنّما دخلت الداخلة فى التوراة بعد سليمان عليه السلام، إذ ظهر فيهم الكفر وعبادة الأوثان وقتل الأنبياء وحرق التوراة ونهب البيت مرة بعد مرة، واتصل كفر جميعهم إلى أن تلفت دولتهم على ذلك.

وأما النصارى فلا خلاف بين أحد منهم ولا من غيرهم فى أنه لم يؤمن بالمسيح فى حياته إلا مائة وعشرون رجلاً فقط، هكذا فى الإفركسيس، ونسوة منهم امرأة وكيل هردوس وغيرها، كن ينفقن عليه أموالهن، هكذا فى نص إنجيلهم؛ وأن كل من آمن به فإنهم كانوا مستترين مخافين فى حياته وبعده يدعون إلى دينهم سراً لا يكشف منهم أحد وجهه إلى الدعاء إلى ملته، ولا يظهر دينه، وكلّ من ظفر به منهم فإنّه قتل بالحجارة كما قتل يعقوب بن يوسف النجار، وأشطيبن الذى يسمونه بكر الشهداء وغيره، وإما صلب كما صلب باطرة واندرياش أخوه وشمعون أخو يوسف النجار، وفلبش وبولش وغيرهم أو قتلوا بالسيف كما قتل يعقوب أخو يوحنا وطوما وبرتلوما ويهوذا بن يوسف النجار، ومتّى. أو بالسم كما قتل يوحنا بن سبذاى، وبقوا على هذه الحال لا يظهرون ألبتة، ولا لهم مكان يأمنون فيه مدة ثلاثمائة سنة، بعد رفع المسيح عليه السلام.

وفى خلال ذلك ذهب الإنجيل المنزل من عند الله تعالى إلاّ فصولاً يسيرة أبقاها الله تعالى حجة عليهم، وخزيًا لهم، فكانوا كما ذكرنا إلى أن تنصر قسطنطين الملك، فمن حينئذ ظهر النصارى وكشفوا دينهم، واجتمعوا وأمنوا، وكان سبب تنصره أن أمه هلانى كانت بنت نصرانى فعشقها أبوه وتزوجها، فولدت له قسطنطين، فربته على النصرانية سرًّا، فلما مات أبوه وولى هو أظهر النصرانية بعد أعوام كثيرة من ولايته، ومع ذلك فما قدر على إظهارها حتى رحل عن رومية مسيرة شهر إلى القسطنطينية وبناها، ومع ذلك فإنما كان آريوسيًّا هو وابنه بعده يقولان: إن المسيح عبد مخلوق نبى الله تعالى فقط وكل دين كان هكذا فمحال أن يصح نقل متصل، لكثرة الدواخل الواقعة فيما لا يوجد إلا سراً تحت السيف، لا يقدر أهله على حمايته، ولا على المنع

من تبديله. ثم لما ظهر دينهم بتنصر قسطنطين كما ذكرنا فشا فيهم دخول المنّانية تقية ولم يكن فيهم غير منانية مدلسون عليهم، فأمكنتهم بهذا أن يُدخلوا من الضلال ما أحبّوا ولا يمكن ألبتة أن ينقل أحد عن شمعون باطرة ولا عن يوحنا، ولا عن متّى ولا مارقش ولا لوقا ولا بولش آية ظاهرة، ولا معجزة فاشية، لما ذكرنا أنهم كانوا مختفين مستترين مظاهرين بدين اليهود من التزام السبت وغيره، طول حياتهم. إلى أن ظفر بهم فقتلوا.

وكلّ ما يضيفه النصارى إلى هؤلاء من المعجزات فأكذوبات موضوعة، لا يعجز عن ادعاء مثلها أحد، كالذى تدّعى اليهود لأحبارهم، ورؤوس مثانيهم، وكالذى تدعيه المنانية لمانى سواء بسواء وكالذى تدّعيه الروافض لمن يعظمونه وكالذى تدّعيه طوائف من المسلمين لقوم صالحين كإبراهيم بن أدهم[1]، وأبى مسلم الخولانى[2]، وشيبان الراعى، وغيرهم. وكل ذلك كذب وإفك وتوليد لأن من ذكرنا فإنما نقله راجع إلى من لا يُدرَى، ومن لا يقوم بكلامه حجة ولا صح برهان سمعى ولا عقلى بصدقه.

وهكذا كان أصحاب مانى مع مانى إلا أنه ظهر نحو ثلاثة أشهر إذ مكر به بهرام بن بهرام الملك، وأوهمه أنه قد آمن به حتى ظفر بجميع أصحابه، فصلب مانى وصلب جميع أصحابه، إلى لعنة الله. فكل معجزة لم تنقل نقلاً يوجب العلم الضرورى كافة عن كافة حتى تبلغ إلى المشاهدة فالحجة لا تقوم بها على أحد، ولا يعجز عن توليدها من لا تقوى له.

قال أبو محمد: معتمد النصارى كله الذى لا معتمد لهم غيره فى قولهم بالتثليث

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي أبو إسحاق: زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والطحن . . .
(الأعلام ١/ ٣١، تهذيب ابن عساكر ٢/ ١٦٧)، والبداية والنهاية ١٠/ ١٣٥ وحلية الأولياء ٧/ ٣٦٧، ثم ٨/ ٣).

(٢) عبد الله بن ثوب الخولاني: تابعي، فقيه عابد زاهد، نعته الذهبي بريحانة الشام، أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام.
وكان يقال: أبو مسلم حكيم هذه الأمة ـ (الأعلام ٤/ ٧٥، تذكرة الحفاظ ١/ ٤٦، وتهذيب ١٢/ ٢٣٥ وحلية الأولياء ٢/ ١٢٢، وفوات الوفيات (١/ ٢٠٩).

وأن المسيح إلـه وابن الله، واتحاد اللاهوت بالناسـوت، والتحامـه به إنما هو كله على أناجيلهم وعلى ألفـاظ تعلقوا بها مما فى كـتب اليهود كالزبور وكـتاب أشعيـا، وكتاب أرميا، وكلمات يسيرة من التوراة، وكتب سليمان، وكتاب زخريا، وقد نازعهم اليهود فى تأويلها فـحصلت دعوى مـقابلة لدعوى، وما كـان هكذا فهو باطل ومُـمَوَّهٌ، لأن التوراة وكتب الأنبـياء بأيديهم وبأيدى اليهود سواء، لا يخـتلفون فيها ليصـححوا نقل اليهود لسواد تلك الكتب، ثم يجعلوا تلك الألفاظ حجة لهم، دعواهم وتأويلهم ليس بأيديهم حجة غير هذا أصلاً ولا جملة سوى هذه.

وقد أوضحنا بحول الله وقوته فساد أعيان تلك الكتب، وأوضحنا أنها مفتعلة مبدلة لكثرة ما فـيها من الكذب، وأوضحنا فساد نقلهـا وانقطاع الطريق منهم إلى من نسبت إليه تلك الكتب بما لا يمكن أحد دفـعه ألبتة بوجه من الوجـوه. وبيَّنا أيضًا بحول الله وقوته فسـاد نقل النصارى جملة، وإقـرارهم بأن أناجيلهم ليست منزلة ولكنهـا مؤلفة لرجال ألفوها فبطل كل تعلق لهم والحمد لله رب العالمين.

ثم نورد إن شـاء الله تعالى تكذيبـهم فى دعواهم أن التـوراة عند اليهـود وعندهم سواء، ونورد مـا يخالفون فيـه نص التوراة التى بأيدى اليهود؛ حـتى يلوح لكل أحد كذب دعواهم الظاهرة فى تصديقهم لنصوص التوراة التى عند اليهود، وترى تكذيبهم لنصـوصهـا، فيـبطل بذلك تعلقـهم بما فيـها، وبما نقل اليـهود، إذ لا يصح لأحـد الاحتجاج بتـصحيح ما يكذب.

ثم نذكر بعون الله وقوته مناقضات الأناجيل والكذب الفاحش المفضوح الموجود فى جميعها، وبالله تعالى التوفيق.

فيرتفع الإِشكال جـملة فى ذلك ويستوى فى معرفـة بطلان كل ما بأيدى الطائفتين كل من اغـتر بكـتمانهم لما فـضحناه منا ومنهم من الخـاصة والعامـة، ومن سائر الملل أيضًا، ويصـحح عند كل من طالع كلامنا هذا أن الذين كـتبوا الأناجيل وألفـوه كانوا كذابين، مجـاهرين لله رب العالمين على عظيم نعمته علـينا بالإِسلام، السالم من كلّ غش، البرىء من كل توليد، الوارد من عند الله تعالى لا من عمل أحد دونه.

❑ ❑ ❑

ذكر ما تثبته النصارى بخلاف نص التوراة وتكذيبهم لنصوصها التي بأيدي اليهود وادعاء بعض علماء النصارى أنهم اعتمدوا في ذلك على التوراة التي ترجمها السبعون شيخا لبطليموس لا على كتب عزرا الوراق. واليهود مؤمنون بكلتا النسختين. والخـلاف عند النصـارى موجـود فيهما

قال أبو محمد: في توراة اليهود التي لا اختلاف فيها بين الربانية والعنانية والعيسوية منهم: «لما عاش آدم ثلاثين سنة ومائة سنة، ولد له ولد كشبهه وجنسه وسماه شيث». وعند النصارى بلا خلاف من أحد منهم ولا من جميع فرقهم «لما أتى لآدم مائتان وثلاثون سنة ولد له شيث».

وفي التوراة التي عند اليهود كما ذكرنا: «فلما عاش شيث خمس سنين ومائة سنة ولد إينوش» وعند النصارى كلهم: «لما عاش شيث مائتى سنة وخمس سنين ولد إينوش».

وفي التوراة عند اليهود كما ذكرنا: «أن إينوش لما عاش تسعين سنة ولد قِينَان» وعند النصارى كلهم «أن إينوش لما عاش تسعين سنة ومائة ولد قينان».

وفي التوراة عند اليهود كما ذكرنا: «أن قينان لما عاش سبعين سنة ولد مهللال» وعند النصارى كلهم «أن قينان لما عاش مائة سنة وسبعين سنة ولد مهللال».

وفي التوراة عند اليهود كما ذكرنا: «أن مهلال لما بلغ خمسًا وستين سنة ولد يارد» وعند النصارى كلهم: «أن مهللال لما بلغ مائة سنة وخمسًا وستين ولد يارد» واتفقت الطائفتان في عمر يارد إذ ولد له خنوخ.

وفي التوراة عند اليهود كما ذكرنا أن خنوخ لما بلغ خمسًا وستين سنة ولد له متُوشالح وأن جميع عمر خنوخ كان ثلاثمائة سنة وخمسًا وستين سنة، وعند النصارى كلهم أن خنوخ لما بلغ مائة سنة وخمسًا وستين سنة ولد متوشالح، وأن جميع عمر خنوخ كان خمسمائة سنة وخمسًا وستين سنة. ففي هذا الفصل تكاذب بين الطائفتين في موضعين.

أحدهما: سن خنوخ إذ ولد له متوشالح والثاني كمية عمر خنوخ، واتفقت

الطائفتان على عـمر متوشالح إذ ولد لامخ، وعلـى عمر لامخ إذ ولد له نوح، وعلى عمر نوح إذ ولد سام وحام ويافث، وعلى عمر سام إذ ولد له أرفخشاذ.

وفى التوراة التى عند اليهود كما ذكرنا أن أرفـخشاذ لما بلغ خمسًا وثلاثين سنة ولد له متشالح وأن عمر أرفخشاذ كـان أربعمائة سنة وخمسًا وثلاثين سنة. وعند النصارى كلهم أن أرفـخشـاذ لما بلغ مائة سنـة وخمـسًا وثلاثين سنة ولد له قـينان، وأن عمـر أرفخشـاذ كان أربعمائة سنة وخـمسًا وستين سنة، وأن قـينان لما بلغ مائة سنة وثلاثين سنة ولد له شالخ، فبين الطائفتين فى هذا الفصل وحده اختلاف فى ثلاثة مواضع.

أحدهما: عمر أرفخشاذ جملة، **والثانى:** سن أرفخشاذ إذ ولد له ولده، **والثالث:** زيادة النصارى من أرفخشـاذ وشالخ قينان وإسقاط اليهود لـه. وفى التوراة عند اليهود كما ذكرنا أن شـالخ لما بلغ ثلاثين سنة ولد له عابر وأن عمر شالخ كـان أربعمائة سنة وثلاثين سنة، وعند الـنصارى كلهـم أن شالـخ لما بـلغ مائة سنـة وثلاثين سنة ولد له عابر، وأن عمر شالخ كله كان أربعمائة سنة وستين سنة.

ففى هذا الفصل تكاذب من الطائفتين فى موضعين:

أحدهما: سن شالخ إذ ولد له عابر، **والثانى:** كمية عمر شالخ. وعند اليهود كما ذكرنا فـى التوراة أن قالع إذ يـلغ ثلاثين سنة ولد له «راغو» وعند النصـارى كلهم أن قالع لما بلغ مائة سنة وثلاثين سنة ولد له شاروع. وعند النصارى كلهم أن راغو لما بلغ مائة سنة واثنتين وثـلاثين سنة ولد له شاروع، وفى التوراة عند اليـهود كمـا ذكرنا أن شاروع إذ بلغ ثلاثين سنـة ولد له ناحور. وكان عـمر شاروع كله مـائتى عام وثلاثين عامًـا. وعند النصارى كلهم، أن شاروع إذ بلغ ثلاثين سنة ومـائة سنة ولد له ناحور، وأن عمر شاروع كله كان ثلاثمـائـة سنـة وثلاثـين سنة، ففى هذا الفصل بين الطائفتين تكاذب فى موضعين:

أحدهما: عمر شاروع جملة، **والثانى:** سن شاروع إذ ولد له ناحور. وفى التوراة عند اليهـود كما ذكـرنا أن ناحور لما بلغ تسعًـا وعشرين سنة ولد له تارَح، وأن عـمر ناحور كله كان مـائة سنة وثمانيًا وأربعين سنة. وعند النصارى أن ناحـور لما بلغ تسعًا وسبعين سنـة ولد له تارح، وأن عمر ناحور كله كـان مائتى عام وثمانيـة أعوام، ففى هذا الفصل بين الطائفتين تكاذب فى موضعين:

أحدهما: عمر ناحور كله، **والثانى:** سن ناحور إذ ولد له تارح. وفى التوراة عند

اليهود كـما ذكرنا أن تارح كان عمـره كله مائتى عام وخمسـة أعوام، وعند النصارى كلهم أن تارح كان عمره كله مائتى عام وثمانية أعوام.

قال أبو محمد: فتولد بين الطائفتين من الاختلاف المذكور زيادة ألف عام وثلاثمائة عام وخمسين عامًا عند النصارى فى تاريخ الدنـيا على ما هو عند اليهود فى تاريخها، وهى تسعة عشر موضعًا كما ذكرنا فوضح اختلاف التوراة عندهم.

ومـثل هذا من التكاذب لا يجوز أن يـكون من عند الله عزَّ وجل أصـلاً، ولا من قول نبى ألبـتة، ولا من قول صـادق عالم من عرض الناس، فـبطل بهذا بلا شك أن تكون التَّوراة وتلك الكتب منقولة نقلاً يوجب صحـة العلم، لكن نقلا فاسدًا مدخولاً مضطربًا. ولابدّ للنصارى ضرورة من أحد خمسة أوجه، لا مخرج لهم عن أحدها:

إما أن يصدقوا نقل اليـهود للتوراة وأنها صحيحـة عن موسى عليه السلام عن الله تعالى ولكتبهم وهذه طريقتهم فى الحجاج والمناظرة، فإن فعلوا فقد أقرّوا على أنفسهم وعلى أسلافهـم الذين نقلوا عنهم دينهم بالكذب، إذ خالفوا قـول الله عز وجل وقول مـوسى عليه السـلام. أو يكذبوا مـوسى فى ما نقل عـن الله تعالى وهـم لا يفـعلون ذلك. أو يكذبوا نقل اليـهود للتوراة ولـكتبهم، فـيبطل تعلقـهم بما فى تلك الكتب مما يقولون إنه إنذار بالمسيح عليه السلام، إذ لا يجوز لأحد أن يحتج بما لا يصح نقله. أو يقولوا كمـا قال بعضهم: إنهم إنما عـوّلوا فيما عندهم على ترجـمة السبعين شـيخًا، الذين ترجموا التوراة وكتب الأنبياء لبطليموس. فإن قالوا هذا فإنهم لا يخلون ضرورة من أحد وجهين:

إما أن يكونوا صادقين فى ذلك، أو يكونوا كاذبين فى ذلك، فـإن كانوا كاذبين فقد سقط أمرهم والحمد لله رب العالمين، إذ لم يرجعوا إلا إلى المجاهرة بالكذب.

وإن كانوا صادقين فى ذلك فقـد حصلت توراتان مختلفتان متكاذبتان مـتعارضتان؛ توراة السبعين شيخًـا وتوراة عزرا. ومن الباطل المحال الممتنع كونهما جمـيعًا حقًا من عند الله عز وجل. واليهود والنصارى كلهم مصدق مؤمن بهاتين التوراتين معًا، سوى توراة السامـرة فلابد ضرورة من أن تكون إحداهمـا حقًا، والأخرى مكذوبة. فـأيهما كانت المكذوبة فقـد حصلت الطائفتان على الإيمان بالباطل ضـرورة، ولا خير فى أمة تؤمن بيقين الباطل، ولئن كانت توراتهم السبعين شـيخًا هى المكذوبة فلقد كانوا شيوخ سوء كـذّابين ملعونين، إذ حرّفـوا كلام الله وبدلوه، ومَنْ هذه صـفته فـلا يحل أخذ

الدين عنه ولا قبول نقله، ولئن كانت توراة عزرا المكذوبة فقد كان كذّابًا إذ حرف كلام الله ولا يحل أخذ شيء من الدين عن كذاب؛ ولابد من أحد الأمرين أو تكون كلتاهما كذبًا وهذا هو الحق اليقين الذى لا شك فيه لما قدمنا ممَّا فيها من الكذب الفاضح الموجب للقطع بأنها مبدلة محرفة وسقطت الطائفتان معًا، وبطل دينهم الذى إنما مرجعه إلى هذه الكتب المكذوبة. ونعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو محمد: فتأملوا هذا الفصل وحده، ففيه كفاية فى تيقن بطلان دين الطائفتين فكيف سائر ما أوردناه إذا استضاف إليه..؟!!.

وفى التوراة وعند اليهود وعند النصارى اختلاف آخر اكتفينا منه بهذا القدر، والحمد لله رب العالمين على عظيم نعمته علينا بالإسلام المنقول إلينا نقل الكواف، إلى رسول الله، المعصوم ﷺ، البرىء من كل كذب وكل محال، الذى تشهد له العقول بالصحة.

ذكر مناقضات الأناجيل الأربعة والكذب الظاهر الموجود فيها

قال أبو محمد: أول ذلك أن أول مبدأ إنجيل متى اللواتى، الذى هو أول الأناجيل بالتأليف والرتبة، مُصَحَّفٌ نسبةَ يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم وإبراهيم ولَد إسحاق، وإسحاق ولد يعقوب ويعقوب ولد يهوذا وإخوته، وليهوذا وُلِدَ مِنْ ثامار: فارض وتارح، ثم إن فارض ولد حصروم، وحصروم ولد إدام، وإدام ولد عميناذاب، وعميناذاب ولد نجشون، ونجشون ولد أشلومون وأشلومون ولد له من راحاب: بوعز، وبوعز ولد له مِنْ ذوث: عوبيذ، وولد له إيشاى، وإيشاى ولد له داود الملك، وولد داود الملك أشلومون، وأشلومون ولد رحبعام، ورحبعام ولد أبيوب، وأبيوب ولد أشا، وأشا ولد يهوشافاط، ويهوشافاط ولد يهورام، ويهورام ولد أحزياهو، وأحزياهو ولد يوثام، ويوثام ولد أحاز، وأحاز ولد أحزياهو، وأحزياهو ولد منشا، ومنشا ولد آمون، وآمون ولد يوشيَّاهو، ويوشياهو ولد يخنيا، وإخوته وقت الرحلة إلى بابل، وبعد ذلك ولد لتحنيا صلثاييل، وصلثاييل ولد زربابيل، وزربابيل ولد أبيوب، ولأبيوب ولد إلياجيم، ولإلياجيم ولد آزور، وآزور، ولد شان، وشان ولد يعقوب، ويعقوب ولد يوسف خطيب مريم التى ولدت يسوع الذى يدعى مسيحًا، فصار من إبراهيم إلى داود أربعة عشر أبًا، ومن داود إلى وقت الرحلة أربعة عشر أبًا، ومن

الرحلة إلى المسيح أربعة عشر أبًا، فجميع الموالد من إبراهيم إلى المسيح اثنان وأربعون مولودًا.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل خلاف لما فى كتب اليهود والتوراة، التى هى عندهم فى النقل كالتوراة، وهما كتاب ملاخيهم، وكتاب وبراهياشيم فقال ههنا تارح بن يهوذا، وفى التوراة زارح بن يهوذا، وهذا اختلاف فى الاسم، وكذب من أحد الخبرين، والأنبياء لا يكذبون. وقال ههنا احزياهو بن بهورام، وفى كتب اليهود أحزيا بن يورام، وهذا اختلاف فى الأسماء ووحى الله تعالى لا يحتمل هذا، فأحد النقلين كاذب بلا شك. وقال ههنا يوثام بن أخزياهو وفى كتب اليهود المذكورة يوثام بن عزريا بن أمصيا بن يواش بن أحزيا، فأسقط ثلاثة آباء مما في كتب اليهود وهذا عظيم جدًا. فإن صدقوا كتب اليهود وهم مصدقون لها فقد كذب متّى وجهل. ولئن صدقوا متى فإن كتب اليهود كاذبة، لابدّ من أحد ذلك. فقد حصلوا على التصديق بالشىء وضدّه معًا. وقال ههنا: أحزياهو بن أحاز بن يوثام. وفى كتب اليهود المذكورة حزقيا بن أحاز بن يوثام، وهذا اختلاف فى الاسم، والوحى لا يحتمل هذا. فأحد النقلين كاذب بلا شك. وقال ههنا: يخنيا بن يوشياهون بن آمون، وفى كتب اليهود التى ذكرنا يخنيا بن الياقيم بن يوشا بن آمون، فأسقط متى الياقيم وخالف فى اسم يوشيا بن آمون، وهذا عظيم وكما قدمنا من كذبهم ولابدّ، إذ يصدقون بالشىء والضدّ له معًا. وهم لا يختلفون فى أن متّى رسول معصوم أجلُّ عند الله من موسى ومن سائر الأنبياء كلهم عليهم السلام، وهو قد قال فى أول كلمة من إنجيله: «مصحف نسبة المسيح ابن داود بن إبراهيم» ثم لم يأت إلا بنسب يوسف النجار زوج مريم الذى هو عندهم ربيب إلههم زوج أمه. فكيف يقول: إنه ذكر نسبة المسيح ثم يأتى بنسبة يوسف النجار؟ والمسيح عند هذا التيس البوّال ليس هو ولد يوسف أصلاً. فقد كذب هذا القذر كذبًا لا خفاء به، ولا مدخل للمسيح فى هذا النسب أصلاً بوجه من الوجوه، إلا أن يجعلوه ولد يوسف النجار وهم لا يقولون هذا ولا نحن ولا جمهور اليهود.

أما هم فيقولون: إنه ابن الله من مريم، وإنه إله وابن إله وامرأة، تعالى الله عن هذا. وأما نحن والعيسوية من اليهود معنا، والآريوسية والبولقانية والمقدونية من النصارى، فنقول إنه عبد آدمى خلقه الله تعالى، فى بطن مريم عليها السلام، من غير ذكر.

وأما جمهور اليهود فيقولون إنه لغير رَشدَة(١) حاشا له من ذلك، بل إن طائفة قليلة من اليهود يقولون إنه ابن يوسف النجار، وما نرى متَّى إلا شاهدًا لقولهم ومحققًا له. وإلا فكيف يبدأ بأنه يذكر نسب المسيح إلى داود ثم لا يذكر إلا يوسف النجار إلى داود..؟ ولو أنه ذكر نسبة أمه مريم لكان لقوله مخرج ظاهر، لكنه لم يذكر نسب مريم أصلاً، ثم لم يستح النذل من أن يحقق ما ابتدأ به، فبعد أن أتم نسب يوسف النجار قال: من الرحلة إلى المسيح أربعة عشر أبا، فجميع المواليد من إبراهيم إلى المسيح اثنان وأربعون مولودًا، فأكّد هذا الملعون كذبه وأن المسيح ولد يوسف، لابد ضرورة من أحدهما، وإلا فكيف يكون من الرحلة إلى المسيح أربعة عشر أبًا والمسيح ليس هو ابنًا لأحدهم، ولا هم آباء له؟ وكيف يكون من إبراهيم إلى المسيح اثنان وأربعون مولودًا ولا مدخل للمسيح فى تلك الولادات إلا كمدخله فى ولادات أهل الهند وأهل الصين وأهل ططفة وسقر وسقرال ولا فرق؟.

هذه فضائح الدهر وما لا يأتى به إلا أفحش البرية. ونعوذ بالله من الخذلان. ثم كذب آخر وجهل زائد، وهما قوله فمن إبراهيم إلى داود أربعة عشر أبًا.

قال أبو محمد: هذا كذب إنما هم على ما ذكرنا ثلاثة عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويهوذا، وزارح، وحصروم، وآرام، وعميناذاب، ونجشون، وأشلومون، ويوعز، وعوبيذ، وأنشاى فهؤلاء ثلاثة عشر أبًا ثم داود، ولا يجوز ألبتة أن يعد داود فى آباء نفسه، فيجعل أبًا لنفسه وهذه ملحَنة. ثم قال: ومن داود إلى الرحلة أربعة عشر أبًا، وليس كذلك لأن يخنيا هو الراحل بنص قول متّى، وأنه لم يولد على قول صلثيال إلا بعد الرحلة، فهم: أشلومون ورحبعام وأبيوب وأشا، ويهوشافاظ، وبهورام وأحزياهو، ويوثام، وأحاز، وأجزياهو، ومنشا وآمون ويوشاهو ويخنيا.

وقد عدّ داود قبل فإن عدّه ههنا فقد حققوا الكذب فى الفصل الذى قبله، وإن لم يعدوه ههنا فقد كذبوا فى هذا العدد الثانى، أو جعلوا يخنيا أبًا لنفسه وهذا هوس.

ثم قال: ومن الرحلة إلى المسيح أربعة عشر أبًا، وهذا فصل جمع كذبتين عظيمتين.

إحداهما: أنه إذا عد صلثيال من بعده إلى يوسف النجار فليسوا إلا اثنى عشر رجلاً فقط. وهم صلثيال وأبيوب والياجيم، وازور، وصدوق، واجيم واليوث، والعزار، وزربابيل، وماثان، ويعقوب ويوسف، فإن عدّ فيهم يخنيا كانوا ثلاثة عشر،

(١) الرشدة: صحيح النسب (الوسيط ١/٣٤٦).

وهو يقول أربعة عشر فاعجبوا لهذا الحمق ولهذا الضلال، واعجبوا من رعونة كل من جاز هذا عليه واعتقده دينًا..؟!.

ثم إن كان عنى أنهم آباء المسيح فيوسف والد المسيح وكفى، وهذا عندهم كفر، فقد كفر متّى أو كذب وجهل لابد من أحد ذلك، ثم قوله فمن إبراهيم إلى المسيح اثنان وأربعون مولودًا، وهذا كذب فاحش وجهل مفرط، لأنه إذا عَدَّ إبراهيم ومن بعده إلى يوسف وعد يوسف أيضًا فإنما هم أربعون فقط. فإن عدَّ المسيح وجعله ولد يوسف لم يكونا أيضًا إلا واحدًا وأربعين فقط. فاعجبوا ممن يدين الله تعالى بهذا الحمق واحمدوه على السلامة.

هذا إلى الكذب المفضوح الذى فى نسب داود عليه السلام إلى بخشون بن عميناذاب، لأن بخشون بنص توراتهم هو الخارج من مصر، وهو مقدم بنى يهوذا، ولم يدخل بنص التوراة أرض القدس. لأن كل من خرج من مصر ابن عشرين سنة فصاعدًا، ماتوا كلهم فى التيه بنص التوراة. فإن عدّت الولادات من أشلومون بن بخشون الذى دخل أرض القدس إلى داود عليه السلام وجدوا أربعة فقط. وهم داود بن إنشاى بن عوبيذ بن بوعز بن أشلومون، الداخل مصر المذكور ولا يختلفون يعنى اليهود والنصارى معًا، أن من دخول أشلومون المذكور مع يوشع وبنى إسرائيل الأرض المقدسة إلى مولد داود عليه السلام خمسمائة سنة وثلاثًا وسبعين سنة. فيجب على هذا أن يقول: إن أشلومون لم يدخل الأرض المقدسة إلا ابن أقل من سنة، وإنه لم يولد لكل واحد منهم ولده المذكور إلا وله مائة سنة وينف وأربعون سنة، وكتبهم تشهد ككتاب ملاجيم وديراهياميم وغيرهما، ونقطع أنه لم يعش أحد من بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام مائة سنة وثلاثين سنة إلا يهوياراع الكوهين الهارونى وحده. فكم هذا الكذب وهذا الإفضاح فيه وهذه الشهرة العظيمة؟ لا ينفكون من كذبة إلا إلى أخرى، ومن سوأة إلا إلى سوأة، ونعوذ بالله من البلاء. فاعجبوا لما افتتح به هذا الكذاب كتابه وتأليفه ماذا جمع هذا الفصل [illegible] صغره وإنه أسطار يسيرة من الكذب والجهل..؟.

[illegible]أحسن [illegible] فى خالد [illegible] [illegible]قس على الغائب بالشاهد

ثم ذكر لوقا الطبيب فى الباب الثالث منه نسب المسيح عليه السلام، فقال: إنه كان يظن أنه ابن يوسف النجار، المنسوب إلى عالى إلى ناثان، إلى لاوى، إلى ملكى إلى يمتاع إلى يوسف إلى متَّاثيا إلى حاموص إلى ناحُوم إلى أشلا إلى أبجا إلى ماهاث إلى متشيا إلى صمغي إلى يصداق إلى يهندع إلى يوحنا إلى رشا إلى زربابيل [illegible] [illegible]لثيال

إلى ملكى إلى نادى إلى مرا إلى أربع إلى قرصام إلى اليمدان إلى هار إلى يشوع إلى اليعزار إلى يوريم إلى ماثا إلى لاوى إلى شمعون إلى يهوذا إلى يوسف إلى يونا إلى الياجيم إلى ملكان إلى أنان إلى عيشاع إلى مناثان إلى مناثان إلى داود النبى عليه السلام، ثم ذكر نسب داود كما نسبه متّى حرفًا حرفًا.

قال أبو محمد: فاعجبوا لهذه المصيبة الحالة بهم ما أفحشها وأوحشها، وأقذرها وأوضرها، وأرذلها وأنذلها، متّى الكذاب ينسب المسيح إلى يوسف النجار. . .؟؟ ثم ينسب يوسف إلى الملوك من ولد سليمان بن داود عليهما السلام أبًا فأبا. ولوقا ينسب يوسف النجار إلى آباء غير الذين ذكر متّى حتى يخرجه إلى ناثان بن داود، أخى سليمان بن داود، ولابد ضرورة من أن يكون أحد النسبين كذبًا فيكذب متّى أو لوقا، ولابد أن يكون كلا النسبتين كذبًا فيكذب الملعونان لوقا ومتّى جميعًا، ولا يمكن ألبتة أن تكون كلا النسبتين حقًا، ولوقا عندهم -لوّق الله صورهم وألاق وجوهم ولقّاهم البلاء، وألقى عليهم الدمار واللعنة، فى الحالة- فوق جميع الأنبياء عليهم السلام فهذه صفة أناجيلهم، فاحمدوا الله تعالى أيها المسلمون على السلامة والعصمة.

وقال بعض أكابر من سلف منهم من مُضلِّيهم: إن أحد هذين النسبتين هو نسب الولادة، والنسب الآخر نسب إلى إنسان تبنّاه على ما كان فى قديم زمن بنى إسرائيل من أن من مات ولا ولد له تزوج أخوه امرأته، وينسب إلى الميت من ولدت من هذا الحى، فقلنا لمن عارضنا منهم بهذا الهوس: من لك بهذا؟ وأين وجدته للوقا أو لمتّى؟ والدعوى لا يعجز عنها أحد وهى باطلة، إلا أن يعضدها برهان. وبعد هذا فأىّ النسبتين هو نسب الولادة. . ؟ وأيهما هو نسب الإضافة لا الحقيقة؟ فأيهما قال قلب عليه قوله، وقيل له هذه دعوى بلا برهان. فإن قيل: إن لوقا لم يقل إن فلانًا ولد فلانًا كما قاله متّى لكن قال: المنسوب إلى على قلنا: وهكذا قال فى آباء على أبًا فأبًا إلى داود ثم إلى إبراهيم، ثم إلى نوح ثم إلى آدم عليهم السلام سواء سواء، فى اسم بعد اسم وفى أب بعد أب ولا فرق. أفَتَرى نسب داود إلى إبراهيم، وإبراهيم إلى نوح، ونوح إلى آدم، كان أيضًا على الإضافة لا على الحقيقة كما قلت فى نسب يوسف إلى على؟ هذا عجب. فإذا لا سبيل إلى ما يصحح هذه الدعوى فهى كذب، ووضح الكذب فى أحد النسبين ضرورة عيانًا، والحمد لله رب العالمين.

فصل

وفى الباب الثالث من إنجيل متى: فلحق يسوع - يعنى المسيح - بالمفار وساقه

الروح إلى هنالك، ولبث به ليـقيس إبليس فيـه، فلما أن صام أربـعين يومًا بلياليـها جاع، فوقف إليـه الجساس وقال له: إن كنت ولد الله فـأمر هذه الجنادل(١) تصير لك خبزًا. فـقال يسوع: قد صـار مكتوبًا بأن عيش المرء ليس بالخبـز وحده، لكن فى كل كلمة تخرج من فم الله تعالى.

وبعد هذا أقبل إليه إبليس فى المدينة المقدسة، وهو واقف فى أعلى بنيانها وقال له: إن كنت ولد الله فترام من فوق، فإنه قد صار مكتـوبًا بأنه سيبعث ملائكته يرفدونك، ويدفعون عنك، حتى لا يصيب قدمَك مكروه، فأجابه يسوع وقال له: قد صار مكتوبًا أيضًا ألا يقيس أحد العـبيد إلهه. ثم عاد إليه إبليس وهو فى أعلى جـبل منيف فأظهر له زينة جميع الدنيا وشرفها وقال له: إنى سأملكك كل ما ترى إن سجدت لى. فقال له يسوع: اذهب يا منافق مقهقرًا، فقد كتب ألاّ يُعْبَد أحدٌ غيرُ السيِّد الإله، ولا يُخدمَ سواه، فتأيس عنه إبليس عند ذلك وتنحى عنه، وأقبلت الملائكة وتولت خدمته.

وفى الباب الـرابع من إنجيل لوقا: «فـانصرف يسـوع من الأردن محـشواً من روح القدس، وقاده الروح إلى القفار، ومكث به أربعين يومًا، وقايسه إبليس فيه، ولم يأكل شيئًـا فى تلك الأربعين يومًا، فلما كمـلها جاع فقال له إبليس: إن كـنت ابن الله فأمر هذا الحجر أن يصير خبزًا فأجابه يسوع وقال له: قد صار مكتوبًا أنه ليس عيش الآدمى فى الخبز وحده إلا فى كل كلمة لله، ثم قاده إبليس إلى جبل منيف عال، وعرض عليه ملك جميع الدنيا فى وقته. وقال له: سأملكك هذا السلطان، وأبرأ إليك بعظمته لأنى قد ملكته وأنا أعطيه مـن وافقنى، فإن سجدت لى كان لك أجمع. فـأجابه يسوع: قد صار مكتوبًا أن تعبد السيد إلهك، وتخدمه وحده، ثم ساقه إلى برشلام وصعده ووقفه على صخرة البيت فى أعلاه وقال له: إن كنت ولد الله فتسيب من ههنا، لأنه مكتوب أنه يبعث مـلائكته لحرزك وحـملك فى الأكف حتى لا تعـثر بقدمك فى حـجر، ولا يصيبك مكروه، فأجابه يسوع وقال لـه: قـد كـتب أيضًا أن لا تقيس السيد إلهك».

قال أبو محمد: فى هذا الفصل عجائب لم يسمع بأطمَّ منها.

أولها: إقرار الصادق عندهم بأن إبليس قاد المسيـح عليه السلام مرة إلى جبل منيف وانقاد له ومضى معـه، وقاده مرة أخرى إلى أعلى صخرة ببـيت المقدس، فما تراه إلا ينقاد لإبليس حيث قاده، ولا يخلو من أن يكون قاده فانقاد له مطيعًا سامعًا، فما تراه

---

(١) الجندل: مكان فـي مجرى النهر فـيه حجارة يشتـد عندها جريان النهر (ج) جنادل. (الوسيط ١/ ١٤٠).

إلا منصرفًا تحت حكم الشيطان وهذه والله منزلة رذلة جـدًا، أو يكون قاده كرهًا فهذه منزلة المصروعين، الذين يتخبطهم الشيطان من المس، وحاشا للأنبياء من كلتا الصفتين فكيف إله وابن إله بزعـمهم. . ؟ وما سمـع قط بأحمق من هذا الهوس، ونحـمد الله تعالى على عظيم نعمته. ثم الطامّة الأخرى، كيف يطمع إبليس عند هؤلاء النَّوْكَى[1] فى أن يسجد له خالقه وفى أن يعـبده ربه فى أن يخضع له من فيه روح اللاهوت. . ؟ أم كيـف يدعو إبليس ربه وإلهــه إلى أن يعبـده. . ؟ والله إنى لأقـطع أن كفـر إبليس وحمـقه لم يبلغا قط هذا المبلغ. فـهذه آبدة الدهر. ثم عجب آخـر كيف يُمَنِّى إبليس رب الدنيـا وخالقـهـا وخالقـه، ومالكهـا ومـالكه، وإلههـا وإلهــه فى أن يملكه زينة الدنيا. . ؟ فهـذه كما تقول عامـتنا «أعطه من خبزه كسيـرة» ما هذه الوساوس التى لا ينطق بهـا إلاّ لسانُ من حقُّـه سكنى المارستـان، أو عيَّـار كافر مـستخف بـقوم نوكى يوردهم ولا يصدرهم!! ما شاء الله كان.

فإن قالوا: إنما دعا الناسوت وحده وإياه عنى إبليس.

قلنا: فإن الـلاّهوت والناسوت عندكم متَّـحدان بمعنى أنهـما صـارا شيئًـا واحدًا، والمسيح عندكم إله معبودٌ وقد قلتم ههنا: إن إبليس قاد المسيح فانقاد له المسيح، ودعاه إبليس إلى عبادته والسجود له، ومَنّاه إبليس بملك الدنيا، وقال للمسيح وقال له المسيح أو قال ليســوع وقال له يسوع، وعلى قولكم أنه إنما خاطب الناسوت وحـده فإنما دعا نصف المسيح ونصف يسوع، وإنما منّى بزينة الدنيا نصف المسيح، فقد كذب لوقا ومتى على كل حال، وأهل الكذب هما، فكيف ونص كلامهما -جُذَّت ألسنتهما فى لظى- يمنع من هذا. . ؟ ويوجب أن إبليس إنمـا دعا اللاهوت لأنه قـال له: إن كنت ابن الله فافعل كذا، ولو لم يكن فى الأناجيل إلا هذا الفصل الأبخر وحده لكفى، فكيف وله فيها نظائر جمَّه. . ؟!! ونحمد الله على السلامة.

فصل

قال أبو محمد: وذكر فى الفصل الذى تكلمنا عليه أن المسيح عليه السلام أحشى من روح القدس، وفى أول باب من إنجيل لوقا أن يحـيى بن زكريا أحشى من روح القدس فى بطن أمه، وأن أم يحيى أحشيت أيضًا مـن روح القدس، فما ترى للمسيح من روح

---

(١) نوك: نوكا، ونواكا: حمق، أنوكه: وجده أنوك، ويقال: مـا أنوكه: ما أحمقه، استنوك: صار أنوك (الوسيط ٢/ ٩٦٤).

القدس إلا كالذى ليحيى ولأم يحيى من روح القدس، ولا فرق فأى فضل له عليهما.

فصل

قال أبو محمد: وفى الباب الثالث من إنجيل متَّى: فلـما بلغه عن حبس يحيى بن زكريا تنحى إلى جلجال، وتخلى من مدينة الناصـرة، ورحل وسكن فى كفر «ناحوم» على السـاحل فى زابلون وتفتـالى، ليتم قـول شعيـا النبى حيث قـال: أرضُ زابلون وتفتالى وطريق الـبحر خلف الأردن وجلجال الأجناس، وكل من كـان بها فى ظلمة يبصـرون نوراً عظيماً، ومن كان سـاكنًا فى ظلل الموت فيهـا يطلع النور عليهم، ومن ذلك الموضع ابتدأ يسوع بالوصـية، وقال: توبوا فقد تدانى مـلكوت السماء. وبينا هو يمشى على ريف بحـر جلجال إذ بصـر بأخوين، أحـدهما: يدعى شـمعون المسمى باطرة، والآخر: أندرياش وهمـا يدخلان شبـاكهمـا فى البحر، وكـانا صيادين فـقال لهما: اتبـاعنى أجعلكما صيادى الآدميـين، فتخليا وقتهـما من شباكهمـا واتَّبعاه، ثم تحرك مـن ذلك الموضع وبصر بأخـوين أيضًا وهمـا يعقـوب يوحنا ابنى سيـذاى، فى مركب مع أبيهـما يعدان شباكـهما فدعاهما، فـتخليا ذلك الوقت من شباكـهما ومن أبيهما ومتاعهما، واتَّبعاه. هذا نص كلام متّى فى إنجيله حرفًا حرفًا.

وفى أول باب من إنجيل مارقش قـال: فبعد أن ثل بيحيى أقـبل يسوع إلى جلجال ملك الله، وقـال: إن الزمان قد تمَّ وتدانى مـلك الله، فتوبوا وتـقبلوا الإنجيل. فـلما خطر جوار بحـر جلجال، نظر إلى شـمعون واندرياش وهمـا يدخلان شـباكهـما فى البحر، وكانا صيادين، فـقال لهما يسوع: اتبعانى أجعلكما صـيادين للآدميين، فتركا تلك الشبكة واتبعاه، ثم تمادى قليلاً وأبصر يعقوب بن سبذاى، وأخاه يوحنا وهما في المركب يهندمان شـباكهما، فـدعاهما فتـركا والدهما مع العمـالين بأجرة فى المركب، واتبعاه. هذا نص كلام مارقش فى إنجيله حرفًا حرفًا.

وقال فى الباب الرابع من إنجيل لوقا: وبينما الجـماعات يومًا تزدحم عليه رغبة فى استـماع كـلام الله، وكان فى ذلك الوقت واقفًـا على ريف بُحَيـرَة بُشيـرات إذْ بصر بمركبين فى البحيرة، قـد نزل عنهما أصحابهما لغسل شباكـهم، فدخل يسوع أحدهما الذى كان لشـمعونَ، وسأله أن يتنحى به عـن الريف قليلاً، فقعـد فى المركب وجعل يوصى الجماعات منه، فلمـا أمسك عن الوصية قال لشمعـون: تنحّ والقوا جرافاتكم للصيد، فقال لهُ شمعون: يا معلم قد عنينا طول الليل ولم نصب شيئًا، ولكن سنلقى

الجرافة بأمرك وقولك. فلما ألقاها قبضت على حيتان كثيرة جليلة، فكادت تنقطع الجرافة من كثرتها، فاستعانوا بأصحاب المركب الثانى، وسألوهم أن يعينوا على إخراجهم لها، فاجتمعوا عليها وشحنوا منها المركبين حتى كادا أن يغرقا. فلما بصر بذلك شمعون الذى يدعى باطرة سجد ليسوع، وقال اخرج عنّى يا سيدى لأنى إنسان مذنب.

وكان قد حاروا كل من كان معه لكثرة ما جمعا من الحيتان، وحار يعقوب ويوحنا ابنا سيذاى، قال يسوع لشمعون: لا تخف فإنك ستصطاد اليوم الآدميين فأخرجوا إلى الريف الآخر مركبهم، وتخلوا من جميع ما كان معهم واتّبعوه. هذا نص كلام لوقا فى إنجيله حرفًا حرفًا.

وفى أول باب من إنجيل يوحنا بن سيذاى قال: وفى يوم آخر كان يحيى بن زكريا المعمد واقفًا ومعه تلميذان من تلاميذه، فبصر يسوع ماشيًا فقال: هذا خروف الله فسمع ذلك من التلميذان، واتّبعا يسوع فالتفت إليهما يسوع إذ رآهما يتبعانه وقال لهما: ما الذى طلبتما..؟ قالا له يا معلم أين مسكنك؟ فقال لهما: أقبلا فأبصراه فتوجها معه ورأيا مسكنه وباتا عنده ذلك اليوم.

وكانوا فى الساعة العاشرة وكان أحد التلميذين اللذين اتبعاه أندرياش أخو شمعون المسمى باطرة، أحد الاثنى عشر فلقى أخاه شمعون، وهو أحد اللَّذَيْن سمعا من يحيى واتبعاه، إذ نظر إليه وقال له: وجدنا المسيح. ثم أقبل إليه به فلما بصر به المسيح قال له: أنت شمعون بن يونا، وأنت تسمى كيفا وترجمته الحجر. وهذا نص كلام يوحنا فى إنجيله حرفًا حرفًا.

قال أبو محمد: فاعجبوا لهذه الفضائح وتأملوها، اتفق متى ومارقش، على أن أول ما كانت صحبة شمعون باطرة، وأخيه أندرياش ابنى يونا للمسيح عليه السلام، فإنها كانت بعد أن سجن يحيى بن زكريا عليه السلام، إذ وجدهما المسيح وهما يدخلان شبكتهما فى البحر للصيد، وقال لوقا: إنه وجدهما أول ما صحباه، إذ وجدهما قد نزلا من المركب لغسل شباكهما، وأنهما كانا قد تعبا طول الليل ولم يصيدا شيئًا.

وقال يوحنا: إن أول ما صحباه إذ رآه أندرياش أخو شمعون باطرة وهو واقف مع يحيى بن زكريا، وأنه كان تلميذًا ليحيى، وأن يحيى حينئذ كان يعمد الناس، فلما سمع أندرياش قول يحيى إذا رأى المسيح هذا خروف الله، ترك يحيى وصحب

المسـيح، وذلك فى السـاعة العـاشرة، وبات عـنده تلك الليلة، ثم مـضى إلى أخيـه شمعون باطرة وأخبـره، وأتى به إلى المسيح فصحبه، وهى أول صحبتـه له. فبعضهم يقول: أول صحبـة باطرة وأخيه أندرياش للمسيح كانت بعـد سجن يحيى بن زكريا، وهو قول مـتى ومارقش، وبعضـهم يقول: إن أول صحـبة شمـعون باطرة وأندرياش للمسيح كـانت قبل أن يسجن يحيى بن زكريا وهو قول يوحنا، وبعـضهم يقول: أول صحبة باطرة وأندرياش للمسـيح كانت إذ وجدهما يدخلان شبكتهما للصـيد جميعًا، فتركاهـا وصحباه من حينئذ، وهو قـول متّى ومارقش. وبعضهم يقول: أول صـحبة باطرة وأندرياش للمـسيح كـانت إذ رآه أندرياش وهو واقف مع يحـيى، وهو تلميـذ ليحيى يومئذ، فرأى المسيح ماشيًـا فقال يحيى: هذا خروف الله، فترك أندرياش يحيى وصحب المسيح من حينئذ، ثم مضى إلى أخيه شمعون وعرفه أنه وجد المسيح وأتى به إليه فصحبه من حينئذ، وهو قول يوحنا. فهذه أربع كذبات فى نسق.

أحدها: فى الوقت الذى كان ابتدأ صحبتهما للمسيح فيه.

والأخرى: فى الموضع الذى كان فيه أول صحبتهما للمسيح عليه السلام.

والثالثة: فى رتبة صحبتهما للمسيح معًا أم أحدهما قبل الثانى..؟.

والرابعة: فى صفة المحال التى وجدهما عليها أول ما صحباه. وبالضرورة ندري أن أحد هذه الاخـتلافات الأربعـة كذب بلا شك، ومثل هذا لا يمكن ألبـتة أن يكون من عند الله عزّ وجل، ولا من عند نبى ولا من عند صادق، بل من كـذّاب عيّار لا يبالى بما حدث، وأغرب شيء فى ذلك قولهم كلهـم: إن يوحنا بن سيذاى هو ترجم إنجيل متّى من العبرانية إلى اليونانية، فإذ رأى هذه القصص فى إنجيل متّى بخلاف ما عنده فـلابد ضـرورة من أن يكون عـرف أن قول مـتّى كـذب أو عـرف أنه حق، لابدّ من أحدهما ضرورة.

فإن كان قـول متّى كذبًا فقد اسـتجاز يوحنا أن يورد الكذب عن صاحـبه المقدس، الذى هو عندهـم أكبر من موسى، ومن سائر الأنبياء عليهم السلام، وإن كان قول متّى حقًا فقد قصد يوحنا إيراد الكذب فيما أخبر هو به فى إنجيله، لابدّ من أحدهما، ولقد كـانت هذه وحدها تكفى فى بيـان أن الأناجـيل من عمل كـذابين ملعونين، شـاهت وجوههم، وحاقت بهم لعنةُ الله تعالى.

فصل

وفي الباب الرابع من إنجيل متَّى، أن المسيح قال لتلاميذه: لا تحسبوا أني أتيت لنقض التوراة وكتب الأنبياء، إنما أتيت لإتمامها آمين. أقول لكم: إلى أن تبيد السماء والأرض لا تبيد «يا» واحدة، ولا حرف واحد من التوراة، حتى يتم الجميع فمن حلّل عهداً من هذه العهود الصغيرة وحمل الناس على تحليله، فسيدعى في ملكوت السموات صغيراً، ومن أتمه وحضّ الناس على إتمامه فسيدعى في ملكوت السموات عظيماً.

وفي الباب السادس عشر من إنجيل متَّى: ستحول السموات والأرض ولا يحول كلامي.

قال أبو محمد: وهذه نصوص تقتضي التأييد وتمنع من النسخ جملة، ثم لم يمض بعد الفصل الأول المذكور إلا أسطار يسيرة حتى ذكر متّى أنه قال لهم المسيح: قد قيل من فارق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق. قال: وأنا أقول لكم: من فارق امرأته إلا لزنا فقد جعل لها سبيلاً إلى الزنا، ومن تزوج مطلقة فهو فاسق. وهذا نقض لحكم التوراة الذي ذكر أنه لم يأت لنقضها لكن لإتمامها.

ثم يحكون عن بولش الملعون أنه نهى عن الختان، وهو أوكد شرائع التوراة، وعن شمعون باطرة المسخوط أنه أباح أكل الخنزير، وكل حيوان وطعام حرمته التوراة، ثم هم قد نقضوا شرائع التوراة كلها أولها عن آخرها من السبت وأعياد اليهود وغير ذلك، وهم مع هذا العمل لا يختلفون في أن المسيح وجميع تلاميذه بعده لم يزالوا يلتزمون السبت وأعياد اليهود وفصحهم إلى أن ماتوا على ذلك، وأن المسيح إنما أخذ ليلة الفصح وهو يفصح على سنة اليهود، وشريعتهم فكيف هذا..؟ ولابد لهم من أن يضيفوا الكذب إلى المسيح جهاراً إذْ أخبر أنه لم يأت لنقض التوراة ثم نقضها، فصح أنه أتى لما أخبر أنه لم يأت له من نقضها، وهذا كذب لا مرحل عنه. ولابد لهم من أن يقروا أن المسيح مسخوط، يدعى في ملكوت السموات صغيراً لا عظيماً لأنه هكذا أخبر عن من حلّل عهداً صغيراً من عهودها، وهو قد حل عهوداً كباراً من عهودها، إذ حرم الطلاق وقد أباحته التوراة ونهى عن القصاص الذى جاءت به التوراة وقال قد قيل: العين بالعين والسن بالسن، وأنا أقول لا تكافؤوا أحداً بسيئة، ولكن من لطم خدك الأيمن فانصب له الآخر.

قال أبو محمد: ولابد لهم من أن يشهدوا على أنفسهم أولهم على آخرهم،

وسالفهم عن خالفهم بمعصية الله تعالى ومخالفة المسيح، وأنهم يدعون فى ملكوت السموات صغاراً، إذ نقضوا حكم التوراة، أولها عن آخرها، ولا يمكنهم ههنا دعوى النسخ ألبتة، لأنهم حكوا كما أوردنا عن المسيح أنه قال: أقول لكم: إلى أن تبيد السماء والأرض لا تبيد «يا» واحدة ولا حرف واحد، من التوراة حتى يتم الجميع فمنع من النسخ جملة، وإن فى هذا لعجباً لا نظير له، وحمقًا وضلالاً ما كنا نصدق بأن أحدًا يدين به، لولا أنا شاهدناهم ونسأل الله السلامة.

ثم ذكر فى الباب الثامن عشر من إنجيل متى أن المسيح قال للحواريين الاثنى عشر بأجمعهم وفى جملتهم يهوذا الأشكريوطا الذى دل عليه اليهود برشوة ثلاثين درهمًا: كل ما حرمتموه على الأرض يكون محرمًا فى السماء، وكل ما حللتموه على الأرض يكون محللاً فى السماء.

وفى الباب السادس عشر من إنجيل متّى أنه قال هذا القول لباطرة وحده.

قال أبو محمد: وهذا تناقض عظيم، كيف يكون التحليل والتحريم للحواريين، أو لباطرة مع قوله أنه لم يأت لتبديل التوراة لكن لإتمامها..؟ وأنه من نقض عهدًا من عهودها صغيراً دُعى فى ملكوت السموات صغيراً، وأن السماء والأرض تبيدان قبل أن تبيد من التوراة «يا» واحدة أو حرف واحد، ولئن كان صدق فى هذا فإن فى نص التوراة أن الله قد لعن من صُلب فى خشبة، وهم يقولون إنه صلب فى خشبة، ولا شك فى أن باطرة وشمعون أخوا يوسف، وأندرياش أخو باطرة، وفليش وبولش صلبوا فى الخشب. فعلى قول المسيح عليه السلام لا يبيد شىء من التوراة حتى يتم جميعها، فكل هؤلاء ملعونون بلعنة الله تعالى. فاعجبوا لضلال هذه الفرقة المخذولة، فما سمع بأطمّ من هذه الفضائح أبدًا.

فصل

وفى الرابع من إنجيل متّى: أن المسيح قال لهم أنا أقول لكم: كل من سخط على أخيه بلا سبب فقد استوجب القتل، وإن أضرت إليك عينك اليمنى فافقأها وأذهبها عن نفسك، فذهابها عنك أحسن من إدخال جميع جسدك الجحيم. وإن أضرّت يدك اليمنى إليك فابرأ منها، فذهابها منك أحسن من إدخال جميع جسدك النّار.

قال أبو محمد: وهذه شرائع يقرّون أن المسيح عليه السلام أمرهم بها كلهم بلا

خلاف من أحد منهم لا يرون القضاء بشيء منها، فهم على مخالفة المسيح بإقرارهم، وهم لا يرون الختان، والختان كان ملة المسيح، وكان مختونًا. والمسيح وتلاميذه لم يزالوا إلى أن ماتوا يصومون صوم اليهود، ويفصحون فصحهم، ويلتزمون السبت إلى أن ماتوا، وهم قد بدّلوا هذا كله، وجعلوا مكان السبت الأحد وأحدثوا صومًا آخر بعد أزيد من مائة عام بعد رفع المسيح، فكفى بهذا كله ضلالاً وكفرًا، وليس منهم أحد يقدر على إنكار شيء من هذا.

فإن قالوا: إن المسيح أمرهم باتباع أكابرهم؛ قلنا: لا عليكم، أرأيتم لو أن بطارقتكم اليوم أجمعوا على إبطال ما أحدثه بطارقتكم بعد مائة عام من رفع المسيح وأحدثوا صيامًا آخر ويومًا آخر غير يوم الأحد وفصحًا آخر، وردّوكم إلى ما كان عليه المسيح من تعظيم السبت وصوم اليهود وفصحهم أكان يلزمكم اتباعهم؟ فإن قالوا: لا، قلنا: ولم؟ وأي فرق بين اتباع أولئك، وقد خالفوا ما مضى عليه الحواريّون، وبين اتباع هؤلاء فيما أحدثوه آنفًا؟ فإن قالوا: إن أولئك لعنوا ومنعوا من تبديل ما شرعوا. قلنا لهم: وأيّ لعن وأي منع أعظم من منع المسيح من تبديل شيء من عهود التوراة؟ ثم قد بدّله من أطعتموه في تبديله له، فقد صار منع من بعد المسيح أقوى من منع المسيح.

وإن قالوا: نعم كنا نتبعهم. أقرّوا أن دينهم لا حقيقة له، وأنه إنما هو اتباع ما شرعه أكابرهم من تبديل ما كانوا عليه. ويقال لهم: أرأيتم إن أحدث بعض بطارقتكم شرائع وأحدث الآخرون منهم شرائع أخرى، ولعنت كل طائفة منهم من عمل بغير ما شرعت، كيف تكون الحال؟ فأيّ دين أنتن وأوسخ، أو أضل أو أفسد، مِنْ دينِ هذه صفته؟ ولقد كان لهم فيما أوردناه في هذا الفصل كفاية في بطلان كل ما هم عليه لو كان لهم مسكة عقل، وحق لكل دين مرجعه إلى متّى الشرطي ويوحنا المستخف، ومارقش المرتدّ ولوقا الزنديق، وباطرة اللعين. وبولش المدسوس للإضلال لهم في دينهم أن تكون هذه صفته، والحمد لله على عظيم نعمته علينا.

فصل

وفي الباب الخامس من إنجيل متّى: أن المسيح عليه السلام قال لهم: ليكن دعاؤكم على ما أصف لكم: يا أبانا السماوي تقدس اسمك. ثم قال بعد ذلك: وقد علم أبوكم أنكم ستحتاجون إلى جميع هذا. وفي آخر الإنجيل أنه قال لهم: إني ذاهب إلى

أبى وأبيكم إلهى وإلهكم. فما ترى للمسيح من البُنُوة لله تعالى إلا ما لسائر الناس ولا فرق، فمن أين خصوه بـأنه ابن الله دون سائرهم كلهم؟ إلا إن كذبوه فى هذا القول. فليختاروا أحد الأمرين ولابد. ثم من أين خـصوا كل من سوى المسيح بأن الله تعالى إلهه، ولم يقولوا: إن الله إله المسيح كما قال هو بلسانه، فلابدّ ضرورة من الإقرار بأن الله هو إله المسـيح، وأن سـائر الناس أبناء الله أو يكذبوا المسـيح فى نصـف كلامـه، وحسـبك بهذا فسـاداً وضلالاً. تعالى الله أن يكـون أبا لأحد، أو أن يكون له ابن لا المسيح ولا غيره، بل هو تعالى إله المسيح، وإله كل من هو غير المسيح أيضًا.

فصل

وكثيـرًا ما يحكون فى جميع الأناجيـل فى غير ما موضع أنه إذا أخـبر المسيح عن نفســه سمى نفـسه ابن الإِنسـان، ومن المحال والحمق أن يكون إلـه ابن إنسان، أو أن يكون ابن إله وابن إنسان مـعًا، أو أن يلد إنسان إلهًـا، ما فى الحمق والمحـال والكفر أكثر من هذا. ونعوذ بالله من الضلال.

فصل

وفى الباب التـاسع من إنجيل متّى «فـبينا يسوع يقـول هذا، أقبل إليه أحـد أشراف ذلك الموضع وقـال له: إن ابنتى توفـيت وأنا أرغب إليك أن تذهب إليـهـا، وتمسهـا بيديك لتحيا» ثم ذكر أنه لما دخل بيت القائد ونظر بالنوائح والبواكى قال لهن: اسكتن فإن الجارية لم تمت ولكنها راقـدة، فاستهزأت الجماعة به. ولما خرجـت الجماعة عنها دخل عليها فأخذ بيـدها ثم أقامها حية. وذكر هذه القصة نفـسها فى الباب السابع من إنجيل لوقا، إلا أنه قـال فيها: إن أباها قال له قد أشـرفت على الموت وأنه نهض معه فلقيه رسول يخـبره بأن الجارية قد ماتت، فلا تُعَنِّه. وأن المسـيح قال لأبيها: لا تخف وآمن فتحيـا. فلما بلغ البيت لم يدخل مع نفسه فى البيت إلا بـاطرة ويحيى ويعقوب وأبوى الجارية، وكانت الجمـاعة تبكى وتلتدم فقال هم: لا تبكوا فـإنها راقدة وليست ميتة، فاستـهزؤوا به معرفة بموتها فأخذ بيدها ودعاها وقـال: يا جارية قومى فانصرف فيها روحها، وقامت من وقتـها وأمرت بأن تطعم طعامًا وحار أبوها وأمرهما ألا يعلم أحد بما فعل. وذكر مثل ذلك فى الباب الخامس من إنجيل مارقش.

قال أبو محمد: فى هذا الفصـل مصائب جـمة **أحدها:** كان يكفىَ فى أنه إنجيل

موضوع مكذوب أولهـا حكاياتهم عن المسيح أنه كذب جهـاراً إذ قال لهم لم تمت إنما هى راقدة ليست ميتة فإن كان صادقًا فى أنهـا ليست ميتة، فلم يأت بآية ولا بعجيبة، وحاشـا لله أن يكذب نبى فكيف إله..؟! وليس لهم أن يقـولوا: إن الآية هى إبراؤها من الإغماء لأن فى نص إنجيلهم أنه قال لأبيها: آمن فتحـيا ابنتك، فلابد من الكذب فى أحد القولين.

والثانية: أن متَّى ذكر أن أباها جاء إلى المسيح وهى قـد ماتت وأخبره بموتها ودعاه ليحـيها، ولوقا يـقول: إن أباها أتى إلى المسيح وهى مـريضة لم تمت وأتى به ليبـرئها بعد، وأن الرسول لقـيه فى الطريق وقال له: لا تُعَنِّه فقد ماتت، فـأحد النذلين كاذب بلا شك، فعليهما لعائن الله وسخطه فلا يجوز أخذ الدين عن كذاب.

والثالثة: انفراد المسـيح عن الناس عند مجـيئه بهـذه الآية حاشا أبـويها وثلاثة من أصـحابه، ثم اسـتكتامـه إياهم ذلك، والآيات لا يطلب لهـا الخلوات ولا تستـر عن الناس، وفى الأناجيل مثل هذا كثيـر، من أنه لم يقدر فى بعض الأوقات على آية مرة بحضرة بلاطس، ومرة بحضـرة اليهود، وأنه قال لمن طلب منه آية: إنكم لا ترون آية إلا آية يونس عليه السلام إذ بقى فى بطن الحوت ثلاثًا، وما كان هكذا فإنما هى أخبار مسترابة وكذبات مفتعلة، ونقل عن من لا خير فيه، وبالله تعالى التوفيق.

فصل

وفى الباب العـاشر من إنجيل متَّى أن المسيـح جمع إلى نفسه اثنى عـشر رجلاً من تلامـيذه، وأعطاهم سلطانًا على الأرواح النجـسة، أن ينفـوها وأن يبرؤوا كـل مرض وهذه أسماؤهم:

أولهم شـمعون المسـمّى باطرة، وأندرياش أخـوه، ويعقـوب بن سيذاى، ويـحيى أخوه، وفلبش وبرتلومـا وطوما ومتّى بن الجـابى ويعقوب ويهـوذا أخوه، وشمـعون الكنعـانى، ويهوذا الاشكريوطا الذى دل عليـه بعد ذلك فـبعث يسـوع هؤلاء الاثنى عشر، وقال لهم: لا تسلكوا فى سبيل الأجناس، ولا تدخلوا مدائن السامريين، ولكن اختصروا إلى الضأن التالفة من بنى إسرائيل.

ففى هذا الفـصل طامتان إحـداهما قوله: إنه أعـطى أولئك الاثنى عشر وسـماهم بأسمائهم كلهم سلـطانًا على الأرواح النجسة، وأن يبرؤوا كل مريض، وسـمى فيهم يهوذا ولم يَدع للإشكال وجـهًا، بل صرح بأنه الذي دلّ عليـه بعد ذلك اليهـود حتى

أخذوه وصلبوه بزعمهم، وضربوه بالسياط، ولطموه واستهزءوا به، وكذبوه لعنهم الله تعالى، فكيف يـجوز أن يقرب الله تعـالى ويعطى السلطان على الجن والإبراء من كل مرض من يـدرى أنه هو الذى يدل عليه ويكفـر بعد ذلك؟ هذا مع قـول يوحنا - من سرقة يهوذا وخـبث باطنه فى إنجيله- أن يهوذا المذكور كان سـارقًا، وأنه كان يخطف كل ما يهدى إلى المسيح،ويذهب به. فلابد ضرورة من أحد وجهين بلا ثالث أصلاً.

إما أن يكون المسيح اطلع على ما اطلع عليـه يوحنا من سرقة يهوذا وخبث باطنه، وأعطاه مع ذلك الآيات المعجزات، وجعله واسطة بينه وبين الناس، وجعل له أنّ يحرم ويحلّل فيكون مـا حلل وحرم محـرّمًا ومحللاً فى السـموات، فهذه مـصيبـة وترفيع بالكفار، وتقـديم لمن لا يستـحق وسخرية بالدّين، وليـس هذا صفة إله ولا من فـيه خير. أو يكون خفى على المسيح من خبث نية يهوذا مـا عرف غيره، فهذه عظيمة من إله يجهل ما خلق فهل سمع قط بأحمق من هذه القصص وممن يعتقدها حقًا..؟!!.

والثـانيـة: قـوله لا تسلكوا فى سـبيل الأجـناس، ولا تدخلوا مدائـن السامـريين، واختصروا إلى الضأن المبددة من نسل إسرائيل، وأنه لم يبعث إلا إلى الضأن التالفة من بنى إسرائيل، وهذا إنما أمـرهم بأن يكملوه بعد رفعه بإقـرارهم كلهم أنه طول كونه فى الأرض لم يفارقه أحـد منهم، ولا نهضوا داعين إلى بلد آخر ألبـتة، فقد خـالفوا أمره وعصوه؛ لأنهم لم يذهبوا إلا إلى الأجناس،فهم عصاة لله تعالى فساق بإقرارهم.

فصل

وفى هذا الباب نفسه أن المسيح قال لتلاميذه: وإذا طُلبتم فى هذه المدينة فاهربوا إلى أخرى آمِّين، أقول لكم: لا تسـتوعبوا مدائن بنى إسـرائيل، حتى يأتى ابن الإنسان - يعنى رجوعه إلى الدنيا- ظاهراً بعد رفعه إلى جميع الناس.

وفى الباب السـابع من إنجيل مارقش، وفـى أول الباب التاسع من إنجـيل لوقا، أن المسيح قال لهم: إن من هؤلاء الوقوف بـعض قوم لا يذوقون الموت، حتى يروا ملك الله مقبلاً بقدرة.

قال أبو مـحمد: وكذب هذا القـول قد ظهر عـلانية، فقد اسـتوعبـوا مدائن بنى إسرائيل وغيرها، ولـم يروا ما وعدهم به من رجـوعه بالقدرة علانية قبل أن يموت كل من بحضـرته يومئـذ، وحاشا لله أن يكذب نبى، فكيف إلـه..؟!! وفى هذا الفصل وحده كفاية لو كان عقل فى أن الذين كتبوا هذه الأناجيل كانوا كذابين قوم سوء. فإن

قالوا: فإن فى صحيح حديثكم: «أن نبيكم ﷺ قال وأشار إلى غلام بحضرته من بنى النجار: إن استكمل هذا عمره أدرك الساعة، فمات ذلك الغلام فى حد الصبا، وأنه كان يقول للأعراب إذا سألوه متى تقوم الساعة؟ فيشير إلى أصغرهم ويقول: إن استكمل هذا عمره لم يأته الموت حتى تقوم الساعة» قلنا: هذا الغلط غلط فيه قتادة ومعبد بن هلال، فحدثا به عن أنس على ما توهماه من معنى الحديث، ورواه ثابت ابن أسلم، البنانى عن أنس كما قاله رسول الله ﷺ بلفظه فقال: «**قامت عليكم ساعتكم**» وهكذا رواه الثقات أيضًا عن عائشة أم المؤمنين ﵂ عن النبى ﷺ كما رواه ثابت عن أنس وقالت: إنه عليه السلام قال إن هذا لا يستوفى عمره حتى تقوم عليه ساعتكم يعنى وفاة أولئك المخاطبين له، وهذا هو الحق الذى لا شك فيه، ولا خلاف من أن ثابتًا البنانى أثقف الأخبار من قتادة ومعبد، فكيف وقد وافقته أم المؤمنين. . . ؟ ونحن لا ننكر غلط الراوى إذا قام البرهان على أنه خطأ، وقد صح فى القرآن والأخبار الثابتة من طريق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وابنه وغيرهما عن النبى ﷺ أنه لا يدرى أحد متى تقوم الساعة، غير الله تعالى؛ ولو قال النصارى واليهود مثل هذا فى نقلة كتبهم ما عنفناهم، ولا أنكرنا عليهم وجود الغلط فى نقلهم، إنما ننكر عليهم أن ينسبوا -يعنى اليهود والنصارى- إلى الله تعالى الكذب البحت، ويقطعون أنه من عنده تعالى وننكر على النصارى أن يجعلوا من صح عنه الكذب معصومًا، يأخذون عنه دينهم، وأن يحققوا كل خبر متناقض وكل قضية يكذِّب بعضها بعضًا. ونعوذ بالله من الخذلان.

فصل

وفى هذا الباب نفسه أن المسيح قال لهم: لا تحسبوا أنى جئت لأدخل بين أهل الأرض الصلح إلا السيف وإنما قدمت لأفرق بين المرء وزوجه وابنه، وبين الابنة وأمها، وبين الكنَّة وختنتها، وأن يعادى المرء أهل خاصته.

وفى الباب الثانى عشر من إنجيل لوقا أن المسيح قال لهم: إنما قدمت لألقى فى الأرض نارًا وإنما إرادتى إشعالها ولنغطس فيها جميعها، وأنا بذلك منتصبٌ إلى تمامه أتظنون أنى أتيت لأصلح بين أهل الأرض؟ ولكن لأفرق بينهم فيكون خمسة مفترقين فى بيت ثلاثة على اثنين واثنان على ثلاثة، الأب على الولد والولد على الأب والابنة على الأم والأم على الابنة، والختنة على الكنة والكنة على الختنة. فهذان فصلان كما ترى.

وفى الباب التاسع من إنجيل لوقا أن المسيح عليه السلام قـال لهم: لم نبعث لتلف الأنفس لكن لسلامتها.

وفى الباب العـاشر من إنجيل يوحنا أن المسيح قـال: من سمع كلامى ولـم يحفظه فلست أحكم أنا عليه فإنى لم آت لأحكم على الدنيا وأعاقبها لكن لأسلم أهل الدنيا.

قال أبو محمد: هذا الفصلان ضد الفصلين اللذين قـبلهما، وكل واحد من المعنيين يكذب الآخر صراحًا، فإن قيل: إنه إنما أراد أنه لم يبعث لتلف الأنفس التى آمنت به. قلنا: قـد عمّ ولـم يخصّ، وبرهان بطلان تأويـلكم هذا من أنه إنما عَنى أنه لم يبعث لتلف النفوس المؤمنة به أنَّه نص هذا الفصل فى الباب التـاسع من إنجيل لوقا، هو كما نورده إن شاء الله تعالى قال عن المسيح: إنه بعث بين يديه رسلاً وجعلوا طريقهم على السامرية ليعدوا له بها فلم يقبلوه لتـوجهه إلى برشلام، فلما رأى ذلك يوحنا ويعقوب قالا له: يا سيدنا أيوافـقكم أن تدعو فتنزل عليهم نار من السماء وتحرق عـامتهم كما فعل إليـاس..؟ فرجع إليهم وانتـهرهم وقال: الذى أنتم له أرواح لم يبـعث الإنسان لتلف الأنفس لكن لسلامتها. ثم توجهوا إلى حصن آخر.

قال أبو محمد: فارتفع الإشكال وصح أنه لـم يعن بالأنفس التى بعث لسلامتـها بعض النفوس دون بعض، لكن عنى كل نفس كافرة به مؤمنة به لأنه كما تسمعون إنما قال ذلك إذْ أراد أصحابه هلاك الذين لم يقـبلوه، فظهر تكاذب الكلام الأول، وحاشا لله أن يكذب المسـيح عليه السـلام، لكن الكذب بلا شك من الفـساق الأربعـة الذين كتبوا تلك الأناجيل المحرّفة المبدلة.

ثم فى هذا الفصل نصٌ جلىٌ على أنه مبعوث مأمور، فصح أنه نبى كما يقول أهل الحق إن كانوا صدقوا فى هذا الفصل وبالله تعالى التوفيق.

فصل

وفى الباب المذكور نفسه أن المسيح قال: من قبل نبيًّا على اسم نبى فإنه يكافأ بمثل أجر النبى.

قال أبـو محـمد: وهذا كذب ومـحال، لأنه لا تفاضل للنـاس عند الله تعالى فى الآخرة إلا بأجـورهم التى يعطيهم الله تعـالى فقط، لا بشىء آخـر أصلاً، فـمن كان أجره فوق أجر غيره فهو بالضرورة أفضل منه، والآخر بلا شك دون، ومن كان أجره

مثل أجر آخر فهما بلا شك سواء فى الفضل، هذا يعلم ضرورة بالحس، فلو كان كل من اتبع نبيًا له مثل أجر النبى لـكان أهل الإيمان كلهم فى الآخرة سواء لا فضل لأحد على أحـد عند الله تعالـى، وهذا يعلم أنه كذب ومـحـال بالضرورة، ولو كـان هذا لوجب أن يكون أجر كل كلب من النصارى مثل أجر باطره والتلاميذ وبولش ومارقش ولوقـا، وليس منهم أحد يقـول بهذا، ولا يدخله فـى الممكن؛ فكلهم متـفق على أن إلههم كذل، وحاشا لله من أن يكذب نبى من أنبيائه، أو رجل صادق من أهل الإيمان وبالله تعالى التوفيق.

فصل

الكلام فى يحيى عليه السلام

وفى الباب الثانى عشر من إنجيل متّى أن المسيح عليه السلام قال وقد ذكر يحيى بن زكريا: أنا أقول لـكم إنه أكثر من نبى وهو الذى قيل فـيه وأنا باعث ملكى بين يديك ليعد لك طريقك.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل كذب فى موضعين.

أحدهما: قوله فى يحيى إنه أكـثر من نبى وهذا محال، لأنه لا يخلو يحـيى وغير يحيى من إلا أن يكون رسولاً نبـيًا، ويحيى رسول بإجماعـهم، وإن كان لم يوح إليه فهذه منزلة يسـتوى فيها الكافر والمؤمـن، ولا يجوز أن يكون من لا يوحى الله تعالى إليه مثلاً لمن استخصه عز وجل بالوحى إليه، فكيف أن يكون أكثر منه..؟.

والكذبة الثانية: قوله إن يحـيى هو الذى قيل فيـه وأنا باعث ملكى بين يديك لأن يحيى عـليه السلام على هذا مـلك، وهذا كذب بحت لأنه إنسـان ابن رجل وامرأة، عاش إلى أن قـتل، وليس هذا صفـة الملك، ويحيى لم يكن ملكًا. وفـى هذا الفصل الذى بعد هذا أنه قال: إنّ يحيى آدمى فهذا القول كذب على كل حال، وحاشا لله أن يكذب نبى، ولا رجل فاضل، وصح أن متّى الشرطى النذل هو الذى كذب، فعليه ما على الكذابين أمثاله.

فصل

وفى الباب المذكور، أن المسيح قـال لهم: آمين أقول لكم لم يولد أحد من الآدميين أشرف من يحيى المعمِّد، ولكن من كان صغيراً وفى ملكوت السماء فهو أكبر منه.

قال أبو محمد: تأملوا هذا الفصل تروا مصـيبة الدهر فيهم، وقرة عـيون الأعداء، وقولاً لا يمكـن أن يقوله ولا يَنْطِقُ به صَبِيٌّ يرجى فلاحـه، ولا أمَة وكـفاء[١] إلا أن تكون مدخولة العـقل. أثبت أنه لم يولد فى الآدميين أشرف من يحيى وإذا كـان كما زعم أن الصغير فى ملكوت السماء أكبر من يحيى، فكل مؤمن يدخل ملكوت السماء ضرورة فهـو أفضل من يحيى، فوجب من هذا أن كل مؤمن من بنى آدم فـهو أفضل من يحيـى، وأن يحيى أرذل وأصغـر من كل مؤمن. فما هذا الهـوس..؟ وما هذا الكذب ومـا هذه العيارة السـمجـة فى الدين..؟ وكم هذا التناقض..؟ والله مـا قال المسيح قط شيئًا من هذه الرعونة[٢]، وما قالها إلا الكذاب متَّى ونظراؤه عليهم اللعنة، فلقد كانوا فى غاية الوقاحة والاستخفاف بالدين.

فصل

وفى الباب المذكور: أن المسيح قال لهم: كل كتاب ونبوة فإن منتهاها إلى يحيى.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل كذبتان على صغره. إحداهما: قوله قيل: إن يحيى أكثر من نبى مع ما فى الإنجيل من أن يحـيى سُئل فقيل له أنبيٌّ أنت؟ قال: لا. وقال ههنا: إن كل نبوة فـمنتهاها إلى يحـيى، فمرة ليس هو نبـيًا، ومرة هو نبى الأنبـياء، ومرة هو أكثر من نبى، تبارك الله كم هذا التخليط والكذب الفاحش..؟!!.

والأخرى قوله فـيه: إن كل نبوة فمنتـهاها إلى يحيى، وليس بعد النهـاية نبى فهو على هذا آخر الأنبياء.

وفى الباب الرابع عشـر من إنجيل متَّى: أن المسيح قال لهم: أنـا باعث إليكم أنبياء وعلماء وستقـتلون منهم وتصلبون. فقد كذب بأن يحيى آخر الأنبـياء، ومنتهى النبوة إليه، والنصارى مـقرُّون بأنه قد كان بعده الأنبيـاء، وأن نبيًا أتى إلى بولش وأنذره بأنه سيصلب. ذكر ذلك لوقـا فى الأفركسيس. فقد حـصلوا على تكذيب المسيح فى قوله وفى بعض هذا كفاية.

فصل

وفى الباب المـذكور أن المسيح قـال لهم: أتاكم يحيى وهو لا يـأكل، ولا يشرب،

---

(١) الوكف: النطع، والوكف محركة: الميل والجور والعيب والإثم وقد وكف كوجل. (المحيط: ٣/١٩٩).

(٢) الأرعن: الأهوج في منطقه والأحمق المسترخي وقد رعن رعونة ورعنًا (المحيط ٤/ ٢٢٤).

فقلتم هو مجنون، ثم أتاكم ابن الإنسان يعنى نفسه فقلتم: هذا جوّاف[1] شروب الخمر، خليع صديق المستخرجين والمذنبين.

قال أبو محمد: فى هذا كذب وخلاف للنصارى، أما الكذب، فإنه قال ههنا: إن يحيى كان لا يأكل ولا يشرب، حتى قيل فيه: إنه مجنون من أجل ذلك.

وفى الباب الأول من إنجيل مارقش: أن يحيى بن زكريا عليهما السلام هذا كان طعامه الجراد والعسل الصحراوى وهذا تناقض، وأحد الخبرين كذب بلا شك. وأما خلاف قول النصارى فإنه ذكر أن يحيى كان لا يأكل ولا يشرب، وأن المسيح كان يأكل ويشرب، بلا شك من أغناه الله عز وجل عن الأكل والشرب من الناس فقد أبانه ورفع درجته على من لم يغنه عن الأكل والشرب منهم، فيحيى أفضل من المسيح بلا شك على هذا.

وقصة ثالثة: وهى اعتراف المسيح على نفسه بأنه يأكل ويشرب، وهو عندهم إله فكيف يأكل الإله ويشرب؟ ما فى الهوس أكثر من هذا. فإن قالوا: إن الناسوت منه هو الذى كان يأكل ويشرب. قلنا: وهذا كذب منكم على كل حال؛ لأنه إذا كان المسيح عندكم لاهوتًا وناسوتًا معًا فهو شيئان، فإن كان إنما أكل الناسوت وحده فإنما أكل الشيء الواحد من جملة الشيئين، ولم يأكل الآخر، فقولوا: إذًا أكل نصف المسيح، وشرب نصف المسيح، وإلا فقد كذبتم فى كل حال، وكذب أسلافكم فى قولهم أكل المسيح، ونسبتم إلى المسيح الكذب فى خبره عن نفسه أنه يأكل، وإنما يأكل نصفه لا كلّه، والقوم أنذال بالجملة.

فصل

وفى الباب المذكور أن المسيح قال: لا يعلم الولد غير الأب، ولا يعلم الأب غير الولد. **قال أبو محمد:** هذا عجب جدًا؛ لأن المسيح عندهم ابن الله بلا خلاف منهم والله - تعالى عن كفرهم- هو والد المسيح وأبوه، وهكذا يطلق النذل باطرة فى رسائله المنتنة متى ذكر الله عز وجل قال: الله والد ربنا المسيح آمرًا كذا وكذا، ثم ههنا قال: إن المسيح قال: أنه لا يعلم الأب إلا الابن، ولا يعلم الابن إلا الأب، فقد وجب ضرورة أن التلاميذ وسائر النصارى لا يعرفون الله تعالى أصلاً، ولا يعرفون المسيح

(١) هذه صيغة مبالغة على وزن «فعّال» والمجوف: ضخم الجوف، ويقال للجبان: مجوف: كأن جوفه خلا من الفؤاد (الوسيط ١/١٤٨).

ألبتة فهم جُـهَّال بالله تعالى وبالابن، ومن جهل الله تعالى ولم يعرفه فهـو كافر، فهم كلهم كفار أسلافهم وأخلافهم، أو كذب المسيح فى هذا الكلام، أو كذب النذل متَّى، لابد والله من أحدها، وقد أعـاذ الله تعالى عبده ورسوله من الكذب، فبـقيت الاثنتان وهمـا والذى سمك السـماء حق، وإن النصـارى لكفار جـهال بالله عـز وجل، وإن الشرطىّ مـتَّى، لكذاب كافر ملعون، فـعلى جميعـهم لعنة الله. نعم وفى هذا القول الملعون الذى أضافوه إلى المسيح عليه السلام القطع بأن الملائكة والأنبياء السالفين كلهم ليس منهم أحد يعرف الله تعالى، فاعجبـوا لكفر هذا اللعين متى وعظيم حماقته ومن قلده فى دينه؟ ونحمد الله على السلامة كثيراً.

فصل

مطالبة المسيح بآية

وفى الباب المذكور أن بعض التوراتيين قـال للمسيح: يا معلم إنا نريد أن تأتينا بآية فقـال لهم المسيح: يا نسل الـسوء ونسل الزنا تسـألون آية ولا ترون منها آية غـير آية يونس النبى..؟ فكما أن يـونس كان فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليـال، كذلك يكون ابن الإنسان فى جوف الأرض ثلاثة أيام بلياليها.

قال أبو محـمد: لو لم يكن فى أناجيلهم إلا هذا الفصل الملـعون وحده لكفى فى بطلان جميع أناجيلهم وجميع دينهم. فإن قد جمع عظيمتين:

إحداهما: تحقيق أنه لم يأت مخالفـيه قط بآية، وإقرار المسيح بذلك بزعمهم، وأن آياته التى يذكرون إنما كـانت خفية فى السـر بحضرة النزر القليل الذين اتبـعوه، ومثل هذا لا يقوم حجَّـة على المخالف، أو تحقيق الكذب على المسـيح فى أنه يخبر أنهم لا يرون آية وهو يريهم الآيات؛ لابد من إحداهما.

والفصل الثانى وهو الطامـة الكبرى، حكايتهم عن المسيح أنه قال عنه نفـسه: كما بقى يونس فى بطن الحوت ثلاثة أيام بلياليها، كذلك يبقى هو فى جَوف الأرض ثلاثة أيام بلياليها، وهذه كذبة شنيعة لا حيلة فيـها؛ لأنهم مجمعون فى جميع أناجيلهم أنه دفن قرب مغيب الشـمس من يوم الجمعة فى دخول ليلة السبت، وقـام من القبر قبل الفـجر من لـيلة الأحد، فلم يبـق فى جَوف الأرض إلا ليلة وبـعض أخرى، ويومًـا ويسيراً من يوم ثان فقط، وهذه كـذبة لا خفاء بها فيما أخـبر به المسيح، لابد منها أو كذب أصحاب الأناجيل، وهم أهل الكذب وحسبنا الله.

فصل

وفى الباب الثالث عشر من إنجيل متَّى أن المسيح قال: «يشبه ملكوت السماء بحبة خردل، ألقاها رجل فى فدانه، وهى أدق الزراريع، فإذا أنبتت استعلت على جميع البقول والزراريع، حتى ينزل فى أغصانها طير السماء ويسكن إليها».

قال أبو محمد: حاشا للمسيح عليه السلام أن يقول هذا الكلام؛ لكن النذل الذى قاله كان قليل البصارة بالفلاحة، وقد رأينا نبات الخردل، ورأينا من رآه فى البلاد البعيدة، فما رأينا قط ولا أخبرنا من رأى شيئًا منه يمكن أن يقف عليه طائر، ومثل هذه المسامحات لا تقع لنبى أصلاً فكيف لله عزَّ وجل.

فصل

وفى آخر الباب المذكور أنَّ المسيح رجع إلى بلاده، وجعل يوصى جماعتهم بوصايا يعجبون منها، وكانوا يقولون: من أين أوتى هذه العلوم، وهذه القدرة؟ أما هذا ابن الحدّاد وأمه مريم، وإخوته يعقوب، ويوسف، وشمعون، ويهوذا، وأخواته؟ أما هؤلاء كلهم عندنا فمن أين أوتى هذا. .؟ وكانوا يشكون فيه. فقال لهم يسوع: «ليس يعدم النبى حرمته إلاَّ فى بيته وبلده» ولتشككهم وكفرهم لم يطلع فى ذلك الموضع عجائب كثيرة.

وفى الباب الخامس من إنجيل مارقش قال: وكانت الجماعة تسمع منه وتعجب العجب الشديد من وصيته، ويقولون: من أين أوتى هذا؟ وما هذه الحكمة التى رزقها؟ ومن أين هذه الأعاجيب التى ظهرت على يديه؟ أليس هوَ ابن الحدّاد، وابن مريم أخو يوسف ويعقوب وشمعون ويهوذا؟ أليس أخواته هنَّ ها هنا معنا؟ وكان يقول لهم يسوع: لا يكون نبى بغير حرمة إلاَّ فى وطنه وبين عشيرته، وفى أهل بيته، وليس كان يقوى أن يفعل هنالك آية، لكن وضع يديه على مرضى قليل فأبرأهم.

وفى الباب الثانى من إنجيل لوقا: «فلما دخل الوالد المسيح البيت» وبعد هذا بيسير قال: «فكان يعجب منه أبوه وأمه» وبعده بيسير قول مريم أمه له: «وقد طلبك أبوك وأنا معك».

وفى الباب السابع منه: أقبلت إليه أمه وإخوته.

وفى البـاب الثانى من إنجيل يوحنا: وبعد هذا نزل إلى كـفر ناحـوم، ومعـه أمه وإخوته وتلاميذه.

وفى الباب السابع من إنجيل يوحنا: وكان إخوته لا يؤمنون به.

قال أبو محمد: فى هذه الفصول ثلاث طوام نذكرها طامة طامة إن شاء الله تعالى.

أولها: اتفاق الأناجـيل الأربعة على أنه كـان له والد معـروف من الناس، وإخوة وأخوات سـمّى الإخوة بأسمائهم، وهـم أربعة رجال سوى الأخـوات، ولا نقول فى ذلك إلاّ على إقرارٍ منهم: بأن له والدًا طلبه معها، وهو يوسف الحدّاد أو النجار، فأمّا أمُّه فـقد اتفقنا نحن واليهـود، وجمهور النصـارى على أنها حملت به حـمل النساء، وولدته كمـا تلد النساء أولادهنَّ، إلاَّ طائفـة من النصارى قالت: لـم تحمل به، لكن دخل من أذنها وخـرج من فرجهـا فى الوقت كالماء فى الميـزاب، ولكن بقى علينا أن نعرف: كيف تقول أمّه عليهـا السلام عن النجار أو الحدّاد إنّه أبوه ووالده؟ فإن قالوا: إنَّ زوج الأم يسمَّى فى اللغـة أبًا قلنا: هبكم أن هذا كذلك؟! كـيف العمل فى هؤلاء الذين اتفقت عليهم الأناجيل على أنهم إخوته وأخواته، وإنّما هم أولاد يوسف النجّار أو الحدَّاد..؟ وما وجد فـى اللغة العبرانية أنّ الربيب من غيـر الأم يسمَّى أخًا، إلاَّ أن يقولوا: إنّ مـريم ولدته من النجّار، فـقد قال هذا طائفـة من قدمائهـم منهم: «بيار» مطران «طليطلـة»، ونحن نبـرأ إلى الله تعـالى مما يقـول هؤلاء الكفـرة أن يكون لإِله معبود أمٌّ أو خال أو خالة، أو ابن خالة أو ربيب أو أخت، أو أخ، وتبًّا لعقول يدخل هذا فيها من أن لله تعالى ربيبًا هو زوج أمه.

وليس يمكنهم أن يقولوا: إنّما أراد كتّـاب الأناجيل أنّهم إخوته فى الإيمان والدِّين، لأن «يوحنا» قد رفع الإِشكال فى ذلك وقال: «معه إخوته وتلاميذه» فجعلهم طبقتين.

وقال أيـضًا: إن إخوتـه كانوا لا يؤمنون به. وتالله لولا أننا شـاهدنا النّصـارى ما صدّقنا أن من يلعب بعذرة وما يخـرج من أسفله يصدِّق بشىء من هذا الحمق، ولكن تبارك من أرادنا بهذا أنه لا ينتفع أحد ببصره ولا بسمعه ولا بتمييزه إلاَّ أن يهديه خالق الهدى والضلال. نسأل الله الذى هدانا لملّة الإسلام البيـضاء الواضحة السليمة من كل ما ينـافره العقـول، ألا يضلّنا بعـد إذ هدانا حتى نلقـاه على ملّة الحق، ونحلة الحق، ومذهب الحق، ناجين من ملل الكفر، ونِحَل من ملل الضلال، ومذاهب الخطّاء.

وكلُّ ما أوردناه بيان واضح، في أن الذين ألَّفـوا الأناجيل كانوا عيَّارين مستخفِّين بمن أضلوه امتلاعبين بالدّين.

والثانية: إقرارهم بأن المسيح لم يكن يقـوى فى ذلك المكان على آية، ولو كان لهم عقل لعلموا أن هذه ليس صفة إله يفعل ما يشاء، بل صفة عبد مخلوق مدبّر لا يملك من أمره شيئًا، كما قال لرسول الله ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٩]

الثالثة: إقرارهم بأن المسـيح عليه السلام سـمعهم ينسبـونه إلى ولادة الحدّاد، وأنه أبوه، ولم ينكر ذلك عليهم.

فقد حـققوا عليه أحد شيـئين لا ثالث لهما ألبتـة: إمّا أنه سمع الحق من ذلك فلم ينكره، وفى هذا ما فيه من خلاف قولهم جملة.

وإمَّا أنه سَمع البـاطل والكذب فأقرَّ عليه ولم ينكره. وهذه صفـة سوء وتلبيس فى الدين. **قال أبو مـحمد:** وفى هذه الفصول مما لم يطلق الله تعـالى أيديهم على تبديله من الحق قوله: «لا يعدم النبى حرمته إلاَّ فى وطنه وأهل بيته».

فيا عقول الأطفال، ويا أدمغة الإوزّ: لو عقلتم أما كنتم تقولون فيه ما قال في نفسه، وما يشهد العيان بصدقه وصحـته فيه، وتتركون الرعونـة التى لم تقـدروا مـنذ ألف عام بيـان ما تعتقـدونـه منها بقلوبكم، ولا قدرتم على العبارة عنهـا بألسنتكم؟ وكلما رمتم وجهًا من وجوه النَّوك انفتق عليـكم باب لا قبل لكم به ونعوذ بالله من الضلال.

فصل

وفى الباب السادس عشر من إنجيل «متّى» أن المسيح قال لباطرة: «إليك أبرأ بمفاتيح السماوات، فكل مـا حرَّمته فى الأرض يكون مـحرَّمًا فى السماوات، وكـل ما حلّلته على الأرض يكون حلالاً فى السماوات».

وبعد هذا الكلام بأربعة أسطر أن المسـيح قال لباطرة نفسه متّـصلاً بالكلام المذكور: «اتبعنى يا مخالف، ولا تعارضنى فإنك جاهـل بمرضاة الله تعالى، وإنَّما تدرى مرضاة الآدميين».

قال أبو محمد: في هذا الفصل على قلته - وإنه قليل ومنتن كبـعض ما يشبهه ممّا يكره ذكره - سوأتان عظيمتان:

إحداهما: أنه برىء إلى باطرة النذل بمفاتيح السماوات، وولاّه خطة إلاهية لا تجوز لغير الله تعـالى وحده، لا شريك له، من أنَّ كلّ ما حرّمه فى الأرض كـان حرامًا فى

السماوات وكلَّ ما حلّله فى الأرض كان حلالاً فى السماوات.

والثانية: أنه آثر براءته إليه بمفاتيح السماوات وتوليته له خطة الربوبية، إمَّا شريكًا لله تعالى فى التحريم والتحليل، وإمَّا منفردًا دونه عزَّ وجل بهذه الصفة.

قال له فى الوقت: «إنه مخالف معارض له جاهل بمرضاة الله تعالى، مخالف له لا يدرى إلاَّ مرضاة الآدميين».

فوالله لئـن كان صدق فى الآخـرة لقد خـرق فى الأولى؛ إذ ولَّى ما لا ينـبغى إلا لله تعالى جاهلاً بمرضـاة الله تعالى، مخالفًا له لا يدرى إلاَّ مـرضاة الناس، وإنَّ هذه لسوأة الأبد؛ إذ مَنْ هذه صفـته لا يصلح أن يبـرأ إليه بمفاتيح كنيف، أو بـيت زبل. ولئن كان صدق وأصاب فى الأولى لقد كذب فى الثانية، ووالله ما قال المسيح قط ما ذكروا عنه فى الأولى، لأنها مقـالة كافر شرِّ خلق الله تعالى، ومـا يبعد أنه قال له الكلام الثـانى، فهو والله كلام حق، يشهد به اللعين الكافر «باطرة» شاه وجهه وعليه سخط الله وغضبه.

ثم عجب ثالث: أننا قد ذكـرنا قبلُ أن فى الباب الثامن عشـر من إنجيل «متى» أنّ المسيح أشرك مع «باطرة» فى هذه الخطة التى أفرده بها ها هنا سـائر الاثنى عشر تلميذًا ومن جملتهم السّارق الكافر، الذى دل عليه اليهود برشوة ثلاثين درهمًا أخذها منهم، وأنّه قال لجميعهم: «ما حرَّمتمـوه فى الأرض كان حرامًا فى السّماوات، وما حللتموه فى الأرض كان حلالاً فى السماوات».

فيا ليت شعرى كيف يكون الحال إن اختلـفوا فيما ولاَّهم من ذلك، فأحلَّ بعضهم شيئًا وحرَّمه آخر منهم؟.

كيف يكون الحال فى السماوات وفى الأرض؟

لقد يقع أهلها مع هؤلاء السفلة فى سَفَل وفى حرمةٍ وحلٍّ معًا.

فإن قـيل: لا يجوز أن يخـتلفوا. قلنا: سـبحان الله وأيّ خـلاف أعظم من تحليل يهوذا إسلامه إلى اليهود، وأخذه ثلاثين درهمًا رشوة على ذلك، إلا إن كان عزله عن خطته الإلاهيـة بعد أن ولاَّه إيّاها، فلعـمرى إنَّ من قـدر أن يوليها إنـه لقادر على أن يعزل عنها، ولعـمرى لقد رذلت هذه المنزلة عند هؤلاء الأرذال حقًا إذا وليـها السرّاق ومن لا خـير فـيه، ثم يعـزلون عنهـا بلا مؤونة، تعـالى الله، والله لو دكّت الجبـال والأرض دكًّا، وخرَّت السماوات العلى، وصعق بكل ذى روح عند سماع كفر هؤلاء الخسَّاس، لما كان ذلك بكثير. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولا يخلو هذا القول من أحد وجهين لا ثالث لهما:

إمَّا أنه أراد أن «باطرة» والتلاميذ المولين هذه الخطة لا يحلّلون شيئًا، ولا يحرمون إلاَّ بوحى من الله عز وجل.

فإن كان هذا فقد كذب فى قوله الذى ذكرنا قبل أنّ كل نبوة فمنتهاها إلى يحيى بن زكريّا عليهما السلام، لأن هؤلاء أنبياء على هذا القول.

وإمَّا أنه أراد: أنه قد جعل لباطرة ولأصحابه ابتداءً الحكمَ فى التحريم والتحليل من عند أنفسهم بلا وحى من الله تعالى.

فيجب على هذا أنهم متى حرَّمُوا شيئًا حرّمه الله تعالى اتباعًا لتحريمهم، ومتى حلّلوا شيئًا حلَّله الله تعالى اتّباعًا لتحليلهم.

فلئن كان هذا فإنها لخطة خسف، وترى «باطرة» وأصحابه الأوغاد قد صاروا حكّامًا على الله تعالى، وقد صار عزَّ وجلَّ تابعًا لهم. وحاشا لله تعالى من هذا كله. وما نرى «باطرة» المنتن وأصحابه الأرذال حصلوا من مفاتيح السماوات. ومن خطة الألوهية إلاَّ على حلق اللِّحى، وإنها أحق لِحًى بالنتف. وعلى ضرب الظهور بالسياط والصلب. أمّا باطرة دبره إلى فوق، ورأسه إلى أسفل. والحمد لله رب العالمين.

بيان أن ما يسميه النصارى بالحواريين هم غير الحواريين المنصوص عليهم فى القرآن

قال أبو محمد: ليعلم كل مسلم أن هؤلاء الذين يسمّونهم النصارى، ويزعمون أنهم كانوا حواريّين للمسيح عليه السلام كباطرة و«متّى» الشرطى، و«يوحنا» و«يعقوب» و«يهوذا» الأخسّاء لم يكونوا قط مؤمنين، فكيف حواريّين؟ بل كانوا كذابين كفارًا مستخفّين بالله إمّا مقرين بألوهية المسيح عليه السلام معتقدين لذلك، غالين فيه كغلوّ السبئية[1]، وسائر الفرق الغالية فى علىٍّ ، وكقول الخطابية[1] بألوهية أبى الخطاب، وأصحاب الحلاَّج[2] بألوهية الحلاّج، وسائر كفار

(١) السبائية: أصحاب عبد الله بن سبأ يزعمون أن عليا لم يمت وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً، وذكروا عنه أنه قال لعلي ﷺ: أنت أنت، والسبائية تقول بالرجعة، وأن الأموات يرجعون إلى الدنيا، وكان السيد الحميري يقول برجعة الأموات .. وقولهم: «أنت أنت» أي أنت الإله، فنفى علي بن أبي طالب ﷺ إلى المدائن.

وزعموا أنه كان يهوديًا فأسلم، وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي ﷺ، ومنه انشعبت أصناف الغلاة ... الملل والنحل (١/ ١٧٤، ١٧٥) ومقالات الإسلاميين (١/ ١٥).

الباطنية[٣] عليهم اللعنة من الله والغضـب. وإمَّا مدسوسين من قبل اليهـود كما تزعم اليهود لإفساد دين أتباع المسيـح عليه السلام وإضلالهم، كـانتصاب عبـد الله بن سبأ الحميرى، والمختـار بن أبى عبيد[٤] وأبى عبد الله العردىّ، وأبى زكريا الخياط، وعلىٍّ النجار وعلى بن الفـضل الجنيد[٥] وسائر دعـاة القرامطـة والمشارقـة لإضـلال شـيعـة علىٍّ ﷺ، فـوصلوا من ذلك إلى حـيث عـرف، وسلّم الله من ذلك لـم يكـن من

(١) الخطابية أصحاب أبي الخطاب بن أبي زينب وهم خمس فرق كلهم يزعـمون أن الأئمة أنبياء محدثون ورسل الله وحججه على خلقه لا يزال منهم رسولان واحد ناطق والآخر صامت فالناطق محمد ﷺ والصامت علي بن أبي طالب فـهم في الأرض اليوم طاعتهم مفـترضة على جميـع الخلق يعلمون ما كان وما هو كائن وزعموا أن أبي الخطاب نبي وأن أولئك الرسل فرضوا عليهم طاعة أبي الخطاب.
وقالوا الأئمة آلهة وقـالوا في أنفسهم مثل ذلك وقالوا ولا الحسين أبنـاء الله وأحباؤه ثم قالوا ذلك في أنفسهم وتأولوا . . . وعبـدوا أبا الخطاب وزعموا أنه إله وزعموا أن جعفر بن مـحمد إلههم أيضًا إلا أن أبا الخطاب أعظم منه، وأعظم من علي . . .
مقالات الإسلاميين (١/ ١٠، ١١) والفرق بين الفرق (٢١٥) والملل والنحل (١/ ١٧٩).

(٢) الحلاجيـة فهم ينتسبون إلى أبي المغـيث الحسين بن منصور الحلاج من أرض فـارس من بلد يقال لها بيضاء وكان في أول أمره يتكلم على لسـان الصوفية ويتعاطى العبارات التي تسميـها الصوفية الشطع وهو أن يتكلم بكلام يحـتمل معنيـين أحدهما مـذموم والآخر مـحمود، وكـان يدعى في كل علم، وافتتن به أهل العراق.
واختلف المتكلمـون والفقهاء والصوفية في حـاله، فأما المتكلمون فـأكثرهم على أنه من الحلوليـة وكان محتالاً ممخرقًا وإليه ذهب القاضي أبو بكر . . (التبصير في الدين ١/ ١٢٣، والفرق بين الفرق (٢٤٦).

(٣) إن الفساد اللازم من البـاطنية على الدين الحنيفي أكثـر من الفساد اللازم عليه من جـميع الكفار وهم عدة فرق ومـقصودهم على الإطلاق إبطال الشريعة بأسـرها ونفى الصانع ولا يؤمنون بشيء من الملل ولا يعترفون بالقيمة إلا أنهم لا يتظاهرون بهذه الأشياء . . .
(اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٧٦، والملل والنحل ١/ ١٦٨، والفرق بين الفرق ٢٧٨).

(٤) كان أول من قام بدعوة الكيسانية إلى إمامة محمد ابن الحنفية . . . وبايع عبد الله بن الزبير وبقي معه إلى أن قاتل الزبير جند يزيد بن معاوية الذين كانوا تحت راية الحصين بن نمير السكوني واشتدت نكاية المختار في تلك الحروب على أهل الشام ثم مات يزيد بن معاوية ورجع جند الشام . . .
ثم فر إلى الكوفة وبعث رسله إلى شيـعة الكوفة ونواحيها إلى المدائن ودعاهم إلى البـيعة له ووعدهم أنه يخرج طالـبًا بثأر الحـسين بن علي ﷺ ودعاهم إلى مـحمد ابن الحنفـية . . . الفـرق بين الفرق (٣١)، ومعجم البلدان (٢/ ١٤٠).

(٥) علي بن الفضل بن أحمد القرمطي: أحد المتغلبين على اليمن. كان أول ظهوره بجبل مسور (في كوكبان باليمن) وأظهر الدعوة للمهدي المنتظر سنة ٢٩٠هـ، فتبعه كثير من القبائل، وملك ملكًا ضخمًا، وقتل خلقًا كثيرًا، واستولى على الجبال والتهائم، ثم دخل زبيدًا وصنعاء وادعى النبوة وأباح المحرمات. . .
مات مسمومًا، قيل: سمه طبيب من أهل بغداد اسمه شريف. ومدة حكمه نحو ١٣ سنة.
(الأعلام ٤/ ٣١٩، الجداول المرضية ١٧١ وبلوغ المرام ٢٣).

الشيعة.

وأمَّا الحواريون الذين أثنى الله عليهم فأولئك أولياء الله حقًّا نَدينُ الله تعالى بمحبتهم ولا ندرى أسماءهم، لأن الله تعالى لم يسمهم لنا، إلاَّ أننا نبتٌّ، ونوقن، ونقطع، أن «باطرة» الكذاب، و«متّى» الشرطى، و«يوحنا» المستخف، و«يهوذا» و«يعقوب» النذلين، و«مارقش» الفاسق، و«لوقا» الفاجر، و«بولش» اللعين ما كانوا قط من الحواريين لكن من الطائفة التى قال الله تعالى فيها: ﴿وكفرت طائفةٌ﴾ [سورة الصف: ١٤] وبالله تعالى التوفيق.

فصل

وفى آخر الباب السادس عشر من إنجيل متى: وأعلم يسوع من ذلك الوقت تلاميذه بما ينبغى أن يفعله من دخول «برشلام»، وحمل العذاب من أكابر أهلها وعلمائهم، وقتلهم له، وقيامه فى الثالث. فخلا به «باطرة» وقال له: «تعفى عن هذا يا سيدى، ولا يصيبك منه شىء».

وفى الباب السابع عشر من إنجيل متّى: أن المسيح قال لتلاميذه: سيبلى ابن الإنسان فى أيدى الناس ويقتل ويحيا فى الثالث -يعنى نفسه- فحزنوا لذلك حزنًا شديدًا.

وفى أول الباب الثامن من إنجيل مارقش: أن المسيح قال لتلاميذه: «إن ابن الإنسان سيبلي فى أيدى الآدميين، ويقتلونه، فإذا قتل يقوم فى اليوم الثالث».

وأنهم لم يفهموا مراده بهذا الكلام.

وفى قرب آخر الباب الثامن إنجيل لوقا: أن المسيح قال للاثنى عشر تلميذاً «إنا نصعد به إلى «برشلام» ونكمل كل ما نبأت به الأنبياء عليهم السلام عن ابن الإنسان، ويسيرون به إلى الأجناس يستهزئون به ويجلدونه، ويبصقون فيه. وبعد جلدهم إياه يقتلونه، ويحيا فى اليوم الثالث».

فلم يفهموا عنه ممّا ألقى شيئًا، كان هذا عندهم معقّداً لا يفهمونه.

قال أبو محمد: فى هذه الفصول ثلاث كذبات من طوامّ الكذب.

إحداها: اتفاق الأناجيل المذكورة كما أوردنا على أن المسيح أخبرهم عن نفسه. أنه يقتل، وجميع الأناجيل الأربعة متفقة عند ذكرهم لصلبه على أنه مات على الخشبة حتف أنفه، ولم يقتل أصلاً، إلاَّ أن فى بعضها أنه طعنه بعد موته أحد الشرط برمح فى جنبه، فخرج من الطعنة دم وماء.

وفى هذا إثبات الكذب على المسيح، واتفاقهم كما أوردنا على أنه أخبرهم بأنه يقتل، واتفاقهم كلهم على أنه لم يقتل وهذه سوأة جدًا. وحاشا لله أن يكون نبيٌّ أو ينذر بباطل. هذه علامة الكذابين، لا علامة أهل الصدق.

وثانيها: اتفاق الأناجيل المذكورة - كما أوردنا - على أنه قال: «ويقوم فى الثالث». ثم اتفقت الأناجيل كلها على أنه «لم يحىَ» ولا قام إلاَّ فى الليلة الثانية، وأنه دفن فى آخر يوم الجمعة مع دخول ليلة السبت وحسبك أنهم ذكروا أنه لم يحنط استعجالاً لئلا تدخل عليهم ليلة السبت، وأنه قام ليلة الأحد قبل الفجر، وهذه كذبة ثالثة فاحشة نسبوها إلى المسيح، وحاشا له من مثلها.

وكذبة ثالثة: هى إخبار «متَّى» أنهم فهموا مراده بهذا القول، وأنهم حزنوا حزنًا شديدًا لذلك، وأنَّ «باطرة» قال له: «تعفى عن هذا يا سيدى، ولا يصيبك منه شىء». وإخبار «مارقش» و«لوقا» أنهم لم يفهموا مراده بهذا الكلام، وهذا كذب فاحش لا يجوز أن يقع من صادقين، فكيف من معصومين؟! فلاح يقينًا عظيم كذب الذين وضعوا هذه الأناجيل، وأنهم كانوا فسَّاقًا لا خير فيهم. وبالله تعالى التوفيق.

فصل

وفى الباب السابع عشر من إنجيل متَّى: أن المسيح قال لتلاميذه: «لئن كان لكم إيمان على قدر حبَّة الخردل، لتقولن للجبل ارحل من هنا فيرحل، ولا يتعاصى عليكم شىء» وقبله متصلاً به أن تلاميذه عجزوا عن إبراء رجل به جن، وأن المسيح أبرأه، وأن تلاميذه قالوا له: لم عجزنا نحن عن برائه؟ قال: تشكُّككم.

وفى الباب الحادى عشر من إنجيل متَّى: أنَّ المسيح دعا على شجرة تين خضراء فيبست من وقتها. فعجب التلاميذ، فقال لهم المسيح: «آمين أقول لكم، لئن آمنتم. ولم تشكُّوا ليس تفعلون هذا فى التينة وحدها، لكن متى قلتم لهذا الجبل: انقلع واطَّرِح فى البحر، لم يقف لكم».

وفى الباب الحادى عشر من إنجيل يوحنا: أن المسيح قال لتلاميذه: «من آمن بى سيفعل الأفاعيل التى أفعلها أنا، وسيفعل أعظم منها».

قال أبو محمد: فى هذه الفصول ثلاث طوام من الكذب عظيمة.

لا يخلو التلاميذ المذكورون ثم هؤلاء الأشقياء بعدهم إلى اليوم، من أن يكونوا

مؤمنين بالمسيح عليه السلام أو غير مؤمنين، ولا سبيل إلى قسم ثالث.

فإن كانوا مؤمنين فقد كذب المسيح فيما وعدهم به فى هذه الفصول جهاراً -وحاشا له من الكذب- وما منهم أحد قط قدر على أن تأتمر له ورقة، فكيف على قلع جبل وإلقائه فى البحر؟!.

وإن كانوا غير مؤمنين به فهم بإقرارهم هذا، كفارٌ، ولا خير فى كافر، ولا يجوز أن يصدَّق كافر، ولا أن يُؤخذ الدِّين عن كافر.

ولابدَّ لهم من أن يجيبوا إذا سألناهم: أفى قلوبكم مقدار حبة خردل من إيمان أم لا؟ وتؤمنون بالمسيح أم لا؟.

إن قالوا: نعم. نحن مؤمنون به، والإيمان فى قلوبنا.

قلنا: فقد كذب المسيح يقينًا فيما أخبر به من أنَّ من آمن به وفى قلبه مقدار حبة خردل من إيمان يأمر الجبل بأن ينقلع فينقلع، والله ما فيكم أحدٌ يقدر على تيبيس شجرة بدعائه، ولا على قلع جبل من موضعه.

وإن قالوا: ليس فى قلوبنا قدر حبة خردل من إيمان، ولا نحن مؤمنون به. قلنا: صدقتم والله حقًا. وشَهدُوا على أنفُسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٣] صدق الله عزَّ وجل، وأنبياؤه - عليهم السلام - وكذب «متَّى» و«باطرة» و«يوحنَّا» و«مارقش» و«لوقا» وسائر النصارى الكذَّابين.

ولقد قلت هذا لبعض علمائهم فقال: إنما عنى شجرة الخردل التى تعلو على جميع الزراريع حتى يسكن الطير فيها.

فقلت له: لم يقل فى الإنجيل مثل شجرة الخردل. إنما قال مثل حبة الخردل، وقد وصفها المسيح بإقرارهم بأنها أصغر الزراريع.

وأيضًا: فإنه ليس إلا مؤمن أو كافر. وأمّا الشَّاك: فإنه متى دخل الإيمان شكٌ بطل، وحصل صاحبه فى الكفر، فكيف ولم يدعنا المسيح بإقرارهم فى شكٍّ من هذا التأويل الفاسد بل زعموا أنه قال لهم «لتشكككم لئن كان لكم إيمان قدر حبة خردل لتقولن للجبل...».

وقال فى إنجيل يوحنا كما أوردنا: «لئن آمنتم ولم تشكّوا...» فإنما أراد بيقين بهذه النصوص: التصديق الذى هو خلاف الشك، لا غاية العمل الصالح.

وقال كما أوردنا فى إنجيل يوحنا: «من آمن بى سيفعل الأفاعيل التى أفعل أنا» فعن هذا الإيمان به سألناكم: أفى قلوبكم هو أم لا؟.

فقولوا ما بدا لكم.

قال أبو محمد: وأما أنا فلو سمعت هذا القول ممّن يدّعى النبوّة لما تردّدت فى اليقين بأنه كذب، ووالله ما قالها المسيح قط، ومـا اخترع هذا الكذب إلاَّ أولئك السفلة! متَّى ويوحنا، وأمثالهم. والعجب كله إقرار مـتَّى فى الفصل المذكور كما أوردنا، أن المسيح قـال له ولأصحـابه: إنهم إنما عجـزوا عن إبراء المجنون لتـشككهم، فشـهد عليـهم بالشك، وأنه لو كان لهم إيمان لم يعجزوا عن ذلك.

فلا يخلو المسيح عليه السلام فيما حكوا عنه من أن يكون كاذبًا أو صادقًا، فإن كان كاذبًا: فـهذه صفة سـوء والكاذب لا يكون نبيًا، فكـيف إلهًا؟ وإن كان صادقًـا: فإن الذين أخذوا عنهم دينهم ويسـمونهم تلاميـذ، وأنهم فوق الأنبياء - كـفَّارٌ شكَّاك -. فكيف يأخذون دينهم عن كفّارٍ شكَّاك؟.

لا مخـرج لهم من إحداهمـا، ولو لم تكن هذه فى أناجيلهم لكفت فـى إبطالها، وإبطال جميع ما هم عليه من دينهم المنتن.

ثم العجب كله، كيف يشهد عليهم بالشك وهم يحكون أنه قد ولأهم خطة الإلهية وولأهم رتبة الربوبية فى أنّ كل ما حرّموه فى الأرض كان حرامًا فى السماوات، وكل ما حلّلوا فى الأرض كان حلالاً فى السماوات؟ فكيف يجتمع هذا مع هذا؟.

وهل يأتى التناقض مَنْ دِمَـاغَـه سالم أو فـيه آفةٌ يسـيرة؟ بل هذا والله توليـد أفاك كاذب، واختراع عيَّار متلاعب، ونعوذ بالله من الخذلان.

فصل

وفى قرب آخـر الباب الثامن عـشر من إنجيل متَّى: أن المـسيح قال لتلامـيذه: «إذا اجـتمع اثنان منكم علـى أمر فليس يسـألان شيـئًـا على الأرض إلاَّ أجابهم إليـه أبى السَّماوى، وحيث اجتمع اثنان أو ثلاثة على اسمى فأنا متوسطهم».

قال أبو مـحمد: هذا الفصل ظريف جدًّا، وكذبٌ لا يمطل ظهوره، ولا يخلو أن يكون عنى بهذه المخاطبة تلاميذه خاصة، أو كلّ من آمن به.

وأىّ الأمـرين كان فـهو كـاذب ظاهر، وما يـشك أحدٌ فى أن تلامـيذه سـألوه أن

يجيبهم من دعوة إلى ما دعوه إليه من دينهم، وأن يخلّص مَنْ فُتن من أصحابهم، فما أعطاهم شيئًا من ذلك الذى أسماه أباه السَّماوى.

فإن قيل: لم يسألوه قط شيئًا من ذلك.

قلنا: هـذه طامّةٌ أخرى. لئن كان هذا فهم غاشّون للناس غير مريدين لصلاحهم، بل ساعون فى هلاكهم. هيهات، هذه منزلةٌ ما أعطاها الله تعالى أحدًا من خلقه.

صدق الله ورسوله ﷺ إذا أخبر أن ربه تعالى قال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة المنافقون: ٦].

وأنه أخبرنا عليه السلام: أنه دعا ألاَّ يجعل بأسنا بيننا بعده، فلم يجبه الله تعالى إلى ذلك[(١)]. هذا هو الحق الذى لا نزيد فيه، والقول الذى صحبه الصدق، والحمد لله رب العالمين.

لم يفخر بما لم يُعْط، ولا أنزل نفسه فوق قدرها ﷺ.

فصل

وفى الباب المذكور أن المسيح قال لهم: «إن أساء إليك أخوك فعاقبه وحدك فيما بينك وبينه، فإن سمع منك فقد ربحته، وإن لم يسمع منك فخذ إلى نفسك رجلاً أو رجلين لكيما تثبت كلّ كلمة بشهادة شاهدين أو ثلاثة، فإن لم يسمع فأعلم بخبره الجماعة، فإن لم يسمع للجماعة فليكن عندك بمنزلة المجوسى والمستخرج».

ثم بعده بأسطار يسيرة قال: وعند ذلك تدانى إليه باطرة وقال له: يا سيدى فإن أساء إليّ أخى أتأمرنى أن أغفر له سبعًا؟ فقال له يسوع: لن أقول لك سبعًا ولكن سبعين فى سبعة.

قال أبو محمد: هذا ضد قوله فى الثالثة: فليكن عندك بمنزلة المجوس والمستخرج ولا سبيل إلى الجمع بينهما.

(١) الحديث في صحيح مسلم (٤/٢٢١٦) ح (٢٨٩٠) وصحيح ابن خزيمة (٢/٢٢٤) ح (١٢١٧)، وأحمد في مسنده (١/١٧٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/١٧٥) (٦/٣١١) ونص الحديث: «. . . سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فرد عليّ».

فصل

وفى الباب الموفى عشرين من إنجيل متَّى: أنَّ أم ابـنى شيذاى أقبلت إليه مع ولديها فخشعا، ورغبت إليه فقال لها: ما تريدين؟ فقالت: أحبُّ أن تقعدَ ابنىَّ هذين أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فى ملكك.

فقال يسوع: تجهلين السؤال: أيصْبران على شرب الكأس الذى أشرب؟.

فقالا: نصبر. فقال لهما: ستشربان بكأسى وليس إلىَّ مجلسكما عن يمينى وشمالى، إلاَّ من وهب له ذلك أبى.

قال أبو محمد: ففى هذا الفصل بيان أنه ليس إليه من الأمر شىء، وأنه غير الأب كما يقولون، بخلاف دينهم، فإذا هو غير الأب وكلاهما إله، فهما إلاهان اثنان متغايران، أحدهما قوىٌّ والآخر ضعيف، لأنه بإقراره ليس له قدرة على تقريب أحد إلاَّ من وهب له ذلك الذى يسمونه أبًا، وليت شعرى كيف يجتمع ما ينسبون إليه ها هنا من الاعتراف بأنه ليس بيده أن يجلس أحدًا عن يمينه ولا عن شماله..؟ وإنما هو بيد الله تعالى مع ما ينسبون إليه من أنه قدر على إعطاء مفاتيح السماوات والأرض لأنذل من وجد وهو «باطرة» وأنه يفعل كما يفعله الأب، وأن الله تعالى قد تبرأ إليه من الحكم، وأن الله عزَّ وجل ليس يحكم بعد على أحد، وسائر تلك الفضائح المهلكة مع تكاذبها وتدافعها وشهادتها بأنها ليست من عند الله تعالى، ولا من عند نبى أصلاً، لكن توليد كاذب كافر وبالله تعالى نعوذ.

فصل

وفى الباب الحادى عشر من إنجيل متَّى: فلما تدانى المسيح من «برشلام» وكان فى موضع يقال له «تنفيا» جوار جبل الزيتون بعث رجلين من تلاميذه، وقال لهما: اذهبا إلى الحصن الذى يقابلكما، وستجدان فيه حمارة مربوطة بفلوها[1] فحلاً عنهما، وأقبلا إلىَّ بهما، فإن تعرضكما أحد فقولا: إن السيّد يريدها فيدعكما من وقته، وكان ذلك ليتم به قول النبى القائل لابن صهيون: سيأتيك ملكك متواضعًا على حمارة وابن أتان. فتوجه التلميذان وفعلا كما أمرهما به، وأقبلا بالحمارة وفلوها، وألقوا ثيابهم عليها، وأجلسوه من فوقها.

---

(١) الفلو، والفلو: الجحش أو المهر يفطم أو يبلغ السنة (ج) أفلاء (٢/ ٧٠٢).

وفى الباب التاسع من إنجيل مارقش: فلما بلغ المسيح «نتفيا» إلى جبل الزيتون، أرسل اثنين من تلاميذه وقال: اذهبا إلى الحصن الذى بحيالكما، فإذا دخلتما ستجدان فلوًا مربوطًا لم يركبه بعد أحد من الآدميين، حلاّه وأقبلا به إليّ، فإن قال لكما أحد ما هذا الذى تفعلان؟ فقولا له: إن السيّد يحتاج إليه فيخليه لكما، فانطلقا ووجدا الفلو مربوطًا قبالة رحبة الباب فى رفاقين[1] فحلاّه. فقالوا لهما بعض الوقوف هنالك: ما لكما تحلاّن الفلو؟ فقالا له كالذى أمرهما يسوع فتركوه لهما، وساقا الفلو إلى يسوع، ليحملوا عليه ثيابهم وركب من فوق.

قال أبو محمد: فهاتان قضيتان كل واحدة منهما تكذب الأخرى، متّى يقول ركب حمارة، ومارقش يقول ركب فلوًا، والعجب كله من استشهادهم لذلك بقول النبى: «يأتيك ملكك راكبًا على حمارة وابن أتان»، وما كان المسيح قط ملك برشلام فهذه كذبة أخرى.

وأطرف شيء استشهادهم لصحة أمره بركوبه حمارة، أتراه لم يدخل «برشلام» إنسان على حمارة سواه؟!!.

هذه بالله ضحكة من مضاحك السخفاء. ولقد أخبرنى الحسن بن بقّى صاحبنا نوّر الله وجهه: أنه وقف عالم من علمائهم على هذا الفصل، قال: فقال: إنما هذا رمز والحمارة: هى التوراة، فأضحكنى قوله، وقلت له: فالإنجيل هو: الفِلْو. وقال: فسكت وعلم أنه أتى بما يوجب السخرية به.

فصل

وفى الباب الثالث عشر من إنجيل متّى: أن يسوع قال لهم: إذا قام الناس لا يتزوجون، ولا يتناكحون، لكنهم يكونون كأمثال ملائكة الله تعالى فى السماء.

وفى الباب السادس عشر من إنجيل متّى، وأيضًا فى الباب الثانى عشر من إنجيل مارقش، أن المسيح قال لتلاميذه ليلة أخذه: لا شربت بعدها من نشل الزرجون حتى أشربها معكم جديدة فى ملكوت الله تعالى.

وفى الباب الرابع عشر من إنجيل لوقا: أن المسيح قال للحواريين الاثنى عشر: أنتم

(١) والبعير رفقًا: شده بالرفاق، فهو راقق، ورفيق، والرفاق: حبل يشد به عضد البعير إذا خيف أن يهرب (ج) رفق، وأرفقة (الوسيط ١/ ٣٦٢).

الذين صبرتم معى فى جميع مصائبى، فأنا ألخص لكم الوصية على حال ما لخص لى أبى، لتطعمـوا وتشربوا على مائدتى فـى الملك، وتجلسوا على عروش حـاكمين على اثنى عشر سبطًا من ولد إسرائيل.

قال أبو محمد: ففى الفصل الأول أن الناس فى الآخرة لا يتناكحون، وفى الفصول الثلاثة بعده أن فى الجنة أكلاً وشربًا للخبز والخمر على الموائد. والنصارى ينكرون كل هذا، ولا مؤونة عليهم فـى تكذيبهم للمسيح مع إقرارهم بعـبادتهم له، وأنه ربهم لا سيمـا فى الفصل الأول، أن الناس فى الجنة كالملائكة، وفى التوراة التى يصـدقون بها أن الملائكة أكلـت عند لوط وعند إبراهيم عـليـهـمـا السـلام الفطاير والـلحم واللبن والسمن، وإذا كانت الملائكة يأكلون والناس فى الجـنة مثلهم، فالناس فى الجنة يأكلون ويشربون بلا شك، بموجب التوراة والإنجيل، ولا سيمـا وقد أخبروا أن المسيح بعد أن مات ورجع إلى الدنيا ولقى تلامـيذه طلب منهم ما يأكل فأتوه بحوت مـشوى، فأكل معهم وشرب شراب عسل بعد موته، فإذا كان الإله يأكل الحيتان المشوية ويشرب عليها العسل فـأى نكرة فى أكل الناس وشربهم فى الجنة؟ وإذ كان الله تعـالى عندهم اتخذ ولدًا من امرأة اصطفاها فأىّ عجب فى اتخـاذ الناس النساء فى الجنة؟ وهذا هو طبعهم الذى بناهم الله عزّ وجل عليه. إلاّ أنَّ فى دعوة هؤلاء النّوكى لعبرة لمن اعتبر. والحمد لله على السلامة.

وعجب آخر وهو وعده للاثنى عشر تلميذًا بأنهم يقعدون على عروش حاكمين على اثنى عشر سبطًا من بنى إسرائيل، فـوجب ضرورة كون يهوذا الأشكريوطى فيهم، ولا يجوز أن يخـاطب بهذا أصـحابه دونه، لأنه قد أوضح أنهم اثنا عـشر على اثنى عـشر سبـطًا من بنى إسرائيل وجب ضـرورة كون الأشكريوطى فـيهم، وهذا الذى دل علـيه اليهـود برشوة ثلاثين دريهمًـا، فلابدَّ من أنه لم يذنب فى ذلك، وهذا كـذب، لأنه قد قال فى مكان آخر: «ويل لذلك الإنسان الذى قيل فيه: كان أحب إليه لو لم يخلق».

أو كذب المسيح فى الوعد المذكور، لابدّ من إحداهما ضرورة.

فصل

وفى الباب الثالث من إنجيل متّى: أنَّ المسيح كاشف علماء بنى إسرائيل، وقال: ما تقولون فى المسيح؟ وابن من هو؟.

قالوا: هو ابن داود.

فقال لهم: كيف يسميـه داود بالروح إلهًا حيث كنت قال الله إلهى: اقعد عن يمينى حتى أجعل من أعاديك كرسيًا لقدميك.

فإن كان «داود» يدعونه إلهًا كيف هو ولده؟.

فلم يقدر أحد منهم على مراجعته.

قال أبو محمد: هذا هو الحق من قول المسيح عليه السلام، ولقد أنكر عليه السلام المنكر حقًا، والعجب أنَّ هؤلاء الأنذال المنتمين إلى أتبـاعه عليه السلام لا يختلفون فى الاحتجـاج بهذا الفصل المذكور، هو عليه السـلام قد أنكر أن يكون المسيح ابن داود، وهم يسمونه فى الأناجيل كلها بأنه ابن «داود»، فاعجبوا.

فصل

وفى الباب المذكور أن المسيح قال لتلامـيذه: أنتم إخوان، ولا تنتسبوا إلى أب على الأرض فإنَّ أباكم السماوى واحد.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل فضيحتان عظيمتان: **إحداهما:** إخباره أن الله تعالى هو أبو التلاميذ، فنراهم مثله سواء سواء، فلِمَ خصه النصارى بأن يقولوا: إنه ابن الله دون أن يقولوا عن تلاميذه مـتى ذكروهم أنهم أبناء الله..؟ تعالى الله عن هذا الكفر، وعن أن يكون أبًا أو ابنًا.

والأخرى قوله: «لا تنتسبوا إلى أب على الأرض».

والنصارى والأناجيل يطلقـون أن شمعون بن يونا، ويعقـوب ويوحنا ابنا سبذاى، ويهوذا ويعـقوب ابنا يوسف، فـقد أقـروا بثباتهم علـى معصـية المسيـح إذ نهاهم أن ينتـسبوا إلى أب على الأرض، وهم أبدًا مـلازمون لمخـالفة أمـره فى ذلك متـدينون بعصيانـه.

فصل

وفى الباب الخامس عشر من إنجيل مـتّى: أن المسيح أنذر تلاميذه بما يكون فى آخر الزمان من الزلازل والبلاء، وقال لهم: فادعوا ألا يكون هروبكم فى شتاء ولا سبت.

قال أبو مـحمد: هذا بيان واضح بلزومهم حفظ السـبت إلى انقضاء أمرهم، وإلى حلول الزلازل بهم، وهم على خلاف ذلك. هذه أمة لا عقول لهم.

فصل

وفى الباب المذكور: أن المسـيح قال لهم: سيعود مسحـاء الكذب، وأنبياء الكذب، ويطلعون العجائب العظيمة والآيات حتى يغلط من يظن به الصلاح.

وفى الباب الحـادى عشر من إنجيـل مارقس: سيقـوم مسيـحيون كذابون، وأنبـياء كذابون، ويأتون بالآيات والبدائع ليخدعوا إن أمكن أيضًا المختارين.

قال أبو محمد: هذا الفصل مع الفـصل الأخير الـذى فى توراة اليهود فى السـفر الخـامس الذى نصـه: «وإن طلع فيكم نـبى، أو ادَّعى أنه رأى رؤيا وأتاكم بخـبر مَـا يكـون، وكـان مـا وصفـهـن، ثم قـال لهم بعـد ذلك: اتبـعوا آلهـة الأجناس، فـلا تُصْغُوا له».

مع الفصل الذى فيـه من التوراة: أنَّ السحرة عملوا مثل عمل مـوسى عليه السلام فى قلب العصـا حية، وإحالة الماء دمًا، والمجـىء بالضفادع - كافيـة فى إبطال كل ما أتى به موسى والمسيح عليـهما السلام، وكل نبى يقـرون بنبوته، لأنه إذا جاز أن يأتى نبى كاذب بمعجزات، وأمكن أن يكذب النبى الصـادق فيما ينذر به، وأمكن أن يعمل السـحرة مـثل شىء من آيات نبى، فقـد امتـزج الحق بالبـاطل ولم يكن له إلي تمييـز أحدهما من الآخر طريق أصلاً، وهذا إفساد الحقائق، وإبطال موجب الحق، وتكذيب الحواس. وإذا أمكن عند اليهـود والنصارى ما ذكرناه مما فى توراتهم وأناجـيلهم، فما الذى يؤمنهم أن موسى والمسيح عليـهما السلام وسائر أنبيـائهم، إنما كانوا سحرة، أو كذابين..؟ شهدنا بالله شهـادة حق أن هذه الفصول المذكورة من عمل برهمى مكذب بالنبوة جـملة، أو منانى مكذب بنبـوة الأنبياء المذكـورين عليهم السـلام، وأن موسى وعيسى عليهما السلام لم يقولا قط شيئًا مما فى هذه الفصول الخبيثة الملعونة.

وأما نحن فلا نجيـز ألبتة أن يكذب نبى، ولا أن يأتي غير نبى بمعـجزة ساحرة ولا كذاب ولا صالح الصناعة.

فإن قيل: إنكم تقولون: إن الدّجال يأتى بالمعجزات.

قلنا: حاشا لله من هذا، ومـا الدَّجال إلا صاحب عجائب، كأبى العـجب الشعبذ ولا فرق إنما هو متـحيل يتحيل بحيل معـروفة، كل من عرفها عمل مـثل عمله، وقد صح عن النبى ﷺ أن المغيـرة بن شعبـة سألـه: هـل مع الـدّجال نهر مـاء وخـبـز ونحـو ذلك؟

فقال له رسول الله ﷺ: «هو أهون على الله من ذلك».

وصح أيضًا عنه عليه السلام: أن الدَّجال صاحب شبه[1]. وبالله تعالى التوفيق.

فصل

وفى الباب المذكور: أن المسيح عليه السلام قال عن ذلك اليوم، وذلك الوقت: لا يدرى أحد ما بعده، لا الملائكة، ولا أحد غير الأب وحده.

وفى الباب الحادى عشر من إنجيل مارقش: أن المسيح قال: السماوات والأرض تذهب وكلامى لا يبيد أبدًا. ومن ذلك اليوم وتلك الساعة لا يعلم أحد ما بعده ولا الملائكة فى السماء، ولا ابن الإنسان ما عدا الأب.

قال أبو محمد: هذا الفصل يوجب ضرورة أن المسيح هو غير الله تعالى، لأنه أخبر أن هاهنا شيئًا يعلمه الله تعالى، ولا يعلمه هو، وإذا كان بنص أناجيلهم أن الابن لا يعلم متى الساعة والأب يعلم متى هى فبالضرورة القاطعة نعلم أن الابن غير الأب، وإذا كان كذلك فهما اثنان متغايران؛ أحدهما يجهل ما لا يجهله الآخر. وهذا الشرك الذى عليه يحومون، وهذا ما يبطله العقل؛ أن يكون إلهان أحدهما ناقص، فصح ضرورة أن من هو غير الله تعالى فهو مخلوق ومربوب، وبطل هَوَسُهم وتخليطهم والحمد لله رب العالمين. أو يكذبوا المسيح فى هذا الفصل ولا بدَّ.

فصل

وفى الباب السادس والعشرين من إنجيل متَّى: أن المسيح قال لباطرة ليلة أخذ: آمين أقول لك: إنك ستجحدنى فى هذه الليلة قبل صرخة الديك ثلاثًا.

فقال له باطرة: لا يكون هذا ولو بلغت القتل.

. وفى الباب الثانى عشر من إنجيل مارقش: أن المسيح قال لباطرة: آمين أقول لك، إنك أنت اليوم فى هذه الليلة قبل أن يرفع الديك صوته مرتين ستجحدنى ثلاثًا، فكان باطرة يعيد القول: حتى لو أمكننى أن أموت معك لست أجحدك.

وفى الباب التاسع عشر من إنجيل لوقا: أن المسيح قال لباطرة: أنا أعلمك أنه لا يصرخ الديك هذه الليلة حتى تجحدنى ثلاثًا، وأنك لم تعرفنى.

---

(١) الحديث في صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٠) ح (٢٣٥٧)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٢) ح (٢٩٣٧).

وفى الباب الحادى عـشر من إنجيل يوحنا: أن المسيح قـال لباطرة: آمين آمين أقول لك لا يصرخ الديك حتى تجحدنى ثلاثًا.

فاتفـق متَّى، ولوقا، ويوحـنا على أنه قال له: إنك تجـحدنى ثلاث مـرات قبل أن يصرخ الديك، وهكذا وصف كل واحد منهم عن باطرة أنه هكذا فعل، إذ ميزه الغلام والأمة والقوم الذين كانوا يصطلون على النار.

وقال مارقش: إنه قـال قبل أن يصرخ الديك مرتين تجـحدنى ثلاث مرات، وهكذا وصف مارقس عن باطرة، أنه فعل ليلتئذ.

فإن خادم الكوهن قال له: أنت من أصحاب يسوع فجحد ثم صرخ الديك ثم قال الخادم للواقفين هنالك: هذا من أولئك فـجحد ثانية، ثم قال له الواقفـون هنالك حقًا إنك منهم فجـحد ثالثة أيضًا ثم صرخ الـديك ثانية. فعلى قول مـارقش كذب «متَّى» و«لوقا» و«يوحنا»، لأن الديك صرخ قبل أن يجـحده ثلاث مرات. أو كذب المسيح ـ عليه السلام ـ فى إخباره بذلك إن كان هؤلاء صدقوا، لا بُّد من إحداهما.

وعلى قول «متَّى» و«لوقا» و«يوحنا» كـذب مارقش أيضًا كذلك، لأن الديك صرخ قبل أن يجحـده وثلاث مرّات. أو كذب المسيح. لا بدّ من إحـداهما، والكذب واقع فى أحد الخبرين ولا بد.

ثم طامة أخـرى؛ وهى اتفاق «متَّى» و«مـارقش»: على أن المسيح أخـبر باطرة بأنه سيجحده تلك الليلة، وأنَّ باطرة ردّ خبره، وقال له: لا يكون هذا.

فلولا أن المسيح كان عند «باطرة» ممن يكذب فـى خبره، ما كذبه مواجهـة مرة بعد مرة، أو كفر باطرة إذ كذب ربه أو نبيًا. لا بدَّ من إحداهما.

فإن كان كفر باطرة، فكيف يعطى مفاتيح السموات لمرتد كافر مكذب لله تعالى؟ أو لنبى من الأنبياء جهارًا؟ أم كيف يولى رتبـة التحريم والتحليل من يكذب الله تعالى أو نبيه؟ أو كيف يؤخذ الدين عن من يكذب ربه، أو كذب خبر نبى من الله تعالى جهارًا فى آخر ساعة كان فيها معه، وختم بذلك عمله؟

ما سمعنا بأوسخ عقولاً من أمة هذه صـفه دينهم، وكتابهم، وأئمتهم، ونعوذ بالله من الخذلان.

وفي الباب الثـامن والعشـرين من إنجيل مـتّى: أن الخشبـة التى صلب عليهـا أخذ لحملها سخرة شيمون.

وفى الباب الثالث عشر من إنجيل مارقش: أن تلك الخشبة التى صلب عليها يسوع أخذ لحلمها شيمون القيروانى والد الإسكندر، ودونه.

وفى الباب الموفى عشرين من إنجيل لوقا: أنه سخر لحمل تلك الخشبة شمعون القيروانى.

وفى الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا: أن يسوع نفسه هو الذى حملت عليه الخشبة التى صلب فيها، وهذا خلاف ما حكاه أصحابه.

ولقد قررت بعض علمائهم على هذا فقال لى: كانت طويلة جداً فحملها هو وشمعون المذكور. فقلت له: ومن أين لك هذا؟ وأين وجدته؟ وسياق أخبار مؤلفى الأناجيل لا تدل على هذا، ولو قلت إنه ممكن أن سخر كل واحد منهما لحملها بعض الطريق لكان أدخل فى سياق الخبر.

فصل

وفى الباب الثامن عشر من إنجيل متَّى أنه صلب معه لصَّان، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وكانا يشتمانه، ويتناولانه محركين رؤوسهما ويقولان: يا من يهدم البيت ويبنيه فى ثلاث سلِّم نفسك إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب.

وفى الباب الثالث عشر من إنجيل مارقش: أنه صلب معه لصان أحدهما عن يمينه، والثانى عن شماله، واللذان صلبا معه كانا يستعجزانه.

وفى الباب الموفى عشرين من إنجيل «لوقا»: وكان أحد اللصين المصلوبين معه يسبه ويقول: إن كنت أنت المسيح فسلِّم نفسك وسلِّمنا، فأجابه الآخر وكشر عليه وقال: أما تخاف الله وأنت فى آخر عمرك وفى هذه العقوبة؟ أما نحن فكوفئنا بما استوجبنا، وهذا لا ذنب له. ثم قال ليسوع: يا سيدى: اذكرنى إذا نلت ملكك. فقال له يسوع: آمين أقول لك اليوم تكون معى فى الجنة.

قال أبو محمد: إحدى هاتين القضيتين كذب بلا شك، لأن متَّى ومارقش أخبرا بأن اللصين جميعًا كانا يسبَّانه، و«لوقا» يخبر بأن أحدهما كان عن يمينه وهو يسبه، والآخر كان ينكر على الذى كان يسبه ويؤمن به، والصادق لا يكذب فى مثل هذا، وليس يمكن هنا أن يدّعى أن أحد اللصين سبّه فى وقت، وآمن به فى وقت آخر، لأنَّ سياق خبر «لوقا» يمنع من ذلك، ويخبر أنه أنكر على صاحبه سبَّه إنكار من لم يساعده قط

على ذلك، وكلهم متفق على أن كلام اللصـين وهم ثلاثتهم مصلوبون على الخشب. فوجب ضـرورة أن «لوقا» كذب، أو كذب مـن أخبره، أو أنَّ «متَّى» كـذب، وكذب «مارقش» أو الذى أخبره ولا بدَّ.

فصل

وفى آخر إنجيل «متّى» بعـد أن ذكر صلب المسـيح وإنزاله برغبـة يوسف الأرماذى العريف: ودفنه فى قبر جديد محفور فى صخرة، وغطاه بصخرة عظيمة.

وفى آخر إنجـيل مارقش بعد أن ذكـر صلب المسيح وإنزاله برغبـة يوسف الأرماذى العريف: ودفنه فى قبر عشى الجمعة والسبت داخل.

وفى آخر إنجـيل «لوقا» بعد أن ذكر صلب المسـيح، وأن يوسف الأرماذى أتى أول الليل فرغب فيه فأجابه بلاطش إلى إنزاله وجعله فى قبر جديد.

وفى آخر إنجيل يوحنا بعد أن ذكر صـلب المسيح وأن يوسف الأرماذى رغب فـيه وأنزله ودفنه فى قبر فى بستان.

ثم قال متى: وعند عشاء ليلة السبت التى تصبح يوم الأحد أقبلت مريم المجدلانية ومريم الأخرى لمعاينة القبر فتزلـزل بهما الموضع زلزلة عظيمة، ثم نزل ملك السيد من السماء، وأقـبل ورفع الصخرة وقعـد عليها، وكان منظره كمنظر الـبرق، وثيابه أنصع بياضًا من الثلج، فمن خوفه صعق الحرس، وصاروا كالأموات.

فقال الملك للمرأتين: لا تخافـا، قد علمت أنكما أردتما يسوع المصلوب، ليس هو ها هنا، وقد حـيى، وقد تقدمكما إلى جـلجال كما قـال. فانظروا إلى الموضع الذى جعل فيه السـيد وانهضا إلى تلاميذه، وقـولا لهم: إنه قد حيى وفيها ترونـه، فنهضتا مسرعـتين بفرح ونوح عظيم وأقبلنا إلى التـلاميذ وأخبـرتاهم الخبر، فتلقـاهما يسوع وقال: السلام عليكما. فوقفتا، وترامیتا إلى رجليه، وسجدتا له.

فقـال لهما يسـوع: لا تخافا، واذهبـا إلى إخوانى ليـتوجهـوا إلى جلجال وفيـها يروننى. فأقبل بعض الحـرس إلى المدينة، وأعلم قواد القسيسين بما أصـابهم فَرَشَوْهم بمال عظيم ليقول الحـرس: إن التلاميذ طرقوهم ليلاً وسرقـوه، وذهبوا به وهم رقود. ففعلوا وانتشر الخبر فى اليهود إلى اليوم.

وتوجه الأحد عشر تلميذًا إلى الجلجال إلى الجبل الذى كان دلهم عليه يسوع، فلما بصروا به خنعوا له، وبعضهم شك فيه.

وقال مارقش: فلما خـلا يوم السبت اشترت «مريم» المجدلانيـة، ومريم أم يعقوب و«شلوما» حنوطـًا ليأتين به، ويدهنه، وأقبلـن يوم الأحد بكرة جداً إلى القبر وبلغن هنالك وقد طلعت الـشمس، وهن يقلن من يحوّل لنا الحـجر عن القبـر؟ فنظرن فإذا بالحجر قـد حوّل، فدخلن فى القبـر، فأبصرن فتى جـالسًا عن اليمين متغـطيًا بثوب أبيض فقال لهن: لا تفزعن فإن يسـوع الناصرى المصلوب قد قام، وليس هو ها هنا، فانطـلقن وقلن لتلامـيذه ولباطرة: إنـه قد حيى، وقـد تقدمكم إلى جلجـال، وهناك تلقـونه. فقام بكرة يـوم الأحد وتراءى أولاً لمريم المجدلانيـة فمـضت وأعلمت الذين كانوا معه، فلـم يصدقوها، وبعد هذا تظاهر لاثنين منهم وهما مسـافران إلى قرية فى صفة أخرى، فأخبرا سائرهم فلم يصدقوا أيضًا.

وآخر الأمر بينمـا الأحد عشر تلميـذًا متكئين إذ تظاهر لهم وقبّح كفـرهم، وقسوة قلوبهم.

وقال «لوقا»: فلما انفجر الصبح يوم الأحد بكرة جداً أقبل النسوة إلى القبر يحملن حنوطًا فوجدن الحجر مقلوعًا عن القبر ودخلن فيه فلم يجدن السيد فيه فتحيرن فوقف لهن رجلان فى ثياب بيض وقالا لهن: لا تطلبن حيًّا بين أموات، قد قام ليس هو ها هنا. فانصرفن وأعلمن الأحـد عشر تلميذًا، ومن كان معـهم، فلم يصدقوهن، وقام باطرة مسرعًا إلى القبر فرأى الكفن وحده فعجب وانصرف.

ثم تراءى المسيح لرجلين منهم كانا ناهضين إلى حصن يقـال له: أماؤش على سبعة أميال ونصف من أورشليم ولم يعـرفاه حتى ارتفع عنهما وغـاب. وانصرفا فى الوقت إلى «أورشليم» ووجدا الأحد عشر تلـميذًا مجتمعين مع أصحابهم فـأخبراهم بالخبر، فبينمـا هم يخوضون فى هذا وقع يسوع فى وسطهم وقـال: السلام عليكم أنا هو فلا تخافوا، فجزعوا وظنوه شيطانًا فـقال لهم: لِمَ فزعتم؟ أبصروا قدمىَّ ويدىّ أنا هو فإن الشيـطان ليس له لحم ولا عظام، ثم قال: أعندكم شىء يؤكـل؟ فأتوه بقطعـة حوت مشوى وشربة عسل فأكل ويرىء إليهم بالبقية، ثم أوصاهم وارتفع عنهم.

وقال يوحنا: فـفى يوم الأحد أقبلت مريم صـباحًا، والظلمـات لم تنجل بعد إلى القبر فرأت الصخرة مقلوعة عن القبر فرجعت إلى شمعون باطرة، وإلى التلميذ الآخر يعنى يوحنا بهذا نفسه، وقال لهما: نزع سيدى من القبر، ولا ندرى أين وضعوه.

فنهض «باطرة» والتلميذ الآخر إلى القبر فوجد الأكفان موضوعة، ثم رجعوا ووقفت «مريم» باكية فتميلت إلى القبـر فرأت ملكين منتصبين فقالا لها: من تريدين؟ فظننت أنه

الجان، فـقالت له: يا سيدى إن كـنت أخذته أنت فقل لى أين وضـعته؟ فقـال لها: يا مريم. فالتفتت وقالت: يا معلمى. فقـال لها يسوع: لا تمسينى لم أصعد بعد إلى أبى، اذهبى إلى إخـوانى وقولى لـهم: إنى صاعـد إلى أبى وأبيكم، إلهى وإلهكم. فـأتت فأخبـرتهم. ثم بينا التلاميـذ مجتمـعون أقبل يسوع ووقف فى وسطهم وقـال: السلام عليكم وعرض عليهم يديه وجنبه ثم ذكر أن «طوما» أحـد التلاميذ الاثنى عشر لم يكن حاضراً فـيهم فى هذا الظهور، فلمـا أتى وأخبروه قال: لئن لم أبصـر فى يديه إلصاق المسامير، ولم أدخل إصبعى فى موضع المسامير فى جنبه لا آمنت، فلما كان بعد ثمانية أيام اجتمعـوا كلهم والأبواب مغلقة، فأقبل يسـوع ووقف وسطهم وقال لطوما: أدخل إصبعك وأبصر كفَّىَّ، وهات يدك وأدخلها إلى جنبى، ولا تكن كافراً بل كن مؤمنًا.

فقـال له طوما: سـيدى وإلاهى، ثم تراءى عند بحـيرة الطبـرية لشمـعون باطرة، وطوما، وتطهـالى، وابنى سيـذاى، واثنين من التلاميـذ سواهم، وهم يصـيدون فى مركب فى البحر.

قال أبو محمد: فاعجبوا لهذه القصة وما فيها من الكذب والشنع، يقول «متّى»: إنَّ مريم ومريم أتتا إلى القـبر عشية ليلة السبت التى تصبح فى يوم الأحـد، فوجدتاه قد قام ويقول مارقش: إن مريم ومريم وغيـرهما أتتا إلى القبر بعد طلوع الشمس من يوم الأحد فوجدتاه قد قام قبل ذلك.

ويقول لوقا: إن النسوة أتين إلى القبر بكرة يوم الأحد فوجدتاه قد قام، والظلمة لم تنجل بعد، فـهذه كذبات منهم فى وقت بلوغهن إلى القـبر، وفيمن جـاء إلى القبر، أمريم وحدها؟ أم مريم ومريم أخرى معها؟ أما كلتاهما ومعهما نسوة أخرى.

ويقـول مـتّى: إنّ مـريم ومـريم رأتا الملك إذ نزل من السـمـاء، ورفع الصـخـرة بحضرتهما بزلزلة عظيمة، وصعق الحرس. قال الملك للمرأتين: لا تخافا إنه قد قام.

ويقول مارقش: إن النسوة وجدن الصخـرة قد قلعت بعد، وأنه وقف إليهم رجلان مبيضان فأخبراهن بقيامه.

ويقـول يوحنا: إن مريم وحـدها أتت ووجدت الـصخـرة قد قلعت ولم تر أحـداً ورجعت حائرة وأخـبرت شمعـون ويوحنا حاكى القصة، فنهـضا معها إلى الـقبر فلم يجدا فيه أحداً، وانصـرفا فالتفتت هى فإذا المسيح نفسه واقـف وسلم عليها، وأخبرها بقيامه، فهذا كذب آخر فـى وقت قلع الصخرة، وهل وجد عند القبر ملك واحد، أو

ملكان اثنان، أو لم يوجد فيه أحد أصلاً..

ويقول متَّى: إن المرأتين أتتهم بوصية فصدقوهما، وأنهم نهضوا كلهم إلى جلجال وهنالك اجتمعوا معه.

ويقول مارقش: إنه ترائى لمريم وأخبرتهم، ولم يصدقوها، ثم تراءى لاثنين فأخبراهم فلم يصدقوها، ثم نزل عليهم كلهم.

ويقول لوقا: إنهم لم يصدقوا النساء، وأن باطرة نهض إلى القبر ولم يجد شيئًا، ولا رأى أحدًا، وأنه نزل منهم بأورشليم فرأوه حينئذ وأكل معهم الحوت المشوى، وهذه صفة من لم يقصده إليهم إلا الجوع وطلب الأكل.

ويقول يوحنا: إنه تراءى لعشرة منهم حاشا «طوما» ثم تراءى لهم ولطوما.

قال أبو محمد: ومثل هذا الاختلاف فى قصة واحدة عن مقام واحد كذب لا شك فيه، ولا يمكن أن يقع من معصومين، فصح أنهم كذابون لا يتحرَّون الصدق فيما حدثوه وما كتبوه فى هذه القضية.

ثم فى هذه القصة: قول مارقش عن المسيح «إنه بعد موته قبّح كفر تلاميذه، وقسوة قلوبهم». فإذا شهد المسيح على تلاميذه بعد رفعه بالكفر وقسوة القلوب، فكيف يجوز أخذ الدِّين عنهم؟ أم كيف يجوز أن يعطى الإله مفاتيح السماوات، ويولى منزلة التحريم والتحليل كافرًا قاسي القلب؟!!

وكل هذا برهان واضح على أنَّ أناجيلهم كتب مفتراة، ومن عمل كذَّابين كفّار.

ثم فى هذه القصة: أنَّ مريم والتلاميذ كلهم كانوا يلتزمون بعد المسيح صيانة السبت وتعظيمه، وترك العمل فيه، ولذلك أخَّر عمل الحنوط إليه حتى دخل يوم الأحد، فقد صح يقينًا أنَّ هؤلاء المخاذيل ليسوا على دين المسيح، ولا على ما مضى عليه تلاميذه، بل على دين آخر، فسحقًا لهم وبعدًا، والحمد لله رب العالمين على عظيم نعمته علينا معشر أهل الإسلام.

فصل

وفى الثامن من إنجيل مارقش: أن المسيح عليه السلام قال لتلاميذه: إن دخول الجمل فى سمِّ الخياط أهون من دخول المثرى فى ملكوت الله.

قال أبو محمد: هذا قطع من كلامه بأن كل غنى لا يدخل الجنة أبدًا، وفى أتباعه أغنياء كثيرون، وما رأينا قط أمة أحرص على جمع المال من الدراهم وغير ذلك وادخاره ومنعه دون أن ينتفعوا منه بشىء ولا أن يتصدقوا منه بشىء من الأساقفة والقسيسين والرّهبان فى كل دير، وكل كنيسة، فى كل بلد، وكل وقت. فعلى موجب كلام إلههم أنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط، وهذا والله حق، وأنا على ذلكم من الشّاهدين.

فصل

وفى الباب الثامن من إنجيل مارقش: أن باطرة قال ليسوع المسيح: ها نحن قد خلينا الجميع واتّبعناك، فأجابه يسوع وقال له: «آمين أقول لكم، ليس من أحد ترك بيتًا أو إخوة، أو أخوات، أو والدًا، أو والدة، أو أولادًا لأجل الإنجيل إلا ويعطى مائة ضعف مثله الآن فى هذا الزمان من البيوت، والإخوة والأخوات، والأمهات والأولاد، والفدادين مع السعادة وفى العالم الكائن الحياة الدائمة».

قال أبو محمد: هذا موعد كاذب مضمون لا يمكن الوفاء به، وهبك يُخَرِّجُون هذا على أنه يعوّض هذا من أهل دينه أولادًا أو إخوة وأخوات، وأمهات، كيف الحين فى وعده من آمن به، وترك ما له أن يعوّض عن الفدان الذى يترك مائه فدّان وعن البيت مائة بيت الآن عاجلاً فى الدنيا سوى ما له فى الآخرة؟ وهذا كما ترى.

فصل

وفى الباب الثامن من إنجيل مارقش: أن رجلاً قال للمسيح أيها المعلم الصالح، فقال له المسيح: لم تقول لى «يا صالح» الله هو الصّالح وحده.

وفى الباب التاسع من إنجيل يوحنا: أن المسيح قال: أنا الرّاعى الصالح.

فمرة ينكر أن يكون صالحًا وأن لا صالح إلا الله، ومرة يقول: إنه صالح. وكل هذا كذب عليه من توليد هؤلاء الأنذال.

فصل

وفى آخر إنجيل مارقش: إن المسيح قال لتلاميذه: اذهبوا إلى جميع الدنيا وبشروا جميع الخلائق بالإنجيل، فمن آمن وعمّد يكون سالمًا، ومن لم يؤمن يعاقب. وهذه

الآيات تصحب الذين يؤمنون وهي سيماهم على اسمى، ينفون الجن، ويتكلمون باللغات الجديدة، ويقلعون الثعابين، وإن شربوا شربة قاتلة لم تضرّهم، ويضعون أيديهم على المرضى فينقهون.

قال أبو محمد: في هذا الفصل أعجوبتان من الكذب.

إحداهما: بشروا بالإنجيل، فدلّ هذا على إنجيل أتاهم به المسيح، وليس هو عندهم الآن، وإنما عندهم أناجيل أربعة متغايرة من تأليف أربعة رجال معروفين ليس منهم إنجيل ألّف إلاّ بعد رفع المسيح عليه السلام بأعوامٍ كثيرة، ودهر طويل، فصح أن ذلك الإنجيل الذى أخبر المسيح بأنه أتاهم به، وأمرهم بالدعاء إليه قد ذهب عنهم لأنهم لا يعرفون له أصلاً. هذا لا يمكن سواه.

والفصل الثانى قولهم: إنه وعد كل من آمن بدعاء التلاميذ فإنهم يتكلمون بلغات لم يعرفوها، وأنهم ينفون الجنّ عن المجانين، وأنهم يضعون أيديهم على المرضى فينقهون، وأنهم يقلعون الثعابين، وإن شربوا شربة قتالة لا تضرُّهم.

قال أبو محمد: وهذا وعدٌ ظاهر الكذب جهارًا، ما منهم أحد يتكلم بلغة لم يعلمها، ولا منهم أحدٌ ينفى جنيًا، ولا منهم أحدٌ يضع يده على مريض فيبرأ، ولا منهم أحدٌ يقلع ثعبانًا، ولا منهم أحدٌ يسقى السمَّ فلا يؤذيه، وهم معترفون بأن يوحنا صاحب الإنجيل قتل بالسمّ، وحاشا لله أن يأتى نبى بمواعيد خاسئة كاذبة، فكيف الإله؟!

فاعلموا أن الأنذال الذين كتبوا هذه الأناجيل أسهل شيء عليهم نسبة الكذب إلى المسيح عليه السلام.

فصل

وبعد هذا الفصل متصلاً به: «والرَّبّ لما أن تكلم بهذا قبض إلى السماء، وجلس عن يمين الله».

قال أبو محمد: هذا شرك أحمق، رب يُقْبَض، إن هذا لعجب!! ورب يجلس عن يمين الله تعالى!!

هذان ربَّان، وإلهان، الواحد أجلُّ من الثانى لأن المقعود عن يمينه أسنى مرتبة من المقعد على اليمين بلا شك. ونعوذ بالله من الخذلان.

فصل

وفى أول إنجيل لوقا: إن نفرًا قبلنا راموا وصف الأشياء التى كملت فينا كالذى دلنا عليه معشر الذين عاينوا الأمر، وكـانوا حملة الحديث، فرأيت أن أقفو أثرهم من أوله على التجـريد، وأكتب لك أيها الكريم لأن تفهم حق الكلام الذى علمـته، واطلعت عليه، وأنت به ماهر.

هذا يبين أن الأناجيل تواريخ مؤلفة، كما ترى بنص كلام «لوقا».

فصل

وفى أول إنجيل «لوقا» الذى هو تـاريخه المؤلف فى أخبار المسيح، قـال لوقا: كان بعد «هيـرودس» والى بلد «يهوذا» كوهن يـدعى «زكريا» من دولة أيحا، وزوجـته من بنات هارون، وتسمى «اليثبات» ثم ذكر كلامًا فيه يجىء جبريل الملك عليه السلام إلى مريم أم المسيح عليـهما السلام وأنه قال فى جملة كـلام كثير: وقد حملت «الـيثبات» قرينتك على قدمها، وعـقرها. فأخبر أن «اليثبات» هارونية، وأنهـا قريبة مريم، فعلى هذا فمريم أيضًا هارونية، والنصارى كلهم متـفقون على ما فى جميع الأناجيل من أن المسيح هو ابن «داود»، ومن نسل «داود» عليه السلام.

وفـى مواضع كثيرة منها: «يورثـه الله ملك أبـيه داود»، وأن العُـمْـى، والمبـاطـين والمـرضـى، والمجـانـين، والجـــن كانوا يقـولون له: يا ابـن «داود» فـلا يـنـكر ذلـك عليـهـم. ولا تـخـتـلـف النصـــارى والـيـهود فـى أن المسيـح المنـتـظر هـو من ولـد «داود».

والمسيح مع هذا كلـه كان قد أنكر فى البـاب السادس عشـر من إنجيل «متى» كـما أوردنا من قبل أن يكون المسيح من ولد «داود» فكيف هذا الاختلاط والتلون؟ ومع هذا كله فما ترى علـى ما ذكرنا نسبة النصـارى إلا إلى أنه ولد يوسف النجار الداوودى، الذى يزعمون أنه كان زوج مريم، وهذه طامة وسوأة لا يدرى لها وجه أن ينتسبوا إلى رجل لم يلده!!

وأقل مـا فى هذا الكذب الذى هو فى الدنيـا عـار، وبرهان على الضـلال، وفى الآخرة نار، ونعوذ بالله من الخذلان.

فصل

وفى الباب الثانى من إنجيل «لوقا»: فلما دخل أبَوَا المسيح به البيت ليقربا عنه ما أمر به أخذه شمعون فى يديه.

وبعد ذلك فى الباب المذكور: «وكان أبواه مختلفين إلى يورشليم كل سنة أيام الفصح، فلما بلغ اثنتى عشرة سنة وصعد إلى يورشليم على حال سنتهما فى يوم العيد فهبطا عند انقراضه بقى يسوع فى يورشليم، وجهل ذلك أبواه، وظناه فى الطريق مقبلاً، فسارا يومهما وهما يطلبانه عند الأقارب والأخوات، فلما لم يجداه انصرفا إلى «يورشليم» طالبين له، فوجداه فى الثالث قاعدًا مع العلماء فى البيت وهو يسمع منهم، ويكاشفهم، فكان يعجب منه كلّ من سمعه ومن يراه، من حسن حديثه وحسن مراجعته، فقالت له أمه: لِمَ أشخصتنا يا بنى، وقد طلبك أبوك وأنا معه محزونين؟

فقال لهما: لم طلبتمانى؟ أتجهلان أنه يجب عليَّ ملازمة أمر أبى؟ فلم يفهما عنه جوابه، فانطلق معهما إلى ناصرة، وكان يطوع لهما.

قال أبو محمد: كيف يطلق لوقا النذل القميار، وهو عندهم أجلُّ من موسى عليه السلام أن يوسف النجار والد المسيح فى غير ما موضع، ويكرر ذلك كأنه يحدث بحديث معهود. أم كيف تقول مريم لابنها: طلبك أبوك تعنى زوجها بزعمكم؟

وكيف يكون أباه ولا أب له؟

وإنما يطلق هذا الإطلاق فى الربيب لا يعرف أبوه، فيقال له: أبوك عن ربيبه بمعنى (كافله) لأنه لا إشكال ها هنا. وأما من لا أب له من بنى آدم، فإطلاق الأبوة فيه على زوج أمه إشكال وتلبيس، وتطريق إلى البلاء.

أم كيف تبقى «مريم» مع زوجها بزعمهم - فض الله أفواهم- أزيد من ثلاث عشرة سنة كما يبقى الرجل مع امرأته، يغلقان عليهما بابًا واحدًا؟

أم كيف يصح مع هذا عند هؤلاء الأنتان أنه مولود من غير ذكر؟

أين هذا الزور المفترى من النور المقتفى؟ قول الله تعالى حقًا فى وحيه الناطق إلى رسوله الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حيث قال:

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾. . . إلى قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[سورة مريم: ١٧-٣١]. قال أبو محمد: هذا هو الحق الواضح الذى يصدق بعضه بعضًا، لا كذب ولا تناقض، وهذا الذى لا يمكن سواه، لأنه لو كان لها زوج لم ينكر أحدٌ ولادتها، ولو لم يقم برهان بكلامه فى المهد لما جاز عندنا ولا عند أحد من الناس أنها حملت به من غير ذكر، ولكان ذلك دعوى كاذبة، لا يجوز أن يصدّقها أحد لا سيما مع زعمهم أنها سكنت مع زوجها أزيد من ثلاثة عشر عامًا فى بيت واحد، يَهديان عند ولادته ما يهدى الأبوان من اليهود بحكم التوراة عن ابنهما، وتقول له أمه: هذا أبوك، وفعل أبوك، ثم أطم من هذا، إقرارهم أن له أربعة إخوة ذكور: «شمعون»، و«يهوذا»، و«يعقوب»، و«يوسف»، وأخوات، ثُمَّ لا يذكرون للنجار امرأة غير مريم.

فلو أن هؤلاء الأولاد للنجار من تلك المرأة، وهذه فضيحة الدّهر وقاصمة الظهر، ومطلق ألسنة القائلين أنها أتت به من زوج أو من عُهر -وحاشا لله من ذلك- لقد يصحح هذا كله أنهم مدسوسون من هذا عن اليهود لإفساد مذاهبهم، ونعوذ بالله من الخذلان.

فصل

وفى الباب الرابع من إنجيل لوقا: وكانت العامة تشهد له، وتعجب لقوله، وما كان يوصيهم به، وكانت تقول: أما هذا ابن يوسف النجار؟ فقال لهم: نعم، قد علمت أنكم ستقولون لى يا طبيب داو نفسك، وافعل فى موضعك كما بلغنا أنك فعلت بكفر ناحوم آمين. أما إنى أقول لكم: إنه لا يقبل أحد من الأنبياء فى موضعه.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل ثلاث عظائم، **أحدها** قولهم: أمّا هذا فابن يوسف

فقال: نعم، فهذا تحقيق أنه ولد النجار، وحاشا لله من ذلك.

والثانية: اعترافهم واتفاقهم على أنه لم يأت بآية بحضرة الجماعة، وإنما ذكر أنه أتى بالآيات فى القفار.

والثالثة: وهى الحق قوله لهم: إنه نبى، وهذا الذى أفلت من تبديلهم، وأبقاه الله عزَّ وجل حجة عليهم. والحمد لله رب العالمين.

فصل

وفى الباب الثانى عشر من إنجيل لوقا: أن المسيح قال: «من قال شيئًا فى ابن الإنسان يغفر له. ومن سبَّ روح القدس لا يغفر له».

قال أبو محمد: هذا إبطال لقولهم كاف، لأن ابن الإنسان عند هؤلاء الأقذار هو روح القدس نفسه. ونص كلام المسيح ها هنا يبين أنهما شيئان متغايران، أحدهما يغفر لمن سبَّه، والآخر: لا يغفر لمن سبَّه، وهذا بيان دافع للإشكال جملة، فإن كان المسيح هو ابن الإنسان، فليس هو روح القدس أصلاً - بنص كلامه. وإن كان هو روح القدس فليس هو ابن الإنسان كذلك أيضًا. ولئن كان ابن الإنسان هو روح القدس فقد كذب المسيح، إذ فرَّق بينهما بجعل أحدهما يغفر لمن سبه، والآخر لا يغفر لمن سبه وفى هذا كفاية.

فصل

وفى الباب الموفى عشرين من إنجيل لوقا: فلما بلغوا إلى الموضع الذى يدعى الأجرد صلبوه فيه، وصلبوا معه السارقين العابثين عن يمينه وعن شماله.

فقال يسوع: يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم يجهلون ما يصنعونه، ولا يدرون فعلهم.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل شنعتان عظيمتان على النصارى كافيتان فى وساخة دينهم، وبيان فساد كل ما هم عليه جهاراً.

أولاهما: أن نسألهم فنقول لهم: المسيح إله عندكم أم لا؟

فمنْ قَوْلهم: نعم. فيقال لهم: إلى من دعا، ورفع طلبته؟

فإن كان دعا غيره، فهو إله يدعو إلهًا آخر. وهذا شرك وتغاير بين الآلهة.

وهم لا يقولون هذا.

وإن كان دعـا نفسـه: فهـذا هوس، إنما حكمه أن يقـول: قد غفـرت لكم، وهم يصرحـون في الإنجيل: بأنه يغفر ذنوب من شـاء. فأين كان عن هذه الصفـة إذ يدعو إلهًا غيره؟

والثانية: أن يقال لهم: هل أجيبت دعوته هذه أم لا؟

فإن قالوا: لم تجب دعوته. قلنا: ليس فى الخزى أكثر من إله يدعو فلا يستجاب له ولا فى النحس فوق هذا.

وعلى هذا فمـا بيده من الربوبيـة إلا ذنب ثور، شارد فى حـدود، كما بيـد سائر المخلوقين يدعو فيجاب مرة، ولا يجاب مرة.

وإن قالوا: بل أجيبت دعوته. قلنا لهم: فـاعملوا أنكم وأسلافكم كلكم فى سبكم اليهـود الذين صلبوه ظالمون لهـم. وكيف يستـحلون سبَّ قومٍ قـد غفر لهـم إلههم، وأسقط عنهم الملامة فى صلبهم له؟ أما لكم عقول تعـرفون بها مقدار ما أنتم عليه من الضلال الذى ليس فى العالم أحدٌ على مثله؟ بل كلّ ضلالة فهى دونه.

فإن قيل: ومـا أنكرتم من هذا وأنتم تقولون: إن الله تعالى دعـا الكفار إلى الإيمان فلم يجيبوه؟

قلنا: نعم، فكانوا عـصاة، والله تعالـى لَم يرد كون الإيمان منهم، إنما أمـرهم أمر تعجيز، فأخبرونا أنتم من هو المدعو لهم ليغفر لهم فيجيبه أو يعصيه..؟ ولا مخلص من هذا.

فصل

وفى آخر إنجـيل لوقا: أنه بعد صلبه تراءى لـرجلين من تلاميذه، وهما لا يعـرفانه فقال لهما: ما هذا الذى تخوضان فيه، وتحزنان له؟

فقال أحدهما وهو الذى يسمى كلوباش: أنت وحدك غريب بأورشليم، إذ تجهل ما كان بها هذه الأيام.

فقال لهم: وما ذلك؟

فقالا له من خبر يسوع الناصرى الذى كان نبيًا مقتدرًا على أفعاله وكلامه عند الله وعند الناس، وكيف اجتمع قواده القسيسـون على قتله وصلبه إلى آخر كلامهما، وأنه

قال: يا جهال، ويا من عَجَزَتْ عن فهم مقـالة الأنبياء قلوبُهم: أما كان هذا واجبًا أن يلقاه المسيح، وبعد ذلك يبلغ إلى عظمته؟

قال أبو محمد: فهؤلاء أصحابه يقـولون: إنه كان نبيًا عند الله وعند الناس، وهو يسمع بزعمـهم ولا ينكر ذلك. فهلاَّ قالوا فيه هكـذا! لقد طمس الشيطان على قلوب أبصارهم عن ذلك، ولوى ألسنتهم عن أن يقـولوا ذلك ولا مرة من الدّهر، بل كذبوه أشد الكذب، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل

وفى إنجيل متَّى ومارقش ولوقا: أنه قبل أخذه سجد ودعا وقال: يا أبت؛ كل شىء عندك ممكن، فاعفنى من هذا الكأس، لكن لا أسأل إرادتى لكن إرادتك، زاد لوقا فى إنجيله قـال: فتـراءى له ملك السيـد معـزيًا له فأطال صـلاته حتى سال العـرق منه، وتساقطت نقط منه كتساقط نقط الدم إذا انسكب فى الأرض.

وفى إنجيل مـتَّى ومارقش: أنه صاح بأعلى صـوته وهو مصلوب: إلهى إلهى، لم أسلمتنى، ثم فاضت نفسه.

قال أبو محمد: فيا للناس؟ أهـذه صفة إلهه؟ وهل يحتـاج الإله إلى ملك يعزيه؟ وهل يدعو الإله فى أن يصـرف عنه كأس المنية، وإله يعرق من صـعوبة الحال إذا أيقن بالموت، وإله يسلمه الإله؟! أفى الحمق شىء يفوق هذا؟

فإن قالوا: إنما هذا كله خبر عن الطبيـعة الناسوتية. قلنا لهم: أنتم تقولون فى كل هذا: فَعَل المسيح، وقال المسـيح، فللمسيح عندكم طبيعتـان: ناسوتية ولاهوتية وعند اليعقـوبية منكم طبيـعة واحدة، وكلكم تقولون: إن اللاّهوت اتحـد بالناسوت، وأنتم كـذبتم، وأنتم طرقتـم إلى كل هذا، وأنتم أضفـتم كل هذا إلى اللاّهوت، وإنما كـان الحمق على أصلكـم هذا الملعون أن تقولوا: فـعل نصف المسيح وقـال نصف المسيح. فعلى كل حال قد كذبتم وسخفتم. وفى هذا كفاية لمن عقل.

فصل

وفى أول إنجيل يوحنا وهو أعظم الأناجـيل كفرًا، وأشدهم تناقضًـا، وأتمها رعونة فأول كلمة فيه: «فى البدء كـانت الكلمة، والكلمة كانت عند الله، والله كان الكلمة، بها خلقت الأشياء، ومن دونها لم يخلق شىء، فالذى خلق هو حياة فيها».

فهل سمع بأعظم سـخفًا، وأتم تناقضًا من هذا الكلام الملعـون هو وقائله؟!! كيف تكون الكلمة هى الله؟ وتكون عند الله؟ فالله إذًا كـان عند نفسه. ثم قوله: «إن الذى خلق بالكلمة هو حـياة فيـها». فعلى هذا حيـاة الله مخلوقة فـروح القدس على نص كلام هذا العيّار مـخلوق، لأن روح القدس عند جميعهم هـو حياة الله وهذا بخلاف جمـيع قول النصارى، لأن الحـياة التى فى الكلمـة مخلوقة بـنص كلام يوحنا، والله تعالى بنص كلام يوحنا هو الكلمة، وهذا هدم لملّة النصارى من قرب.

ثم أطم من هذا كله إذا كانـت حياة الكلمـة مخلوقة، والكلمـة هى الله، فالله هو حامل لأعراض مخلوقه فيه. فاعجبوا ثم اعجبوا.

وبعـد هذا الفصل -على مـا نورد إن شاء الله تعـالى- والكلمة كـانت بشرًا، مع قولـه الكلمة هى الله، فـالله بشر على نصّ كـلام هـذا النـذل يوحنا - عليـه مـن الله اللعائن المتواتـرة.

فصل

وبعد ذلك ذكـر المسيح فقال: فـإنه كان فى الدنيا، وبه خلقت الدنيا، ولم يـعرفه أهل الدنيا.

قال أبو محمد: هذا من الحمق المزور. كيف يكون فى الدنيا، وبه خلقت الدنيا؟! لئن كان إلهًا كما يقولون، فهو خلق الدنيا، ولا يجوز أن تخلق به.

وإن كان إنما به خلقت الدنيا ولم يخلقها هو: فليس هو إلهًا ولا خالقًا، إنما هو آلة من الآلات، خلقت الدنيـا بها، وحاشـا لله أن يخلق بآلة، لكن كمـا قال في وحـيه الناطق إلى رسوله الصادق الذى لا يتناقض كلامه، ولا تتعارض أخباره ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [سورة يس: ٨٢].

وأين يجتمع قوله ها هنا أنه به خلقت الدنيـا مع الكذب الذى يضيفونه إلى المسيح من أنه قـال بزعمـهم: «أنا أخلق، وأبى يخلق، وإن لم أعـمل كمـا يعمل أبى فـلا تصدقونى».

حاشا لله من أن يقـول نبى هذا الكذب وهذا الحمق إذ كان يكونان إلهين مـتغايرين اثنين كل واحد منهما غير الآخر، وكل واحـد منهما يخلق كما يخلق الآخر، ثم مرة هو إله يخلق، ومرة هو آلة يخلق بها. ألا هذا هو الضلال المبين، والخيال المنتن.

فصل

وبعد ذلك قال: فمن تقبله منهم، وآمن باسمه أعطاهم سلطانًا أن يكونوا أولاد الله، أولئك المؤمنون باسمه، الذين لم يتوالدوا من دم ولا من شهوة اللحم، ولا باه رجل لكن توالدوا من الله، فالتحمت الكلمة، والكلمة كانت بشرًا، وسكنت فيها، رأينا عظمتها كعظمة ولد الله.

قال أبو محمد: فى هذا الفصل من الكفر ما لو انهدت الجبال منه، لكان غير نكير، نسأل الله العافية.

أيها الناس: تأملوا قول هذا النذل إن المؤمنين بالمسيح هم أولاد الله، فالنصارى كلهم إذَنْ أولاد الله، فأىّ ميزة للمسيح عليهم؛ إذ هو ولد الله وهم أولاد الله؟ ثم انظروا لقول هذا المستخف المستهزىء بالسفلة الذين قلدوا دينهم مثله: إن المؤمنين بالمسيح لم يتوالدوا من دم، ولا من شهوة اللحم، ولا باه رجل، ولكن توالدوا من الله هكذا هم!!

أهكذا توالد «يوحنا» من سبذاى وامرأته؟

ألا حياءَ من عظيم المجاهرة بالباطل والكذب؟

فإن قالوا: هذا مجاز. قلنا: فى ماذا؟ بل هو الكذب البحت البارد الأحمق، وهذا نفسه قلتم عن المسيح. فما الفرق بين القولين؟

ولعل ذلك أيضًا مجاز، كما هذا مجاز، فما رأينا أحمق من هؤلاء، ولا أوقح من خدودهم.

ثم اعجبوا لقوله: «فالتحمت الكلمة وسكنت فيها» فكيف تصير الكلمة لحمًا، وقد قال: إنها هى الله، فالله إذًا صار لحمًا، وسكن فى أولئك الأقذار. حسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل

ثم قال إثر هذا: «إن الله لم يره أحدٌ ما عدا ما وصف عنه الولد الفرد الذى هو فى حجر أبيه».

قال أبو محمد: هذا عجب آخر، قد قال آنفًا: إن الكلمة هى الله، وأنها التحمت،

وصارت لحمًا، وسكنت فيهم، فالله عـزّ وجل على قولهم: صار لحمًا وسكن فيهم. فكيف لم يره أحد؟

ثم قوله: «إلاّ ما وصف عنه الولد الفرد الذى هو فى حجر أبيه».

فوجب من هذا: أن الولد غير الأب لأن من المحـال الممتنع أن يكون الله فى حجر نفسـه فصح ضرورة أن الابن عندهم عـلى نصوص الأناجيل هو غـير الأب، وهم لا يثبتـون على هذا، بل مـرة هو والأب عنـدهم شـىء واحـد. وكل هـذا منصـوص فـى أناجيـلهم، وكل قضـية منهـا تكذب الأخرى، فكلها كذب بلا شك. ونعوذ بالله من الخذلان.

فصل

وفى الباب الأول من إنجيل يوحنا إذ ذكر شهادة يحـيى بن زكريا -عليهما السلام- إذ بعث إليه اليـهود من «برشلام» الـكهنة واللاويين، وكاشفـوه عن نفسه. فـأقرَّ ولم يجحد وقال لهم: لست أنا المسيح.

قالوا: أتراك إلياس؟ قال: لا. قالوا: أفأنت نبى؟ قال: لا.

قال أبو مـحمد: كيف يكون هذا مع قول المسيح فى إنجـيل متّى ومارقش كما أوردنا قبل: إن كل نبوّة وكلّ كتاب فمنتهاها إلى يحيى. وقوله فيه: إنه أكثر من نبى، فمرة هو نبى انتهت كل نبوة إليه، ومرة: هو أكثر من نبى، ومرة يقول هو نفسه: إنه ليس نبيًا.

فلا بدَّ ضـرورة من الكذب فى إحدى هذه الأقـوال. وحاشا لله أن يـكذب المسيح ويحيى - عليهما السلام- لكن كذب والله النذلان متّى الشرطى، ويوحنّا العيَّار.

فصل

وبعده فى البـاب نفسه قـال: «ويومًـا آخر رأى يحـيى المسيح مقـبلاً فـقال: هذا خروف الله».

قال أبو محمد: هذه طامّةٌ أخرى... بينما كـان كلمة الله، وابن الله، وإلهًا يخلق صار خروفَ الله - وحاشا لله أن يضاف إليه خروف إلاّ على سبيل الخلق والملك، إنما يضاف الخروف إلى من يتخذه للأكـل أو الذبح، أو لمن يربيه للفحلة، أو لصبى يلعب به ويصبغه بالحناء. وتعالى الله عن كل هذا.

فصح أنها من عمل عيّار مستخف. ونعوذ بالله من الضلال.

فصل

وبعده بيسير في الباب نفسه أن يحيى بن زكريا قال عن المسيح: «شهدت بأن هذا سليل الله».

قال أبو محمد: شهدت أنا، ونفسي، وجسدي، وعقلي بشهادة الله التامة أن هذه كذبة كذبها اللعين يوحنا على رسول الله وابن رسوله يحيى بن زكريا عليهما السلام، وأن الله تعالى عن أن يكون له سليل.

وأعجب شيء نسبتهم إلى يحيى عليه السلام أنه قال في المسيح: هذا خروف الله، وهذا سليل الله، وإنما الخروف سليل الكبش والنعجة اللهم العن هؤلاء الأنتان فما سمعنا بأعظم استخفافًا بالله تعالى وبرسله -عليهم السلام- منهم.

فصل

وفي الباب الثالث من إنجيل يوحنا أن يحيى عليه السلام قال عن المسيح: «قد رضي الأب عن الولد، وبرىء إليه بجميع الأشياء».

وفي الباب الخامس من إنجيل يوحنا أيضًا: «ولهذا كانت اليهود تريد قتله لأنه كان ليس يفسح عليهم سُنَّةَ السبت فقط، لكنه كان يدعى الله أبًا ويسوّى نفسه به».

وبعده بيسير: أن المسيح قال: كما يُحيي الأب الموتى ويقيمهم كذلك يحيي الابن من وافقه، وما يحكم الأب على أحد لأنه برىء بالحكم إلى سليله.

قال أبو محمد: هذه الطامة أنست كل طامة سلفت -ولا حول ولا قوة إلا بالله- كيف ينطق لسان أحد بهذا الكفر الفاحش الفظيع من أن الله تعالى قد اعتزل الحكم فلا يحكم على أحد لأنه برىء بالحكم وبجميع الأشياء إلى ولده -حاشا لله من هذا- إنما عهدنا هذا من فعل الملوك إذا شاخوا، وضعفوا، وأرادوا الانفراد براحاتهم، وترتيب الأمر لأولادهم لئلا ينازعهم الأمر بعدهم غيرهم، فحينئذ يسلمون الأمر إليهم في الظاهر، وأمّا في باطن الأمر فلا.

هذا كفر، ما قدرنا أحدًا ينطق به لسانه حتَّى سمعناه من قبل هذا الكافر يوحنا - لعنه الله - والحمد لله رب العالمين.

فصل

وبعده بيسير فى الباب الخامس من إنجيل يوحنا: أن المسيح قال: «فكما احتوى الأب الحياة فى ذاته، كذلك ملك ولده الاحتواء على الحياة فى ذاته، وأعطاه سلطانًا، وملكه الحكومة والسلطان والحياة، كما هى للأب لأنه ابن الإنسان».

قال أبو محمد: فهل سمع قط بأسخف من هذه العلة إذ أخبر أن من أجل أن المسيح هو ابن الإنسان، ساواه الله بنفسه، وهذا كله يوجب أنه غير الله، ولا بدَّ، لأن المُعْطِى المملِّك هو غير المُعْطَى، بلا شك.

فصل

وبعده بيسير فى الباب نفسه: أن المسيح قال: «ولا أقوى أن أفعل من ذاتى شيئًا، لكن أحكم بما أسمع، وحكمى عدل؛ لأنى لست أنفذ إرادتى إلاَّ إرادة أبى الذى بعثنى، فإن كنت أشهد لنفسى فإنَّ شهادتى غير مقبولة، ولكن غيرى يشهد لى.

وفى الباب السادس من إنجيل يوحنا أيضًا أن المسيح قال: إنما نزلت من السماء لأتم إرادة أبى الذى بعثنى، لا إرادتى.

وفى الباب السابع من إنجيل يوحنا أنه قال المسيح: «ليس علمى لى لكن للذى بعثنى».

وفى الباب الحادى عشر من إنجيل يوحنا أيضًا: أن المسيح قال لهم: لو أحببتمونى لفرحتم بمسيرى إلى الأب، لأن الأب أكبر منى.

قال أبو محمد: فهل فى العبودية والتذلل بالحق لله تعالى أكثر من هذا؟

وكيف يجتمع هذا الكلام مع الذى قبله بأسطار من أنه مساوٍ لله، وأن الله لا يحكم بعد على أحد، لكن تبرأ بالحكم كله إلى ولده، أمَا فى هذه المناقضات السخيفة عبرة لمن اعتبر؟!

ثم عجب آخر قوله ها هنا: «إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى غير مقبولة».

ثم قال فى آخر الباب السابع من إنجيل يوحنا: «إن كنت شهدت لنفسى فشهادتى حق» فاعجبوا لهذا الاختلاط.

وهكذا ذكر فى الباب السادس من إنجيل يوحنا: أن جماعة من تلاميذه لما سمعوا هذه الأقوال المختلطة ارتدوا وفارقوه، كما نذكر بعد هذا إن شاء الله تعالى.

فصل

وفى الباب السادس من إنجيل يوحنا: أنه لما أطعم الخمسة آلاف من خمس خبزات وحوتين فضل من شبعهم اثنتا عشرة سلة من خبز. قالت الجماعة: هذا النبى حقًا. فياللعجب هلاّ قالوا فيه مثل هذا القول ولو مرة واحدة.

فصل

ثم ذكر فى الباب السادس المذكور أنه أتى بكلام كثير لا يعقل من جملته أنه قال لهم: «آمين أقول لكم لئن لم تأكلوا لحم ابن الإنسان، وتشربوا دمه لن تنالوا الحياة الدائمة فيكم، فمن أكل لحمى وشرب دمى ينال الحياة الدائمة، وأنا أقيمه يوم القيامة، فلحمى هو طعم صادق، ودمى شراب صادق، فمن أكل لحمى وشرب دمى كان فىّ وكنت فيه».

ثم ذكر يوحنا أنه قال جماعة من التلاميذ: هذا الكلام شاق، ومن أجل ذلك ارتدّ جماعة من التلاميذ، وذهبوا عنه.

قال أبو محمد: وهذا الكلام وسواس صحيح لا يقوله إلا مختلط، وقد أعاذ الله نبيه منه.

فصل

وفى الباب السابع من يوحنا: أن إخوة يسوع قالوا: اذهب إلى بلد يهوذا، واخرج من ها هنا لتعاين تلاميذك عجائبك التى تطلع، فليس يختفى أحد بفعل يريد أن يطلع عليه، فإذا كنت تريد هذا فأطلع على نفسك أهل الدنيا، وكان إخرته لا يؤمنون به.

قال أبو محمد: ففى هذا أنه كان يختفى بمعجزاته، وهذا كما نرى.

فصل

وفى هذا الباب السابع من إنجيل يوحنا: أنه أتى إلى المسيح بامرأة قد زنت، فلم يوجب عليها شيئًا، وأطلقها.

قال أبو محمد: وهو على خلاف هذا فقد زوروا المسيح، وجوّروه، أو فليشهدوا على أنفسهم بالجور والظلم.

فصل

وفى آخر البـاب السابع من إنجيل يوحنا أن المسيح قـال: «أنا لا أحكم على أحد؛ وإن حكمت فـحكمى عـدل، لأنى لست وحـيـداً لكنى أنا وأبى الذى بعـثنى. وفى توراتكم: أن شـهـادة رجلين مقـبولـة، وأنـا أؤدى الشـهـادة عن نفـسى، ويشـهـد لى الذى بعثنى».

قال أبو محمد: ليت شعرى!! كيف يجـتمع هذا الفصل مع الذى أوردنا فى الباب الثالث من إنجـيل يوحنا أيضًا..؟ من أن الله تعـالى لا يحكم بعد على أحـد لأنه قد برىء بالحكم كله إلى ولده المسيح.

فصل

وفى الباب الثـامن من إنجيل يوحنا أن المسيح قـال لهم: أنا رجل أديت إليكم الحق الذى سمعته عن الله.

فهذا إقراره بأنه رجل يؤدى مـا سمع فقط. مع استشهادهم فى البـاب الثانى عشر من إنجيل مـتّى بقول أشـعيا النبى فـى المسيح: إن الله تعالى قـال فيـه: «هذا غلامى المصطفى، وحبيبى الذى تخيرت»، فصح أنه نبى من الأنبياء، وعبد الله.

فصل

وفى الباب التاسع من إنجـيل يوحنا، أن اليهود قالوا للمسـيح: لسنا نرجمك لعمل صالح إلاَّ للشتيمة، ولا لادِّعائك الربوبية، وأنت إنسان.

فقال لهم المسيح: أما قد كنت فى كتابكم الزبور حيث يقول: أنا قلت: أنتم آلهة، وبنو العلى كلكم، فـإن كان اسـمى: الله الذى كلمهم آلهـة -ولا سبيـل إلى تحريف الكتاب ولا تبديله- فلم تقولون فيـمن بارك الله عظيم، وبعثه إلى الدنيا إنه شتم. إذا قلت إنى ابن الله، إنى كنت لا أفعل أفعال أبى فلا تصدقونى، إلى قوله: لتعلموا أنى الأب، والأب منى.

وفى الباب الحادى عشر من إنجيل يوحنا: أن فيلتش الحوارى قال للمسيح: يا سيدنا أرنا الأب، ويكفينا. فـقال له المسيح: طول هذا الزمان كنت فيـكم ولا تعرفونى، من رآنى فـقد رأى الأب، فكـيف تقول أنت: أرنـا الأب؟ أليس تؤمن أنى أنا فى الأب،

وأن الأب هو فىَّ؟ فكيف هـذا. .؟!! مع قـول يوحنا الذى ذكـرنا فى أول إنجـيله إن الأب لم يره أحد قط.

فصل

وفى الباب الحادى عشر من إنجيل يوحنا المذكور أن المسيح قال لتلاميذه: أنا فى أبى وأنتم فىّ، وأنا فيكم.

قال أبو محمد: إذا كان هو الأب، والأب فيـه، وهو فى التلاميذ، والتلاميـذ فيه فالأب فى التلاميذ، والتلامـيذ فى الأب ضرورة. فأىّ مزية له عليهم، وهل هو وهم إلا سواء فى كونه وكونهم فى الله، وكون الله فيهم وفيه؟

ثم هذا الكلام لا يعقل ولا يفـهم منه إلا الاستخـفاف والكفر فـقط، لأنه إذا كان فيهم بذاته فقد صاروا له مكانًا، وصار تعـالى محدودًا، وهذه صفة المحدث، فإن كان فيهم بتدبيره فهكذا يدبر فى كل حى وميت، وكل جماد، وكل عرض. ولا فرق. ولا فضيلة فى هذا أصلاً إلاَّ الضلال.

فصل

وفى الباب الثـانى عشر مـن إنجيل يوحنا أن المسيح قـال لهم: لست أسمـيكم بعد عبيدًا لأن العبد لا يدرى ما يصنع سيده، وقد سميتكم إخوانًا.

ففى أحد هذين الفصلين: أن التلاميذ قد عتقوا من عبودية البارى عز وجل، وأنهم إخوانه، وهو خـرج من الله، ومنه انبثق، فهم كـذلك أيضًا فأىّ مـزية له عليهم؟ مع سخف هذا الكلام، وأنه لا يـدرى لهذا الانبثـاق معنًى أصلاً، والانبـثاق لا يكون إلاَّ من الأجسام ضرورة.

فصل

وفى الباب الثـالث عشر من إنجيل يوحنا فى أوله: أن المسـيح قال رافعًا عـينيه إلى السماء: «يا أبتاه قد آن الوقت فشرِّف ولدك لكيما يشرفك ولدك».

وبعده بيسير: أن المسيح قال لله: أنا شرفتك على الأرض.

قال أبو محمد: هذه مصيبة الدهر لم يقنعوا للمسيح ببنوّة الله حتي وصفوه بمساواته

لله تعالى، ثم لم يقنعوا بمساواته لله حتى قالوا: إن الله تعالى قد انعزل له عن الحكم، وليس يحكم على أحد، وأنه قد برىء بالملك والحكم كله إلى المسيح، ثم لم يقنعوا له بالعزلة والخمول حتى جعلوا المسيح يشرف الله تعالى.

يا للناس!! هل سمعتم بأعظم من هذا الكفر؟ والله والله قطعًا ما قال هذا الكلام قط مؤمن بالله تعالى أصلاً، وما كانوا إلاّ دهرية مستخفين رقعاء، فعليهم أضعاف كل لعنة لعنها الله تعالى سواهم من الكفرة.

قال أبو محمد: فى إنجيل يوحنا: «أنّ المسيح قال: أنا أميت نفسى، وأنا أحييها»، فليت شعرى!! كيف يمكن أن يحيى نفسه وهو ميت؟

قال أبو محمد: فهذه سبعون فصلاً فى أناجيلهم من كذب بحت، ومناقضة لا حيلة فيها. ومنها فصول يجمع الفصل منها ثلاث كذبات فأقل أو أكثر، على قلّة مقدار أناجيلهم. وجملة أمرهم فى المسيح -عليه السلام- أنه مرة بنص أناجيلهم: ابن الله، ومرة هو ابن يوسف، وابن داود، وابن الإنسان، ومرة هو إله يخلق ويرزق، ومرة هو: خروف الله، ومرة هو فى الله، والله فيه، ومرة هو فى تلاميذه، وهم فيه، ومرة: هو علم لله وقدرته، ومرة لا يحكم على أحد، ولا تنفذ إرادته، ومرة هو: نبى وغلام. ومرة أسلمه الله إلى أعدائه. ومرة قد انعزل الله له عن الملك، وتولاّه هو، وصار يشرف الله تعالى، ويعطى مفاتيح السماوات، ومرة يولى أصحابه خطة التحريم والتحليل فى السماوات والأرض. ومرة يجوع ويطلب ما يأكل، ويعطش ويشرب ويعرق من الخوف، ويلعن الشجرة إذا لم يجد فيها تينًا يأكله، ويفشل فيركب حمارة، ويؤخذ ويلطم وجهه، ويضرب رأسه بالقصبة، ويبزق فى وجهه، ويضرب ظهره بالسياط، وتمر به الشرط، ويتهكمون به، ويسقى الخل فى الحنظل، ويصلب بين سارقين، وتسمّر يداه، ومات فى الساقة ودفن ثم يحيا بعد الموت، ولم يكن له هم إذ حيى بعد الموت واجتمع بأصحابه إلا طلب ما يأكل فأطعموه الحوت المشوى، وسقوه العسل، ثم انطلق إلى شغله.

هذا كله نص أناجيلهم، وهم قد اقتصروا فى دينهم من كل هذا على أنه إله معبود فقط، وهم يأنفون من إله مع الله وأناجيلهم وأمانتهم توجب أن المسيح إله آخر غير الله، بل يقعد عن يمين الله، وأنه أكبر منه، وهو يخلق كما يخلق، ويحيى كما يحيى، فبالضرورة توجب أنهم قائلون بإلاهين ولا بدّ متغايرين.

ذكر بعض ما فى كتبهم غير الأناجيل من الكذب والكفر والهوس

قال أبو محمد: قال يوحنا بن سبذاى فى إحدى رسائله الثلاث: يا أحبابى! نحن الآن أولاد الله، ولم يظهر بعد ما نحن كائنون، وقد نعلم أنه إذا ظهر سنكون أمثالاً له؛ لأننا نراه كما هو.

قال أبو محمد: أفى الكفر أعظم من قول هذا الكذب؟ إنهم أولاد الله، وإنهم سيكونون مثل الله إذا ظهر. وقال اللعين فى كتاب الوحى والإعلان: «إنه رأى الله عزّ وجل شيخًا أبيض الرأس واللحية، ورجلاه من لاطون، والمسيح يقرأ بين يديه فى كتاب من ذهب والملائكة يقولون: هذا خروف الرب، والأسواق قائمة بين يديه، والقمح كذا وكذا قفيزاً بدينار، والشعير كذا وكذا قفيزاً بدينار، والخمر كذا وكذا قسطًا بدينار، والزيت كذا وكذا قسطًا بدينار. فهل هذا إلاّ هزل وعيارة، وتماجن وتطايب.

وقال شمعون فى إحدى رسالتيه: «يومئذ يأتى الربُّ كمجيء اللص»، فلعمرى!! لقد شبه ربّه تشبيهًا هو أولى به، ولا مؤونة على هذين الكلبين، وعلى يهوذا ويعقوب اللعينين فى رسائلهم الفارغة من كل خير، الباردة المملوءة من كل كفر وهوس أن يقولوا: «قال الله والد ربنا المسيح، وفعل الله والد سيدنا المسيح»، كأنهم والله إنما يخبرون عن نسب من الأنساب وولادة من الولادات.

وقال بولس اللعين فى إحدى رسائله وهى التى إلى أهل غلاذية فى الباب السادس منها: «نشهد لكل إنسان يختتن أنه يلزمه أن يحفظ شرائع التوراة». وقال أيضًا قبل ذلك: «إن اختتنتم فإن المسيح لا ينفعكم».

فاعجبوا لهذه، واعلموا أنه قد ألزمهم دينين، أما من كان مختونًا فإن شرائع التوراة كلها تلزمه ولا ينفعه المسيح. وأما من كان غير مختون فالمسيح ينفعه ولا تلزمه شرائع التوراة. وهو النذل وسائر التلاميذ كانوا بإجماع من النصارى مختونين كلهم، فوجب أن المسيح لا ينفعهم، وأن شرائع اليهود فى التوراة كلها لهم لازمة، وأكثر مَنْ بَيْنَ أظهر المسلمين منهم اليوم مختونون، فإن كان بولس صادقًا فإن المسيح لا ينفعهم وإن

شرائـع التوراة كلهـا لازمة لهم. وإن كـان كاذبًا فى ذلك فكيف يأخـذون دينهم عن كذاب؟ ولا بدَّ من أحدهما.

وقال أيضًا فى إحدى رسائله: «إن يوحنا بن سـبذاى، ويعقوب بن يوسف النجار، وباطرة: أمروه أن يكون هو يدعو إلى ترك الختان، ويكونون هم يدعون إلى الختان.

قال أبو محمد: هذا غير طريق التحقيق فى الدعاء إلى الدين، وإنما هى دعوة حيلة وإضلال مبينة لا حقيقة لها.

وقال بولس: إن يعقوب بن يوسف النجار كان مـرائيًا يتحفظ من مداخلة الأجناس بحضرة اليهود، وأن بولش واجهه بذلك بأنطاكية وعنفه على ذلك.

أفيجوز أخذ الدين من امرىء مدلس؟

وقال هذا اللعين بولش أيضًا فى إحدى رسائله: «إن يسوع بينما كان فى صورة الله لم يغتنم أن يكون مساويًا لله، بل أذل نفسه ولبس صورة عبد».

قال أبو محمد: فهل سمع قط بأوحش من هذا الـكفر؟ أو أحمق من هذا الكلام؟ أو أسخف مـن هذا الاختيـار؟ وهل يتذلل الإنسـان، ويحمل كلّ بلاء فى الـدنيا إلاَّ ليصل إلى رضا الله عزّ وجل فقط؟

فليت شعـرى!! هل بعد الوصول إلى مـساواة الله تعالى عـند هؤلاء الأقذار منزلة تُبْتَغى فيرقضها المسيح لينال أعلى منها؟

اللهم قد ذكرنا تلك المنزلة، وهى التى وصـفها يوحنا اللعين فى إنجيله: من أن الله تعالى عن كفرهم -اعتزل عـن الملك والحكم وتولاَّهما المسيح، وتبرأ إليه بكل شىء. ثم إن المسيح شرفه تعالى عن ذلك- اللهم العن -وقـد فعلت- عقولاً يجوز منها هذا الحمق.

وقال هذا النذل فى بعض رسائله: «إنّى كنت أتمنى أن أكون محرومًا من المسيح».

قال أبو محمد: ليت شعرى مَنْ ضَـغطه؟ وما المانع له من أن يكفر بالمسـيح فيبلغ مناه ويصير محرومًا منه..؟ ووالله إنه لمحروم منه بلا شك.

وقال هذا النذل بولـس أيضًا فى بعض رسائله الخـسيسـة: اليهـود يطلبون الآيات واليونانيون يطلبون الحكمة، ونحن نشرع أن المسيح صلب.

وهذا القول عند اليهود فتنة الزلق، وعند الأجناس جهل ونقص. وعند المجتبين من

اليهود واليونانيين: أن المسيح علم الله وقدرته، لأن ما كان جهلاً عند الله هو أحكم ما يكون عند الناس، وما هو ضعيف عند الله هو أقوى ما يكون عند الناس.

قال أبو محمد: فهل فى بيان قحة هذا النذل وسخريته بمن اتبعه، وتحقيق ما تدعيه اليهود: أن أسلافهم دسّوا هذا النذل بولش لإضلال أتباع المسيح - عليه السلام - أكثر من هذا الكلام فى إبطاله الآيات والحكم؟!

إن أحكم ما يكون عند الناس هو الجهل عند الله فمحصول كلامه: اتركوا العقل وموجبه، واطلبوا الحمق وتدينوا به. نعوذ بالله مما ابتلاهم به.

وقال بولس أيضًا فى بعض رسائله: إنه لا تبقى دعوة كاذبة فى الدين أكثر من ثلاثين سنة.

قال أبو محمد: هو عندهم -لعنه الله- أصدق من موسى بن عمران عليه السلام فإن كان صدق ها هنا فما يحتاج معهم إلى برهان فى صحة دين الإسلام، ونبوة محمد ﷺ سوى هذا، فإن لهذه الدعوة أربعمائة عام ونيفًا وخمسين عامًا ظاهرة والحمد لله رب العالمين، فيلزمهم أن يرجعوا إلى الحمق، أو يكذبوا بولس بشيرهم.

وقال بعض من يعظمونه من أسلافهم، وهو يوحنا فم الذهب، بطريارك القسطنطينية، فى كتاب له معروف عندهم: إن الشجرة التى منها آدم، وبسببها أخرج من الجنة كانت شجرة تين، وإن الله أنزل تلك الشجرة بعينها إلى الأرض، وهى التى دعا المسيح عليها فيبست، إذ طلب فيها تينًا يأكله فلم يجد، وهى نفسها الخشبة التى صلب عليها قال: وبرهان ذلك أنك لا تجد غارًا إلاَّ وعلى فمه شجرة تين نابتة.

فاعجبوا لهذا الهزل والعيارة والمجون، والبرهان البديع. واعلموا أنهم بأجمعهم متفقون على أن يصوروا فى كنائسهم صورة يقولون: هى صورة البارى عزّ وجل، وأخرى صورة المسيح، وأخرى صورة مريم، وصورة باطرة، وصورة بولش، والصليب، وصورة جبريل، وصورة ميكائيل وصورة إسرافيل، ثم يسجدون للصور سجود عبادة، ويصومون لها تدينًا. وهذا هو عبادة الأوثان بلا شك والشرك المحض، وهم ينكرون عبادة الأوثان ثم يعبدونها علانية، وحجتهم فى هذا حجة عباد الأوثان أنفسهم، وهى أنهم يتقربون بذلك إلى أصحاب تلك الصور، لا إلى الصور بأعيانها.

واعلموا أنهم لم يزالوا بعد المسيح بأزيد من مائة عام يصومون فى شهر كانون الآخر إثر عيد الحجيج، أربعين يومًا متصلة ثم يفطرون ثم يعيدون الفصح مع اليهود اقتداءً

بالمسيح، إلى أن أبطـل ذلك عليهم خمـسة من البطاركة اجـتمعـوا على ذلك ونقلوا صيـامهم وفـصحهم إلى مـا هم عليه اليـوم، فكيف ترون هذا الدين ولعب أهله به، وحكمهم بأن ما مـضى عليه المسيح والحواريون ضلال وكفـر. .؟ ولا يختلفون أصلاً فى أن شرائعهم كلها إنمـا هى من عمل أساقفتهم وملوكهم عـلانيةً. فهل تطيب نفس من به مسكة عقل على أن يبقى ساعة على دين هذه صفته؟ فكيف يلقى الله على دين يُقرّ بلسـانه ويعلم بقلبه أنه ليس من عند الله تعـالى، ولا مما أتى به نبى، ونعوذ بالله من الضلال.

ومن عظيم هَوَسَهم قولهم كلهم: إن المسـيح أتى ليأخـذ بجراحه آلامنا وبـكلومه ذنوبنا، وهذا كلام فى غاية السّخف!! ليت شعرى أى ألم أخذ بجراحه أم كيف تؤخذ ذنوب الناس بكلوم المسيح؟! وما نراهم إلا يألمون ويذنبون كما يألم غيرهم ولا فرق.

ومن فضائحهم دعواهم أن إهلانى والدة قسطنطين أول من تنصر من ملوك الروم، وذلك بعد أزيد من ثـلاثمائة سنة من رفع المسيح، وجـدت الخشبـة التى صلب فيـها المسيح والـشوك الذى جعل علـى رأسه، والدم الذى طار من جنبـه، والمساميـر التى ضربت فى يديه. فليت شعرى أين وجد هذا السخام كله. .؟ وأهل ذلك اللعين كلهم مطرودون مقتولون حيث وجدوا، والمدينة خـربة أزيد من مائتى عام لا أنيس فيها، ثم من لهم بأنهـا تلك. .؟ وأين بقى أثـر الدم والمسامـيـر والشـوك والخشـبـة تلك المدة العظيمـة، فى البلاد الخاليـة المقفرة؟ ولا شـك في أنه إذ صُلب -كما يقـولون- كان أصحابه مخـتفين وأعداؤه لا يلتفتـون إلى أمره، أيكون فى السخف أعظم من هذا؟! وما عقولهم إلا عقول من يصدق بالأغرقون، والعنقاء، وبكل ما لا يمكن.

واعلمـوا أن كل ما يدعـونه لباطرة ويوحنا ومـارقش وبولش من المعـجزات فإنـها أكذوبات مـوضوعة، لأن هؤلاء الأربعـة لم يكونوا قط مذ رفع المسيح عليـه السلام، ومذ تنصر بولش إلا مطلوبين، مشردين، مضروبين، كالزنادقة مستترين.

وقد ذكر بولش عن نفسـه أن اليهود ضربوه خمس مرات بالقضبـان، كل مرة تسعًا وثلاثين جلدة، وأنه رجم بالحجـارة فى جمع عظيم، وتدلى من سور دمشـق فى قفة خوف القتل، ومع ذلك تظاهروا بدين اليهود إلى أن صلبوا أو قتلوا إلى لعنة الله، ولا يجوز أن تصحَّ معـجزة إلا بنقل كافة من مثلهـا ممن شاهد ذلك ظاهرًا، ولكن دعوى النصارى ذلك لمن ذكـرنا أو لغيرهم من أسـلافهم معجـزة كدعوى المَنَّانيَّـة لمانى سواء

بسواء، فإنه لم يزل مستتراً إلا شهوراً يسيرة، إذ اختدعه «بهرام بن بهرام الملك» حتى ظفر به وبأصحابه فقتلم كلهم. وكدعوى اليهود لأحبارهم السالفين، ولرؤوس المثايب المعجزات بالصناعات، وكدعوى أصحاب الحلاج للحلاج، وكدعوى طوائف من المسلمين مثل ذلك من المعجزات لشيبان الراعى، ولإبراهيم بن أدهم، ولأبى مسلم الخولانى ولعبد الله بن المبارك.. رحمة الله عليهم وعلى غيرهم من الصالحين، وكل ذلك كذب وتوليد من لا خير فيهم، وإحالة على أشياء مغيبة لا يعجز عن ادعاء مثلها أحد، وكل طائفة ممن ذكرنا تعارض دعواها بدعوى سائر الطوائف، ولا سبيل إلى الفرق بين شيء من هذه الدعاوى.

وقد قلنا لا يمكن ألبتة وجود معجزة إلا لنبى فقط، ثم لا تصلح إلا بنقل يقطع العذر، ويوجب العلم للكافر والمؤمن، إلا من كابر حسّه وغالط نفسه، وقال هذا سحر فقط، وكذلك ما اغتر به كثير من جهالهم مما رأوا من عظيم اجتهاد رهبانهم، أصحاب الصوامع والدِّيرات والمطموس عليهم أبواب البيوت، فليعلموا أنه ليس عندهم من الاجتهاد فى العبادة إلا جزء من أجزاء كثيرة مما عند المنانية، وشدة اجتهادهم، والذى عند الصّابئين من ذلك أعظم، فإنه يبلغ الأمر بهم إلى أن يَخْصِىَ الواحد نفسه، ويسمل عينى نفسه، اجتهاداً فى العبادة.

والذى عند الهند أكثر من هذا كله فإنهم لا يزالون يحرقون أنفسهم فى النار تقربًا إلى البُدّ ولا يزالون يرمون أنفسهم من أعالى الجبال كذلك، فأين اجتهاد من اجتهاد؟ وعبّاد الهند لا يمشون إلا عراة، ولا يلتبسون من الدنيا بشيء أصلاً، فأين هذا من هذا لو عقلوا؟! وإن شئت فتأمل أساقفة النصارى وقسيسيهم وحثالتهم تجدهم جملة أفسق الخلق، وأرياهم وأجمعهم للمال، لا سبيل أن تجد منهم واحداً بخلاف هذا. وكذلك إن اعتبروا بصبر أوائلهم للقتل على دينهم، حتى عملوا لهم الشائنات إلى اليوم، فإن ذلك لا يتحرى من صبر المنّانية على القتل فى الثبات على دينهم، ومن صبر دعاة القرامطة على القتل أيضًا، وكل هذا لا يتعلق به إلا جاهل سخيف، مقلد متهالك، وإنما الحق فيما أوجبته براهين العقول، والتى وضعها الله تعالى فينا لتمييز الحق من الباطل، ونبا بها عن البهائم فقط، ثم فى الاعتدال والاقتصار على ما جاء به صاحب الشريعة، التى قام البرهان بصحتها عن الله تعالى، وجماع ذلك ما جرى عليه أصحاب رسول الله ﷺ فى حياته وبعده عليه السلام.

وقال أبو محمد: وبقي لهما اعتراضان نذكرهما إن شاء الله تعالى.

أحدهما: أن قالوا قال الله عز وجل في كتابكم، حكاية عن المسيح عليه السلام، أنه قال: ﴿مَنْ أَنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ [سورة الصف: ١٤].

وقال تعالى أيضًا مخاطبًا للمسيح عليه السلام: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ [سورة آل عمران: ٥٥].

قلنا: نعم هذا خبر حق، ووعد صدق، وإنما أخبر تعالى عن المؤمنين ولم يسمهم، ولا شك في أن من ثبت عليه الكذب من «باطرة» و«متَّى» و«يوحنا» و«يعقوب» ليسوا منهم لكنهم من الكفار المدعين له الربوبية كذبًا وكفرًا، وأمَّا الموعودون بالنصر إلى يوم القيامة، المؤمنون بالمسيح عليه السلام، فهم نحن المسلمين المؤمنين به حقًا وبنبوّته ورسالته، لا من كفر به وقال إنه كذّاب، أو قال إنه إله أو ابن الله - تعالى الله عن ذلك -.

والثاني: أنهم قالوا: إن في كتابكم: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [سورة الفجر: ٢٢]. وفيه ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [سورة البقرة: ٢١٠].

فهلا قلتم في التوراة والإنجيل كما تقولون فيما في كتابكم؟

قلنا: بين الأمرين فرق بيِّن كما بين قطبي الفلك، وذلك أن الذي في القرآن ظاهر لا يحتاج فيه إلى تأويل، فمعنى «وجاء ربك» و«يأتيهم الله» هو أمر معلوم في اللغة التي بها نزل القرآن، مشهور فيها تقول: جاء الملك وأتانا الملك، وإنما أتى جيشه وسطوته وأمره، فليس فيما تلوتم أمر ينكر، وليس كذلك ما كتب في توراتكم وأناجيلكم، من التكاذب والتناقض، والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: واعترضوا أيضًا بأن قالوا: كيف تحققون نقلكم لكتابكم وأنتم مختلفون أشد خلاف في قراءتكم له..؟ وبعضكم يزيد حروفًا كثيرة وبعضكم يسقطها...؟ فهذا باب. وأيضًا: فإنكم تروون بأسانيد عندكم في غاية الصحة، أن طوائف نبيكم عليه السلام ومن تابعيهم الذين تعظمون وتأخذون دينكم عنهم قرؤوا القرآن بألفاظ زائدة ومبدَّلة، لا تستحلّون أنتم القراءة بها، وأن مصحف عبد الله بن

مسعود خلاف مصحفكم، وأيضًا فإن طوائف من علمائكم الذين تعظمون وتأخذون دينكم عنهم يقولون إن عثمان بن عفان ﷺ أبطل قراءات كثيرة صحيحة، وأسقطها إذ كتب المصحف الذى جمعكم عليه، وعلى حرف واحد من الأحرف السبعة، التى بها نزل القرآن عندكم، وأيضًا فإن الروافض يزعمون أن أصحاب نبيكم بدّلوا القرآن، وأسقطوا منه، وزادوا فيه؟

قال أبو محمد: كل هذا لا متعلق لهم بشيء منه على ما نبين بما لا إشكال فيه عند أحد وبالله تعالى التوفيق.

وأما قولهم: إننا مختلفون فى قراءة كتابنا فبعضنا يزيد حروفًا وبعضنا يسقطها، فليس هذا اختلافًا بل هو اتفاق منّا صحيح، لأن تلك الحروف وتلك القراءات كلها مبلغ بنقل الكواف إلى رسول الله ﷺ أنها نزلت كلها عليه، فأىّ تلك القراءات قرأنا فهى قراءة صحيحة، وهى محصورة كلها مضبوطة معلومة لا زيادة فيها ولا نقص، فبطل التعلق بهذا الفصل ولله تعالى الحمد.

وأمّا قوله: إنه قد روى بأسانيد صحاح عن طائفة من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن التابعين الذين نعظم ونأخذ ديننا عنهم، أنهم قرؤوا فى القرآن قراءات لا نستحل نحن القراءة بها، فهذا حق ونحن وإن بلغنا الغاية فى تعظيم أصحاب نبينا ﷺ ورضوان الله عليهم، وتقرّبنا إلى الله عز وجل بمحبتهم فلسنا نبعد عنهم الوهم والخطأ، ولا نقلدهم في شيء مما قالوه، وإنما نأخذ عنهم ما أخبرونا به عن رسول ﷺ، مما هو عندهم بالمشاهدة والسماع، لما ثبت من عدالتهم وثقتهم وصدقهم.

وأما عصمتهم من الخطأ فيما قالوا برأى أو بظن فلا نقول بذلك، ولو أنكم أنتم فعلتم كذلك بأحباركم وأساقفتكم الذين بينكم وبين الأنبياء عليهم السلام ما عنفناكم، بل كنتم على صواب وهدى، متبعين للحق المنزل، مجانبين للخطأ المهمل، لكن لما لم تفعلوا هكذا بل قلدتموهم فى كل ما شرعوه لكم هلكتم فى الدنيا والآخرة، وتلك القراءات التى ذكرتم إنما هي موقوفة على الصاحب أو التابع، فهى ضرورةٌ وهْمٌ من الصاحب، والوهم لا يعرّى منه أحد بعد الأنبياء عليهم السلام. أو وهم ممن دونه فى ذلك.

وأما قولهم: إن مصحف عبد الله بن مسعود ﷺ خلاف مصحفنا؛ فباطل وكذب وإفك، مصحف عبد الله بن مسعود إنما فيه قراءته بلا شك، وقراءته هى قراءة عاصم

المشهورة عند جميع أهل الإسلام، فى شرق الأرض وغربهـا، نقرأ بها كما ذكرنا كما نقرأ بغيرها، مما صح أنه كل منزل من عند الله تعالى، فبطل تعلقهم بهذا والحمد لله رب العالمين.

وأما قـولهم: إن طائفة من علمائنا الذين أخـذنا ديننا عنهم، ذكروا أن عثـمان بن عفان رضي الله عنه إذ كتب المصـحف الذى جميع الناس عليه أسقط سـتة أحرف من الأحرف المنزلة واقتـصر على حرف مـنها، فهـو مما قلنا. وهو ظن ظنّه ذلك القائل أخطأ فـيه وليس كما قـال، بل كل هذا باطل ببرهان كالشمس، وهو أن عـثمان رضي الله عنه لم يلِ إلا وجزيرة العرب كلهـا مملوءة بالمسلمين، والمصاحف والمساجد والقراء يعلّمـون الصبيان والنساء، وكل من دب وهب. والـيمن كلها، وهى فى أيامـه مدن وقرى، والبـحرين كذلك، وعمان كذلك، وهى بلاد واسعة مدن وقرى وملكها عظيم، ومكة والطائف، والمدينة والشـام، كلها كذلك، والجـزيرة كلها كـذلك ومصـر كلها كذلـك، والكوفة والبصرة كذلك، فى كل هذه البلاد من المصاحف والقراء ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى وحده، فلو رام عثمان ما ذكروا ما قدر على ذلك أصلاً.

وأما قـولهم: إنه جمع الناس على مـصحف فبـاطل؛ ما كان يـقدر على ذلك لما ذكرنا، ولا ذهب عثـمان قط إلى جمع الناس على مصـحف كتبه، إنما خشى عـثمان رضي الله عنه أن يأتى فاسق يسعى فى كيد الدِّين، وأن يَهُمَّ وَاهِمٌ من أهل الخير فيبدل شيئًا من المصـحف عمـدًا، وهذا وَهْمٌ فيكون اخـتلاف يؤدى إلى الضـلال، فكتب مصـاحف مجمعًا عليها، وبعـث إلى كل أفـق مصحفًا، لكى إن وهم واهم، أو بدَّل مبدل رجع إلى المصحف المجتمع عليه، فانكشف الحقُّ وبطل الكيد والوهم.

وأما قول من قـال أبطل الأحرف الستة فقـد كذب من قال ذلك، ولو فعل عـثمان ذلك وأراده لخرج عن الإسلام، ولما مَطل سـاعة. بل الأحرف السبعـة عندنا موجودة كلها قائمة، كما كانت مثبوتة فى القراءات المشهورة والمأثورة، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولهم فى دعـوى الروافض تبديل القرآن، فإن الروافض ليـسوا من المسلمين، إنما هى فرقـة حدث أولهـا بعد مـوت رسول الله ﷺ بخمـس وعشرين سـنة، وكان مبدؤها إجابة ممـن خذله الله تعالى لدعوة من كاد الإسلام، وهى طائفـة تجرى مجرى اليهود والنصارى فى الكذب والكفـر، وهى طوائف أشدهم غلوًا يقولون بالإلاهية على ابن أبى طالب رضي الله عنه، والإلاهية جـماعة معه. وأقلهم غلواً يقـولون: بأن الشمس ردت

على على بن أبى طالب مرتين، فقوم هذا أقل مراتبهم فى الكذب أيستشنع منهم كذب يأتون به..؟ وكل من لم يزجره عن الكذب ديانته أو نزاهة نفس أمكنه أن يكذب ما شاء، وكل دعوى بلا برهان فليس يشتغل بها عاقل، سواء كانت له أو عليه، ونحن إن شاء الله تعالى نأتى بالبرهان الواضح الفاضح لكذب الروافض، فيما افتعلوه من ذلك.

قال أبو محمد: مات رسول الله ﷺ والإسلام قد انتشر وظهر فى جميع جزيرة العرب، من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم، مارًا إلى سواحل اليمن كلها، إلى بحر فارس إلى منقطعه مارًا إلى الفرات، ثم على ضفة الفرات إلى منقطع الشام، إلى بحر القلزم.

وفى هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده إلا الله عز وجل، كاليمن والبحرين، وعمان ونجد، وجبلى طيىء، وبلاد مضر وربيعة، وقضاعة والطائف، ومكة كلهم قد أسلم وبنوا المساجد، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب إلا قد قرىء فيها القرآن فى الصلوات، وعلمه الصبيان والرجال والنساء، وكتب. ومات عليه السلام، والمسلمون كذلك، ليس بينهم اختلاف فى شىء أصلاً، بل كلهم أمة واحدة، ودين واحد، ومقالة واحدة، ثم ولى أبو بكر رضي الله عنه سنتين وستة أشهر، فغزا فارس والروم، وفتح اليمامة وزادت قراءة الناس للقرآن، وجمع الناس المصاحف كأبى بكر، وعمر وعثمان وعلى وزيد، وأبى زيد وابن مسعود، وسائر الناس فى البلاد، فلم يبق بلد إلاَّ وفيه المصاحف.

ثم مات رضي الله عنه والمسلمون كما كانوا لا اختلاف بينهم فى شىء أصلاً، أمة واحدة، ومقالة واحدة، إلا ما حدث فى آخر حياة رسول الله ﷺ، وأول ولاية أبى بكر رضي الله عنه، من ظهور الأسود العنسى فى جهة صنعاء، ومسيلمة فى اليمامة، يدعيان النبوة، وهما فى ذلك مقران بنبوة محمد ﷺ معلنان بذلك، وقد انقسم العرب ومن باليمن وغيرهم أربعة أقسام، إثر موته عليه السلام، فطائفه ثبتت على ما كانت عليه من الإسلام لم تبدِّل شيئًا، ولزمت طاعة أبى بكر رضي الله عنه وهم الجمهور والأكثر.

وطائفة بقيت على الإسلام أيضًا، إلا أنهم قالوا: نقيم الصلاة وشرائع الإسلام، إلا أننا لا نؤدى الزكاة إلى أبى بكر، ولا نعطى طاعةً لأحد بعد رسول الله ﷺ، وكان هؤلاء كثيرًا إلا أنهم دون من ثبت على الطاعة، ويبين هذا قول الحطيئة العبسى:

أطعنا رسول الله إذ كان نبيًا فيا لهفا ما بـال ديـن أبـى بكـر
أيورثها بكرًا إذا مات بعده فتلك لعمرو الله قاصمة الظـهـر
وإن التى طالبــتمُ فمنعـتم لكالتمر أو أحلى لدىَّ من التمر

يعنى الزكاة ثم ذكر القبائل الثابتة على الطاعة فقال:

فباسْتِ بنى سعدٍ وأستاهِ طيىء وباسْتِ بنى دودان حَاشَى بنى نضرِ

قال أبو محمد: لكن والله بأستاه بنى نضْر، وباست الحطيئة، حلت الدائرة والحمد لله رب العالمين.

وطائفة ثالثة أعلنت الكفـر والردة، كأصحاب طليحة وسـيجاح، وسائرَ من ارتد، وهم قليل بالإضـافـة إلى من ذكـرنا، إلا أن فى كـل قبـيلـة من المؤمنين من يقـاوم المرتدين، فقـد كان باليمـامة ثمامـة بن أثال الحنفى، فى طوائف مسلمين، مـحاربين لمسـيلمة، وفى قـوم الأسود أيضًـا كذلك، وفـى بنى تميم، وبنى أسد الجـمهـور من المسلمين، وطائفـة رابعـة توقفت فلـم تدخل فى أحد من الطـوائف المذكورة، وبقـوا يتربَّصون لمن تكون الغلبة كمالك بن نويرة وغيره، فأخرج أبو بكر ﷺ إليهم البعوث فقتل مسيلمة، وقد كان فيروز وذادوند الفارسيّان الفاضلان ﷺ قتلا «الأسود العنسى» فلم يمض عام واحد حتّى راجع الجميع الإسلام، أولّهم عن آخرهم، وأسلمت سجاح وطليحـة وغيرهم، وإنما كـانت نزغـة من الشيطان كنارٍ اشـتعلت فأطفـأها الله تعالى للوقت، ثم مـات أبو بكر وولى عـمر ﷺ، فـفتـحت بلاد فـارس طولاً وعرضًـا، وفتـحت الشام كلهـا والجزيرة، ومصـر كلّها، ولم يبق بلدٌ إلاَّ وبنيت فـيه المسـاجد، ونسخت المصـاحف، وقرأ الأئمة القرآن وعلّمـه الصبيان، فى المكاتب شـرقًا وغربًا، وبقى كذلك عـشرة أعوام وأشـهرًا والمؤمنون كلهم لا اختـلاف بينهم فى شئ بل ملّةٌ واحدة ومقالة واحدة، وإن لم يكن عند المسلمين إذ مات عمر مائة ألف مصحف، من مصر إلى العراق إلى الشام إلى اليمن، فما بين ذلك، فلم يكن أقل.

ثم ولى «عثمان» ﷺ فزادت الفتوح، واتسع الأمر، فلو رَام أحدٌ إحصاء مصاحف أهل الإسـلام ما قـدر، وبقى كـذلك اثنى عـشر عـامًـا حتّى مـات، وبموته حـصل الاختلاف، وابتدأ أمر الرّوافض.

واعلمـوا أنه لو رام أحدٌ أن يزيد فى شـعر النابغـة أو شعـر زهير كلمـة أو ينقص أخرى، ما قدر لأنه كـان يفتضح للوقت، وتخالفه النسخ المثبوتة، فكيف والقرآن فى

المصاحف. .؟ وهى من آخر الأندلس وبلاد البربر وبلاد السودان، إلى آخر «السند» و«كابل»، و«خراسان»، و«الترك»، و«الصقالبة»، وبلاد الهند، فما بين ذلك. فظهر حمق الرَّافضة ومجاهرتها بالكذب.

ومّما يبيّن كذب الروافض فى ذلك، أن عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه، الذى هو عند أكثرهم إله خالق، وعند بعضهم نبىٌّ ناطق، وعند سائرهم إمام معصوم، مفترضة طاعته ولى الأمر فبقى خمسة أعوام وتسعة أشهر خليفة مطاعًا، ظاهر الأمر، ساكنًا بالكوفة، مالكًا للدنيا، حاشا الشّام ومصر والفرات، والقرآن يقرأ فى المساجد وفى كل مكان، وهو يؤم الناس به، والمصاحف معه وبين يديه، فلو رأى فيه تبديلاً كما تقول الرَّافضة أكان يقرّهم على ذلك. .؟

ثم ولى ابنه الحسن رضي الله عنه، وهم عندهم كأبيه فجرى على ذلك. كيف يسوغ لهؤلاء النوكى أن يقولوا: إنّ فى المصحف حرفًا زائدًا أو ناقصًا أو مبدَّلاً مع هذا. .؟ ولقد كان جهاد من حرَّف القرآن، وبدّل الإِسلام، أوْكَدَ عليه من قتال أهل الشام الذين إنّما خالفوه فى رأى يسير رأوه، ورأى خلافه فقط، فلاح كذب الرّافضة، ببرهانٍ لا محيد عنه. والحمد لله رب العالمين.

وجوه نقل المسلمين لكتابهم ودينهم

قَالَ أبو محمَّدٍ: ونحن إن شاء الله تعالى نذكر صفة وجوه النقل الذى عند المسلمين لكتابهم ودينهم، ثم لما نقلوه عن أئمتهم حتّى يقف عليه المؤمن والكافر والعالم والجاهل عيانًا إن شاء الله تعالى فيعرفون أين نَقْلُ سائرِ الأديان من نقلهم، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إنَّ نقل المسلمين لكلٍّ ما ذكرنا ينقسم أقسامًا ستة:

أولها: شيء ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلاً جيلاً، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر، منصف غير معاند للمشاهدة، وهو القرآن المكتوب فى المصاحف فى شرق الأرض وغربها لا يشكُّون ولا يختلفون فى أنَّ محمدًا بن عبد الله بن عبدالمطلب أتى به، وأخبر أن الله عزَّ وجل أوحى به إليه، وأنَّ من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا. ومن ذلك الصلوات الخمس، فإنه لا يختلف مؤمن ولا كافر، ولا يشك أحد فى أنَّه صلاَّها بأصحابه كلَّ يوم وليلة فى أوقاتها المعهودة

وصلاَّها كذلك كلُّ من اتبعـه على دينه حيث كانوا كل يوم هكذا إلى اليوم، لا يشك أحدٌ فى أنَّ أهل السند يصلّونها كما يُصليـها أهل الأندلس، وأن أهل أرمينية يصلّونها كما يصليـها أهل اليمن، وكصيام شـهر رمضان فإنه لا يختلف كـافر ولا مؤمن، ولا يشك أحدٌ فى أنه صـامه رسول الله ﷺ، وصامـه معه كل من اتبـعه فى كل بلد كلَّ عام ثم كذلك جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، وكالحج فإنه لا يختلف مؤمن ولا كافر ولا يشك أحـدٌ فى أنه عليـه السـلام حج مـع أصـحابـه، وأقام مـناسك الحج، ثم حجَّ المسلمون من كل أفق من الآفاق كل عـام فى شهر واحد معروف إلى اليـوم، وكجملة الزكاة، وكـسائر الشرائع، التى فى القرآن مـن تحريم القرائب والميتـة والخنزير، وسائر شرائع الإسلام وكآياته من شق القـمر، ودعاء اليهود إلى تمنّى الموت[1]، وسائر ما هو فى نصّ القرآن مـقروء ومنقول، وليس عند اليهـود، ولا عند النصارى من هذا النقل شىء أصلاً، لأنّ نقلهم لشريعة السبت وسائر شرائعـهم إنما يرجعون فيها إلى التوراة. ويقطع عن نقل ذلك ونقل التوراة إطباقهم أن أوائلهم كفروا بأجمعهم، وبرئوا من دين موسى عليه السلام، وعبدوا الأوثان علانية دهوراً طوالاً، ومن الباطل المحال أن يكون ملك كافر عابد أوثان وأمته كلّها معه، كذلك يقتلون الأنبياء ويخنقونهم، ويقتلون من دعا إلى الله عـز وجل، يشتغـلون بسـبـت أو بشريعـة مضـافـة إلى الله تعـالى، هـذا الكذب الذى لا شك فيه.

ويقطع النصـارى عن مثل هذا عـدم نقلهم إلاَّ عن خـمسة رجـال فقط قـد وضح الكذب عليـهم إلى مـا أوضحنا من الـكذب الذى فى التوراة وفـى الإنجيل القـاضى بتبديلهما بلا شك.

والثاني: شيء نقلته الكافّة عن مـثلها عن مثلها حتى يبلغ الأمر كذلك إلى رسول الله ﷺ، ككثـير من آياته ومـعجـزاته التى ظهرت يوم الخندق، وفى تـبوك بحـضرة الجيش. وككثـير من مناسك الحج، وكزكاة التـمر والبُرِّ والشعـير، والورق[2] والإبل والذّهب والبقر والغنم، ومعـاملته أهل خيبر، وغير ذلك كثيـر مما يخفى على العامّة، وإنما يعرفه كـوافّ أهل العلم فقط، وليس عند اليهـود والنصارى من هذا النقل شيء

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة خـالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: ٩٤]، وكـذلك في سورة الجمعة: ﴿يا أيها الذين هادوا إن زعـمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ [الجمعة: ٦].

(٢) الورق: الفضة، مضروبة كانت أو غير مضروبة (ج) أوراق، ووراق. الوسيط (١/ ١٠٢٦).

أصلاً، لأنه يقطع بهم دونه ما قطع بهم دون النقل الذى ذكرنا قبل من إطباقهم على الكفر الدّهور الطوال، وعدم اتصال الكافة إلى عيسى عليه السلام.

والثالث: ما نقله الثقة كذلك حتى يبلغ به إلى النبى ﷺ، يخبر كل واحد منهم باسم الذى أخبر عنه ونَسبه، وكلُّهم معروف الحال والعين، والعدالة والزمان والمكان، على أن أكثر ما جاء هذا المجيء فإنه منقولٌ نقل الكواف إلى رسول الله ﷺ من طرق جماعة من الصحابة ﷺ، وإمّا إلى الصاحب وإمّا إلى التّابع، وإمّا إلى إمام أخذ عن التابع، يعرف ذلك من كان من أهل المعرفة بهذا الشأن، والحمد لله رب العالمين.

وهذا نقل خصَّ الله عزَّ وجل به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وأبقاه عندهم غضًّا جديدًا على قديم الدّهور مذ أربعمائة عام وخمسين عامًا فى المشرق والمغرب والجنوب والشمال يرحل فى طلبه من لا يُحصِى عددَهم إلاَّ خالقهُم، إلى الآفاق البعيدة، ويواظب على تقييده من كان من الناقلِ قريبًا منه، قد تولّى الله تعالى حفظه عليهم، والحمد لله رب العالمين، فلا تفوتهم زلة فى كلمة فما فوقها فى شيء من النقل إن وقعت لأحدهم، ولا يمكن لفاسق أن يقحم فيه كلمة موضوعة، ولله تعالى الشكر.

وهذه الأقسام الثلاثة هى التى نأخذ ديننا منها، ولا نتعدَّاها إلى غيرها، والحمد لله رب العالمين.

والرابع: شيء نقله أهل المشرق والمغرب أو الكافة أو الواحد الثقة عن أمثالهم إلى أن يَبلغ إلى من ليس بينه وبين النبى ﷺ إلاَّ واحد فأكثر، فسكت ذلك المبلوغ إليه عن من أخبره بتلك الشريعة عن النبى ﷺ، فلم يُعرف من هو، فهذا نوع يأخذ به كثير من المسلمين، ولسنا نأخذ به ألبتة، ولا نضيفه إلى النبى ﷺ إذ لم يُعرف من حدَّث به عن النبى ﷺ وقد يكون غير ثقة، ويعلم منه غير الذى روى عنه ما لم يعرف منه الذى روى عنه. ومن هذا النوع كثير من نقل اليهود، بل هو أعلى ما عندهم، إلاَّ أنهم لا يقربون فيه من موسى عليه السلام كقربنا فيه من محمد ﷺ، بل يقفون ولا بدَّ حيث بينهم وبين موسى عليه السلام أزيد من ثلاثين عصرًا، فى أزيد من ألف وخمسمائة عام، وإنما يبلغون بالنقل إلى هلال، وشماى، وشمعون، ومرعقيبا، وأمثالهم، وأظن أن لهم مسألة واحدة فقط يروونها عن حبر من أحبارهم عن نبيٍّ من متأخرى أنبيائهم، أخذها عنه مشافهة فى نكاح الرَّجل ابنته إذا مات عنها أخوه.

وأمّا النصارى: فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطّلاق وحده فقط على أنّ مخرجه من كذّاب قد صح كذبه.

والخامس: شيء نقل كما ذكرنا، إما بنقل أهل المشرق والمغرب، أو كافة عن كافة، أو ثقة عن ثقـة حتى يبلغ إلى النبى ﷺ إلاّ أن فى الطريق رجلاً مـجروحًا يكذب أو غفلة، أو مجهول الحال، فهذا أيضًا يقول به بعض المسلمين، ولا يحل عندنا القول به ولا تصديقه، ولا الأخـذ بشىء منه، وهذه صفة نقل اليهـود والنّصارى فيمـا أضافوه إلى أنبيائهم لأنه يقطع بكفرهم بلا شك ولا مرية.

والسادس: نقلٌ نُقِلَ بأحد الوجوه التى قدّمـنا، إما بنقل من بين المشرق والمغرب أو بالكافة، أو بالثقة عن الثقة، حـتى يبلغ ذلك إلى صاحب أو تابع، أو إمام دونهما أنه قال كذا، أو حكم بكذا غير مضاف ذلك إلى رسول الله ﷺ كفعل أبى بكر رضي الله عنه فى سبى أهل الردّة، وكصلاة الجمعة صدر النهـار، وكضرب عمر رضي الله عنه الخراج، وإضعافه القيمة على رقيق حاطب وغير ذلك كثير جدًا.

فمن المسلـمين من يأخذ بهذا. ومنـهم من لا يأخذ به، ونحن لا نأخـذ به أصلاً، لأنـه لا حجة فى فـعل أحد دون من أمرنا الله تعالى باتباعـه وأرسله إلينا ببيان دينه، ولا يخلو فاضل من وَهْـمٍ، ولا حجة فيما يَهِم، ولا يأتى الوحى ببيان وهمه.

وهذا الصنف من النقل هو صفـة جميع نقل النصارى واليهـود لشرائعهم التى هم عليها الآن ممّا ليس فى التـوراة، وهو صفة جميع نقل النصارى حـاشا تحريم الطلاق، إلاّ أن اليهـود لا يمكنهم أن يبلغـوا فى ذلك إلى صاحب نبىٍّ أصـلاً، ولا إلى تابع له وأعلى من يقف عنده النّصارى «شمعون» ثم «بولس» ثم أساقفتهم عصراً عصراً.

هذا أمر لا يقدر أحدٌ منهم على إنكاره، ولا إنكار شئ منه، إلاّ أن يّدعى أحدٌ منهم كذباً من يطمع فى تجـويزه عليه ممن يظن به جهلاً بما عنده فـقط، وأما إذا قررهم على ذلك من يدرون أنه يعرف كتبهم، فلا سبيل لهم إلى إنكاره أصلاً. وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: ونقل القرآن وما فيه من إعلام النبى ﷺ كالإنذار بالغيوب، وشق القمـر، ودعاء اليهود إلى تمنّى الموت، والنصـارى إلى المباهلة [1]، وجميع العرب إلى

---

(١) قال المفسرون: لما أورد رسول الله ﷺ الدلائل على نصارى نجران ثم أنهم أصروا على جهلهم قال: إن الله أمرنـي إن لم تقبلوا الحـجة أن أباهلكم، فـقالوا: يا أبا الـقاسم بل نرجع فننظر فى أمـرنا ثم نأتيك، فلما رجعوا قالوا للعاقب، وكان ذا رأيهم: =

المجئ بمثل القرآن، وتوبيخهم بالعجز عنه، وتوبيخ اليهود بأنهم لا يتمنّون الموت، وقصة الطير الأبابيل، ورميها أصحاب الفيل بحجارة من سجيل وكثير من الشرائع، وكثير من السنن فإنه نُقل كل ذلك عن اليماني والمضرى، والربعى، والقضاعى، وكلهم أعداد متباينون متحاربون يقتل بعضهم بعضاً، ليس هنالك شئ يدعوهم إلى المسامحة فى نقلهم له، ثم نقله عن هؤلاء من بين المشرق والمغرب، وكانت العرب بلا خلاف قومًا لَقاحًا[(١)] لا يملكهم أحد كمضر[(٢)] وربيعة[(٣)]، وإياد[(٤)]، وقضاعة[(٥)]، أو ملوكًا فى بلادهم يتوارثون الملك كابرًا عن كابر كملوك اليمن وعمان، وشهر بن باذام ملك صنعاء والمنذر بن ساوى ملك البحرين[(٦)] والنجاشى ملك الحبشة، وجيفر وعباد[(٧)] ابنى الجلندى ملكى عمان، فانقادوا كلهم لظهور الحق وبهوره، وآمنوا به عليه السلام طوعًا وهم آلاف آلاف، وصاروا إخوة كبنى أب وأم، وانحلّ كّل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسله طوعًا بلا خلاف غزو ولا إعطاء مال، ولا يطمع فى عزٍّ بل كلهم أقوى جيشًا من جيشه، وأكثر مالاً وسلاحًا منه، وأوسع بلدًا من بلده «كذي الكلاع» وكان ملكًا متوّجًا ابن ملوك متوّجين، تسجد له جميع رعيته، يركب أمامه ألف عبد من عبيده سوى بنى عمه من حمير، وذى ظليم، وذود وذى مران، وذى عمرو، وغيرهم كلهم ملوك متوجون فى بلادهم، هذا كله أمر لا يجهله أحد

= يا عبد المسيح ما ترى قال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالكلام الفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيًا قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لكان الاستئصال، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم .... (تحفة الأحوذي ٨/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(١) لقاح: أي لم يحصل لهم سباء في الجاهلية الوسيط (٢/ ٨٣٤).

(٢) ديار مضر: ومضر بالضاد المعجمة وهي ما كان من السهل يقرب من شرقي الفرات نحو حران والرقة وشمشاط وسروج وتل موزن (معجم البلدان ٢/ ٤٩٤).

(٣) ديار ربيعة: وسميت كلها ديار ربيعة لأنهم كلهم ربيعة، وهذا اسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحله قبل الإسلام في بواديه واسم الجزيرة يشمل كل.

(٤) قبيلة تنسب إلى إياد بن نزار معجم البلدان (١/ ٢٣٦).

(٥) قضاعة: بضم القاف، والضاد معجمة قرية من نواحي بغداد قريبة من شهر أبان من نواحي الخالص ينسب إليها أبو إسحاق إبراهيم بن محاسن ... قضاعى ... معجم البلدان (٤/ ٣٦٢).

(٦) المنذر بن ساوى ملك البحرين، وكان رسول الله ﷺ وقد بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ثم ولاه على البحرين إذ فتحها الله عليه ... تهذيب الكمال (٢٢/ ٤٨٤).

(٧) ثم بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد لنبي الجليد بن بعمان فصدقا بالنبي ﷺ واقرأ بما جاء به وصدق عمرو بن العاص ... الثقات (٢/ ٣٠).

من حملة الأخبار، بل هو منقول كنقل كون بلادهم فى مواضعها، وهكذا كان إسلام جميع العـرب، وأولهم الأوس والخزرج، ثم سائرهم قبيلة قـبيلة، لما ثبت عندهم من آياته، وبهرهم من معجزاته، وما اتبعه الأوس والخزرج إلا وهو شريد طريد، قد نابذه قومه حسـدًا له، إذ كان فقيراً لا مال له، يتـيمًا لا أب له ولا أخ له، ولا ابن أخ ولا ولد، أميًا لا يقرأ ولا يكتب، نشأ فى بلاد الجهل، يرعى غنم قومه بأجرة يتقّوت بها، فعلّمه الله تعالى الحكمة دون معـلم، وعصمه من كل من أراده بلا حرس ولا حاجب ولا بوّاب، ولا قصر يمتنع فيـه على كثرة من أراد قتله من شجعان العـرب وفُتّاكهم، كعامـر بن الطفيل[1]، وأربد بن [قيس] بن جـزء، وغورث بن الحارث، وغـيرهم مع إقرار أعدائه بنبوته كمسيلمة وسـجاح وطليحة، والأسود، وهو مكّذب لهم، فهل بعد هذا برهان أو بعد هذه الكفـاية من الله تعالى كفاية..؟ وهو لا يبـغي دُنْيا، ولا يمنّى بها من اتبعه بل أنذر الأنصار بالأثرة عليهم بعده، وبايعوه على الصبر على ذلك، قام له أصحـابه على قدم فـمنعهم وأنكر ذلـك عليهم، وأعلمـهم أن القيام لله تـعالى لا لخلقه، ورضوا بالسجود له فـاستعظم ذلك وأنكره إلا لله وحده، ولا شك فى أن هذه ليست صـفة طالب دنيـا أصلاً، ولا صفـة راغب فى غلبة، أو بُعـد صيت، بل هذه حقيقة الـنبوة الخالصة لمن كان له أدنى فهم، فهذا هو الحق لا مـا تدعيه النصارى من الكذب البحت، فى أن الملوك دخلوا دينهم طوعـا، وقد كذبوا فى ذلك لأن أول ملك تنصر «قسطنطين» باني القسطنطينية بعد نحو ثلاثمائة عام من رفع المسيح عليه السلام، فأىّ مـعجزة صحّـت عنده بعد هذه المدّة، وإنما نصرّته أمّـه لأنها كانت نصـرانية بنت نصرانى تعشّقها أبوه فتزوجها، هذا أمر لا تناكر بين النّصارى فيه، والنشأة لا خفاء بما تؤثّره فى الإنسان، وأمّا من اتّبع النبىّ ﷺ فإنهم اتبعوه إذ بلغهم خبره فى حياته عليه السـلام للآيات التى كانت له بحـضرة جـميع أصـحابه كـإعجـاز القرآن، وانشـقاق القمـر، ودعاء اليهود إلى تمنّى الموت وإخـبارهم بعجـزهم عن ذلك، وأنّهم لا يتمنونه أصلاً، والإنذار بالغيوب، ونـبعان عين تبوك[2]، فهى كذلك إلى اليـوم، ونبعان الماء من بين أصابعـه بحضرة العـسكر، وإطعامه النفـر الكثير من طعـام يسير مراراً جـمّةً

---

(١) عن سلمة بن الأكوع قال: لم يدخل عـامر بن الطفيل المدينة إلا بأمان النبي ﷺ قال: يا عامر أسلم تسلم قال: نعم على أن لي الوبر ولك المدر قال: لا قال أذهب حتى ننظر إلى الغد فقال للأنصار ما ترون قالوا ما شاء الله ثم ما شئت، قال ثم أتي عامر قال: يأبى الله عليّ ذلك، قال عامر لأفعلن ثم ولى، فقال: اللهم اكفنيه، فرماه الله بالذبحة فهلك. التاريخ الكبير (٨/ ٣٢٦).

(٢) انظر تهذيب الكمال (٥/ ٥٠٤)، ومجمع الزوائد (١/ ١١١) ومختصر سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٠).

بحضـرة الجموع وإخبـاره بأكل الأرضة[١] كل ما فى الصحـيفة على بنى هاشم وبنى المطلب حـاشا أسمـاء الله تعالى فـقط، وإنذاره بمصارع أهـل بدر بحضـرة الجيش[٢] موضعًا موضعًـا، وبالنور الواقع فى سوط الطفيل بن عمرو الدّوسى[٣]، وحنين الجذع بحضـرة جميعـهم، ودفع أربد عنه، وقضاء غرمـاء جابر[٤]، وتزويد عمر أربـعمائة راكب من تمر يسير بقى بجنبه، ورميه هوازن بتراب عمَّ عيونهم[٥]، وخروجه بحضرة مائة من قـريس، وهم لا يرونه[٦]، ودخول الغـار، وهم لا يرونه، وفتح الـباب فى حجر صلد فى جنب الغار لم يكن قط فيه، ولو كـان هنالك يومئذ لما أمكنه الاختفاء فيه لأنه ليس بين البابين إلا أقل من ثمـانية أذرع، وهو ظاهر إلى اليوم، كل عام وكل حين يزوره أهل الأرض من المسلمين، ولو رام فـتح الباب الثانى فى ذلك الحـجر أهل الأرض ما قدروا على إزاحته سالمًا عـن مكانه، ولو كان ذلك الباب هنالك حينئذ لرآه الطالبون له بلا مـؤونة، ولأنهم لم يكونوا إلاَّ جمع قريش لعلهم مؤون كـثيرة، وآثار رأسه المقدس فى ذلك الحجر، وآثار كتفه ومعصمه وظاهر يده باق إلى اليوم، فعل الله تعالى، نقل الكواف جيلاً عن جيل.

---

(١) إن الله برحمـته أرسل على صـحيـفة قـريش الأرضة فلم تدع اسـمًا لله إلا أكلتـه وبقي فيهـا الظلم والقطيعة والبهتان وأخبر بذلك رسوله وأخبر به رسول الله ﷺ أبا طالب واستنصر به أبو طالب على قومه . . . سنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٣٦٥).

وفي رواية أخرى: فأرسل الله عليـها الأرضة فأكلت ما فـيها من الكفر وتركت ما فيها من ذكر الله تعالى . . . عون المعبود (٥/ ٣٤٢).

(٢) روى مسلم في صحـيحه من حديث عمـر بن الخطاب أنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مـصرع فلان إن شاء الله قال فقـال عمر: فوالذي بعـثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ قال: فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق . . . صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٢) ح (٢٨٧٣).

(٣) صاحب النبي ﷺ كان سيـدًا مطاعًا من أشراف العرب ودوس بطن من الأزد وكـان الطفيل يلقب ذا النور أسلم قبل الهجرة بمكة . . . . انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣٤٤).

(٤) روى البخاري في صحيحـه من حديث جابر ﷺ أن أباه توفى وعليه دين فأتيت النبي ﷺ فقلت إن أبي ترك عليه دينًا وليس عندي إلا ما يخرج نخله ولا يبلغ ما يخـرج سنين ما عليه فانطلق معي لكي لا يفحش على الغرماء فمشى حول بيدر من بيادر التـمر فدعا ثم آخر ثم جلس عليه، فقال: انزعوه فأوفـاهم الذي لهم وبقى مثل مـا أعطاهم . . صحيـح البخاري (٣/ ١٣١٢)، ح (٣٣٨٧)، وسـير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٧).

(٥) انظر مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١٨٣)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٠٢) ح (٣٩٧٨).

(٦) انظر مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٩).

ورمى الجمار الذى رمـيه ما لا يحصـيه إلاَّ تعالى كل عـام ثم لا يزيد حـجمه فى ذلك المكان.

ورمى الله تعالى جـيش أبرهة صاحب الفيل إذ غزا مكة عـام مولده ﷺ بالحجارة المنكرة بأيدى طيـر منكرة، ونزلت فى ذلك سورة من القـرآن مَتْلُوَّة إلى اليـوم، وكان ذلك ببـركته علـيه السلام وإنذاراتـه، وشكوى البعـير[1] إليه، وإبراء عـينى علىٍّ من الرّمد[2] بحضرة الجـماعات فى ساعة. وسـوخ قوائم فرس سراقـة إذْ تبعه[3] ودرور الشاه التى لا لبن لهـا مراراً[4]، وتسبيح الطـعام، وكلام الذّئب[5] ومجـيئـه، وقوله للحكم إذ حكى مِشيته كن كذلك، فلم يزل يرتعش إلى أن مات، ودعاؤه للمطر فأتى للوقت وفى الصحـو فانجلى للوقت[6]. وظهور جـبريل عليـه السلام مـرتين مرة فى

---

(١) روى الدارمي في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى دفعنا إلى حائط بني النجار فإذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه فذكروا ذلك للنبي ﷺ فأتاه فدعاه فجاء واضعًا مشفره على الأرض حتى برك بين يديه فقال: هاتوا خطاما فخطمه ودفعه إلى صاحبه ثم التفت فقال: «ما بين السماء إلى الأرض أحد إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس» سنن الدارمي (١/ ٢٤) ح (١٨)، وأحمد في مسنده (٣/ ٣١٠) ح (١٤٣٧٢).

(٢) روى الطبراني في المعجم الكبير من حديث سلمة بن الأكوع أن رسول الله ﷺ . . . فقال لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار فدعا علي بن أبي طالب ﷺ وهو أرمد فتفل في عينيه ثم قال خذ هذه الراية حتى يفتح الله لك، قال سلمة: فخرج والله يهرول هرولة وأنا خلفه أتبع أثره . . . (المعجم الكبير ٧/ ٢٥)، ومسند الروياني ٢/ ٢٦٢.

(٣) انظر مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٤-٣) وانظر المعجم الكبير للطبراني (٧/ ١٣٣) ح (٦٦٠٢)، وفتح الباري (٧/ ٢٤١).

(٤) روى أحمد في مسنده من حديث ابن مسعود أنه قال: كنت غلامًا يافعًا أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط فجاء النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ . . . فقالا يا غلام هل عندك من لبن تسقينا قلت: إني مؤتمن ولست ساقيكما فقال النبي ﷺ هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل قلت نعم، فأتيتهما بها فاعتقلها النبي ﷺ ومسح الضرع ودعا فحفل الضرع ثم أتاه أبو بكر ﷺ بصخرة منقعرة فاحتلب فيها . . . (المسند ١/ ٤٦٢) ح (٤٤١٢).

(٥) روى الهيثمي في مجمع الزوائد من حديث أبي سعيد الخدري قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبها الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقًا ساقه الله عز وجل إلي فقال يا عجبًا، ذئب مقعي على ذنبه يكلمني بكلام الإنس، فقال: ألا أخبرك بأعجب من ذلك محمد ﷺ بيثرب . . . مجمع الزوائد (٨/ ٢٩١).

(٦) روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك (١/ ٣٤٩) ح (٩٨٦) قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ فبينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة، قام أعرابي فقال يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا أن يسقينا قال: رفع رسول الله ﷺ يديه وما في السماء قزعة قال فثار سحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته . . .».

صورة دحية، ثم أتى دحية بحضرة الناس، وأخرى فى صفة رجل لم يعرفه أحد، ولا رُئى بعدها. وقوله إذ خطب بنت الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرّى فقال له أبوها: إنَّ بها بياضًا فقال: لتكن كذلك فبرصت فى الوقت، وهى أم شبيب بن البرصاء الشاعر المشهور، وغير هذا كثير جداً.

ومع ما ذكرنا من أن أوّل من تَنَصَّر من الملوك فقسطنطين بعد نحو ثلاثمائة سنة من رفع المسيح عليه السلام، فوالله ما قدر على إظهار النصرانية حتى رحل عن رومة مسيرة شهر، وبنى بزنطية وهى القسطنطينية، ثم أجبر الناس على النصرانية بالسيف والعطاء وكان من عهوده المحفوظة إلاّ يولى ولاية إلا من تنصر والناس سراع إلى الدنيا، نافرون عن الأذى، وكان مع هذا كله على مذهب آريوس لا على التثليث، ولكن هذا من دعوى النصارى وكذبهم، مضاف إلى ما يدّعونه من أنهم بعد هذه المدة الطويلة، وبعد خراب بيت المقدس مرة بعد مرة، وبقائه خرابًا لا ساكن فيه نحو مائتى عام وسبعين عامًا، وجدوا الشوك الذى وضع على رأس المسيح بزعمهم، والمسامير التى ضربت فى يديه، والدّم الذى طار من جنبه، والخشبة التى صلب عليها، فلا أدرى ممّن العجب؟!! ممن اخترع مثل هذه الكذبة الغثّة المفضوحة، أم ممن قَبلها وصدّق بها، ودان باعتقادها، وصلّب وجهه للحديث بها؟! ليت شعرى أين بقى ذلك الشوك وذلك الدَّم سالمين وتلك المسامير، وتلك الخشبة طول تلك المدة؟ وأهل ذلك الدّين مطرودون مقتولون كقتل من تستّر بالزّندقة اليوم، وتلك المدينة خراب يباب الدّهورَ الطوال، لا يسكنها أحد إلا السباع والوحش، وقد شاهدنا ملوكًا جلّةً لهم الأتباع والأولاد والشيع والأقارب، صُلبوا فما مضت إلاّ مدة يسيرة حتى لم يبق لتلك الخشب أثر، فكيف بأمر من لا طالب له، وبدول قد انقطعت، وبلاد قد أقفرت وخلت ونُسيت أخبارها؟!

وهذه البردة التى كانت للنبى ﷺ، والقصعة والسيف على أن الدَّولة متّصلة لم تنخرم منذ حينئذ، والحمد لله رب العالمين، قد دخلت الدَّاخلة فى القصعة والسيف، حتى لا يقين فيهما عندنا اليوم، ولولا تداول الخلفاء للباس البرد أبدًا أبدًا فنقل أمرها جيلاً بعد جيل، والمنبر كذلك لما قطعنا عليهما، ولكن التداول لهما أمّة بعد أمة وهما قائمان ظاهران للناس، هو أوجب اليقين بهما، ورفع الشك فيهما، وكذلك كل ما جرى هذا المجرى. ثم لم يلبث دين النّصارى أن مات قسطنطين أول من تنصر من ملوك الدنيا، ثم مات ابنه قسطنطين بن قسطنطين، وولى مَلكٌ ترك النّصرانية، ورجع إلى

عبادة الأوثان إلى أن مات، ثم ولى رجل من أقارب قسطنطين فرجع إلى النصرانية.

وأمّا ديانة اليهود فما صفت فيها نيات بنى إسرائيل، وموسى عليه السلام حيىٌّ بين أظهرهم، وما زالوا مائلين إلى إظهار عبادة الأوثان، ثم تكذيبهم كلهم بالشريعة، التى أتاهم بها بعد موته عليه السلام طبقة بعد طبقة إلى انقطاع دولتهم، فكيف أن يتبعه غيرهم..؟!!

قال أبو محمد: وبرهان ضرورى لمن تدبَّره، حِسِّىٌّ لا محيد عنه، وهو أنه لا خلاف بين أحد من اليهود والنصارى وسائر الملل فى أن بنى إسرائيل كانوا فى مصر فى أشدِّ عذاب يمكن أن يكون من ذبح أولادهم، وتسخيرهم فى علم الطوب بالضرب العظيم، والذّل الذى لا يصبر عليه كلب مطلق، فأتاهم موسى عليه السلام يدعوهم إلى فراق هذا الأسر الذى قتل النفس أخف منه، وإلى الحرية، والملك، والغلبة والأمن، ومضمون ممن هو فى أقل من تلك الحال أن يسارع إلى كل من طمع على يديه بالفرج، وإن يستجيب له إلى كل ما دعاه إليه، وأن أكثر من فى هذا البلاء يستجيز عبادة من أخرجه منه لا سيما إلى العز والحرمة، وكانوا أيضًا أهل عسكر مجتمع، وبنى عمٍّ يمكن منهم التواطؤ، ثم كانوا أهل بلد صغير جداً قد تكنَّفهم الأعداء من كل جانب.

وأما عيسى عليه السلام فما اتبعه إلا نحو اثنى عشر رجلاً معروفين ونساء قليل، وعدد لا يبلغ جميعهم وفى جملتهم الاثنى عشر إلاّ مائة وعشرين فقط هكذا فى نصّ إنجيلهم، وكانوا مشردين مطرودين غير ظاهرين، ولا يقوم بمثل هذا ضرورة يقينُ العلم.

وأمَّا محمدٌ ﷺ: فلا يختلف أحد فى شرق الأرض وغربها فى أنه عليه السلام أتى إلى قوم لقاح لا يقرّون بملك، ولا يطيعون لأحد ولا ينقادون لرئيس له نشأ على هذا آباؤهم وأجدادهم وأسلافهم منذ ألوف من الأعوام، قد سرى الفخر، والعزّ، والنخوة، والكبر، والظلم، والأنفة، فى طباعهم وهم أعداد عظيمة قد ملأوا جزيرة العرب، وهى نحو شهرين فى شهرين، قد صارت طباعهم طباع السباع، وهم ألوف الألوف؛ قبائل وعشائر يتعصب بعضهم لبعض أبدًا، فدعاهم بلا مال ولا أتباع، بل خذله قومه إلى أن ينحطوا من ذلك العز إلى غرم الزكاة، ومن الحرّية والظلم إلى جرى الأحكام عليهم، ومن طول الأيدى بقتل من أحبوا، وأخذ مال من أحبّوا إلى

القصاص من النفس. ومن قطع الأعضاء، ومن اللطمة من أَجَلٍ من فيهم لأقل علج غريب دخل فيهم، وإلى إسقاط الأنفة والفخر، إلى ضرب الظهور بالسياط أو بالنّعال إن شربوا خمرًا، أو قذفوا إنسانًا، وإلى الضرب بالسياط والرّجم بالحجارة إلى أن يموتوا إن زنوا.

فانقاد أكثرهم لكل ذلك طوعًا بلا طمع ولا غلبة ولا خوف، وما منهم أحدٌ أخذ بغلبة إلا مكة وخيبر فقط، وما غزا قط غزوة يقاتل فيها إلا تسع غزوات، بعضها عليه، وبعضها له، فصحّ ضرورة أنّهم إنما آمنوا به طوعًا لا كرهًا، وتبدّلت طبائعهم بقدرة الله تعالى من الظلم إلى العدل، ومن الجهل إلى العلم، ومن العسف والقسوة إلى العدل العظيم الذى لم يبلغه أكابر الفلاسفة، وأسقطوا كلهم أولهم عن آخرهم طلب الثأر، وصحب منهم الرّجل قاتل أبيه وابنه، وأعدى الناس له، صحبة الإخوة المتحابين دون خوف يجمعهم، ولا رياسة يتفردون بها دون من أسلم من غيرهم، ولا مال يتعجلونه.

فقد علم الناس كيف كانت سيرة أبى بكر وعمر ﵄، وكيف كانت طاعة العرب لهما بلا رزق ولا عطاء ولا غلبة، فهل هذا إلاَّ بغلبة من الله تعالى على نفوسهم..؟ وقسره عزّ وجل لطباعهم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٦٣].

ثم بقى عليه السلام كذلك بين أظهرهم بلا حرس، ولا ديوان جند، ولا بيت مال محروسًا معصومًا، وهكذا نقلت آياته ومعجزاته، فإنّما يصح من أعلام الأنبياء عليهم السلام المذكورين ما نقله هو عليه السلام لصحة الطريق إليه، وارتفاع دواعى الكذب والعصبية جملة عن أتباعه فيه، فجمهورهم غرباء من غير قومه لم يعنّهم بدنيا، ولا وعليهم بملك، وهذا ما لا ينكره واحدٌ من الناس.

وأيضًا فإنَّ سيرة محمد ﷺ لمن تدبّرها تقتضى تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله حقًّا، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى، وذلك أنه عليه السلام نشأ كما قلنا فى بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب، ولا خرج عن تلك البلاد قط إلاَّ خرجتين، إحداهما: إلى الشام وهو صبيٌّ مع عمه إلى أرض الشام ورجع. والأخرى: أيضًا إلى أول أرض الشام، ولم يطل بها البقاء، ولا فارق قومه قط، ثم أوطأه الله تعالى على رقاب العرب كلّهم، فلم تتغيّر نفسه، ولا حالت سيرته إلى أن

مات، ودرعه مرهونــة فى شعير لقوت أهله أصواع ليـست بالكثيرة، ولم يبت قط فى ملكه درهم ولا دينار، وكان يأكل على الأرض ما وجـد، ويخصف نعله بيده، ويرقع ثوبه، ويؤثر على نفسه.

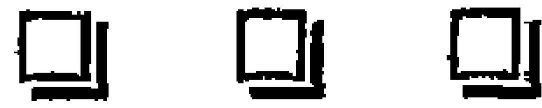
وقُتِل رجل من أفاضل أصحابه -وَفَقْدُ مِثْله يهدُّ عسكرًا- قتل بين أظهر أعدائه من اليـهود فلم يـتسـبب إلى أذى أعـدائه بذلك، إذ لم يوجب ربه تعـالى له ذلك، ولا توصل بذلك إلى دمـائهم، ولا إلى دم أحد منهم، ولا إلى أمـوالهم بل وداه من عند نفسه بمائة نـاقة، وهو فى تلك الحال محتـاّج إلى بعير واحد يتـقوّى به، وهذا أمر لا تسمح به نفس ملك من ملوك الأرض وأهل الدنيا، من أصـحاب بيوت الأموال بوجه من الوجوه، ولا يقتضى هذا أيضًا ظاهر السيرة والسياسة، فصحّ يقينًا بلا شك أنه إنما كان متّبعًا ما أمره بـه ربه عزّ وجل كان ذلك مُضِراًّ به فى دنياه غاية الإضرار أو كان غير مضرّ به.

وهذا عجب لمن تدبره. ثم حضرته المنية، وأيقن بالموت وله عمٌّ أخو أبيه هو أحب الناس إليـه، وابن عمٍّ هو من أخصّ الناس به، وهو أيضًـا زوج ابنتـه التى لا ولد له غيـرها، وله منها ابنان ذكـران وكلا الرجلين الذكـورين عمـه وابن عمه عنـدهما من الفضل فى الدين، والـسياسة فـي الدنيا، والبأس والحلم، وخـلال الخير مـا كان كل واحد منهمـا حقيقًا بسيـاسة العالم كله، فلم يحابهمـا، وهما من أشدّ الناس غناء به ومحبّة فيه، وهو من أحبّ الناس فيهما، إذ كان غـيرهما متقدمًا لهما فى الفضل وإن كان بعيد النسب منه.

بل فوّض الأمر إليه قاصدًا إلى أَمْرِ الحق، واتباع ما أمر به، ولم يورث ورثته؛ ابنته ونساءه وعمه فَلْسًا فمـا فوقه، وهم كلهم أحب الناس إليه، وأطوعهم له، وهذه أمور لمن تأملها كافـية مغنية فى أنه إنّمـا تصرّف بأمر الله عزّ وجل له، بسيـاسة لا بهوى، فوضح ما ذكرنا والحمد لله كثيرًا أن نبوة محمد ﷺ حق وأن شريعته التى أتى بها هى التى وضحت براهينها، واضطرت دلائلها إلى تصـديقها، والقطع على أنّها الحق الذى لا حقّ سواه، وأنّها ديـن الله تعالى الذى لا دين له فى العالم غيـره، والحمد لله رب العالمين عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عـرشه، ومداد كلماته، على ما وفقنا من الملّة الإسلامية، ثم على ما يسَّرَنا عليه من النّحلة الجماعية السنية، ثم على ما هدانا له من التدين، والعمل بظاهر القرآن وبظاهر السنن الثابتة عنه ﷺ عن باعثه عزّ وجل، ولم يجعلنا ممـن يقلد أسلافه وأخـباره، دون برهان قاطع، وحـجة قـاهرة، ولا ممن يتّبع

الأهواء المضلّلة، المخالفة لقوله، وقول نبيّه ﷺ، ولا ممن يحكم برأيه وظنه، دون هُدًى من الله ورسوله.

اللهمّ كما ابتدأتنا بهذه النعمة الجليلة فأتمها علينا، وأصحبنا إيّاها، ولا تخالف بنا عنها حتّى تقبضنا إليك ونحن متمسكون بها فنلقاك بها غير مبدّلين ولا مغيّرين اللهم آمين يا رب العالمين. وصلِّ اللّهم على محمد عبدك ورسولك، وخليلك، وخاتم أنبيائك خاصة، وعلى أنبيائك عامّة، وعلى ملائكتك كافة، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.



ذكر فصول يعترض بها جُهّال الملحدين على ضعفة المسلمين

قال أبو محمد: إنّا لما تدبرنا أمر طائفتين ممن شاهدنا فى زماننا هذا، وجدناهما قد تفاقم الداء بهما.

فأمّا إحـداهما: فقد جلت المصيـبة فيها وبها، وهم قـوم افتتحوا عنوان فـهمهم، وابتـداء دخولهم إلى المعارف بطلب علم الـعدد وبرهانه وطبـائعـه، ثم تدرجت إلى تعديل الكواكب وهيئة الأفلاك، وكيفية قطع الشمس والقمر والدرارى الخمسة وتقاطع فلكى النيرين، والكلام فى الأجرام العلوية، وفى الكواكب الثابتة وانتقالها، وأبعاد كل ذلك وأعظامه، وفـيما دون ذلك من الـطبيعـيات، وعوارض الجـو ومطالعة شيء من كتـب الأوائل وحدودها التى نصـبت فى الكلام، وما مـازج بعض ما ذكـرنا من آراء الفلاسـفة فى القضـاء بالنجوم، وأنها ناطقـة مدبّرة، وكذلك الفلك، فـأشرفت هذه الطائفة من أكثر ما طالعت مما ذكرنا على أشـياء صحاح براهينها ضرورية لائحة، ولم يكن معهـا من قوة المنة، وجودة القريحة، وصفـاء النظر ما تعلم به أن من أصاب فى عشرة آلاف مسـألة فجائز أن يخطىء فى مسألة واحدة، لعلهـا أسهل من المسائل التى أصاب فيها.

فلم تفرق هذه الطائفة بين ما صح مما طالعوه بحجة برهانية، وبين ما فى أثناء ذلك وتضاعيفة مما لم يأت عليه من ذكره من الأوائل، إلاّ بإقناع أو بشغب وربما بتقليد ليس معه شيء مما ذكرنا، فحـملوا كل ما أشرفوا عليه محملاً واحدًا، وقبلوه قـبولاً مستويًا فسرى فيهم العجب، وتداخلهم الزّهو، وظنّوا أنـهم قد حصلوا على مباينة العالم فى ذلك، وللشيطان موالج خفية، ومداخل لطيفة، كما قال رسول الله ﷺ: **«إنه يجرى من ابن آدم مجرى الدّم»**(١) فتوصل إليـهم من باب غامض نعوذ بالله منه، وهو أنهم

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٧١٧) ح (١٩٣٤) صحيح مسلم (٤/ ١٧١٢) ح (٢١٧٤)، والترمذي في السنن (٢/ ٤١١) ح (٢٧٨٢)، وابن ماجه في السنن (١/ ٥٦٦) ح (١٧٧٩)، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٨٥) ح (١٤٠٧٤) بلفظ: «يا فلان هذه فلانة زوجتي فقال الرجل يا رسول من كنت أظن به فإني لم أكن لأظن بك قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

كما ذكرنا أصفار من كل شيء، من علوم الديانة التى هى الغرض المقصود من كل ذى لب، والتى هى نتيجة العلوم التى طالعوا لو عقلوا سبلها ومقاصدها، فلم يعنوا بآية من كتاب الله عزّ وجل الذى هو جامع علوم الأولين والآخرين، والذى لم يفرّط فيه من شيء، والذى من فهمه كفاه، ولا بسنن من سنن رسول الله ﷺ التى هى بيان الحق ونور الألباب.

ولم تلق هذه الطائفة المذكورة من حملة الدّين إلاَّ أقوامًا لا عناية لهم بشيء مما قدمنا، وإنما عنيت من الشريعة بأحد ثلاثة أوجه:

إمَّا بألفاظ ينقلون ظاهرها ولا يعرفون معانيها، ولا يهتمون بفهمها:

وإمّا بمسائل من الأحكام لا يشتغلون بدلائلها ومنبعها، وإنما حسبهم منها ما أقاموا به جاههم وحالهم.

وإمَّا بخرافات منقولة عن كل ضعيف وكذاب وساقط، لم يهتبلوا قط بمعرفة صحيح منها من سقيم، ولا مرسل من مسند، ولا ما نقل عن النبى ﷺ مما نقل عن كعب الأحبار(١)، أو وهب بن منبه(٢) عن أهل الكتاب. فنظرت الطائفة الأولى من هذه الآخرة بعين الاستهجان والاحتقار والاستجهال، فتمكن الشيطان منهم، وحلّ فيهم حيث أحب، فهلكوا وضلّوا واعتقدوا أن دين الله تعالى لا يصح منه شيء ولا يقوم عليه دليل، فاعتقد أكثرهم الإلحاد والتعطيل، وسلك بعضهم طريق الاستخفاف والإهمال، واطراح نقل الشرائع، واستعمال الفرائض والعبادات، وآثروا الرّاحات وركوب اللذات من أنواع الفواحش المحرمات من الخمر والزنا واللياطة والبغاء، وترك

---

(١) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق: تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو الكتاب والسنة عن الصحابة. وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها، عن مائة وأربع سنين.

(الأعلام ٥/ ٢٢٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٤٩، وحلية الأولياء ٥/ ٣٦٤ ثم ٦/ ٣، والإصابة: ت٧٤٩٨).

(٢) وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني الذماري أبو عبد الله: مؤرخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرئيليات يعد في التابعين. ولد ومات بصنعاء وولا عمر بن عبد العزيز قضاءها . . .

من كتبه «ذكر الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم»، وله «قصص الأنبياء ـ خ» و«قصص الأخيار» ذكرهما صاحب كشف الظنون.

(الأعلام ٨/ ١٢٥ ـ ١٢٦) المعارف ٢٠٢ وشذرات الذهب ١/ ١٥٠، وفيات الأعيان ٢/ ١٨٠).

الصلاة والصيام، والزكاة والحج والغسل، وقصدوا كسب المال كيف تيسر، وظلم العباد واستعمال الأهزال، وترك الجد والتحقيق، وتدين الأقل منهم بتعظيم الكواكب، فأسفت نفس المسلم الناصح لهذه الملة وأهلها على هلاك هؤلاء المساكين، وخروجهم عن جملة المؤمنين، بعد أن غذوا بلبان الإسلام، ونشأوا فى حجور أهله، نسأل الله العصمة من الضلال لنا، ولأبنائنا ولكل إخواننا من المسلمين، ونسأله تدارك من زلت به قدمه، وهوت نعله، إنه على كل شيء قدير.

وأمَّا الطائفة الثانية: فهم قوم ابتدؤوا الطلب بحديث النبى ﷺ، فلم يزيدوا على طلب علوِّ الإسناد، وجمع الغرائب، دون أن يهتمُّوا بشيء مما كتبوا أو يعملوا به، وإنما يحملونه حملاً لا يزيدون على قراءته هذا دون تدبير معانيه، ودون أن يعلموا أنهم المخاطبون به، وأنه لم يأت هملاً، ولا قاله رسول الله ﷺ عبثًا، بل أمرنا بالتفقه فيه والعمل به، بل أكثر هذه الطائفة لا يعمل أكثرهم إلا ما جاء من طريق مقاتل بن سليمان[1]، والضحاك بن مزاحم[2]، وتفسير الكلبى[3]، وتلك الطبقة، وكتب البدى التى إنما هى خرافات موضوعة، وأكذوبات مفتعلة، ولّدها الزنادقة تدليسًا على الإسلام وأهله، فأطلقت هذه الطائفة كل اختلاط لا يصح: من أن الأرض على حوت، والحوت عل قرن ثور، والثور على صخرة، والصخرة على عاتق ملك، والملك على الظُّلة، والظلة على ما لا يعلمه إلاَّ الله عزَّ وجل.

---

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، أبو الحسن: من أعلام المفسرين. أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدث بها. وتوفى بالبصرة. كان متروك الحديث.
من كتبه «التفسير الكبير ـ خ» جزء منه، و«نوادر التفسير» و«الرد على القدرية» و«متشابه القرآن» و«الناسخ والمنسوخ» و«القراءات» و«الوجوه والنظائر». (الأعلام ٧/ ٢٨١، وفيات الأعيان ٢/ ١٢٢، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢٧٩، وميزان الاعتدال (٣/ ١٩٦).

(٢) الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم: مفسر. كان يؤدب الأطفال. ويقال: كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي. قال الذهبي: كان يطوف عليهم، على حمار! وذكره ابن حبيب تحت عنوان «أشراف المعلمين وفقهاؤهم» له كتاب في «التفسير» توفي بخراسان.
(الأعلام ٣/ ٢١٥، وميزان الاعتدال ١/ ٤٧١، وتاريخ الخميس ٢/ ٣١٨ والمحبر ٤٧٥، والعبر للذهبي ١/ ١٢٤).

(٣) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي، أبو النصر: نسابة، راويه، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب. من أهل الكوفة. مولده ووفاته فيها وهو من «كلب بن وبرة» من قضاعة.
وصنف كتابًا في «تفسير القرآن» وهو ضعيف الحديث، قال النسائي: حدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير، وأما في الحديث ففيه مناكير. (الأعلام ٦/ ١٣٣، تهذيب التهذيب ٩/ ١٧٨، وفيات الأعيان ١/ ٤٩٣، وميزان الاعتدال ٣/ ٦١).

وهذا يوجب أنَّ جرم العالم غير متناه، وهذا هو الكفر بعينه، فنافرت هذه الطائفة التى ذكرنا كل برهان، ولم يكن عندها أكثر من قولهم نُهينا عن الجدال!! فليت شعرى من نهاهم عنه؟!. والله عزَّ وجل يقول فى كتابه المنزل على نبيّه المرسل ﷺ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

وأخبر الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [سورة هود: ٣٢].

وقد نص تعالى فى غير موضع من كتابه على أصول البراهين، وقد نبهنا عليها فى غير ما موضع فى كتابنا هذا. وحض تعالى على التفكر فى خلق السماوات والأرض، ولا يصح الاعتبار فى خلقهما إلاَّ بمعرفة هيآتهما، وانتقال الكواكب فى أفلاكهما واختلاف حركاتها فى التغريب والتشريق، وأفلاك تداويرها، وتعارض فلك الأدوار على رتبة واحدة، وكذلك معرفة الدوائر، والمنطقة، والميل والاستواء، وكذلك معرفة الطبائع، وامتزاج العناصر الأربعة وعوارضها، وتركيب أعضاء الحيوان من عَصَبه وعَضَله وعظامه وعروقه وشرايينه، واتصال أعضائه بعضها ببعض، وقواه المركبة. فمن أشرف على ذلك وعَلِمَه، رأى عظيم القدرة، وتيقَّن أنَّ ذلك كله صنعة ظاهرة، وإرادة خالق قاصد مختار، لأن اختلاف تلك الحركات تضطر إلى المعرفة بأنَّ شيئًا منها لا يقوم بنفسه دون ممسك مدبّر لا إله إلا هو، ولا خالق سواه، ولا مدبّر حاشاه ولا فاعل مخترع إلا هو. ثم زاد قوم منهم فأتوا بالأفيكة التى تقشعرُّ منها الذوائب، وهى أن أطلقوا أنَّ الدِّين لا يؤخذ بحجة، فأقروا عيون الملحدين، وشهدوا أنَّ الدين لا يثبت إلا بالدَّعاوى والغلبة، وهذا خلاف قول الله عزَّ وجل: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٣٣].

هذا قول الله عزَّ وجل، وما جاء به نبيه ﷺ. وفى ذلك الكفاية والغناء عن قول كل قائل بعده.

وقد حاجّ ابن عباس الخوارج، وما علمنا أحدًا من الصحابة ﷺ، نهى عن الاحتجاج، فلا معنى لرأى من جاء بعدهم، فكان كلام هذه الطائفة مغريًا للطائفة الأولى بكفرها، ومغبطًا لهم بشركهم، إذ لم يروا فى خصومهم فى الأغلب إلاَّ من هذه صفته، ثم زادت هذه الطائفة الثانية غلواً فى الجنون فعابوا كتبًا لا معرفة لهم بها،

ولا طالعوا، ولا رأوا منها كلمـة، ولا قرؤوها، ولا أخبرهم عمّا فيـها ثقة، كالكتب التى فيهـا هيئة الأفلاك، ومجـارى النجوم، والكتب التى جمعـها «أرسطاطاليس» فى حدود الكلام.

قال أبو محمد: وهذه الكتب كلهـا سالمة مفـيدة، دالة على توحيـد الله عز وجل وقدرته، عظيمـة المنفعة فى انتقـاد جميع العلوم، وعظم منفعـة الكتب التى ذكرنا فى الحدود فى مسـائل الأحكام الشرعية فيهـا يتعرف كيف يتوصل إلى الاسـتنباط وكيف تؤخذ الألفاظ على مقـتضاها، وكيف يعرف الخاص من العـام، والمجمل من المفسر، وبناء الألفاظ بعضها على بعض. وكيف تقديم المقدمات وإنتاج النتائج، وما يصح من ذلك صحة ضـرورية أبدًا، وما يصح مرة ويبطل أخرى، وما لا يصح ألبـتة وضروب الحدود التي مـا شذّ عنهـا كان خارجًـا عن أصله، دليل الخطاب، ودليل الاسـتقراء، وبرهان الدَّور وغير ذلك مما لا غناء للفقيه المجتهد لدينه ولأهل ملته عنه.

قال أبو محمد: فلما رأينا عظيم المحنة فيمـا تولّد فى الطائفتين اللتين ذكرنا، رأينا من عظيم الأجر، وأفضـل العمل، بيان هذا الباب المشكل بحـول الله تعالى، وقدرته وتأييده، فنقول وبه عزّ وجل نتأيّد ونستعين:

إنّ كلّ ما صح ببرهان أىّ شيء كان فهـو في كلام الله عز وجل، وكلام النبي ﷺ منصوص مسطور يعلمه كل من أحكم النظر، وأيّده الله تعـالى بفهم، وأمّا كل ما عدا ذلك مما لا يصح ببـرهان وإنمـا هو إقناعٌ أو شـغب، فـالقـرآن وكـلام النبى ﷺ منه خاليان. والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: ومعـاذ الله أن يأتى كلام الله عز وجل، وكلام نبـيه ﷺ بما يبطله عيـان أو برهان، وإنما ينْسب هذا إلى القرآن والسـنة من لا يؤمنون بهمـا، ويسعى فى إبطالهما، ﴿ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ [سورة التوبة: ٣٢].

ولسنا من تفـسير الكلبى الـكذاب ومن جرى مجـراه فى شيء، ولا نحن من نقل المتّهـمين في شأن، إنما نـحتجُّ بما نقله الأئمـة الثّقـات والأثبات من رؤسـاء المحدثين مسندًا، فمن فتّش الحديث الصحيح وجد فيه كل ما قلنا، والحمد لله رب العالمين.

وإنما الباطـل ما ادّعتـه الطائفة الأولى من نطق الـكواكب وتدبيرها، وهذا كـفر لا حجة عندهم على ما قالوه منه أكثر من أن المحتجّ لهم قال:

لما كنا نعقل، وكانت النجوم تدبّرنا كانت أولى بالعقل منا. وهذا الذى ذكروه ليس

بشىء، لأن الكواكب وإن كان لها تأثير فى العالم ظاهر، فليس تأثيرها تأثير ملك واختيار، يدل على ذلك ما ذكرناه فى كتابنا هذا من الدلائل على أن الكواكب مضطرة لا مختارة، وإنما تأثيرها كتأثير النار بالإحراق، والماء بالتبريد، والسمّ بإفساد المزاج، والطعام بالتغذية، والفلفل بحذو[(١)] اللسان، والإهليلج[(٢)] بالقبض للفم، وما جرى هكذا من سائر ما فى العالم، وكل ذلك غير ناطق، والكواكب والأفلاك جارية هذا المجرى، لأن تأثيرها تأثير واحد لا يختلف، وحركتها حركة واحدة لا تختلف، وليس كذلك المختار.

وقد قال لى بعضهم وقد عارضته بهذا: إنَّ المختار الفاضل يلزم أفضل الحركات فلا يتعدّاها، وتلك الحركة الدّورية هى أفضل الحركات.

فقلت له: وما دليلك على أن أفضل الحركات الحركة الدورية؟ ومن أين صارت الحركة من شرق إلى غرب، أو من غرب إلى شرق، أفضل من جنوب إلى شمال، أو من شمال إلى جنوب؟

وكيف يكون عندكم أفضل الحركات والأفلاك الثمانية تنتقل من غرب إلى شرق؟ والتاسع من شرق إلى غرب، فأى هاتين الحركتين قلتم إنها أفضل عندكم وقد اختار الآخر الحركة التى ليست أفضل؟ فظهر فساد هذا القول بيقين.

وهذه دعاوى مجردة بلا برهان، وما كان هكذا فقد سقط، ولا فرق بينك وبين من قال: بل الحركة علواً أفضل أو على خط مستقيم سائرة وراجعة، ونحن نجد تلك الأجرام تسفل فى بعض ممراتها، وتشرف فى بعض، وتسقط فى بعض على قولهم، وتوافق بزعمهم ريح نحس مظلمة، وأخرى نيرة سعيدة، وبعض الأفلاك تقطع من غرب إلى شرق، وهو حركة جميعها إلاّ الأعلى منها فإنّه يتحرك من شرق إلى غرب، فليست هذه أفضل الحركات، فبطل قولهم والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: وكذلك ما ذكره من ذكر منهم من الكرور عند انتهاء آلاف من الأعوام ذكروها، وانتصاب الكواكب الثابتة على نصب مّا من قطعها لفلكها، فهذا

(١) حذا: النعل: حذيًا: قطعه، والشراب لسانه: قرصه فهو حاذ، والمفعول محذي، ويقال: حذا فلانًا بلسانه: عابه . . . الوسيط (١/ ١٦٣).

(٢) الإهليلج: شجر ينبت في الهند وكابل والصين، ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار، والإهليجي: المنسوب إلى الإهليلج أو المشبه لحبه في الشكل الوسيط (١/ ٣٢).

أيضًا كذب مـجرد، ودعوى ساقطة لا دليل عليـها، ولا يعجز عن مـثلها أحد، ولم يأتوا على شىء من ذلك بشغب ولا بإقناع كيف ببرهان، وإنما هـو تقليد لبعض قدماء الصابئين فـمثل هذه الحماقات هو الذى دفـعته الشريعـة الإسلامية وأبطلتـه، وأمّا ما قامت عليه البراهين فهو فى القرآن والسنة موجود نصًا واستدلالاً ضروريًا، والحمد لله رب العالمين.

مطلب بيان كروية الأرض

قال أبو محمد: وهذا حين نأخذ إن شاء الله تعالى فى ذكـر بعض ما اعترضوا به، وذلك أنهم قالوا: إنّ البراهين قد صحّت بأن الأرض كـروية والسماء كذلك، والعامة تقول غير ذلك، وجـوابنا وبالله تعالى التوفيق: أنَّ أحدًا من أئمة المسـلمين المستحقين لاسم الإمامـة بالعلم ﷺلم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحدٍ منهم فى دفـعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها.

قـال الله عـزّ وجل: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَـارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَـارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [سـورة الزمر: ٥].

وهذا أوضح بيان فى تكوير بعـضها على بعض، مـأخوذ من كور العمـامة، وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض ودوران الشمـس كذلك، وهى التى يكون منها ضوء النهـار بإشراقهـا وظلمة الليل بمغـيبهـا، وهى آية النهار بنص القـرآن، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [سورة الإسراء: ١٢].

فيقـال لمن أنكر ما جهل من ذلك من العامّة: أليس إنما افـترض الله عزّ وجل علينا أن نصلى الظهر إذا زالت الشمس؟ فلا بدَّ من بلى. فـيسألون عن معنى زوال الشمس فلا بدَّ من أنه إنما هو انتـقال الشمس عن مـقابلة من قابل بوجـهه القرص، واستـقبل بوجهه وأنفه وسط المسافة، التى بين مكان طلوع الشمس، وبين موضع غروبها فى كل زمان وكل مكان، وأخذها إلى جهة حاجـبه الذى يلى موضع غروب الشمس، وذلك إنما هو فى أول النصف الثـانى من النهـار، وقد علمنا أن المدائن من مـعمـور الأرض آخذة على أديمهـا من مشرق إلى مغـرب، ومن جنوب إلى شمال فليـزم من قال: إنّ الأرض منتصبة الأعلى غيـر مكورّة -أنّ كل من كان ساكنًا فى أول المشرق، أن يصلى

الظهر في أول النهار ضرورة، ولا بدّ إثر صلاة الصبح بيسير، لأن الشمس بلا شك تزول عن مقابلة ما بين حاجبى كل واحد منهم فى أول النهار ضرورة ولا بدّ، إن كان الأمر على ما يقولون.

ولا يحل لمسلم أن يقول: إنَّ صلاة الظهر تجوز أن تصلى فى الوقت المذكور ويلزمهم أيضًا أنّ من كان ساكنًا فى آخر المغرب أن الشمس لا تزول عن مقابلة ما بين حاجبى كل واحد منهم إلاَّ فى آخر النهار، فلا يصلّون الظهر إلاَّ فى وقت لا يتسع لصلاة العصر حتى تغرب الشمس، وهذا خارج عن حكم دين الإسلام.

وأمَّا من قال بتكويرها: فإن كل من على ظهر الأرض لا يصلى الظهر إلا إثر انتصاف نهاره أبدًا على كل حال وفى كل زمان، وفى كل مكان، وهذا بيِّن لا خفاء به. وقال عزَّ وجل: ﴿سبع سموات طباقا﴾ [سورة الملك: ٣ وسورة نوح: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ [سورة المؤمنون: ١٧].

وهكذا قام البرهان من قبل كسوف الشمس والقمر وبعض الدرارى لبعض -أنها سبع سماوات، وعلى أنها طرائق، وقوله تعالى: ﴿طرائق﴾ يقتضى متطرفًا فيها.
وقال تعالى: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

وهذا نصّ ما قام عليه البرهان من انطباق بعضها على بعض، وإحاطة الكرسىّ بالسبع السماوات والأرض، وقال رسول الله ﷺ: **«فاسألوا الله الفردوس الأعلى، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوق ذلك عرش الرحمن»**(١).

وقال عزَّ وجل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طه: ٥].

فأخبر هذان النصَّان بأنَّ ما على العرش هو منتهى الخلق ونهاية العالم، وقد قال تعالى: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ۝٦ وحفظا من كل شيطان مارد﴾ [سورة الصافات: ٦، ٧].

وهذا هو نص ما قام عليه البرهان من أن الكواكب المرمى بها هى دون سماء الدنيا

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ٢٨ـ ١٠) ح (٢٦٣٧) وصحيح ابن حبان (١٠/ ٤٧٢) قال أبو حاتم: قوله ﷺ فهو أوسط الجنة يريد به أن الفردوس في وسط الجنان في العرض وقوله وهو أعلى الجنة يريد به الارتفاع، وروى الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧١) عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ قال: «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه سر الجنة عليك بسر الوادي فإنه أمرعه وأعشبه» وقال رواه الطبراني ورجاله وثقوا.

لأنها لو كانت فى السماء لكان الشياطين يصلون إلى السماء، أو كانت هى تخرج عن السماء وإلاَّ فكانت تلك الشهب لا تصل إليهم إلا بذلك، وقد صح أنهم ممنوعون من السماء بالرّجوم، فصح أنّ الرجوم دون السماء، وأيضًا فإن تلك الرجوم ليست نُجومًا معروفة وإنما هى شهب ونيازك من نار، تتكوكب وتشتعل وتطفأ، ولا نار فى السماوات أصلاً، فلم نجد الاختلاف إلا فى الأسماء لاختلاف اللغات، وقد اعترض القاضى منذر بن سعيد[1] على رأى «أرسطاطاليس» فى الآثار العلوية: أن السماوات بزعمه مملوءة نارًا هذا فجعل الأفلاك غير السماوات، والسماوات فوقها وقال: لو كانت السماوات محيطة بالأرض لكان بعض السماوات تحت الأرض.

قال أبو محمد: وهذا ليس بشىء لأن التحت والفوق من باب الإضافة لا يقال فى شىء تحت إلاّ وهو فوق لشىء آخر، حاشا مركز الأرض، فإنه تحت مطلق لا تحت له ألبتة، وكذلك كل ما قيل إنه فوق فهو أيضًا تحت لشىء آخر، حاشا الملائكة الذين على الصفحة العليا من الفلك الأعلى المقسوم بقسمة البروج، فإنها فوق لا فوق لها ألبتة، فالأرض على هذا البرهان للشاهد هى مكان التحت للسماوات ضرورة، فمن حيث كانت السماء فهى فوق الأرض، ومن حيث قابلتها الأرض فالأرض تحت السماء ولا بدّ، وحيث ما كان ابن آدم فرأسه إلي السماء، ورجلاه إلى الأرض، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[سورة نوح: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: ٦١] فأخبر الله تعالى إخبارًا لا يردّه إلا كافر بأن القمر فى السماء، وأن الشمس أيضًا فى السماء، ثم قد قام البرهان الضرورى المشاهد بالعيان على دورانها حول الأرض من مشرق إلى مغرب، ثم من مغرب إلى مشرق، فلو كان على ما يظن أهل الجهل لكانت الشمس والقمر إذا دارا بالأرض وصارا فيما يقابل صفحة الأرض التى لسنا عليها قد خرجا عن السماء، وهذا تكذيب لله تعالى، فصح بهذا أنه لا يجوز أن يفارق الشمس والقمر السماوات، ولا أن يخرجا عنها، لأنهما كيف دارا فهما فى السماوات، فصحّ ضرورة أن السماوات مطابقة طباقًا على الأرض، وأيضًا

---

(١) منذر بن سعيد البلوطي أبو الحكم الأندلسي قاضي الجماعة ينسب إلى قبيلة يقال لها كوثة وهو موضع قريب من قرطبة يقال له فحص البلوط، كان فقيهًا محققًا وخطيبًا بليغًا مفوهًا ... من كتبه «الأنباه عن الأحكام»، الإبانة عن حقائق أصول الديانة «سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٧٤).

فقد نص الله تعالى كما ذكرنا على أن الشمس والقمر والنجوم فى السماوات، ثم قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: ٤٠].

وبالضرورة علمنا أنه لا يمكن أن يكون جرم فى وقت واحد فى مكانين غير متداخلين فلو كانت السماوات غير الأفلاك، وكانت الشمس والقمر بنصّ القرآن فى السماوات وفى الفلك لكانا فى مكانين غير متداخلين فى وقت واحد، وهذا محال ممتنع، ولا ينسب القول بالمحال إلى الله تعالى إلاَّ أعمى القلب، فصح أن الشمس فى مكان واحد، وهو سماء وهو فلك، وهكذا القول فى القمر وفى النجوم. وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: ٤٠]. نصٌّ جليّ على الاستدارة، لأنه أخبر تعالى أن الشمس والقمر والنجوم سابحة فى الفلك، ولم يخبر أنَّ لها سكونًا، فلو لم تستدر لكانت على آباد الدهور بل فى الأيّام اليسيرة تغيب عنَّا، حتَّى لا نراها أبدًا لو مشت على طريق واحد، وخط واحد مستقيم أو معوج غير مستدير، لكنّا أمامها أبدًا، وهذا باطل فصحَّ ما نراه من كرورها من غرب إلى شرق، ومن شرق إلى غرب، أنها دائرة ضرورة، وكذلك قال لرسول الله ﷺ إذ سئل عن قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [سورة يس: ٣٨].

فقال عليه السلام: «مستقرُّها تحت العرش»(١). وصدق عليه السلام لأنها أبدًا تحت العرش إلى يوم القيامة، وقد علمنا أنَّ مستقرَّ الشيء هو موضعه الذى يلزم فيه ولا يخرج، وإن مشى فيه من جانب إلى جانب، «وسجودها» هو سيرها فيه.

حدثنا أحمد بن عمر بن أنس العذرى حدثنا عبد الله بن محمد الهروى، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخى، حدثنا إبراهيم بن خزيم، حدثنا عبد بن حميد، حدثنى سليمان بن حرب الواشحى، حدثنا: حماد بن سلمة عن إياس بن معاوية المزنى قال: «السماء مقبَّبة هكذا على الأرض»(٢).

وبه إلى عبد بن حميد، حدثنا: يحيى بن عبد الحميد عن يعقوب عن جعفر هو ابن أبى وحشية عن سعيد هو ابن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: أرأيت قول الله عزَّ وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: ١٢].

---

(١) صحيح البخاري (٦/٣٠٢٧) ح (٦٩٩٦)، ومسلم في صحيحه (١/١٣٨) ح (١٥٩)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٢٠) ح (٦١٢٥).

(٢) رواه أبو حيان الأصبهاني في كتاب العظمة (٣/١٠٢٤) ح (٥٤٠).

قال ابن عباس: «هنَّ ملتويات بعضهن على بعض».

حدثنا عـبد الله بن ربيع التميـمى، حدثنا محـمد بن معاوية القـرشى، حدثنا أبو يحيى زكـريا بن يحيى الساجى البـصرى قال: أنبأنا عـبد الأعلى ومحـمد بن المثنى، وسلمة بن شبيب قالوا كلهم: حدثنا وهب بن جرير بن حازم قال: سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عتبة، وجبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جدّه قال: جـاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ: فقـال يا رسول الله: جـهدت الأنفس، وضاع العـيال، ونهكت الأموال، وهلـكت الأنعام، فاسـتسق الله لنا! فذكـر الحديث بطوله، وفيه أنّ النبى ﷺ قال للأعرابى: «**ويحك أما تدرى مـا الله؟! إنَّ عرشه على سماواته وأرضه هكذا**» وقال بأصابعه مثل القبة[1]. ووصف لهم وهب بن جرير يده، وأمال كفَّه وأصابعه اليمنى، وقال هكذا.

حدثنا مـحمد بن سـعيد بن ثابت، حـدثنا أحمد بن عـون الله، وأحمد بن عـبد البصير قالا جمـيعًا أبنأنا قاسم بن أصبغ حدثنا محمد بن عـبد السلام الخشنى، حدثنا محمد بن بشـار بندار، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث التنورى، حـدثنا شعبة عن الأعمش هو سليمان، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحون»: فلك كفلك المغـزل[2].

قال أبو مـحمد: وذكروا أيضًا قـول الله عزّ وجل عن ذى القرنين: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [سورة الكهف: ٨٦].

وقرىء أيضًا حامية.

قال أبو محمد: وهذا هو الحق بلا شك، وذو القرنين[3] هو كان فى العين الحمئة. والحامية حـميّة من حماتها، حامـية من استحرارها؛ كما تقـول رأيتك فى البحر تريد أنك إذ رأيته كنت أنت فى البحر، وبرهان هذا: أنَّ مغـربها الشتوى إذا كانت من آخر رأس الجدى إلى آخر مغربها الصيفى إذا كانت من رأس السرطان مرئى مشاهد ومقداره ثمانٍ وأربعـون درجة من الفلك، وهو يوازى من الأرض كلها بـالبرهان الهندسى أقل

(١) سبق تخريجه وهو في صحيح البخاري.

(٢) أي يدورون في فلك السماء، قاله ابـن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقـتادة وعطاء الخراساني، وقال ابن عباس وغير واحد من السلف ﷺ: في فلكه كفلكة المغزل، وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرحى أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا بـه.

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٣).

من مقدار السدس، يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيف، وهذه المساحة لا يقع عليها فى اللغة اسم عين ألبتة، لا سيما أن تكون عينًا حمية وباللغة العربية خوطبنا، فلما تيقّنا أنها عين بإخبار الله عزّ وجل الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، علمنا يقينًا أنَّ ذا القرنين انتهى به السير فى الجهة التى مشى فيها من المغارب إلى العين المذكورة، وانقطع له إمكان المشى بعدها؛ لاعتراض البحار له هنالك، وقد علمنا بالضرورة أنَّ ذا القرنين وغيره من الناس ليس يشغل من الأرض إلاَّ مقدار مساحة جسمه فقط قائمًا أو قاعدًا أو مضجعًا، ومَن هذه صفته فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض بمقدار مكان المغارب كلها، لو كان مغيبها فى عين من الأرض كما يظن أهل الجهل، ولا بدَّ من أن يلقى خط بصره من حَدَبَة الأرض أو من نشز من أنشازها ما يمنع الخط من التمادى، إلاَّ أن يقول قائل: إنَّ تلك العين هى البحر فلا يجوز أن يسمَّى البحر فى اللغة عينًا حمئة ولا حامية. وقد أخبر الله عزَّ وجل أن الشمس تسبح فى الفلك، وأنها إنما هى فى الفلك سراج، وقول الله تعالى هو الصدق الذى لا يجوز أن يختلف ولا يتناقض، فلو غابت فى عين فى الأرض كما يظن أهل الجهل، أو فى البحر لكانت الشمس قد زالت عن السماء، وخرجت عن الفلك، وهذا هو الباطل المخالف لكلام الله عزَّ وجل حقًّا نعوذ بالله من ذلك، فصحَّ يقينًا بلا شك أنَّ ذا القرنين كان فى العين الحمئة الحامية حين انتهى إلى آخر البر فى المغارب، وبالله تعالى التوفيق، لا سيما مع ما قام البرهان عليه من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض، وبالله تعالى التوفيق.

وبرهان آخر قاطع: وهو قول الله عزَّ وجل: ﴿وجده تغرب في عين حمئة﴾ وقرىء حامية، ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [سورة الكهف: ٨٦]، فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس، ومن كان عند العين فهو في العين، وقال الله عزَّ وجل: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

وصح الإجماع والنصّ على أنَّ أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فى الجنة إلاَّ فى قول من لا يعد فى جملة أهل الإسلام ممن يقولون بفناء الأرواح وأنَّها أعراض، وكذلك أرواح الشهداء فى الجنة، وأخبر رسول الله ﷺ أنه رآهم ليلة أسرى به فى السماوات سماء سماء؛ آدم فى سماء الدنيا، ويحيى وعيسى فى الثانية، ويوسف فى الثالثة، وإدريس فى الرابعة، وهارون فى الخامسة، وموسى وإبراهيم فى السادسة والسابعة، صلّى الله على جميعهم، فصحَّ ضرورة أنَّ السماوات هى

الجنـات، وقد قال عـليه السلام: «إنَّ أرواح الشهداء[فى جوف] طيـر خضر تعلق من ثمار الجنة»(١).

ومن المحال الممتنع الذى لا يظنه مسلم، أن تكون أرواح الشـهداء طيوراً خضراً فى الجنة، وأرواح الأنبياء عليهم السلام فى غير الجنة، إذ هم أولى بكل فضل، ولا مكان أفضل من الجنة.

حدثنا أحـمد بن عمر بن أنس العـذرى، حدَّثنا أبو ذرٍّ الهروى، حدَّثنـا أحمد بن عبدان الحافظ النيسابورى بالأهواز، حدثنا محـمد بن سهل القرشى، حدَّثنا محمد بن إسماعيل البخارى مؤلف الصحيح، حدثنا أبو عاصم النبيل حدَّثنا عبد الله بن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسـيد، حدثنا محمد بن جبيـر عن صفوان بن يعلى عن أبيه عن النبى ﷺ قال: «البحر من جهنم أحاط به سرادقها»(٢).

حدثنا يوسف بن عـبد الله بن مغـيث، حدثنا أحمد بـن عبد الله بن عبـد الرحيم حدّثنا أحمد بن خالد، حدثنا محمد بن عـبد السلام الخشنى، حدّثنا محمد بن بشّار، حدَّثنا يحيى بن سـعيد القطان عن عثـمان بن غياث عن عكرمة مـولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن كعب قال: «والبحر المسجور يُسْجر فيكون جهنم»(٣).

حدَّثنا عبـد الله بن ربيع التميمى، حدّثنا عـبد الله بن محمد بن عثـمان الأسدى، حدَّثنا أحمد بن خالد، حدثنا على بن عبد العزيز، حدّثنا الحجّاج بن المنهال السلمى،

---

(١) صحـيح مسلم (٣/ ١٥٠٢) ح (١٨٨٧) بلفظ: «.... فـقال: أرواحهم في جـوف طير خضـر لها قناديل مـعلقة بالعـرش تسرح من الجنة حـيث شاءت ثم تأوي إلـي تلك القناديل فاطلع إليـهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا.

(٢) صحيح: أخرجـه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٣٨) ح (٨٧٦٢)، وقال الحاكم صـحيح، وقال: ومعناه: أن البحر صـعب كأنه جهنم ولذلك فرع عـلى إخراج حديث عبد الله بن عـمرو عن النبي ﷺ: أن تحت البحر نار، وتحت النار بحر، فـأما النار فإنها تحت السابعة وقد شهد الصـحابة فمن بعدهم على رؤية دخـانها، ورواه أحـمـد في مسنده (٤/ ٢٢٣) ح (١٧٩٨٩)، والـهيـثمي فـي مجـمع الزوائد (١٠/ ٣٨٦)، وقال: رجال أحمد ثقات.

(٣) قوله تعالى: ﴿والبـحر المسجور﴾ قال الـربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر، الذي تحيا به الأجـساد في قبورها يوم معـادها، وقال الجمهور: هو هذا البـحر، واختلف في معنى قوله المسـجور فقال بعضهم: المراد أنه يوقـد نارًا كقوله: ﴿وإذا البحار سجـرت﴾. (تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧١).

حدَّثنا مهدى بن ميمون عن محمد بن عبد الله بن أبى يعقوب الضبّى عن بشر بن شغاف قال: «كنا مع عبد الله بن سلام يوم الجمعة فى المسجد فقال: إنَّ الجنة فى السماء، وإنَّ النّار فى الأرض»[١] وذكر كلامًا كثيرًا نسبه إلى الحجاج بن المنهال[٢].

حدثنا حمّاد بن سلمة عن داود عن سعيد بن المُسيَّب أن علىّ بن أبى طالب ﷺ قال ليهودى: أين جهنم؟ قال: فى البحر. قال على بن أبى طالب ﷺ: ما أظنه إلاَّ صدق.

حدثنا المُهَلَّب الأسدى، حدّثنا ابن مناس، حدثنا ابن مسرور، حدّثنا يونس بن عبد الأعلى، حدَّثنا عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد عن المنهال عن شقيق بن سلمة عن ابن مسعود ﷺ قال: الأرض كلها يومئذ نار، والجنة من ورائها، وأولياء الله تعالى فى ظل عرش الله تعالى.

قال أبو محمد: وقال الله تعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [سورة يس: ٤٠].

فبيّن تعالى أن الشمس أبطأ من القمر، وهكذا قام البرهان بالرَّصد أن الشمس تقطع السماء فى سنة، والقمر يقطعها فى ثمانية وعشرين يومًا. ثم نص تعالى: أنَّ الليل لا يسبق النهار، فبين بهذا حكم الحركة الثانية التى للفلك الكلى، وهى التى تتم فى كل يوم وليلة دورة، ويتساوى فيها جميع الدرارى والنجوم والشمس والقمر، وقال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [سورة الحديد: ١٣].

وأخبر تعالى أنَّ أرواح الكافرين لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة، فصحَّ أن من فتحت له أبواب السماء دخل الجنة.

وأخبر رسول الله ﷺ «أنَّ شدّة الحر من فيح جهنم، وأنَّ لها نفسين نفسًا فى الشتاء ونفسًا فى الصيّف، وأنَّ ذلك أشدّ ما نجد من الحرّ والبرد»[٣] وأنَّ نارنا هذه أبرد من

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في التخويف من النار (٤٥)، وقال: خرجه ابن خزيمة وابن أبي الدنيا.

(٢) حجاج بن المنهال الأنماطي أبو محمد السلمي وقيل البرساني، قال أحمد ثقة، ما أرى به بأسًا، وقال أبو حاتم ثقة، وقال فاضل، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث (تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٢).

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٩٩) ح (٥١٢)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٢٢) ح (٦١٧). وابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٧٣) ح (١٥٠٦)، وأبو عوانة في مسنده (١/ ٣٤٧)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٠٦).

نار جـهنم بتسع وسـتين درجـة، وهكذا نشاهد من فـعل الصـواعق، فإنهـا تبلغ من الإحراق والإذابة فى مقدار اللمحـة ما لا تبلغه نارنا فى المدد الطوال، وقال رسول الله ﷺ : **«إنَّ آخر أهل الجنة دخولاً فيـها بعـد خروجـه من النار يعطى مـثل الدنيا عـشر مرّات»**(١) . رويناه من طريق أبى سعـيد الخدرى مسندًا وصحّ أيضًـا مسندًا عن رسول الله ﷺ : **«أنَّ الدنيا فى الآخرة كإصبع فى اليمّ»**(٢).

قال أبو محمد: وهذا إنما هو فى نسبة المساحة لا فى نسبة المدّة، لأن مدّة الآخرة لا نهاية لها، ومـا لا نهاية له فلا ينسب شيء منه ألبتة بوجـه من الوجوه، ولا هو أيضًا نسبـة من السرور والـلّذة، ولا الحزن والبلاء لأن سـرور الدنيا مـشوب بألم ومـتناه، وحزنهـا متناه مُنْقـضٍ، وسرور الآخرة وحـزنها خـالصان غـير متناهين. وهـكذا قام البرهان من قبل روايتنا لنصب السماء أبدًا على أنه لا نسبة للأرض عن السماء ولا قدر وقال عزّ وجل: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٥٤].

وذكر رسول الله ﷺ : **«إنَّ للجنة ثمانية أبواب»**(٣).

وقال عليـه السلام: **«فاسـألوا الله الفردوس الأعلى، فـإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوق ذلك عرش الرَّحمن»**(٤).

فصح يقينًا أنهما جنتان: **إحداهما** عرضها السماوات والأرض. **والأخرى:** عرضها كعرض السماء والأرض.

وقوله تعالى: ﴿ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جنّتَانِ﴾ [سورة الرحمن: ٤٦].

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٤٠٢) ح (٦٢٠٢) ومسلم في صحيحه (١/ ١٧٤) ح (١٨٦). وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٤٥٧) ح (٧٤٣١)، والترمذي (٤/ ٧١٢) ح (٢٥٩٥).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٣) ح (٢٨٥٨)، وصحيح ابن حبان (١٠/ ١٧٣) ح (٤٣٣٠)، والترمذي في سننه (٤/ ٥٦١) ح (٢٣٢٣) وقال أبو عيـسى هذا حديث حسن صحيح، وابن أبي شيـبة في مصنفه (٧/ ٧٥) ح (٣٤٣٠٦).

(٣) صحيح البـخاري (٣/ ١١٨٨) ح (٣٠٨٤) بلفظ: «في الجنة ثمانية أبواب فيـها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصـائمون، وابن حـبان في صـحيحـه (١٠/ ٥١٩) ح (٤٦٦٣)، وأبو عوانة في مـسنده (١/ ١٩١) ح (٦٠٥).

(٤) سبق تخريجه.

إنما هو خبر عن الجميع أن لهم هاتين الجنتين، فالتى عرضها السماوات والأرض هى السماوات السبع، لأنّ عرض الشىء منه بلا شك، وكل كروى فإنّ جميع أبعاده عروض فقط. وذكرت الأرض هنا لدخولها فى جملة مساحة السماوات، وإحاطة السماوات بها. والتى عرضها كعرض السماء والأرض: هو الكرسى المحيط بالسماوات والأرض، قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

فصح أنّ عرضه كعرض السماوات والأرض مضافًا بعض ذلك إلى بعض وصحّ أن لها ثمانية أبواب فى كلّ سماء باب، وفى الكرسىّ باب، وصحّ أنّ العرش فوق أعلى الجنة فهو محل الملائكة وموضعها ليس من الجنة فى شىء بل هو فوقها، وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [سورة غافر: ٧]. بيان جلىّ بأن العرش جرم آخر فيه الملائكة.

وقد ذكر بأنّ البرهان يقوم بذلك من أحكم النظر فى الهيئة. وهذه نصوص ظاهرة جلية دون تكلف تأويل.

قال أبو محمد: وقوله تعالى: ﴿كعرض السماء﴾.

ذكر لجنس السماوات، لأنّ السماوات اسم للجنس يدل عليه قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.

وقال «علىّ»: ومثل هذا كثير ممّا إذا تدبّره المتدبر علم صحّة ما قلنا من أنّ ما يثبت ببرهان فهو منصوص فى القرآن وكلام النبى ﷺ.

كذب من ادّعى لمدة الدنيا عددًا معلومًا

قال أبو محمد: وأما اختلاف الناس فى التاريخ، فإنّ اليهود يقولون: للدنيا أربعة آلاف سنة. والنصارى يقولون: للدنيا خمسة آلاف سنة، وأمّا نحن فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا. ومن ادّعى فى ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد كذب، وقال ما لم يأت عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح، بل صحّ عنه عليه السلام خلافه، بل نقطع على أنّ للدنيا أمدًا لا يعلمه إلاّ الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الكهف: ٥١]. وقول رسول الله ﷺ: «ما أنتم فى الأمم قبلكم إلاّ كالشّعرة البيضاء فى الثّور الأسود، أو كالشعرة

السَّوداء فى الثّور الأبيض»(١).

هذا عنه عليـه السلام ثابت، وهو عليـه السلام لا يقول إلاّ عين الحـق ولا يسامح بشيء من الباطل لا بإعيـاء ولا بغيره، فهذه نسبة من تدبّرها وعـرف مقدار عدد أهل الإسلام، ونسـبة مـا بأيديهم من معـمور الأرض وأنه الأكـثر علم أنَّ للدنيـا عدداً لا يحصيه إلاّ الله تعالى.

وكذلك قوله ﷺ : «بُعِثْتُ والسَّاعَـة كَهَاتَيْنِ»(٢). وضم إصبعيه المقـدَّستين السبَّابة والوسطى.

وقد جـاء النصُّ بأنَّ السّاعـة لا يعلم مـتى تكون إلاّ الله عزَّ وجل لا أحـدٌ سواه، فصحّ أنه عليه السلام إنّما عنى شـدّة القرب لا فضل الوسطى على السبّابة، إذ لو أراد فضـل ذلك لأخذت نسـبة ما بـين الإصبعـين، ونسب ذلك من طول الوسطى، فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة، وهذا باطل.

وأيضًا فكان تكون نسبته عليه السلام إيّانا إلى من قبلنا بأنه كالشعرة فى الثور كذبًا، ومعاذ الله تعالى من ذلك.

فصح أنه عليه السلام إنّما أراد شدة القرب، وله عليه السلام مذ بعث أربعمائة عام ونيف، والله أعلم ما بقى مـن الدنيا، فإذا كان هـذا العدد العظيم لا نسبـة له عند ما سلف، وتفاهتـه بالإضافة إلى مـا مضى، فهذا الذى قـاله عليه السلام من أننا فـيمن مضى كالشعرة فى الثور أو الرقمة فى ذراع الحمار(٣).

قال أبو محمد: وقد رأيت بخط الأمير أبى محمـد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الناصر رحـمه الله قال حدثنى مـحمد بن معـاوية القرشى أنه رأى بالهند بُدًّا له اثنان وسبعون ألف سنة، وقد وجد محمود بن سُبُكْتُكِين بالهند مدينة يؤرخون لها بأربعمائة ألف سنة.

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٩٢) ح (٦١٦٣)، ومسلم في صـحيحه (١/ ٢٠) ح (٢٢١)، وصحيح ابن حـبان (١٦/ ٤٩٧) ح (٧٤٥٨)، وأبو عـوانة في مـسنده (١/ ٨٥) ح (٢٥٣)، والتـرمـذي في سننه (٤/ ٦٨٤) ح (٢٥٤٧)، ومجمع الزوائد (١٠/ ٣٩٣).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٨٨١) ح (٤٦٥٢)، صحـيح مسلم (٢/ ٥٩٢) ح (٨٦٧)، وصحيح ابن حبان (١/ ١٨٦) ح (١٠).

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (٥/ ٣٢٢) ح (٣١٦٨) قال الترمـذي هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في مـسنده (٤/ ٤٣٥) ح (١٩٩١٥). والطبـراني في المعجم الكبيـر (١٨/ ٢١٨). ح (٥٤٦)، والمسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم (١/ ٢٨٧) ح (٥٣٢).

قال أبو محمد: إلاّ أنّ لكل ذلك أولاً ومبدأ ولا بدَّ من نهاية، لم يكن شىء من العالم موجودًا قبلها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومما اعترض به بعضهم أنه قال: أنتم تقولون: إن أهل الجنة يأكلون ويشربون، ويلبسون ويطؤون النساء، وأنَّ هنالك جوارى أبكارًا خلقن لهم، وذلك المكان لا فساد فيه ولا استحالة، ولا مزاج، وهذه أشياء كوائن فواسد فكيف الأمر؟

قال أبو محمد: إن ها هنا ثلاثة أجوبة:

أحدها: برهان ضرورى سمعى. **الثانى:** برهان نظرى مشاهد. **والثالث:** إقناعى خارجى على أصول المعارض لنا.

فالأول: وهو الذى يعتمد عليه هو البرهان الضرورى قد قدمناه، على أنّ الله عزّ وجل خلق الأشياء وابتدعها مخترعًا لها لا من شىء، ولا على أصل متقدّم، وإذ لا شك فى هذا فليس شىء متوهم أو مسؤول عنه يتعذّر من قدرة الخالق عزّ وجل إذْ كان ما شاء كوّنه. ولا فرق بين خلقه عزّ وجل، كل ذلك فى هذه الدار، وبين خلقه كذلك فى الدار الآخرة.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ الذى قامت البراهين الضرورية على أن الله عزَّ وجل بعثه إلينا، ووسّطه للتبليغ عنه وعلى صدقه فيما أخبر به: أنّ الأكل والشرب واللباس والوطء هنالك، وكان هذا الخبر قبل أن يخبرنا به الصادق عليه السلام داخلاً فى حدّ الممكن لا فى حدِّ الممتنع، ثم لما أخبرنا به الله عزّ وجل على لسان رسوله ﷺ صحّ علمنا به ضرورة فبان أنه فى حدّ الواجب.

وأمّا الجواب الثانى: فهو أنَّ الله عزّ وجل خلق أنفسنا ورتَّب جواهرها وطباعها الذاتية رتبة لا تستحيل ألبتة على التذاذ المطاعم والمشارب والرَّوائح الطيبة، والمناظر الحسنة، والأصوات المطربة، والملابس المعجبة على حسب موافقة كل ذلك لجوهر أنفسنا، هذا ما لا مدفع فيه، ولا شك فى أنَّ النفوس هى المتلذّذة بكل ما ذكرنا، وأنَّ الحواسَّ الجسدية هى المنافذ الموصلة لهذه الملاذ إلى النفوس، وكذلك المكاره كلها. وأمّا الجسد فلا حسَّ له ألبتة، فهذه طبيعة جوهر أنفسنا التى لا سبيل إلى وجودها دونها، فإذا جمع الله تعالى يوم القيامة فى عالم الجزاء بين أنفسنا وبين الأجساد المركبة لها وعادت كما ذكرنا جوزيت هنالك، ونعمت بملاذها وبما تستدعيه طباعها التى لم توجد

قط إلاّ كذلك، ولا لها لـذه سواها، إلاّ أن الطعام الذى هنالك غيـر معانى بنار، ولا ذو آفات، ولا مـستحيلٌ قـذرًا ودمًا، ولا ذبح هنالك، ولا آلام تغيّـر، ولا موت ولا فساد، وقد قال تعالى: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾ [سورة الواقعة: ١٩].

وتلك الملابس غيـر محـوكة بنسيج ولا فـانية ولا متـغيرة ولا تقـبل البلى، وتلك الأجساد لا كدر فيهـا ولا خلط ولا دم ولا أذى، وتلك النفوس لا رذيلة فيها من غلٍّ ولا حسـد ولا حرص قـال الله عزَّ وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [سورة الحجر: ٤٧].

وأخـبر رسـول الله ﷺ عن المخرجـين من النار أنهم يطرحون فى نهـر على باب الجنة. فـإذا نُقُّوا وهُذِّبوا -هذا نص لفظ رسـول الله ﷺ -(١). ثم بعد التـنقية أخـبر رسول الله ﷺ أنهم حـينئذ يـصيـرون إلى الجنة. فـصحّ أنَّ الملاذ من هذه الأشيـاء المتناولات تصل إلى النفـوس هنالك على حسب اختـلاف وجود النفس لهـا، وتغاير أنواع التذاذها بها، وأوقعت عليها الأسماء لإفهامنا المعنى المراد.

وقد روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما ما حدَّثنا يحيى بن عـبد الرحمن بن مسعود، حدثنا قاسم بن أصبغ، حـدثنا إبراهيم بن عبد الله العبسى، حدّثنا وكـيع بن الجرّاح، حدثنا الأعمش، عن أبى ظُبيان عن ابن عـباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس فى الجنة ممّا فى الدنيا إلا الأسماء(٢). وهذا سندٌ فى غاية الصحة، وهو أول حديث فى قصة وكيع المشهورة.

قال أبو محمد: وأما الوطء فهو هنالك كما هو عندنا ها هنا إلاَّ أنه ليس فيه مؤونة ولا استـحالة، وإنما هو التذاذ للنفس بمداخلـة بعض الجسد المضاف إلـيها لجسـد آخر فقط.

وأمَّا الجواب **الثالث** الإقناعى، وهو موافق لأصولهم، ولسنا نعتـمد عليه: فهو أنَّ قدماء الهند قد ذكروا فى كلامهم فى الأفلاك والبروج ووجوه المطالع أنه يطلع مع كل وجه من وجوه البروج صور وصفوها، وذكروا أنه ليس فى هذا العالم صورة إلاّ وهى فى العالم الأعلى.

قال أبو مـحمد: وهذا إيجاب منهم أنَّ هـنالك ملابس ومشـارب ومطاعم ووطئًا،

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٩٤) ح (٦١٧٠)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٣) ح (١١١١٠) وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٢٩١) ح (٩٣٥)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٦١٦) ح (٨٧٠٦).
(٢) أخرجه هناد في كتاب الزهد (١/ ٤٩) ح (٣).

وأنهارًا وأشجارًا، وغير ذلك.

قال أبو محمد: وعارضني يومًا نصراني كان قاضيًا على نصارى قرطبة فى هذا وكان يتكرَّر على مجلسى فقلت له: أو ليس فيما عندكم من الإنجيل أنَّ المسيح ﷺ قال لتلاميذه ليلة أكل معهم الفصح، وفيها أُخِذَ بزعمكم، وقد سقاهم كأسًا من خمر وقال: «إنّى لا أشربها معكم أبدًا حتى تشربوها معى فى الملكوت عن يمين الله تعالى».

وقال فى قصة الفقير المسمّى «العازار» الذى كان مطرحًا على باب الغنىّ تلحس الكلاب جراح قروحه، وأنَّ ذلك الغنىّ نظر إليه فى الجنّة متكئًا فى حجر إبراهيم ﷺ فناداه الغنىّ وهو فى النّار: «يا أبى يا إبراهيم، ابعث العازار إلىَّ بشىء من ماء يبلُّ به لسانى». وهذا نص على أن فى الجنة شرابًا من ماء وخمر، فسكت النصرانى وانقطع. وأمّا التوراة التى بأيدى اليهود فليس فيها ذكرٌ لنعيم فى الآخرة أصلاً، ولا لجزاء بعد الموت ألبتة.

قال أبو محمد: وكذلك الجواب فى أكل أهل النّار وشربهم سواء سواء كما ذكرنا وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: والأرض أيضًا سبع نطاق منطبقة بعضها على بعض كانطباق السماوات لإخبار خالقنا بذلك، وليس ذلك قبل الخبر فى حدِّ الممتنع بل فى حدِّ الممكن، وذكر قوم قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٨].

فقلنا: قال الله تعالى هذا حقًّا، وقال عزَّ من قائل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤].

وقال عزّ وجل: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [سورة النبأ: ١٩].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [سورة المعارج: ٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [سورة الحاقة: ١٤-١٧].

وقال تعالى: ﴿إذَا السماءُ انشقت﴾ [سورة الانشقاق: ١].

وقال تعـالى: ﴿وإذا الأرضُ مُدتْ (٣) وألقتْ ما فيـها وتخلتْ (٤) وأذنتْ لربها وحقتْ﴾ [سورة الانشقاق: ٣-٥].

وقال تعـالى: ﴿إذَا السَّمـاءُ انفطرتْ (١) وإذا الكواكبُ انتثـرتْ (٢) وإذَا البِحَـارُ فُجِّرَتْ﴾ [سورة الانفطار: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿إذَا الشَّمسُ كُوِّرَتْ (١) وَإذَا النُّجُومُ انكدَرَتْ (٢) وَإذَا الجبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [سورة التكوير: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿أنَّ السَّمَوات وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

وقال تعـالى: ﴿كَمَـا بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيـدُهُ وعْـدًا علَيْـنا إنَّـا كُنَّا فَـاعِلينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤].

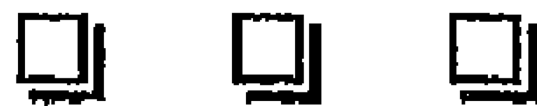
وقال تعالى: ﴿خَالدينَ فِيهَا ما دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ ما شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [سورة هود: ١٠٨].

فكل كلامــه تعالى حق لا يحلُّ الاقتصـار على بعضه دون بعض، فـصحَّ يقينًا أنَّ تبـديل السّمـاوات والأرض إنما هو تبديـل أحوالهـا لا إعدامـها، ولكن خـلاؤها من الشّمـس والقمر والكواكـب والنجوم، وتفـتحهـا أبوابًا، وكونهـا كالمهل، وتشـققـها ووهيها، وانفطـارها، وتدكدك الأرض والجبال، وكونهـا كالعهن المنقوش، وتسـييرها وتسجر البـحار فقط كما قـال تعالى، وبهذا تتآلف الآيات كلّها، ولا يجـوز غير هذا أصلاً، ومن اقتـصر على آية التبديل كـذب على كل ما ذكرنا، وهذا كفـر ممن فعله، ومن جمعها كلهـا فقد آمن بجميعها، وصـدّق الله تعالى فى كل ما قال، وهو يوجب ما قلنا ضرورة، وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: قد أكملنا ولله الحمد كثيرًا الكلام على الملل المخالفة لدين الإسلام الذى هو دين الله تعالى على عباده الذى لا دين له فى الأرض غـيره إلى يوم القيامة، وأوضحنا بعون الله وتأييـده البراهين الضرورية على إثبات الأشـياء ووجودها ثم على حدوثها كلها جواهرها وأعراضها بعـد أنْ لم تكن، ثم أنّ لها محدثًا واحدًا مختارًا لم يزل، لا شيء معـه، وأنه فعل لا لعلّة، وترك لا لعلّة، بل كمـا شاء لا إله إلاَّ هو، ثم على صحّة النبوّات، ثم على صحة نبوَّة مـحمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ،

وأنّ ملته هى الحق، وكل ملّـة سواها باطل، وأنه آخر الأنبـياء عليهم السـلام، وملته آخر الملل.

فلنبدأ الآن بعون الله وتأييده فى ذكر نحل المسلمين وافتـراقهم فيها وإيراد ما شغب به من شـغب منهم فيـما غلط فى شىء من نحلتـه، وإيراد البراهين الضـرورية على إيضاح نحلة الحق من تلك النحل، كما فعلنا فى الملل، والحمد لله رب العالمين كثيراً، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى القدير.



الفرق الإسلامية

قال أبو محمد: فرق المقرين بملة الإسلام خمسة، وهم: أهل السنّة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، ثم افترقت كل فرقة من هذه على فرق، وأكثر افتراق أهل السنة فى الفتيا ونبذ يسيرة من الاعتقادات سننبه عليها إن شاء الله تعالى، ثم سائر الفرق الأربعة التى ذكرنا ففيها ما يخالف أهل السنة الخلاف البعيد، وفيها ما يخالفهم الخلاف القريب.

فأقرب فرق المرجئة إلى أهل السنّة من ذهب مذهب أبى حنيفة النعمان بن ثابت(١) الفقيه رحمه الله تعالى: فى أنّ الإيمان هو التصديق باللسان والقلب معًا، وأنّ الأعمال إنما هى شرائع الإيمان وفرائضه فقط.

وأبعدهم أصحاب جهم بن صفوان، وأبو الحسن الأشعرى(٢)، ومحمد بن كرام السجستانى. فإنّ جهمًا والأشعرى يقولان: إن الإيمان عقد بالقلب فقط، وإن أظهر الكفر والتثليث بلسانه، وعبد الصليب فى دار الإسلام بلا تقية.

ومحمد بن كرّام(٣) يقول: هو القول باللسان وإن اعتقد الكفر بقلبه.

---

(١) النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفي أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة قبل أصله من أبناء فارس ولد ونشأ بالكوفة، وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه ثم انقطع للتدريس والإفتاء وأراده عمر بن حبيرة (أمير العراقيين) على القضاء، فامتنع ورعًا.
له «مسند ـ ط» في الحديث، جمعه تلاميذه، و«المخارج ـ خ» في الفقه، صغير، رواه عنه تلميذه أبو يوسف .... الأعلام ٨/٣٦، تاريخ بغداد ١٣/٣٢٣ ـ ٤٢٣، وابن خلكان ٢/١٦٣، والنجوم الزاهرة ٢/١٢).

(٢) قال محب الدين رحمه الله: إن الأشعريين منسوبون إلى أبي الحسن الأشعري، وقد علمت أن أبا الحسن الأشعري كانت له ثلاثة أطوار.
أولها: انتماؤه إلى المعتزلة.
ثانيها: خروجه عليهم ومعارضته لهم بأساليب متوسطة بين أساليبهم ومذهب السلف.
ثالثها: انتقاله إلى مذهب السلف وتأليفه في ذلك كتابه (الإبانة في أصول الديانة) وأمثاله وقد أراد أن يلقى الله على ذلك.
(راجع المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي تعليق محب الدين الخطيب ص ٤١،٤٣).

(٣) بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي العدوي بالولاء، أبو عبد الرحمن: فقيه معتزلي =

وأقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة أصحاب الحسين بن محمد بن النجار وبشر بن غياث المريسى[1]، ثم أصحاب ضرار بن عمرو.

وأبعدهم أصحاب أبى الهذيل العلاف.

وأقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة المنتمون إلى أصحاب الحسن بن صالح بن حى الهمذانى الفقيه القائلون بأنّ الإمامة فى ولد عليٍّ ﷺ والثابت عن الحسن بن صالح رحمه الله هو قولنا: إن الإمامة فى جميع قريش، وتولّى جميع الصحابة ﷺ، إلاّ أنه كان يفضّل عليًّا ﷺ على جميعهم.

وأبعدهم الإمامية.

وأقرب فرق الخوارج إلى أهل السنة أصحاب عبد الله بن يزيد الإباضى الفزارى الكوفى.

وأبعدها الأزارقة.

وأما أصحاب أحمد بن حابط وأحمد بن باسوس، والفضل الحدثى، والغالية من الروافض، والمتصوفة والبطيحية أصحاب أبى إسماعيل البطيحى، ومن فارق الإجماع من العجاردية وغيرهم، فليسوا من الإسلام فى شىء من أهله، بل كفار بإجماع الأمة، ونعوذ بالله من الخذلان.

ذكر ما اعتمدت عليه كل فرقة من هذه الفرق فيما اختصت به

قال أبو محمد: أما المرجئة فعمدتهم التى يتمسكون بها فالكلام فى الإيمان والكفر ما هما؟ والتسمية بهما، والوعيد، واختلفوا فيما عدا ذلك كما اختلف غيرهم.

وأمّا المعتزلة: فعمدتهم التى يتمسكون بها: الكلام فى التوحيد، وما يوصف به

= عارف بالفلسفة، يرمي بالزندقة. وهو رأس الطائفة «المريسية» القائلة بالإرجاء، وإليه نسبتها أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف، وقال برأي الجهمية، وأوذي في دولة هارون الرشيد.
له تصانيف. وللدارمي كتاب «النقص على بشر المريسي ـ ط» في الرد على مذهبه.
(الأعلام ٢/ ٥٥، وفيات الأعيان ١/ ٩١، والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٨).

(١) محمد بن كرام بن عراق بن حزابة، أبو عبد الله، السجزي: إمام الكرامية، من فرق الابتداع في الإسلام، كان يقول بأن الله تعالى مستقر على العرش، وأنه جوهر.
ولد ابن كرام في سجستان وجاور بمكة خمس سنين، وورد نيسابور . .
(تذكرة الحفاظ ٢/ ١٠٦ والأنس الجليل ١/ ٢٦٢ واللباب ٣/ ٣٢).

البارى تعالى، ثم يزيد بعضهم الكلام فى القدر والتسمية بالفسق والإيمان والوعيد.

وقد يشـارك المعتزلة فى الكلام فـيما يوصف به البـارى تعالى جهمُ بن صـفوان، ومقاتـل بن سليمان، والأشعـرية وغيرهم من المرجئـة، وهشام بن الحكم[1] وشيطان الطاق، واسمه محمـد بن جعفر الكوفى[2]، وداود الجواربى[3] وهؤلاء كلهم شيعة، إلاَّ أنا اختصصنا المعتزلة بهذا الأصل لأن كل من تكلّم فى هذا الأصل فهو غير خارج عن مذهب أهل السنة أو قـول المعتزلة حـاشا هؤلاء المذكورين من المرجـئة والشيـعة، فإنهم انفردوا بأقوال خارجة عن قول أهل السنة والمعتزلة.

وأمّا الشـيعـة: فعمـدة كلامـهم فى الإمامـة والمفاضلة بين أصحـاب النبى ﷺ، واختلفوا فيما عدا ذلك كما اختلف غيرهم.

وأمّا الخوارج: فعمدة مذهبهم الكلام فى الإيمان والكفـر، ما هما؟ والتسمية بهما، والوعيد، والإمامة، واختلفوا فيما عدا ذلك كما اختلف غيرهم.

وإنما اختصصنا هذه الطوائف بهذه المعاني لأن من قـال إنَّ أعمال الجسد إيمان، فإنَّ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصيـة، وإنَّ مؤمنًا يكفر بشيء من الذنوب، وإنّ مؤمنًا بقلبه أو بلسـانه يخلد فى النار فليس مـرجئـيًّـا. ومن وافـقهم على أقـوالهم ها هنا وخالفهم فيما عدا ذلك من كل ما اختلف المسلمون فيه فهو مرجىء.

ومن خالف المعتزلة فى خلق القرآن والرؤية والتشبيه والقدر وأنَّ صاحب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر لكن فاسق فليس منهم. ومن وافقهم فيما ذكرنا فهو منهم وإن خالفهم فيما سوى ما ذكرنا فيما اختلف فيه المسلمون.

---

(١) هشام بن الحكم أبو محمد الشـيباني من أهل الكوفة سكن بغداد وكان من كبار الرافـضة ومشاهيرهم وكان مجسمًا يزعم أن ربه طوله سبعة أشبار بشـبر نفسه، ويزعم أن علم الله محدث، وقال قتيبة في مختلف الحديث كان من الغلاة ويقول بالجبر الشديد، ويبالغ في ذلك، ويجوز المحال الذي لا يتردد .. ميزان الاعتدال (٦/ ١٩٤).

(٢) محمـد بن علي بن النعمان بن أبي طريفـة البجلي الكوفي أبو جعفـر الملقب شيطان الطاق نسب إلى سوق في طاق المحامل بالكوفة... ويقال أن أول من لقبـه شيطان الطاق أبو حنيفة مع مناظرة جرت بحضرته وبين بعض الحرورية ... (لسان الميزان ٥/ ٣٠٠).

(٣) قال عنه أبو الحسن الأشعري إنه من المجسمين هو ومقـاتل بن سليمان فقالا: إن الله جسم، وإنه جثه على صورة الإنسان لحم ودم وشعر وعظم وله جـوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين - تعالى الله عما يقول الظالمون - ... مقالات الإسلاميين (١/ ٢٨٣).

ومن وافق الشيعة فى أنّ عليًّا ﷺ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعى، وإن خالفهم فيما عدا ذلك فيما اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيًا.

ومن وافق الخوارج فى إنكار التحكيم، وتكفير أصحاب الكبائر، والقول بالخروج على أئمة الجور، وأنّ أصحاب الكبائر مخلدون فى النار، وأنّ الإمامة جائزة فى غير قريش فهو خارجى، وإن خالفهم فيما عدا ذلك اختلف فيه المسلمون؛ وإن خالفهم فيما ذكرنا فليس خارجيًا.

قال أبو محمد: وأهل السنة الذين نذكرهم أهل الحق، ومن عداهم فأهل البدعة، فإنهم الصحابة ﷺ، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمهم الله تعالى، ثم أصحاب الحديث ومن اتَّبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلي يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم.

قال أبو محمد: وقد تسمّى باسم الإسلام من أجمع جميع فرق أهل الإسلام على أنه ليس مسلمًا مثل طوائف من الخوارج غلوا فقالوا: إن الصلاة ركعة بالغداة وركعة بالعشى فقط، وآخرون استحلوا نكاح بنات البنين، وبنات البنات، وبنات بنى الإخوة، وبنات بنى الأخوات، وقالوا: إن سورة يوسف ليست من القرآن. وآخرون منهم قالوا بحدّ الزانى والسارق ثم يستتابون من الكفر؛ فإن تابوا وإلاّ قتلوا.

وطوائف كانوا من المعتزلة ثم غلوا فقالوا بتناسخ الأرواح.

وآخرون منهم قالوا: إن شحم الخنزير ودماغه حلال.

وطوائف من المرجئة قالوا: إن إبليس لم يسأل الله تعالى قط النظرة، ولا أقرَّ بأنّ الله تعالى خلقه من نار، وخلق آدم عليه السلام من تراب.

وآخرون منهم قالوا: إنَّ النبوّة تكتسب بالعمل الصالح.

واخرون كانوا من أهل السنّة فغلوا، فقالوا: قد يكون فى الصالحين من هو أفضل من الأنبياء ومن الملائكة عليهم السلام، وأن من عرف الله تعالى حقَّ معرفته فقد سقطت عنهم الأعمال والشرائع.

وقال بعضهم بحلول البارى تعالى فى أجسام خلقه كالحلاج وغيره.

وطوائف كانوا من الشيعة ثم غلوا، فقال بعضهم بالإلاهية على بن أبى طالب ﷺ

والأئمة بعـده. ومنهم من قال بنبوتـه وبنبوّتهم، ويتناسخ الأرواح كالسيّد الحمـيرى الشاعر وغيره.

وقـالت طائفـة منهـم بإلاهيـة أبي الخطـاب محـمـد بن أبي زينب مـولى بنى أسـد.

وقالت طائفـة بنبوة المغيرة بن أبـى سعيد مـولى بني بجيلة[١]، وبنبوّة أبي منصور العجلي[٢]، وبُزيع الحائك، وبَيَان بن سمعان[٣] التميمى وغيرهم.

وقال آخرون برجـعة على إلى الدنيا، وامتنعوا من القـول بظاهر القرآن وقالوا: إن لظاهره تأويلات، فمنها أن قالوا: إن السماء محمد والأرض أصحابه «وإن الله يأمركم أن تذبحوا البقرة» قالوا: هى فـلانة يعنى أم المؤمنين ﵂. وقالوا: العدل والإحسان: محمد وعلى. والجبت والطاغوت هو فلان وفلان يعنون أبا بكر وعمر ﵄. وقالوا: الصلاة هى دعـاء الإمام. والزكاة هى مـا يعطى الإمام. والحج: القصـد إلى الإمام. وفيهم خناقون ورضّاخون، وكل هذه الفرق لا تتعلق بحجة أصلاً، وليس بأيديهم إلاّ دعوى إلهام والقـحة، والمجاهرة بالكذب، ولا يلتفـتون إلى مناظرة. ويكفى من الرّد عليـهم أن يقال لهم: مـا الفرق بينكم وبين من ادّعى أنه ألهم بطلان قـولكم..؟ ولا سبيل إلى الانفكاك من هذا.

وأيضًا فإنّ جميع فرق الإسلام متبرئة منهم، مكفّرة لهم، مجمعون على أنّهم على غير الإسلام، ونعوذ بالله من الخذلان.

---

(١) المغيرة بن سعيد البجلي أبو عبد الله الكوفي الرافـضي الكذاب قال حماد بن عيـسى الجهني حدثني أبو يعقوب الـكوفي سمعت المغيـرة بن سعيد يقـول: سألت أبا جعفـر كيف أصبحت: قـال: أصبحت برسول الله خـائفًا وأصبـح الناس كلهم برسول الله آمنـين تعالى الله عن ذلك ورسـوله .... لسان الميزان (٦/ ٧٦).

(٢) قال عبد القاهر البغدادي أن أبا منصور العجلي الذي زعم أن الإمامة دارت في أولاد على حتى انتهت إلى أبي جعفر بن محمد بن على بن الحسين، وادعى هـذا العجلي أنه خليفة الباقر ثم ألحد في دعواه فزعم أنه عرج به إلى السماء وأن الله تعالـى مسح بيده على رأسه، وقال له يا بني بلغ عني ثم أنزله ... (الفرق بين الفرق ٢٣٤).

(٣) بيان بن سمـعان التميـمي صاحب الفرقة البـيانية يقولون: إن الله عز وجل عـلى صورة الإنسان وأنه يهلك كله إلا وجهه، وادعى بيان أنه يدعو الزهرة فتجـيبه وأنه يفعل ذلك بالاسم الأعظم فقتله خالد ابن عبد الله القسري (المقالات الإسلامية ١/ ٥).

خروج أكثر هذه الفرق عن دين الإسلام

قال أبو محمد: الأصل فى خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسهم حتَّى أنهم كانوا يسمّون الأحرار والأبناء، وكانوا يعدّون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدّولة عنهم على أيدى العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرًا، تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى ففى كلٍّ ذلك يظهر الله تعالى الحق، وكان من قائمتهم منقاذ، والمقنع، واستايين، وبابك وغيرهم. وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خذاشا، وأبو مسلم السَّراج فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبّة أهل بيت رسول الله ﷺ، واستشناع ظلم عليٍّ ﷺ، ثم سلكوا بهم مسالك شتَّى حتّى أخرجوهم عن الإسلام.

فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلاً ينتظر يدعى المهدى عنده حقيقة الدين، إذ لا يجوز أن يؤخذ الدِّين من هؤلاء الكفار، إذ نسبوا أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر. وقوم خرجوا إلى ما ذكرنا من نبوة من ادَّعوا له النبوّة. وقوم سلكوا لهم المسلك الذى ذكرنا من القول بالحلول وسقوط الشرائع: وآخرون تلاعبوا بهم فأوجبوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة. وآخرون قالوا: بل هى سبع عشرة صلاة فى كل صلاة خمس عشرة ركعة. وهذا قول عمرو بن عبد الله بن الحارث الكندى، قبل أن يصير خارجيًّا صفريًّا، وقد سلك هذا المسلك أيضًا عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى، فإنه لعنه الله أظهر الإسلام ليكيد أهله، فهو كان أصله إثارة الناس على عثمان رضي الله عنه وأحرق علىُّ بن أبى طالب ﷺ طوائف أعلنوا بإلاهيته.

ومن هذه الأصول الملعونة حدثت الإسماعيلية والقرامطة، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة، قائلتان بالمجوسية المحضة، ثم مذهب مزدك الموبذ الذى كان على عهد أنوشروان بن قباذ ملك الفرس(١)، وكان يقول بوجوب تواسى الناس فى النساء والأموال.

---

(١) إن المزدكية كانوا يستحلون المحرمات كلها، وكانوا يقولون إن الناس كلهم شركاء في الأموال والحرم وقتلهم أنو شروان في أيام مملكته ... التبصير في الدين (١/ ١٣٥).

قال أبـو محـمد: فإذا بلغ النـاس إلى هذين الشعبين أخـرجوه عن الإِسـلام كيف شاؤوا، إذ هذا هو غـرضهم فـقط، فالله الله عـبادَ الله فى أنفسكم ولا يغـرنكم أهل الكفر والإلحاد، ومن موَّه كلامه بغيـر برهان، لكن بتمويهات، ووعظ على خلاف ما أتاكم به كتاب ربكم، وكلام نبيكم ﷺ فلا خير فيـما سواهما، واعلموا أنَّ دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سرَّ تحته، كلّه برهان لا مسامحة فيه، واتَّهموا كلَّ من يدعـو أن يتبع بـلا برهان، وكل من ادَّعى أن لله ديانة سرًّا وباطنًا، فـهى دعاوى ومخارق واعلموا أنَّ رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فـما فوقها. ولا أطلع أخص الناس به من ابنة أو ابن عم أو زوجة أو صاحب على شىء من الشريعة، كتمه عن الأحمـر والأسود، ورعـاة الغنم، ولا كان عنده عليـه السلام سـرٌّ ولا رمز، ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه، فلو كتمهم شيئًا لما بَلَّغ كما أمِر، ومن قال هذا فهو كافر، فإيَّاكم وكلَّ قـول لم يبن سبيلُه ولا وضح دليلُه، ولا تعرجوا عـمَّا مضى عليه نبيكم ﷺ وأصحابه ﷺ.

قال أبو مـحمد: قد أوضـحنا شنع جميع هذه الفـرق فى كتاب لنا لطيف اسـمه: «النصائح المنجيـة من الفضائح المخزية والقبائح المردية من أقـوال أهل البدع من الفرق الأربع: المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيع».

ثم أضفناه إلى آخر كلامنا فى النحل من كتابنا هذا.

وجملة الخير كله أن تلتزموا ما نصَّ عليـه ربكم تعالى فى القرآن بلسانٍ عربى مبين لـم يفرِّط فـيه من شىء، تبيانًا لكل شىء، ومـا صحَّ عن نبيكم ﷺ برواية الثقاة من أئمة أصحاب الحديث ﷺ مسندًا إليه عليـه السلام فهما طريقان يوصلانكم إلى رضى ربكم عزَّ وجل.

ونحن نبتدىء من هنا إن شاء الله تعالى بالكلام فى المعانى التى هى عمدة ما افترق المسلمون عليه، وهى التوحيد، والقدر، والإيمان، والوعيد، والإمامة، والمفاضلة، ثم أشياء يسميها المتكلمـون اللطائف، ونورد كلَّ ما احتجّوا به، ونبين بالبراهين الضرورية إن شاء الله تعالى وجه الحق فـى كل ذلك؛ كما فعلنا فيما خـلا، بعون الله تعالى لنا وتأييده، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلى العظيم. فأول ذلك:

□ □ □

الكلام فى التوحيد ونفى التشبيه

قال أبو محمد: ذهبت طائفة إلى القول بأنّ الله تعالى جسم، وحجتهم فى ذلك أنه لا يقوم فى المعقول إلا جسم أو عرض، فلما بطل أن يكون تعالى عرضًا ثبت أنه جسم، وقالوا: إن الفعل لا يصح إلاّ من جسم والبارى تعالى فاعل فوجب أنه جسم، واحتجّوا بآيات من القرآن فيها ذكر اليدين واليد والأيدى والعين والأعين والوجه والجنب، ويقوله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾ و ﴿يأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] و ﴿تجلى ربه﴾ وبأحاديث للجبل فيها ذكر القدم، واليمين والرجل والأصابع والتنزل.

قال أبو محمد: ولجميع هذه النصوص وجوه ظاهرة، خارجة على خلاف ما ظنوه وتأوّلوه.

قال أبو محمد: وهذان استدلالان فاسدان.

أمّا قولهم: إنه لا يقوم فى المعقول إلاّ جسمٌ أو عرض، فإنها قسمة ناقصة وأما الصّواب: أنه لا يوجد فى العالم إلاّ جسم أو عرض وكلاهما يقتضى بطبيعة وجوده وجوب محدث له، فبالضرورة نعلم أنه لو كان محدثهما جسمًا أو عرضًا لكان يقتضى فاعلاً فَعَلَه ولابدَّ. فوجب بالضرورة أنَّ فاعل الجسم والعرض ليس جسمًا ولا عرضًا وهذا برهان يضطر إليه كل ذى حسٍّ بضرورة العقل ولابدَّ.

وأيضًا فلو كان البارى -تعالى عن إلحادهم- جسمًا لاقتضى ذلك ضرورة أن يكون له زمان ومكان هما غيره!! وهذا إبطال التوحيد وإيجاب الشرك معه تعالى لشيئين سواه، وإيجاب أشياء معه غير مخلوقة، وهذا كفر، وقد تقدّم إفسادنا لهذا القول.

وأيضًا فإنه لا يعقل ألبتة جسم إلاّ مؤلف طويل عريض عميق، ونظّارهم لا يقولون بهذا فإن قالوه ما لزمهم أنَّ لو مؤلفًا جامعًا مخترعًا فاعلاً، فإن منعوا من ذلك لزمهم أن يوجبوا لما فى العالم من التأليف لا مؤلف له ولا جامعًا، إذ المؤلَّف كله كيفما وجد يقتضى مؤلفًا ضرورة.

فإن قالوا: هو جسم غير مؤلَّف قيل لهم: هذا هو الذى لا يعقل حسًّا ولا يتشكّل

فى النفوس ألبتة.

فإن قالوا: لا فـرق بين قولنا شيء وبين قولنا جسم، قـيل لهم: هذه دعوى كاذبة على اللغة التى بها تتكلمون.

وأيضًا فهو بـاطل لأنَّ الحقيقة أنه لو كان الشيء والجـسم بمعنى واحد لكان العَرَض جسمًا لأنه شيء وهذا باطل بيقين.

والحقيقة هى أنه لا فرق بين قولنا: شيء، وقولنا: مـوجود وحق وحقيقة ومثبت، فهذه كلها أسمـاء مترادفة على معني واحد لا يختلف، وليس منهـا اسم يقتضى صفة أكثر من أنَّ المسمَّى بذلك حق ولا مزيد.

وأمّا لفظة جسم فإنّها فى اللغة عبارة عن الطويل العريض العميق، المحتمل للقسمة ذى الجهـات الست التى هى فوق وتحت، ووراء، وأمام، ويمين، وشمـال، وربما عدم واحد منهـا،وهى الفوق، هذا حكم هذه الأسمـاء فى اللغة التى هذه الأسمـاء منها، فمن أراد أن يوقع شيئًا منها على غير مـوضوعها فى اللغة فهـو مجنون وقاح، وهو كمن أراد أن يسـمّى الحق باطلاً والباطل حقًـا، وأراد أن يسمّى الذّهب خشـبًا، وهذا غاية الجهل والسـخف، إلاَّ أن يأتى نصٌّ بنقل اسم منها عن موضوعـه إلى معنى آخر فيوقف عنده، وإلاَّ فـلا، وإنما يلزم كلّ مناظر يريد معرفة الحقائق أو التـعريف بها أن يحقق المعـانى التى قع عليهـا الاسم ثم يخبر بعـد بها أو عنها بالواجب، وأمّـا مزج الأشياء وقـلبها عن موضـوعاتها فى اللغة فـهذا فعل السوفـسطائية الوقحـاء الجهال، العابثون بعقولهم وأنفسهم.

فإن قالوا لنا: إنكم تقولون إن الله عزّ وجل حيٌّ لا كالأحياء، وعليم لا كالعلماء، وقادر لا كالقادرين، وشيء لا كالأشياء، فلِمَ منعتم القول بأنه جسم لا كالأجسام؟!.

قيل لهم وبالله تعالـى التوفيق: لولا النصّ الوارد بتسمـيته حيًّا وقديرًا وعليـمًا ما سميناه بشيء من ذلك، لأن الوقوف عند النصّ فرَض، ولم يأت نصٌّ بتـسميته تعالى جسـمًا، ولاَّ قام البرهان بتـسميـته تعالى جسـمًا بل البرهان مـانع من تسميتـه تعالى بذلك، ولو أتانا نصٌّ بتسـميتـه تعالى جسـمًا لوجب علينا القول بذلك، وكنا حـينئذ نقول: إنه جسم لا كالأجسام، كـما قلنا فى عليم وقدير، وحى ولا فرق. وأمّا لفظه شـيء فالنـص أيضًا جاء بـها والبرهـان، أوجـبها على ما نـذكره بعـد هـذا إن شـاء الله تعالى.

وقالت طائفة منهم إنه تعالى نور واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [سورة النور: ٣٥].

قال أبو محمد: ولا يخلو النور من أحد وجهين إمّا أن يكون جسمًا، وإما أن يكون عرضًا، وأيّهما كان فقد قام البرهان على أنه تعالى ليس جسمًا ولا عرضًا، وأمّا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ فإنّما معناه «هدى الله بتنوير النفوس، إلى نور الله تعالى في السماوات والأرض». وبرهان ذلك أنه عزّ وجلّ أدخل في جملة ما أخبر: أنه نور له فلو كان الأمر على أنه النّور المضيء المعهود لما خبا الضياء ساعة من ليل أو نهار ألبتة، فلما رأينا الأمر بخلاف ذلك علمنا أن الأمر بخلاف ما ظنّوه.

قال أبو محمد: ويُبطلُ قولَ من وصف الله تعالى بأنه جسم، وقولَ من وصفه بحركة -تعالى عن ذلك- أن الضرورة توجب أن كل متحرك فذو حركة، وأنَّ الحركة لمتحرّك بها، وهذا من باب الإضافة والصّورة في المتصوّر لمتصوّر، وهذا أيضًا من باب الإضافة، فلو كان كلّ مصوّر متصوراً، وكل محرّك متحركًا لوجب وجود أفعال لا أوائل لها، وهذا قد أبطلناه فيما خلا من كتابنا بعون الله تعالى لنا وتأييده إيّانا، فوجب ضرورة وجود محرِّك ليس متحركًا ومصورٍ ليس متصوَّراً ضرورة ولابدَّ. وهو البارى تعالى محرِّك المتحرِّكات ومصوّر المتصورات، لا إله إلاّ هو، وكل جسم فذو صورة، وكلّ ذى حركة فذو عرض محمولٍ فيه، فصحّ أنه تعالى ليس جسمًا ولا متحركًا، وبالله تعالى التوفيق.

وأيضًا فقد قدمنا أنَّ الحركة والسكون مُدَّة، والمدّةُ زمان، وقد بينا فيما خلا من كتابنا أن الزمان محدث، فالحركة محدثة، كذلك السكون، والبارى تعالى لا يلحقه الحدث إذ لو لحقه لكان محدثًا، فالبارى تعالى غير متحرك ولا ساكن.

وأيضًا فإنَّ الجسم إنما يفعل آثارًا في جسم فقط، ولا يفعل الأجسام، فالبارى تعالى إذن على قول المجسِّمة إنما هو فاعل آثار في الأجسام فقط لا فاعل أجسام العالم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

فإن قالوا: فإنّكم تسمّونه فاعلاً وتسمُّون أنفسكم فاعلين، وهذا تشبيه. قلنا له - وبالله تعالى التوفيق -: لا يوجب ذلك تشبيهًا، لأن التشبيه إنما يكون بالمعنى الموجود في كلا المشتبهين لا بالأسماء، وهذه التسمية إنّما هي اشتراك في العبارة. فقط، لأن الفاعل متحرّك باختيار لا بالأسماء، وهذه التسمية إنّما هي اشتراك في

العبارة فقط، لأن الفاعل متحرّك باختيار أو عارف، أو شاكّ، أو مريد أو كاره باختيار وضمير، فكلّ فاعل متحرّك ذو ضمير، وكلٌّ متحرّك فذو حركة، والحركة وأعراض الضمائر انفعالات، فكل متحرّك منفعل، وكل منفعل فلفاعل ضرورة، وأمّا الباري تعالى ففاعل باختيار واختراع، لا بحركه ولا ضمير، فهذا اختلاف لا اشتباه. وبالله تعالى التوفيق.

وكذلك العرض ليس جسمًا، وقولنا الجسم ليس عرضًا، والبارى تعالى ليس جسمًا ولا عرضًا فهذان الحكمان لا يوجبان اشتباهًا أصلاً بل هذا عين الاختلاف، لأن الاشتباه إنما يكون بإثبات معنى فى المشتبهين به اشتبها، ولو أوجب ما ذكرنا اشتباهًا لوجب أن يكون يشبه الجسم فى الجسمية لأنه ليس عرضًا، وأن يكون يشبه العرض فى العرضية لأنّه ليس جسمًا فكان جسمًا عرضًا معًا، وهذا محال، فصحّ أن بالنفى لا يصح الاشتباه وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: ومن قال إنَّ الله تعالى جسم لا كالأجسام فهو ملحد فى أسمائه إذ سماه عزَّ وجل بما لم يسمّ به نفسه،

وأمَّا من قال إنه تعالى كالأجسام فهو ملحد فى أسمائه ومشبّه مع ذلك.

مطلب إطلاق الصفات

قال أبو محمد: وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى عزَّ وجل فمحال لا يجوز لأن الله تعالى لم ينصَّ قط فى كلامه المنزل على لفظ الصّفات، ولا على لفظ الصفة ولا جاء قط عن النبىّ ﷺ بأن الله تعالى صفة أو صفات، نعم ولا جاء قط ذلك على أحد من الصحابة ﷺ، ولا عن أحد من خيار التّابعين، ولا عن أحد تابعى التابعين، وما كان هكذا فلا ينبغي لأحد أن ينطق به.

ولو قلنا: إن الإجماع قد تيقّن على ترك هذه اللفظة لصدقنا، فلا يجوز القول بلفظ الصفات ولا اعتقاده، بل ذلك بدعة منكرة قال الله تعالى: ﴿**إنْ هيَ إلاَّ أسماءٌ سمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم مَا أنزل اللهُ بها من سُلْطان إن يتبعون إلاَّ الظنَّ وما تهوَى الأنفسُ ولقدْ جاءَهُم من ربِهم الْهدى**﴾[سورة النجم: ٢٣].

قال أبو محمد: وإنّما اخترع لفظة الصّفات المعتزلة، وسلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام، سلكوا غير مسلك السلف الصّالح ليس فيهم أسوة ولا قدوة وحسبنا

الله ونعم الوكيل، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [سورة الطلاق: ١].

وربما أطلق هذه اللفظة من متأخرى الأئمة من الفقهاء من لم يحقق النظر فيها، فهى وهلة من فاضل، وزلة من عالم، وإنّما الحقُّ فى الدّين ما جاء عن الله تعالى نصًّا أو عن رسوله ﷺ كذلك، أو صحَّ إجماع الأمة كلها عليه، وما عدا هذا فضلال.

فإن اعترضوا بالحديث الذى رويناه من طريق عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن عن أمه عَمرة عن عائشة ؓ فى الرَّجل الذى كان يقرأ: قل هو الله أحد فى كل ركعة مع سورة أخرى، وأنَّ رسول الله ﷺ أمر أن يُسأل عن ذلك قال: هى صفة الرحمن فأنا أحبُّها، فأخبره رسول الله ﷺ أنَّ الله يحبّه[1].

فالجواب وبالله تعالى التوفيق: أنَّ هذه اللفظة انفرد بها سعيد بن أبى هلال[2] وليس بالقوىّ، قد ذكره بالتخليط يحيى وأحمد بن حنبل[3]، وأيضًا فإن احتجاج خصومنا بهذا لا يسوغ لهم على أصولهم لأنه خبر واحد لا يوجب عندهم العلم[4]

(١) صحيح البخاري (٦/ ٢٦٨٦) ح (٦٩٤٠) ومسلم في صحيحه (١/ ٥٥٧) ح (٨١٣) والبيهقي في السنن الصغرى (١/ ٥٥٣) ح (١٠١٣) وفي السنن الكبرى (١/ ٣٤١) ح (١٠٦٥) والنسائي في سننه (٢/ ١٧٠) ح (٩٩٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٣٠) ح (٧٠٣).

(٢) سعيد بن أبي هلال الليثي أبو العلاء المصري يقال أصله من المدينة، قال ابن سعد كان ثقة وقال الساجي صدوق كان أحمد يقول: ما أدري أي شيء يخلط في الأحاديث، وقال العجلي بصري ثقة ووثقه ابن خزيمة والدارقطني والبيهقي والخطيب وابن عبد البر وغيرهم. تهذيب التهذيب (٤/ ٨٣).

(٣) أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي: إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس. وولد ببغداد. ونشأ منكبًا على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفارًا كبيرة وصنف «المسند ـ ط» ستة مجلدات، يحتوي على ثلاثين ألف حديث. وله كتب في التاريخ و«الناسخ والمنسوخ» و«الرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن. ط» و«التفسير» ....

(الأعلام ١/ ٢٠٣، ابن عساكر ٢/ ٢٨ وحلية ٩/ ١٦١).

(٤) قد ذكر الإمام الألباني ردودًا كثيرة على وجوب الأخذ بخبر الواحد في مجال الاعتقاد، وأنه يفيد العلم والعمل ومن هذه الردود:

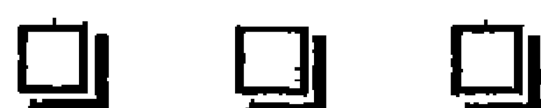
إن هذا القول مبتدع محدث ولا أصل له في الشريعة ولم يعرفه أحد من السلف، ولم ينقل عن أحد منهم ..

* إن هذا القول المذكور يستلزم تفاوت المسلمين فيما يجب عليهم اعتقاده مع بلوغ الخبر إليهم جميعًا، وهذا باطل ...

* إن التفريق بين العقيدة والأحكام العملية .... باطل .... =

وأيضًا: فلو صحَّ لما كان مـخالفًا لقولنا، لأننا إنما أنكرنا قول من قـول: إن أسماء الله تعالى مشتقة من صفـات ذاتية فأطلق ذلك على «العلم» و«القدرة» و«القوة» و«الكلام» أنها صفات، وعلى من أطلق «إرادة» وسمعًا وبصرًا وحياة، وأطلق أنها صفات، فهذا الذى أنكرنا غـاية الإنكار، وليس فـى الحديث المذكـور ولا فى غـيـره شىء من هذا أصلاً، وإنّما فـيه أنَّ «قل هو الله أحد» خاصة صفـة الرحمن، ولم ننكر هذا نحن بل هو خلاف لـقولهم لأنهم لا يخـصّون «قل هو الله أحـد»، بذلك دون الكلام والعلم وغير ذلك، و«قل هو الله أحد» خبر عن الله تعالى بما هو الحق، فنحن نقول فيها هى صفة الرحمن، بمعنى أنهـا خبر عنه تعالى حق، فظهر أن هذا الخبـر حجة عليهم لنا. وأيضًا فمن أعجب الباطل أن يحتج بهذا الخبر فـيما ليس فيه شىء من يخالفه ويعصيه فى الحكم الذى ورد فيه من استحسـان قراءة «قل هو الله أحد» فى كل ركعة مع سورة أخرى، لهذه الفضائح، فلتعجب أهل العقول. وأما الصفة التى يطلقون هم، فإنما هى فى اللغـة واقعـة على عرضٍ في جـوهر لا على ذلك أصلاً. وقـد قال الله تعـالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٨٠].

فأنكر إطلاق الصفات جملة فبطل تمويه من موَّه بالحديث المذكور ليستحل بذلك ما لا يحل من إطلاق لفظ الصفات حـيث لم يأت بإطلاقها فيه نصٌ ولا إجـماع أصلاً، ولا أثر عن السلف. والعجب من اقـتصارهم على لفظة الصفات، ومـنعهم من القول بأنها نعـوت وسمات، ولا فرق بين اللفظتين لا فى لغـة ولا فى معنى، ولا فى نصٍ ولا فى إجماع، وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.



* إن طرد قولهم بهذه العقيدة وتبينها دائمًـا يستلزم تعطيل العمل بحديث الآحاد في الأحكام العملية أيضًا، وهذا باطل ... (وجوب الأخذ بخبر الآحاد للألباني (١ :٢٥) وقد قال الامام ابن قدامة: أن خبر الآحاد مفيداً للعلم لما اقترن به من قرائن: الزيادة في العدالة وتلقى الأمة له بقبوله فلذلك اختلف خبر العدل الفاسق ... روضة الناظر (١/ ٤٠٠) والرسالة للإمام الشافعي (٤٠١).

الكلام فى المكان والاستواء

قال أبو محمد: ذهبت المعتزلة إلى أن الله سبحانه وتعالى فى كل مكان، واحتجوا بقول الله عزّ وجل: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾ [سورة المجادلة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [سورة ق: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ**﴾ [سورة الواقعة: ٨٥].

قال أبو محمد: قول الله عزّ وجل يجب حمله على ظاهره ما لم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر، أو إجماع، أو ضرورة حس.

وقد علمنا أن كلّ ما كان فى مكانه فإنه شاغل لذلك المكان، ومالىء له ومتشكل بشكل المكان، أو المكان متشكل بشكله، ولابدّ من أحد الأمرين ضرورة. وقد علمنا أنّ ما كان فى مكان فإنه شاغل لذلك المكان، ومتناه بتناهى مكانه، وهو ذو جهات ست أو خمس متناهية فى مكانه، وهذه كلها صفات الجسم، فلما صحّ ما ذكرنا علمنا أن قوله تعالى: ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾. و﴿**ونحن أقرب إليه منكم**﴾. و﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم**﴾ إنما هو التدبير لذلك والإحاطة به فقط ضرورة لانتفاء ما عدا ذلك.

وأيضًا: فإن قولهم «فى كل مكان» خطأ؛ فإنه يلزم بموجب هذا القول أن يملأ الأماكن كلها، وأن يكون ما فى الأماكن فيه -الله تعالى عن ذلك- وهذا محال.

فإن قالوا: هو فيها بخلاف كون المتمكن فى المكان.

قيل لهم: هذا لا يعقل ولا يقوم عليه دليل، وقد قلنا: إنه لا يجوز إطلاق اسم على غير موضوعه فى اللغة، إلاّ أن يأتى به نص فنقف عنده، وندرى حينئذ أنه منقول إلى ذلك المعنى الآخر، وإلاّ فلا، فإذ قد صحّ ما ذكرنا فلا يجوز أن يطلق القول بأن الله تعالى فى مكان لا على تأويل ولا على غيره، لأنه حكم بأنه تعالى فى الأمكنة، لكن يطلق القول بأنه تعالى معنا فى كلّ مكان، ويكون حينئذ قولنا فى كلّ مكان إنّما هو صلة الضمير الذى هو النون والألف اللذان فى «معنا» لا فيما نخبر به عن الله تعالى، وهذا هو معنى قوله: «هو معهم أينما كانوا، وهو معكم أينما كنتم».

وذهب قوم إلى أن الله تعالى في مكان دون مكان.

وقولهم هذا يفسد بما ذكرنا، ولا فرق.

واحتجّ هؤلاء بقوله تعالى: ﴿**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [سورة طه: ٥].

قال أبو محمد: وقد تأول المسلمون في هذه الآية تأويلات أربعة.

أحدها: قول المجسمة، وقد بان بحول الله فساده.

والثاني: قالت المعتزلة: هو أن معناه «استولى» وأنشدوا:

قَد اسْتَوى بشر على العراق(١)

قال أبو محمد: وهذا فاسد لأنه لو كان كذلك لكان العرش أولى بالاستيلاء عليه من سائر المخلوقات. ولجاز لنا أن نقول: «الرحمن على الأرض استوى» لأنه تعالى مستولٍ عليها، وعلى كل ما خلق. وهذا لا يقوله أحدٌ. فصار هذا القول دعوى مجرّدة بلا دليل فسقط.

وقال بعض أصحاب ابن كلاب: إن الاستواء صفة ذات، ومعناه نفى الاعوجاج.

قال أبو محمد: وهذا القول فى غاية الفساد لوجوه:

أحدها: أنه تعالى لم يسمٍّ نفسه مستويًا، ولا يجل لأحد أن يسمّى الله تعالى بما لم يسمٍّ به نفسه، لأنه من فعل ذلك فقد ألحد فى أسمائه أى مال عن الحق، وقد حدَّ الله تعالى فى تسميته حدودًا فقال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ [سورة الطلاق: ١].

وثانيها: أن الأمة مجمعة على أنه لا يدعو أحد يقول: «يا مستوى ارحمنى»، ولا يسمّى ابنه عبد المستوى.

وثالثها: أنه ليس كل ما نفى عن الله عزَّ وجل وجب أن يوقع عليه ضده، لأننا ننفى عن الله عزَّ وجل السكون، ولا يحل أن نسمى الله عز وجل متحركًا، وننفى عنه الحركة، ولا يجوز أن يسمَّى ساكنًا. وننفى عنه الخشم ولا يجوز أن يسمى شمَّامًا وننفى عنه النَّوم، ولا يجوز أن يسمى يقظانِ، ولا منتبهًا، ولا يسمّى لنفى الانحناء عنه مستقيمًا، وكذلك كل صفة لم يأت بها النص، فكذلك الاستواء والاعوجاج

(١) لسان العرب (١٤/ ٤١٤) والمواقف للإيجي (١/ ٢٠٧)، قواعد العقائد للغزالي (١/ ١٦٥)، غاية المرام (١/ ١٤١)، وط لغنية في أصول الدين (١/ ٧٧).

منفيان عنه معًا، سبحانه وتعالى عن ذلك لأن كل ذلك من صفات الأجسام، ومن جملة الأعراض، والله قد تعالى عن الأعراض.

ورابعها: أنه يلزم من قال بهذا القول أن يكون العرش لم يزل تعالى الله عن ذلك لأنه تعالى علّق الاستواء بالعرش فلو كان الاستواء لم يزل لكان العرش لم يزل فهذا كفر.

وخامسها: أنه لو كان الاستواء ها هنا نفى الاعوجاج لم يكن لإضافة ذلك إلى العرش معنى، ولكان كلامًا فاسدًا لا وجه له.

فإن اعترضوا فقالوا: إنكم تسمونه سميعًا بصيرًا، وأنه لم يزل كذلك فيلزم على هذا أن المسموعات والمبصرات لم تزل.

قلنا لهم وبالله تعالى نتأيد: هذا لا يلزمنا لأننا لا نسمى الله تعالى إلاَّ بما سمى نفسه فنقول إن الله تعالى السميع البصير لم يزل وهو السميع البصير بذاته كما هو لا بسمع ولا ببصر، ولم نزد على ما أتى به النص شيئًا. ونحن نقول: إنه تعالى لم يزل بصيرًا بالمبصرات، سميعًا بالمسموعات يرى المرئيات ويسمع المسموعات، ومعنى هذا كله أنه عالم بكل ذلك ويعلم كل ذلك على ما يكون عليه ثم على حقيقته وعلى ما هو عليه، هذا معنى الذى لا يقتضى وجودًا لمعلومات لم تزل، وهذا نجده حسًّا ومشاهدة وضرورة، لأننا لما بينا زيدًا سيموت وأن موته لم يقع بعد وليس هكذا قولهم فى الاستواء لأنه مرتبط بالعرش. فإن قالوا فإذن معنى «سميع بصير» هو معنى «عليم» فقولوا: إنه تعالى يبصر المسموعات ويسمع المرئيات؟ قلنا وبالله تعالى التوفيق:

ما نمنع من هذا ولا ننكره، بل هو صحيح لأن الله تعالى إنما قال: أسمع وأرى. فهذا إطلاق على كل شيء على عمومه، وبالله تعالى التوفيق.

والقول الرابع فى معنى الاستواء: هو أنَّ معنى قول الله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾: أنه فعلٌ فعله فى العرش وهو انتهاء خلقه إليه، فليس بعد العرش شيء، ويبيّن ذلك أنّ رسول الله ﷺ ذكر الجنات وقال: «**فاسألوا الله الفردوس الأعلى فإنّه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوق ذلك عرش الرحمن**» فصحّ أنه ليس وراء العرش خلق، وأنه نهاية جرم المخلوقات الذى ليس خلفه خلاء ولا ملاء، ومن أنكر أن يكون للعالم نهاية من المساحة والزمان والمكان أو من جرمه فقد لحق بقوله الدّهرية، وفارق الإسلام.

والاستواء فـى اللغة يقع على الانتهاء، وقـال تعالى:﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [سورة القصص: ١٤].

أي: فلمـا انتهى إلى القـوة والخيـر. وقال تعـالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [سورة فصلت: ١١].

أى أنَّ خلقه وفعله انـتهى إلى السماء بعد أن رتب الأرض على مـا هى عليه وبالله تعالى التوفيق.

وهذا هو الحق وبه نقول لصحة البرهان به وبطلان مـا عداه. فأمّا القول الثالث فى المكان: فهو أن الله تعـالى لا فى مكان ولا فى زمان أصلاً[1]، وهو قول الجمهور من أهل السنة وبه نقول، وهو الذى لا يجـوز غيره لبطلان ما عداه، ولـقوله تعالى:﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [سورة فصلت: ٥٤].

فهذا يوجب ضرورة أنه تعالـى لا فى مكان إذ لو كان فى المكان لكان المكان محيطًا به من جـهة مَّا أو من جـهات، وهذا منتف عن البـارى تعالى بنص الآيـة المذكورة، والمكان شيء بلا شك، فلا يجوز أن يكون شيء فى مـكان ويكون هو محيطًا بمكانه، وهذا محال فى العقل يعلم امتناعه ضرورة. وبالله التوفيق.

---

(١) لقد ذهب الأئمة الأربعة وعدد كثير من العلماء كـابن تيمية وأبو الحسن الأشعري وابن القيم والذهبي إلى إثبات العلو واسـتواء الله تعالـى وذلك على الحقيـقة لا على المجاز وكـذلك الإمام أبي محـمد عبدالله بن سعيد بن كلاب إمام الطائفة الكلابية وقال: إن الله مستو على عرشه كما قال:
وقد سئل الجويني على قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فقال: كان الله ولا مكان عرش وجعل يتخبط في الكلام .... فقيل له: فهل عندك للضرورات من حـيلة؟ فقال: ما تريد بهذا القول؟ وما تعني بهذه الإشارة فـقلت: ما قال عارف قط يا رباه إلا قـبل أن يتحرك لسانه قـام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقصد الفوق فهل من حيلة؟
فضرب الأستاذ بكمـه على السرير وصاح يا للحيرة وخرق ما كان عليـه وانخلع ... وقال: حيرني الهمداني (العلو للذهبي ٢٥٩).
وقد رد الإمام ابن تيمية ردود كثيرة في فتاويه على القائلين بالاستيلاء منها.
* أن هذا التفسير لم يفسره أحد من السلف.
* قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول ...».
* الاستواء معلوم في اللغة فمن باب أولى أن يكون معلومًا في القرآن.
* أن معنى استوى خاص بالعرش ليس عامًا كعموم الأشياء.
* لم يثبت أنه بمعنى استولى في اللـغة، وقد ذكر ردوداً كثيرة انظر: (رسالة إثبـات العلو لابن تيمية ٥/ ١٤٤ إلى ١٤٨).

وأيضًا فإنه لا يكون فى مكان إلاَّ ما كان جسمًا أو عرضًا فى جسم، هذا الذى لا يجوز سواه، ولا يتشكل فى العقل والوهم غيره ألبتة، فإذا انتفى أن يكون الله عزّ وجل جسمًا أو عرضًا فقد انتفى أن يكون فى مكان أصلاً وبالله تعالى نتأيد.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [سورة الحاقة: ١٧].

فقوله الحق نؤمن به يقينًا والله أعلم بمراده فى هذا القول، ولعلَّه عزَّ وجل عنى السماوات والكرسى فهذه ثمانية أجرام، هى يومئذ والآن بيننا وبين العرش، ولعلهم أيضًا ثمانية ملائكة، والله أعلم، نقول ما قاله ربنا تعالى، ونقطع أنه حق يقين على ظاهره، وهو أعلم بمعناه ومراده، وأمَّا الخرافات فلسنا منها فى شىء، ولا يصحّ هذا فى خبر عن النبي ﷺ، ولكنا نقول: هذه غيوب لا دليل لنا على المراد بها، لكنَّا نقول: ﴿آمنّا به كلٌ منْ عند ربّنا﴾ [سورة آل عمران: ٧]. وكل ما قاله الله تعالى حق ليس منه شىء منافيًا للعقول، بل هو كله قبل أن يخبرنا الله به فى حدّ الإمكان عندنا، ثم إذا أخبر به عزَّ وجل صار واجبًا حقًا يقينًا، وقد قال الله تعالى: ﴿الّذين يحملون العرش ومن حوله﴾ [سورة غافر: ٧].

فصحَّ يقينًا أنَّ للعرش حملة، وهم الملائكة المنفذون لأمره تعالى، كما نقول: أنا أحمل هذا الأمر أى أقوم به وأتولاّه، وقد قال تعالى: ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ [سورة النحل: ٥٠] وأنهم يتنزلون بالأمر. وأما الحامل للكل والممسك للكل فهو الله تعالى عزّ وجل، قال الله تعالى: ﴿إنَّ الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحد من بعده﴾ [سورة فاطر: ٤١].

الكلام فى العلم

قال الله عز وجل: ﴿أنزله بعلمه﴾ [سورة النساء: ١٦٦].

فأخبر تعالى أن له علمًا، ثم اختلف الناس فى علم الله تعالى فقال جمهور المعتزلة: إطلاق العلم لله تعالى إنما هو مجاز لا حقيقة، وإنما معناه: أنه لا يجهل.

وقال سائر الناس: إنَّ لله تعالى علمًا حقيقة لا مجازًا، ثم اختلف هؤلاء فقال جهم بن صفوان وهشام بن الحكم، ومحمد بن عبد الله بن مسرة الجيلى وأصحابهم: إن علم الله تعالى هو غيره، وهو محدَث مخلوق، سمعنا ذلك ممن جالسناه منهم، وناظرناهم عليه.

وقـالت طوائف من أهل السنة: علم الله تعـالى غيـر مـخلوق لم يزل، وليس هو الله، ولا هو غير الله.

وقال الأشعرى فى أحد قوليه: لا يقال هو الله، ولا يقال هو غير الله.

وقال فى قول له آخر وافقه عليه الباقلانى[1] وجمهور أصحابه: إن علم الله تعالى هو غير الله، وإنه مع ذلك غير مخلوق لم يزل.

وقـال أبو الهذيل العـلاّف وأصـحابه: علم الله تعـالى لم يزل وهو الله، وقـالت طوائف من أهل السنة: علم الله تعالى لم يزل وهو غيـر مخلوق، وليس هو غير الله ولا نقول هو الله.

وكان هشام بن عمرو الفوطى[2] أحد شيوخ المعـتزلة لا يطلق القول بأن الله تعالى لم يزل عالمًا بالأشيـاء قبل كونها، ليس لأنه لا يعلم مـا يكون قبل أن يكون، بل كان يقول بأن الله تعالى لم يزل عالمًا بأنه ستكون الأشياء إذا كانت.

قال أبو محمد. فأما من أنكر أن يكون لله تعالى علم فإنهم قالوا: لا يخلو لو كان لله علم من أن يكون غـيره أو يكون هو هو، فـإن كان غـيره فـلا يخلو من أن يكون مخلوقًـا أو لم يزل. وأيّ الأمرين كـان فهو فـاسد، فإن كـان هو الله فالله علم وهذا فاسد.

قال أبو محمد: أمّا نفس قولهم فى أن ليس لله علم فمـخالفٌ للقرآن، وما خالف القرآن فهو باطل، ولا يحل لأحد أن ينكر ما نصَّ الله تعالى عليه وقد نصَّ الله تعالى على أنَّ له علمًا فمن أنكره فقد اعترض عـلى الله تعالى، وأمّا اعتراضاتهم التى ذكرنا فـفاسـدة كلها، وسنوضـح فسـادها إن شاء الله تعـالى فى إفسادنا لقـول الجهـمية

(١) الإمام العلامة أوحد المتكلمين مقدم الأصوليين القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ابن قاسم البصري ثم البغدادي ابن الباقلاني صاحب التصنيف يضرب المثل بفهمه وذكائه، وكان ثقة إمامًا بارعًا صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرامية وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري وقد يخالفه في مضائق.
وقد ذكره القاضي عياض في طبقات المالكية، فقال: هو الملقب بسيف السنة ولسان الأمة المتكلم على لسان أهل الحديث . . . الذهبي سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٠).

(٢) هشام بن عمرو أبو محمد الفوطي المعتزلي الكوفي مولى بني شيبان صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال ونهي عن قول حسبنا الله ونعيم الوكيل وقال لا يعذب الله كافراً بالنار، ولا يحيى أرضًا بالمطر ولا يهدي ولا يضل، وأن معنى نعم الوكيل أي المتوكل عليه، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤٧).

والأشعرية، لأن هذه الاعتراضات من اعتراض هاتين الطائفتين، وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: احتج جهم بن صفوان بأن قال: لو كان علم الله تعالى لم يزل لكان لا يخلو من أن يكون هو الله تعالى أو غيره، فإن كان علم الله تعالى غير الله وهو لم يزل، فهذا تشريك لله تعالى، وإيجاب الأزلية لغيره تعالى معه وهذا كفر، وإن كان هو الله فالله علم وهذا إلحاد.

وقال: نسأل من أنكر أن يكون علم الله تعالى هو غيره، فنقول: أخبرونا، إذا قلنا الله، ثم قلنا: إنه عليم فهل فهم من قولنا: «عليم» شيئًا زائدًا غير ما فهمتم من قولنا (الله) أم لا؟.

فإن قلتم: لا. أحلتم.

وإن قلتم: نعم، أثبتم معنى آخر هو غير الله، وهو علمه، وهكذا قالوا فى (قدير) وفى (قوى) وفى سائر ما ادَّعوا فيه الصفات.

وقال أيضًا: إننا نقول إنَّ الله تعالى عالم بنفسه، ولا نقول قادر على نفسه فصح أن علمه تعالى غير قدرته، وإذ هو غيرهما فهما غير الله تعالى، وقد يعلم الله تعالى قادراً من لا يعلمه عالمًا، ويعلمه عالمًا من لا يعلمه قادرًا، فصح أن كلَّ ذلك معانٍ متغايرة.

واحتج بهذا كله أيضًا من رأى أن علم الله تعالى لم يزل، وأنه مع ذلك غير الله تعالى، وأنه غير قدرته أيضًا، واحتج بآيات من القرآن مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [سورة محمد: ٣١].

ومثل هذه.

قال أبو محمد: من قال بحدوث العلم فإنه قول عظيم جدًا لأنه نصٌّ بأن الله تعالى لم يعلم الأشياء حتى أحدث لنفسه علمًا، وإذا ثبت بأن الله تعالى يعلم الآن الأشياء فقد انتفى عنه الجهل يقينًا، فلو كان يومًا من الدَّهر لا يعلم شيئًا مما يكون فقد ثبت له الجهل به ولابد من هذا ضرورة، وإثبات الجهل لله تعالى كفر بلا خلاف، لأنه وصفه تعالى بالنقص، ووصفه يقتضى له الحدوث ولابدَّ، وهذا باطل مما قدمنا من انتفاء جميع صفات الحدوث عن الفاعل تعالى، وليس هذا من باب نفى الضدَّين عنه كنفينا عنه تعالى الحركة والسكون لأنَّ نفى جميع الضدّين موجود عما ليس فيه أحدهما ولا

كلاهمـا، وأمّا إذا ثبت للموصوف بعض نوع من الصفات، وانـتفى عنه بعض ذلك النوع فـلابدّ ها هنا ضرورة مـن إثبات ضـدّه، مثـال ذلك الحجـر، انتـفى عنه العلم والجهل، وأما الإنسان إذا ثبت له العلم بشيء، وانتفى عنه العلم بشيء آخر فقد وجب ضرورة إثبات الجهل له بما لم يعلمه، وهكذا فى كل شيء؛ فإذ قد صحّ هذا فالواجب النظر في إفساد احتجاجهم، فأمّا قولهم: لو كان علم الله لم يزل، وهو غير الله تعالى لكان ذلك شركًا فهو قول صحيح، واعتراض لا يرد.

وأمّا قولهم: لو كان هو الله لكان الله علمًا، فهذا لا يلزم على ما نبين بعد هذا إن شاء الله تعالى، وجملة ذلك أننا لا نسمّى الله تـعالى إلاَّ بما سمّى به نفسه، ولم يسمِّ نفسه علمًا ولا قدرة، فلا يحل لأحد أن يسميه بذلك.

وأما قولهم: هل يفهم من قول القائل (الله) كالذى يفهم من قول (عالم) فقط؟ أو يفهم من قوله (عالم) معنى غير ما يفهم من قوله (الله)؟.

فجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إننا لا نفهم من قولنا: قدير وعالم إذا أردنا بذلك الله عزَّ وجل إلاَّ ما نفهم من قولنا الله فقط لأن كل ذلك أسمـاء أعلام لا مشتقة من صفة أصلاً، لكن إذا قلنا هو الله تعالى بكل شيء عليم، ويعلم الـغيب، فإنما يفهم من كل ذلك أن ها هنا له تعالى مـعلومات، وأنه لا يخفى عليه شيء، ولا يفـهم منه ألبتة أن له علمًا هو غيره، وهكذا نقول فى (قديـر) وفى غير ذلك، وأمَّا قولهم إننا نقول: إنَّ الله تعالى عالم بنفـسه ولا نقول: إنه قادر على نفسه، فـقد كذب من قال ذلك وأفك بل كل ذلك سواء، وهو تعالى قادر على نفسه كما هو عالم بها ولا فرق، فإن كلمونا ها هنا أجبناهم، وقد سط عنا هذا السؤال جملة، وقد تكلمنا على تفصيل هذا السؤال بعد هذا. ويلزمهم ضرورة إذ قالوا إنه تعالى غير قادر على نفسه أنه عاجز عن نفسه، وإطلاق هذا كفر صريح.

وأمّا قولهم إنه قد يعلم الله قادرًا من لم يعلـم أنه عالم، ويعلمه عالمًا من لا يعلمه قادرًا فلا حـجة فى ذلك، لأن جهل من جهل الحق ليس حجـة على الخلق، وقد نجد من يعلم الله عزَّ وجل ويعـتقد فيـه أنه تعالى جسم، فليست الظنون حـجة فى إبطال حق، ولا تحقـيق باطل، فصحَّ أن علم الله تعالى حق وقـدرته حق وقوته حق، وكل ذلك ليس هو غيـر الله تعالى، ولا العلم غيـر القدرة، ولا القدرة غـير العلم، إذ لم يأت دليل بغير هذا لا من نصٍّ ولا من سمع، وبالله تعالى التوفيق.

وجهم بن صفوان[١] سمرقندى يكنى أبا محرز، مولى لبنى راسب من الأزد، وكان كاتبًا للحارث بن سريج التميمى[٢] أيام قيامه على نصر بن سيّار[٣] أمير مرو بخراسان، فظفر سلم بن أحوز بجهم فى تلك الأيام فضرب عنقه.

قال أبو محمد: ومعنى كل ما جاء فى القرآن من الآيات التى ذكروا هو ما نبينه إن شاء الله تعالى بحوله عزّ وجل وقدرته، وهو أنه لما أخبرنا الله عز وجل بأن أهل النار لو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه وأخبرنا عزّ وجل أنه يعلم متى تقوم الساعة، وأخبرنا بما يقول أهل الجنة وأهل النار قبل أن يقولا، وسائر ما فى القرآن من الأخبار الصادقة عمّا لم يكن بعد، علمنا بذلك أن علمه تعالى بالأشياء كلها متقدم لوجودها ولكونها ضرورة، وعلمنا أن كلامه عزّ وجل لا يتناقض ولا يتدافع، وأن المراد بقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣١] وسائر ما فى القرآن من مثل هذا إنما هو على ظاهره دون تكلف تأويل، بل هى على المعهود بيننا كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه: ٤٤].

إنما هذا على حسب إدراك المخاطب، ومعنى ذلك: حتى نعلم من يجاهد منكم مجاهدًا، ونعلم من يصير منكم صابرًا، وهذا لا يكون إلاَّ فى حين جهادهم وحين صبرهم، وأمّا قبل أن يجاهدوا ويصبروا فإنما علمهم غير مجاهدين وغير صابرين، وأنهم سيجاهدون ويصبرون. فإذا جاهدوا علمهم حينئذ مجاهدين، وإنما الزّمان فى كل هذا للمعلوم، وأمّا علمه تعالى ففى غير زمان وليس ها هنا تبدّل علم، وإنما يتبدّل المعلوم فقط، والعلم فى كل ذلك لم يزل غير متبدل.

فإن قالوا: متى علم الله زيدًا ميتًا؟ فإن قلتم لم يزل يعلمه ميتًا، وجب أنّ زيدًا لم يزل ميتًا، وهذا محال. وإن قلتم لم يعلمه ميتًا حتّى مات فهذا قولنا لا قولكم. فالجواب عن هذا أننا لا نقول شيئًا ممّا ذكروا ولكننا نقول: إن الله عزّ وجل لم يزل أنه

---

(١) جهم بن صفوان أبو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي الكاتب المتكلم رأس الضلالة ورأس الجهمية كان صاحب ذكاء وجدال كتب للأمير حارث بن سريج التميمي وكان ينكر الصفات وينزله الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن ... سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٧).

(٢) الحارث بن سريج بالسين المهملة التميمي، ثائر من الأبطال، وكان من سكان خراسان وقاتل نصر بن سليم وقتل، الأعلام (٢/ ١٥٤)، ابن الأثير ٥/ ١٢٧، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٦.

(٣) نصر بن سيار صاحب خراسان الأمير أبو الليث المروزي نائب مروان بن محمد، ولي إمرة خراسان عشر سنين وكان من رجال الدهر سؤددًا وكفاءة، سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٣).

سيخلق زيدًا، وأنه سيـعيش كذا وكذا وسيموت فى وقت كـذا، فعلم الله تعالى بكل ذلك واحدٌ لا يتبدّل ولا يسـتحيل، ولا زاد فيه تبدل الأحوال التى للمـعلوم شيئًا ولا نقص منه عدمهـا شيئًا ولا أحدث له حدوث ذلك علمًـا لم يكن وإنما تغاير المعلومات لا العلم ولا العليم ولا القدرة ولا القدير.

والفرق بين القول مـتى علم الله زيدًا ميتًا. .؟ وبين القول متى علمت زيـدًا ميتًا. .؟ فرق بيّن وهـو علمى أن زيدًا مات وهو عـرض حدث فى النفس بحـدوث موت زيد، وهو غيـر علمى أن زيدًا حى وأنه سيمـوت؛ لأن علمى بأنَّ زيدًا سيـموت إنما هو علم بحدوث حال سيحدث مقتـضيه لموته يومًا مّا، لا علمنا بوجود الموت، وعلمى بأن زيدًا ميّت علم بوجود الموت فهو غير العلم الأول وكلاهما عرض مخلوق فى النفس، وعلم الله تعالى ليس كـذلك، لأنه ليس هو شيـئًا غيـر الله تعالى، ولو كـان علم الله تعالى محدثًا لـوجب ضرورة أن يكون على حكم سائر المحدثات، وبضـرورة العقل نعلم أن العلم كـيفيّـة عرض، والعـرض لا يقوم ألبـتة إلاَّ فى جـسم، ومحـال أن يكون العلم محمولاً فى غـير العالم فكان يجب من هذا القول بالتجسيم، وهذا باطل بما قدّمنا من البراهين على وجوب حدوث كل جسم وعـرض. فإن قال قائل: علم الله تعالى عرض حادث فى المعلوم قائم به لا بالبـارى عزّ وجل ولا بنفسه قلنا وبالله تعالى التوفيق:

بنص القرآن علمنا أنّ الله عزّ وجل عنده علم السـاعة، وعلم ما لا يكون أبدًا، أو لو كـان كيف كـان يكون، إذ يقول تعـالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَـادُوا لِمَا نُهُـوا عَنْهُ﴾ [سورة الأنعام: ٢٨].

وعلمـه تعالى إذ قـال لنوح عليه السـلام: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ [سورة هود: ٣٦].

وأخبـر تعالى أنهـم مغرقـون. فلو كان علم الله تـعالى عرضًـا قائمًـا فى المعلوم، والمعلوم الذى هو الساعـة غير موجود بعـد، والعلم موجود بيقـين، فلابدَّ ضرورة من أحد أمـرين لا ثالث لهمـا؛ إمّا أن يكون المعلوم مـوجودًا لوجـود العلم، وهذا باطل بضرورة الحس، لأنّ المعلوم الذى ذكرنا معدوم فيكون مـعدومًا موجودًا فى حين واحد من جهة واحدة، أو يكون العلـم الموجود قائمًا بمعلوم معدوم، فيكون عـرضًا موجودًا محمولاً فى حامل معدوم، وهذا تخليط ومـحال فاسد ألبتة، وإنما كلامنا هذا مع أهل ملتنا المقربين بالـقرآن، وأمّا سائر الملل فلسـنا نكلمهم فى هذا، لأنها نتـيجة مقـدمات

سوالف، ولا يجوز الكلام فى النتيجة إلاَّ بعد إثبات المقدّمات، فإن ثبتت المقدّمات ثبتت النتيجة، والبرهان لا يعارضه برهان، فكل ما ثبت ببرهان فعورض بشىء فإنّما هو شغب بلا شك، وإن لم تصح المقدّمات فالنتيجة باطلة دون تكلف دليل. ومقدّمات ما ذكرنا هى إثبات التوحيد، وحدوث العالم بنقل الكواف لنبوّة محمد ﷺ والقرآن فإن ذكروا الآيات التى فى القرآن مثل ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ ﴿لعلكم تؤمنون﴾ ﴿لعلكم تشكرون﴾ ﴿لعلكم تذكرون﴾ ونحو ذلك فإنما هى كلها بمعنى لام العاقبة أى ليتذكر، ولتؤمنوا، وليشكروا وليتذكروا، وليخشي، علي ظاهر الأمر عندنا من إمكان كل ذلك منا كما قال عز وجل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [سورة الملك: ٢].

وقال عزَّ وجل: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [سورة غافر: ٦٧].

فهذا أيضًا على الإمكان ممّن عاش، والأول على الممكن من الناس عند الخطاب والدّعاء إلى الله تعالى، وكذلك كل ما جاء فى القرآن بلفظة «أو» فإنما هو على أحد وجهين إمّا على الشك من المخاطبين لا من الله تعالى وإمّا بمعنى التخيير فى الكل كقول القائل: «جالس الحسن أو ابن سيرين».

برهان ذلك: ورود النص بأنه تعالى لا يَضِلُّ ولا ينسى، وأنه قد علم أن فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب، وكما قال تعالى: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ [سورة هود: ٣٦].

وبهذا تتآلف النصوص كلها، فلم يبق لأهل القول بحدوث العلم إلاَّ أن يقولوا إنه تعالى خلق شيئًا مَّا كان حاملاً لعلمه بالسّاعة.

قال أبو محمد: وهذا من السخف ما هو من العلم لأن علم الله تعالى لا يقوم بغيره، ولا يحمله سواه، هذا أمر يُعلم بالضرورة والحسّ، فمن ادَّعى دعوة لا يأتى عليها بدليل فهى باطلة فكيف إذا أبطلها الحسُّ وضرورة العقل، ويُبيِّن ما قلناه نصًا قوله تعالى حاكيًا عن نبيه موسى ﷺ أنه قال لبني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٩].

هذا مع قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ④ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ⑤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ

ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا (٧) عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا ﴾[سورة الإسراء: ٤ - ٨].

فهـذا نصٌّ قولنا إنه تعـالى قد علم ما يفـعلون، وأخبر بـذلك، ثمَّ مع هذا أخرج الخطاب بالمعهود عندنا بلفظ «عسى» و«فينظر».

قال أبو محمـد: فإذ قد صح ما ذكرنا فقد ثبت ضـرورة أن قول القائل: متى علم الله زيدًا ميتـًا سؤال فاسد بالضرورة لأن «متى» سـؤال عن زمان وعلم الله تعالى ليس فى زمان أصـلاً لأنه ليس هو غير الله تعـالى، وقد مضى البـرهان على أنَّ الله تعالى ليس فى زمان ولا فى مكان، وإنَّما الزَّمان والمكان للمعلوم فقط كما بيَّنا، وبالله تعالى التوفيق.

فإن اعتـرض معترض بقـول الله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

فقال: إنَّ «منْ» للتبعيض، ولا يتبعض إلاَّ مخلوق محدث، ولا يحاط إلا بمخلوق محدث، وقد نص الله تعالى على أنه لا يحـاط إلاَّ بما شاء من علمه فوجب أنَّ علمه مخلوق؛ لأنه يحاط ببعضه، وهو متبعض.

فالجواب وبالله تعالى التوفيق: أنَّ كلام الله تعالى واجب أن يُحمل على ظاهره ولا يحال عن ظاهره ألبتـة إلا أن يأتى نصٌّ أو إجماع أو ضرورة حسٍّ، على أن شـيئًا منه ليس على ظاهره، وأنه قد نقل عن ظـاهره إلى معنى آخر، فالانقـياد واجب علينا لما أوجبه من ذلك النص أو الإجـماع أو الضرورة، لأنَّ كلام الله تعالى وأخـباره وأوامره لا تختلف والإجـماع لا يأتى إلاَّ بحق، والله تعالى لا يقـول إلاَّ الحق، وكلُّ ما أبطله برهان ضرورى فليـس بحق، فإذ هذا كمـا قلنا، وقد ثبت ضـرورة أنَّ علم الله تعالى ليس عرضًا ولا جسـمًا أصلاً لا محمولاً فيه، ولا فى غيـره ولا هو شيء غير البارى تعالى فبالضرورة نعلم أنَّ معنى قوله عزّ وجل: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾(١) إنما المراد العلم المخلوق الذى أعطاه عباده وهو عرض فى العالمين من عباده محمول فيهم، وهو مضاف إليه عزَّ وجل بمعنى الملك وهذا لا شك فيه، لأنه لا علم لنا إلاَّ ما علّمنا

(١) قال ابن كـثيـر: أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعـه عليه، ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفـاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله ﴿ولا يحيطون به علمًا﴾ تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٢).

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [سورة الإسراء: ٨٥].

يريد الله تعالى: ما خلق من العلوم وبثها في عباده كما قال الخضر لموسى عليهما السلام: إنّي على علم من علم الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه أنا، وما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاَّ كما نقص هذا العصفور من البحر.

قال أبو محمد: فهذه إضافة الملك كما بينا، وإنّما أضيف العلم ها هنا إلى الله تعالى إضافة ملك، كما قال تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [سورة لقمان: ١١].

وكما قال تعالى في عيسى عليه السلام: «إنه روح الله».

وهذا كله إضافة الملك، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

وقد نفى الله تعالى الإحاطة من الخلق به، فقال عزَّ وجل: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٠].

أي: من العلم بالله تعالى، وهذا حقٌّ لا شكَّ فيه لأننا لا نحيط من العلم به تعالى إلاَّ ما علَّمنا فقط، قال تعالى: ﴿ولا يحيطون به علما﴾.

فيكون معنى «مِنْ عِلْمه» أي معرفته.

فإن قالوا: ما معنى دعائكم الله في الرحمة والمغفرة؟ وهل يخلو أن يكون قد سبق علمه بالرحمة، فأي معنى للدّعاء فيما لابدَّ منه؟ وهل يكون إلاَّ كما دعا في طلوع الشمس غداً، أو في أن يجعل إنساناً إنساناً، أو في أن تكون الأرض أرضاً، وإن كان قد سبق في علمه تعالى خلاف ذلك فأيُّ معنى للدّعاء فيما لا يكون..؟ وهل هو إلاَّ كمن دعا في ألاَّ تقوم السَّاعة، أو في ألاَّ يكون النَّاس ناساً؟.

فيقال لهم وبالله تعالى التوفيق: الدعاء عمل أمرنا الله تعالى به لا على أنه يردّ قدَرًا ولا أنه يكون من أجله ما لا يكون، لكن الله عزّ وجل قد جعل في سابق علمه الدعاء الذي سبق في علمه قبوله يدعى به سبباً لما سبق في علمه كونه، كما جعل في سابق علمه الغذاء بالطعام والشّراب سبباً لبلوغ الأجل؛ الذي سبق في علمه البلوغ إليه، وكذلك سائر الأعمال، وقد نص تعالى أنه يعلم آجال العباد، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٤].

ومع ذلك فقد جعل تعالى الأكل والشرب سببًا إلى استيفاء ذلك المقدار وكل ذلك سابق فى علمه عزَّ وجل، والدُّعاء هكذا، وكذلك التداوى على سبيل الطب، ولا فرق، وقد أخبرنا تعالى أنه يصلّى على نبيّه ﷺ وأمرنا مع ذلك بالدّعاء بالصّلاة عليه، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [سورة الأنبياء: ١١٢]. فأمرنا بالدّعاء بذلك، وقد علّمنا أنه تعالى لا يحكم إلاَّ بالحق فصح ما قلنا من أنَّ الدُّعاء عمل أمرنا به فنحن نعلمه حيث أمرنا عزَّ وجل، ولا نعمله حيث لم نؤمر به والحمد لله ربِّ العالمين.

فإذ قد بطل بعون الله تعالى وتأييده قول من قال إنّ علم الله تعالى هو غير الله تعالى وهو مخلوق فلنتكلم بعون الله تعالى وتأييده على قول من قال: إنّ علم الله تعالى، هو غير الله تعالى وخلافه، وأنه لم يزل مع الله عزّ وجل.

قال أبو محمد: هذا قول لا يحتاج فى ردّه إلى أكثر من أنه شرك مجرّد، وإبطال للتوحيد، لأنه إذا كان مع الله تعالى شىءٌ غيره لم يزل معه فقد بطل أن يكون الله تعالى كان وحده بل قد صار له شريك فى أنه لم يزل، وهذا كفر مجرّد، ونصرانية محضة مع أنها دعوى ساقطة بلا دليل أصلاً. وما قال بهذا قط أحد من أهل الإسلام قبل هذه الفرقة المحدثة بعد الثلاثمائة سنة فهو خروج عن الإسلام، وترك للإجماع المتيقّن، وقد قلت لبعضهم: إذا قلتم إنه لم يزل مع الله تعالى شىء آخر هو غير الله تعالى وخلافه لم يزل معه فلماذا أنكرتم على النصارى فى قولها: إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ؟ فقال لى مصرِّحًا: ما أنكرنا على النَّصارى إلاَّ اقتصارهم على الثلاثة فقط، ولم يجعلوا معه تعالى أكثر من ذلك.

فأمسكت عنه إذ صرَّح بأنَّ قولهم أدخل فى الشّرك من قول النّصارى. وقولهم هذا ردٌّ لقول الله عزَّ وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١].

فلو كان مع الله غير الله لم يكن الله أحد.

قال أبو محمد: وما كنّا نصدّق أنَّ من ينتمى إلى الإسلام يأتى بهذا الكفر لولا أنّا شاهدناهم وناظرناهم، ورأينا ذلك صراحًا فى كتبهم ككتاب السمنانى[1] قاضى الموصل

---

(١) العلامة قاضي الموصل أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد السمناني الحنفي، قال الخطيب: كتبت عنه، وكان صدوقًا فاضلاً حنفيًا يعتقد مذهب الأشعري، قال عنه ابن حزم: أنه سمى الله جسمًا من أجل أنه حامل لصفاته فقد أصاب المعنى وأخطأ في التسمية، وذكر ابن حزم عنه تجويز الردة على الرسول بعد أداء الرسالة نعوذ بالله من الضلال توفي ٤٤٤هـ.
(سير أعلام النبلاء (١٧/ ٦٥٢).

فى عصرنا هذا، وهو من أكابرهم، وفى كتاب المجالس للأشعرى، وفى كتب لهم أخر.

قال أبو محمد: والعجب من هذا كله تصريح الباقلانّى وابن فورك فى كتبهما فى الأصول وغيرها أن علم الله تعالى واقع مع علمنا تحت حدٍّ واحد، وهذه حماقة ممزوجة بكفر، إذ جعلوا ما لم يزل محدودًا بمنزلة المحدثات، وكل ما أدخلناه على المنانية والنصارى ومن يبطل التوحيد فهو داخل على هذه الفرقة حرفًا حرفًا فأغنانا أن نحيل على ذلك عن تكراره، ونعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو محمد: هذا مع قولهم إنَّ التغاير لا يكون إلاَّ فيما جاز أن يوجد أحدهما دون الآخر.

قال أبو محمد: وهذه غاية السخافة لأنها دعوى بلا برهان عليها لا من قرآن ولا من سنّة ولا معقول ولا من لغة أصلاً، وما كان هكذا فهو باطل، ويلزمهم على هذا أن الخلق ليسوا غير الخالق، لأنه لا يجوز أن يوجد الخلق دون الخلق، فإن قالوا: جائز أن يوجد الخالق دون الخالق، قلنا: نعم فمن أين لكم أن أحد التغاير هو أنه لا يجوز أن يوجد أحدهما أيهما كان دون الآخر..؟ وهذا ما لا سبيل لهم إليه، ويلزمهم لزومًا لا ينفكون عنه أن الأعراض ليست غير الجواهر، لأنه لا يجوز ألبتة ولا يمكن ولا يتوهم وجود أحدهما دون الآخر جملة، ونعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو محمد: وحدّ التغاير الصحيح هو ما شهدت له اللغة وضرورة الحسّ والعقل، وهو كل اسمين جاز أن يخبر عن أحدهما بخبر لا يخبر به عن الآخر فهما غيران لابدَّ من هذا، وبالجملة ما لم يكن هو الشىء نفسه فهو غيره، وما لم يكن غير الشىء نفسه فهو نفسه وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: فإذ قد بطل بعون الله تعالى وتأييده قول من قال إن علم الله تعالى هو غير الله تعالى ثم جعله مخلوقًا أو لم يزل فلنقل فى سائر الأقوال فى هذه المسألة إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىِّ العظيم.

قال أبو محمد: وأمّا من قال: إنَّ علم الله تعالى ليس هو هو ولا هو غيره ولكنّه صفة ذات لم يزل فكلام فاسد محال متناقض يبطل بعضه بعضًا لأنهم إذا قالوا: إنَّ علم الله تعالى ليس هو الله فقد أوجبوا بهذا القول ضرورة أنه غيره، ثم إذا قالوا: ولا هو غيره فقد أبطلوا الغيرية، وأوجبوا بهذا القول ضرورة أنه هو، فصح أنه سواء قول

القائل لا هو هو ولا هو غـيره، وقول القـائل هو هو وهو غيره فـإنَّ معنى القضـيتين واحد لا يخـتلف، وكلا العـبارتين باطل مـتناقض لا يعقـل نفى وإثبات مـعًا. وهذا تخليط المرورين نعوذ بالله من الخذلان، والعجب من احتجاج بعضهم فى هذا الباطل بأن قال: الطول ليس هو الطويل ولا هو غيره.

قال أبو محمد: وهذا من أطم ما يكون من الجهل والمكابرة إذ لا يدرى هذا القائل: أنَّ الطويل جسم جوهر قـائم بنفسه حامل لطوله ولسائر أعـراضه، وأن الطول عرض من الأعراض محمول فى الطويل غير قائم بنفسه، فمن جهل أنَّ المحمول غير الحامل، وأن القائم بنفسه هو غـير ما لا يقوم بنفسه فهو عـديم حس، وينبغى له أن يتعلّم قبل أن يهـذر. ونحن نريه الطين الطويل يدور فـيـذهب الطول والتـربيع ويأتى التـدوير، والذى كان طويلاً باق بحسّه، فـهل يخفى على سائر التمييـز أنَّ الذاهب غير الجائى، وأن الفانى غير الباقى؟ فبالضرورة نعلم أنَّ الطول غير الطويل، ثم نقول لمن تعلّق بهذه العبارة الفـاسدة أخبرونا: هل يخلو كل اسـمين متغايرين من أحـد وجهين ضرورة لا ثالث لهما ألبـتة..؟ إمَّا أن يكون الاسمـان واقعين معًا على شىء واحد يـعبّر بذينك الاسمين عن ذلك الشىء الذى علقا عليه، وإمَّا أن يكون الاسـمان واقعين على شيئين اثنين يعبَّر بكل اسم منهما على حدته عن الشىء الذى علق عليه ذلك الاسم؟

هذان وجهـان لابدَّ من أحدهما ضرورة لكـل اسمين، وأىّ هذين كان فهـو مبطل لتخليط من قال: لا هو هو، ولا هو غـيره، وقد زاد بعضهم في الشعـوذة والسفسطة وإبطال الحقائق فأتى بدعوى فاسدة، وذلك أن قال: لا يكون الشىء غير الشىء إلاَّ إذا أمكن أن ينفرد أحدهما عن الآخر.

قال أبو مـحمد: وهذه دعوى مـجرّدة لا دليل عليهـا، فلو لم يكن إلاَّ هذا السقط وهذا التمويه، فكيف وهى قضية فاسدة..؟ لأنها توجب أنَّ كلية الأعراض ليست غير كلية الجـواهر، لأنه لا سبيل إلى انفـراد الجواهر عن الأعراض، ولا انفـراد الأعراض عن الجواهر، فكفى فسادًا بكل هذيان أدّى إلى مثل هذا التخليط.

قال أبو محمد: حدُّ التغاير فى الغيرين: هو كل شىء أخبر عنه بخبر مّا، لا يكون ذلك الخبر فى ذلك الوقت خبراً عن الشىء الآخر فهو بالضرورة غير ما لا يشاركه فى ذلك الخبر، وليس فى كـل ما يعلم ويوجد شيئـان يخلوان من هذا الوصف بوجه من الوجوه، وهذا مقتضى لفظ الغير فى اللغة، وبالله تعالى التوفيق.

مع أنَّ هذا أمر يعلم بضرورة الحسّ والعقل.

وحدُّ الهوية: هو أنَّ كلَّ ما لم يكن غير الشيء فهو هو بعينه، إذ ليس بين الهوية والغيرية وسيطة يعقلها أحدٌ ألبتة، فما خرج عن أحدهما دخل فى الآخر ولابدّ.

وأيضًا فكل اسمين مختلفين لا يخبر عن مسمى أحدهما بشيء إلاَّ كان ذلك الخبر خبرًا عن مسمى الاسم الآخر ولابدَّ أبدًا فمسماهما واحدٌ بلا شك، فإذ قد صح فساد هذا القول فلنقل بعون الله تعالى فى عبارة الأشعرى الأخرى، وهو قوله: «لا يقال هو هو، ولا يقال هو غيره»، فنقول: إنه لم يزد فى هذه العبارة على أن قال: «لا يقال فى هذا شيء»(١).

قال أبو محمد: وهذا خطأ لأنه لابدَّ ضرورة من أحد هذين القولين أو قول ثالث وهو نفي الغيرية، وإن لم يطلق هو هو، أو نفى الهوية، وإن لم يطلق أنه غيره فسقط هذا القول أيضًا إذ ليس فيه بيان الحقيقة.

وأمّا قول أبي الهذيل: إن علم الله تعالى هو الله فإنها تسمية منه للبارى تعالى باستدلاله فلا يجوز أن يسمّي الله تعالى ولا يوصف باستدلال ألبتة؛ لأنه بخلاف كلّ ما خلق فلا دليل يوجب تسميته بشيء من الأسماء التى يسمّى بها شيء من خلقه، ولا أن يوصف بصفة يوصف بها شيء من خلقه، ولا أن يخبر عنه بما يخبر به عن شيء من خلقه؛ إلاَّ أن يأتى نص بشيء من ذلك فيوقف عنده. فمن وصفه تعالى بصفة

(١) قال أبو الحسن الأشعري: والدليل على أن لله تعالى علمًا، وقد قال جل ذكره: ﴿أنزله بعلمه﴾، وقال: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ فثبت العلم لنفسه، وقال تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ . . .

ومما يدل على أن الله تعالى عالم بعلم أنه لا يخلو أن يكون الله تعالى عالمًا بنفسه أو بعلم يستحيل أن يكون هو نفسه، فإن كان عالمًا بنفسه كانت نفسه علمًا، لأن قائلاً لو قال: «إن الله تعالى عالم بمعنى هو غيره لوجب عليه أن يكون ذلك المعنى علمًا، ويستحيل أن يكون العلم عالمًا، أو العالم علمًا، أو يكون الله بمعنى الصفات» اللمع لأبي الحسن الأشعري (٣٠).

صفة العلم من صفات الذات العقلية، والسلف رحمهم الله على أن لله تعالى علمًا، وأن علمه أزلي بأزليته، وأنه عز وجل علم في الأزل ما سيكون من دقيق وجليل، وهو عالم بمعلومات غير متناهية، وينفون أن يكون علم الله مخلوقًا.

وقد جاء عن الإمام أحمد تكفير من زعم أنه مخلوق، وأوضح ما يترتب على هذا القول . . .

إن هذه الصفة لا ينكرها إلا زنديق، والسلف ومن تبعهم من الكلابية والأشاعرة في هذه المسألة يقولون: أن الله عز وجل عالم بعلم هو صفة له، والمعتزلة يدعون أن الله عالم بعلم، وعلمه ذاته، وهذا باطل «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل» (١/ ٢٨٣).

يوصف بها شيء من خلقه، أو سمّاه باسم يسمّى به شيء من خلقه استدلالاً على ذلك بما وجد فى خلقه فقد شبّهه تعالى بخلقه، وألحد فى أسمائه، وافترى الكذب.

ولا يجوز أن يسمى الله تعالى ولا أن يخبر عنه إلاَّ بما سَمَّى به نفسه، أو أخبر به عن نفسه فى كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، أو صحَّ به إجماع جميع أهل الإسلام المتيقّن ولا مزيد، وحتى ولو كان المعنى صحيحًا، فلا يجوز أن يطلق عليه تعالى اللفظ، وقد علمنا يقينًا أنه تعالى بنى السماء، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [سورة الذاريات: ٤٧] ولا يجوز أن يسمّى بنَّاء: وأنه تعالى يخلق أصباغ النبات والحيوان، وأنه تعالى قال: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٣٨] ولا يجوز أن يسمّى صبَّاغًا، وهكذا كل شيء لم يسمّ به نفسه، وليس يجب أن يسمّى الله تعالى بأنه هو علمه، وإن صحّ يقينًا أن المراد بقوله تعالى أن له علمًا ليس هو غيره لما ذكرنا، وبالله تعالى التوفيق. وقد صحّ يقينًا أن المراد بقوله تعالى أن له علمًا ليس هو غيره لما ذكرنا، وبالله تعالى التوفيق. وقد صحّ أنّ ذات الله تعالى ليست غيره، وأنَّ وجهه ليس غيره، وأن نفسه ليست غيره، وأنّ هذه الأسماء لا يعبر بها إلاَّ عنه عزَّ وجل لا عن شيء غيره تعالى ألبتة، ولا يجوز أن يقال إنه تعالى ذات، ولا أنه وجه، ولا أنه نفس، ولا أنه علم، ولا أنه قدرة، ولا أنه قوَّة لما ذكرنا من امتناع أن يسمَّى بما لم يسمّ به نفسه عزَّ وجل.

وأمّا علم المخلوقين فهو شيء غيرهم بلا شك لأنه يذهب ويعقبه جهل، والبارى تعالى لا يشبهه غيره، ولا شيء من خلقه ألبتة فى شيء من هذه الأشياء ألبتة بل هو تعالى خلاف خلقه فى كلٍّ وجه فوجب أن علمه تعالى ليس غيره، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١].

قال أبو محمد: فإن قال لنا قائل إذَنْ العلمُ عندكم ليس هو غير الله تعالى، وأن قدرته ليست غيره، وأن قوته ليست غيره تعالى، فأنتم إذن تعبدون العلم والقدرة والقوة؟.

فجوابنا فى ذلك وبالله تعالى التوفيق: إننا إنما نعبد الله تعالى بالعمل الذى أمرنا به لا بما سواه، ولا ندعو إلاَّ كما أمرنا تعالى، قال الله عزّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة البينة: ٥].

فنحن لا نعبد إلاّ الله تعالى كما أمرنا، ولا نقول إننا نعبد العلم لأنَّ الله تعالى لم يطلق لنا أن نطلق هذا اللفظ، ولا أن نعتقده.

ثم نسألهم عما سألونا عنه بعينه فنقول لهم: أنتم تقرّون أنّ وجه الله تعالى وعين الله، ويد الله، ونفس الله، ليس شيء من ذلك غير الله تعالى بل كل ذلك عندكم هو الله، فأنتم إذن تعبدون الوجه، والعين، واليد، والذات؟!.

فإن قالوا نعم. قلنا لهم: فقولوا في دعائكم يا يد الله ارحمينا، ويا عين الله ارض عنا، ويا ذات الله اغفرى لنا، فإيّاك نعبد. وقولوا: نحن خلق وجه الله، وعبيد عين الله، فإن جسروا على ذلك فنحن لا نجيز الإقدام علي ما لم يأذن به الله، ولا نتعدّى حدوده، فإن شهدوا فلا نشهد معهم. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [سورة الطلاق: ١].

والذين ألزمونا من هذا هو لازم لهم لابدَّ، لأنه سؤال رضوه وصححوه، ومن رضى شيئًا لزمه، ونحن لم نرض هذا السؤال ولا صححناه فلا يلزمنا وبالله تعالى التوفيق.

الكلام فى سميع بصير وفى قديم

قال أبو محمد: وأجمع المسلمون على أن القول بما جاء به القرآن من أنه تعالى: سميع بصير، ثم إختلفوا فقالت طائفة من أهل السنّة والأشعرية، وجعفر بن حرب(١) من المعتزلة، وهشام بن الحكم، وجميع المجسمة نقطع أنَّ الله سميع بسمع بصير يبصر.

وذهبت طوائف من أهل السنة منهم: الشّافعى، وداود بن على الأصفهانى إمام أهل الظاهر، وعبد العزيز بن مسلم الكنانى ﷺ، وغيرهم إلى أن الله سميع بصير، ولا نقول بسمع ولا ببصر، لأن الله تعالى لم يقله، ولكن سميع بذاته، بصير بذاته.

---

(١) جعفر بن حرب أبو الفضل الهمذاني المعتزلي العابد كان من نساك القوم وله تصانيف، وله كتاب متشابه القرآن، وكتاب الاستقصاء، وكتاب الرد على أصحاب الطبائع، والأصول، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٥٠).

قال أبو محمد: وبهذا نقول. ولا يجوز إطلاق سمع ولا بصر حيث لم يأت به نصٌّ لما ذكرنا آنفًا من أنه لا يجوز أن يخبر عنه تعالى إلاَّ بما أخبر به عن نفسه.

واحتجّ من أطلق على الله تعالى السمع والبصر بأن قال: لا يعقل السميع إلا بسمع ولا البصير إلا ببصر. ولا يجوز أن يسمّى بصيراً إلا من له بصر، ولا يسمّى سميعًا إلاَّ من له سمع.

واحتجوا أيضًا فى هذا وما ذهبوا إليه «من أنَّ الصفات متغايرة» - بأنه لا يجوز أن يقال إنه تعالى يسمع المبصرات، ولا أنه يبصر المسموعات من الأصوات. وقالوا: هذا لا يعقل.

قال أبو محمد: وكلا هذين الدليلين شغبى فاسد.

أمّا قولهم: لا يعقل السميع إلا بسمع ولا البصير إلا ببصر. فيقال لهم وبالله تعالى التوفيق:

أما فيما بيننا فنعم، وكذلك أصلاً لم نجد قط فى شىء من العالم الذى نحن فيه سميعًا إلاَّ بسمع، ولا وُجد فيه بصيرٌ إلا ببصر فإنه لم يوجد فيه سميع إلاَّ بجارحة يسمع بها، ولا وجد فيه قط عالم إلاَّ بضمير فلزمهم أن يُجروا على الله عزَّ وجلَّ هذه الأوصاف. وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

وهم لا يقولون هذا، ولا يستجيزونه.

وأمّا المجسمة: فإنهم أطلقوا هذا وجوَّزوه، وقد مضى نقض قولهم بعون الله تعالى وتأييده، ويلزم الطائفتين كلتيهما إذا قطعوا بأنَّ له تعالى سمْعًا وبصرًا لأنه سميعٌ بصير، ولا يمكن أن يكون سميع بصير، إلاَّ إذا سمع وبصر، لا سيَّما وقد صحّ النصّ بأن له تعالى عينًا وأعينًا؛ أن يقولوا: إنه ذو حدقة، وناظر، وطباق فى العين، وذو أشفار، وأهداب لأنه لم يشاهد فى العالم ولا يمكن ألبتة أن تكون عينٌ لذى عين يرى بها ويبصر إلاَّ هكذا، وإلاَّ فهى عينٌ ذاتُ عاهة، أو كعيون بعض الحيوان التى لا يطبقها. وكذلك لا يكون فى المعهود، ولا يمكن ألبتة أن يكون سميعٌ فى العالم إلاَّ بأذن ذات صماخ، فيلزمهم أن يثبتوا هذا كلَّه، وإلاَّ فقد أبطلوا استدلالهم، وزوّروا استشهادهم بالمعهود والمعقول. فإن أطلقوا هذا كله تركوا مذهبهم، وخرجوا إلى أقبح قول المجسّمة مما لا يرضى به أكثر المجسمة، وقد ذكرنا فساد قولهم قبلُ. والحمد لله رب العالمين.

فإذا جوَّزوا أن يكـون الباري تعالى سمـيعًا بصيـراً بغير جارحة، وهـذا خلاف ما عهدوا فى العالم، وجوزوا أن يكون له تعالى عين بلا حدقة ولا ناظر ولا طباق، ولا أهداب، ولا أشفار، وهذا أيضًا خلاف ما عهدوا فى العالم فلا ينكرون قول من قال: إنه سميع لا بسمع، بصيرٌ لا يبصر، وإن كان ذلك بخلاف ما عهدوا فى العالم.

على أن بين القولين فرقًا واضحًا، وهو أننا نحن لم نلتزم أن نحل تسميته عز وجل قياسًا على ما عندنا، بل ذلك حرام لا يجـوز، ولا يحل، لأنه ليس فى العالم شىء يشبهـه عزَّ وجل فيقاس عليـه. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١].

فقلنا: إنـه سـميـع بصير لا كـشىء مـن البصـراء ولا السامـعين ممَّا فى العالـم، وكل سميـع وبصير فى العـالـم فهو ذو سـمع وبصر، فالله تعـالى بخلاف ذلك بنص القرآن فهو سميع كما قال، لا يسمع كالسَّامعين، وبصير كما قال لا يبصر كالمبصرين، لا يسمَّى ربنا تعالى إلاَّ بمـا سمى بـه نفسه فـقط، ولا يخبر عنه إلاَّ بما أخـبر به عن نفسه فقط.

قال تعالى: ﴿وهو السميع البصير﴾.

فقلنا: نعم، هو السميـع البصير، ولم يقال تعالى: إنه له سمـعًا وبصراً، فلا يحلُّ لأحد أن يقـول: إنه له سمعًـا وبصراً فيكون قائلاً عـلى الله تعالى بلا علم، وهذا لا يحل، وبالله تعالى نعتصم.

وأما خصـومنا فإنهم أطلقوا أنه لا يكون إلاَّ كـما عهدوا فى العالم مـن كل سميع وبصيـر فى أنه ذو سمع وبصر، فـيلزمهم ضـرورة ألاَّ يكون إلا كما عـهدوا من كل سميع وبصيـر في أنه ذو جارحة يسمع بها ويبصر بهـا ولابدَّ. ولولا تلك الجارحة ما سمى أحدٌ فى العـالـم سميعًا ولا بصـيراً، ولا أبصر أحدٌ شيئًـا، فإن ذكـروا قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩].

قلنا لهم وبالله تعالى التوفيق:

هذه الآية أعظم حجة عليكم لأن الله تعالى نصٌ فيها على أنهم لم يروا بعيونهم ما يتعظون به، ولا سمـعوا بآذانهم ما يقبلونه من الهدى، فلما كـانت العيون والآذان لا ينتفع بهما، استحقوا الذَّم والنكال - فلولا أن العين والأذن بهما يكون السمع والبصر

ضرورة لابدَّ لا بشيء دونهما - ما استحق الذَّم من رزق أذنًا وعينًا سالمتين، فلم يسمع بهما ويبصر ما يهتدى به بعون الله عزَّ وجل له، وما كان يكون معنى لذكر الله عز وجل العينَ والأذنَ فى السمع والبصر بهما لو جاز أن يكون سمعٌ وبصرٌ دونهما، فبطل قولهم بالقرآن ضرورة، وبالحسِّ وبديهة العقل، والحمد لله رب العالمين.

وأمَّا ما موَّهوا به من قولهم: إنه لو أنَّ له سمعًا وبصرًا لجاز أن يقال: إنه يسمع الألوان، ويرى الأصوات، فهذا كلام لا يطلق فى كل شيء على عمومه، لأننا إنما خوطبنا بلغة العرب، فلا يجوز أن نستعمل غيرها فيما خوطبنا به، والذى ذكرتم من رؤية الأصوات وسماع الألوان لا يطلق فى اللغة التى بها خوطبنا فيما بيننا، فليس لنا أن ندخل فى اللغة ما ليس فيها إلاَّ أن يأتى بذلك نص، فنغلبه على اللغة.

ثم نقول: إنه لو قال قائل: إنه تعالى سميع للألوان بصير بالأصوات بمعنى أنه عالم بذلك لكان ذلك جائزًا ولما منع من ذلك برهان، فنحن نقول سمعنا الله عزَّ وجل يقول كذا وكذا، ورأينا الله تعالى يقول كذا وكذا، ويأمر بكذا ويفعل كذا، بمعنى علمنا. فهذا لا ينكره أحد، ولا فرق بين هذا وبين ما سألوا عنه.

وأيضًا فإن الله عز وجل يقول: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [سورة الملك: ١٩].

وهذا عموم لكل شيء كما قلنا، فلا يجوز أن يخص به شيءٌ دون شيءٍ إلاَّ بنص آخر أو إجماع، أو ضرورة، ولا سبيل إلى شيء من هذا فصح ما قلناه وبالله تعالى التوفيق.

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [سورة طه: ٧].

فصح أن بصيرًا وسميعًا وعليمًا بمعنى واحد.

ثم نقول لهم وبالله تعالى التوفيق: إنه تعالى بإجماع منَّا ومنكم هو السميع البصير، وهو أحدٌ غير متكثّر، ولا نقول إنَّ السميع للألوان، البصير بالأصوات إلاَّ على الوجه الذى قلناه. وليس يوجب أنَّ السميع غير البصير. فالذى أردتم ساقط، وإنما اختلفت معلوماته، وإنما هو تعالى واحدٌ، وعلمه بها كلها واحد، يعلمها كلَّها بذاته، لا بعلم هو غيره ألبتة، وبالله تعالى التوفيق.

فإن قال قائل: أتقولون إنَّ الله عزَّ وجل لم يزل سميعًا بصيرًا؟.

قلنا: نعم، لم يزل تعالى سميعًا بصيرًا، عفوًّا غفورًا، عزيزًا قديرًا وهكذا كل ما جاء في القرآن فيه، «وكان الله سميعًا بصيرًا» ونحو ذلك، لأن قوله عزَّ وجل «كان» إخبارٌ عن ما لم يزل، وإذا أخبر بذلك عن نفسه لا عمن سواه.

فإن قالوا: أتقولون: لم يزل الله خالقًا خلاَّقًا رازقًا؟.

قلنا: لا نقول هذا، لأن الله تعالى لم ينص على أنه كان خالقًا خلاَّقًا، رازقًا رزاقًا لكنا نقول: لم يزل الخلاَّق الرزَّاق، ولم يزل الله تعالى لا يخلق ولا يرزق ثم خلق ورَزَقَ من خلق، وهذا يوجب ضرورة، أنها أسماء «أعلام» لا مشتقة لأنه لو كان «خالق ورازق» مشتقين من خَلَقَ ورَزَقَ، لكان لم يزل ذا خلق يخلقه ويرزقه.

فإن قيل: فإنَّ السميع والبصير، والرحمن والرحيم، والعفوَّ والغفور والملك، كل ذلك يقتضي مسموعًا ومبصرًا، ومرحومًا، ومغفورًا له، ومعفوًّا عنه ومملوكًا.

قلنا: المعنى فى «سميع وبصير» عن الله تعالى هو المعنى فى «عليم» ولا فرق. وليس ما يظن أهل العلم من أنَّ له سمعًا وبصرًا مختصين بالمسموع والمبصر تشبيهًا بخلقه سوى علمه، لأنَّ الله تعالى لم ينصَّ على ذلك فيلزمنا أن نقوله، ولا يجوز أن يخبر عن الله تعالى بغير ما أخبر به عن نفسه لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١].

فصحَّ أنه تعالى: «سميعٌ ليس كمثله شيءٌ من السَّامعين، بصيرٌ لا كمثل شيء من البصراء».

فإن قال قائل: أتقولون إنَّ الله تعالى لم يزل يسمع ويرى ويدرك؟

قلنا: نعم؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [سورة طه: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [سورة المجادلة: ١].

وصحَّ الإجماع بقول «سمع الله لمن حمده»، وصحَّ النص: «ما أَذِنَ الله لشيء ما أذن لنبي حَسَنِ الصوتِ يتغنَّى بالقرآن»(١).

---

(١) صحيح البخاري (٤/١٩١٨) ح (٤٧٣٥)، ومسلم (١/٥٤٥) ح (٧٩٢) وابن حبان في صحيحه (٣/٢٧) ح (٧٥١)، والدارمي في سننه (١/٤١٧) ح (١٤٩١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٥٣) ح (٢٢٥٦)، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٥٠) ح (٩٨٠٤) من حديث أبي هريرة.

فتقول: إنه يسمع ويرى، ويدرك كل ذلك بمعنى واحد، وهو معنى يُعلم ولا فرق.

وأمَّا الإذنُ لنبيٍّ حسن الصوت، فهو من الإذن بمعنى القبول، كما يأذن الحاجب للمأذون له في الدُّخول، وليس من الأُذن التي هي الجارحة، ولو كان ما تظنون لكان بصره للمبصرات، وسمعه للمسموعات محدثًا، ولكان غير سميع حتى سمع، وغير بصير حتَّى أبصر، ولم يدرك حتى أدرك. وحاشا لله من هذا، فكل هذا بمعنى العلم، ولا مزيد.

فإن قيل: فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: ٦٨].

قلنا: نعم. وخلق الله تعالى: فعلٌ له محدَث، واختياره تعالى هو خلقه لا غيره.

وليس هذا من«يسمع» و«سمع» و«يرى» و«يدرك» في شيء، لأنَّ معنى كل هذا ومعنى العلم سواء. ولا يجوز أن يكون معنى«يخلق ويختار» معنى العلم.

وأمَّا العفوُّ، والغفور، والرحيم، والحليم، والملك، فلا يقتضي وجود شيء من هذا وجود مرحوم معه، ولا معفوٍّ عنه، مغفور له معه، ولا مملوك مرحوم عنه معه، بل هو تعالى: رحيم بذاته، عفوٌّ بذاته، ملك بذاته، مع النص الوارد بأنه تعالى كان كذلك، وهي أسماء أعلام له عزَّ وجل.

فإذا ذكروا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «ما بينهم وبين أن يروه إلاَّ رداء الكبرياء على وجهه لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»(١).

ففي هذا الخبر إبطال لقولهم، لأن البصر منته ذو نهاية وكل ذي نهاية محدود، وكل محدود محدث، وهم لا يقولون هذا، ومعناه: أن البصر قد يستعمل في اللغة بمعنى الحفظ.

قال النابغة(٢):

رأيتك ترعاني بعين بصيرة

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٦١) ح (١٧٩)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٩٩) ح (٢٦٦)، وابن ماجه في سننه (١/ ٧٠) ح (١٩٥)، وأحمد في مسنده (٤/ ٤٠٠) ح (١٩٦٠٢)، والسنة لعبد الله بن أحمد ابن حنبل (٢/ ٤٦٢) ح (١٠٤٨).

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري أبو أمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، شعره كثير، جمع بعضه في «ديوان» ط (الأعلام ٣/ ٥٤، ٥٥) وشرح شواهد المغني ٢٩.

فمعنى هذا الخبر: لو كشف تعالى الستر الذى جعل دون سطوته لأحرقت عظمته ما انتهى إليه حفظه ورعايته من خلقه. وكذلك قول عائشة ﵂: «الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات»[1]. إنما هو بمعنى: أنَّ علمه وسع كل ذلك: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [سورة طه: ٧].

ثم نزيد بيانًا بعون الله تعالى فنقول: إنَّ قولكم لا يُعقل سميع إلا بسمع، ولا بصيرٌ إلا ببصر» فإن كان هذا صحيحًا يوجب أن يقال: إنَّ لله تعالى سمعًا وبصرًا فإنه لا يعقل من له مكر إلاَّ وهو ماكر، ولا من كان من الماكرين إلا وهو ماكر، ولا يعقل أحد ممن يستهزئ إلا وهو مستهزئ، ولا يعقل أحد ممن يكيد إلا وهو كيَّاد، ولا يعقل أحد ممن له كيد ومكر إلا وهو كيَّادٌ وماكر، ولا خادع إلاَّ ويسمى: الخادع.

ولا يعقل من نَسِيَ إلاَّ وهو ناس وذو نسيان، وهذا هو الذى لا سبيل إلى أن يوجد فى العالم خلافه. وقد قال تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [سورة الطارق: ١٦].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [سورة النساء: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [سورة النمل: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٧٩].

فيلزمهم إذا سمَّوا ربّهم ووصفوه من طريق استدلالهم وقياسهم وما شاهدوه فى الحاضر عندهم أن يسمّوه ماكرًا، فيقولون: يا ماكر ارحمنا، ويسمّوا بينهم: «عبد الماكر»، وكذلك القول فى الكيّاد والمستهزىء، والخدّاع، والناسى، والساخر. وإلاَّ فقد تناقضوا وتلاعبوا بصفات ربهم تعالى وبدينهم.

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٢٦٨٩) ح (٦٩٥١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٨٢) ح (١٥٠١٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ٢٦٨) ح (٥٦٥٤)، وابن ماجه في سننه (١/ ٦٧) ح (١٨٨)، وأحمد في مسنده (٦/ ٤٦) ح (٢٤٢٤١)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٤٣٨) ح (١٥١٤): موقوفًا على عائشة.

فإن قالـوا: هذه الصفات ذمٌّ وعيب، وإنما نصـفه عزَّ وجل بصفـات المدح؛ لزمهم مصيبتان عظيمتان، إحداهما: إطلاقهم أنَّ الله عزَّ وجل أخبر عن نفسه فى هذه الآيات بصفات الذَّم والعيب، وهذا كفر.

والثانى: أن يصفوا ربَّهم بكل صفة مدح وحمد فيما بينهم، وإن لم يأت بها نصٌّ، وإلا فقد تناقـضوا وقصَّروا، فيـصفوه بأنه عاقل، وأنه شجـاع، جلد، سخى، حسن الأخلاق، نزيه النفس، تام المروءة، كامل الفضائل، ذو هيئة، نبيل، نعم المرء.

ويقولون: أنَّه تيَّاهٌ قياسًا على أنه تعالى: جبّارٌ، متكبر.

ويقولون: إنه مستكبر، فهو والمتكبر فى اللغة سواء. وذو تيه وعجب، وزهو، ولا فرق بين هذا وبين المكر والكبرياء. فإن فعلوا هذا خرجوا عن الإسلام بالإجماع إلاَّ أن يعتـذروا بشدَّة الجهل وظلمـته وعمـاه، وأن يفروا عن ذلك، ويتركـوا ما دانوا به من تسمـية الله تعالى ووصفـه بأنَّ له سمعًا وبصـرًا، وسائر ما وصفـوه تعالى به بآرائهم الفاسدة ممّا لم يأت به نص، كقولهم: قديم، ومتكلم، ومريد، وأن له تعالى إرادة لم تزل، وسائر ما اجترءوا عليه بغير برهان من الله عزَّ وجل.

وأيضًا: فإنَّ هذه الصـفات التى منعوا منها لأنهـا بزعمهم صفـات ذم، فإن السمع والبصر والحياة أيضًا صفات نقصٍ لأنها أعراض دالَّة على الحدوث فيمن هى فيه.

فإن قالوا: ليست لله تعالى كذلك.

قيل لهم: ولا تلك الصـفات أيضًا إذا أطلقـتموها عليـه أيضًا صفـات ذمٍّ ولا فرق. ولقد قال لى بعـضهم: إنما قلنا: إن الله تعالى يكيد، ويستـهزئ ويمكر، وينسى، وهو خادعهم، وتشبيههم بأنه تعالى يقارضهم على هذه الأفعال منهم بجزاء يسمى بأسمائها.

فقلـت لـه: نعـم. هكـذا نقول، ولم ننازعك فـى هذا فتسـتريـح إليـه، بل قلنـا لـكم سموه تعالى: مستهزئًا، وكيَّـادًا، وخدَّاعًا، وماكرًا، وناسيًا، وساخرًا على معنى أنـه مقـارضهم على هذه الأفعال منهم بـجزاء يسمى بأسمـائها كما قلتم فى الأفـعال سواء بسواء.

وقد قلتم: إنَّ الأفعال توجب لفاعلها أسماء فعلها ولا فرق. فسكت خاسئًا. وهذا ما لا انفكاك منه. وبهذا وبما ذكرنا يعارض كل من قـال: إننا سمَّينا الله عزَّ وجل عالمًا لنفى الجهل، قـادرًا لنفى العجز، متكلمـًا لنفى الخرس، وحيًّا لنفى الموت؛ لأنهم لا ينفكون من هذا ألبتة.

وأمَّا نحن فلولا النص الوارد بـ«عليم» و«قدير»، وعالم الغيب والشهادة، وقادر على أن يخلق مثلهم، والحي لما أجاز أن يسمى تعالى بشيء من هذا أصلاً ولا يجوز أن يقال حيٌّ بحياة ألبتة.

فإن قالوا: كيف يكون حيٌّ بلا حياة؟.

قلنا لهم: وكيف يكون حيٌّ غير حسَّاس، ولا متحرك بإرادة، ولا ساكن بإرادة..؟ هذا ما لا يعقل ألبتة ولا يعرف ولا يتوهم، ولا يجرون عليه تعالى الحسَّ ولا الحركة ولا السكون.

فإن قالوا: إنَّ تسميتنا إيَّاه حكيمًا يغنى عن «عاقل» وكريمًا يغنى عن سخى وجبارًا متكبرًا يغنى عن متجبر، ومستكبر، وتياه وزاه، وقويًا يغنى عن شجاع وجلد.

قلنا: هذا ترك منكم لما أصلتموه من إطلاق السمع والبصر والحياة والإرادة وأنه متكلم. واحتجاجك: بأن من كان سميعًا لابدَّ له من سمع، ومن كان بصيرًا لابدَّ له من بصر، ومن كان حيًا لابدَّ له من حياة، ومن كان مريدًا فلابدَّ له من إرادة، ومن كان له كلام فهو متكلم فأطلقتم كل هذا على الله تعالى بلا برهان.

فإذا ناب عندكم ما ورد به النص من حكيم وقويٌّ وكريم ومتكبر وجبار عن عاقل وشجاع وسخى ومتجبر ومستكبر وتيَّاه وزاه فلم تجيزون أن تسمُّوا البارئ عزَّ وجلَّ بشيء من هذا؟ فكذلك فقولوا كما قلنا نحن إن سميعًا، وبصيرًا وحيًا، وله كلام، ويريد، يغنى عن تجويز ذكر السمع والبصر والإرادة، ومتكلم ولا فرق.

هذا على أن قولكم: إنَّ قويًا يغنى عن شجاع خطأ، فرب قوى غير شجاع، وشجاع غير قوى، وكذلك أيضًا كان الرحمن يغنى عن الرَّحيم، والخالق يغنى عن البارى وعن المصوِّر.

فإن قالوا: لا يجوز الاقتصار على بعض ما أتى به النص، ولا يجوز التعدِّى إلى ما لم يأت به النص.

قلنا لهم: قد اهتديتم، ووفقتم لرشدكم، ولقيتم ربكم تعالى بحجة ظاهرة فى أنكم لم تتعدّوا حدوده، ولا ألحدتم فى أسمائه، ولا خالفتم ما أمركم به وبالله تعالى التوفيق.

مع أنَّ الذى ألزمناهم هو ألزم لهم ما التزموه لأن بالضرورة نعلم نحن وهم أن

الفعل لا يقوم بنفسه، ولابدَّ له ضرورة من أن يضاف إلى فاعله فلابدَّ أيضًا من إضافة الفاعل إليه، على معنى وصفه بأنه تعالى فعله.

هذا ما لا يقوم فى العـقل وجود شىء من العالم بخلاف هذه الرتبـة، وقد وجدنا فى العالم أشياء كثيرة لا تحتاج إلى وصفهـا بصفة لتنفى عنها ضدَّ تلك الصفة كالسماء والأرض، لا يجـوز أن يوصف منهـا شىء بالبصـر لنفى العـمى، ولا بالعـمى لنفى البصر، فإذا لم نضطر إلى ذلك فى وصف الأشياء فيما بيننا بطل قياسهم البارى تعالى على بعض ما فى العالم، وكـان إطلاق شىءٌ من جميع الصفات على خـالق الصفات والموصوفين أبعد وأشد امتناعًـا إلاَّ بما سمَّى به نفسه فَنُقِرُّ بذلك، وندرى أنه حق، ولا نتعدَّاه إلى مـا سواه. أفلا يستحى من التـزم إذا وجد أشياء فى العـالم توصف بالحياة لنفى الموت، وبالبصر لنفى العـمى، فأجرى قياسه هذا الفـاسد على ربه تعالى من أن يسميه مستـهزئًا وكيَّادًا، وقد قال تعالى «إنه يستهزىء ويكيـد» فهلاَّ إذ وفقه الله تعالى للإمساك عن تصريف الفعل ها هنا جـرى على ذلك التوفيق فلم يزد على ما نص الله تعالى عليـه من سميع وبصـير وحى شيـئًا أصلاً؟ ولكنَّ التنـاقض سهل على من لم يعتصم بكتـاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، واستعـمل رأيه وقياسه في دينه، وفـيما يجريه على الله تعالى، نعوذ بالله من الضلال والخذلان. وبهذا يبطل إلزام من أراد من المعتزلة إلزامنا أن نسمى الله تعالى مسيئًا لخلقه السيئات، وشرًا لخلقه الشرور.

قال أبو محمد: وقد شغب بعضهم فيما ادَّعوه أنَّ كل صفة أضافوها إلى الله تعالى فهو غير سائر صفاته بـأنّ الله تعالى موصوف بأنه لا يعلم نفسه، ولا يوصف بالقدرة على نفسه.

قالوا: فلو كان العلم والقدرة واحدًا لجريا فى الإطلاق مجرى واحدًا.

قال أبو محمد: وقد بينا بطلان هذا فى كلامنا قبل بعون الله عزَّ وجل.

ونزيد بعون الله تعالى بيانًا فنقول، وبه نتأيد:

إنَّ التغـاير إنَّما يقع فى المعلومات، والمقدورات، لا فى القـادر ولا فى العالم، ولا شك عندنا وعندهم فى أنَّ «العليم» و«القدير» -واحدٌ، وهو تعالى «عليم بنفسه»، ولا يقال عندهم قدير على نفسه، فـإذا لم يوجب هذا الحكم أن يكون القدير غير العليم، فهو غير موجب أن يكون العلم غير القدرة بلا شك.

ثم نقول لهم: أخبرونا عن علم الله تعالى بحياة زيد قبل موته، وبإيمانه قبل كفره، هل هو العلم بموته وكفره أو هو غير العلم بذلك..؟.

فإن قالوا: إنَّ العلم بموت زيد هو غير العلم بحياته، وعلمه بإيمانه هو غير علمه بكفره، لزمهم تغاير العلم، والقول بحدوثه، وهم لا يقولون هذا.

فإن قالوا: علمه تعالى بإيمان زيد هو علمه بكفره، وعلمه بكفره هو علمه بإيمانه، وعلمه بحياة زيد هو علمه بموته.

قيل: فإنَّ تغاير المعلوم تحت العلم لا يوجب تغاير العلم في ذاته عندكم، فمن أين أوجبتم أن تغاير المعلوم والمقدور موجب لتغاير العلم والقدرة..؟.

والحقيقة من كل ذلك: أنه لا حقيقة أصلاً إلاَّ الخالق تعالى وخلقه، وأنَّ كل ما نصَّ الله تعالى عليه من وصفه لنفسه ومن أسمائه فلا يحل لأحدٍ أن يخبر عنه تعالى إلاَّ به، ولا أن يسميه عزّ وجل إلاَّ به.

ونعلم أنَّ المراد بكل ذلك وأن كل ما نص الله عز وجل عليه من أسمائه وما أخبر به تعالى عن نفسه فهو حق ندين الله تعالى عز وجل بالإقرار به.

ونعلم أنَّ المراد بكل ذلك هو الله تعالى لا شريك له، وأنها كلّها أسماء يعبَّر بها عنه تعالى، ولا يرجع منها إلى شيءٍ غير الله ألبتة. تعالى الله أن يكون معه شيء آخر غيره.

وقد أقرَّ بعضهم بحضرتي أن مع الله تعالى سبعة عشر شيئًا متغايرة، كلها قديم لم تزل، وكلها غير الله تعالى. ورأيت في كتاب لبعضهم: أنها خمسة عشر، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وذكروا أن تلك الأشياء هي: السمع، والبصر، واليد، والوجه، والكلام، والعلم، والقدرة، والإرادة، والعزة، والرحمة، والأمر، والعدل، والحياة، والصدق.

قال أبو محمد: لقد قصروا من طريق النص ومن طريق العقل أيضًا عن أصولهم فأين لهم عن النفس، والجلال، والإكرام، والجبروت، والكبرياء، واليدين والأعين، والأيدي، والقدم، والجنب. والقوة..؟.

فهذه كلها منصوص عليها كالعلم والقدرة، وأين هم عن: الحلم من حليم والكرم من كريم، والعظمة من عظيم، والتوبة من تواب، والهبة من وهّاب، والقرب من

قـريب، واللطف من لطيف، والسـعـة من واسع، والشكر مـن شاكـر، والمجـد من مجـيد، والودّ من ودود والقيـام من قيوم..؟ - وهذا كثـير جداً ويتجـاوز أضعاف الأعداد التى اقتصروا عليها بتحكيمهم بالضلال والإلحاد فى أسمائه عزّ وجل.

وقد زاد بـعضهم فـيمـا ادعوه من صـفات الذات: الاسـتواء، والتكليم، والـقدم والبقاء.

ورأيت للأشـعرى فى كـتاب المعـروف بالموجـز، أن الله تعالى إذ قـال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة الطور: ٤٨].

إنما أراد عينين. وبالجمـلة فكل من لم يخف الله عزّ وجل فيمـا يقول، ولم يستح من الباطل لم يبـال بما يقول. وقـد قلنا: إنه لم يأتِ نص بلفظ الصفـة قط بوجه من الوجوه لأن الله تعالى أخبرنا بأن علمًا وقوة، وكلامًا، وقدرة، وهذا كله حق لا يرجع منه إلى شيء غير الله تعالى أصلاً. وبه نتأيد.

قال أبو مـحمد: ويقال لهم: إنما سـمى الله تعالى «عليمًا» لأنّ له علمًـا، وحكيمًا لأن له حكمة، وهكذا فى سـائر أسمائه. وادّعى أن الضرورة توجب ألاّ يسـمّى عالمًا إلا من له علم، وهكذا فى سائر الصـفات إذا قستم الغائب بـزعمكم تريدون الله عزّ وجل على الحاضر منكم، فبالضرورة ندرى أنه لا علم عندنا إلاّ ما كان فى ضمير ذى خواطر وفكر تعرف به الأشياء على ما هى عليه.

فـإن وصفـتم ربكم تعـالى بذلك ألحـدتم ولا خلاف فى هذا مـن أحد، وتركـتم أقـوالكم، وإن منعـتم من ذلك: تركـتم أصلـكم فى اشـتـقـاق أسمـائـه تعـالى مـن صفات فيـه.

وأيضًا: فإنّ حكيـمًا، وعليمًا، ورحـيمًا، وقديرًا، وسائر مـا جرى هذا المجرى لا يسمى فى اللغة إلاّ نعوتًا وأوصافًا، ولا تسمّى أسماء ألبتة.

وأما إذا سمى الإنسـان حكيمًا أو حليمًا أو حـيًا، وكان ذلك اسمًا له فـهى حينئذ أسماء أعلام غـير مشتقة بلا خلاف من أحد. وكل هذه فـإنما هى لله عزّ وجل أسماء بنص القرآن، ونص السنة والإجماع من جميع أهل الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [سورة الإسراء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [سورة الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا مائة إلاَّ واحدًا، مَنْ أحْصَاها دَخَلَ الجنَّة، إنَّه وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»(١).

ولم يختلف أحدٌ من أهل الإسلام فى أنها أسماء لله تعالى، ولا فى أنها لا يقال: إنها نعوت له عزَّ وجل، ولا أوصاف لله، ولو وجد فى المتأخرين من يقول ذلك لكان قولاً باطلاً، ومخالفًا لقول الله تعالى ولا حجة لأحد فى الدين دون رسول الله ﷺ. فإذ لا شكَّ فيما قلنا، فليست مشتقة من صفة أصلاً.

ويقال لهم: إذا قلتم إنَّها مشتقة، فقولوا لنا: من اشتقَّها..؟.

فإن قالوا: إنَّ الله تعالى اشتقها لنفسه.

قلنا لهم: هذا هو القول على الله تعالى بالكذب، الذى لم يخبر به عن نفسه وَقَفَوْتُم فى ذلك ما لم يأتكم به علم.

وإن قالوا: إن رسول الله ﷺ اشتقها.

قلنا: كذبتم على رسول الله ﷺ. ولقد سمَّى الله بها نفسه قبل أن يخلق رسوله ﷺ، أوحى بها إليه فقط. فصحَّ يقينًا أن القول بأنها مشتقة فرية على الله تعالى، وكذب عليه، ونعوذ بالله من ذلك، وصح بهذا البرهان الواضح أنه لا يدل حينئذ

(١) صحيح البخاري (٢/ ٩٨١) ح (٢٥٨٥)، وح (٦٩٥٧)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٨٧)، ح (٨٠٧)، والترمذي في السنن (٥/ ٥٣٠) ح (٣٥٠٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٨٤) ح (١١٢٣٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ٣٩٣) ح (٧٦٥٩)، وابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٦٩) ح (٣٨٦٠)، قال النووي: ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين وإنما مقصود الحديث أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الأخبار بحصر الأسماء، ويؤيده قوله ﷺ في حديث ابن مسعود ... أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك. أو استأثرت به في علم الغيب عندك ... فتح الباري (١١/ ٢٢٠).

«عليم» على «علم» ولا «قـدير» على «قـدرة»، ولا «حي» على «حيـاة». وهكذا في سائر ذلك.

قال أبو محمد: وإنما قلنا بالعلم، والقدرة، والقوة، والعِـزَّة، بنصوص أخر يجب الطاعـة لها، والقول بهـا، ووجدنا المتـأخرين من الأشـعرية كـالباقلانـي وابن فورك وغيرهما قالوا: إنَّ هذه الأسماء ليست أسماء لله تعالى ولكنها تسميات له، وأنه ليس لله إلا اسم واحـد، لكنه قول إلحـاد ومـعارضـة لله عزَّ وجل بالـتكذيب التي تلونا، ومخالفـة لرسول الله ﷺ، فيـما نصَّ عليه من عـدد الأسماء، وهتك لإجـماع أهل الإِسلام عامِّهم، وخاصِّهم، قبل أن تحدث هذه الفرقة.

فصل

فيما أحدثه أهل الإسلام في أسماء الله عزّ وجل القديم

قال أبو محمد: وهذا لا يجوز أن يسـمى عزّ وجل بما لم يسمِّ به نفـسه، لأنه لم يصحَّ به نصٌّ ألبتَّة. وقد قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [سورة يس: ٣٩].

فصح أن القديم من صفات المخلوقين، فـلا يجوز أن يسمَّى الله تعالى بذلك، وإنما يعـرف القديم في الـلغة من القـدمـية الأزليـة، أي أن هذا الشيء أقـدم من هذا بمدة محـصورة، وهذا منفيٌّ عن الله عزَّ وجل. وقد أُغـنِي الله عزّ وجل عن هذه التسمـية بلفظـة «أوّل». فهـذا هو الاسـم الـذي لا يشاركـه تعالـى فيـه غـيـره، وهو معنى أنه لم يـزل.

وقد قلنا بالبـرهان: إن الله لا يجوز أن يسمَّى بالاستـدلال، ولا فرق بين من قال: إنه يسمّى ربَّه تعالي جسمًا إثباتًا للوجود ونفيًا للعدم، وبين من سمّاه «قديمًا» إثباتًا لأنه لم يزل، ونفيًا للحدوث، لأن كلا اللفظين لم يأت به نص.

فإن قال: من سماه جسمًا ألحد. لأنه جعله كالأجسام.

قيل له: ومن سمَّاهُ قديمًا قد ألحد في أسمائه، لأنه جعله كالقدماء.

فإن قيل: ليس في العالم قدماء. أكذبه القرآن بما ذكرنا. وأكذبته اللغة التي بها نزل القرآن، إذ يقول كل قائل في اللغة: هذا الشيء أقدم من هذا، وهذا أمر قديم، وزمان قديم، وشيخ قديم، وبناء قديم. وهكذا في كل شيء.

وأمَّا نفى خلق الإيمان فهذا أعجب ما أتوا به. وهل الإيمان إلا فعل المؤمن، الظاهر منه، يزيد وينقص، ويذهب ألبتة، وهو خلق الله تعالى..؟ وهذه صفات الحدوث نفسها.

فإن قالوا: إنَّ الله تعالى هو المؤمن.

قلنا: نعم هو المؤمن المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور.

فأسماؤه بذلك أعلام، لا مشتقّة من صفات محمولة فيه عزَّ وجل. تعالى الله عن ذلك. إلاَّ ما كان مشتقًا من فعل محدث - فهو ظاهر كالخالق والمصوّر.

فإن قلتم: إنها صفات لم تزل لربكم أنه المصور بتصوير لم يزل، فهذا قول أهل الدّهر مجرّدٌ. وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: وقال بعضهم: إنَّ قولنا سميع بسمع، بصير ببصر، حيٌّ بحياة - لا يوجب تشابهًا، ولا يكون الشيء شبهًا للشيء إلا إذا ناب منابه، وسدَّ مسدَّه.

قال أبو محمد: وهذا كلام فى غاية السخافة لأنه دعوى بلا برهان، لا من لغة، ولا من شريعة، ولا من طبيعة، وما اختلفت قط اللغات، ولا الطبائع، ولا الأمم فى أنَّ الشُّبهة بين المشبهات إنما هو بصفاتها فى الأجسام وبذواتها فى الأعراض. وأما النص فإنَّ الله تعالى يقول:

﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨].

فليت شعرى هل قال ذو مسكة عقل: إن الحمير، والكلاب، والخنافس تنوب منابنا، وتسدُّ مسدَّنا..؟ وقال تعالى حاكيًا عن الأنبياء عليهم السلام، أنهم قالوا للكفار: ﴿ **إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ [سورة إبراهيم: ١١].

فهل قال قط مسلم: إن الكفار ينوبون عن الأنبياء عليهم السلام، ويسدّون مسدَّهم..؟.

وقال تعالى: ﴿ **كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ [سورة الرحمن: ٥٨].

فهل قال ذو مسكة عقل: إن الياقوت ينوب مناب الحور العين، ويسدُّ مسدَّهم...؟

ومثل هذا فى القرآن كثير جدًا، وفى كلام كلِّ أمة. والعجب أنهم بعد أن أتوا بمثل هذه العظيمة نسوا أنفسهم فجعلوا المتشابه فى بعض الأحوال يوجب شرع الشرائع

قياسًا، وهذا دين لم يأذن به الله تعالى، فهم أبدًا فى الشىء وضده، والبناء والهدم. ونعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو محمد: وحقيقة التماثل هو: أنَّ كل جسمين اشتبها فإنما يشتبهان بصفة محمولة فيهما، أو بصفات فيهما، وكل عرضين فإنما يشتبهان بوقوعهما تحت نوع واحد كالحمرة والصفرة والخضرة وهذا أمر يدرك بالعيان وأول الحس والعقل. وبالله تعالى التوفيق.

الكلام فى الحياة

قال أبو محمد: قال قائلون: الاستدلال أوجب أن البارى تعالى حىٌّ، لأن الأفعال الحكيمة لا تقع إلاَّ من الحى، وأنه لا يعقل إلاَّ ميّت أو حىّ، فلما أبطل إمكان وقوع الفعل من الميت، صحَّ وقوعه من الحى ولابدَّ.

ثم انقسم هؤلاء قسمين، فطائفة قالت: هو تعالى حىٌّ لا بحياة، وقال آخرون بل هو تعالى حى بحياة.

واحتجت طائفة بأن قالت: لا يعقل حىٌّ إلاَّ بحياة. ولم يكن الحىُّ حيًا، إلاَّ لأن له حياة، ولولا ذلك لم يكن حيًّا. ولو جاز أن يكون حيًا لا بحياة لجاز أن تكون حياة لا لحى.

وقال آخرون: لم يكن الحىُّ حيًا لأن له حياة، لكن لأنه فاعل قادر، عالم فقط، إذ لا يكون العالم القادر إلاَّ حيًّا.

قال أبو محمد: وكلا القولين فى غاية الفساد، لأن اتفاق الطائفتين على أن سمّوا ربهم حيًّا من طريق الاستدلال، إما لنفى الموت، والجماد عنه، وإمّا لأنه فاعل قادر، عالم. ولا يكون الفاعل العالم القادر إلا حيًّا؛ يلزمهم أن يطردوا استدلالهم هذا، وإلاَّ فهم متناقضون، وذلك أنه يلزمهم أن يقولوا: إنه تعالى جسم، لأنهم لم يعقلوا قط فاعلاً، ولا حكيمًا، ولا عالمًا، ولا قادرًا إلا جسمًا فإذا لم يكن هذا دليلاً علي أنه جسم فليس دليلاً علي أنه حى.

وأيضًا: فإن اتفاقهم علي ما ذكرنا موجب عليهم أن يطردوا استدلالهم، وإلاَّ كانوا مناقضين مبطلين لاستدلالهم، وذلك يوجب علي من قال: حىٌّ لا بحياة أن يطردوا

استدلالهم، وإلاَّ فهو فاسد، لأنه لا يكون العالم القادر فيما بيننا إلاَّ ذا حياة، ولا يكون حيًا إلاَّ بحياة - لا يعقل غير هذا أصلاً.

ويقال لهم: ما الفرق بينكم وبين من عكس قولكم فقال: إذا كان الحيّ لا يجب أن يقال له حي من أجل أنه حي، ولا أنه إذا كان حيًّا وجب أن يكون له حياة، ولا أنه سمَّى الحيَّ حيًّا لأن له حياة - فكذلك لم يجب أن يكون الفاعل فاعلاً لأنه حي لكن لأن له فعلاً فقط، ولا وجب أن يكون الفاعل فاعلاً لأنه قادر عالم، لكن لأن له فعلاً، وكذلك المؤلف، لم يسمَّ مؤلفًا لأن فيه تأليفًا ولا يسمَّى الحكيم حكيمًا لإحكامه الفعل، ولا وجب المؤلف أن يكون محدثًا للتأليف الذى فيه.

هذا، على أنَّ من قال بعض هذه القضايا فهو أصحّ قولاً ممن قال: إن كان الحى حيًّا لا يقتضى بذلك الاستدلال أن يكون له حياة، لأننا لم نجد قط حيًّا إلاَّ بحياة، ولا توهمنا ذلك إلاَّ بالفعل، ولا يتشكل فى العقل ألبتة، ولا يدخل فى الممكن بدليل، وقد وجدنا العنكبوت والنحلة والخطاف تحكم أفعالها وبناءها بالطين والشَّمع مسدَّسًا على رتبة واحدة بالنسج، ثم لا يجوز أن يسمَّى شيءٌ منها حكيمًا.

فإن قال: إنما أقول أنه حي استدلالاً بأنه لا يموت، والحي هو الذى لا يموت، كان قد أتى بأسخف قول، وذلك يلزمه أن يقول: إننا لسنا أحياء لأننا نموت، وأنه لا حيَّ فى العالم، لأنَّ من قول هذا القائل: إنَّ الملائكة تموت، فليس فى العالم حيٌّ على قوله.

وقد أتى بعضهم بهذيان ظريف فقال: قد وجدنا شيئًا فيه حياة وليس حيًّا وهو يدُ الإنسان ورجله.

قال أبو محمد: ولقد كان ينبغي لمن هذا مقداره من الجهل أن يتعلم قبل أن يتكلم. أما علم الجاهل أن الحياة إنما هي للنفس لا للجسد، وأن الحيَّ إنما هو النفس لا الجسد؟ أما سمع قول الله تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[سورة الحج: ٤٦].

وليت شعرى لو عكس عليه هذا السخف فقيل له: بل يد الإنسان حيَّة ولا حياة فيها، بماذا كان ينفصل من هذا الجنون المطابق لجنونه..؟

ثم إذ بطل قول هؤلاء فنقول بحول الله تعالى وقوته للطائفة الأخرى التى قالت:

إنه تعالى حى بحياة استدلالاً بالشّاهد: ما الفرق بينكم وبين من قال: إنه تعالى جسم لأن الأفعال لا تقع إلاَّ من جسم؟ فإنّه على أصولكم لا يعقل إلاَّ جسم وعرض فلما بطل إمكان الفعل من العرض، صحَّ وقوعه من الجسم فقط ولابد. ولما صحَّ أن العالِم لا يكون إلاَّ جسمًا ذا ضمير ضرورة صحَّ أنه تعالى جسم ذو ضمير. ولما صحَّ أنه قادر لا يكون إلاَّ جسمًا صحَّ أنه جسم، فبأى شيء راموا الانفصال به عكس عليهم مثله سواء بسواء في استدلالهم، وما التزموه لزمهم.

فإن قالوا: إنَّ الله تعالى أخبر أنه حى، ولم يخبر أنه جسم.

قلنا لهم وبالله تعالى التوفيق: وإنَّ الله تعالى لم يخبر بأن له حياة.

فإن قالوا: إن الحى يقتضى أن له حياة.

قلنا لهم: والحى يقتضى أنه جسم، وهكذا أبدًا.

فإن قالوا: إنه تعالى قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[سورة الفرقان: ٥٨] فوجب أن يكون له حياة.

قيل لهم: وإن وجب هذا فقال تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾[سورة البقرة: ٢٥٥].

فقولوا: إنه تعالى يقظان.

فإن قالوا: لم ينصَّ تعالى على أنه يقظان.

قيل لهم: ولا نصَّ على أن له حياة.

فإن قالوا: الحىُّ يقتضى حياة.

قيل لهم: ومن ليس نائمًا، ولا وسنان فهو يقظان. ولا فرق.

ويقال لهم: أخبرونا ماذا نفيتم عنه تعالى بإيجاب الحياة له..؟ أنفيتم عنه بذلك الموتَ المعهود والمواتية المعهودة، أم موتًا غير معهود، ومواتيةً غير معهودة..؟ ولا سبيل إلى قسم ثالث.

فإن قالوا: ما نفينا عنه إلاَّ الموت المعهود، والمواتية المعهودة.

قلنا لهم: إنَّ الموت المعهود والمواتية المعهودة، لا ينتفيان ألبتة إلاَّ بالحياة المعهودة، التى هى الحسُّ والحركة الإراديان. وهذا خلاف قولكم، ولو قلتموه لأبطلنا قولكم بما أبطلنا به قول المجسمة.

وإن قال: ما نفينا عنه تعالى إلاَّ موتًا غير معهود ومواتية غير معهودة.

قلنا لهم وبالله تعالى التوفيق: هذا لا يُعقل، ولا يُتوهم، ولا قام به دليل ولا يجوز أن ينتفى ما ذكرتم بحياة يقتضيها اسم الحى المعقول، وهكذا نقول فى قولهم: سميناه تعالى سميعًا لنفى الصمم، وبصيرًا لنفى العمى، ومتكلمًا لنفى الخرس.

قلنا لهم: هل نفيتم بذلك كله الخرس المعهود، والصمم المعهود، والعمى المعهود أم صممًا لا يعهد، وعمى غير المعهود، وخرسًا غير المعهود؟.

فإن قالوا: نفينا المعهود من كلّ ذلك.

قلنا: إنَّ الصمم المعهود لا ينتفى إلا بالسمع المعهود، الذى هو بأذن سالمة، والعمى المعهود لا ينتفى إلاَّ بالبصر المعهود، الذى هو حدقة سالمة، والخرس المعهود لا ينتفى إلاَّ بالكلام المعهود الذى هو صوت من لسان وحنك وشفتين.

فإن قالوا: بل نفينا من كلٍّ من ذلك غير المعهود.

قلنا: هذا لا يعقل، ولا يتوهم، ولا يصح به دليل، ولا ينتفى بما أردتم نفيه به، وأيضًا: فإنَّ البارى تعالى لو كان حيًا بحياة لم يزل، وهى غيره لوجب ضرورة أن يكون تعالى مؤلفًا مركبًا من ذاته وحياته، وسائر صفاته ولكان كثيرًا لا واحدًا، وهذا إبطال الإسلام، ونعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو محمد: وأما قولهم: إنما خاطبنا الله بما نعقل، ودعواهم أن فى بديهة العقل: أن الفاعل لا يكون إلا عالمًا بعلم هو غيره، حيًّا بحياة هى غيره، قادرًا بقدرة هى غيره، متكلمًا بكلام هو غيره، سميعًا بسمع هو غيره، بصيرًا ببصر هو غيره.

فإنا نقول - وبالله تعالى التوفيق: إن هذه القضية كما ذكروا، ما لم يقم برهان على خلاف ذلك. ثم نسألهم: هل عقلتم قط، أو توهمتم نارًا محرقة تنبت فى الشجر المثمر..؟ وهذه صفة جهنم التى إن أنكرتموها كفرتم.

وهل عقلتم قط طيرًا حيًّا يؤكل دون أن يموت، أو يعانَى بنار؟ وهذه صفة الجنة التى إن أنكرتموها كفرتم. ومثل هذا كثير، وإنما الحق ألا نخرج عما عهدناه؛ وما عقلناه، إلاَّ أن يأتى برهان.

فإن قنعوا بهذا القدر من الدَّعوة، فليقنعوا بمثل هذا من المجسمة، إذ قالوا: إنما

خاطبنا الله تعالى بما نفهم ونعقل، لا بما لا نعـقل، وقد أخبرنا تعالى أنه له عينًا ويدًا ووجهًا، وأنه ينزل في ظلل من الغمام.

قالوا: فكل هذه محـمول على ما عقلنا من أنها جوارح وحـركات، وأنها جسم، واقنعوا به منهم أيضًا إذ قالوا: ببديهة العقل وأوله عرفنا، ووجب ألا يكون الفاعل إلا جسمًـا فى مكان وبضرورة العقل علمنا: أنه لا شىء إلا جسـم وعرض، وما لم يكن كذلك فهو عدم، وإن لم يكن عرضًا فهو جسم. والبارى تعالى ليس عرضًا فهو جسم ولابدَّ. واقنعوا بمثل هذا من المعتزلة، إذ قـالوا فى إبطال الرؤية بضرورة العقل: علمنا أنه لا يرى إلا جسم ملون، وما كان فى حيـز، وإذ قالوا بضرورته وبديهته، علمنا أنّ كلّ من فعل شيئًا فإنما يوصف به، وينسب إليه؛ فلو أنه تعالى خلق الشرَّ والظلم لنسبا إليه، ووصف بهما، واقنعوا بمثل هذا من الدَّهرية، إذ قالوا: بضرورة العقل علمنا أنه لا يكون شىء إلاَّ من جسم.

قـال أبو مـحـمـد: وكل طائفـة من هذه الطوائف تدَّعى الـباطل على الـعقـول. والصحيح من هذا، والحـسبة فيه: هو أن كلَّ من ادَّعى فى شىء مًّا أنه يعـرف ببديهة العقل، وضـرورته، وأوله، أن ينظر فى تلك الدعوى، فإن كـانت ترجع إلى الحواس المشاهدة، فهى دعوى فاسدة كـاذبة، لأن العقول توجب أشياء لا تشكَّل فى الحواس، كالألوان التى يتوهـمها الأعمى، ولا يتشكلهـا بحاسة وهو موقن بهـا بضرورة عقله، لصحة الخبـر وتواتـره عليه بوجودها. وكالصوت الذى لا يتوهمه الـبتة، ولا يتشكله مَنْ وُلد وهو أصَم، وهو موقن بعقله بصحة الأصوات لتواتر الخبر عليه بصحتها. وإن كـانت تلك الدعـوى ترجع إلى مجـرَّد العـقل، دون توسط الحـواس -فهى دعـوى صادقة، وهذه الدعـاوى التى ذكرنا عن الأشعرية، والمجسمـة، والمعتزلة، والدَّهرية- فإنما غلطوا فيها، لأنهم نسبوا إلى أول العقل ما أدركوه بحواسِّهم.

وقد قلنا: إنّ العقل يوجب ولابد معرفة أشياء لا تدرك بالحواس، ولا سيما دعوى الدَّهرية، فإنهـا تعارَض بمثلهـا من أنه بضرورة العقل وأوله علـمنا أنه لا يمكن وجود جسم وعرض فى زمان لا أوّل له، وهذا هو الحق، لا دعواهم التى عوَّلوا فيها على ما شاهدوه بحواسهم فقط.

وبالله تعالى التوفيق.

وأيضًا فيقال لهم: إذا سـميتموه حيًّا لنفى الموت والمواتية عنه تعالى، وقادرًا لنفى

العجز، وعالمًا لنفى الجهل -فيلزمكم ولابد أن تسموه حسَّاسًا لنفى الخَدَر عنه، وشمَّامًا لنفى الخشم عنه، ومتحركًا لنفى السكون والجمادية عنه، وعاقلاً لنفى ضد العقل عنه، وشجاعًا لنفى الجبن عنه.

فإن امتنعوا من ذلك كانوا قد ناقضوا فى استدلالهم فى تسميتهم إيَّاه حيًّا، عالمًا، قادرًا، جوادًا.

فإن قالوا: إنه لا يجوز أن يسمَّى بشيء مما ذكرنا لأنه لم يأت به نصٌّ.

قيل لهم: وكذلك لم يأت نص بأنَّ له تعالى حياة، ولا أنه تسمَّى حيًّا، عالمًا، قادرًا لنفى أضداد هذه الصفات عنه، لكن لما جاء النص بأنه تعالى تسمَّى بالحيّ العالم القدير سميناه بذلك -ولولا النص ما جاز لأحد أن يسميَ الله تعالى بشيء من ذلك، لأنه كان يكون مشبِّهًا بخلقه، لا سيما ولفظة الحيّ تقع فى اللغة على العالِم المميز بالحقائق.

قال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة يس: ٧٠].

فأراد بالحى ها هنا: العالِم المميز بالإيمان، والمقر به.

وأيضًا: فإنهم يدَّعون أنهم ينكرون التشبيه ثم يرتكبونه أتم ركوب، فيقولون: لما لم يكن الفعَّال عندنا إلاَّ حيًّا، عالمًا، قادرًا -وجب أن يكون البارى تعالى، الفاعل للأشياء حيًّا، عالمًا، قادرًا- وهذا نصٌّ قياسهم له تعالى على المخلوقات، وتشبيهه تعالى بهم، ولا يجوز عند القائلين بالقياس أن يقاس الشيء إلاَّ على نظيره. وأما أن يقاس الشيء على خلافه من كل جهة وعلى ما لا يشبهه فى شيء ألبتة - فهذا ما لا يجوز أصلاً عند أحد، فكيف والقياس كله باطل لا يجوز..؟.

وأيضًا فإنَّ الحياة التى لا يعرف أحدٌ بالعقل حياة غيرها إنما هى الحسُّ والحركة الإرادية، ولا يعرف أحدٌ الحيَّ إلاَّ الحساسَ المتحرك بإرادة -وهذا أمر يعرف بالضرورة، فمن أنكر ذلك، فقد أنكر الحسَّ والمشاهدة والضرورة، وخرج عن أن يكلم.

فإن قال قائل منهم: «إنَّ الموات قد يتحرك» فلم يزد على أن أبان عن قوة جهله، لأنه إنما قلنا الحركة الإرادية، فإذا لم يفرق هذا الجاهل بين الحركة الإرادية والاضطرارية فينبغى أن يتعلم قبل أن يتكلم. وكل حركة ظهرت من غير حى، فليست حركة إرادية له، ولكنَّها تحريك المحرك له، إمَّا البارى تعالى، وإمَّا مَنْ دونه. ومما يبطل قولهم ضرورة: أنه إنما سمِّى تعالى حيًّا لأنه عالم قادرٌ، ووجدنا أحياء

كـثيـرة ليسـوا علمـاء، ولا قادرين كـالأطفال حين ولادتهم، وكـالنائم المستثقل، وكالمخـدورين، والجهّال المجـانين، وكضعـاف الدور، والصَّوادب، ومـا لا ينتقل عن محلّه كالوصل وغيره، وكالمريض من سائر الحـيوان -فهذه كلها أحياء ليس شيءٌ منها عالمًا ولا قادرًا، فصح ضرورة أنه لا معنـى للحياة مرتبط بالعلم والقدرة لكن الحق في ذلك: أنَّ بعض الأحيـاء عالم قادر، وليس كل حيٍّ عـالمًا قادرًا ولا سبـيل إلى وجود شيء غير حسَّاس ولا متحرك بإرادة.

فإن ذكروا المغمى عليه، فذلك عائد عليهم لأنه ليس عالمًا ولا قادرًا.

وأما الحسُّ ففيه بالضرورة، فلو جُسَّ جَسًّا قويًا لتألم، ولأخبر بذلك عند انتباه- وكذلك الحسُّ والحـركة الإرادية باقـيان لابدَّ في بعض أعضـاء المخدور والمغـمى عليه ولابدَّ- وقد بيَّنا الواجب فـي هذا وهو أنه لا يسمّى الله عزَّ وجلَّ، ولا نخـبر عنه من طريق الاستدلال باسم يشاركه فيه شيء من خلقه، ولا بخبر يشاركه شيء من خلقه، ولكن نقول: إنه تعالى لا يجهل شيئًا أصلاً، وهذه صفةٌ لا يستحقها أحدٌ دونه تعالى. ونقول: لا يغفل ألبتة، ولا يضل، ولا يسـهو، ولا ينام، ولا يتحير، ولا ينحل، ولا يخفى عليه مـتوهم، ولا يعجز عن مـسؤول عنه، ولا ينسى، وكل هذا فلا يستـحقه مخلوق دونه تعالى أصلاً.

ثم نقر بما جاء به القـرآن والسنن كما جاء لا نزيد فيـه ولا ننقص منه، ولا نُحيله، فنؤمن بأنه بخلاف المعهود فيما يقع عليه ذلك اللفظ من خلقه.

وأما لفظ الصـفة في اللغة الـعربية، وفي جـميع اللغات، فـإنها عبـارة عن معنى محمول في الموصوف بها، لا معنى للصفة غـير هذا ألبتة. وهذا أمر لا يجوز إضافته إلى الله تعالـى ألبتة إلاَّ أن يأتي نـص بشيء أخبر الله تعـالى به عن نفسـه فنؤمن به، وندري حينئذ أنه اسم علم لا مشتق من صفة، وأنه خبر عنه تعالى لا يراد به غيره عزَّ وجلَّ، ولا يرجع منه إلى سواه ألبتة. والعجب كل العجب أن يسمَّى الله تعالى حيًّا، لأنهم لم يجـدوا الفعل يقع إلاَّ مـن حيٍّ، ثم يقولون: إنه لا كـالأحيـاء فعـادوا إلى دليلهم فأفسـدوه، لأنهم إذا أوجبوا وقوع الفعل من حيٍّ ليس كـالأحياء الذين لا تقع الأفعـال إلاَّ منهم، فقد أبطلوا أن يـكون ظهور الأفعـال دليلاً على أنها من حي كـما عهدوه وإن كـان بخلاف ما عهدوه فلا ينكرون وقـوع الفعل ممن لا يسمَّى حيًّا -وإن كان بخلاف ما عهده، وقد علمنا يقينًا أن القدرة من كل قادر في العالم إنَّما هي عرض فيه، وأنَّ الحـياة في الحيِّ المعهود بضـرورة العقل عرض فيـه أيضًا، وأنَّ العلم في كل

غالم في العالم كذلك، وقد وافقونا على أن البارى تعالى بخلاف ذلك، فإذ قد بطل أن يكون هذا موصوفًا بصفة القادر فيما بيننا والعالم منا التى لولاها لم يكن العالم عالمًا والقادر قادرًا فإن الفعل فيما بيننا لا يقع إلاَّ من أهل تلك الصفة، فقد بطل ضرورة أن يسمَّى البارى تعالى باسم قادرٍ أو عالم أو حيٍّ استدلالاً بأن الفعل فيما بيننا لا يقع إلاَّ من عالم قادر، وإذ قد جوَّزوا وجود علم ليس عرضًا وحياةٍ ليس عَرَضًا، وهذا أمر غير معقول أصلاً، فلا ينكرون وجود حيٍّ بلا حياة، وسميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وكل هذا خروج عن المعهود -ولا فرق. وإنما يستجاز الخروج عن المعهود إذا جاء به نصٌّ من الخالق عزّ وجل، أو قام به برهان ضرورى، وإلا فلا. ولم يأتِ نصٌّ قط بلفظ الحياة، ولا الإرادة، ولا السمع، ولا البصر. واحتجَّ بعضهم فى معارضة من قال: إن الحيَّ لا يكون إلاَّ حسَّاسًا متحركًا بإرادة، لأننا لم نشاهد قط حيًا إلاَّ حساسًا متحركًا بإرادة، فقال هذا المعترض: إن من اتفق ألا يرى نباتًا إلاَّ أخضر، ولا أخضر إلا نباتًا فقطع بأن كل أخضر فهو نبات فقد أخطأ.

قال أبو محمد: فأول ما يقال له: قل هذا لنفسك فى استدلالك بأنك لم ترَ قطّ فعَّالاً إلاَّ حيًا، عالمًا، قادرًا - ولا فرق.

ثم نعود بعون الله تعالى إلى بيان ما شغبوا به، مما لا يعرفون الفرق بينه وبين ما يُقطع عليه- فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إنَّ الأعراض تنقسم قسمين: **أحدهما ذاتى**، لا يتوهم بطلانه إلاَّ ببطلان حامله كالحسِّ والحركة الإرادية للحيِّ، وكذلك احتمال الموت للإنسان مع إمكان التمييز للعلوم والتصرف فى الصناعات وما أشبه هذا.

ومن هذه الأعراض تقوم فصول الأشياء وحدودها التى تفرق بينها وبين غيرها من الأنواع التى تقع معها تحت جنس واحد -فهذا القسم مقطوع على وجوده فى كل ما وقع اسم حامله عليه.

والقسم **الثاني**: غيرىٌّ وهو ما يتوهم بطلانه ولا يبطل بذلك ما هو فيه كاجترار البعير والغنم، وحلاوة العسل، وسواد الغراب؛ فإن وجد عسل مر -وقد وجدناه- لم يبطل بذلك أن يكون عسلاً، وكذلك لو وجد غرابٌ أبيض - وقد وجد - لم يبطل بذلك أن يكون غرابًا. فمثل هذا القسم لا يقطع على أنه موجود ولابدَّ أبدًا. فهذا الفرق بين ما شغب به من النبات، لأنه إن توهّم النبات أحمر أو أصفر لم يبطل أن

يسـمَّى نبـاتًا، ولكنه إنْ توهّم أن يـكون النبـات غيـر نامٍ من الأرض، ولا مـتـغـذٍّ برطوباتها، منجذبًا نحو الهواء فإنه لا يكون نباتًا أصلاً.

وأيضًا فقد قال بعـضهم: إنه قد يعرف البارى حيًّا من لا يعرفه حسَّاسًـا متحركًا بإرادة.

قيل لـه: وقد يعرفه حيًّا من لا يعرف أنَّ له حياة، وقد يعرفـه جسمًا من لا يعرفه مؤلفًـا، ولا محدثًا، وليس توهم الجـهّال ما توهموه مـن الحماقات حـجة على أهل العقول. والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: برهانٌ ضرورى، وهو أنَّ كل صفة فى العالم فهى ضرورة -ولابدَّ- عرض بين الطرفين، أو أحـد ذينك الطرفين، وإما ذات ضدٍّ فـحاملها بالضـرورة قابل للأضداد. ولا عالِم فى العلَم إلاَّ والجهل منه متـوهَّم، ولا قادر فى العالم إلاّ والعجز منه مُتوهَّم، ولا حيّ فى العـالم إلاَّ والسكون والحركة والحسُّ والحذر متـوَهَّمات كلُّها منه، وقد علمنا أنَّ الله تعالى أرحم الرّاحمين حقًّا لا مجازًا، من أنكر هذا فهو كافر، حـلالٌ دمُه ومـالُه، وهو تعالى يبـتلى الأطفـال بالجدرى، والأواكل والجن والذبحـة والأوجاع حـتى يموتوا، وبالجوع حـتي يموتوا كذلك. ويفجع الآبـاء بالأبناء، وكذلك الأمـهات، والأحـياء بعـضهم بـبعض حـتى يهلكوا ثُكلاً، ووجـدًا، وكذلك الطيـر بأولادها، وليس هذه صفة الرحمن بيننا.- فصحَّ يقـينًا أنها أسماءٌ لله تعالى سمَّي الله تعالى بها نفسه غير مشتقة من صفة محمولة فيه تعالى- وحاشا له من ذلك.

فإن قالوا: إن العالم، القادر، الحىّ، الأوَّل، الرحيم - بخلاف هذا.

قيل لـهم: صدقتـم. وهذا إبطال منكم لاستـدلالكم بالشاهد بينكـم على تسمـية البارى تعالى وصفاته.

قال أبو مـحمد: وأمَّا وصـفنا البارى تعالى بأنه أوّلٌ، حىٌّ، خـالق، فلا يلزمنا فى ذلك شيء مما ألزمناه خصـومنا؛ لأنه قد قـام البرهان بأنه خالق مـا سواه، وليس فى العالَم خالق ألبتَّة بوجهٍ من الوجوه إلاَّ البارى تعالى.

وقد قـام البرهان على أنه تعالى واحـد، لا واحد فى العالم غـيره ألبتـة بوجه من الوجوه، وكلُّ ما فى العـالم فمتكثر كثـير لا واحد، وقد قام البـرهان على أنه تعالي الأول الذى لا أوَّل فى العالم غيره، وكل ما فى العالم ينافى الأول.

وقد قام البرهان على أنه تعالى: الحق بذاته، وأنَّ كل ما فى العالم فإنما هو محقَّقٌ له تعالى. وإنما كـان حقًا بالبـارى عزَّ وجل، ولولاه لم يكن حقًّا. فهذا هو البرهان الصحيح الثابت، الذى لا يعارض ببرهانٍ ألبتة، وهذا هو نفى التشبيه.

ثم إننا ننفى عن البارى تعالى جميع صفات العالم، فنقول:

إنـه تعالى لا يجهل أصلاً، ولا يغفـل ألبتة، ولا يسهو، ولا ينام، ولا يجبن، ولا يخفى عليه متوهم، ولا يعجز عن مسئول عنه، لأننا قد بينا فيما خلا من كتابنا هذا: أنَّ الله تعالى بخلاف خلقه من كل وجه.

فإذْ ذلك كـذلك - فواجب نفى كلٍّ ما يوصف به شىء فى العـالم عنه تعالى عن المعهود.

وأمَّا إثبات الوصف أو التسمية له تعالى، فلا يجوز إلاَّ بنصٍّ. ونخبر عنه تعالى فى أفعاله عزَّ وجل فنقول:

إنه تعـالى يحيى الموتى ويميت الأحـياء، إلاّ أن يثـبت إجماعٌ فى إباحـة شىء من ذلك. ولولا الإجـماع على إبـاحة إطلاق بعض ذلك ها هنـا لما أجزناه ونقـول: إنه تعالى بكلِ شىء عليم، لم يزل كذلك، والمعنى فى هذا: أنه لم يزل يعلم أنه سيخلق الأشياء عـلى حسب هيئة كل مـخلوق منها، لا على أن الأشياء لم تزل مـوجودة فى عِلْمه، بل مـعاذ الله من هذا، ولكن نقول: لم يزل تعـالى يعلم أنه سيحـدث كل ما يكون شيئًا إذا أحدثه على ما يكون عليه إذا كان - وبالله تعالى التوفيق.

الرَّد على من سمّى الله بغير نص

قال أبـو محـمد: ونجمع إن شـاء الله تعالى ها هنا بيان الـرَّد على من أقدم على أن يسمِّي الله تعالى بغير نصٍّ لكن بما دله عليـه عقله وظنه أنه حسن ومدح، أو استـدلالاً بما سمَّى به تعالى نفسه، أو تصريفًا من ذلك، أو قياسًا على ما شاهد من خلقـه.

فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إنَّ الله تعالى سمَّى نفسه: الرحمن الرحـيم، فسمِّه أنت الرقيق من رقة النفس التى هى الرحمة، فإن قال «الرحيم» يغنى عن ذلك.

قيل له: نقضت أصلك، لأنَّ الحيَّ يغني على هذا عن أن يقال: إن له حياة.

وأيضًا: فإن الرحمن يغني عن الرحيم.

فإنه قال: قد ورد النصُّ به.

قيل له: صدقت. فلا تتعدَّ ما جاء به النص، وامنع ما سواه.

وسمّى نفسه (العليم) فسمِّه: الدَّارى، الحبر، الفهم، الذكى، العارف، النبيل فكل هذا مدح واحد فى اللغة بمعنى (عليم) ولا فرق.

وسمَّى نفسه: «الكريم». فسمِّه: السخىَّ، والجواد.

وسمَّى نفسه: «الحكيم». فسمِّه: الناقد، العاقل.

وسمَّى نفسه: «العظيم». فسمِّه: الفخم، الضخم.

وسمَّى نفسه: «الحليم». فسمِّه: المحتمل، المتأنى، الصابر، الصبور، الصبَّار.

وأخبر أنه «قريب». فسمِّه: الدانى، المجاور، المياسر.

وسمَّى نفسه: «الواسع». فسمِّه: الرَّحْب، العريض.

وسمَّى نفسه: «العزيز». فسمِّه: الرئيس.

وأخبر أنه «شاكر» و«شكور»: فسمِّه: الحامد، والحمَّاد.

وسمَّى نفسه: «القهار». فسمِّه: الظافر.

وسمَّى نفسه: «الآخر». فسمِّه: الثانى، والتالى، والخاتم.

وسمَّى نفسه: «الظاهر». فسمِّه: البادى والمعلن.

وسمَّى نفسه: «الخبير». فسمِّه: العارف والدَّارى.

وسمَّى نفسه: «الكبير». فسمِّه: الرئيس والمتقدّم.

وسمَّى نفسه: «القدير». فسمِّه: المطيق والمستطيع.

وسمَّى نفسه: «العلىّ». فسمِّه: العالى، والرفيع، والسَّامى.

وسمَّى نفسه: «البصير». فسمِّه: المعاين.

وسمَّى نفسه: «الجبَّار». فسمِّه: المتجبر، الزَّاهى، التيَّاه.

وسمَّى نفسه: «المتكبر». فسمِّه: المستكبر، المتعاظم، المتنحِّى.

وسمَّى نفسه: «البرّ». فسمِّه: الزاكى، والمواصل.

وسمَّى نفسه: «المتعالى». فسمِّه: المتعظِّم، المترفع.

وسمَّى نفسه: «الغنى». فسمِّه: الموسر، المليء، المكثر، الوافر.

وسمَّى نفسه: «الولىّ». فسمِّه: الصديق، المصادق، الموالى، الحبيب.

وسمَّى نفسه: «القوى». فسمِّه: الجلد، النجد، الشجاع، الجليد، الشديد، الباطش، البطاش.

وسمَّى نفسه: «الحىّ» وأخبر أنه له: «نَفْسًا». فسمِّه: المتحرِّك، الحسَّاس، واقطع بأن له روحًا بمعنى النفس.

وسمَّى نفسه: «السميع» «البصير». فسمِّه: الشمَّام، الذَّوَّاق.

وسمَّى نفسه: «المجيد». فسمِّه: الشريف، الماجد.

وسمَّى نفسه: «الحميد». فسمِّه: «المحمّد»، «المحمود»، «الممدوح».

وسمَّى نفسه: «الودود». فسمِّه: الوادّ، المحبّ، الحبيب، الوديد.

وسمَّى نفسه: «الصمد». فسمِّه: المصْمَت.

وسمَّى نفسه: «الحق». فسمِّه: الصحيح، الثابت.

وسمَّى نفسه: «اللطيف». فسمِّه: الخفيف.

وذكر تعالى أن له: «مكرًا» وكيدًا. فقل إنَّ له: دهاء، ومكرًا، وخبثًا وتحيُّلاً، وخدائع.

فهذا كله فى اللغة وفيما بيّنا سواء.

وسمَّى نفسه: «المبين». فسمِّه: الواضح، البابن، اللائح، البادى.

وسمَّى نفسه: «المؤمن». فسمِّه: المسلم، المصدِّق.

وسمَّى نفسه: «الباطن». فسمِّه: الخفى، الغائب، المتغيّب.

وسمَّى نفسه: «الملك» المليك. فسمِّه: «السلطان».

وصحَّ بالسنة: أنه يسمَّى «جميلاً». فسمِّه: الصبيح، الحسن.

قال أبو محمد: فإن أبى من كل هذا نقض أصله، وكذلك إن قال: إن بعض ذلك يغنى عن بعض لزمه إسقاط الحياة، لأنَّ (الحىّ) يغنى عن ذكر الحياة على هذا الأصل.

ولزمه أن يقول: إنه متكلم، لأن الكلام مغن عن ذلك.

ولزمه أيضًا: إسقاط السمع والبصر، إذا استغنى بالسميع البصير.

ولزمه أيضًا: إسقاط ما جاء به النصّ إذا كان بعضه يغنى عن بعض.

والملك يغنى عن مليك. وأَحَدٌ يغنى عـن واحد. وجبار يغنى عن متـكبر، وخالق يغنى عن البارى. وهكذا سائر الأسماء. فلم يبق إلاَّ الرجوع إلى النصوص فقط، فإذ قـد صحّ هذا يقينًا بيننـا فلا يحل أن يسـمَّى الله عزَّ وجل: القـديم، ولا الحنَّان، ولا المنَّان، ولا الفرد، ولا الدَّائن، ولا الباقـى، ولا الخالد، ولا العالم، ولا الدانى، ولا الرَّائى، ولا السـامـع، ولا المتـعلى، ولا العـالى، ولا المتـدارك، ولا الطالب، ولا الغالب، ولا الضار، ولا النافع ولا المدرك، ولا المبدىء، ولا المعيد، ولا الناطق، ولا المتكلم، ولا القادر، ولا الوارث، ولا الباعث، ولا القاهر، ولا الجليل، ولا المعطى، ولا المنعم، ولا المحسن، ولا الحكم، ولا الحـاكم، ولا الوهّاب، ولا الغـفـار، ولا المضل، ولا الهـــادى، ولا العـــدل، ولا الرضَى، ولا الصـــادق، ولا المتطوّل، ولا المتفضل، ولا المانّ، ولا الجيـد، ولا الحافظ، ولا البديع، ولا الإله، ولا المجمل، ولا المحيى، ولا المميـت، ولا المنصف، ولا بشىء لم يسمٍّ به نفسه أصـلاً، وإن كان فى غاية المدح عندنا، أو كان متصرفًـا من أفعاله تعالى إلا أن نخبر به عنه بكل هذا الذى ذكرنا على الإضافة إلى مـا نذكر مع الوصف حينئذ، والإخبار عن فـعله - فهذا جائز حينئـذ فيجـوز أن نقول: عالم الخـفيات، عـالم بكل شىء، عالم الغيب والشـهادة، غالبٌ على أمـره، غالبٌ على من طغى، أو نحـو هذا. القادر على ما يشـاء، القاهر للملوك، وارث الأرض ومن عليها، المعطى لكل ما بأيدينا، الواهب لنا كلَّ ما عندنا، المنعم على خلقه، المحسن إلى أوليائه، الحـاكم بالحق، المبدى لخلقه، المعيد له، المضل لأعدائه، الهادى لأوليائه، العدل فى حكمه، الصادق فى قوله، الراضى عمن أطاعه، الغضبـان على من عصاه، الساخط على أعدائه، الكاره لمـا نهى عنه، بديع السماوات والأرض، إله الخلق، مـحيى الأحيـاء والموتى، ومميت الأحيـاء والموتى، المنصف ممن ظلم، بانى الدنيـا وداحيـها، ومـسويّهـا، ونحو هذا، لأنّ هذا كله إخـبار عن فـعله تعالى، وهذا مباح لنا بإجماع، وهو من تعظيمه تعالى، ومن دعائـه عزَّ وجل، وليس لنا أن نسيه إلا بنص، وكذلك نقول: إن لله تعالى «كيدًا، ومكرًا، وكبرياء» وليس هذا من المدح فيـما بيننا، بل هو فـيما بيننا ذم، ولا يحـل أن يقال: إن لله تعالى عـقلاً، وشجاعة، وعفة، وذكاء، وفهمًـا ودعاء، وهذا غاية المدح فيما بيننا. فبطل أن يراعى فيـما يخبـر به عن الله تعالى مـا هو مدحٌ عندنا أو ما هو ذمٌّ عنـدنا، بل بما جاء فى النص فقط. وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: ومن البرهان على هذا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة غير واحد، من أحصاها دخل الجنة**».

فلو كانت هذه الأسماء التى منعنا منها جائز أن تطلق لكانت أسماء الله تعالى أكثر من مائة ونيف - فهذا باطل لأن قول رسول الله ﷺ «**مائة غير واحد**»[1] مانع من أن يكون له أكثر من ذلك، ولو جار كان قوله عليه السلام كذبًا، وهذا كفر ممن أجازه. وبالله تعالى التوفيق.

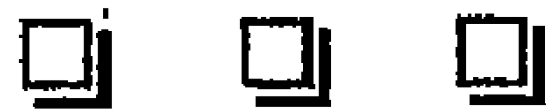
وقال تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [سورة البقرة: ٣١].

فأسماؤه بلا شك كما هى داخلة فيما علمه آدم، وتخصيص كلامه عليه السلام لا يحل، فإذ ذلك كذلك فمن الذى اشتقها من الصفات..؟.

فإن قالوا: هو اشتقها.

كذبوا على الله تعالى جهارًا، إذ أخبروا عنه بما لم يخبر به تعالى عن نفسه وهذا عظيم نعوذ بالله منه، وهذه كلها براهين كافية لمن عقل. وبالله تعالى التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

ثم الجزء الأول ويليه إن شاء الله تعالى
الجزء الثانى، وأوله: الكلام فى الوجه
واليد والعين... إلخ



(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٥/ ٥٣٠) ح (٣٥٠٦)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥٨) ح (٧٤٩٣)، ح (١٠٥٣٩)، ح (١٠٦٩٦)، والحميدي في مسنده (٢/ ٤٧٩)، ح (١١٣٠)، وأبي يعلى في مسنده (١١/ ١٦٠) ح (٦٢٧٧).

قال البيهقي: «إنما وقع التخصيص بذكرها لأنها أشهر الأسماء وأبينها معاني، وفيها ورد الخبر أن من أحصاها دخل الجنة، وفي رواية سفيان «من حفظها» وذلك يدل على أن المراد بقوله من أحصاها «من عدها»، وقيل معناه من أطاقها «بحسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها، في معاملة الرب بها، وقيل: «من عرفها وعقل معانيها وآمن بها» والله أعلم (الأسماء والصفات للبيهقي ٦).

الفهرس

القسم الثالث

القسم الرابع

الفرق الإسلامية

❑ ❑ ❑


المكتبة التوفيقية
المكتبة التوفيقية